التاريخ الإسلامي (٢)

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

التطور التاريخي للدولة الإسلامية



موسوعة
الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية
التاريخ الإسلامى

المجلد الثانى
التطور التاريخى للدولة الإسلامية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٩٥٦ موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية-التاريخ الإسلامى.
م و ت ا التطور التاريخى للدولة الإسلامية/ تأليف مجموعة من المؤلفين. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٨.
٥ ج: ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية؛ ٢).
تدمك: ٠ - ٢٢٨٣ - ١٠ - ٩٧٧.
المحتويات: ج١ - معاوية بن أبى سفيان وتأسيس الدولة الأموية.
ج٢ - العباسيون الأوائل.
ج٣ - الإسلام والمسلمون فى آسيا.
ج٤ - القدس عبر العصور.
ج٥ - المغول وعالم الإسلام.

المحتويات

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

أ. د سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة القاهرة - رئيس اتحاد المؤرخين العرب. **رئيس اللجنة**

أ. د عادل حسن غنيم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة عين شمس. **مقرر عام اللجنة**

أ. د عبد الحليم نور الدين أستاذ اللغة المصرية القديمة بكلية الآثار - عميد كلية الآثار - جامعة القاهرة - فرع الفيوم - مدير مركز الخطوط بمكتبة الإسكندرية **مقرر التاريخ القديم**

أ.د إسحق عبيد أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة عين شمس. **مقرر التاريخ الوسيط**

أ. د عصام الدين عبد الرءوف أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة. **مقرر التاريخ الإسلامى**

أ. د جمال زكريا قاسم أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة عين شمس. **عضوا**

أ. د عطية أحمد محمود القوصى أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب - جامعة القاهرة. **عضوا**

أ. د صابر دياب عميد كلية الآداب جامعة القاهرة فرع الخرطوم «سابقا» وأستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم - جامعة الفيوم. **عضوا**

أ.د رأفت عبد الحميد عميد كلية الآداب - سابقا - جامعة عين شمس، وأستاذ تاريخ العصور الوسطى. **عضوا**

مديرا التحرير: الكيميائى: أمين محمد الخضرى
المهندس: عاطف محمد الخضرى
سكرتير اللجنة: عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم
التصميم والإشراف الفنى: محيى الدين فتحى الشلودى

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

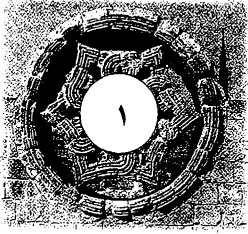
موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com



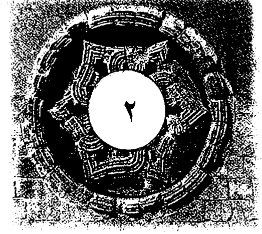
مقدمة

انتقلت الخلافة الإسلامية من حكم الراشدين إلى الأمويين، الذين ينتسبون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب، بعد استشهاد الخليفة الراشد الرابع والأخير على بن أبى طالب سنة ٤٠ للهجرة، وتنازل ابنه الحسن بن على عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان، مؤسس الدولة الأموية. ولقد بايع الناس معاوية بالخلافة عام ٤١هـ، وهو العام الذى عرف بعام الجماعة، أو سنة الجماعة، لإجماع الناس على إنهاء الصراع على الحكم بوصوله إلى معاوية وتنازل العلويين عما يدعونه حقًّا لهم فى الخلافة.

ولقد اختلفت بيعة الناس لمعاوية، فمنهم من بايعه طواعيةً واختيارا كأهل الشام، ومنهم من بايعه كرها واضطرارا كأهل العراق والحجاز. ومنهم من تقبل ما انتهت إليه الأمور فى مسألة الصراع على الحكم بين على ومعاوية، وارتضوا بالأمر الواقع مثل أهل مصر واليمن وبقية الأطراف.

ولَمَّا أصبح معاوية الخليفة الشرعى على الدولة الإسلامية، صارت المهمة الملقاة على عاتقه مهمة غاية فى الصعوبة، إذ كان عليه أن يجمع شمل المسلمين ويوحد كلمتهم، وأن يتخطى الأحداث الجسام التى وقعت وسبقت توليه الخلافة، وأن يعيد الأمن والنظام للدولة، وأن يصلح الإدارة والاقتصاد، وأن يستعيد مسيرة الفتوح الإسلامية وأمر توسعة الدولة ونشر الإسلام، وهو ما كان قد بدأ به الرسول ﷺ والصديق أبو بكر من بعده.

ولقد حكم معاوية الدولة الإسلامية مدة عشرين عامًا، استطاع بالفعل خلالها أن يحقق كل تلك المتطلبات، وأن يؤسس دولة قوية البنيان واسعة الأرجاء مزدهرة الحكم والسياسة والإدارة، منتعشة الاقتصاد، متينة الجيش والأسطول. وبذلك جعل معاوية الأمويين حكام الدولة من بعده، يكملون ما بدأه الخلفاء الراشدون من فتوح، ويواصلون ما قاموا به من جهاد، ويتوسعون بالدولة الإسلامية لتصل حدودها من حدود الصين شرقا إلى حدود الأطلسى غربا ومن غانة جنوبا إلى

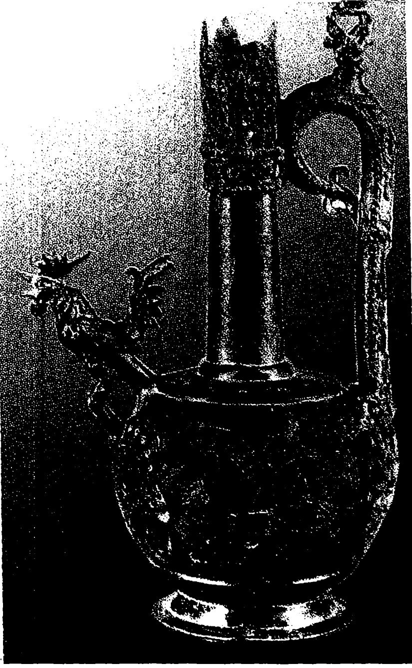


فـرغانة شـمـالاً، وتضم بين جنباتـها مزيداً مـتجـانسا من شعـوب قارات العـالم القديم المختلفة.

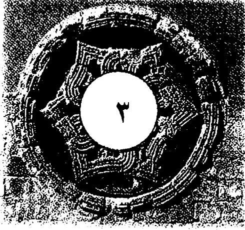
وإذا كان معاوية قد أقام الدولة الأموية فإن تأسيسها واسـتمراريتها من بعده وقع على كاهل أفراد البيت الأموى الذى انقسم إلى سفيانيين ومروانيين، وكان لكل دوره فى حكمها.

هذا وبالله التوفيق

المؤلف



إناء فضى من الدولة الأموية



معاوية أمير المؤمنين

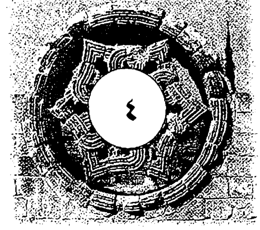
هو معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. كان أبوه أبو سفيان أحد شيوخ مكة، وزعيم قريش، وأحد كبار المقاومين للدعوة الإسلامية والمعادين للرسول ﷺ.

كان قائدا لقافلة قريش التجارية التى تمت بسببها غزوة بدر الكبرى سنة ٢ هـ/ ٦٢٤م، كما قاد المكيين فى غزوة أحد سنة ٣هـ / ٦٢٥م. وقام بتنظيم الأحلاف الذين خرجوا لحصار المدينة وفشلوا فى حصارها وهزموا فى غزوة الخندق (الأحزاب) سنة ٥هـ/ ٦٢٧م إلا أنه وفق بعد ذلك فى أن يكون زعيمًا للمعارضة المكية للنبى. وفى سنة ٧هـ/ ٦٢٩م تزوجت ابنته الأرملة، أم حبيبة، أخت معاوية من النبى ﷺ. وفى سنة ٨هـ/ ٦٣٠م ذهب أبو سفيان إلى المدينة للتفاوض مع النبى، وعندما فتح الرسول مكة فى نفس العام، استسلم أبو سفيان ودخل هو وابنه معاوية فى الإسلام آنذاك. وقد قيل أنهما قد أسلما سرًّا منذ صلح الحديبية سنة ٦هـ/ ٦٢٨م، وأنهما كانا من «الطلقاء» و«العتقاء» الذين أطلق النبى سراحهم إما فى صلح الحديبية أو عند فتح مكة، كذلك كانا من «المؤلفة قلوبهم». ولقد حسُن إسلامهما، وصار معاوية أحد الكتاب لرسول الله ﷺ، وكتب الوحى فى جملة من كتبه بين يديه. وكان واحدًا من ١٧ قرشيا كانوا يقرأون ويكتبون آنذاك.

وكانت أمه هند بنت عتبة شريفة قرشية، أسلمت عام فتح مكة، قُتل أبوها وأخوها وعمها فى معركة بدر، فأرادت الانتقام لهم، وانتهزت فرصة معركة أحُد فاستأجرت عبدًا حبشيا يقُال له وحشى لاغتيال حمزة، عم الرسول ﷺ، وقاتل والدها، فاغتاله غدرًا أثناء القتال وقامت هند ببقر بطن حمزة وإخراج كبده فمضعتها ولاكتها، فلذلك يقُال لمعاوية ابن آكلة الأكباد.

روى عن النبى ﷺ مائة وثلاثة وستين حديثًا، وروى عنه من الصحابة عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وسعيد بن المسيب. ولقد شهد معاوية مع الرسول وشارك فى غزوة حنين.

وقد أبلى بنو أمية فى حرب الردة بلاء حسنا، وسار بعضهم إلى الشام، فاشتهر أمرهم وعظم ذكرهم، ومنهم يزيد بن أبى سفيان أخو معاوية، الذى ولاه أبو بكر سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م قيادة أحد الجيوش الأربعة التى أنفذها لفتح الشام، وقد تولى معاوية قيادة طلائع جيش أخيه فى عمليات عديدة ضد البيزنطيين، وشارك معاوية فى فتح المسلمين لبيت المقدس سنة ١٦هـ/

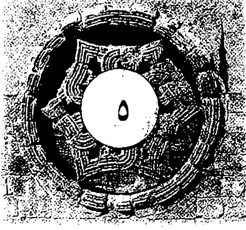


٦٣٧م. وحين توفى يزيد بن معاوية فى طاعون (عمواس) سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م، أحلَّ الخليفة عمر بن الخطاب معاوية محل أخيه على ما كان يليه من البلاد الشامية. ولما ولى عثمان بن عفان الخلافة ولى معاوية الشام كله، بعد توليه الخلافة بعامين، أى أواخر سنة ٢٥ هـ/ ٦٤٦م أو بداية سنة ٢٦هـ/ ٦٤٧م.

ولقد حكم معاوية الشام وأحكم قبضته عليه بفضل حسن سياسته وإدارته واعتماده على قواته التى كانت غالبيتها من حلف «قضاعة»، ولقد آلت قيادة قضاعة لقبيلة «كلب» التى تمكنت فى بلاد الشام من قبل الإسلام والذين كانوا فى السابق فى خدمة البيزنطيين تحت قيادة الغساسنة، وكانوا يدافعون عن حدود سوريا ضد غارات اللخميين، حلفاء الفرس الساسانيين. ولقد كانوا، قبل اعتناقهم الإسلام، مسيحيين على المذهب اليعقوبى (مذهب الطبيعة الواحدة). ووقفوا على الحياد حين وقع الفتح العربى على سوريا، إلا أنهم دخلوا بعد ذلك فى البنية العربية للدولة الإسلامية أيام ولاية معاوية على الشام، وصاروا دعامة أساسية لحكم الأمويين، وتقوت روابط الأمويين بالكلبيين حين تزوج معاوية من ميسون بنت بهدل الكلبية، وهى من عشيرة الحارث بن جندب، وهى التى أنجبت لمعاوية ابنه يزيد، الذى خلفه فى الحكم. وعلى هذا الأساس بنى معاوية حلفًا قويًّا تلاحم فيه الكلبيون مع القضاعيين مع القبائل المهاجرة إلى الشام والتى استقرت فى وسطه وجنوبه، ومع بنى كندة القادمين من أودية جنوب شبه جزيرة العرب. وقد صار قواد هذا الحلف، الذى ساند معاوية أثناء ولايته وخلافته، مالك بن بهدل وابنه حسن بن مالك.

وعن أخلاق معاوية أثناء ولايته الشام يقول صاحب الفخرى ما نصه: «..كان عاقلاً فى دنياه لبيبًا عالمًا حكيمًا حليمًا ملكًا قويًّا جيد السياسة حسن التدبير لأمور الدنيا عاقلاً فصيحًا بليغًا يحلم فى موضع الحلم ويشتد فى موضع الشدة إلا أن الحلم كان أغلب عليه. وكان كريمًا باذلاً للمال محبًّا للرياسة شغوفًا بها. كان يفضل على أشراف رعيته كثيرا فلا يزال أشراف قريش مثل عبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن ابن أبى بكر وأبان بن عثمان بن عفان وناس من آل أبى طالب يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ويقضى حوائجهم، ولايزالون يحدثونه أغلظ الحديث وهو يداعبهم تارةً ويتغافل عنهم أخرى ولا يعيدهم إلا بالجوائز السنية والصلات الجمة».

«..وكان معاوية قد بعث إلى رجل من الأنصار بخمسمائة دينار فاستقلها الأنصارى فقال لابنه: «خذها وامض إلى معاوية فاضرب بها وجهه وردها عليه». وأقسم على ابنه أن يفعل ذلك. فجاء ابنه إلى معاوية ومعه الدراهم، فقال: «يا أمير المؤمنين إن أبى فيه حدة وسرعة وقد أمرنى بكيت وكيت وأقسم علىّ وما أقدر على مخالفته». فوضع معاوية يديه على وجهه وقال: «افعل ما

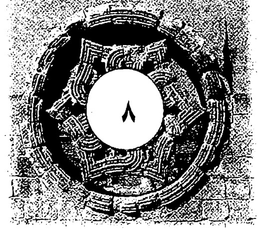


أمرك أبوك وارفق بعمك» فاستحيا الصبى ورمى بالدراهم فضاعفها معاوية وحملها إلى الأنصارى. وبلغ الخبر يزيد ابنه، فدخل على معاوية غضبان وقال: «لقد أفرطت فى الحلم حتى خفت أن يُعدّ ذلك منك ضعفًا وجبنًا» فقال معاوية: «أى بُنى إنه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة فامض لشأنك ودعنى لرأيى». وبمثل هذه السيرة صار معاوية خليفة العالم، وخضع له من أبناء المهاجرين والأنصار كل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة. وقد كان معاوية رضى الله عنه من أدهى الدهاة. روى أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال يوما لجلسائه: «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية؟».

ولم يحدث فى بلاد الشام أثناء ولاية معاوية له فى ظل خلافة عثمان ما حدث من قلق واضطراب فى الأمصار الأخرى وبوادر تمرد وثورة على الخليفة. فلقد ظل حكمه محصنا ضد مثل هذه القلاقل بسبب صلابة حكمه وموالاة الشاميين للخليفة عثمان. وحين وفد «أبو ذر الغفارى» الصحابى الجليل إلى الشام، وأقام بعض الوقت هناك، وأحس معاوية منه بعصيان الخليفة ومناداته بشعارات قد تثير الناس ضده وضد الخليفة، راسل الخليفة فى شأنه طالبا إبعاده عن الشام، فاستجاب الخليفة له، وأرسل لأبى ذر بالعودة للحجاز والإقامة فى الربذة.

ولقد كانت أمام معاوية مهام كبيرة عليه أن يقوم بها فى بلاد الشام، كان أهمها تحصين هذه البلاد ضد هجمات البيزنطيين. لذلك نجح معاوية فى إقامة حامية قوية بطول الساحل السورى، كما قام بإنشاء أسطول حربى بحرى فى البحر المتوسط لمحاربة البيزنطيين فى البحر والبر وللتصدى للأسطول البيزنطى الذى كان يرتع طليقًا فى مياه هذا البحر، ويهدد المدن الساحلية الإسلامية. ولقد نجح معاوية فى إيقاف نشاط هذا الأسطول باستيلائه على جزر رودس وصقلية ومهاجمة قبرص أثناء خلافته، وانتصاره انتصارًا بحريًا كبيرًا سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م فى معركة «ذات الصوارى» أيام ولايته على الشام فى عهد خلافة عثمان. وقد كان أسطول المسلمين فى هذه المعركة يتكون من مائتى سفينة، بينما كانت أعداد سفن الإمبرطور «قنسطانز الثانى» تتراوح ما بين ٧٠٠ ـ ١٠٠٠ سفينة.

ولقد صارت بلاد الشام أيام ولاية معاوية عليها، التى استمرت مدة عشرين عاما، الجبهة العربية الرئيسية الوحيدة القوية داخل الدولة العربية الإسلامية، مثلما كان الحال عليه أيام أبى بكر وعمر. وسبب ذلك أن المقاتلين العرب الذين ارتحلوا هنالك كانوا قد كونوا مجموعات عشائر عربية متماسكة ماهرة فى القتال، على خلاف أولئك الذين جُندوا على جبهة العراق، الجبهة الثانية للدولة العربية، فقد كانوا فى غالبيتهم خليطًا غير متجانس من القبائل المختلفة. وقد تثبت وضع قواد القبائل العربية التى استقرت فى الشام آنذاك عنه فى أى منطقة أخرى، ومن المحتمل أن يكون معاوية قد أرسل بعض رجاله السوريين ليستقروا فى جزيرة قبرص، وليكونوا عونًا له عند الحاجة.



معاوية قد أصابه فى فخذه وهرب دون أن يكمل عليه فنجا بذلك معاوية من الموت. وأما عمرو فقد اغتال من ذهب لقتله رئيس شرطته، خارجة ابن حذافة الذى أمّ الناس فى صلاة الفجر فى مسجد الفسطاط نيابة عنه بسبب مرضه فى هذه الليلة.

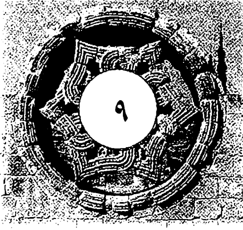
ولقد توفى على بعد ذلك، بعدة أيام، متأثرا بجرح السيف المسمم الذى ضرب به. فلما مات عقد الناس البيعة من بعده لابنه الحسن بن على، وهم يرون أنه أحق بالخلافة من غيره، وكان الحسن قد خرج لمثل ما خرج إليه أبوه من دعوة الفئة الباغية إلى الانقياد للحق والدخول فى الطاعة. لكن الحسن رأى ضرورة حقن دماء المسلمين ووقف نزيف هذه الفئة بتنازله عن الإمامة.

وكان معاوية قد أرسل للحسن من يتوسط لإنهاء الحرب ووقف اقتتال المسلمين، فأرسل رجلين من قريش من بنى عبد شمس، هما: عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز، فأتياه ودخلا عليه فتكلما، وانتهت الوساطة بالمصالحة وتنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة، وقد تم عقد البيعة من الحسن لمعاوية فى موضع يقال له «مسكن»، على نهر دجيل، فى ربيع الأول سنة ٤١هـ، فسُمى ذلك العام بعام الجماعة، لاجتماع المسلمين فيه، بعد الفرقة، على اختيار خليفة واحد لهم. ولقد دخل معاوية، بعد ذلك، الكوفة فى ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٤١هـ/ يوليو أو سبتمبر ٦٦١م، فبايعه أهلها، ثم بايعه بقية المسلمين فى كافة الأمصار بالخلافة. وبتولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة، ينتهى عهد الخلفاء الراشدين، ويبدأ عهد جديد هو عهد الخلافة الأموية، الذى استمر مدة ٩١ عاما، من سنة ٤١هـ حتى سنة ١٣٢هـ، وهى السنة التى سقطت فيها وانتهت على يد الخلفاء العباسيين من بعدهم.

وهناك من تساءل قائلاً: «ألم يكن فى الصحابة أقعد بالأمر من معاوية بعد على؟»، نقول: كان هناك الكثير، مثل سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وغيرهما من كبار الصحابة، لكن معاوية اجتمعت فيه عدة خصال، منها: «أن عمر بن الخطاب جُمع له كل الشام وأُفرد به لما رؤى من حسن سيرته وقيامه بحماية الدين وسد الثغور، وإصلاح الجند والظهور للعدو، وسياسة الخلق والتوسع فى الفقه».

وكان معاوية يعرف للناس أقدارهم، وقد خطب فيهم مرة قائلا: «أيها الناس، ما أنا بخيركم وإن منكم من هو خير منى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وغيرهما من الأفاضل ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية وأنكاكم فى عدوكم وأدركم حلبا».

ولقد كان معاوية محبوبًا من رعيته، وكان يلقب «بخال المؤمنين»، لأنه أخو أم المؤمنين رملة بنت أبى سفيان، المشهورة بكنيتها: أم حبيبة. قال قبيصة بن جابر الأسدى يمتدح قوام أخلاقه: «ألا أخبركم بمن صحبت؟ صحبت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلا أفقه فقها ولا أحسن



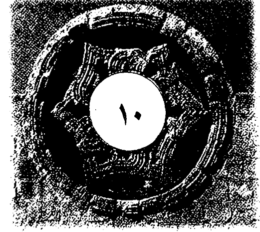
مدارسةً منه، ثم صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت رجلا أعطى للجزيل من غير مسألة منه، ثم صحبت معاوية فما رأيت رجلاً أحب رفيقًا ولا أشبه سريرة بعلانية منه».

وقد بلغ من همته وعظيم عنايته فى حماية الثغور والحفاظ على أرض المسلمين أن أرسل يهدد ملك الروم وهو فى معمعة القتال مع على فى معركة صفين، وقد بلغه أن ملك الروم انتهز الفرصة وهاجم الحدود الإسلامية بجيش كبير، فكتب إليه يقول: «والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك لأصطلحن أنا وابن عمى عليك ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيقن الأرض عليك بما رحبت» فخاف ملك الروم ورجع إلى بلاده.

ولقد كان معاوية عظيمًا من عظماء الإسلام، وصاحبًا من خيرة صحابة رسول الله ﷺ، وقد كان مصباحًا من مصابيح دولة الإسلام، إلا أن هذا المصباح سطع إلى جانب أربع شموس (أبو بكر وعمر وعثمان وعلى) ملأت الدنيا بأنوارها فغلبت أنوارها على نوره. ولقد كان معاوية حليمًا يُضرب بحلمه المثل، ومن حلمه تلك اللياقة والسياسة التى مكنته من أن يقوم دائمًا بالعمل المناسب فى الوقت المناسب، وقد عرّف هو هذه السياسة بقوله: «لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا مدوها خليتها وإذا خلوها مددتها». وقد قال عبد الملك بن مروان فى وصف معاوية: «كان والله فيما علمته ينطق عن علم ويسكت عن حلم، وكان إذا أعطى أغنى وإذا حارب أفنى».

ولقد كانت أولى المشاكل التى كان على معاوية مواجهتها، حين صارت له الخلافة وحتى يستتب أمرها له، هى مشاكل أهل بيته من الأمويين، ومشاكل الفرع المروانى منهم بصفة خاصة. فقد رأى، منذ بداية توليه الخلافة، ضرورة تحديد علاقته بأفراد أسرته، ويتمثل ذلك فى كيفية الاستعانة بهم فى حكم الدولة دون أن يمكنهم من السلطة بتعيينهم فى الولايات المستقرة مثل بلاد الحجاز، وعدم إطالة مدد ولاياتهم حتى لا يتقووا فيها ويصبحوا خطرًا عليه وعلى الدولة، كذلك بوضعهم، على الدوام، تحت عينيه ومحل رقابته، مع إغداق الأموال عليهم.

ولقد عمل معاوية على تركيز كل أمور الدولة فى يده واحتفاظه لنفسه فيها بكل السلطات، دون اتخاذ وزراء، وقد رأى أن تلك هى السياسة الحكيمة الوحيدة لتحقيق استمرارية حكمه وتحقيق المصلحة العامة للمسلمين. وعمل معاوية على تدعيم نفوذه وتثبيت مكانة الدولة فى الأمصار، وبخاصة فى العراق وفارس ومصر، فاختار ولاته من كبار المخلصين لبنى أمية ومن الشخصيات القيادية الكبيرة أمثال: عمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، والمغيرة بن شعبة. فقد جعل ولاية مصر لعمرو بن العاص، الذى ظل واليا عليها حتى وفاته بها سنة ٤٣هـ. وجعل المغيرة بن شعبة واليًا على الكوفة، وزياد بن أبيه واليًا على البصرة، ولما توفى المغيرة سنة ٥٠هـ، قام بضم ولاية الكوفة



لولاية البصرة فى ولاية واحدة جعلها لزياد، فكان زياد بذلك أول والٍ جمع له كل العراق.

ولقد كان المغيرة وزياد دعامتين كبيرتين من دعائم حكم معاوية، استطاع بفضل دهائهما وقوة شخصيتهما واستخدامهما الشدة مع اللين، فى القضاء على القلاقل فى بلاد العراق وفى إخماد الثورات التى كان الخوارج والعلويون يشعلون نيرانها بين الحين والآخر. ولكى يرفع معاوية مكانة زياد ويضمن تفانيه فى الولاء والإخلاص لدولته، قام باستلحاقه بنسبه، فجعله زياد ابن أبى سفيان، بعد أن كان يعرف بزياد بن عبيد، وزياد بن سمية، وزياد ابن أبيه. فصار زياد بذلك أمويا، وأخا للخليفة، وأضاف معاوية إلى ولايته على العراق الولاية على خراسان والبحرين وعمان والهند وسجستان، فغدا بذلك حاكمًا على النصف الشرقى من دولة بنى أمية بأكمله.

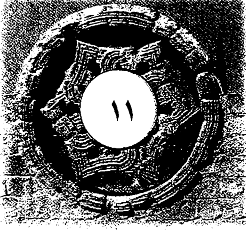
ولقد استطاع زياد، بعينه الساهرة على مصلحة البلاد فى ولايته وبحسه المرهف وسيفه الماضى أن يحمل قطر العراق الثائر على الاستكانة والدوران فى فلك الدولة. أما ما أثاره البدو وسائر العرب من مشاكل فى البصرة والكوفة، فقد عالجها بنقل خمسين ألف أسرة منهم إلى شرق فارس وتوطينهم هناك، وذلك سنة٥١هـ/ ٦٧١م. ولقد استقر هؤلاء الرجال فى قرى مرو، وكانوا عدة توسع الفتوحات العربية فى خراسان وفى بلاد ما وراء النهر.

ولقد أعطى معاوية لولاته سلطة سياسية وعسكرية كاملة داخل ولاياتهم الكبيرة. فالوالى أو الأمير أو العامل، له أن ينظم جيش ولايته، ويقود الحملات، وله الإمامة فى الصلاة وبناء المساجد. وإقرار العدالة، وحفظ النظام وضبط الأمن، وجمع الخراج وإرسال الفائض منه، بعد الصرف على الولاية، إلى بيت المال بدمشق. ولقد كان للأمير راتب مخصص غير الهدايا التى تقدم إليه.

الفتوحات الإسلامية فى عهد معاوية:

ولقد أولى معاوية اهتمامه بحركة الفتوح الإسلامية وصرف القبائل العربية إلى الجهاد ونشر الإسلام، فقامت جيوشه سنة ٤٣هـ/ ٦٣٣م بفتح بلاد سجستان فى الشرق من بلاد ما وراء النهر، شرقى نهر سيحون: مرو، وبلخ، وهرات، وغيرها، كما نجحت فى الاستيلاء على بخارى أهم مدن هذا الإقليم وأكبرها.

كذلك قام القائد عبد الله بن سوار، وكان أميرا على ثغر السند، بفتح بلاد السند مما يلى خراسان مرتين، ولكنه قتل فى المرة الثانية. ثم غزا المهلب بن أبى صفرة هذه البلاد حتى وصل إلى لاهور.

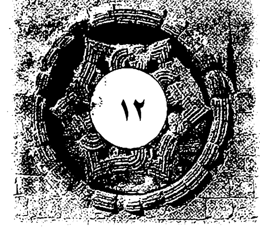


وفى سنة ٤٨هـ/ ٦٦٨م جهز معاوية جيشا لفتح القسطنطينية برا وبحرًا، وجعل قيادة هذا الجيش لسفيان بن عوف، وقد خرج مع هذا الجيش عدد كبير من الصحابة والتابعين منهم العبادلة الثلاثة: عبد الله بن العباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبو أيوب الأنصارى، وقد أمَّر معاوية ابنه يزيد على الجيش. وقام هذا الجيش بمحاصرة عاصمة البيزنطيين إلا أن حصانة هذه المدينة برًا وبحرًا واستبسال قواتها فى الدفاع عنها، فضلاً عن استخدام الروم للنار الإغريقية، كل ذلك حال دون سقوط المدينة فى أيدى المسلمين. وقد قتل أبو أيوب الأنصارى أثناء الحصار، فدفن خارج سور المدينة.

وبسبب معاودة الروم السيطرة على جزر البحر المتوسط، قام معاوية بتثبيت سيطرته على جزر رودس وصقلية سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م. وفى سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م، أرسل معاوية إلى قائده عقبة ابن نافع الفهرى، وكان يقيم ببرقة منذ أيام عمرو بن العاص، عشرة آلاف جندى، لفتح إفريقية غربًا والتوسع فى بلاد المغرب. فنجح فى ذلك بعد التغلب على سكان البلاد الأصليين من قبائل البربر، ودخل إفريقية (تونس) وتمكن من فتحها وأسلم على يديه الكثير من البربر. وأسس هنالك، فى هذا العام، مدينة «القيروان» التى صارت قاعدة للقوات العربية هناك ومركز انطلاق للفتح العربى لبقية بلاد المغرب والأندلس. وبذلك صارت القيروان الوريثة لقرطاجة القديمة، ومنها انطلقت القوات الإسلامية، فيما بعد، وواصلت زحفها داخل كل الشمال الأفريقى واستطاعت، بمساعدة أهل البلاد من البربر الذين دخلوا فى الإسلام، أن تخرج الروم من مناطق



ديوان الخاتم



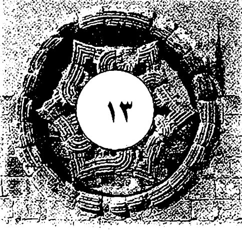
كثيرة من ساحل أفريقيا الشمالى. وقد استشهد عقبة بن نافع فى إحدى المعارك ضد الثوار البربر سنة ٦٤هـ/ ٨٦٣م، فدفن مكان المعركة، حيث يوجد قبره هنالك حتى الآن، ويعرف بمقام سيدى عقبة.

وقد رأى معاوية ضرورة الاستفادة من عناصر البربر، سكان المغرب الأصليين، وتجنيدهم فى الجيوش الإسلامية، وتشجيعهم بذلك على الدخول فى الإسلام واقتسام الغنائم بعد المشاركة فى الفتح. وقد كَّون البربر نواة الجيوش التى أتمت فتح كل بلاد المغرب تحت قيادة قواد من العرب ومن البربر أيضًا. وبعد وفاة عقبة تولى ولاية إفريقية أبو المهاجر، مولى مسلمة بن مخلد، الذى ولاه معاوية مصر وإفريقية بعد وفاة عمرو بن العاص.

إدارة شئون الدولة:

ولقد اهتم معاوية بتنظيم شئون دولته الإدارية والمالية فاستحدث دواوين جديدة إلى جانب ديوانى العطاء والجند اللذين كان الخليفة عمر بن الخطاب قد استحدثهما فى عهده. وهذه الدواوين الجديدة هى ديوان الرسائل وديوان الخاتم وديوان البريد.

ولقد امتدح صاحب الفخرى معاوية فى شأن إنشاء هذه الدواوين بقوله: «إن معاوية كان مربى دول وسائس أمم وراعى ممالك. ابتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه أحد إليها، منها: أنه أول من وضع الحشم للملوك ورفع الحراب بين أيديهم ووضع المقصورة التى يصلى الملك أو الخليفة بها فى الجامع منفردًا بين الناس، وذلك لخوفه مما جرى لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فصار يصلى منفردًا فى المقصورة، فإذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف، وهو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة». كذلك أورد أن معاوية هو أول من اخترع من أمور الملك ديوان الخاتم، ويقول فى ذلك: «وهذا ديوان معتبر من أكابر الدواوين لم تزل السنة جارية به إلى أواسط دولة بنى العباس فأُسقط، ومعناه أن يكون ديوان وبه نواب، فإذا صدر توقيع من الخليفة بأمر من الأمور أُحضر التوقيع إلى ذلك الديوان وأثبتت نسخة فيه وحُزم بخيط وخُتم بشمع كما يفعل فى هذا الزمان بكتب القضاة حيث يختم بختم صاحب هذا الديوان. وكان الذى حمل معاوية على اختراع هذا الديوان أنه أحال رجلاً على زياد ابن أبيه أمير العراق، بمائة ألف درهم، فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب، وكانت تواقيعهم تصدر غير مختومة، فجعل المائة مائتين. فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكر معاوية ذلك وقال: ما أحلته إلا بمائة ألف، ثم استعادها منه ووضع ديوان الخاتم. فصارت التواقيع تصدر منه مختومة لا يدرى أحد ما فيها ولا يتمكن أحد من تغييرها».

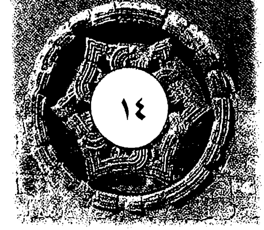


وبخصوص ديوان البـريد، فإن معاوية قد نـقل نظامه عن الفرس والروم اقتداء بما عـملوه بشأنه فى بلاد الشام والعـراق. ويُعرِف صاحب الفخرى البريد بقوله: «البريد أن يُجعل خيل مضمرات فى عدة أماكن. فإذا وصل صـاحب الخبر المسرع إلى مكان فـيها وقد تعب فـرسه ركب غيره فرسًا مستريـحًا. وكذلك يفعل فى المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة. وأما معناه اللغوى فالبريد هو اثنا عشر ميلا وأظن أن الغاية التى كانوا قدروها بين بريد وبريد هى هذا القدر».

أخذ البيعة لابنه يزيد

كان المغيرة بن شعبة أول من أشار على معاوية بولاية ابنه يزيد العهد، وذلك أن معاوية أراد فى سنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩م، أن يعزل المغيرة عن ولاية الكوفة ويستعمل عليها بدله سعيد بن العاص. فبلغ الخبر المغيرة، فذهب إلى الشام وقابل يزيد بن معاوية وقال له:

«إنه قـد ذهب أعـيان أصـحـاب النبى ﷺ وآله وكـبـراء قريش وذوو أسـنانهم، وإنما بقى أبناؤهم، وأنت من أفـضلهم وأحسنهم رأيًا وأعلمـهم بالسنة والسياسـة، ولا أدرى ما يمنع أمـير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال أو ترى ذلك يتم؟ قال: نعم. ولما اختمرت هذه الفكرة عند يزيد أعلم أباه بها، فأحـضر معاوية المغيرة وسـأله عن هذا الأمر، فقال له: ما يقـول يزيد؟، فقال: يا أميـر المؤمنين قد رأيت ما كـان من سفك الدماء والاختـلاف بعد عثـمان وفى يزيد منك خلف، فاعقد له، فـإن حدث بك حادث كان كهفًا للناس وخلفًـا منك، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة. قال: ومن لى بهـذا؟ قال: أنا أكفـيك أهل الكوفة ويكفـيك زياد أهل البصرة، ولـيس بعد هذيْن المصريْن أحد يخالفك. فـرد معاوية المغيرة إلى الكوفة وعدل عن عزله وطلب منه أن يمـهد البيعة ليزيد، فعاد إلى الكوفة، وحبب الناس إلى هذا الأمر، فبايع أنصار الأمويين يزيد، ثم أوفد المغيرة عشرة منهم إلى مـعاوية فزينوا له البيعة ليـزيد وطلبوا منه أن يعهد إليه، وبذلك قـوى عزم معاوية على البيعة لابنه، فـأرسل إلى زياد بن أبيه فنصح لمعاوية أن يتريث لهذا الأمـر لعدم توافر شروط الخـلافة فى يزيد، وقـال: «ويزيد صاحب رسلـة وتهاون مع مـا قد أولع به من الصـيد». وعـاد الرسول إلى دمشق وأخبر يزيد برأى زياد فيه فكف عن كثير مما كان يصنع، وكتب زياد إلى معاوية يشير إليه بالتأنى فى هذا الأمر، فعمل معاوية بمشورة زياد.



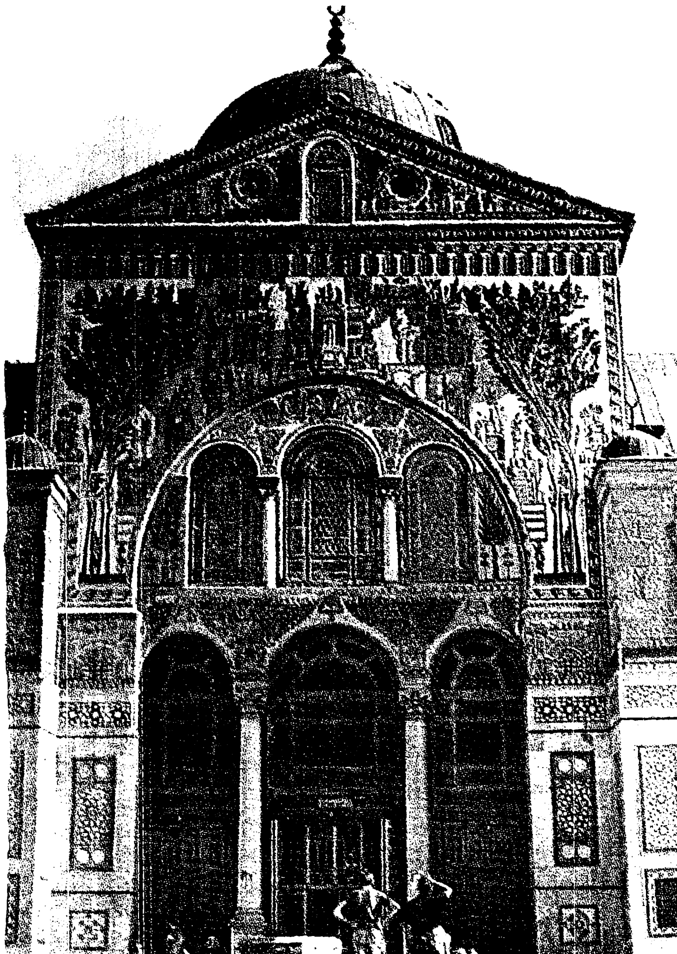
فلما مـات زياد أرسل معاوية إلى مـروان بن الحكم، عامله على المدينة يقول:

«إنى قد كبرت سنى ودق عظمى وخـشيت الاختلاف على الأمة من بعدى، وقد رأيت أن أتخيـر لهم من يقوم بعدى، وكرهت أن أقطع أمرًا دون مشورة من عندك، فأعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك».

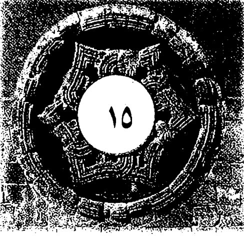
وعرض مروان الأمـر على الناس فوافقوا، فأخبـر معاوية بموافقتـهم. ثم أرسل معاوية إلى مروان كتـابًا يقول فيه أنه عـزم على أخذ البيعة لابـنه يزيد، فقرأه على الناس فى المسجـد، فهاج القوم وماجوا، وقـال عبد الرحمن بن أبى بكر: «ما الخيار أردتم لأمـة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مـات هرقل قام هرقل» وقام الحسين بن علىّ فأنكر ذلك، وفـعل قبله عبد الله بن الزبير.

ويبـدو أن عددًا كـبـيرًا مـن هؤلاء القوم لم يوافـقـوا على هذه السياسـة ولا اطمأنوا لاختيـار يزيد خلفًا لوالده فى الحكم. ولقـد انبـرى لمعـاوية الأحنف بن قيس قـائلاً: «إنا نخافكم إن صدقنا ونخاف الله إن كذبنا وأنت يا أمير المؤمنين أعلـم بيزيـد منا فى ليله ونهـاره وسره وعلانيـته ومدخله ومخـرجه، فإن كنت تعلمـه لله تعالى وللأمـة رضا فـلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم فـيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا».

وفى سنة ٦٠هـ/ ٦٧٩م، وقـبل وفاته بستة أشهـر، دعا معاوية أهل الشام إلى البـيعة بولاية الـعهد من بعـده لابنه يزيد فـبايعـوه، ثم إنه كتب لواليـه على المدينة، مروان بن الحكم، أن يأخذ البيعة ليزيد هناك. ثم حج معاوية وأخـذ البيعة لابنه بمكة فى نفس العـام. ويعد مـعاوية أول من عـهد بالخـلافة لابنه من بعـده، وأول من عهد بها وهو فى كامل صحته.



قصر الخضراء فى دمشق

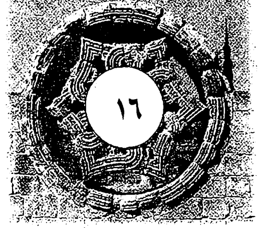


ولقد اتبع معاوية، فى أخذ البيعة لابنه يزيد من بعده، كل الطرق والأساليب من وعد ووعيد وإغراء وتهديد، وكان «يعطى المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوثق أكثر الناس وبايعوا ابنه يزيد».

وذهب معاوية إلى المدينة، بعد فراغه من الحج، لأخذ البيعة هناك ليزيد، فقابله الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر، فأساء لقاءهم، ثم أُدخل على عائشة أم المؤمنين فشكاهم إليها وهدد بقتلهم إن لم يجيبوه إلى بيعة يزيد، فنصحت له أن يرفق بهم ويحسن معاملتهم. وعاود معاوية لقاءه مع الحسين وابن الزبير وعبد الله بن عمر، وتكلم معهم فى شأن البيعة. فقال له ابن الزبير: «نخيرك بين ثلاث خصال، فقال: اعرضهن، قال: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ، أو كما صنع أبو بكر، أو كما صنع عمر، قال معاوية: ما صنعوا؟ قال: قبض رسول الله ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر. قال: ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف. قال: صدقت، فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم نفر من ولده ولا من بنى أبيه. قال معاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا، ثم قال: فأنتم؟ قالوا: قولنا قوله. قال: فإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر، إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلىّ القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح وإنى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه. ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم وقال له: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد علىّ كلمة تصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما، ثم خرج وخرجوا معه حتى ارتقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يقطع أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم وإنهم قد رضوا وبايعوا يزيد فبايعوا على اسم الله، فبايع الناس وكانوا ينتظرون بيعة هؤلاء النفر. ثم انصرف إلى المدينة، فلقى الناس أولئك النفر فقالوا لهم: زعمتم أنكم لا تبايعون فلم رضيتم وأعطيتم وبايعتم؟ قالوا: والله ما فعلنا، فقالوا: ما منعكم أن تردوا على الرجل؟ قالوا: كادنا وخفنا القتل».

وهكذا بايع الناس يزيد عدا هؤلاء النفر، فقسا معاوية عليهم، وخالف بذلك شروط الخلافة، وانتقل بها من خلافة إسلامية شورية إلى ملكية وراثية. وقد تأكد معاوية، وهو تارك للدنيا، أن الخلافة صائرة بالفعل لابنه يزيد من بعده، وأنه بذلك قد فتح الباب ليزيد ولمن يتولى الخلافة من بعده من بنى أمية أن يورث ابنه الخلافة وأن يأخذ له البيعة فى حياته، وهو الأمر الذى سارت عليه الخلافة الإسلامية فيما بعد.

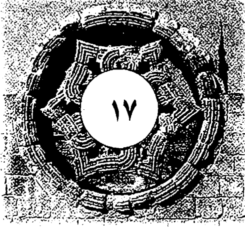
ولقد تساءل الكثيرون حول سبب إتمام معاوية لمسيرة اختيار ابنه يزيد للخلافة من بعده، وقد رد على هذا التساؤل بالقول من أن معاوية قد رأى شباب قريش المعاصرين ليزيد ممن يحدثون



أنفسهم بولايـة الأمر لبعض الاعتبـارات التى يعرفونها لأنفـسهم، وقد كانوا من الكثرة بمكان ومن بينهم: الحسـين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وسعيد بن عثمان بن عفان وغيـرهم ممن كانوا يطمـعون فى الخـلافة بعد مـعاوية. ورغم أن مـبدأ الشورى فى انتخـاب الخليفة أفضل بكثير من مـبدأ ولاية العهد، إلا أن معاوية كان يعلم، بينه وبين نفسه، أن فتح باب الشورى فى انتخاب من يخلفه سيحـدث فى الأمة الإسلامية مجزرة لا تنتهى إلا بـنهاية كل صالح فى قريش لولاية شىء من أمور هذه الأمـة، ومعـاوية أحصف من أن يخـفى عليه أن المزايا مـوزعة بين هؤلاء الشـباب القرشيين، فإذا امتاز أحدهم بشىء على أضـرابه فإن منهم من يمتاز عليه بشىء آخر منها. غير أن يزيد، مع مشـاركته لبعضـهم فى بعض ما يمتازون به، يمتـاز عليهم بأعظم ما تحتـاج إليه الدولة آنذاك، وهو القوة العـسكرية التى تؤيده فى تولى الخلافـة، ومساندة الكلـبيين الذين تنتـسب أمه «ميسون بنت بهدل» إليهم. وهو ما لا يتوافر فى غيره.

وإذا كـان مقـياس الأهليـة للخـلافة هو أن يبلغ يزيد مـبلغ أبى بكر وعـمر فى مـجمـوع سجاياهما فهـذا ما لم يبلغه أحد فى تاريخ الإسلام ولاحتى عمر بن عـبد العزيز، خامس الخلفاء الراشدين. وإن طمعنا فى المستحيل وقدرنا إمكان ظهـور أبى بكر وعمر آخرين، فلن تتاح له بيئة كالبيـئة التى أتاحها الله لأبى بكـر وعمر. وإن كان مقـياس الأهلية الاستـقامة فى السيـرة والقيام بحرمـة الشريعة والعـمل بأحكامها والعـدل فى الناس والنظر فى مصـالحهم والجهـاد فى عدوهم وتوسيع الآفاق لدعوتهم والرفق بأفرادهم وجمـاعاتهم، فإن يزيد يوم تمحص أخباره ويقف الناس على حقـيقة حاله كـما كان فى حـياته يتبيـن من ذلك أنه لم يكن دون كثيـرين ممن تغنى التاريخ بمحامدهم وأجزل الثناء على سيرتهم وتاريخهم.

ولقد شهد كثيرون بعدالة يـزيد، فقال عنه محمد بن على بن أبى طالب: «ما رأيت منه إلا خيرًا، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصـلاة متحريًا للخير يسأل عن الفقه وملازمًا للسنة». أما عن العلم، فقد كان فيه موضع الرضـا، وقد أقر له عبد الله بن عمر بالعلم حين جاء لمبايعته. «وإن معاوية، مع شـديد حبه ليزيد، لألمعيته واكتمال مـواهبه، آثر أن ينشأ بعيدًا عنه فى أحضان الفطرة وخـشونة البداوة وشهامـتها ليستكمل الصـفات اللائقة بالمهمة الـتى تنتظر أمثاله، فبعث به إلى أخبية البادية، عند أخواله من قضاعة ليكون على حزب أمه ميسون بنت بهدل. وفى ذلك الوسط العربى النقى أمضى يزيد صباه وصدر شـبابه فنشأ على حسن الخلق وقويم السلوك». ولقد قـال عنه الإمام الليث حـين مات: توفى أميـر المؤمنين، ولولا أنه عنده كذلك مـا قال إلا: توفى يزيد».



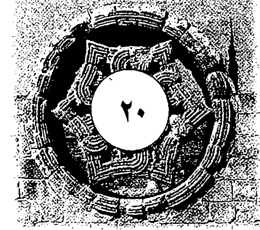
لقد قالوا على يزيد أنه كان معاقرًا للخمر، ولم يشهد عليه شاهدان بذلك، وقالوا عنه أنه كان مستهترًا يميل لحياة اللهو واللعب والصيد. لكن كل هذه اتهامات باطلة لصقها به كتاب العباسيين وكتاب الشيعة؛ لأن معاوية، وهو الحريص على أمر الأمة الإسلامية، وهو الذى أمضى من عمره أربعين عاما فى الحكم بين الإمارة والخلافة، لو كان يعلم مثل هذه الصفات فى ابنه، والتى لا تؤهله لقيادة الدولة لما تردد لحظة واحدة فى إبعاده عن الحكم وإفساح المجال لغيره ممن كانت تتوافر فيهم صفات القيادة آنذاك. ويؤيد الرأى فى حسن استعداد يزيد للحكم والقيادة اختيار أبيه له لتولى قيادة جيش فتح القسطنطينية، التى أظهر فيها ضروب الشجاعة والبسالة مما أكسبه بحق لقب: فتى العرب.

ولمَّا مرض معاوية مرضه الذى مات فيه دعا ابنه يزيد فقال له: «يا بنى إنى قد كفيتك الشد والترحال، ووطأت لك الأمور، وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد. فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب. وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أيسر من أن يشهر مائة ألف سيف. وانظر أهل الشام وليكونوا بطانتك فإن رابك من عدوك شىء فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإن أقاموا بغيرها تغيرت أخلاقهم. وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الأمر إلا أربعة من قريش: الحسين بن على، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر. فأما ابن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين بن على فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه فإن له رحمًا ماسة وحقًا عظيمًا وقرابة من محمد ﷺ. وأما ابن أبى بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله ليست له همة إلا فى النساء واللهو. وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذلك ابن الزبير. فإن هو وثب عليك فظفرت به فقطعه إربًا إربا واحقن دماء قومك ما استطعت.

وفى هذه الوصية دليل على وفور رغبته فى تدبير الملك وشدة كلفه بالرياسة».

وقد توفى معاوية فى شهر رجب سنة ستين، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير بدمشق، وقيل أنه عاش سبعا وسبعين سنة، وكان عنده شىء من شعر رسول الله ﷺ وقلامة أظفاره، فأوصى أن تجعل فى فمه وعينيه، وقال: «افعلوا ذلك وخلوا بينى وبين أرحم الراحمين».

ولقد كان معاوية من عظماء الرجال ومؤسسى الدول، وقد نجح فى إقامة الدولة الأموية التى عاشت من بعده اثنين وسبعين عاما، تولى من حكم بعده أمر تأسيسها وإرساء قواعدها وتوسيع حدودها. وإذا كانت بعض المصادر التاريخية قد أفاضت فى ذكر سيرة معاوية قبل توليه



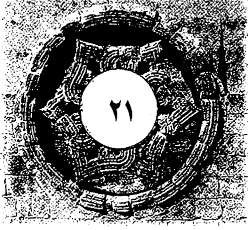
انقسم حكم الدولة الأموية إلى فترتين: الأولى تبدأ من حكم معاوية سنة ٤١ هـ وتنتهى سنة ٦٤ هـ بعقد مؤتمر الجابية والاتفاق على اختيار مروان بن الحكم خليفة، وتُعرف هذه الفترة باسم فترة حكم البيت السفيانى، والثانية تبدأ من ذلك العام حتى سنة ١٣٢هـ، وهى السنة التى سقطت فيها هذه الدولة وانتهت على يد خلفاء العباسيين. ومن الملاحظ أن الفترة الثانية لحكم الأمويين كانت أطول من الأولى وأن المروانيين حكموا وتوارثوا الحكم حتى نهاية الدولة.

ويرجع سبب هذا الانقسام فى الحكم بين البيت السفيانى والبيت المروانى إلى انقراض البيت السفيانى سريعًا بعد وفاة يزيد بن معاوية الذى حكم هو أيضا لفترة قصيرة هى ثلاث سنوات: من ٦٠ إلى ٦٣هـ. ثم خلفه من بعده ابنه الصغير المريض معاوية (الثانى)، الذى لم تزد مدة خلافته عن شهرين، وتوفى وهو فى سن الحادية والعشرين، دون أن يترك من بعده ذرية.

وكادت الدولة الأموية تنتهى وينتهى أمرها وينهار ما أسسه معاوية بن أبى سفيان، لولا تدارك أهل الشام، الموالين للأمويين، للأمر ورغبتهم فى أن تستمر الخلافة فى بنى أمية، لكنهم اختلفوا فيمن يولونه فيهم. وأراد غير أهل الشام عبد الله بن الزبير، الذى كان قد أعلن نفسه خليفة آنذاك فى الحجاز.

وقد مال بعض المؤيدين لبقاء الخلافة فى بنى أمية إلى خالد بن يزيد بن معاوية، وكان عالما فصيحا بليغا فتيا نبغ فى علم الكيمياء ومال البعض الآخر إلى مروان بن الحكم لسنه وشيخوخته وخبرته. واتفقوا، آخر الأمر، على الاجتماع فى مدينة الجابية، قرب دمشق سنة ٦٤هـ، للاجتماع على الاتفاق على رجل من بنى أمية، فاتفقت كلمتهم على مروان بن الحكم، وبذلك انتقلت الخلافة الأموية من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى.

ورفضت قبيلة قيس، التى كانت موالية للفرع السفيانى، الموافقة على البيعة لمروان، ونادى زعيمها الضحاك بن قيس بمبايعة عبد الله بن الزبير بالخلافة، نكايةً فى المروانيين، فبايعوه بالخلافة فى مرج راهط، فانحصرت الخلافة بين ابن الزبير وبين مروان.



معارك بين مروان وأنصار ابن الزبير:

وقد قام عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان بجهد كبير نحو جمع والتفاف الناس بالشام وبنى أمية حول مروان. وساعده في السيطرة على الشام لينطلق منها إلى باقى أراضى الدولة الإسلامية محاولاً السيطرة عليها. وقاد عبيد الله ميسرته وخيله فى معركة مرج راهط، بفلسطين. وقد انتصر مروان فى هذه المعركة. واستعاد بانتصاره فيها السيطرة على فلسطين ثم على كل الشام. واستطاع القائد الثقفى عبد الرحمن بن أم الحكم الاستيلاء على دمشق، وأخذ بيعة الناس فيها لمروان. واستطاعت هذه الانتصارات فى الشام أن تعيد الروح إلى الخلافة الأموية وأن تمنع سقوطها. وأن تمكن مروان من التصدى لأنصار ابن الزبير فى الشام والقضاء عليهم.

وبعد ذلك أخذ مروان فى العمل على إعادة سلطان الخلافة الأموية على الأمصار التى كانت قد خرجت عن طاعتها، ويحصل سنة ٦٥هـ على مبايعة أهلها له بالخلافة. وقد قام جيش مروان، باسترداد مصر، ثم الجزيرة والعراق من التبعية لابن الزبير، الذى لم يبق سوى الحجاز فى قبضته.

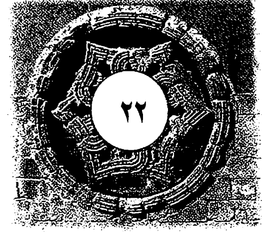
وكان أنصار الأمويين، قد اتفقوا فى مؤتمر الجابية، مع اتفاقهم على مبايعة مروان بالخلافة، على أن يخلفه خالد بن يزيد بن معاوية، ثم سعيد بن العاص من بعده. غير أن مروان نقض ذلك كله وبايع ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز من بعده، وأخذ يحقر من شأن خالد بن يزيد ليصرف أهل الشام عنه. وبذلك حصر مروان استمرار دولة بنى أمية فى الفرع المروانى دون السفيانى، ولمّا توفى بالفعل سنة ٦٥هـ، تولى الخلافة بعده ابنه عبد الملك بن مروان، ليحول دون أحفاد معاوية، مؤسس الدولة، والحكم، وليستمر الحكم فى البيت المروانى حتى نهاية الدولة.

وهكذا يُعتبر مروان بن الحكم هو، المؤسس الحقيقى لحكم الفرع الثانى من خلفاء الأمويين، وهو الفرع الذى حافظ على كيان الدولة وحافظ على استمراريتها بعد الخطر الذى تعرضت له وكاد أن يودى بها بعد وفاة معاوية، مؤسسها بأربع سنوات لا غير.

ولقد حكم الدولة بعد مروان عشرة خلفاء من أبنائه وأحفاده، جاء ترتيبهم كالتالى، وكذلك سنو حكمهم:

١ ـ عبد الملك بن مروان: ٦٥ ـ ٨٦هـ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥م

٢ ـ الوليد بن عبد الملك بن مروان: ٨٦ ـ ٩٦هـ / ٧٠٥ ـ ٧١٥م



٣ ـ سليمان بن عبد الملك بن مروان: ٩٦ ـ ٩٩هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٧م

٤ ـ عمر بن عبد العزيز بن مروان: ٩٩ ـ ١٠١هـ/ ٧١٧ـ ٧٢٠م

٥ ـ يزيد بن عبد الملك بن مروان: ١٠١ ـ ١٠٥ هـ / ٧٢٠ـ ٧٢٤م

٦ ـ هشام بن عبد الملك بن مروان: ١٠٥ ـ ١٢٥هـ / ٧٢٤ـ ٧٤٣م

٧ ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان:١٢٥ ـ ١٢٦هـ / ٧٤٣ ـ ٧٤٤م

٨ ـ يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان: ١٢٦هـ / ٧٤٤م

٩ ـ إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ١٢٦هـ/ ٧٤٤م

١٠ ـ مروان بن محمد بن مروان: ١٢٦ ـ ١٣٢هـ / ٧٤٤ـ ٧٥٠م

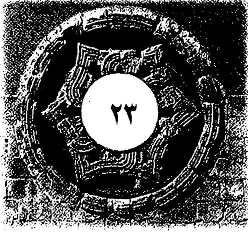
ولقد واصل حكم أربعة من هؤلاء الخلفاء، وهم الأربعة الأول، تكملة تأسيس الدولة وتقويتها:



يعتبر عبد الملك بن مروان المؤسس الثانى لدولة بنى أمية، ذلك لأنه حين تولى الخلافة كانت الدولة فى حالة اضطراب، وكانت الأقاليم والأمصار فى حالة شغب وهياج، وكانت الثورة على حكم الأمويين تنذر بكارثة ضياع الدولة ونهاية حكم البيت الأموى جميعه. فعندما تولى كان الحجاز خارجًا عن طاعة الأمويين، إذ إن عبد الله بن الزبير كان قد أعلن نفسه خليفة للمسلمين فى مكة سنة ٦٣هـ / ٦٨٣م، وطرد عامل بنى أمية على المدينة، فصار

خريطة كربلاء





الحجاز كله فى يده. ثم بايعه نفر من أهل مصر، ودخل أهل العراق فى طاعته فولى عليهم أخاه مصعب بن الزبير، ومال إليه الكثيرون من أهل الشام، فلم يتبق تحت يد عبد الملك، حين تولى الخلافة سوى جزء صغير من الدولة.

وكان عبد الملك قد وُلد بالمدينة سنة ٢٦هـ، فى خلافة عثمان بن عفان، وهو أول من سمى فى الإسلام باسم عبد الملك. وقد نشأ نشأة طيبة وعُرف بالشجاعة والنجدة والفصاحة والبلاغة والصراحة فى الحق، وكان عالمًا بالقرآن حافظًا له، دارسًا لعلوم الدين على مشيخة أهل الحجاز بالمدينة. كما كان أديبًا عالمًا بنقد الشعر وتمييز جيده من رديئه وقد كان لبيبًا عاقلاً قوى الهيبة. شديد السياسة حسن التدبير للدنيا.

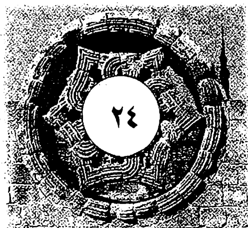
وكان عبد الملك، قبل الخلافة، أحد فقهاء المدينة، وكان يسمى «حمامة المسجد» لمداومته تلاوة القرآن.

تولى الخلافة، بعد وفاة والده بعهد منه، وكانت الدولة فى حالة من الفوضى الشديدة، وكان البنيان الذى وضع معاوية أساسه يهتز ويتأرجح منذرًا بالسقوط والانهيار. وكانت الدولة الإسلامية فى حاجة إلى حاكم قوى يستطيع أن يقيل الخلافة من عثرتها. فقد مزقت العصبية القبلية آنذاك، المتمثلة فى الصراع بين العرب اليمانية (القحطانية) والعرب القيسية (المضرية) وحدتها. وسادت القلاقل الولايات الإسلامية إلى نزع ولاتها إلى الاستقلال بها، ونزع أهلها للولاة الخارجين عليها. وكان الحجاز، بالذات، هو بؤرة الثورة على الأمويين لوجود الثائر عبد الله بن الزبير به وإعلانه نفسه خليفة وضمه مصر والعراق إلى تبعيته.

وقد كان عبد الملك رجل الساعة، استطاع بفضل شجاعته وحسن تدبيره وصواب قيادته وبفضل مساعدة قواده الأكفاء أن يتخطى الصعاب التى واجهته فى بداية حكمه، وأن يعيد توحيد الدولة وتأسيسها، وأن ينقضَّ على أعدائه والمنافسين لحكمه والمتربصين له حتى استطاع أن يقود سفينة البلاد إلى بر الأمان، وأن يترك الدولة ممهدة لأبنائه من بعده بعد حكم طويل لها دام قرابة العشرين عامًا.

ولقد أبدى عبد الملك بن مروان مهارة كبرى لمواجهة الموقف الصعب عند توليه الخلافة، فرسم لنفسه خطة للعمل بدأها بالقضاء على أنصار ابن الزبير فى مصر، مستعينًا فى ذلك بكفاءة أخيه عبد العزيز بن مروان الذى وكل إليه أمر إمارتها. ولقد نجح عبد العزيز، بفضل حسن إدارته وقويم سياسته فى إصلاح الأمور فيها وجعلها دعامة لعبد الملك فى صراعه ضد أعدائه فى الأمصار الأخرى.

ولما خلصت مصر لعبد الملك، توجه، بعد ذلك، نحو العراق ليقضى على تمرد المختار بن أبى عبيد الثقفى بالكوفة، وتمرد مصعب بن الزبير فى باقى العراق، وكان المختار بن أبى عبيد قد وثب بالكوفة طالبا بدم الحسين بن على، الذى استشهد فى كربلاء زمن خلافة يزيد بن معاوية سة ٦١هـ،



وقام بإخراج عبد الله بن مطيع العدوى، عامل ابن الزبير منها. وكان المختار يدعو لمحمد ابن الحنفية بالخلافة. قد قام المختار بالوثوب عام ٦٦هـ على قتلة الحسين والمشايعين على قتله فقتل من قدر عليه منهم، وهرب من الكوفة بعضهم. وقد تعرض مصعب بن الزبير، الذى ناب عن أخيه عبد الله فى حكم العراق، للمختار وقاتله إلى أن ظفر به سنة ٦٧هـ.

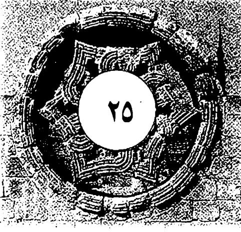
وفى سنة ٧١هـ خرج عبد الملك على رأس جيشه لمقاتلة مصعب ابن الزبير فى العراق. والتقت قواته بقوات مصعب سنة ٧٢هـ عند دير الجاثليق عند مسكن، قرب نهر دجيل، وانتهى القتال بينهما بهزيمة مصعب ومقتله، على يد رجل يدعى زائدة بن قدامة وعبد الله بن زياد بن ظبيان، الذى احتز رأسه وأتى بها عبد الملك بن مروان فأثابه على ذلك بألف دينار. فلما قتل مصعب دعا عبد الملك أهل العراق إلى البيعة فبايعوه.

حروب عبد الملك وابن الزبير فى مكة:

وبعد معركة دير الجاثليق التى انتهت بسيطرة الأمويين على العراق لم يبق أمامهم سوى الحجاز. ولقد اختار عبد الملك للقضاء على ثورة عبدالله بن الزبير بالحجاز قائداً من أعظم قواده، بل يُعد من أعظم قواد الدولة الأموية عموماً ومن أعظم رجالات قبيلة ثقيف التى سكنت الطائف والموالية للأمويين، وهو الحجاج بن يوسف الثقفى، الذى كان القائد المطلوب وصاحب الفضل الأكبر فى بقاء الدولة الأموية وإنقاذها من التفتت والضياع على يد خصومها، ولقد تصدى الحجاج لحرب ابن الزبير، وذلك حين أرسله سنة ٧٢هـ، على رأس جيش من ألفى جندى لقتاله فى مكة وضم إقليم الحجاز الثائر المتبقى عن بقية أقاليم الدولة. وتأتى أهمية الحجاز هنا بالنسبة لابن الزبير فى وجود البقاع المقدسة به، كذلك فى وجود المدينة العاصمة الأولى القديمة لدولة الإسلام ومركز الدعوة به ووجود قبر رسول الله ﷺ.

ولقد روى الطبرى سبب توجيه عبد الملك الحجاج بن يوسف إلى مكة لقتال ابن الزبير دون غيره: أن عبد الملك لما أراد الرجوع إلى الشام قام إليه الحجاج فقال: «يا أمير المؤمنين إنى رأيت فى منامى أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثنى إليه ولنى قتاله». فبعثه فى جيش كثيف من أهل الشام حتى قدم مكة، وقد كتب إليهم عبد الملك بن مروان بالأمان إن دخلوا فى طاعته.

وكان عبد الملك قد أمر الحجاج بألا يبدأ بالهجوم على مكة إلا بعد أن يعطيه الإذن بذلك. فسار الحجاج إلى الحجاز بالجيش فى جمادى الأولى، ولم يتعرض لمدينة الرسول ﷺ، ونزل الطائف، بلدته ومقر ثقيف عصبيته، واتخذها معسكراً له يدبر منه أمر الهجوم على ابن الزبير الذى اتخذ مكة قاعدة له ومركزاً لقواته. واستطاع الحجاج، وهو بالطائف، وبمساعدة قومه الثقفيين أن يضعف قوة ابن الزبير وأن يحصره فى مكة وأن يمنع عنها المدد والزاد الذى كان يأتيها



من خيرات الطائف. وكـانت مكة، طوال عهودها، تعتمد على مـيرتها من الطائف. وراسل الحجـاج أهل مكة واستطاع أن يسـتميل إلى صـفه الكثير من أتباع ابن الزبير الذين انفضـوا من حوله وانضموا إلى معسكر الحجاج، وكان ممن خرج إلى الحـجاج بالأمان اثنان من أبناء ابن الزبير، وهما خبـيب وحمزة وقد أضـعف ذلك موقف ابن الزبير كثـيراً وعجل بهزيمته.

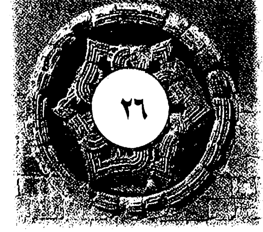
وكان الحجاج يبعث البعوث إلى عرفة فى الخيل ويبعث ابن الزبير بعثًا فيقتتلون هناك، وفى كل مرة تهـزم خيول ابن الزبيـر وتعود خيول الحـجاج منتصرة، ثـم كتب الحجاج إلى عـبد الملك يستأذنه فى حصار ابن الزبير ودخول الحرم عليـه. فأذن الخليفة له بعد أن أرسل له مددًا من خمسة آلاف رجل بقيادة طارق بن عمرو، فقدم ذلك الجيش إلى الحجاج فى ذى الحجة سنة ٧٢هـ وانضم إلى قيادة الحـجاج، الذى تحرك بالقوات جـميعها مـن الطائف حتى نزل على بئر ميـسون، خارج مكة، وحاصر ابن الزبير.

ولقد وقع القـتال بين ابن الزبير والحجـاج ببطن مكة ستة أشـهر وسبع عشـرة ليلة، حتى هزيمة ابن الزبير ومقتله فى ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣هـ، واحتزاز رأسه وإرسالها إلى عبد الملك ابن مروان فى دمشق.

ولقد ضـرب عبد الله بن الزبيـر، ومن ثبت معه، مـثلا رائعًا فى الشـجاعة والصـبر على القتـال، شهد له به أنصـاره وأعداؤه، وكيف لا يتصـف هذا البطل بالشجاعـة وهو ابن الزبير بن العوام أحد قادة الرسول وبطل يوم أحد، وأمه ذات النطاقين، أسماء بنت الصديق.

وقد أورد الطبرى فى تاريخه الحوار الذى دار بين ابن الزبير وأمـه أسماء قبل مقتله، وظهر فيه شجاعة الابن والأم، وعدم الخوف من الموت والإقبال على الشهادة فى سبيل الدفاع عن الحق.

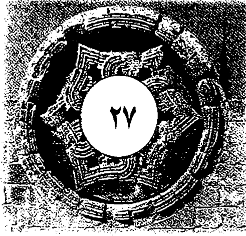
يقـول الطبرى: إن ابن الزبيـر دخل على أمه حـين رأى من الناس ما رأى من خـذلانهم، فقـال: «يا أمه، خذلـنى الناس حتى ولدى وأهلى، فلم يبق مـعى إلا اليسيـر ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ «فقالت» «أنت والله يا بنى أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له. فـقد قُتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان أميـة، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك، وأهلكت من قـاتل معك. وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصـحابى ضعفت فـهذا ليس فعل الأحـرار ولا أهل الدين، وكم خلودك فى الدنيـا! القتل أحسن» فـدنا ابن الزبير فـقبَّل رأسها وقال: هذا والله رأيى، والذى قمت به داعيـا إلى يومى هذا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فـيها، وما دعـانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تُستحل حرمه، ولكنى أحـببت أن أعلم رأيك، فزدتنى بصـيرة مع بصيرتى. فـانظرى يا أمه فإنى مقـتول من يومى هذا فلا يشتـد حزنك



وسلمى الأمر لله فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ولا عملا بفاحشة ولم يجرؤ فى حكم الله ولم يغدر فى أمان ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندى من رضا ربى. اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى، أنت أعلم بى، ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى، فقالت أمه: إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسنا إن تقدمتنى، وإن تقدمتك ففى نفسى، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير من أمرك. قال: جزاك الله يا أمه خيراً فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد. فقالت: «لا أدعه أبدا، فمن قُتل على باطل فقد قتلت على حق. ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام فى الليل الطويل وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة وبره بأبيه وبى، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين». فقال لها وهو يودعها: «يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى» «فقالت: يا بنى إن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها فهى لا تتألم بالسلخ بعد

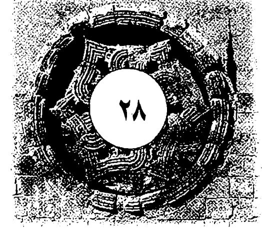


رسم تخيلى لعبد الله بن الزبير وأمه ذات النطاقين قبل معركته مع الحجاج



الذبح، فامض إلى بصيرتك واستعن بالله» فقبل رأسها وانصرف من عندها وهو أشد عزيمة وإصراراً على الاستشهاد، فحمل على أهل الشام حملة منكرة وظل يقاتل بشجاعة حتى قتل يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٧٣هـ، ولقد شهد الحجاج وطارق بن عمرو قائدا جيش عبد الملك بشجاعة ابن الزبير فى قتاله، فعندما وقف على رأس ابن الزبير بعد مقتله قال طارق: «ما ولدت النساء أذكر من هذا» ولكن الحجاج، وإن وافق طارقا على رأيه، استدرك قائلا له: «أتمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين؟» فقال طارق: «نعم، هو أعذر لنا، ولولا هذا، كان لنا عذر. إنا محاصروه فى غير خندق ولاحصن ولامنعة منذ سبعة أشهر ينتصف منا بل يفضل علينا كلما التقينا نحن وهو». وقد بلغ هذا الحديث عبد الملك فصوَّب رأى طارق، ولكنه كافأ الحجاج على نصره على هذا البطل الشجاع، فولاه سنة ٧٣هـ مكة واليمن واليمامة، ثم أضاف إليه فى العام التالى ولاية المدينة بعد عزل طارق بن عمرو عنها.

الحجاج يهدد أهل العراق



وبالقضاء على ثورة ابن الزبير بالحجاز، استقر الحكم لعبد الملك بن مروان فى كل أرجاء الدولة بعد تسع سنوات من الحرب الطاحنة، وبذلك عاد استقرار دولة بنى أمية وتثبتت قواعدها وتخلصت من أكبر الأخطار التى كادت أن تقضى عليها. وعرفانا بجهود الحجاج بن يوسف ودوره الكبير فى الانتصارات التى أحرزتها جيوش ابن مروان، قام عبد الملك سنة٧٥هـ بتولية الحجاج العراق وكل البلاد التى تليه شرقًا من بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر. وقد قام الحجاج بضبط هذه البلاد بشدته المعهودة وقيادته الحازمة الصارمة.

وبعد أن قضى الحجاج على عبدالله بن الزبير، سار إلى العراق فى جيش من أهل الشام، ولما بلغ القادسية أمر الجيش بالاستراحة، وسار هو فى اثنى عشر راكبا إلى الكوفة فدخلها، وصعد المنبر متلثما، وقد تعمم بعمامة من حرير أحمر، فقال: «علىّ بالناس» فحسبوه وأصحابه جماعة من الخوارج فأسرعوا إليه، حتى إذا اجتمعوا إليه قام فكشف عن وجهه وقال:

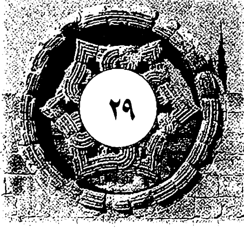
أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

أما والله إنى لأحمل الشر محمله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله، وإنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها، وإنى لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى. وإنى والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز التين ولايقعقع لى بالشنان. ولقد فررت عن ذكاء وجريت إلى الغاية القصوى. إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نشر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها منكسرًا، فوجهنى إليكم، فإنكم طالما أوضعتم فى الفتن وسننتم سنن الغى. أما والله لألحونكم لحو العود ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. إنى والله لا أعد إلا وفّيت ولا أخلق إلا فريت. وإياى وهذه الجماعات وقيلا وقالا وما يقول وفيم أنتم وذاك؟ والله لتستقيمن على سبل الحق أو لأقيمن لكل رجل منكم شغلا فى جسده. من وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وأنهبت ماله»، ثم دخل منزله ولم يزد على ذلك.

فلما كان اليوم الثالث سمع تكبيرًا فى السوق، فخرج حتى جلس على المنبر وقال: «يا أهل العراق، وأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، إنى سمعت تكبيرا ليس بالتكبير الذى يُراد الله به فى الترغيب، ولكنه التكبير الذى يُراد به الترهيب، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف. يابنى اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الأيامى، ألا يربع رجل منكم على ظلعه ويُحسن حقن دمه ويبصر موضع قدمه! فأقسم بالله وأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وأدبًا لما بعدها».

ولقد تصدى الحجاج للثورات التى قام بها الخوارج منذ الدولة الأموية، وكانت شوكة كبرى فى جنب الدولة الأموية، وكانت أحد أسباب زعزعة أساس الدولة ثم انهيارها فيما بعد.

وكان الخوارج، من أول أمر قيامهم كطائفة سياسية دينية معارضة لسياسة علىّ وتجمعهم فى حروراء، ثم النهروان، ثم تفرقهم فى أرجاء الدولة الإسلامية، لم يرضوا بحكم بنى أمية،



لأنهم يقولون بأن الخلافة حق لكل مسلم صالح ترضى عنه الأمة بغض النظر عن لونه وجنسه، وأن الأمويين مغتصبون للخلافة وهم فى حقيقتهم ملوك مستبدون يحكمون بقوة الجيش. وكان الخوارج قد تجمعوا فى نواحى البحرين، وانتشرت جماعات منهم جنوب غربى العراق، وأعلنوا الحرب على الدولة الأموية، وهددوا البصرة والكوفة وكل جنوبى العراق. فتصدى لهم الحجاج فى قوة وحزم، مستعينا فى حربهم بقائده المهلب بن أبى صفرة وأبنائه، وبخاصة فى القضاء على أخطر هذه الثورات التى قاموا بها فى العراق تحت قيادة «عبد الرحمن بن الأشعث». وقد وقعت بين الحجاج والخوارج أكثر من ثمانين معركة، كانت أكبرها وأهمها معركة «دير الجماجم»، وهى المعركة التى انتصر الحجاج فيها على ابن الأشعث، وهرب بعدها إلى بلاد الهند. لكن الحجاج احتال فى القبض عليه بعد استدراجه والتخلص منه بالقتل وإرسال رأسه إلى الخليفة عبد الملك.

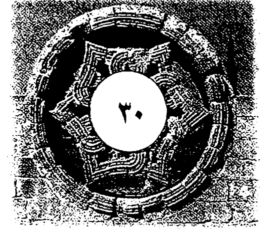
ومن المعروف أن الخوارج اشتهروا بالاستبسال فى القتال والحرب بضراوة، وأنهم كانوا يحملون أرواحهم على أكفهم غير مبالين بالموت. وقد روت المصادر عن مواقفهم الشجاعة وقتالهم الضارى وثباتهم على مبادئهم مهما كلفهم هذا الثبات. وقد شهد لهم الحجاج والمهلب بهذه الشجاعة النادرة وهذه البطولة الزائدة.

وعندما تم للحجاج الانتصار على الخوارج وكسر شوكتهم تمكن من مواصلة الفتوح فى الشرق، واختار لقيادة الجيوش الفاتحة هناك يزيد بن المهلب، ثم تولاها بعد ذلك قتيبة بن مسلم الباهلى، الذى يعد من أعظم الفاتحين فى تاريخ الإسلام. وقد أدت هذه الفتوح إلى اجتياح بلاد ما راء النهر وانتشار الإسلام هنالك بشكل واسع.

أما أرمينيا، التى كان العرب قد فتحوها سنة ٢٥هـ، فى عهد إمارة معاوية على الشام، فقد انتفضت على الدولة الإسلامية أثناء ثورة ابن الزبير، فعمد عبد الملك على معاودة فتحها. فأرسل قواته إلى هنالك وتولت هذه القوات إخضاعها للحكم الإسلامى.

وفى سنة ٨٣هـ، بنى الحجاج مدينة واسط. وفى عام ٨٥هـ، أراد عبد الملك بن مروان أن يخلع أخاه عبد العزيز بن مروان عن ولاية العهد وأن يجعلها لابنه الوليد. إلا أن عبد العزيز توفى بمصر فى جمادى الأولى من نفس العام. فضم عبد الملك عمله إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك وولاه مصر. وفى هذه السنة بايع عبد الملك لابنيه الوليد، ثم من بعده سليمان وجعلهما وليى عهد المسلمين وكتب بيعته لهما إلى البلدان فبايع الناس.

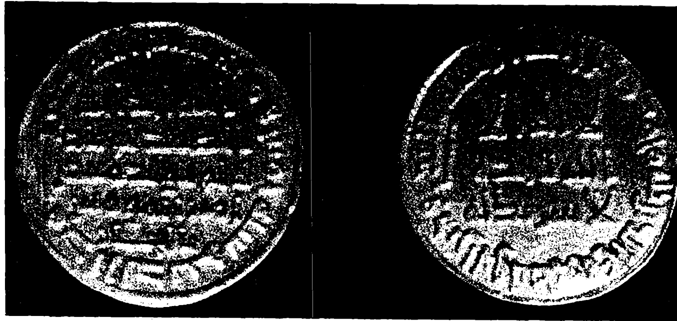
وتوفى عبدالملك بن مروان فى شهر شوال سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م وله من العمر ستون عاما بعد أن حكم عشرين سنة وعدة شهور، تعتبر من أهم فترات تأسيس الدولة الأموية، لأنها سنوات



ثبتت الدولة فيهـا أقدامها وتغلبت على المخاطر التى واجهتـها، ومهدت الطريق للعصر الذهبى للدولة الإسلامية، وعصر الإمبراطورية الإسلامية الكبرى أيام حكم ابنه الوليـد ثم سليمان. وقد توفى عـبد الملك يعد أن أنجب سبعة عشر ولدا.

هذا، وينسب لعـبد الملك بـن مروان تعـريب الدواوين، فصـار يكتب فيها بالعربية بعد أن كـان كل مصر من الأمصار يكتب باللغة التى كان يكتب بها قبل الإسلام، وقد أدى ذلك إلى سرعة تعـريب الأمصار الإسلامية وانتشار العروبة فيها.

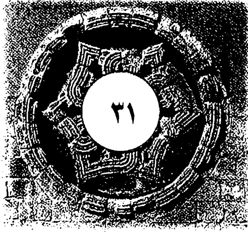
كذلك ينسب لعبـد الملك تعريب العملة الإسلاميـة، ففى سنة ٧٥هـ، أمر بسك أول دينار عربى كتب على وجـه من وجوهه (قل هو الله أحد)، وكتب على الوجه الآخـر عبارة (لا إله إلا الله) وطوق بطوق فضة، وكتب فـيه «ضرب بمدينة كذا...» وكتب خارج الطوق «مـحمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق».



العُملة الإسلامية ودينار عبد الملك

ويرجع السبب فى سك العـملة الإسلامية، أنه حدث أن عـبد الملك كان قذ اسـتحدث أن يكتب فى صدر صحفه المرسلة عـبارة «قل هو الله أحد» مع ذكر النبى ﷺ مع التاريخ. ووصلت صحف من هذه الصحف إلى ملك الروم فغضب لذلك وأرسل إلى عبد الملك يقول له معاتبا:

«إنكم قد أحدثتم فى طواميركم شيئا من ذكـر نبيكم فاتركوه وإلا كتبنا فى دنانيرنا من ذكره ما تكرهون»، فعظم ذلك فى صدر عبد الملك، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية يسأله فى هذا الأمر، فقال له: يا أبا هشام حَرِّم دنانيرهم واضرب لـلناس سككا فيها ذكر الله تعالى وذكر رسول الله ولا تعفهم مما يكرهون». فضرب الدنانير سنة خمس وسبعين، وضرب الحجاج الدراهم ونقش عليه عبارة «الله أحد الله الصمد».

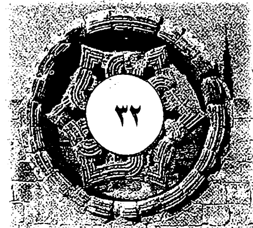


٢- الوليد بن عبد الملك

ولقد ولى الوليد بن عبد الملك الخلافة بعهد من أبيه فى شوال سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م، وبويع له بالخلافة فى المسجد الجامع بدمشق، بعد دفن أبيه، وقد ظل فى الخلافة عشر سنين، مواصلاً ما بدأه أبوه من تأسيس وساعيًا لتوسعتها والعمل على ازدهارها. وقد كان من أفضل خلفاء بنى أمية سيرة عند أهل الشام، فتوسع فى بناء الجوامع وتوسعتها: جامع دمشق، ومسجد الرسول بالمدينة، والمسجد الأقصى ببيت المقدس. وكان الوليد شديد الحب بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضًا عن الأبنية والعمارات». وكان يعطى المجذومين، ومنعهم من سؤال الناس، وأعطى كل مقعد معوق خادما، وكل ضرير أعمى قائدا. وكان عهده عهد يسر ورخاء، كما كان عهد فتوحات كبيرة، فاتسعت فى عهده رقعة الدولة الإسلامية شرقًا وغربًا، وبلغت أماكن لم يصلها المسلمون من قبل. وكان عبد الملك قد أحسن إعداد ابنه الوليد لولاية أمر المسلمين وقام بتدريبه معه على الحكم.



الجامع الكبير بدمشق



ولما كان الحجاج بن يوسف الثقفى قد أقر الأمن والنظام فى شرق الدولة الإسلامية، فإن المجال قد اتسع لمواصلة الفتوحات الإسلامية فى المشرق والمغرب. ولقد ضمت إلى دولة الأمويين بسبب هذه الفتوح فى عهد الوليد بلاد ما وراء النهر، وبلاد السند وشمال الهند، وبلاد المغرب والأندلس.

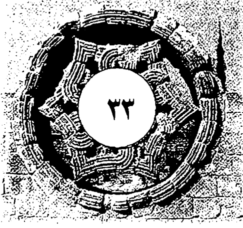
حرق التماثيل البوذية:

وكان الحجاج قد ولّى قتيبة بن مسلم خراسان سنة ٨٦هـ، وأمره أن يقوم بفتح ما وراءها من بلاد، فخرج قتيبة وفتح بلاد ما وراء نهر سيحون، ففتح مدن: بخارى، وسمرقند، وخوارزم، وفرغانة (شرق أفغانستان الحالية)، والشاش، ووصل بقواته إلى حدود الصين. وقد دخل فى الإسلام، على يد قتيبة أعداد كبيرة من الترك، سكان بلاد ما وراء النهر. وكانت لدى الترك هنالك أصنام يعبدونها ويقدسونها ويعتقدون أن من يتعرض لها يموت فى ساعته. فقام قتيبة وجمعها جميعها فى مكان واحد وأحرقها بيده مبينًا لهم هوان أمرها وقلة حيلتها، فدخل فى الإسلام فى تلك الساعة مائتا ألف رجل من رجال الترك.

وفى سنة ٩٦هـ تقدم قتيبة بن مسلم بقواته مخترقا أرض الصين عابرًا حدودها، وسار بقواته حتى وصل مدينة كاشغر، أول مدنهم من ناحية الغرب، وقام بمحاصرتها. واضطر ملك الصين إلى دفع الجزية للمسلمين مقابل رفع الحصار عن هذه المدينة. ولقد كانت النية عند قتيبة أن يتقدم بعد كاشغر إلى بقية بلاد الصين وأن يقوم بفتح كل الصين، لكنه توقف عن ذلك حين توفى الخليفة الوليد فى هذا العام، وجاءه الأمر من خليفته فى الحكم وأخيه الخليفة سليمان عبد الملك بوقف الفتوحات جميعها، والأمر بالعودة إلى دمشق بعد وقفه نهائيا عن قيادة الجيش وعزله عن الولاية بسبب السياسة الجديدة التى وضعها الخليفة الجديد.

قتل الملك الهندى:

وفى سنة ٨٩ هـ/ ٧٠٨ م ولى الحجاج بن يوسف الثقفى ابن أخته محمد بن القاسم الثقفى، وكان شابا فى الرابعة عشرة من العمر، بلاد السند بشمال الهند، فالتقى مع جيش داهر ملك السند، فى معركة حامية، وكان الهنود يقاتلون فوق ظهور الفيلة فلم يرهب ذلك العرب، وهجم رجل من الكلبيين على الفيل الذى كان الملك الهندى يركبه فقتله أولا ثم قتل الملك فانهزم بذلك باقى الجيش حين شهد مصرع مليكه وقائده. واستولى ابن القاسم بعد هذه المعركة على مكران، ثم واصل زحفه فى منطقة (بلوخستان)، واستطاع خلال الفترة ما بين سنوات ٩٣، ٩٤هـ أن يجتاح السند كله ويحتل مرفأ الدبيل، حيث كان يوجد هنالك صنم للإله الهندى (بوذا)



ارتفاعه أربعون ذراعا، فقام بتحطيمه. وسار بعد ذلك إلى النيرون (حيدر أباد الحالية) واحتلها. وفى السنة التالية امتدت الفتوحات شمالا حتى الملتان فى جنوب البنجاب عند سفح جبل الهمالايا.

أخذ الذهب من المعبد:

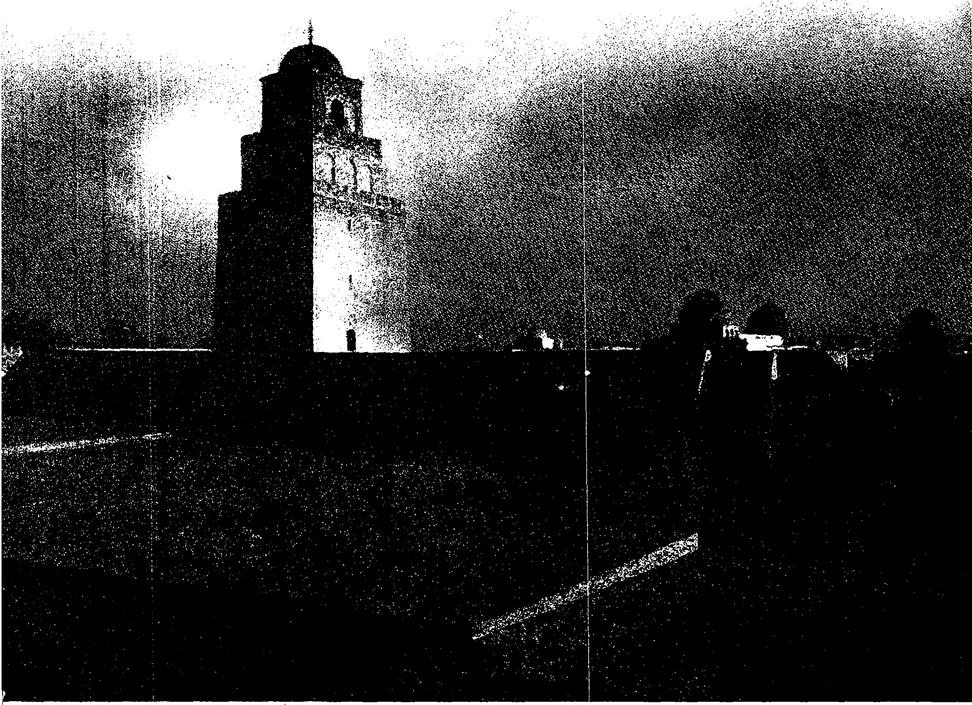
وقد كانت الملتان مركزا لمعبد بوذى قديم وقع بيد الفاتحين المسلمين، وكان المعبد هذا يعرف ببيت الذهب، لكثرة ما كان به من ذهب، وقد ظفر المسلمون من هذا المعبد بالنفائس الكثيرة، وكانت كلها من الذهب. وغدت الملتان، لسنين طويلة بعد ذلك، قاعدة الهند العربية وحصن الإسلام الأمامى فى تلك الأنحاء. وقد نجح ابن القاسم فى حكم هذه البلاد وفى نشر الإسلام بين أهلها والتوسع بالفتح فى بلاد كثيرة فى تلك المنطقة وإعلاء ورفع راية الإسلام فى بلاد شمال الهند وأرض البنجاب.

عقبة يحارب الروم:

وفى عهد الوليد تم فتح المغرب والأندلس، وكان العرب قد بدأوا فتح المغرب من أيام الخليفة عثمان بن عفان، الذى أرسل عامل مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح سنة ٢٧هـ/ ٦٤٨هـ فانتصر فى معركة سبيطلة، جنوبى القيروان. وفيما بين سنتى ٥٠، ٥٥ هـ/ ٦٧٠ - ٦٧٥م أنشأ عقبة بن نافع مدينة القيروان، لتتخذ قاعدة للفتح العربى الإسلامى فى هذه البلاد. وفيما بين سنتى ٦١، ٦٣هـ/ ٦٨١و٦٨٣م، قام عقبة بن نافع بحملة كبرى اخترق فيها المغرب كله حتى ساحل المحيط الأطلسى، وهنالك دخل بفرسه فى مياه المحيط، وأشهد الله أنه وصل براية الإسلام إلى آخر اليابسة، وعند عودته استشهد عند تهودة، جنوبى مدينة قسطنطينة الجزائرية الحالية.

الكاهنة ملكة البربر:

وفى سنة ٨٢هـ/ ٧٠١م قضى القائد حسان بن النعمان الغسانى على ملكة قبيلة بربرية كبيرة، وتدعى (الكاهنة)، وكانت قد تصدت لإيقاف الفتح الإسلامى هنالك، وبقتلها تم فتح إفريقية (تونس) والمغرب الأوسط، وبدأ البربر فى الدخول فى الإسلام، وأنشأ حسان مدينة تونس التى صارت من أهم موانى المغرب الأوسط.

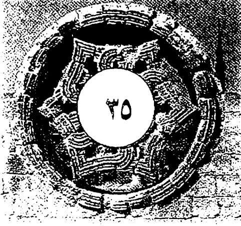


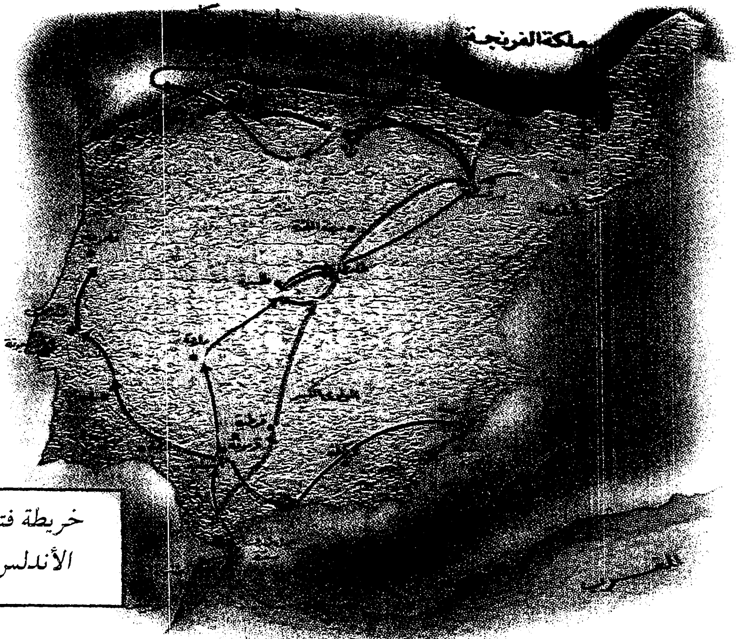
معبد يعرف
ببيت الذهب



طارق بن زياد:

وفيما بين سنتى ٨٥، ٩٥ هـ/ ٧٠٤، ٧١٤ م أتم موسى بن نصير وأولاده، بتكليف من الوليد، بفتح المغرب الأقصى (المغرب الحالى). وأقام موسى مولاه البربرى طارق بن زياد على رأس حملة من العرب والبربر عند مدينة طنجة على ساحل المحيط الأطلسى، ومن طنجة تطلع طارق لفتح البلاد المقابلة للمغرب فى الجانب الأوروبى ولا يفصلها عنها سوى مضيق هرقل الصغير، وهى التى عُرفت ببلاد الأندلس.





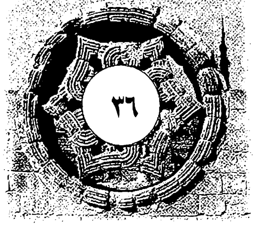
خريطة فتح الأندلس

وبلاد الأندلس، هى بلاد أسبانيا والبرتغال الحالية، وكانت تحت حكم الرومان إلى أن أغارت عليها فى القرن الخامس الميلادى قبائل الوندال الجرمانية، وقام العرب بتعريبها إلى الأندلس.

وفى أوائل القرن السادس الميلادى، أغارت قبائل القوط الغربيين على إسبانيا وطردوا الوندال من إفريقية وكوَّنوا لهم دولة قوية فى إسبانيا، غير أن أمرهم سرعان ما ضعف وعم الفساد فى البلاد،

حروب المسلمين ضد الروم





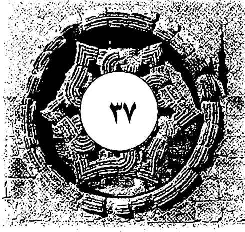
وساد بها الإقطاع، وعانت الطبقة الدنيا من سوء الأوضاع، وقد تم ذلك فى الوقت الذى كانت فيه بلاد المغرب، المقابلة لهم، تنعم بحكم العرب العادل وتشهد الازدهار والاستقرار. فتمنى الإسبان، وبخاصة الطبقة الدنيا من السكان التى كانت تضم فيما بينها اليهود والعبيد، فى الخلاص من حكم القوط الجائر.

ومن طنجة تطلع ابن زياد إلى فتح الأندلس، وقد شجعه على ذلك حاكم سبتة جوليان، للتخلص من الملك الحاكم آنذاك ويدعى لذريق، وكان مغتصباً لعرش إسبانيا. وكان جوليان يضمر العداء للذريق بسبب سوء مسلكه من ابنته. وقد لبى طارق نداء استغاثة أبناء الملك الشرعى به ضد المغتصب لذريق، وقام سنة ٩٢هـ/ ٧١١م بعبور مضيق هرقل، الذى تحول اسمه بعد ذلك إلى مضيق جبل طارق، على رأس قوة إسلامية قوامها ٧٠٠٠ جندى. ثم التقى بقوات لذريق فى موقعة حاسمة فى واد يعرف بوادى لكة (أو وادى بكة) انتصر فيها المسلمون انتصارا حاسما، ثم سار بقواته نحو الشمال فى أرض الأندلس وقطع نحو ٥٠٠ كم ليحتل مدينة طليطلة (توليدو)، عاصمة القوط الغربيين.

وقد كتب طارق إلى موسى بن نصير يبشره بالنصر والفتح، فأسرع موسى وهو يقود جيشًا قوامه ١١ ألف رجل، وطلب من طارق أن يقابله فى طليطلة، وعبر موسى المضيق سنة ٩٢هـ/ ٧١٢م واستولى على أشبيلية وغرب الأندلس، ثم التقى بطارق عند طليطلة، وقام الاثنان مشاركةً فى فتح شمال الأندلس. ولم تنته سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م، حتى كان موسى وطارق قد أتما فتح شبه الجزيرة كلها، ما عدا مناطق الجبال الشمالية التى زهد المسلمون فى فتحها لوعورة سطحها وكان قد التجأ إليها أشراف القوط وكبراؤهم.

المعارك بين القوط والمسلمين فى الأندلس:

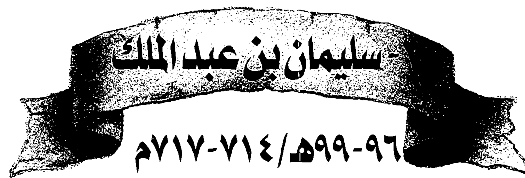
ولم تقف أطماع موسى عند حد جبال البرانس، بل عزم على مواصلة الفتوح فى جنوب بلاد فرنسا الحالية، على أن يتجه شرقا حتى يصل إلى القسطنطينية التى عجز العرب عن فتحها، ثم يستمر فى فتوحه حتى يلحق بحاضرة الخلافة دمشق، وبذلك يجعل البحر المتوسط بحيرة عربية. ولما بلغ الخليفة الوليد ذلك أمره بالكف عن التوسع واستدعاه هو وطارق، لأنه لم يرض أن يعرض المسلمين للخطر. ولأنه كان يخشى ازدياد نفوذ موسى واستقلاله بتلك البلاد إذا أتم فتحها، وكتب إلى موسى أن يعدل عن تنفيذ هذه الخطة الجريئة. فارتحل إلى دمشق سنة٩٦هـ، بعد أن ولى ابنه عبد العزيز بن موسى عليها، وولى ابنه عبد الملك على إفريقيا. وقبل وصول موسى إلى دمشق مرض الوليد مرض الموت، فطلب أخوه سليمان بن عبد الملك، ولى العهد، إلى موسى أن يؤخر المجىء إلى دمشق طمعا فى الحصول على غنائم وتحف الأندلس التى كانت فى حوزة ذلك القائد. غير أن موسى تجاهل طلب سليمان هذا فحقد سليمان عليه، وقد قام بمعاقبته، بعد أن تولى الخلافة، ولا تذكر المصادر بعد ذلك شيئا عن نهايته ونهاية مولاه طارق بن زياد. وكل ما ذكره المؤرخون أنه رحل مع مولاه موسى بن نصير إلى الشام وانقطع خبره.



أما عـبد العزيـز بن موسى بن نصيـر، الذى خلف أباه فى ولاية الأندلس، فـقد قـام بتنظيم الحكومـة وألف مجلسـا خاصـا لاستنبـاط الأحكام الشرعية التى تتـفق وحالة السكان، وعنى بالزراعة ونظم الطرق ورفع عن الإسـبـان مظـالم القـوط وأمن الناس على دينـهم وأمـوالهم وأنفسـهم، وشجع العرب على الاخـتلاط بالإسبـان والتصاهر مـعهم، وضـرب هو فى ذلك المثـل بزواجـه من أرملة لذريق التـى بقـيت على المسيحـية. وكان من أثر مجـاملة عبدالعزيز للمـسيحيين فى الأندلس، أن نقم علـيه بعض أعدائه ووشوا به عند الخليـفة سليمـان، الذى كان يخـشى خروجه عليـه انتقامًـا لمصير أبيـه، فأثار جند الأندلس ضده، وانتهت ثورتهم بقتله، بعد أن حكم هذه البلاد مدة سنتين.

وكانت قوات المسلمـين قد قامت بغزو بلاد الروم فى عهـد الوليد، بقيادة أخيـه مسلمة بن عبد الملك، الذى قـام بعدة حملات سنوية على التوالى فى الفـترة ما بين سنوات ٨٦، ٩٠ هـ / ٧٠٥، ٧٠٨ م، فتحت القوات الإسلامية خلالها بعض حـصون الروم واستولت عليها؛ وبخاصة حصن (طوانة)، أعـظم حصون قـبادوقيـا، وحصن الأخـرم، ومدن عمـورية وهرقله وسمـسطية وأنطاكية.

وفى شهر رمضان سنة ٩٥هـ/ ٧١٣م توفى الحجـاج بن يوسف الثقفى، قائد الوليد العظيم ورجل دولته الأول، وصاحب الفضل الأكبر فى تأسـيس دولة الأمويين وثباتها ودعم بنيانها، وهو ابن أربع وخمسين سنة، وكـانت إمرته على العراق عشرين سنة. وقد توفى الـوليد بن عبد الملك فى منتصف جمادى الآخـرة سنة ست وتسعين، بعد وفاة الحجاج بتسعـة أشهر، توفى فى دمشق وهو يبلغ من العمر ستة وأربعين عاما، ودفن بدمشق خارج الباب الصغير.



أراد الوليد بن عـبدالملك أن يجعل ابنه عـبد العزيز ولى عهـده، ودس فى ذلك إلى القواد والكتاب والشعراء، فـبايعه على ذلك ووافقه على خلع سليمان بن عـبدالملك كل من الحجاج بن يوسف الثقفى وقتـيبة بن مسلم. لكن وفاة الوليد جـاءت مفاجئة، فبايع النـاس لسليمان، قبل أن يمكّن الوليد لابنه، وقد تولى سليمـان الخلافة، بعهد من أبيه، بعد أخيـه فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين،وهو ابن ستة وثلاثين عاما.



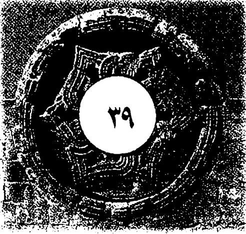
وكانت أيام سليمـان استمراراً لأيام أخيه الوليـد من حيث الجهاد واستمرار الفـتوح. فلقد قام بفتح بلاد جرجان وطبـرستان (جنوبى بحر قزوين) على يد يزيد بن المهلب، أمير بلاد المشرق.

وفى عهده شرع سـليمان فى فتح القسطنطينية، وكـان الوليد قد شرع فى إرسـال حملة للاستـيلاء عليهـا، ولكنه توفى قبل مسـير هذه الحملة، فـلما ولى سليمـان الخلافـة، أنفذ هذه الحملـة ورابط فى مرج دابق، على بعد عشرة أمـيال من حلب، وقد دافع أنستاس الثانى، إمبـراطور الروم، عن عاصمة دولته بكل ما أوتى من قوة، وكان قد انضم إلى جيـش المسلمين فى آسيا الصغرى ليو الأيزورى، الطامع فى الملـك، وانضم بقـواته إلى جـيش مـسلمـة. ووصل الجـيش الإسـلامى إلى أسـوار القسطنطينية بينما رسا أسطولهم خارج مياهها. وكادت القوات الإسلامية تنجح فى إسقاط المدينة، لولا انسحاب ليو الأيزورى بقواته وإعلانه نفسـه إمبراطورا بدلاً من أنستاس الذى كان مكروهًا من الأهلين. واشتد حصار المسلمين للمدينة إلا أن النار الإغـريقية لعبت دورها الهام فى إحراق سفن المسلمين، التى كـانت تحمل الجنود والعتـاد والمؤن. فنفدت الأقوات وتحمل جند المسلمـين الجوع والمرض وهاجمهم الشتاء ببرده وثلوجه. فلم ينجح الحصـار، وفشلت هذه الحملة لإسقاط عاصمة الروم، كمـا فشلت الحـملة السابقة لهـا فى عهـد معاوية، وقـد تأخر سقـوط هذه المدينة فى يد المسلمين سبعة قرون ونصف، ولم يتم لهم ذلك إلا على يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣.

وفى أثناء حصار القسطنطينية توفى سليمان بن عبد الملك، فى مرج دابق من أرض قنسرين يوم الجمعة ٢٠صفر سنة٩٩هـ، ٧١٧م، فكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام.

ولـم يحسن سليـمان تقدير الكثيريـن من قواد الدولة من أسرة الحجاج بن يـوسف الثقفى، لموقفهم من توليه الخلافة، فقام بالخلاص منهم دون أن يشفع لهم عنده تاريخهم الطويل فى الجهاد والفتح والمكاسب الهـائلة التى حقـقوها وذاك الامتداد الـهائل للدولة الأموية فى المشـرق والمغرب والقواد الذين وقع عـليهم غضب سليـمان هم: قتـيبة بن مـسلم، ومحمـد بن القاسم الثـقفى، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد.

وكان سليمان يبغض الحجاج وأهلـه وولاته وقواده، وكان الحجاج يدرك ذلك وكان يخشى أن يموت الوليد قبله فتصـير الخلافة لسليمان فيقع فى يده، وذلك بسبب استجـابة الحجاج وقتيبة للوليد فيما اعتزمه من عزل أخيه سليمان عن ولاية العهد ومبايعة ابنه عبد العزيز بن الوليد مكانه. لكن، لحسن حظ الحجاج، فإن الموت عاجله قبل الوليد بتـسعة أشهر. ولما تولى سليمان الخلافة، قام بالانتقام من آل الحجـاج وقواده، فخلع قتيبة عن ولاية خراسان، وحرض رجـال جيشه ضده على الخروج على طاعـته والتمرد عليـه وقتله. وكان بخراسـان يومئذ ما يزيد على السـتين ألف مقاتل ثاروا ضد قتيبة وقتلوه وقتلوا معه أحد عشر رجلا من بنى مسلم سنة ٩٦ هـ.



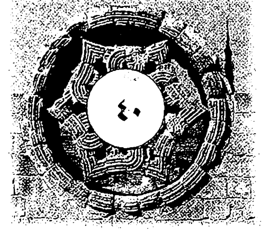
وأمر سليمان بالقبض على ابن أخت الحجاج، محمد بن القاسم، وأمر بتقـييده وحمله إلى العراق مكبلاً بالأغـلال. وما إن وصل العراق حتى سجن فى مدينة واسط، وعذب ثم قتل فى السجن. وبذلك انتهت حيـاة هذا القائد الـعظيم، فاتح بلاد السند وشـمال الهند، هذه النهـاية المأساوية المؤلمة.

ومن الحسنـات التى تذكر لسليـمان بن عبـد الملك أنه أوصى بأن يخلفه فى الحكم من بعده ابن عمه عمـر بن عبد العزيز بن مروان دون أحد من أولاده، ومن بعده يخلفه أخوه يزيد بن عبد الملك.

ولقد أورد صاحب الـفخرى فى ذلك قوله: «لما مـرض سليمان بن عبد المـلك مرضه الذى مات فيه، عزم على أن يبايع لبعض أولاده، فنهاه بعض أصحابه، وقال له: يا أمير المؤمنين إنه مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يستحفظ على الناس رجلا صالحا. . فقال سليمان: أستخـير الله وأفعل، ثم استـشاره فى عمر بن عبد العزيز، فأشار عليه به وأثنـى عليه خـيرا، فكتب سليـمان عهـده إلى عمر بن عـبد العـزيز وختمه ودعـا أهل بيـته، وقال: بايعوا لمن عهـدت إليه فى هذا الكتاب ولـم يعلمهم به، فبايعوا. ثم لما مات جمعهم ذلك الرجـل الذى أشـار عليه بعمر بن عبد العـزيز، وقد كتم موت سليـمان عنهم، وقال لهم: بايعوا مـرة أخرى، فبايعوا، فلمـا رأى أنه قد أحكم الأمر أعلمهم بموت سليـمان». ولقد تغـيرت وجوه بنى عـبد الملك فلما سمـعوا «وبعده يزيد بن عـبد الملك»، تراجعوا فأتوا عمر وسلموا له بالخلافة.



ولد عمـر بن عبد العزيز بمنطقـة حلوان بمصر أيام إمارة والده عـبد العزيز عليهـا، وأمه أم عاصم بنت عاصـم بن عمر بن الخطاب، فجده لأمـه عمر بن الخطاب. نشأ نشـأة صالحة ودرس علوم الدين والأدب والشعـر، ونبغ فى العلم حتى قيل إن العلمـاء كانوا تلامذة مع عمـر بن عبد العزيز. ولما آلت الخلافة إليه تشبه بجده عمر بن الخطاب فى خلقه وسلوكه حتى عرف فى التاريخ بالخليفة الراشد الخامس لما اشتهر به من صلاح وتقـوى وما اشتهر به حكمه، رغم قصر مدته، من عدل وإصلاح وحسن سياسة ومراقبة الله فى كل أعماله. وقد تزوج عمر بن عبد العزيز من فاطمة ابنة عبـد الملك بن مروان، وحفظ له سليمـان بن عبد الملك موقـفه معه وتأييـده له فى أمر ولاية العهـد مع أخيه الوليد وعـدم مبالاته لما تعرض له مـن بطش الوليد، فاختـاره من بعده، لذلك، لخلافة المسلمين.



وكان عـمر من خيـار الخلفاء عالما عابدا زاهدا تقيـا ورعا، ترك رفاهية الإمارة حين عرضت له الخلافة، وعـاش عيشة أفقر فقراء دولته، وكان يشعـر بعظم مسئوليـة الحكم وبحق الرعية عليه من توفـير كل ما يحتاجون إليه لهم قبل أن يوفره لنفسه أو لأهل بيته.

ولقـد أدخل عمر بـن عبد العـزيز الكثـير من الإصلاحـات فى الدولة، وخفف الضـرائب عن الناس ويسر سـبل المعيـشة لهم وأصلح الاقتصاد، وأسـقط الجزية عمن أسلم، وكان بعض حكام بنى أمية لم يسـقطوا الجزية عمن أسلم من أهل الذمة كـما شرع الإسـلام ذلك، بحجـة حاجة الدولة إلى المال، وبذلـك عطلوا حدا من حدود الإسلام، ومـا إن تولى عمر الخلافة حـتى أسقط الجزية عمن أسلم، وقـال فى ذلك قولته المشهورة: «لقـد بعث الله محمدا هاديا ولم يبعثـه جابيا، والله لوددت أن يسلم جميعـهم فأسقط الجزية عنهم حتى لا يدخل بيت المال درهم واحد من ذريتهم». ولقد قام عمر بعزل الولاة والعمال الذين ظلموا الناس ولم يطبقوا العدالة فى حكمهم وأحل مكانهم أهل الدين والصلاح والتقوى.

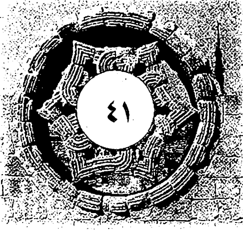
ولقد جنح عمر بن عبد العزيز إلى السلم مع معارضيه والخارجين على حكمه، وتجلى ذلك فى موقفه مع الخوارج ومع الشيعة. وقد أحسن عمر إلى العلويين وأغدق عليهم وقربهم إليه.

وقد تقشف عـمر بن عبد العزيز فى حيـاة خلافته زهدا فى الدنيا وخـيرها تقربا إلى الله، ولقد ذكـرت المصادر أن نفقـته فى اليوم كانت درهمـين. وقد كان قـبل توليه الخلافـة ينعم برغد العيش ويرتدى أغلى الثيـاب وأجملها وكان الذين يعيـبونه من حساده لا يعيـبونه إلا بالإفراط فى التنعم والاختيال فى مشيته، أثناء الإمارة، وأن شباب دمشق كانوا يقلدون تلك المشية المختالة التى عرفت «بالمشية العمرية».

وحين بويع بالخلافة قدم له صاحب المراكب مركب الخليفة المزدانة، فرفضها وقال: «ائتونى ببغلتى».

وقد قال عمر لامرأته فاطمة بنـت عبد الملك، وكان عندها جواهر ورثتها عن والدها لم ير مثلهـا: «اختـارى إما أن ترد حُليك إلى بيت المال، وإمـا أن تأذنى لى فى فراقك، فـإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت واحـد»، قالت: «لا بل أختارك عليه وعلى أضـعافه» فأمـر به فحمل إلى بيت مال المسلمين. فلما مـات عمر وخـلفه من بعده يزيد، قـال لفاطمـة: «إن شئت رددته إليك»، قالت: «لا والله لا أطيب به نفسا فى حياته وأرجع فيه بعد موته».

تـوفـى عـمـر بن عـبـد العـزيز بدير سـمعان، مـن أعمال حـمص، فى ٢٠ رجب سنة ١٠١ هـ/٧١٩ م، بعد أن حكم سنتين وخمسة أشـهر، وهو ابن تسع ثلاثين عاما، وكانت وفاته بالسم، وقد دس له السم بعض آل بيته من بنى أمية بعد أن ضـاقوا بحكمه وشدته معهم وانتزاعه



لكثيـر مما اغتصبوه. سـقاه السم غلام له فى شراب، مـقابل ألف دينار أعطاها بنو أمية لهذا الغلام، فكانت سـبب موته. وفقدت دولة بنى أمية بموته أعظم خلفائها وأعطرهم سيرة وأقومهم حكما. ولعل الله لو أطال فى عمر هذا الخليفـة لتغير حال الدولة الأموية خـصوصا ودولة الإسلام عموما، ولكنها إرادة الله. ولقد حـزن الناس لفقده أيام حكم بنى أمية، كما سبق للنـاس أن حزنوا من قبل لفقد جده عمـر بن الخطاب فى عهد خلافة الراشدين. ولقـد نبشت قبور خلفاء الأمويين، بعـد قيام الدولة العباسية، إلا قـبر عمر بن العزيز الذى ظل معظمًا يغشاه كثير من الناس.

ولقد كان موت عمر بن عبد العزيز نهاية فترة التأسيس والازدهار والتمكين للدولة الأموية، وهو آخر شخصيات الخلفاء الذين ساروا على النهج الراشدى.

وقد اضطرب أمر الدولة بعد موت عمر، وتولى خلفاء لا خبرة عندهم ولا حكمة، أسرعوا بالدولة إلى نهـايتهـا، ومكنوا أعداءها منهـا وهدموا مـا بناه مؤسـسوها فـتحـولت عنهم لأيدى منافسيهم العلويين من بنى العباس.

نظم الدولة الأموية

ظهرت الأسس التى قامت عليها الدولة الأموية فيما أفرزته هذه الدولة من نظم عديدة شـملت المجـال السيـاسى والإدارى والمالى والعـسكرى وتنظيم المجـتـمع واقتـصـاد الدولة وثقافتها.

أولا: النظام السياسى

لقد ترك القرآن الكريم والرسول للمسلمين، بعـد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، تحديد نظام الحكم عندهم، حسب مـا يجدونه صالحًا لدينهم ودنياهم فـتولى الخلافة أربعة خلفـاء عرفوا بالخلفاء الراشدين، وكانت طريقة توليتهم انتخـابية شورية، لكن الخلافة فى العصر الأموى تحولت إلى النظام الملكى الوراثى، مـثلما كان الحال عند الفـرس والروم وممالك العرب القديمـة. وكانت



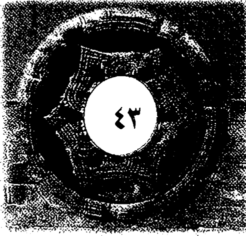
البيعة الخاصة تتم للخليفة عند توليه الخلافة، ثم تؤخذ له البيعة العامة من كافة المسلمين فى مسجد العاصمة الجامع، ثم فى سائر مساجد الدولة المختلفة فى الأمصار، على أنه رئيس السلطة التنفيذية والدينية ينظر فى أمورهم ويتولى زمام شئونهم. وكان مقر الخليفة الأموى، وعاصمته فى دمشق، التى كان الخليفة يحكم منها حكمًا مركزيًا وتصدر الأوامر منها إلى عموم الأمصار.



المسجد الأموى

ولما استقر الأمر لمعاوية استحدث فكرة ولاية العهد، إذ يأخذ الخليفة البيعة لابنه بالخلافة من بعده أثناء حياته، وأن تجدد هذه البيعة عند تولى ولى العهد للخلافة. وقد بايع الناس ابنه يزيد فى حياته، ثم جددوا له البيعة بعد وفاة والده معاوية. وصار ذلك تقليدا متبعا من بعد معاوية يقوم به كل خليفة قائم. وتطور أمر ولاية العهد فى العصر الأموى، ثم فى العصر العباسى من بعده، حيث كان يختار الخليفة لولاية العهد أكثر من ابن من أبنائه.

ولقد اختلف رأى الفرق الإسلامية السياسية والدينية حول اختيار خليفة المسلمين وحول ما ابتدعه الأمويون فى هذ الخصوص. فقد رأى العلويون، الذين عرفوا فيما بعد كفرقة سياسية باسم الشيعة، أى أشياع على وآل بيت الرسول ﷺ، أن الخلافة حق لآل البيت من نسل على من السيدة فاطمة ابنة الرسول ﷺ. وهم يرون أن الخلافة أو الإمامة، يجب ألا تخرج عن بيت النبى، لأن هذا البيت، فى رأيهم، بانتمائه للنبى ﷺ، قد ورث الدين والدنيا. وهم يرون أن عليا وأبناءه من بعده أحق بالخلافة بعد رسول الله ﷺ، وأنها يجب أن تكون وراثية فيهم وفى أولادهم وأحفادهم. وهم يرون، بذلك، أن وصول الأمويين للحكم وصول غير شرعى وأنهم مغتصبون للخلافة.



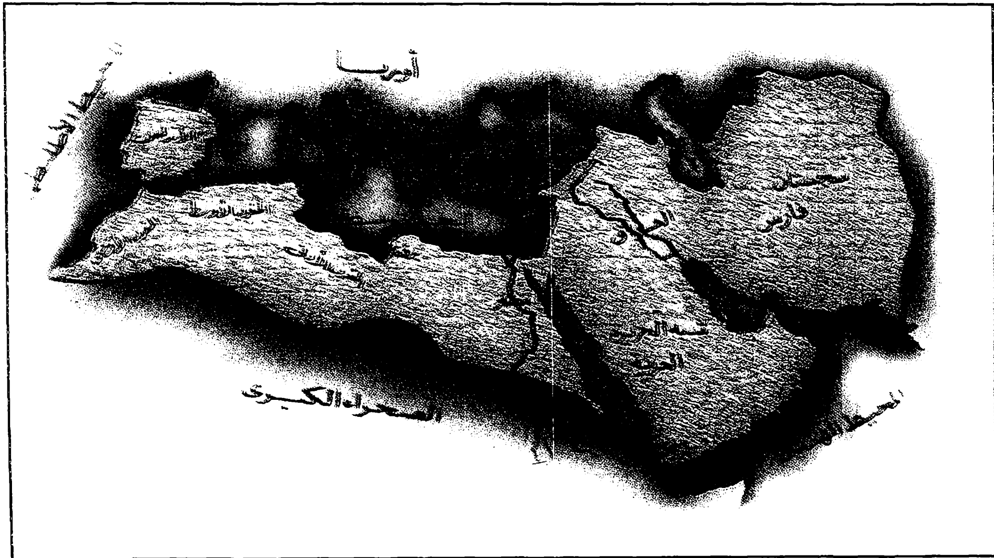
أما رأى الخوارج فى الخلافة، فهم يرون أن تكون باختيار حر من المسلمين، ولا يشترطون أن يكون الخليفة عربيًا ولا قرشيًا ولا ينظر للونه أو لجنسه، وإنما الاختيار حاصل بموافقة المسلمين عليه، وإذا اختير فليس له أن يتنازل عن الحكم، ووجب على الجماعة الإسلامية عزله إذا هو حاد عن الطريق المستقيم ولم ينفذ شرع الله تنفيذًا تامًا. وعلى ذلك فهم يقولون بعدم صحة خلافة الأمويين.

أما رأى المرجئة، وهى الطائفة السياسية الدينية التى ظهرت فى دمشق مع بداية حكم الأمويين، فإنها ترضى بحكم بنى أمية، على اعتبار أنه الحكم الذى ارتضته غالبية المسلمين وتصالحوا عليه وحقن دماءهم.

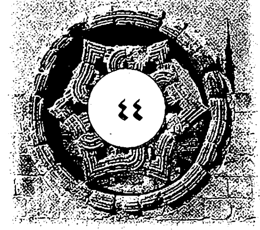
أما المعتزلة (القدرية)، فإنهم يتفقون مع الخوارج والشيعة فى رأيهم بعدم صحة خلافة بنى أمية.

وكان لابد، بطبيعة الحال، للخليفة من حكومة تعاونه، وفى العهد الأموى استخدم خلفاء الأمويين رجالا يقومون بعمل الوزراء، ولكن لم يلقبوا بلقب الوزير. فقد استخدم معاوية بن أبى سفيان زياد بن أبى سفيان كوزير له، كما استخدم عبد الملك بن مروان رجالات من ثقيف مثل الحجاج بن يوسف الثقفى كوزراء له.

وقد تقسمت الدولة فى عهد الأمويين إلى خمس ولايات كبرى، هى ولاية الحجاز واليمن ووسط شبه الجزيرة، وولاية العراقين العربى والعجمى، وولاية بلاد الجزيرة، وولاية مصر بقسميها، وولاية أفريقية الشمالية، غربى مصر وبلاد المغرب وجزر البحر المتوسط، وقاعدتها القيروان. وكان على كل ولاية من هذه الولايات والٍ من البيت الأموى أو من رجالات الأمويين الموثوق بهم، وقد حرص الأمويون على أن يكون ولاتهم على هذه الولايات من العرب.



خريطة الدولة الأموية فى أقصى اتساع لها





تقسمت الإدارة، داخل العاصمة المركزية فى الدولة الأموية، إلى ما عرف بالدواوين، وهى تقابل الآن الوزارات والمصالح الحكومية التى تتولى إدارة شئون الدولة الداخلية والخارجية.

ولقد كان قبل الدولة الأموية هنالك ديوانان، هما: ديوان العطاء وديوان الجند، وقد زاد عليها أربعة دواوين أخرى فى عهد هذه الدولة وهى:

ديوان الخاتم، وديوان الخراج، وديوان الرسائل، وديوان المستغلات.

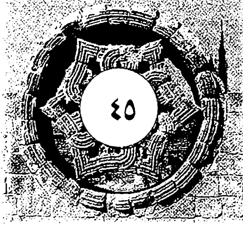
وقد كان الخليفة يشرف إشرافًا مباشرًا على هذه الدواوين، وكان فى بعض الأحيان، ينيب عنه أحد الأمراء أو أحد المقربين إليه للإشراف على ديوان منها أو على عدة دواوين.

البريد:

ولقد اهتم حكام الدولة الأموية بالبريد، وكان الخليفة معاوية أول من اتخذه منهم. اقتداء بما كان عند الفرس والروم. وفى عهد عبد الملك بن مروان أدخلت تحسينات كبيرة على نظام البريد فى الدولة الأموية، فقد أنشأ هذا الخليفة مصلحة بريدية منظمة خدمة لموظفى الدولة وتسهيلا لمراسلاتهم، أقامها على الأساس الذى وضعه معاوية. وقد جعل عبد الملك منها شبكة محكمة تربط أجزاء الدولة الواسعة. فعمد تحقيقًا لهذه الغاية إلى إجراء الخيول بصورة منتظمة، فى مراحل متتابعة، بين دمشق من جهة وقواعد الولايات من جهة أخرى. وأقام على البريد موظفين مسئولين، كان من جملة ما ترتب على كل منهم أن ينهى إلى الخليفة كل ما يحدث فى منطقته من الأحداث الهامة.

وكان عبد الملك يسمح بدخول صاحب البريد عليه فى أى ساعة كانت من ليل أو نهار. ولقد استفاد الوليد بن عبد الملك من هذا النظام واستخدمه فى تنظيم أعمال البناء وإنجاز مشاريع العمران. وقد كان البريد، فى العصر الأموى فى غالبيته، ينقل عن طريق البر، وكانت تخصص محطات على كل مرحلة من مراحلهم للبريديين وللدواب التى تنقلهم.

كذلك أقام الأمويون نظام الشرطة، استمرارًا لقيامه فى عهد الراشدين، وكان الخليفة الأموى يعين صاحب الشرطة، أو رئيس الشرطة، الذى كان مثل وزير الداخلية اليوم، فى عاصمة



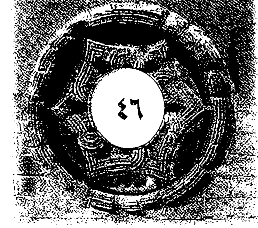
الدولة، أما فى الأقاليم فكان كل أمير يولى صاحب شرطة إقليمه أو ولايته. وقد تخير خلفاء الأمويين لمنصب صاحب الشرطة كبار القواد وعظماء الخاصة ممن تتوافر فيهم شروط تولى هذا المنصب الخطير الذى يحتاج صاحبه إلى مواصفات تؤهله له.

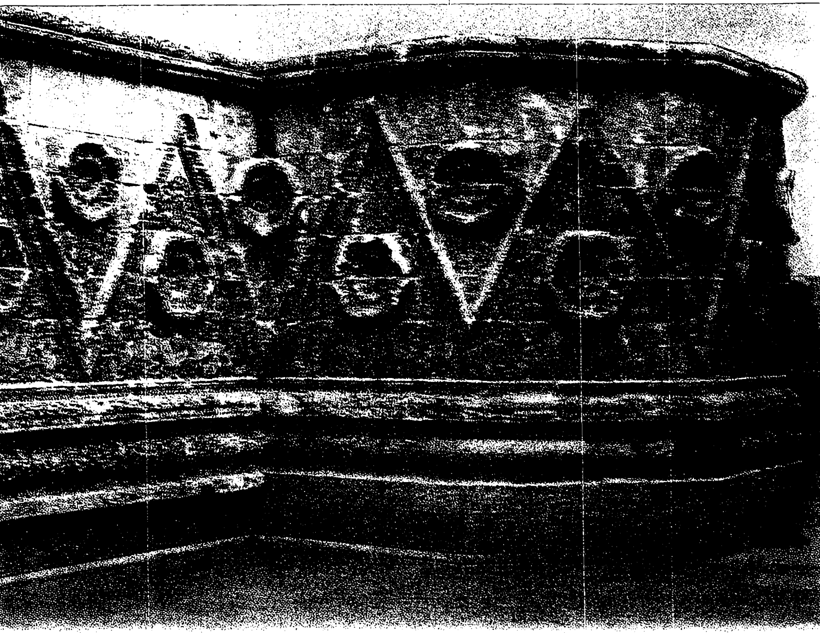
وكان صاحب الشرطة يشرف على السجون فى الدولة، وقد تطورت السجون فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذى جعل لها ديوانًا خاصًا، عرف بديوان السجون والمحابيس، يشرف عليها ويتولى أمرها. وقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بحسن معاملة المساجين، والفصل بين فئاتهم فى المحبس على حسب نوع جرائمهم وبتخصيص سجن مستقل للنساء. كذلك أمر بالعناية بمرضى السجون وكسوتهم فى الصيف والشتاء، وأمر بألا يقيد المحابيس فى محبسهم حتى لا تعيقهم القيود عن أداء الصلاة.

أما النظام المالى:

فقد وضعت الدولة الأموية سياسة نظامها المالى على أساس تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها. وقد كان بيت المال يتولى هذا الأمر، وهو يشبه وزارة المالية فى العصر الحالى، ويقوم صاحب بيت المال والمشرف عليه بمهمة وزير الخزانة، وموارد بيت المال إما أن تكون ضريبة على الأرض من خراج وضريبة عشرية، وإما تكون من الغنائم والفىء وضريبة المعدن والضرائب على التجارة والجمارك (العشور) إضافة إلى الجزية المفروضة على أهل الذمة، وأموال المواريث. ولقد كانت الجزية تسقط عمن أسلم، لكن بعض حكام الأمويين لم يكونوا يسقطونها بحجة حاجة الدولة إلى الأموال، لكن الخليفة عمر بن عبد العزيز تشدد فى إسقاطها عمن أسلم من الذميين.

وقد كانت موارد بيت المال تكفى حاجة الدولة فى عهد الأمويين بسبب عائد الفتوحات الإسلامية الكبير الذى كان يرد إلى الدولة، وبسبب الأراضى الجديدة الكثيرة التى كانت تضاف إليها. إلا أن تكلفة الحملات وإعداد الجيوش فضلا عن محاربة الثوار من خوارج وشيعة وغيرهم كانت تكلف الدولة الكثير، الأمر الذى دفعها إلى فرض ضرائب جديدة على الشعب عرفت بالمال الهلالى. فضلا عن حاجة الدولة لإصلاح ما تخربه الحروب وللإصلاح عموما. ولا يفوتنا أن نذكر أن النظام الذى أقره الخليفة عمر بن الخطاب وسارت عليه الدولة الأموية، كان يفرض لكل مسلم دوَّن اسمه فى ديوان العطاء رواتب سنوية ثابتة، كذلك لمن دوَّن اسمه فى ديوان الجند راتبا ثابتا له ولعائلته. كذلك كان بيت المال يقوم بدفع رواتب الولاة والعمال والقضاة والموظفين، كما يقوم بصيانة مرافق الدولة وتجديدها وتسليح الجيش وتجهيز الأسطول وحماية الثغور والنفقة على السجون وعلى المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية، هذا إضافة إلى مخصصات خلفاء الأمويين ومخصصات بلاطهم واحتياجات قصورهم من نفقة ومصروفات.





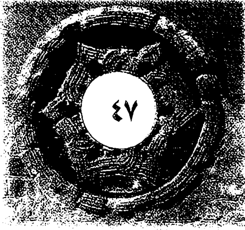
صور من قصور الأمويين (المشتى)

وبخصوص العملة، فقد استمر التعامل فى الدولة الأموية بالدينار الرومى والدرهم الفارسى مثلما كان فى السابق، لكن عبد الملك بن مروان أمر بتعريب العملة وأوكل ذلك الأمر للحجاج بن يوسف الثقفى، واليه على العراق. وقد قام الحجاج بالفعل بضرب دراهم ودنانير إسلامية فى أول دار ضرب إسلامية أقيمت فى مدينة واسط بالعراق. وقد أمر الخليفة عبد الملك بالتعامل بهذه العملات العربية الجديدة فى كل الأمصار، ووقف التعامل بغيرها من العملات، ولقد استمر هذا الحال قائما طوال العصر الأموى، الأمر الذى أدى إلى استقرار العملة الإسلامية وفرضها على الأسواق العالمية.

ولقد راعى النظام المالى الأموى، أن يكون إلى جانب بيت المال العام فى العاصمة دمشق هناك فروع له فى الولايات، فقد كان فى كل ولاية من ولايات الدولة بيت مال مصغر يشرف على مالية إقليمه الذى يتبعه، ويقوم المشرف عليه، وغالبا ما يكون عامل الخراج أو الوالى بجمع واردات إقليمه فيه والصرف منه على ما تحتاجه الولاية من مصروفات، ثم إرسال الفائض منه إلى بيت المال العام مع تقديم كشوف حسابات تفيد الدخل والمنصرف.

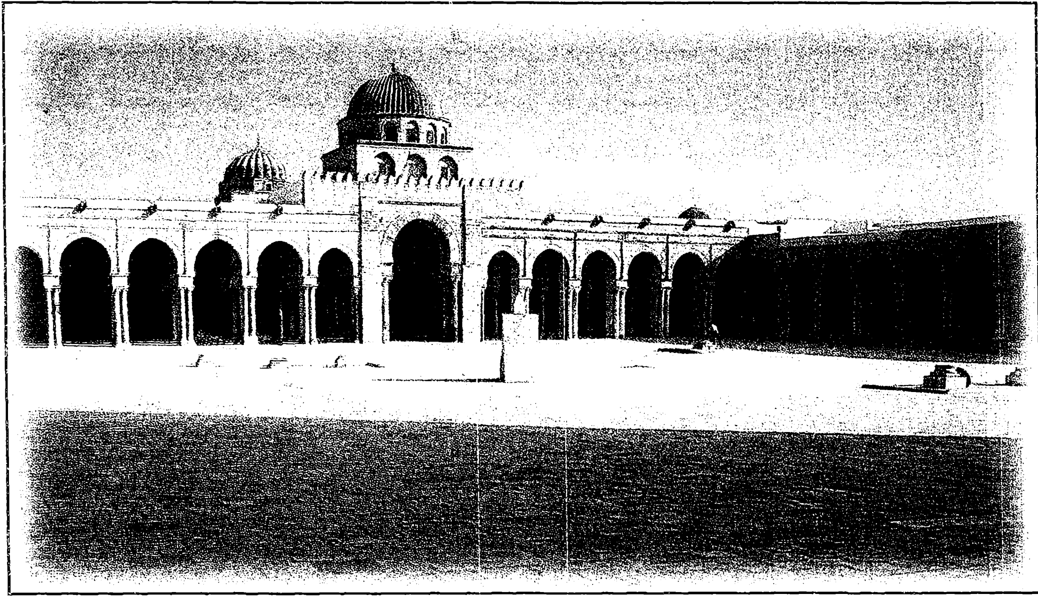


الدرهم الفضى سنة ١٠٥هـ



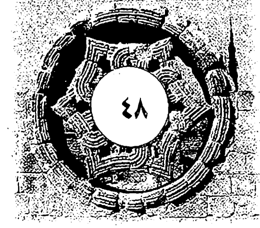
ثالثا - النظام العسكرى

كان الخليفة عمر بن الخطاب قد أنشأ ديوان الجند، خصص فيه الجند المقاتلين الذين تفرغوا لأعمال الجندية نظير رواتب ثابتة تدفع لهم ولأسرهم تكفيهم معاشهم، يحصلون عليها من هذا الديوان. وبذلك تفرغ المقاتلون للقتال، وقد كان عمر يقيم لهم معسكرات فى البلاد المفتوحة تجعلهم لا يختلطون بأهالى هذه البلاد، ولكن سرعان ما تتحول هذه المعسكرات إلى مدن وعواصم لهذه البلاد، مثلما حدث مع الفسطاط والقيروان وغيرهما، وإلى عمر يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الطويلة الدائمة لراحة الجنود، والقلاع لصد هجمات الأعداء.



القيروان سنة ١٥١هـ

ولقد أكمل الأمويون ما بدأه عمر فى نظام الجندية فأدخل عبدالملك بن مروان نظام التجنيد الإجبارى، ونظم الجيش تنظيمًا دقيقًا فى عهده على يد قائده الكبير الحجاج بن يوسف الثقفى. وكان الجيش الإسلامى قبل عهد عبدالملك يتألف من العنصر العربى، إلا أن هذا الخليفة وخلفاء



الأمويين من بعـده، سمحوا بتـجنيد شعـوب البلاد المفتوحـة من فرس وترك للمشـاركة فى الجهـاد وفتح بلاد ما وراء النهـر. كذلك سمـحوا للبربر، بعد أن دخلوا فى الإسلام، بالمشاركة فى الجيوش العربية الفاتحة لبلاد الأندلس، وكان منهم القادة مثل طارق بن زياد.

ولقد قُسم الجيش الإسلامى فى العـهد الأموى إلى فرق، وكانت الفرقة تتألف من عـشرة آلاف مقاتل يولى عليهم أميـر. وتنقسم الفرقة بدورها إلى عشرة كتائب كل كتيبة بها ألف مقاتل عليهم قائد، وتنقسم الكتيبة إلى مائة فصيلة كل فصـيلة تتكون من عشرة جنود عليـهم عريف. وقد تكونت فـرق الجيش الإسلامى، فى العـصر الأموى، من عناصر الفرسان والمشاة والكشافة والرماة والنفاطين والمنجنيقيين. ، وتنوعت وتعددت أسلحة هذا الجيش ما بين سيوف ورماح وحراب وسهام ودروع ودبابات ومنجنيقات، ونار إغريقية فى أواخر أيامهم.

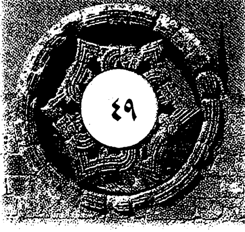
ولقد اهتمت الدولة الأمـوية بشأن الأسطول، ابتداء من عهد حكم معـاوية بن أبى سفيان، وقد سار خـلفاء الأمويين من بعده على سنتـه من حيث الاهتمـام ببناء الأسطول وتجهيزه للقـيام بالحملات البحرية، حتى نافسوا الـروم فى ذلك وسيطروا بسفنهم على البحر المتوسط وحولوه إلى بحيرة عربيـة بعد أن كان بحيرة رومية. وقد رتب خلفـاء هذه الدولة الغارات البحرية على الدولة البيزنطية صيفا وشتاء، وبلغ أسطول الشام ١٧٠٠ سفينة مجهزة تجهيزا كاملا.

ولقد سعت الدولة الإسلامية جادة فى بناء سفنها الحربية وتوفير المواد اللازمة لهذه الصناعة وتخصـيص دور صناعتـها فى الموانئ السـورية والمصرية والمغـربية. وتنوعت سـفن هذا الأسطول واختلفت فى أحجـامها وأشكالها تبعا للمـهمات التى كانت تقوم بها، وكـان من بينها: الشوانى (جـمع شـونة)، والبـوارج. والقراقـيـر، والصنادل، والطرادات، والحـراريق، والعـشـاريات، والسميريات، والبطس (ومفردها بطسة) والأغربة وغيرها.

كما تعددت أسلحة الأسطول، فقد كانت هنالك إلى جوار الأسلحة التقليدية التى يتزود بها المقاتلون فى البر، أسلحة خصصت لقتال البحـر مثل الكلاليب، والباسليقيات، والنار الإغريقية، والسلالم الخفيفة والحبال، وغيرها.

ولقد خاض الأسطول الأموى معارك كثيرة فى البحر المتوسط، وأحرز انتصارات كبيرة فيه، واستولى على جزره، وفرض سيادته عليها واتخذها قواعد ثابتة له.

كذلك شارك هذا الأسطول فى حصار القسطنطينيـة أكثر من مرة، وكان له دوره فى تهديد هذه العاصمة الحصينة.



يقول ابن خلدون فى صدد تقدم الأسطول الإسلامى أيام الأمويين مانصه: «. . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم، وصارت أمم العجم خولا لهم تحت أيديهم وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها، فشرهوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشوانى، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس.

وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصًا على مراسم الجهاد، ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول ابن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا».

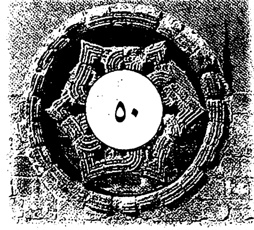


رابعا - النظام القضائى

كان القضاء فى عهد الراشدين مستقلاً محترم الجانب، وكان الخلفاء يتشددون فى اختيار القضاة ممن عرفوا بالعلم والحزم والعدالة والنزاهة، ولم يكن للقاضى، فى أيامهم، كاتب أو سجل تُدون فيه الأحكام، ولم يكونوا فى حاجة لذلك؛ لأن الأحكام كانت فورية التنفيذ، ولم يكن القضاة يتقاضون أجرًا آنذاك وكانوا يحتسبون أجرهم على الله فى عملهم هذا.

ولقد استمر استقلال القضاء فى العهد الأموى، ولم يتأثر بالسياسة كما لم يتدخل الحكام فى شئونه، فلم يتأثر القضاء فى عهدهم بميول الحكام ولم يخشوا سطوتهم، وكانت كلمتهم نافذة على الولاة وعمال الخراج والبيت الخلافى الحاكم. كذلك كان القاضى يحكم بما يوجه إليه اجتهاده، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التى تقيد بها القضاة قد ظهرت بعد، فكان القاضى فى هذا العهد يستنبط الحكم بنفسه من الكتاب والسنة، أو الإجماع أو يجتهد فى الحكم اجتهادًا، وقد ظهر فى العهد الأموى أئمة كثيرون اجتهدوا فى التشريع، مثل الإمام الأوزاعى وغيره.

وكان خلفاء الأمويين يعينون القضاة فى العاصمة دمشق، وكانوا يتركون أمر تعيين قضاة الأمصار لولاة الأمصار، وقد بدئ فى ذلك العهد، بتسجيل الأحكام لاتساع الدولة وكثرة عدد القضايا وللحفاظ على حقوق الناس من الضياع، كذلك تفرغ القضاة لعمل القضاء، وخصص خلفاء الأمويين رواتب ثابتة لهم نظير ذلك، تكفى القاضى مؤنته ومؤنة أهل بيته وتمنعه من الرشوة أو النظر إلى مافى أيدى الناس.



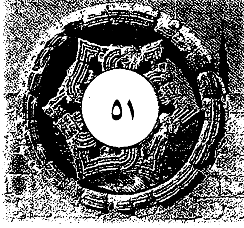
وقد كان القضاة فى العصر الأموى من خيرة الناس، يخشون الله ويحكمون بين الناس بالعدل. وعلى الرغم من أنهم كانوا مستقلين فى أحكامهم، كان الخليفة يرقب أحكامهم ويعزل من يشذ منهم عن الطريق السوى. ولقد حكى الكندى «أن هشام بن عبد الملك بلغه أن القاضى يحيى بن ميمون الحضرمى لم ينصف يتيمًا احتكم إليه بعد بلوغه فكتب إلى عامله على مصر يقول: اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذمومًا مدحورًا، وتخير لقضائك وقضاء جندك رجلا عفيفًا ورعًا تقيًا سليمًا من العيوب لا تأخذه فى الله لومة لائم».

ومن هذه العبارة نتبين الصفات التى كان يجب أن تتوافر فى القاضى فى ذلك العصر، وقد قال عمر بن عبدالعزيز عن صفات القاضى: «إذا توافر فى القاضى خمس خصال فقد كمُل، علمٌ بما كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم على الخصم، واقتداء بالأئمة، ومشاركة أهل العلم والرأى».

ولقد ارتبطت الحسبة بالنظام القضائى، كذلك ارتبط به النظر فى المظالم، ولقد كان صاحب الحسبة أو متوليها يُعرف بالمحتسب، وكانت وظيفته تنحصر فى مراقبة أعمال السوق وما يجرى بداخله، والمحافظة على النظام فيه وتحرى أمر نظافته، وتحرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وقد نشأ هذا النظام فى عهد الراشدين واستمر على ماهو عليه فى عهد الأمويين. ولقد ظلت الحسبة فى العهدين الراشدى والأموى تعتمد على المجهودات الفردية للأشخاص، ولم تعتمد كوظيفة حكومية رسمية إلا فى العصر العباسى.



المحتسب فى السوق



أما النظر فى المظالم، فقد كانت سلطة صاحب المظالم القضائية أعلى من سلطة القاضى والمحتسب، وهى تشبه محاكم الاستئناف الحالية. وقد دعت الحاجة فى العصر الأموى إلى إنشاء مجالس المظالم لوقف تعدى ذوى الجاه والحسب، لذلك كان النظر فى المظالم يقوم به الخلفاء بأنفسهم ويجلسون له، أو يسندونه إلى رجل جليل القدر كثير الورع إذا ما طرأ للخليفة من أمور تمنعه عن حضور مجلسه.

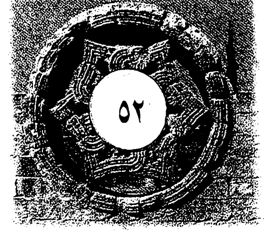
ولقد كان من اختصاص صاحب المظالم النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا لم يتحروا العدالة، كذلك على عمال الخراج إذا ماهم اشتطوا فى جمع الخراج والضرائب، وعلى كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة، كذلك كان من اختصاصه تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام، ومراعاة إقامة العبادات كالجمع والحج والجهاد. ولقد حرص خلفاء الأمويين على حضور مجالس المظالم، وأحاطوا أنفسهم فى هذه المجالس بالحماة والأعوان والقضاة والحكام والفقهاء والكتاب.

خامسا - تنظيم المجتمع

احتوى مجتمع الدولة الإسلامية فى عهد الأمويين على عنصرين أساسيين من السكان، وهما العنصر العربى وعنصر الموالى، ولم يكن هذان العنصران منفصلين عن بعضهما البعض بل حدث الاختلاط والامتزاج بينهما. والعنصر العربى هو العنصر الذى أقام الدولة، وهو الذى كان له الحكم فيها ، وهو بمثابة العمود



مظهر من مظاهر المدن الإسلامية فى العهد الأموى.

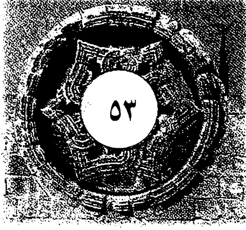


الفقرى للجسم، وهو الذى حقق النصر وحقق توسع الدولة على حساب أكبر أمتين كانتا فى عصره، وهما الفرس والروم، ولقد أعطاه هذا النصر نوعا من الثقة والاعتداد بالنفس، جعله، فى ظل الإسلام، يفتخر بهذا الأصل العربى. ولذلك احتفظ العربى فى ظل دولته العربية بالنزعة العصبية: عصبيته لقبيلته وعصبيته للجنس العربى عمومًا.

ولقد بارك الحكم الأموى هذه النزعة وقواها عند العرب، لذا صار العرب فى عهدهم حكام وقواد هذه الدولة. وقد اتهمت الدولة الأموية بتعصبها للعرب، وأن حكامها عملوا على استيقاظ عصبية الجاهلية التى نهى الإسلام عنها. فتعصب كل خليفة من خلفائها إما للعرب اليمنية أو العرب القيسية المضرية، مما أدى إلى إحياء الصراع العربى القديم بين هاتين العصبيتين فى الجاهلية.

وأخص ما نلاحظ فى هذا العصر الأموى، هو اتصال العرب بغيرهم إما بالهجرة، أو بانتقال الموالى والأسرى إلى البلاد العربية ومرابطة الجيوش الإسلامية فى الثغور البعيدة. كذلك نلاحظ تقليد العرب للأمم التى غلبوها فى نظمهم السياسية والإدارية والاقتصادية. كل هذا كان من شأنه تغيير طبيعة العربى بالتدريج حتى إذا قوى هذا التغيير ظهرت آثاره فى حياة العرب الاجتماعية عامة، وأخذت هذه الآثار تظهر أكثر فأكثر حتى شعرنا بأن هنالك فروقًا باتت واضحة بين هذا العصر والعصر الأول للإسلام، حيث لم يكن هناك تأثير خارجى على العربى ولم يكن يعرف الترف والرفاهية، ولم تكن الإدارة العربية قد تأثرت تأثيرًا بعيدًا بالإدارة الرومية فى الشام والفارسية فى العراق، ولم يكن الاتجاه للنقل والاقتباس والتمدن قد ظهر.

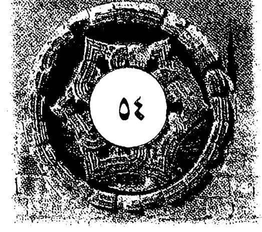
أما عنصر الموالى، وهى تسمية تطلق على الشعوب غير العربية التى خضعت لحكم العرب من فرس وترك وبربر وقبط وروم وأرمن وغيرهم، وقد تغلغل هؤلاء الموالى، الذين أسلموا، فى الحياة الإسلامية وشاركوا فى جميع مجالاتها. ولكنهم شاركوا على أنهم محكومون وليسوا حاكمين، ولو أنهم كانوا يشعرون بينهم وبين أنفسهم أنهم أرقى من العرب ثقافة وأعرق حضارة. ولقد شارك هؤلاء الموالى العرب فى كل ما عمل على نهضة الدولة وتقدمها، وتغلبوا عليهم فى



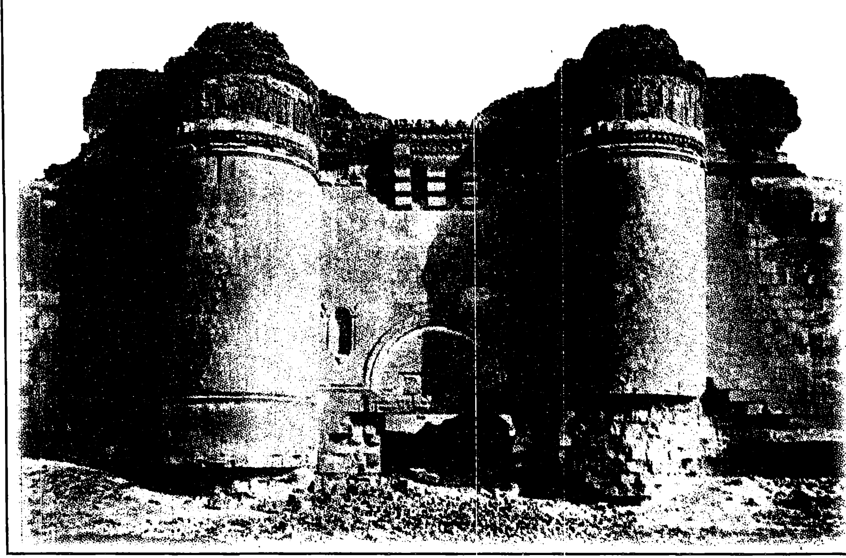
أمـور لم يكن العرب يحـسنونهـا كأمـور المال والزرع والصناعـة، وفى العصر الأموى، تدخل هؤلاء الموالى فى الحيـاة الخاصة الدقيقة للحكام، وامتلأ بهم البـلاط الخلافى ونهضوا بالواجبات العـسكرية نهوض العرب بها، ولقـد حُرم هؤلاء الموالى فى العهدين الراشـدى والأموى من تولى الحكم ومناصب الدولة العليا وقيادة الجيش والقيد فى ديوان الجند، الأمر الذى أدى إلى قيامهم بالثورات على الحكومة الإسلامية وطلبهم المساواة بالعرب. وعلينا أن نلاحظ أن العرب كـانوا قلة داخل الدولة الواسعـة التى كونوها بعـد الفتوح، لذلك ظلت مـطالبة الموالى بالمساواة مع العرب فى تزايد، ولما لم يجدوا استجـابة من حكام الأمويين انضموا للعناصر المعادية لهم والتى عملت على زوال حكمهم مثل جماعة الشيعة وجماعة الخوارج.

وفى الحقيقة إذا ناقشنا مسألة التفرقة فى المساواة بين العرب والموالى مناقشة موضوعية، نجد أن هذه المسألة لم تكن فى كـل أقاليم الدولة الأموية بشكل وقـدر متشابه، بـل اختلفت من إقليم لآخر. فلقـد تمثلت هذه التفرقـة تمامًا فى العراق، وذلك لكثرة أعـداد القوات العربيـة التى كانت ترابط هناك، وبخاصـة فى البصرة والكوفـة، معاقل الثورات ضـد الأمويين، ولقد تجلت التفـرقة داخل هذه القوات بيـن عرب اليمنيـة وعرب المضرية، وهى من بـاب أولى تكون أشد ضد غـير العرب، لكن هذا النوع من المعـاملة اختلف فى الشام تمامًا عـما هو عليه فى العـراق، فالأمويون كانوا ينظرون لموالـى الشام على أنهم أتباع لهم، ولذلـك كان لهم شىء من الامتـياز والاعتـبار، وذلك لشدة اتصـالهم بالخلفاء وكبار رجـال الدولة. ولقد كان كـثير من موالى الشـام يعملون فى الوظائف الهامة للدولـة سواء كانت سياسيـة أو إدارية أو مالية أم عسكرية، وقـد كانت ثقة حكام الأمويين بهم ثقة كبيرة وزائدة. من أجل ذلك تميز وضع الموالى فى الشام عنه فى العراق.

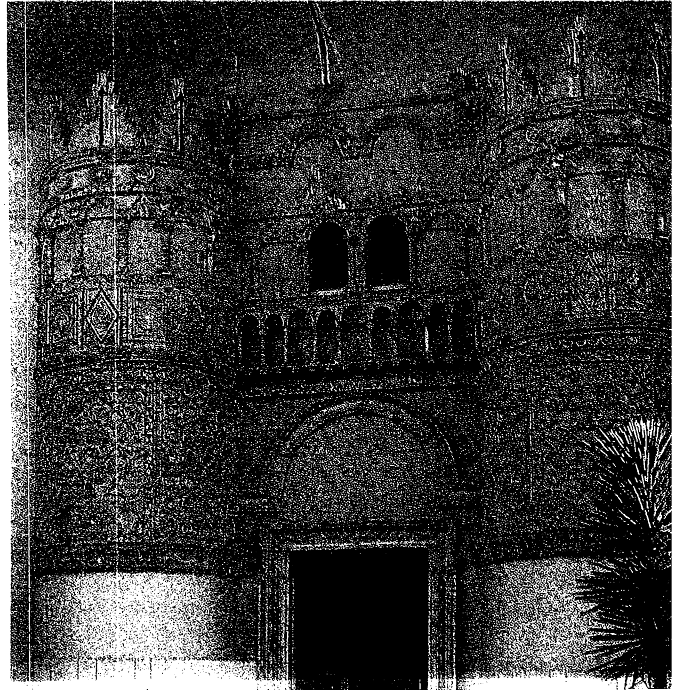
أما الموالى فى الحـجاز، فقد كـان وضعهم أحسن من وضـعهم فى الشام، وذلك لاعتـماد الطبقة العربيـة المترفة التى كانت تعيش هناك عليهم فى كل أمورهم، وكـانوا يعملون لحسابهم فى الزراعة والصناعـة والتجارة، وكان منهم المغنون والندمـاء والخدم الذين كانوا يشرفـون على أمور ترف هذه الطبـقة العربيـة المترفة. وفى هذه الـبيئـة الحجازية بالذات، كـان الموالى، فى الظاهر،



محكومين، وفى حقيقة الأمر هم سادة وحكام. وهم، وإن كانوا قد اعتبروا فى الظاهر طبقة من الدرجة الثانية إلا أنهم من الناحية العملية كانوا طبقة من الدرجة الأولى، ووصلوا إلى درجة التحكم فى سادتهم من العرب.

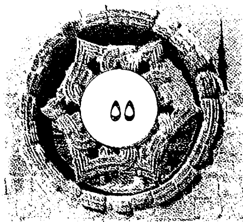


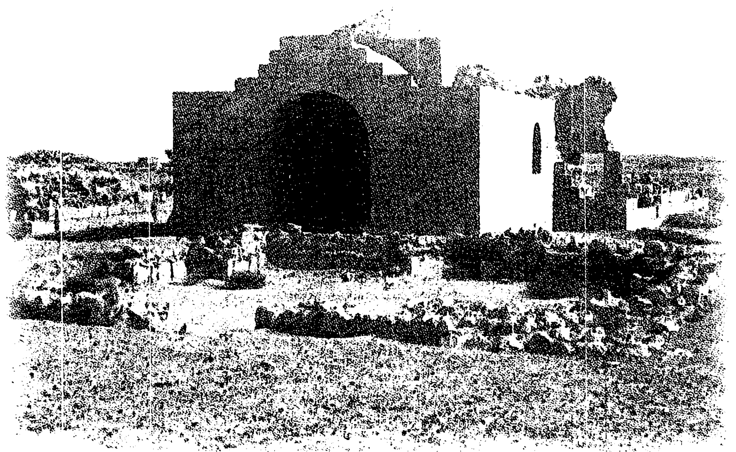
نموذج لمدينة دمشق



ولقد حافظ الأمويون على التقسيم الرأسى الذى كان عليه المجتمع الإسلامى فى عصر الراشدين قبلهم. وقد جاء هذا التقسيم على النظام الهرمى، الذى كانت طبقة الحكام على رأسه، تليها طبقة العلماء والتجار، ثم طبقة الحرفيين والصناع، وتأتى فى سفح الهرم طبقة العامة والرقيق.

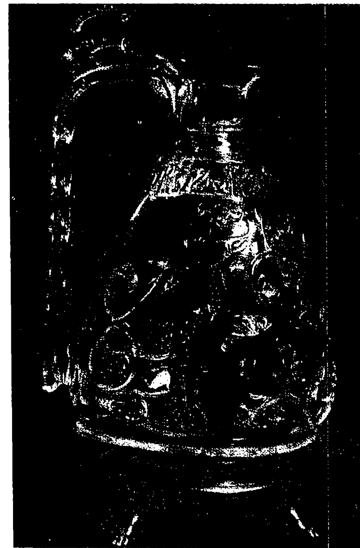
نموذج لمدينة دمشق





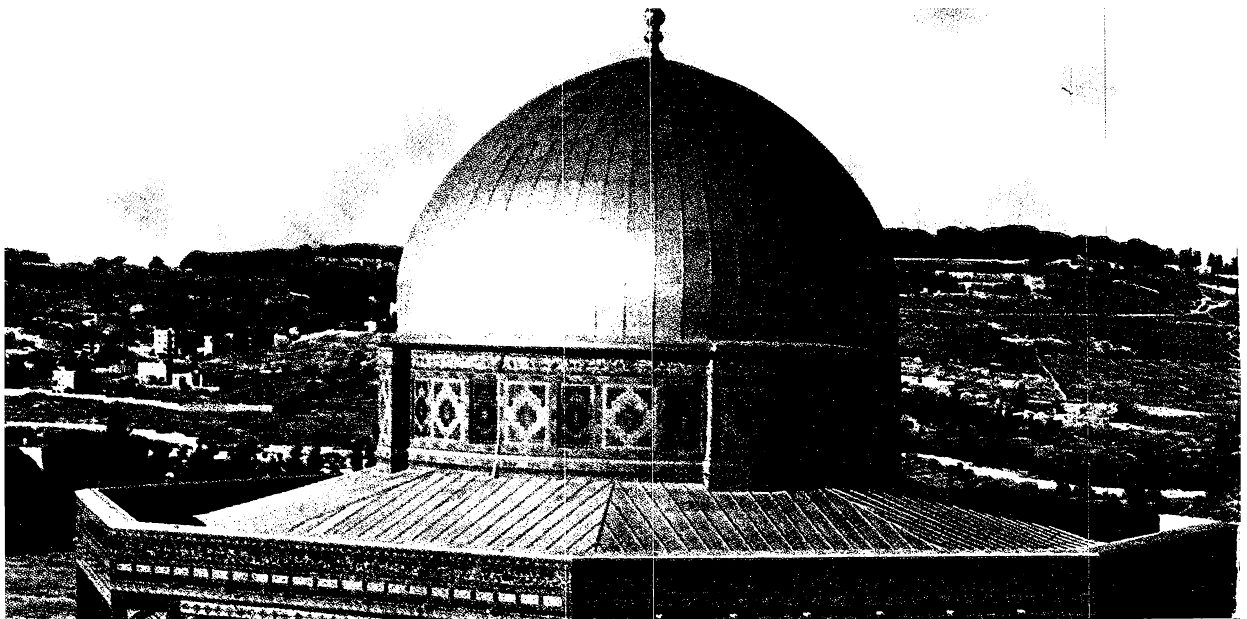
غوطة دمشق

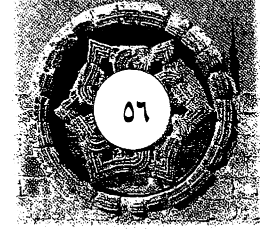




الصناعة فى دمشق

مسجد قبة الصخرة بالقدس الشريف



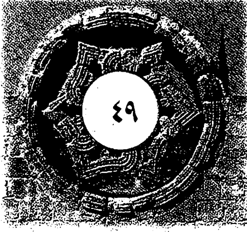


ولقد اهتم حكام الأمويين بنهضة المدن والعمل على ازدهار الحياة فيهـا، ولقد أخذت الحـياة فى المدن الإسلاميـة فى التطور بعد أن سكن العرب المدن وتباعد ما بينهم وبـين الجيل الماضى. فالعرب الأوائل كانوا أقرب إلى البسـاطة فى حياتهم منها إلى التـعقيد. وكان العـصر الأموى عصر الصراع بين حياة البـداوة الأولى الجافة وحياة المدينة الناعمة المترفة، وقد ظهـر التغير واضحًا على العربى المسلـم ساكن المدينة فى معظم الأمـور المادية من ملبس ومأكل ومـسكن ووسائل نقل ووسائل تسلية واستمـتاع. ولم يقتصر الأمر على الناحية المادية بل تعداه إلى الناحيـة العقلية، فما كان يعـرفه العـربى فى البادية صار خـلاف ما عـرفه فى المدينة فى أمور المأكل والمـشرب والملبس والمسكن ومظاهر الاحتفال وكيفية الاستمتاع بالحياة.

الحياة فى دمشق:

أما عن دمشق، عاصمة الدولة، فلقد كانت هى ذات دمـشق الموجودة الآن، لم تتغير كثيرًا فى مظهرها الخارجى وفى منهج الحـياة فيها عـما كانت عليه فى عهد الأمـويين، فلا تزال دروبها الضيقة المسـقوفة قائمة حتى الآن، ويسيـر فى هذه الدروب الشامى بسراويله الفضفاضة وعـمامته الكبيرة، جنبا إلى جنب مع البدوى الذى لفحته الشمس والتف بعباءته وستر رأسه بكوفية وعقال. وتعبر الطريق بضع نسـاء محجبات وسافـرات ويسترق غيرهن النظر من نوافذ مـشبكة فى بيوتهن تطل على الأسواق والساحات العامـة. وكانت العاصمة مقسمة إلى حارات وأحـياء ما زالت باقية حتى اليوم، وكان لكل بيت باب عـلى الشارع يؤدى إلى بهو داخلى يتوسطه حوض ماء كبـير فيه نافورة ينطلق منها الماء فى الفضاء، وقد نبتت إلى جانبه شجرة برتقال أو ليمون.

والأمويون هم أصـحاب الفـضل فى تجهيـز دمشق بنظام توزيع الماء منقطع النـظير فى أيام حكمهم، وهو نظام لايـزال مألوفا إلى اليوم. ولايـزال اسم الخليفة يزيد الأول ابن مـعاوية يطلق على قناة متصلة بنهر بردى، كان هو الذى قام بشقها.



يقول ابن خلدون فى صدد تقدم الأسطول الإسلامى أيام الأمويين مانصه: «. . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم، وصارت أمم العجم خولا لهم تحت أيديهم وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصراء بها، فشرهوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والشوانى، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس.

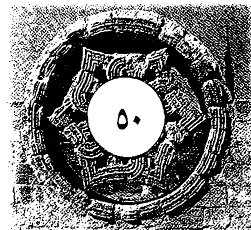
وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن النعمان باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصًا على مراسم الجهاد، ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول ابن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا».

رابعا - النظام القضائي

كان القضاء فى عهد الراشدين مستقلاً محترم الجانب، وكان الخلفاء يتشددون فى اختيار القضاة ممن عرفوا بالعلم والحزم والعدالة والنزاهة، ولم يكن للقاضى، فى أيامهم، كاتب أو سجل تُدون فيه الأحكام، ولم يكونوا فى حاجة لذلك؛ لأن الأحكام كانت فورية التنفيذ، ولم يكن القضاة يتقاضون أجرًا آنذاك وكانوا يحتسبون أجرهم على الله فى عملهم هذا.

ولقد استمر استقلال القضاء فى العهد الأموى، ولم يتأثر بالسياسة كما لم يتدخل الحكام فى شئونه، فلم يتأثر القضاء فى عهدهم بميول الحكام ولم يخشوا سطوتهم، وكانت كلمتهم نافذة على الولاة وعمال الخراج والبيت الخلافى الحاكم. كذلك كان القاضى يحكم بما يوجه إليه اجتهاده، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التى تقيد بها القضاة قد ظهرت بعد، فكان القاضى فى هذا العهد يستنبط الحكم بنفسه من الكتاب والسنة، أو الإجماع أو يجتهد فى الحكم اجتهادًا، وقد ظهر فى العهد الأموى أئمة كثيرون اجتهدوا فى التشريع، مثل الإمام الأوزاعى وغيره.

وكان خلفاء الأمويين يعينون القضاة فى العاصمة دمشق، وكانوا يتركون أمر تعيين قضاة الأمصار لولاة الأمصار، وقد بدئ فى ذلك العهد، بتسجيل الأحكام لاتساع الدولة وكثرة عدد القضايا وللحفاظ على حقوق الناس من الضياع، كذلك تفرغ القضاة لعمل القضاء، وخصص خلفاء الأمويين رواتب ثابتة لهم نظير ذلك، تكفى القاضى مؤنته ومؤنة أهل بيته وتمنعه من الرشوة أو النظر إلى مافى أيدى الناس.



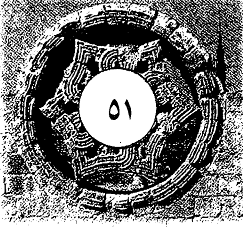
وقد كان القضاة فى العصر الأموى من خيرة الناس، يخشون الله ويحكمون بين الناس بالعدل. وعلى الرغم من أنهم كانوا مستقلين فى أحكامهم، كان الخليفة يرقب أحكامهم ويعزل من يشذ منهم عن الطريق السوى. ولقد حكى الكندى «أن هشام بن عبد الملك بلغه أن القاضى يحيى بن ميمون الحضرمى لم ينصف يتيمًا احتكم إليه بعد بلوغه فكتب إلى عامله على مصر يقول: اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذمومًا مدحورًا، وتخير لقضائك وقضاء جندك رجلا عفيفًا ورعًا تقيًا سليمًا من العيوب لا تأخذه فى الله لومة لائم».

ومن هذه العبارة نتبين الصفات التى كان يجب أن تتوافر فى القاضى فى ذلك العصر، وقد قال عمر بن عبدالعزيز عن صفات القاضى: «إذا توافر فى القاضى خمس خصال فقد كمُل، علمٌ بما كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم على الخصم، واقتداء بالأئمة، ومشاركة أهل العلم والرأى».

ولقد ارتبطت الحسبة بالنظام القضائى، كذلك ارتبط به النظر فى المظالم، ولقد كان صاحب الحسبة أو متوليها يُعرف بالمحتسب، وكانت وظيفته تنحصر فى مراقبة أعمال السوق وما يجرى بداخله، والمحافظة على النظام فيه وتحرى أمر نظافته، وتحرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وقد نشأ هذا النظام فى عهد الراشدين واستمر على ماهو عليه فى عهد الأمويين. ولقد ظلت الحسبة فى العهدين الراشدى والأموى تعتمد على المجهودات الفردية للأشخاص، ولم تعتمد كوظيفة حكومية رسمية إلا فى العصر العباسى.



المحتسب فى السوق

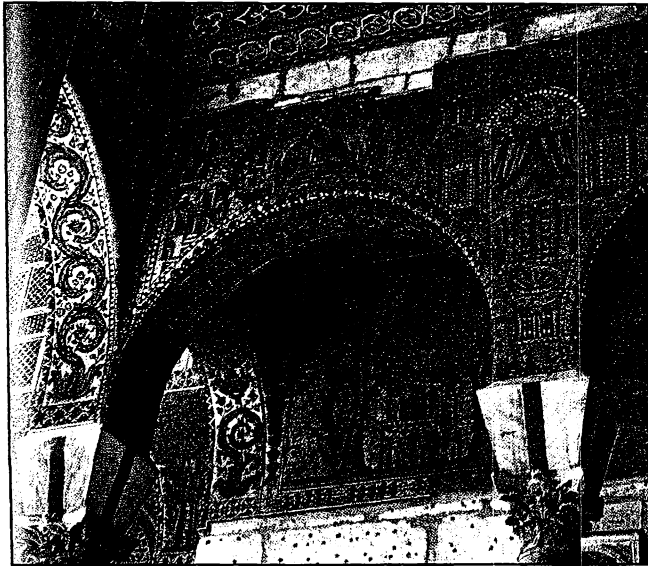


أما النظر فى المظالم، فقد كانت سلطة صاحب المظالم القضائية أعلى من سلطة القاضى والمحتسب، وهى تشبه محاكم الاستئناف الحالية. وقد دعت الحاجة فى العصر الأموى إلى إنشاء مجالس المظالم لوقف تعدى ذوى الجاه والحسب، لذلك كان النظر فى المظالم يقوم به الخلفاء بأنفسهم ويجلسون له، أو يسندونه إلى رجل جليل القدر كثير الورع إذا ما طرأ للخليفة من أمور تمنعه عن حضور مجلسه.

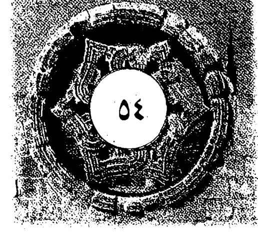
ولقد كان من اختصاص صاحب المظالم النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا لم يتحروا العدالة، كذلك على عمال الخراج إذا ماهم اشتطوا فى جمع الخراج والضرائب، وعلى كتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة، كذلك كان من اختصاصه تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام، ومراعاة إقامة العبادات كالجمع والحج والجهاد. ولقد حرص خلفاء الأمويين على حضور مجالس المظالم، وأحاطوا أنفسهم فى هذه المجالس بالحماة والأعوان والقضاة والحكام والفقهاء والكتاب.

خامسا - تنظيم المجتمع

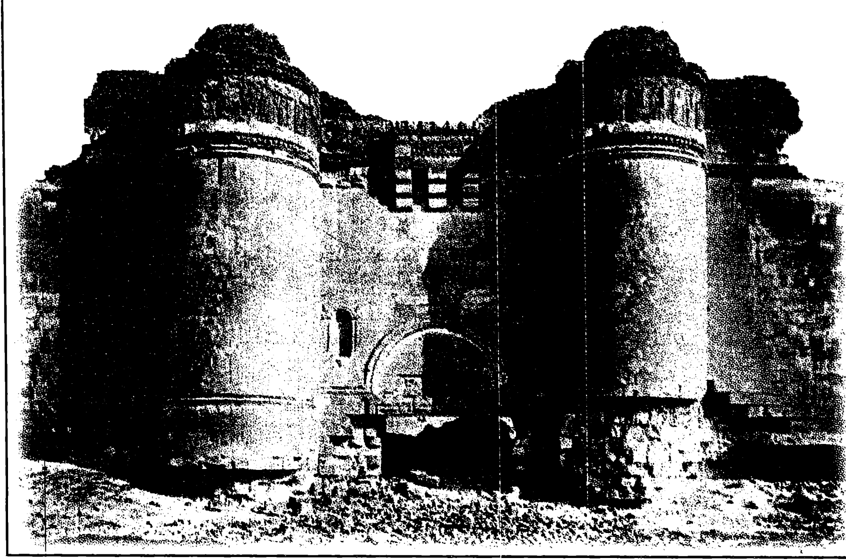
احتوى مجتمع الدولة الإسلامية فى عهد الأمويين على عنصرين أساسيين من السكان، وهما العنصر العربى وعنصر الموالى، ولم يكن هذان العنصران منفصلين عن بعضهما البعض بل حدث الاختلاط والامتزاج بينهما. والعنصر العربى هو العنصر الذى أقام الدولة، وهو الذى كان له الحكم فيها ، وهو بمثابة العمود



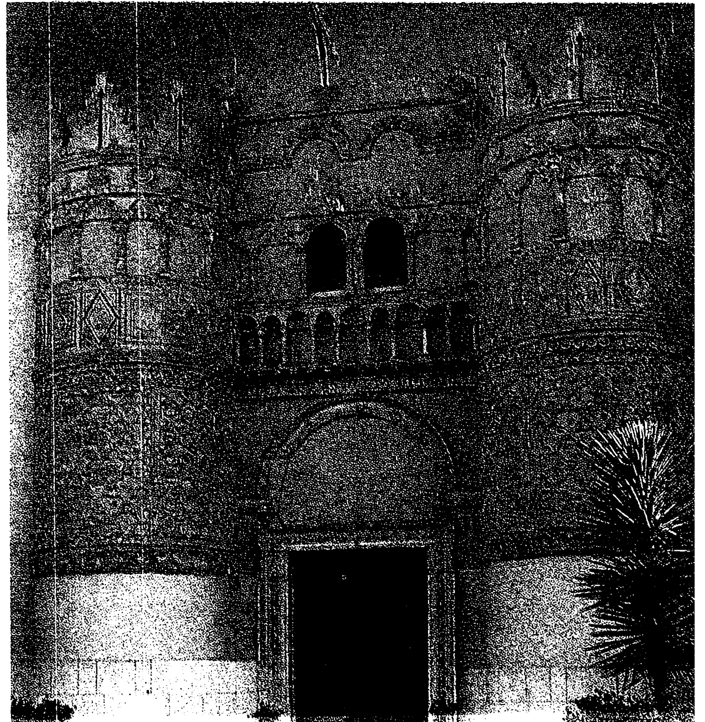
مظهر من مظاهر المدن الإسلامية فى العهد الأموى



محكومـين، وفى حقيقـة الأمر هم سادة وحكام. وهم، وإن كـانوا قد اعتبروا فى الظاهر طـبقة من الدرجة الثانية إلا أنهم من الناحـية العملية كانوا طبقة من الدرجـة الأولى، ووصلوا إلى درجة التحكم فى سادتهم من العرب.

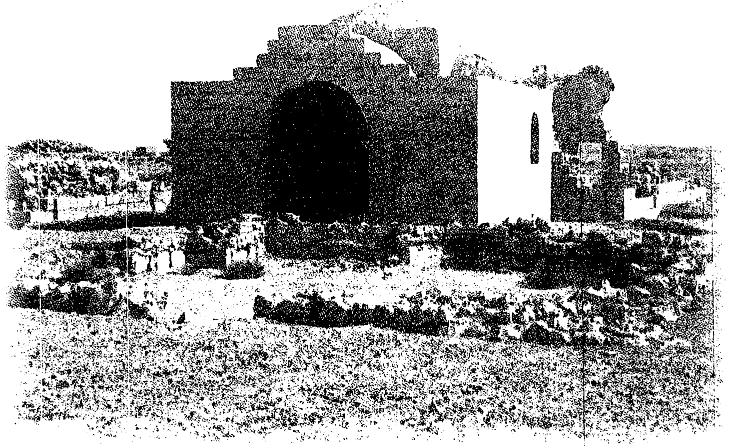


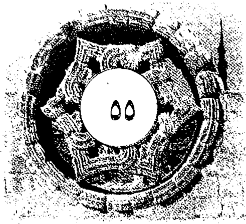
نموذج لمدينة دمشق



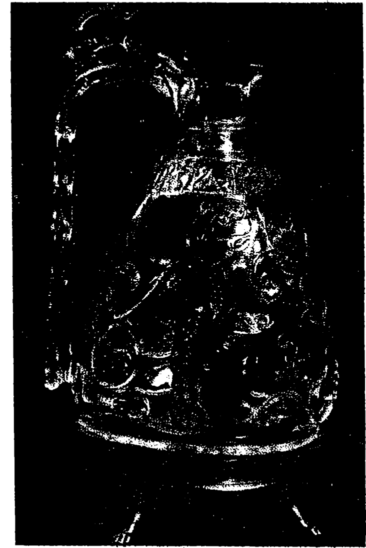
ولقـد حـافظ الأمـويون على التقسيم الرأسى الذى كان عليه المجتمع الإسلامى فى عصـر الراشدين قبلهم. وقـد جـاء هذا التـقسيـم على النظام الهرمى، الذى كانت طبقة الحكام على رأسه، تليها طبقة العلماء والتجار، ثم طبـقة الحـرفـيـين والصناع، وتأتى فى سفح الهرم طبقة العامة والرقيق.

نموذج لمدينة دمشق





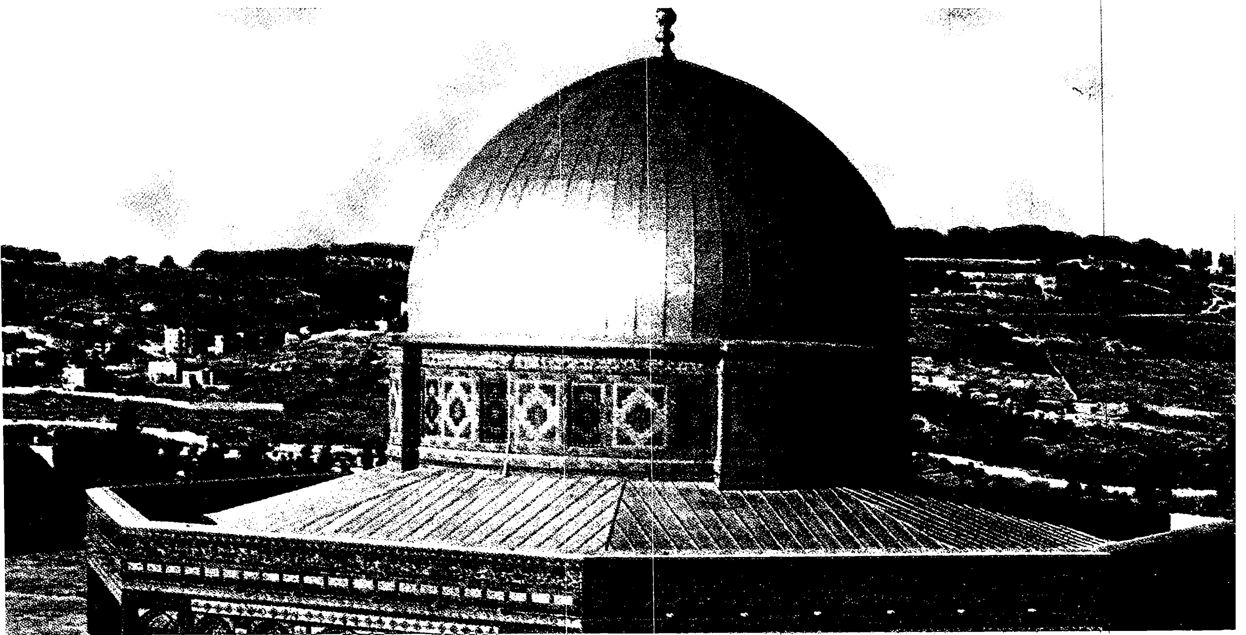
غوطة دمشق

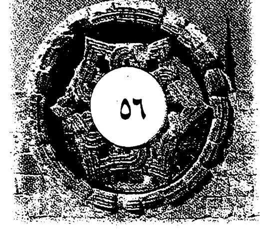


الصناعة فى دمشق



مسجد قبة الصخرة بالقدس الشريف



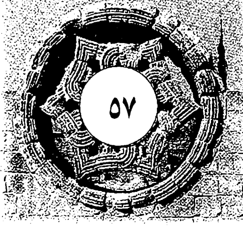


ولقد اهتم حكام الأمويين بنهضة المدن والعمل على ازدهار الحياة فيها، ولقد أخذت الحياة فى المدن الإسلامية فى التطور بعد أن سكن العرب المدن وتباعد ما بينهم وبين الجيل الماضى. فالعرب الأوائل كانوا أقرب إلى البساطة فى حياتهم منها إلى التعقيد. وكان العصر الأموى عصر الصراع بين حياة البداوة الأولى الجافة وحياة المدينة الناعمة المترفة، وقد ظهر التغير واضحًا على العربى المسلم ساكن المدينة فى معظم الأمور المادية من ملبس ومأكل ومسكن ووسائل نقل ووسائل تسلية واستمتاع. ولم يقتصر الأمر على الناحية المادية بل تعداه إلى الناحية العقلية، فما كان يعرفه العربى فى البادية صار خلاف ما عرفه فى المدينة فى أمور المأكل والمشرب والملبس والمسكن ومظاهر الاحتفال وكيفية الاستمتاع بالحياة.

الحياة فى دمشق:

أما عن دمشق، عاصمة الدولة، فلقد كانت هى ذات دمشق الموجودة الآن، لم تتغير كثيرًا فى مظهرها الخارجى وفى منهج الحياة فيها عما كانت عليه فى عهد الأمويين، فلا تزال دروبها الضيقة المسقوفة قائمة حتى الآن، ويسير فى هذه الدروب الشامى بسراويله الفضفاضة وعمامته الكبيرة، جنبا إلى جنب مع البدوى الذى لفحته الشمس والتف بعباءته وستر رأسه بكوفية وعقال. وتعبر الطريق بضع نساء محجبات وسافرات ويُسترق غيرهن النظر من نوافذ مشبكة فى بيوتهن تطل على الأسواق والساحات العامة. وكانت العاصمة مقسمة إلى حارات وأحياء ما زالت باقية حتى اليوم، وكان لكل بيت باب على الشارع يؤدى إلى بهو داخلى يتوسطه حوض ماء كبير فيه نافورة ينطلق منها الماء فى الفضاء، وقد نبتت إلى جانبه شجرة برتقال أو ليمون.

والأمويون هم أصحاب الفضل فى تجهيز دمشق بنظام توزيع الماء منقطع النظير فى أيام حكمهم، وهو نظام لايزال مألوفا إلى اليوم. ولايزال اسم الخليفة يزيد الأول ابن معاوية يطلق على قناة متصلة بنهر بردى، كان هو الذى قام بشقها.

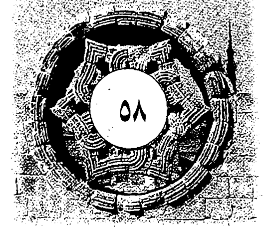


أما الحدائق الغناء التى تحيط بالمدينة (غوطة دمشق) فهى مدينة بوجودها لنهر بردى الذى تجرى منه المياه فى قنوات أخرى إلى أنحاء المدينة لتبعث فيها الخصب والنضرة. ولايزال فى دمشق، إلى اليوم، نحو ستين حماما عاما، بعضها مزدان بالفسيفساء والبلاط المزخرف، وكلها تشهد بغزارة المياه فى المدينة وإحكام توزيعها، وكلها يرجع تاريخها أيضا إلى العصر الأموى.

ولقد اهتم خلفاء الأمويين، وهم يؤسسون دولتهم ويوطدون أركانها، بالنهوض باقتصادها من زراعة وصناعة وتجارة، ومن الصناعات التى ازدهرت فى العصر الأموى صناعة الزجاج والخزف وخصوصا فى الشام ومصر، وقد تميزت مدينة حلب بجودة زجاجها، وكذلك تميزت دمشق بصنع الزجاج المذهب، والفسطاط بصنع الأقداح الزجاجية المذهبة، كذلك تقدمت صناعة المنسوجات المختلفة قطنية وكتانية وحريرية وصوفية.

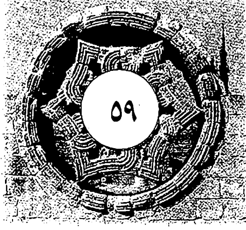
واهتم الأمويون بنهضة الحركة العلمية والثقافية فأنشأوا لذلك الكتاتيب والمدارس والمعاهد العلمية. ونتيجة لحركة النقل من الثقافات الأجنبية المختلفة فى العصر الأموى ظهر تأثير هذا النقل فيما خلفه علماء ذلك العصر من ابتكارات ومؤلفات هذه العلوم المختلفة الأدبية والعلمية.

ولقد شهدت المخلفات الأثرية الأموية تقدم المعمار عند الأمويين، واهتمام الخلفاء ببناء المساجد والقصور، التى تأثر بناؤها بالعمارة الرومية والفارسية، ومن أشهر مساجد الأمويين، مسجد قبة الصخرة، وهو أول مسجد بنى فى الشام بمدينة القدس، بناه عبد الملك بن مروان سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م. كذلك المسجد الأموى فى دمشق الذى بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ/ ٧٠٥ م، وهو من أعظم المساجد التى بناها الأمويون طوال عهدهم.



أما القــصور، التى لا تزال باقــية على تخوم الــشام فهى: قــصر عُميرة، وقصــر المفجر اللذان بناهما الخليفة الوليد، كـذلك قصر المشتى الذى بناه الوليد الثانى وهناك قصران آخــران بنيا فى تلك المنطقة يعرفان بالحير، يـقع الأول منهما وهو الحيــر الشرقى على بعد ٤٠ ميــلا شمال شرقى تدمر، وبناه الخليفة هشام بن عبــد الملك سنة ١١١ هـ/ ٧٢٩ م، أما الحير الغربى فيقع على بعد ٤٠ ميلا جنوبى غربى تدمر، وقد بناه هشام أيضًا سنة ١٠٩هـ / ٧٢٧م.

ولقد تحــقق فيــما خلفه الأمــويون من قصور ومــساجــد، انسجام العناصــر الفنية العــربية والفارسية والسريانية واليونانية، وتألف من ذلك كله النواة الأولى للفن الإسلامى المتميز.



المصادر والمراجع

ـ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، بولاق ١٢٧٤هـ

ـ آدم متز: الحضارة الإسلامية، مترجم، القاهرة ١٩٤١.

ـ البلاذرى: فتوح البلدان، القاهرة ١٣١٨هـ.

ـ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٤.

ـ ابن خلدون: المقدمة، مصر ١٣١١هـ.

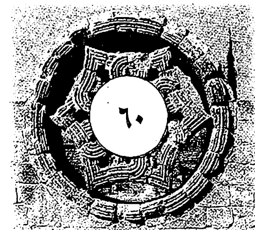
ـ السيوطى: تاريخ الخلفاء، مصر ١٣٥١هـ.

ـ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، القاهرة ١٣٢٦هـ.

ـ عطية القوصى: تاريخ الدولة العربية الإسلامية. القاهرة ١٩٩٤.

ـ فيليب حتى: تاريخ سوريا (مترجم) ، الجزء الثانى، بيروت ١٩٧٢.

ـ القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة ١٩١٨.


٦٠


المحتويات

Abstract

This book presents one of the most important figures in Islamic History, Muawyiah, who was one of the " Companions" of the Prophet " Peace be upon him", and one of the recorders of the Revelation. He occupied many important posts, as Wali of Syria in the time of the Prophet, and the three first Rightly Guided Caliphs.

Muawyiah was a great diplomat, and a talented leader, who succeeded in expanding the land of Islam, and put an end to the Byzantine domination over the Mediterranean, which ultimately became an Islamic Lake.

Muawyiah managed to bring peace, unity, and stability into Islamic Umma, and replaced the all system by the rule of heredity in his own Ummyah Dynasty. The Ummayah Dynasty expanded East & West, and became a respected and feared Empire.

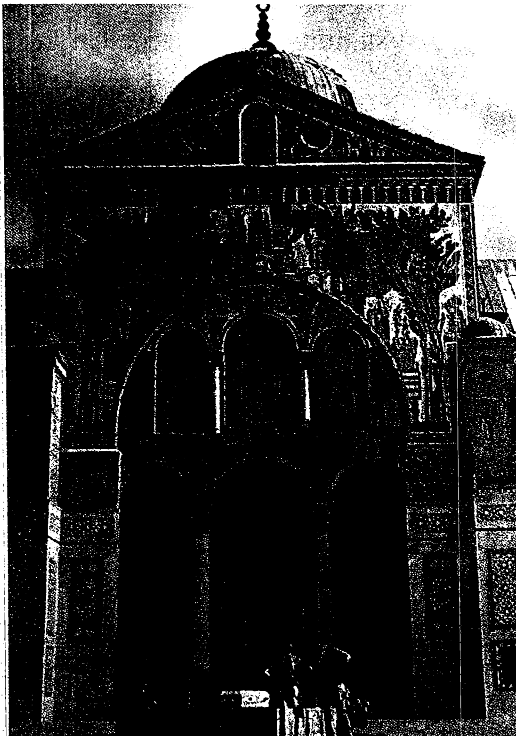
It should be noted that Abbassid followed Muawyiah's tradition in the principle of heredity.

Dr. Attia El - Qossi

(6)

Muawyiah Ibn Abby Suffian and the Foundation of the Ummyad State

Dr. Attia El - Qossi



(٧)

العباسيون الأوائل

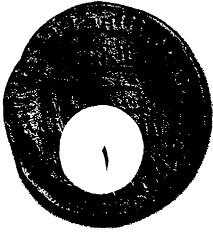
تأليف

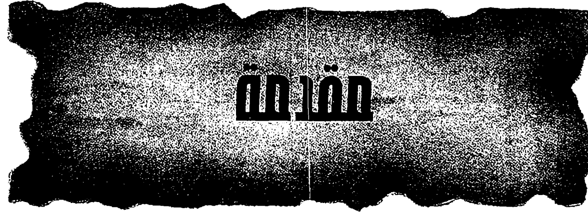
د. عطية أحمد محمود القوصى

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة



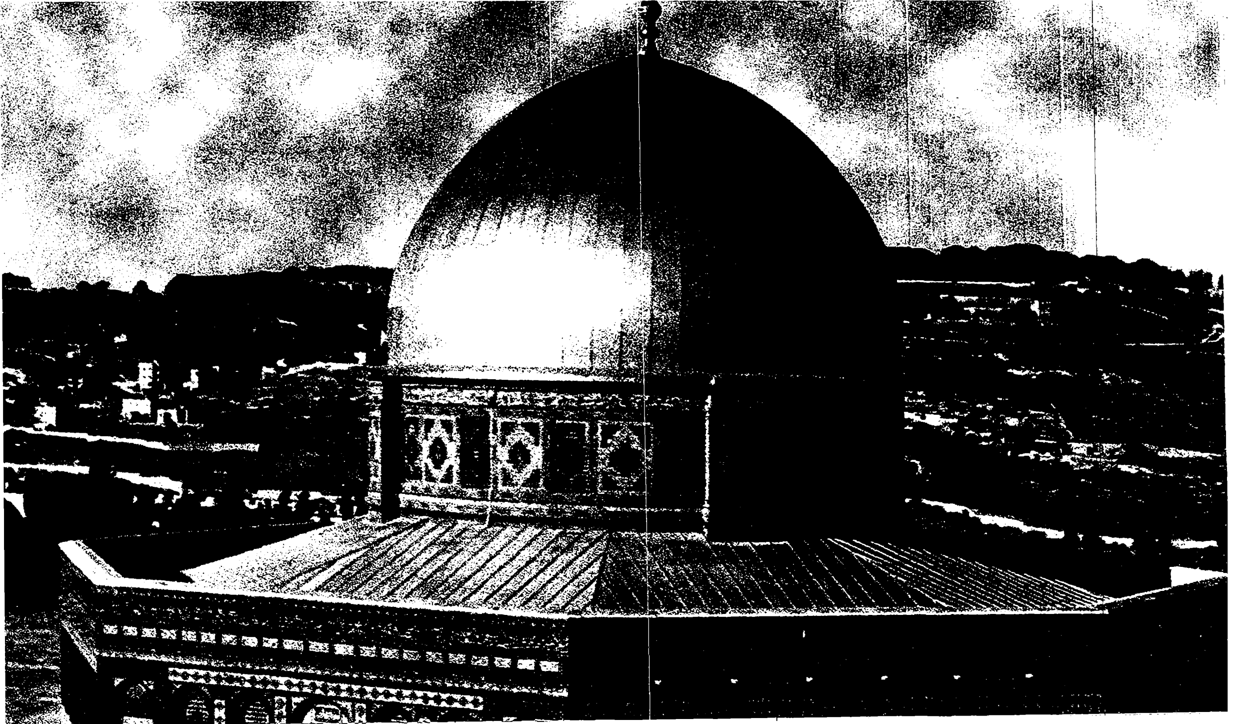




مقدمة

ينتسب قيام الدولة العربية الإسلامية إلى الرسول الكريم محمد ﷺ، الذى اتخذ المدينة المنورة عاصمة لها. ونمت هذه الدولة واتسعت فى عهد خلفائه الراشدين: أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ رضوان الله عليهم. وتحولت هذه الدولة من نظام الشورى الديمقراطى الذى اتبعته إلى النظام الملكى الوراثى فى عهد حكم الأمويين الذين ورثوا حكم الدولة الإسلامية مع تولى معاوية بن أبى سفيان، مؤسس الدولة الأموية حُكْمَ دولة الخلافة الإسلامية. وقد حكم هؤلاء الأمويون دولة الإسلام قرابة قرن من الزمان، ثم تحول الحكم من أيديهم إلى الخلفاء العباسيين، الذين نتعرض فى بحثنا هذا لعصر خلفائهم الأول الذى عرف فى التاريخ بالعصر العباسى الأول الذى يقع بين سنوات ١٣٢ و٢٣٢ للهجرة (٧٥٠ ـ ٨٤٧ ميلادية) وهو العصر الأول من حكم هذه الدولة التى حكمت الدولة الإسلامية ما يزيد عن الخمسة قرون. وقد تولى فى العصر العباسى الأول تسعة خلفاء، بينما تولى العهد العباسى الثانى سبع وعشرون خليفة.

مسجد قبة الصخرة بالقدس الشريف





ويُعتبر عصر العباسيين الأول هو العصر الذهبى لدولة الإسلام فى الحكم والإدارة والحضارة والسيادة العالمية. . أما عصرها الثانى فقد ساده الاضطراب والضعف بسبب تسلط القواد الأجانب من فرس وأتراك على خلفاء هذا العصر، وما صاحب هذا التسلط من فوضى وقتال وصراع على الحكم أضر بأحوال الدولة وأضعفها، وجعلها فى النهاية تسقط صريعة على يد الغزو المغولى الوحشى الذى اجتاح أقاليم الخلافة حتى حدود مصر وأسقط العاصمة بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، وقتل الخليفة المستعصم بالله العباسى، آخر خلفاء هذه الدولة فى العراق.

وقبل أن نتحدث عن عوامل قيام الدولة العباسية وعصر العباسيين الأوائل، يجدر بنا أن نلقى ضوءًا سريعًا على الدولة الأموية، التى أدى سقوطها وانهيارها إلى قيام حكم العباسيين، ونناقش الأسباب التى أدت إلى هذا الانهيار، على اعتبار أن نفس هذه الأسباب هى التى مهدت لقيام الدولة التى نحن بصدد دراسة عصر زاهر من عصور حكمها.

والدولة الأموية تنتسب إلى حكام بنى أمية بداية بمعاوية بن أبى سفيان ونهاية بمروان بن محمد، وكان عدد خلفائها أربع عشرة خليفة وينتسب معاوية بن أبى سفيان إلى بيت أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب، وأبوه سفيان بن حرب بن أمية، زعيم قريش وقائد المشركين ضد الرسول ﷺ، بعد موت عمرو بن هشام (أبى جهل) فى غزوة بدر فى العام الثانى للهجرة. لكن أبا سفيان أسلم عند فتح مكة وحسُن إسلامه وأسلم أبناؤه معه، وكان معاوية يبلغ من العمر حين اعتنق الإسلام ثلاثة وعشرين عاما، ولقد أحب معاوية الرسول ﷺ ولازمه وكان من صحابته ومن كتبة الوحى له. وبعد وفاة أبى سفيان صار معاوية ابنه رأس بيت بنى أمية وشيخهم، وقد نجح معاوية فى الوصول إلى حكم دولة الخلافة عقب استشهاد الخليفة على بن أبى طالب (١٧ رمضان سنة ٤٠هـ) على يد الخارجى عبد الرحمن بن ملجم، وبعد تنازل الحسن بن على عن الخلافة، وبعد أن بويع فى عام الجماعة (٢٥ ربيع الثانى ٤١هـ) بالخلافة بحضور الحسن والحسين ابنى الخليفة على كرم الله وجهه.

وقد حرص معاوية، حين ولى الحكم، على جمع كلمة المسلمين، بعد فرقة، ونجح فى ذلك بفضل تكامل شخصيته وما يتمتع به من ذكاء ودهاء وشجاعة وحسن سياسة. وعمد معاوية، أثناء خلافته، إلى أخذ البيعة بالخلافة لابنه يزيد من بعده؛ وبذلك حول الخلافة من نظام الشورى



والاختيار الحر، الذى كان متبعًا فى عهد الراشدين، إلى النظام الملكى الوراثى الذى كان سائدًا آنذاك فى دولة الروم. وصارت الخلافة فى عهد هذه الدولة وفى عهد دولة العباسيين التى خلفتها وراثية محصورة فى بيت واحد بعد أن كانت حقًّا للمسلمين جميعًا يختارون لها من يرون صلاح ولايته.

وبعد وفاة يزيد بن معاوية، انتقلت الخلافة إلى فرع آخر من فروع بنى أمية، وهو الفرع المروانى، بتولى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية الخلافة وتولى أبنائه وأحفاده من بعده. وبرغم أن عدد خلفاء الأمويين وصل إلى أربع عشرة خليفة إلا أن أبرز من قاموا منهم بأعمال كبيرة سجلها لهم التاريخ هم سبعة خلفاء: معاوية، ومروان، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز بن مروان، ومروان ابن محمد آخر حكامهم.

وإذا كان المسلمون قد ارتضوا بحكم معاوية بن أبى سفيان وارتضوا خلافته فإن غالبية المسلمين أنكروا حلافة من حكم بعده، وقد كثرت الثورات وازدادت المعارضة لحكمهم. ولم يكن أمام هؤلاء الحكام سوى استخدام العنف والقوة فى تثبيت حكمهم. وظلت المعارضة والمقاومة تزداد يومًا بعد يوم حتى نجح بنو العباس فى استغلال الفرصة والاستفادة منها فتمكنوا من القضاء على حكم بنى أمية سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م واستحوذوا هم على حكم دولة الإسلام.

ورغم ما أخذ على الدولة الأموية، فإن الشىء الطيب الذى يذكر لحكامها هو أنهم حملوا لواء العروبة والإسلام وساروا بالفتوح قدمًا حتى فتحوا بلادا شاسعة نشروا الإسلام بين أهلها، ووصلوا براية الإسلام خفاقة إلى قلب شبه القارة الهندية وغربى الصين شرقًا وجنوبى فرنسا غربًا ومن غانة إلى فرغانة جنوبا وشمالا.

كذلك يسجل لحكام هذه الدولة الأموية أنهم وضعوا النظم السياسية والحكومية والإدارية وقاموا بالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، ووضعوا بذور الحضارة الإسلامية فى العلوم والفنون والآداب التى ازدهرت شجرتها وأثمرت فى عصر العباسيين الأوائل.

٤

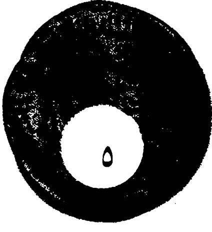
أسباب سقوط الدولة الأموية وقيام حكم العباسيين

سقطت الدولة الأمـوية سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وقامت على أنقـاضها دولة بنى العـباس فى نفس السنة، وكانت هنالك أسباب رئيسية أدت إلى هذا السقوط، رغم ما كانت تتمتع وتتصف به من قوة وصلابـة فى سنى حكمها الأولى، وتأتى فى مقـدمة هذه الأسباب تلك المعـارضة وذلك العداء الذى لقيته هذه الدولة منذ قـيامها، وبخاصة بين جماعات الشيـعة والخوارج الذين انتشرت آراؤهم السياسية انتشاراً واسعًا وخاصةً بين شعوب الموالى، أهل البلاد المفتوحة غير العرب.

ولقد اتضح لحكام الأمويين أن مـعظم المسلمين لم يجمعوا على أحـقية حكمهم وشرعـيته لدولة الخلافة واعـتبروا معاوية مـغتصبًا للحكم وبنيـه من بعده من على بن أبى طالب وأبنائه من بعده. كـذلك اعتبـروه مُغْفِلا لنظام الـشورى فى الحكم وفى النظام الذى نادى به الإسلام وطبـقه الخلفاء الراشدون وأنه حول الخلافة إلى ملك وراثـى كسروى، الأمر الذى يتنافى مع ما حدث فى سقيفة بنى ساعدة بالمدينة غداة وفاة رسـول الله ﷺ، وما طبقه الشيخان أبوبكر وعمر رضوان الله عليهما. وكانت الشـيعة والخوارج من أكثر المعارضين لحكم الأمويين وأشـدهم عملاً على إسقاط حكمهم وإنهاء دولتهم.

ويرى العلويون، الذين عـرفوا بالشيعـة، لكونهم أشياع علـى وآل البيت، أنَّ حكم الدولة الإسلامـية، بعد الرسـول ﷺ حق لآل البيت من نسل الإمام عـلى والسيدة فـاطمة الزهراء، ابنة رسول الله ﷺ، وأن خلافة الأمويين باطلة من أساسها وقد قالوا أنَّ عليًّا وأهل بيته هم الثمرة وأن قريشا هى الشجرة وأن الثمرة أفضل من الشجرة. وقد ظهرت جمـاعة الشيعة كفرقة سياسية، بعد معركة كربلاء سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م، وهى المعركة التى استشهد فيهـا الإمام الحسين بن على وعدد من آل البيت منهم سبعة من أبنائه وخمسة من أحفـاده، وقد زادت هذه المعركة وما جرى فيها من جرأة على آل بيت النبى ﷺ فى أعداد المناصرين لهم، كـما زادت فى سخط الساخطين على بنى أمية وخاصة بين موالى الفرس.

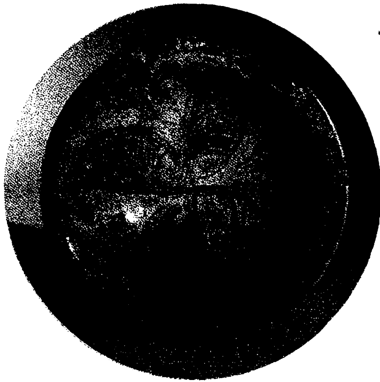
ولـم يكتف الشيعـة، عندما اكتملت صفوفـهم، بمقاومة الدولة الأموية مقاومـة سلبية، بل قاموا بالثورة ضدهم ومـحاربتهم. وقد قاد الإمام **زيد بن على بن الحسين أحـد هذه الثورات ضد الأمويين فى مدينة الكوفة**. وقام بثورة أخرى ضدهم الإمـام يحيى بن زيد. وقابل حكام الأمويين هذه الثورات العلوية الشيعـية بالعنف الشديد ومثلوا بالقائمين بأمرها أبشـع تمثيل لم يشفع لأهلها



عندهم قرابتهم لرسول الله ﷺ؛ ذلك لأن حكام الأمويين اعتبروهم منشقين وخارجين على الدولة. ورغم هذا العنف الذى اتبعه الأمويون فى مقاومة هذه الثورات، فإن ثورات الشيعة لم تتوقف، ونشاطهم المعادى للدولة لم يهدأ، فأخذوا يبثون دعاتهم فى كل أرجاء الدولة، وخاصة البعيدة عن دمشق، عاصمة حكم الأمويين، ليقف المسلمون إلى جانبهم ضد الأمويين من خلال تنظيمات سرية محكمة.

أما الخوارج فهم فرقة سياسية دينية نشأت أثناء معركة صفين بين على ومعاوية بعد حادثة التحكيم. وكان هؤلاء الخوارج قد أجبروا عليا على قبول التحكيم حين لجأ إليه كل من معاوية وعمرو بن العاص حين أدركوا الهزيمة فى صفين. وبعد أن تم التحكيم اعترض هؤلاء عليه واحتجوا على الإمام علىّ فى قبوله رافعين شعار: «لا حكم إلا لله». وهجر هؤلاء جيش على وانشقوا عنه وانسحبوا إلى قرية بالقرب من الكوفة يقال لها «حروراء»، واختاروا لهم قائدا عليهم هو عبد الله بن وهب الراسبى، وسمّوا أنفسهم بالحروريين وبالشراة؛ لأنهم - حسب زعمهم - اشتروا أنفسهم بأن باعوها فى سبيل الله. وقد أطلق عليهم على وأتباعه اسم الخوارج، لخروجهم على جماعة المسلمين. وبرغم أن عليا حارب الخوارج وأوقع بهم هزيمة كبيرة فى معركة «النهروان»، إلا أنه لم يقض عليهم ولا على أفكارهم، فقد تفرقوا، بعد هزيمتهم، وانقسموا إلى فرق عديدة، ونشروا أفكارهم السياسية فى الأقطار البعيدة عن عاصمة الخلافة، وقوى جانبهم وزادت شوكتهم فى عهد حكم الأمويين. وشكّل هؤلاء الخوارج حزبا معارضا للأمويين بعد أن وصلوا للحكم، واعتبروا أن وصولهم للحكم غير شرعى ولا شورى؛ ذلك لأنهم كانوا يرون أن الخلافة حق مباح لكل مسلم حر يبايعه المسلمون دون النظر إلى لونه أو جنسه أو نسبه.

وقد قام الخوارج بثورات عدة ضد الأمويين، وكانوا شوكة فى جنبهم وأشد العناصر إقلاقا لهم بسبب شجاعتهم واستبسالهم فى القتال وحبهم فى الاستشهاد.
وقد قاتلهم الأمويون بضراوة وقاتلوا هم بشراسة، واستنفد قتالهم معظم قوة الأمويين، وكادوا يحرزون الانتصار النهائى على الدولة الأموية فى عهد حكم الخليفة عبد الملك بن مروان لولا شجاعة قائده الحجاج بن يوسف الثقفى الذى نجح فى هزيمتهم المرة بعد الأخرى.



طبق مرسوم عليه جناح رمز تاج خسرو - القرن ٩م

واشتدت ثورات الخوارج فى عهد مروان بن محمد، آخر خلفاء الأمويين، وانضم إلى حركتهم أعداد كبيرة من شعوب الموالى الذين راقتهم شعارات الخوارج فى الحكم، وخاصة أهل فارس الذين كانوا يرون تقدمهم الحضارى على

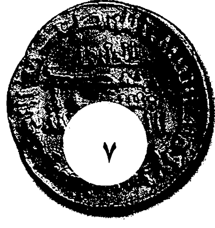


العرب.. واستطاع الخوارج، بفضل شعاراتهم السياسية البراقة، أن يؤلبوا شعوب الدولة الإسلامية ضد الأمويين، الذين تفرغوا، فى السنوات الأخيرة من حكمهم، لمحاربة هذه العناصر الساخطة فى ظروف صعبة وبلاد جبلية وعرة، الأمر الذى أتعب الدولة وأجهد جيوشها وأفقر اقتصادها، وأدى فى نهاية الأمر إلى انهيارها ثم سقوطها.

وكان سوء حال وضع الموالى فى الدولة الأموية، من أسباب ضعف هذه الدولة ثم سقوطها. والموالى هم المسلمون من غير العرب، وهى تسمية أطلقها العرب على غيرهم من الشعوب غير العربية: شعوب الفرس والروم والترك والأرمن والبربر والقبط وغيرهم. وكان عدد هؤلاء الموالى فى ازدياد بعد أن وصل الأمويون إلى حكم الدولة الإسلامية نتيجة توالى الفتوح الإسلامية ونجاح الأمويين فى توسيع رقعة الدولة ودخول شعوب البلاد المفتوحة تحت تبعية الدولة الإسلامية. وقد ترفع حكام الأمويين على الموالى، بحكم أنهم حكام الدولة، رغم اضطرارهم إلى الاستعانة بذوى الكفاءة والمقدرة منهم، وخاصة فى الأمور التى لم يكن العرب يعرفونها أو يتقنونها.

ولقد نقم الموالى على حكام الأمويين من سوء معاملتهم لهم، واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية، ليس لهم أن يتولوا المناصب الكبرى فى الدولة ولا مشاركتهم فى الحكم والإدارة والجيش، رغم أن من الموالى، وبخاصة الفرس، من كانوا أصحاب حضارة ومدنية قديمة وعريقة، وكان الموالى يشعرون بأن الأمويين لا ينفذون تعاليم الإسلام فى العدل والمساواة فى المعاملة، وهى من أشد الأشياء التى حببتهم فى دين الإسلام وجذبتهم إليه؛ لذلك نقم هؤلاء الموالى على الأمويين، وكانوا دائما على استعداد للثورة ضدهم والرغبة فى إزالة ملكهم. فهم قبلوا من الفاتحين المسلمين الإسلام كدين واعتقاد لكنهم لم يقبلوا منهم سيادتهم عليهم؛ لذلك تقبل هؤلاء الموالى أفكار الخوارج فى الحكم التى تدعو إلى المساواة بين جميع المسلمين بغض النظر عن أى تفاوت بينهم ودون وقوع التمييز العنصرى وتطبيقه عليهم. وفى كل هذه المبادئ التى نادى بها الخوارج ورفعوا شعارها، كان الموالى يأملون فى القضاء على الحكم الأموى وإقامة حكم بديل له يحقق لهم المساواة مع العرب فى الحقوق والواجبات. وقد استغل الخوارج سخط الموالى فى تنفيذ برنامجهم الذى تطلع إلى إقامة حكم لهم على أنقاض حكم الأمويين بعد أن يقضوا تماما على دولتهم.

كذلك كانت العصبية القبلية واستعارها من أهم العوامل التى أدت إلى نهاية هذه الدولة والقضاء عليها، فمع أن الإسلام نبذ العصبية القديمة التى كانت متفشية بين قبائل العرب وجعل العرب أمة واحدة لا فرق فيها بين عربى وعجمى ولا أسود وأبيض ولا قرشى عن حضرمى، إلا أن هذه العصبية التى كانت سائدة فى الجاهلية عادت أقوى مما كانت عليه فى ظل الحكم الأموى،

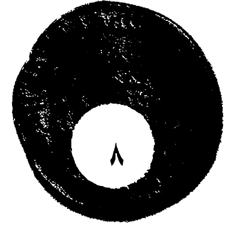


وقد تعصب الأمويون للعرب، وتعصب العرب لقبائلهم وانقسموا إلى أصليهما: اليمنى القحطانى الجنوبى، والقيسى المضرى الشمالى، فكان لهذه النعرة العصبية القبلية أسوأ الأثر فى حال العرب، وكانت سببا فى نشوب النزاع والصراع العرقى بين قبائل الجنوب وقبائل الشمال، الأمر الذى أدى إلى الاقتتال بينهما، مما أضعف العمود الفقرى للدولة؛ الأمر الذى أدى إلى ضعف الجسد العربى كله وسقوطه ونهايته.

ولقد كان لخلفاء الأمويين دور كبير فى هذا الصراع القبلى؛ ذلك لتعصب بعضهم تارة لليمنيين وتارة أخرى للقيسيين، فكان نفوذ اليمانية يزداد فى الدولة أحيانا ونفوذ القيسية يزداد أحيانا أخرى تبعًا لأهواء خلفاء هذه الدولة. وإنا نجد ازدياد نفوذ عرب اليمانية فى عهد معاوية مؤسس الدولة وفى عهد ابنه يزيد لاستنادهما عليهم ليواجها به معارضة أهل الحجاز القيسيين الذين تعاطفوا مع آل البيت. وناصر الخليفة عبد الملك بن مروان القيسية ضد اليمانية، واعتمد على وجه الخصوص على بنى ثقيف القيسيين فى القضاء على ثورات رجال الخوارج ضده، والذين يتكون غالبيتهم من رجال عرب اليمانية، كذلك تعصب الوليد بن يزيد للقيسية، وكانت أمه قيسية وأخواله قيسيين، وقام تبعًا لذلك، بإقصاء العنصر اليمانى عن مهام الدولة فقاموا بالتآمر عليه. وتعصب يزيد بن الوليد لليمانية فثارت القيسية ضده، كما تعصب مروان بن محمد للقيسية فثارت اليمانية ضده.

وقد عجلت هذه الحروب التى وقعت بين عرب اليمانية وعرب القيسية بنهاية الدولة الأموية، وأدى التنازع بين عرب الشام والفرقة بينهم إلى انهيار الأساس الذى ارتكز عليه الحكم الأموى فى إقامة دولته، هذا فضلا عن وصول آثار هذا الصراع وانتقاله إلى شتى الأمصار الإسلامية، مما أدى إلى ضعف كيان النفوذ الأموى فيها وفقدان سيطرة الولاة عليها، وإتاحة الفرصة للشيعة والخوارج أن يرتعوا فيها ويفعلوا ما شاء لهم أن يفعلوه للقضاء على نفوذ الأمويين داخل بلاد الشام وخارجها.

كذلك فإن انقسام البيت الأموى على نفسه من جراء نظام ولاية العهد، كان سببًا من أسباب نهاية هذه الدولة، وكان الأمويون قد أقروا فى مؤتمر «الجابية» سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م تولية العهد لأكثر من واحد، الأمر الذى أدى إلى النزاع بين أمراء البيت الأموى الحاكم. فعلى سبيل المثال نرى: الخليفة مروان بن الحكم يعهد بالخلافة من بعده لولديه عبد الملك ثم عبد العزيز. ولما ولى عبد الملك الخلافة خلع أخاه عبد العزيز بن مروان من ولاية العهد وولى مكانه ابنه الوليد بن عبد الملك، ولما ولى الوليد الخلافة وضع فى خطته عزل أخيه سليمان بن عبد الملك من ولاية



العهد وأخذ البيعة لابنه عبد العزيز بن الوليد، لولا أن الموت عاجل الوليد ابن عبد الملك فلم يستطع تنفيذ خطته وانتهى الأمر بتولى سليمان الخلافة، وقد ظهر هذا الخلاف واضحًا فى النزاع الذى وقع بين الوليد بن عبد الملك وبين ابن عمه الوليد بن يزيد.

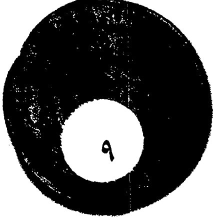
وفى آخر العهد الأموى تولى الخلافة الأموية خلفاء ضعاف لم يتصدوا بقوة للمؤامرات والدسائس التى كانت تحاك ضد الدولة والثورات التى اشتعلت داخلها واستهدفت الخلاص من الحكم الأموى، فأتاح مناخ الضعف هذا الفرصة لأعدائهم العباسيين من الاستفادة من جميع هذه الظروف وتجنيد جميع العناصر المناوئة للأمويين، ونجحوا فى النهاية فى إسقاط دولة بنى أمية وإقامة دولتهم التى عرفت بالدولة العباسية أو بدولة العباسيين.



ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ. ومن المعروف تاريخيًّا، أنَّ الأنظار لم تتجه إلى اختيار العباس خليفة للرسول ﷺ فى حكم الدولة الإسلامية بعد وفاته، لأسباب من أهمها أنه لم يكن من السابقين إلى الإسلام، إذ إنه لم يعتنق الإسلام ولم يعلن إسلامه إلا قبيل فتح مكة سنة ثمان للهجرة، برغم تأييده للرسول ﷺ منذ بداية الدعوة. كذلك من المعروف أيضا أن المسلمين لم يرشحوا أحدا من بنى هاشم للخلافة، إلا أن العلويين كانوا قد رشحوا عليًّا لها وأولاده من بعده.

وكما أن العباس لم يرشح للخلافة، كذلك فإن أحدًا من أولاده من بعده لم يرشح لها. وقد ورد فى بعض الروايات التاريخية أن أبا سفيان بن حرب جاء للعباس، بعد وفاة الرسول ﷺ مباشرة، وطلب منه ترشيح نفسه للخلافة قائلاً له: «ابسط يدك أبايعك» لكن العباس أبى. وقد أثبتت الروايات التاريخية أن العباس لم يطالب بالخلافة فى عهد الراشدين طوال حياته، وأنه بايع أبا بكر وعمر وعثمان ولم يتخلف عن مبايعة أى منهم وأنه كان مؤيدا لحق على فى الخلافة حتى وفاته سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م فى خلافة عثمان.

كذلك لم يطالب عبد الله بن العباس، أكبر أبناء العباس، بالخلافة، لتفرغه للعلم والفقه، وكان من أكبر المؤيدين لعلى ولولديه الحسن والحسين فى أحقيتهم بالخلافة، وقد سالم ابن العباس الأمويين حين وصلوا إلى الحكم وارتضى بحكمهم، ولزم مدينة الطائف حتى وفاته ودفنه بها سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م. وكان عبد الله بن العباس قد نصح الحسين بن على بعدم الخروج إلى العراق وعدم



اتباعهم فى تحريضهم له على الثورة ضد يزيد بن معاوية، ولكنه لم يأخذ برأيه، فحدث ما توقع له من خذلان أهل العراق له ولقاء حتفه وآل بيته فى معركة كربلاء.

وخلف على بن عبد الله بن العباس أباه عبد الله بن العباس فى رئاسة البيت العباسى، إلا أنه سار على نهج أبيه فى مسالمة الأمويين وتفرغ للعبادة ومن ثم عرف «بالسّجاد» لطول سجوده فى الصلاة، ولزم سكنى قرية الحميمة (فى شرق الأردن)، وكان الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان قد ألزم أفراد البيت العباسى سكنى الحميمة بعد قضائه على الثورة التى قام بها عبد الله بن الزبير فى الحجاز، حتى تسهل مراقبتهم هناك ورصد نشاطهم وتحركاتهم، وقد توفى على بن عبد الله بن العباس بالحميمة سنة ١١٨هـ/ ٧٣٦م عن عُمرٍ ناهز الثمانين ودفن هناك.

وانتقلت زعامة البيت العباسى بعد موت على إلى ابنه محمد، الذى لازم أباه لفترة طويلة ولم يكن يصغره بأكثر من أربعة عشر عاما، وتوفى بعد وفاة أبيه بسبع سنين (١٢٥هـ/ ٧٤٢م) بالحميمة ودفن بها.

ولقد ادعى العباسيون أن حق الإمامة (الخلافة) انتقل إليهم من أبناء عمهم الهاشميين العلويين قبل وفاة محمد هذا، وذلك على أثر تنازل أبى هاشم بن محمد ابن الحنفية، وهو ابن الإمام على بن أبى طالب من زوجة أخرى غير السيدة فاطمة الزهراء تعرف بالحنفية وينسب هو إليها، عن حقه فى الخلافة لتلميذه وابن عمه محمد ابن على بن عبد الله بن العباس؛ وذلك لعدم إنجابه ولدًا ذكرًا يتولى الإمامة من بعده؛ ولأن ابن الحنفية لم يجد بين أفراد بيت بنى هاشم العلوى من يستطيع النهوض بأعباء إمامة المسلمين بعده غيره بسبب ضعف رجال الهاشميين آنذاك.

والتفسير الوحيد لزعم إشاعة هذا التنازل عن الإمامة من جانب العلويين الهاشميين لأبناء عمومتهم العباسيين، والذى ادعاه العباسيون، يرجع فى أساسه إلى أن العباسيين، فيما يبدو، كانوا فى أواخر القرن الأول الهجرى أكثر كفاية ونشاطا وتحركا من أبناء عمومتهم العلويين على المستوى السياسى، وكانوا أكثر تطلعًا منهم إلى النفوذ والسلطان.

وكان أبو هاشم بن محمد ابن الحنفية إمامًا لجماعة من الشيعة وفرقة أطلقت على نفسها اسم «الهاشمية» نسبة لأبى هاشم هذا، كذلك أطلق عليها أيضا اسم فرقة «الكيسانية»، نسبة إلى كيسان، وهو مولى لمحمد ابن الحنفية والمنظم لدعوته والداعى له. وكان حق الإمامة عند هذه الفرقة قد انتقل إلى أبى هاشم (عبد الله) بعد وفاة والده محمد ابن الحنفية، الذى لم يطالب لنفسه بالإمامة إلا بعد استشهاد أخيه الحسين بن على، غير الشقيق، وقد دفعه إلى ذلك قائده المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى اقتفى أثر قاتلى الحسين وقام بقتلهم.



وقالت الرواية العباسية، فى مسألة تنازل الهاشميين العلويين عن حقهم فى الخلافة لأبناء عمومتهم العباسيين، أن أبا هاشم بن محمد ابن الحنفية كان قد زار فى أخريات أيامه أبناء عمه العباسيين المقيمين بالحميمة، بعد زيارة خاطفة لدمشق على أثر دعوة وجهها له الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك بن مروان لزيارته هناك. وقيل أن هشاما كلف رجاله بأن يدسوا السم لأبى هاشم فى اللبن، وأن أبا هاشم شرب اللبن المسموم، وما كاد يصل الحميمة حتى لفظ أنفاسه متأثرا بالسم. وادعى العباسيون أنه قبل وفاته تنازل عن حقه فى الإمامة لابن عمه محمد ابن على بن عبد الله بن العباس؛ ذلك لأنه لم ينجب ولداً ذكرا يرثه، وأن ذلك وقع فى عام ٩٨هـ/ ٧١٦م.

على أن هنالك مسألة جديرة بالملاحظة، وهى إن صحت هذا الرواية التى يدعيها العباسيون من تنازل أبى هاشم عن حقه فى الخلافة للعباسيين، أن هذا التنازل كان من جانب شخص واحد ولا يعتبر من جانب العلويين جميعا، وهو على الأقل تنازل من جانب جماعة الكيسانية الشيعية دون باقى الجماعات العلوية الأخرى. يؤيد ذلك أن الشيعة الإمامية (الإثنا عشرية) لم تعترف بهذا التنازل، وقد قاموا، فيما بعد، فى وجه العباسيين وثاروا ضدهم بعد أن تسلموا مقاليد الأمور وتولوا الخلافة وقامت دولتهم.

العباسيون
تنظيم الدعوة العباسية حتى الوصول الى الحكم

قام العباسيون بالتستر فى دعوتهم حين رأوا ما وقع على أبناء عمومتهم الهاشميين العلويين من شدة وعنف على يد حكام الأمويين حين ثاروا ضدهم. وقد رأى الإمام محمد بن على بن عبد الله بن العباس أن نقل الحكم من بيت إلى بيت أمر خطير لابد أن يسبق بإعداد الأفكار وتهيئة النفوس لتقبل هذا الانتقال والتغيير، وأن كل محاولة فجائية غير مدروسة قد تكون عاقبتها الإخفاق والفشل. فرأى الإمام محمد، ببعد نظره، أن الأمر يحتاج إلى الحيطة والحذر، وطلب من أشياعه دعوتهم الناس إلى نصرة آل البيت دون تسمية أحد معين من آل البيت خوفًا عليهم من حكام الأمويين، وخوفا عليهم فى نفس الوقت من الهاشميين العلويين. كذلك طلب منهم رفع شعار (الرضا من آل محمد)، أى من يرضى عنه آل محمد، علويًا كان أم عباسيًا، إذا ما نجح آل محمد جميعهم فى القضاء على حكم الأمويين.



وقد وجد محمد العباسى أن مدينة الكوفة بالعراق وإقليم خراسان فى شمال شرق إيران، هما أصلح الأماكن لنشر الدعوة لآل محمد واتخاذهما مركزًا لهم ومقرًا لدعوتهم؛ ذلك لأن الكوفة كانت مهد التشيع لآل البيت منذ خلافة على، كذلك لأن أهل خراسان من الفرس يفهمون فكرة التشيع بسهولة ويؤمنون بنظرية الحق الملكى المقدس فى الحكم وهى النظرية التى كانت سائدة فى بلاد فارس منذ أيام حكم ملوك الفرس الساسانيين، إضافة إلى كراهية الفرس للحكم الأموى، كراهية سائر الموالى لهذا الحكم، وبُعد بلادهم عن دمشق حاضرة الخلافة الأموية، مما يسهل على العباسيين نشر دعوتهم فى هذه البلاد.

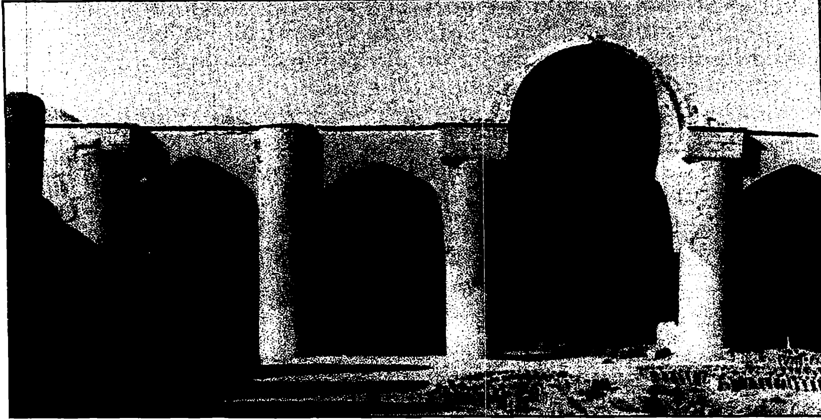
وقد نهض الإمام محمد العباسى بالدعوة نهضة قوية، وعيَّن الدعاة والنقباء، وأوصاهم بضرورة السرية التامة فى أمر نشر الدعوة، وأوصاهم أيضًا بأن يتظاهروا بنشر الدعوة لآل البيت جميعا، تسكينا للعلويين الهاشميين.

ومن الحميمة، التى اتخذها العباسيون مركزًا لنشر دعوتهم، انطلق دعاة العباسيين، فى أوائل القرن الثانى الهجرى إلى الولايات والأطراف لنشر الدعوة، وقد أرسل الإمام محمد إلى العراق خادمه «ميسرة النبال» وطلب منه أن يجعل الكوفة قاعدته، كما أرسل إلى خراسان اثنين من الدعاة وهما «محمد بن خميس» و«أبا عكرمة السراج». وقد تخفى هؤلاء الدعاة فى زى التجار، وذهبوا حيث وجههم الإمام الذى ركز أمر الدعوة فى أيدى هؤلاء الدعاة الثلاثة.

وقد اكتمل التنظيم للدعوة باختيار اثنى عشر نقيبا إلى جانب هؤلاء الدعاة، يأتمرون بأمرهم وينفذون أوامرهم، كما اختير سبعون عاملا لمساعدة النقباء، يخضعون لهم ويأتمرون بأوامرهم، ولم تكن شخصية الإمام فى الدعوة معروفة إلا للدعاة الثلاثة فقط، أما النقباء والعمال فلا علم لهم بها، وأن ما عليهم هو الدعوة للرضا من آل محمد. وكان ذلك منتهى الإحكام فى التنظيم لضمان سرية الدعوة وضمان عدم معرفة حكام الأمويين وولاتهم لشخصية الإمام المدعو له. وعلى الرغم من هذه السرية التامة فى الدعوة، فقد انكشف أمر بعض الدعاة، وخاصة على يد الوالى «أسد بن عبد الله القسرى» حين كان واليًا على الكوفة، وقد أخذ جماعة من النقباء والعمال وقام بتعذيبهم ثم قتلهم. ولكن، رغم ذلك، فقد ظلت الدعوة العباسية فى مأمن وظلت فى سريتها بسبب دقة التنظيم وزيادة التخفى وبخاصة بعد سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٨م، وهى السنة التى توفى فيها الوالى القسرى.

هذا، وقد مرت الدعوة العباسية بمرحلتين مختلفتين متتاليتين: المرحلة الأولى منها هى مرحلة الدعوة السرية التى بدأت عام ١١٧هـ/ ٧٣٥م، ومرحلة العمل التى بدأت عام ١٢٧هـ/ ٧٤٥م وانتهت سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وهى السنة التى سقطت فيها الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية.





مسجد تركى خان - فارس - دامغان ٧٥٠/ ٧٨٦م



توفى الإمام محمد العباسى سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م، وكانت الدعوة عند وفاته قد قطعت شوطا كبيرا. وقد أوصى محمد، قبل وفاته، بأن تكون الإمامة من بعده لابنه إبراهيم. وفى عهد إمامة إبراهيم انتقلت الدعوة العباسية من مرحلة السرية إلى مرحلة العلن والعمل. وفى هذه المرحلة ظهرت شخصية كان لها الدور الأكبر فى نجاح الدعوة ووصول العباسيين إلى الحكم وهى شخصية: أبو مسلم الخراسانى.

وكان أبو مسلم شابًا فارسيًا من خراسان، اتصف بالشجاعة والإقدام وحب العسكرية والمهارة فى القتال. وقد اتصل أبو مسلم بالإمام إبراهيم العباسى وأخذ على عاتقه عبء نشر الدعوة للعباسيين فى خراسان موطنه ومقر عصبيته، وكان أبو مسلم قد تلقى أصول الدعوة من «بكير بن ماهان» داعية العباسيين آنذاك بالكوفة. وفى سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٦م تسلم أبو مسلم مقاليد الأمور فى خراسان التى كانت تستعر فيها آنذاك نيران العصبية والحرب القبلية بين العرب اليمانية والعرب القيسية. وكان «أسد بن عبدالله القسرى»، والى الأمويين وقتذاك على خراسان، يمانيًا. ثم خلفه على ولاية خراسان الوالى «نصر بن سيار» وقد كان قيسيًا، وزاد بذلك الصراع بين الفريقين فى خراسان، واستطاعت القبائل اليمانية الانتصار على الوالى القيسى نصر وطرده من خراسان، وانضموا لقوات أبى مسلم ومناصرة دعوته للعباسيين. ، وأرسل نصر بن سيار إلى الخليفة مروان بن محمد، آخر خلفاء الأمويين، يخبره بتطور الأمور فى خراسان وقوة أبى مسلم

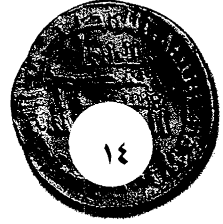


وازدياد أعداد رجاله وقوة عرب اليمانية وضعف القوات الأموية المرابطة فى خراسان. ولكن لم يكن فى يد الخليفة ما يفعله بصدد هذا الأمر بسبب المشاكل المتفاقمة التى كان عليه إيجاد الحلول لها فى دولته.

وفى نفس الوقت الذى تولى فيه أبو مسلم الدعوة للعباسيين فى خراسان، تولى أمر الدعوة لهم فى الكوفة شخصية قوية لا تقل فى قوتها ومكانتها عن شخصية أبى مسلم، هذه الشخصية هى «حفص بن سليمان» المعروف بـ«أبى سلمة الخلال»، الذى كان له دور كبير فى وصول العباسيين إلى الحكم. وكان سبب اتصال أبى سلمة ببنى العباس أنه كان صهرا لبكير بن ماهان داعية العباسيين فى الكوفة، وقد أوصى ابن ماهان الإمام إبراهيم العباسى أن يستخلف أبا سلمة مكانه فى الدعوة للعباسيين فى العراق بعد موته، وبالفعل صار أبو سلمة هو الداعية للعباسيين بعد موت ابن ماهان فى مدينة الكوفة.

ولقد ظلت دعوة العباسيين سرية فى عهد الإمام إبراهيم ولا يعلم شخص الإمام إلا الدعاة الثلاثة حتى وقع خطاب مرسل من الإمام إلى أبى مسلم فى خراسان فى يد الخليفة الأموى مروان

رسم قيام الدولة العباسية



االبن محمد، فانكشف أمر إبراهيم، وقام الخليفة بالقبض عليه وسجنه في حران ثم قتله، ولما علم إبراهيم بأن نهايته قد قاربت أوصى بولاية العهد بعده لأخيه أبى العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس؛ لأنه لم ينجب ولدًا ذكرا، وأوصى إبراهيم أخاه أبا العباس بضرورة مواصلة الدعوة وضرورة نقل مقرها من الحميمة إلى الكوفة.

ولما قتل إبراهيم، سار رسوله إلى الحميمة وسلم وصيته إلى أخيه أبى العباس، فتوجه أبو العباس، من فوره، إلى الكوفة، عملاً بوصية أخيه، مصطحبًا معه كبار رجالات بنى هاشم من العباسيين، وكان من بينهم أخوه أبو جعفر المنصور وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد وعمه عبد الله بن على.

وكان الإمام إبراهيم، قبل وفاته، قد أصدر أمره إلى أبى مسلم بأن يبدأ العمل، وجاء فى وصيته له بألا يبرم أمرًا من الأمور دون استشارة سليمان بن كثير، داعى العباسيين آنذاك فى خراسان، وأن يستغل النزاع القائم فى خراسان بين عرب اليمانية والعرب القيسية على أن يتضافر مع عرب اليمانية المعارضين لوالى خراسان الأموى. كذلك أوصاه بالأخذ بالشك والريبة فى أموره وإشاعة الرهبة والخوف بين الناس للقضاء على المتآمرين والمترددين فى أمر الدعوة، وأخبره بأن هذه خصال ضرورية للقواد الذين يتقرر على أيديهم مصائر الأمم والشعوب.

وفى رمضان سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٦م، بدأ أبو مسلم العمل، فعقد لواء السواد، شعار العباسيين وذلك تأسيًا برسول الله ﷺ الذى كان لواؤه راية سوداء، وبدأ إعلان الثورة ضد حكم الأمويين من قرية «سفيدنج» وهى من قرى مدينة مرو عاصمة إقليم خراسان. واشتبكت قواته، فى أول قتال لها، مع قوات نصر بن سيار، والى خراسان وهزمتها. ونجح أبو مسلم، فى العام التالى، فى دخول مرو واستولى عليها بعد أن هرب الوالى الأموى منها. ومن مرو، بدأ أبو مسلم الزحف بقواته داخل بلاد فارس والعراق بقوات خراسانية جعل قيادتها لقائده الشجاع «قحطبة بن الحسن» وقد اكتسح قحطبة بقواته بلاد فارس والعراق وأجبر والى العراق الأموى على الالتجاء إلى مدينة واسط، قاعدة الأمويين العسكرية فى بلاد العراق.

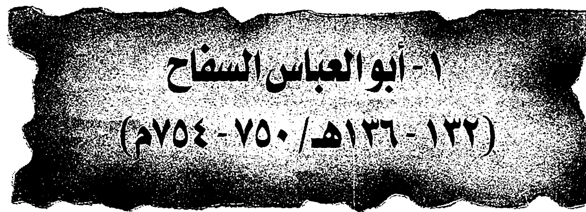
وفى الكوفة، نجحت قوات أبى سلمة الخلال فى هزيمة قوات قائد الأمويين بالكوفة «يزيد ابن عمر بن هبيرة»، وأرغمته على الانسحاب بقواته المنهزمة إلى واسط. فجاء أبو سلمة الخلال ونزل بجنده مدينة الكوفة دون أن يلقى مقاومة تذكر، وكان ذلك أوائل سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وصار أمر دعوة العباسيين فى الكوفة فى يد أبى سلمة الخلال.

وتذكر المصادر أن أبا سلمة الخلال أخذ فى ذلك الوقت يتغير على العباسيين بعد أن سبر أحوالهم وعزم على العدول عنهم إلى أبناء عمومتهم الهاشميين العلويين. وقيل أنه كاتب ثلاثة من



أعيان العلويين ليبايع أحدهم بالخلافة وهم: الإمام جعفر الصادق بن موسى الكاظم، وعبد الله المحصن بن حسن بن الحسين بن على، وعمر الأشرف ابن على زين العابدين بن الحسين. ولكن أحداً منهم لم يجبه لإدراكهم خروج الأمر من أيديهم. وأثناء محاولات أبى سلمة مع قادة العلويين، فوجئ بمقدم أبى العباس عبد الله، أخى الإمام إبراهيم المقتول وولى عهده من بعده، دون علمه إلى الكوفة، وقد علم أبو العباس بنوايا أبى سلمة فحقدها عليه وأخفاها فى نفسه.

وعند قدوم أبى العباس إلى الكوفة قام كبار أعوان العباسيين بالبيعة له بالخلافة فى مسجد الكوفة الكبير يوم الجمعة الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. وعهد أبو العباس إلى عمه عبد الله بن على بمطاردة الخليفة الأموى مروان بن محمد، فتتبعه إلى نهر الزاب الأصغر، وهو أحد روافد نهر دجلة، وهزم قواته وقتل وأغرق كثيرا من أتباعه كان من بينهم نحو ثلاثمائة أمير أموى. ثم هرب مروان بمن تبقى معه من قواته إلى الموصل، لكن قوات عبد الله بن على العباسى لحقت بهم وأوقعت الهزيمة بهم. فهرب مروان إلى حران، ثم عبر نهر الفرات وارتحل إلى فلسطين والأردن ثم مصر. ولحق به عبد الله بن على فى مصر وهزم بقايا قوات الأمويين عند قرية بوصير، من أعمال الفيوم، وقتل مروان هناك. وبقتل مروان بن محمد انتهت الخلافة الأموية وقامت الخلافة العباسية، وبدأ عصر العباسيين الأوائل الذين كان أول خلفائهم أبو العباس عبد الله ابن محمد، الملقب بالسفاح.



وُلد السفاح سنة ١٠٣هـ/ ٧٢١م، وأمه ريطة بنت عبيد الله الحارثية. قضى شبابه فى الحميمة بالشام وأسهم فى أمر الدعوة العباسية مع أبيه محمد ثم مع أخيه إبراهيم الإمام فى السنوات الأخيرة الهامة. ولما كان عربى الأم فإن إبراهيم قد أوصى له قبيل مقتله برئاسة الدعوة دون أخيه الأمبر أبى جعفر، ابن سلافة البربرية.

وهو أول خلفاء العصر العباسى الأول وعددهم تسع خلفاء، جاء ترتيبهم وجاءت سنوات حكمهم كالتالى:



ودخل على السفاح شاعر آخر، وقد قدم الطعام فى وليمة أقامها السفاح لنحو سبعين أميرا من أمراء بنى أمية على ضفاف نهر أبى فطرس، فقال الشاعر شعراً أهاج به الخليفة وأعاد عنده ذكريات الماضى الأليمة، وكان من شعره أبيات جاء فيها قوله:

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل من بنى العباس
لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رفلة وغراس
ولقد غاظنى وغاظ سواييه ... قربهم من نمارق وكراسى
انزلوها بحيث أنزل الله ... بدار الهوان والأتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد ... وقتيلاً بجانب المهراس

فالتفت أحدهم إلى من بجانبه وقال: «قتلنا العبد»، ثم أمر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا جميعهم، وبُسطت الفرش عليهم، وجلس السفاح فوقهم يأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا. وقد عرفت هذه المذبحة بمذبحة نهر أبى فطرس التى لم ينج منها من أمراء الأمويين سوى عبد الرحمن الداخل الذى لم يحضر هذه الوليمة وفر إلى الأندلس.

ولما قتل السفاح رجال الأمويين واستصفى لنفسه أموالهم، ارتاحت نفسه وقال شعراً منه:

بنى أمية قد أفنيت جمعكم ... فكيف لى منكم بالأول الماضى
يطيب النفس أن النار تجمعكم ... عوضتم من لظاها شر معتاض

ولم يكتف السفاح بالتخلص من بقايا الأمويين، ولكنه عمل هو وأخوه المنصور من بعده على التخلص من كبار رجال الدولة الذين ساعدوا العباسيين فى الوصول إلى الحكم وكان لهم الدور الأكبر فى تأسيس دولتهم والقضاء على دولة الأمويين، وذلك حتى لا يكونوا شوكة فى جنب هذه الدولة وحتى لا ينازعوهم الحكم. ويشاركوهم السلطان ويكونوا قوة يخشون أمرها. وكان أكبر هؤلاء الرجال ثلاثة: داعيتهم أبو سلمة الخلال، وعمهم عبد الله بن على، وقائدهم أبو مسلم الخراسانى.

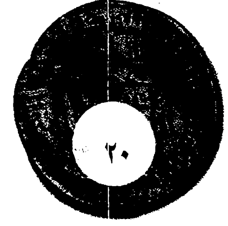
وقد بدأ السفاح عملية الخلاص هذه بالتخلص من أبى سلمة الخلال، ثم أكملها أخوه المنصور بالخلاص من عبد الله بن على ثم من أبى مسلم الخراسانى بعد أن تولى الخلافة بعده.



وكان أبو سلمة الخلال أول وزير وزر لأول خليفة عباسى، واسمه حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال، وكان مولى فارسيًا لبنى الحارث بن كعب. قيل فى تلقيبه بالخلال أنه كانت له حوانيت يعمل فيها الخل فنسب إلى ذلك. وكان أبو سلمة من مياسير أهل الكوفة، وكان ينفق على الدعوة للعباسيين من ماله الخاص. وكان سبب اتصاله ببنى العباس أنه كان صهراً لبكير بن ماهان داعى الإمام إبراهيم وكاتبه الخصوصى. فلما أدركت بكير الوفاة، أوصى الإمام إبراهيم بأن يتخذ أبا سلمة كاتبًا وداعيا له بالكوفة، فلما مات بكير كتب الإمام إلى أبى سلمة يعلمه بذلك ويأمره بما يريد من أمر الدعوة. وقام أبو سلمة بأمر دعوتهم قيامًا عظيما، ولكنه لما سبر أحوال بنى العباس عزم على العدول عنهم وأخذ البيعة لأبناء عمهم الهاشميين العلويين، فكتب إلى ثلاثة من أعيانهم آنذاك فلم يجيبوه، وغُلب أبو سلمة على أمره وعملت الدعوة عملها وبويع السفاح خليفة، ونمى الخبر إليه فحقدها على أبى سلمة وقتله بسببها ولما صارت الخلافة للسفاح استوزر أبا سلمة ولقب آنذاك بـ«وزير آل محمد». وفى نفس السفاح ما فيها من حقد على أبى سلمة وخاف السفاح، أول الأمر، من أن يقتل أبا سلمة وتأكد له إن فعل ذلك فسوف يؤدى إلى غضب أبى مسلم وتمرده هو وأهل خراسان عليه؛ فأعمل الحيلة فى ذلك وتلطف لذلك. وعمل على أن يتم الخلاص من أبى سلمة على يد أبى مسلم نفسه، فكتب إلى أبى مسلم كتابًا يعلمه فيه بما كان قد عزم عليه أبو سلمة من نقل الدولة عن العباسيين إلى العلويين، وعهد إليه بمعاقبته على ذلك وأوحى إليه بقتله بقوله فى خطابه له: «إننى قد وهبت جرمه إليك»، وكان باطن الكتاب يقضى تصويب الرأى فى قتل أبى سلمة.

وأرسل السفاح كتابه مع أخيه المنصور، فلما قرأ أبو مسلم الكتاب فطن لغرض السفاح ولقت الفكرة قبولاً عنده، إذ إن قتل أبى سلمة يتيح له التخلص من نفوذه بدار الخلافة وتبقى له وحده الحظوة عند الخليفة. فأرسل أبو مسلم رجالا من أهل خراسان قتلوا أبا سلمة دون أن يثير ذلك ريبة أو غضب فرس خراسان.

وأراد السفاح بعد خلاصه من أبى سلمة أن يثنى بأبى مسلم، لكن المنية وافته وهو يخطط لذلك وترك تدبير ذلك لأخيه المنصور الذى تولى الخلافة بعده وبقى السفاح على عرش الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر، وكان مرض الجدرى قد تفشى فى مدينة الأنبار، عاصمة العباسيين آنذاك، فى أواخر سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٤م، فأصيب به الخليفة نفسه ومات به (فى ١٢ ذى الحجة)، وهو ابن ست وثلاثين سنة بعد أن عهد بالخلافة من بعده لأخيه أبى جعفر المنصور، ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى من بعده.



٢- أبو جعفر المنصور
(١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م)

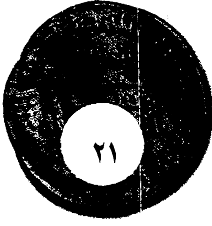
هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، ولد كأخيه أبى العباس سنة ١٠١هـ، من أم ولد بربرية تدعى سلافة، ويعتبر المؤرخون عهده فترة تأسيس وبناء الدولة العباسية، كما يعتبرونه المؤسس الحقيقى لهذه الدولة برغم مجيئه الثانى فى الترتيب بعد السفاح. وكان المنصور، كما ذهب بعض المؤرخين إلى القول، من أعظم خلفاء العباسيين شدة وبأسا ويقظة وحزقا وإصلاحا واهتماما بمصالح الرعية؛ ولذا يعدونه المؤسس الفعلى لدولة بنى العباس.

وقد غطت شهرة المنصور السياسية على صفته العلمية التى كان يعمل عليها قبل الخلافة وطلب من أجلها علم الكلام وخالط العلماء، فقد كان المنصور، فى شبابه الأول، يجول فى البلاد ويحضر المناظرات والحلقات الفكرية والدينية فى مساجد المدينة والبصرة والكوفة والأهواز والموصل. ومن المعروف أن المنصور كان على صلة وثيقة وحميمة، قبل الخلافة وبعدها، مع زعيم المعتزلة فى البصرة عمرو بن عبيد، وأنه كان ملازما لحلقاته فيها، كذلك كان المنصور على علم بالحديث والمغازى والأخبار، ورغبته فيها هى التى جعلته يطلب من محمد بن إسحاق وضع السيرة النبوية لتثقيف ابنه المهدى بها ومن الإمام مالك بن أنس وضع كتابه «الموطأ».

واشتهر المنصور بالجد وعدم الرغبة فى اللهو، ويقول عنه الطبرى فى ذلك: «لم ير فى دار المنصور لهو قط، واشتهر أيضا بالبخل وشدة الحرص حتى كان يدعى «بالدوانيقى» أو «أبو الدوانيق» لقلة عطائه. وقد عرف عنه الغدر ونقض العهد. ويذكر له المؤرخون غدرات ثلاثة مشهورة بـ(ابن هبيرة، وبعمه عبد الله بن على، وبأبى مسلم الخراسانى).

وقد عرف المنصور بالثبات عند الشدائد، ولا شك فى أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التى كفلت له النجاح إذا صادفته عقبة من العقبات، وقد كانت كثيرة فى عهده. ومما يسجل له بالإعجاب قيامه فى وجه من خرجوا عليه وتحديه لهم حتى يتغلب عليهم، ولكن يؤخذ عليه ميله لسفك الدماء، وإن لم يكن قد بلغ فى ذلك مبلغ السفاح.

ويتفق لقب «المنصور» الذى اتخذه لنفسه اتفاقًا كاملاً مع النتائج التى توصل إليها بسياسته. وقد أمضى تسع سنوات من خلافته لا يعرف خلالها إلا بكنية «أبى جعفر» فلما انتصر على محمد النفس الذكية الذى تلقب بالمهدى اختار أبو جعفر لقب المنصور لأسباب دعائية واضحة هى أنه هو المنصور الذى اختاره الله وأن دعوى النفس الذكية دعوى باطلة بدليل أن الله هزمه.



وساعدت طول فترة خلافة المنصور، وهى اثنتان وعشرون عاما، على التفـرغ لعمليـة بناء الدولة بما تتطلبه مـن تنظيم إدارة الحكم وعمـران البلاد وإصلاح اقتصـادها. وقد ترك المنصور الدولة عند وفاته، وقد فـرغت تقريبا من كل مشاكلها وازدهرت جميع مرافقها وامتلأت خزائنها بالأموال فى عهد بنى العـباس من بعـده وفيمـا روته كتب التـاريخ والأدب عن ازدهار الدولة الشامل فى عصر خلفائها الأوائل.

وعند بداية تولى المنصور للخلافة ثار ضـده عمه عبد الله بن على، اعتقادا منه بأحـقيته بها دون ابن أخيه نظرا للدور الذى قام به فى إنهاء حكم الأمويين وإقامة الدولة للعباسيين، وكان عبد الله بن على عند مدينة حلب بالشـام حين ولى المنصور الخلافة ففوجئ بذلك فـجمع الناس حوله ودعى إلى نفسه وخطـب الناس قائلا: «إن السفاح ندب بنى العبـاس لقتال مروان بن مـحمد فلم ينتدب غيرى وأنه قال لى: إن ظهرت عليه وكانت الغلبة لك فأنت ولى عهدى من بعدى وشهدت له جماعة بذلك»، فبايعه أهل حلب، ثم ارتحل من حلب إلى حران وطلب من واليها مبايعته فأبى فحاربه وهزمه وقتله.

ولما وصل خبر ذلك للمنصـور «أقامه ذلك وأقعده»، وفكر المنصور فى كيـفية الخلاص من عمه فلم يجد سوى أبى مسلم ليخلصه منه يوجهه لقتاله «فإن تخلص منه فقد كفاه خطر عمه وإن تخلص عبـد الله من أبى مسلم فقد كـفاه ذلك»، أى أن تفكيره قد هداه على أن يضـرب عدوا له بعدو.

ولما عرض المنصور الأمر على أبى مسلم تقبله برضـاء قائلا له: «لا تخفه أنا أكفيكه إن شاء الله، إنما عامـة جـنده من أهل خراسـان وهم لا يعصـوننى»، فسـار أبـو مسلم بعسكر كـثيف لحرب عبد الله بن عـلى، ونجح فى إيقاع الهزيمة به، لما عرف عن أبى مسلم من مهـارة فى القتال وقـدرة على وضع خطط الحرب ودارت بين الـفريقين مـعركـة قرب بـلدة نصيـبين سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٤م، انتهت بهزيمة سـاحقة لعبد الله الذى هرب إلى البـصرة لاجئًا على أخيـه سليمان بن على واليهـا آنذاك من قبل المنصـور، فشفع سليـمان لأخيـه عند المنصور وطلب له منه الأمـان، فأمنه المنصور وكتب لـه كتابًا بليغًا بذلك الـتزم فيه بكل شىء، إلا أن المنصور لـم يف بأمر هذا الأمان ودبر أمر التخلص من عبـد الله بن على بعد أن استقدمه إليه، فقام بحـبسه مدة تسع سنوات، ثم أمر فى سنة ١٤٩هـ/ ٧٦٦م بقتله، وقـيل أنه عمل له بيتًا عمل فى أساسـه مِلحًا، ثم أجرى الماء فيه فسقط عليه البيت فمات.

وما كاد المـنصور يتخلص من عمـه عبد الله بن على إلا وعزم على الخـلاص من قائده أبى مسلم الخـراسانى لتـهم نسبهـا إليه، وقد لخص الطبـرى هذه التهم التى نقلهـا عنه باقى المؤرخين وجاءت خلاصتها فى الآتى:



١ ـ أنه لم يقم بتحيته حين زاره فى الهاشـمية وأنه خاطبه باسمه فى بعض رسائله إليه ولم يخاطبه بكنيته.

٢ ـ أنه قدَّم اسـمه على اسم الخليفـة فى الرسائل التى كـان يرسلها إليه.

٣ ـ أنه تقدَّمه فى طريق الحج.

٤ ـ أنه تأخر فى البيعة له وماطل فى ذلك.

٥ ـ تحريضه عيسى بن موسى على التمرد على الخليفة والمطالبة بالخلافة لنفسه.

٦ ـ تدخله فى شئون أخيه السفاح.

٧ ـ قتله الداعى سليمان بن كثير دون استشارة الإمام.

٨ ـ أخذه بعض متاع وجوارى عبد الله بن على لنفسه.

٩ ـ ادعاؤه النسب لبنى العباس.

١٠ ـ مراوغته ومحاولته الخروج إلى خراسان رغم استدعاء الخليفة له.

ولقد اعـتبر أبو جـعفر المنصـور أبا مسلم الخراسـانى أكثر الشـخصيـات خطرا عليه وعلى حكمه؛ لأنه كان يعتبر نفـسه السيد المطلق فى خراسان، مسقط رأسه وموطن عصـبيته، وقد كان العداء قد ازداد وتفاقـم بين أبى مسلم والمنصور منذ خلافة السفـاح. ولقد حنق المنصور على أبى مسلم وقرر القضاء عليه بعد قضائه على عمه عبد الله بن على، قبل أن يعود إلى خراسان. وكان أبو مسلم قد قرر العودة مـغاضبا إلى خراسان فعمل على إبعاده عنها وولاه مـصر والشام فغضب أبو مـسلم وقال: «هو يولينى الشـام ومصـر، وخراسـان لى؟» وأصر أبو مـسلم على السيـر إلى خراسـان، عند ذلك تحققـت مخاوف المنصـور من أبى مسلم وخشى خـروجه عليـه وعوَّل على التخلص منه قبـل أن يستفحل أمره، فكتب إليـه كتابا يأمره فيـه برجوعه إليه فـرد عليه أبو مسلم بكتاب يقـول له فيه: «إنـه لم يبق لأمير المؤمنين ـ أكـرمه الله ـ عدواً إلا أمكنـه الله منه، وقد كنا نروى عن ملوك ساسـان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء، فنحن نافـرون من قربك حريصون على الوفـاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسـمع والطاعة غير أنه من بعيد حـيث تقارنها السلامـة، فإن أرضاك ذاك فأنا كـأحسن عبيـدك فإن أبيت إلا أن تعطى النفس إرادتها نقـضت ما أبرمت من عهدك ضنًّا بنفسى».

وقد عـبَّر أبو مسلم، فى هذا الكتاب، عـما يجيش فى صـدره من حقد لأبى جعـفر ومن الخوف على حـياته إذا هو أطاع أمره. لـكن المنصور سلك مع قائده سـبل اللين والمسالمة ومـقابلة التحدى والتهديد بالحيلة حتى يبدد مخـاوفه ويتمكن منه، فكتب إليه المنصور يطيب نفسه ويسكنه



ويعده بالجميل ويستدعى منه الحضـور. فلما وجد المنصور إصرار أبى مسلم على الخروج اشتد خوفه منه وحنقه عليـه وكتب إليه كتابا معناه «أنك لست فى نظرنا بهذه الصفة التى قد وسمت بها نفسك وإن حسن بلائك فى دولتنا يغنيك عن هذا القول». وكرر عليه طلب الحضور، وقال لوجوه بنى هاشم: «اكتبوا أنتم أيضا إليـه» فكتبوا إليه يعتبون عليه خلافه مع المنصـور ومشاققته ويحسنون له الحضور عنده والاعتذار إليه.

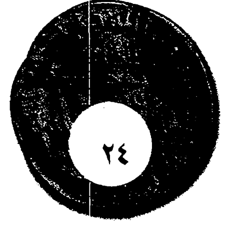
وأرسل المنصور الكتب مع كاتب عاقل من أصحابه وقال له: «امض إليه وحدثه ألين حديث تحدثه أحدا، فإن رجع فـارجع به حتى تقوم به علىَّ، وإن أصر على المشاققـة وصمم على التوجه إلى خراسان وأيست منه ولم يبق لك حيلة فقم بتهديده وتخويفه».

فمضى الرسول إليه وناوله الكتب فقرأها أبو مسلم، والتفت إلى صديق له اسمه «مالك بن الهيـثم»، وقال له: «ما الرأى؟» فقـال: «الرأى ألا ترجع إليه، فإنك إن رجعت إليـه قتلك، وإن مضيت علـى طريقك حتى تصل إلى الرى فهنالك جندك تكون بينهم وتنظر فى أمـرك فإن حـدث لك حـادث كـانـت خـراسـان من ورائك»، فـعزم أبو مـسلم على ذلك، وقال للرسـول: «قل لصاحـبك إنه ليس من رأيى الحضـور عندك وأنا متـوجه إلى خراسـان» فقال لـه الرسول: «يا أبا مسلم، أنت ما زلت أمين آل محمد فأناشدك الله ألا تسم نفـسك بسمة العصيان والشقاق، والرأى أن تحضر عند أمير المؤمنين وتعتذر إليه فلن تجد عنده إلا ما تحب». فقال له أبو مسلم: «متى كنت تخاطبنى بمثل هـذا الخطاب؟» فقال له الرجل: «سـبحان الله! أنت دعـوتنا إلى ولاية هؤلاء القوم ونصرتهم وقلـت لنا من خالفهم فـاقتلوه فلما دخـلنا معك فيـما ندبتنا إليه رجـعت عنه وأنكرته علينا!» فقال أبو مسلم: «هو ما قلت لك ولست براجع».

فقال له: «فليس عندك غير هذا؟».

قال: «نعم»، ولما يئس الرسول من أبى مـسلم خلا به وأبلغه بتهديد المنصـور وأكد له قدرة الخليفة على القضاء عليه حتى ولو خاض البحـار واقتحم النار. فأوجس أبو مسلم خيفة وساورته الظنون وتملكه القلق، وخاصة بعد أن عرف بأن المنصور أرسل إلى «أبى داود خالد الذهلى»، نائب أبى مسلم فى خـراسان كتـابًا يمنيه فـيه بولاية خراسـان إذا هو قطع صلته بأبى مـسلم وحال دون وصوله إليها. كما ازداد قلق أبى مسلم حين وصلـه كتاب هذا النائب الذى جاء فيه قوله: «إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه ﷺ فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه».

وكان هذا التـهديد لأبى مسلم من نائبـه كافيًا لعـدوله عن رأيه، فقرر القدوم إلى الخليـفة مصالحًا بعد أن أخذ منه الأمان، فقام بتـسليم عسكره إلى أصحابه وقال له: «إن جاءك كتابى وهو مختوم بنصف خاتمى فهو كتابى وإن كـان مختومًا بكل الخاتم فاعلم أنه ليس خاتمى»، وأوصاه بما أراد، ثم سار إلى المنصور. . سار إلى نهايته.



ولما علم المنصور بقرب وصول أبى مسلم إلى المدائن، دبر أمر اغتياله، وأمر فى الوقت نفسه رجالات دولته وأفراد البيت الهاشمى بلقائه تطمينًا له، ولما مثُل أبو مسلم بين يدى الخليفة بالغ فى الترحيب به، ثم قال له: «انصرف يا عبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام فإن للسفر عناء واحضر عندنا فى الغد». وأرسل المنصور إلى رئيس حرسه ودبر معه طريقة قتل أبى مسلم، وتتلخص فى أن يحضر أربعة من الحراس الذين يثق بهم وأن يخبئهم خلف ستار فى مجلس الخليفة على أن يخرجوا من وراء الستار لحظة أن يصفق بيديه ويقتلوا أبا مسلم بسيوفهم.

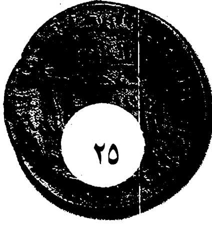
ثم أصبح الصباح، وجاء أبو مسلم ومَثُل بين يدى الخليفة وبدأ الحديث معه يتدرج من العتاب إلى المؤاخذة والمحاسبة على أخطائه وتعدادها له، ثم إلى اللوم والتأنيب، ولما عدد المنصور على أبى مسلم عدة ذنوب، قاطعه أبو مسلم قائلا: «يا أمير المؤمنين إن مثلى لا يقال له هذا ولا تعدد عليه مثل هذه الذنوب بعد ما فعلت».

فاغتاظ المنصور وقال وهو فى حالة هياج: «يا ابن اللخناء.. أنت فعلت؟ والله لو كانت مكانك أمة سوداء لفعلت ما فعلت، وهل نلت ما نلت إلا بنا وبدولتنا؟». فقال أبو مسلم: «دع عنك هذا فقد أصبحت لا أخشى غير الله». يقول الطبرى: فضرب المنصور بيده على الأخرى فخرج رجال الحرس الأربعة من وراء ستارهم وضربوه بالسيوف. فصاح قائلا: «استبقنى يا أمير المؤمنين لعدوك»، فقال المنصور: «وأى عدو لى أعدى منك!»، ثم أمر به فلف فى بساط»، وخطب المنصور فى الناس فى تلك المناسبة يبرر فعلته هذه بقوله: «إن مَن نازعنا هذا القميص أجزيناه خبى هذا الغمد، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه لنا ثم نكث بنا هو فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه».

وقد قال المنصور شعرًا لمَّا قتل أبا مسلم الخراسانى، ومن أبيات هذا الشعر:

زعمت أنَّ الديْن لا ينقضى ... فاكتل بما كِلْتَ أبا مجْرِمِ
واشرب كؤوسا كنت تسقى بها ... وأمرّ فى الحلق من العلقم
حتى متى تُضمر بُغضًا لنا ... وأنت في الناس بنا تنتمى

وكان لقتل أبى مسلم نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الدولة العباسية وفى أحداث الصراع بين العرب والفرس على الحكم فى هذه الدولة. وأصبحت شخصية أبى مسلم مع الأيام عند الفرس



شخصية أسطورية ونسجوا حولها القصص الخيالية وأصبح البطل القومى الشعبى فى خراسان، ورفع عدد كبير من الثوار فى فارس شعار الثأر لأبى مسلم كمبرر للثورة على العباسيين.

ثورة محمد النفس الذكية

ومن أكبر المصاعب التى قابلت حكم أبى جعفر المنصور تلك الثورة العلوية التى قام بها محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، المعروف بمحمد النفس الذكية، وكان أول الثائرين من العلويين على أبناء عمومتهم العباسيين. وقد شارك فى هذه الثورة أخ له يقال له إبراهيم. وقد عرف محمد بالنفس الذكية لدماثة خلقه وحسن شمائله وشجاعته. وكان بنو هاشم قد أجمعوا، لخلاله هذه، على مبايعته فى أواخر أيام بنى أمية بالإمامة، كذلك لفضله وشرفه وعلمه. ولقد امتنع النفس الذكية عن مبايعة السفاح حين قدم أخوه المنصور إلى الحجاز لأخذ بيعة أهل الحجاز له. كذلك تخلف هو وأخوه إبراهيم عن مبايعة المنصور بالخلافة حين بويع بها. وقد رأى المنصور، حين ولى الخلافة، الخطر كل الخطر على دولته فى بقاء النفس الذكية وأخيه إبراهيم دون التخلص منهما.

وقد كلف المنصور رجلا قاسيا لمراقبة النفس الذكية فى الحجاز، وهو والى المدينة رباح بن عثمان بن حيان، الذى قام بالتضييق عليه والقبض على كثير من أتباعه وأقاربه والقيام بسجنهم. وكان محمد آنذاك مستخفيا فى المدينة، إلا أنه أظهر نفسه سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م وأعلن الثورة على المنصور ودعى الناس فى مكة والمدينة إلى الاعتراف بإمامته فقاموا بمبايعته وتلقب بلقب أمير المؤمنين فذاع صيته وعظم احترام الناس له وتكاثر أتباعه. وساعده على ذلك فتوى الإمام مالك بن أنس، فقيه الحجاز وأحد أئمة المذاهب السنية الأربعة، بنقض بيعته وبيعة أخيه إبراهيم للمنصور لأنهم بايعوا مكرهين وأنه «ليس على مكره يمين».

وأرسل النفس الذكية أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر الدعوة له هناك وأخذ البيعة له بالعراق، فذهب إبراهيم إلى البصرة واستولى على دار الإمارة بها، وحارب قوات الخلافة هناك بمساندة من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأى والجاه وانتصر عليهم. ووقف الإمام أبو حنيفة النعمان، أحد أئمة المذهب السنى الأربعة، إلى جانب إبراهيم كما وقف الإمام مالك إلى جانب أخيه، وبذلك نجح إبراهيم فى ضم واسط والأهواز وفارس إليه. ولم يزل إبراهيم يوالى انتصاراته حتى أتاه خبر مقتل النفس الذكية فى أواخر شهر رمضان سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م.



وكان المنصــور قد تحـرك للقضــاء على ثورة النفس الذكيــة ولجأ أول الأمر إلى الحيلة معه قبل اللجـوء إلى الحرب فأغراه بالمال والنفوذ ووعده فى كتابه له بالأمان إلا أن النفس الذكية لم يســتجب لمحاولات المنصور السلمية معه وأصر على الحــرب، وقام المنصور بضرب الإمام مالك بالـسياط بسبب فتواه لــلنفس الذكية، كمــا استقدم الإمــام أبا حنيفة من الكوفة إلــيه وحدد إقامــته ثم أرسل من دس لــه السم الذى مات بســببه وذلــك لتأييــده لثورة النفس الذكــية وأخــيه إبراهيم.

ولـم يكتب النجاح لــثورة النفس الذكيــة لعدة أسبــاب، أهمها: أن النفس الذكــية وإبراهيم أخطآ فى الخروج على المنصور بعد أن بايعه بالخلافة عامة المسلمين، وأنهما اعتمدا على عدد قليل من الأنصار لا يقارن أمام قوة دولة الخلافة، كذلك بسبب الخطأ فى التوقيت فى إعلان الثورة قبل أن تكتمل القوة ويكتمل الاستعداد، وكان قد دفــعه إلى ذلك التعجل رغبته فى تخليص آل بيته مما نالهم من عسف وأذى على يد والى المدينة. كذلك لم تكن الفرصة مــتاحة لاتحاد ثورة محمد مع ثورة أخيه؛ لأن المنصور أجهز أولا على محمد ثم ثنى بعد ذلك بأخيه إبراهيم.

ومن أهم أسبــاب فشل ثورة النفس الذكــية ضــد المنصور، أن النفس الذكيــة وقع فى نفس الخطأ الذى كان قد سبق وقــوع عبد الله بن الزبير فيه حين ثار على الخليفــة الأموى عبد الملك بن مروان باتخاذه المدينة مركزا لدعوته وعاصمة لخلافــته، فبلاد الحجاز أصبحت لا تصلح من الناحية العسكرية والناحية الاقتصادية لتكون مركزًا أو حاضرةً لحكومة إسلامية بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وفتحت الأمــصار التى تتميز عن بلاد الحجاز بالقوة الإستراتيجــية والاقتصادية. وكان يكفى المنصور أن يقوم بعملية حصار للمدينة يستطيع بها أن ينهى هذه المقاومة ويخمد هذه الثورة، وهذا ما تم عمله بــالفعل، وقد نجحت قوات المنصــور فى إيقاع الهزيمة بقوات النفــس الذكية عند موضع قريب من المدينة يعرف بـ «أحجار الزيت» وقد قتل النفس الذكية عند هذا الموضع؛ ولذلك عرف بـ«محمد النفس الذكية قتيل أحجار الزيت».

وبعد الخلاص من النفس الذكية أرسل المنصور ولى عهده عيسى بن موسى على رأس جيش كبير للــقضاء على ثورة إبراهيم بالعراق، ونجحت هذه القوات فى هــزيمة إبراهيم وقتله عند منطقة تعرف باسم «بــاخمرى»؛ ولذلك عــرف إبراهيم بـ«قتــيل باخمرى». وقــد قتل فى مــعارك النفس الذكية وأخــيه إبراهيم عدد كبير مــن أفراد البيت العلوى، وقبض أيضا على الكثــير منهم وأودعوا سجون الكوفة.

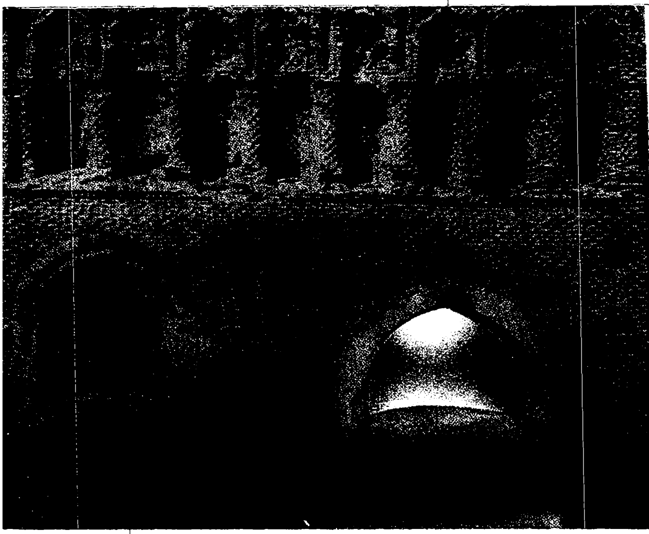




بناء بغداد

رأى العباسيون أن من تمام أعمال تأسيس الدولة وتنظيمها أن تكون لهم عاصمة معينة يديرون منها حكم دولتهم. ولم تكن عاصمة الأمويين دمشق تصلح لهم لميول أهلها لأعدائهم بنى أمية ولقربها من بلاد الروم وبعدها عن خراسان، وقد رأى العباسيون أن تكون عاصمتهم فى بلاد العراق التى تتوسط دولتهم وتتحكم فى طرق التجارة العالمية ويدين أهلها لهم بالولاء. وكان على المنصور أن يتخير مدينة داخل العراق يتخذها حاضرةً لدولته، فنظر فى أمر الكوفة ولم يطمئن قلبه لها بسبب ميول أهلها لآل على فانتقل أولا إلى الأنبار، ثم ابتنى مدينة جديدة بنواحيها أسماها «الهاشمية». ولما وقعت للمنصور واقعة الراوندية بالهاشمية كره سكناها، ورأى ضرورة بناء عاصمة جديدة له فخرج بنفسه يرتاد المواضع، فوقع اختياره على منطقة خصبة يرويها ماء نهر دجلة والجداول التى تأخذ ماءها من نهر الفرات، فى منطقة يسهل فيها الاتصال بين أرجاء دولته وتتوافر فيها سبل العيش وتقع فى وسط العراق. وكان موضع هذه المدينة الجديدة قرية صغيرة قديمة كان قد بناها ملوك الفرس على شاطئ نهر دجلة فى أعلى المكان الذى يلتقى فيه نهر الصراة بدجلة. وتسمت هذه المدينة، أول الأمر، بمدينة المنصور، وابتدأ البناء فيها سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م وانتهى سنة ١٤٩هـ/ ٧٧٥م، وجعلها مدورة وجعل قصره والمسجد فى وسطها وسميت هذه المدينة باسم بغداد، وهى تسمية فارسية تتكون من كلمتين: «باغ» ومعناها: الله، وداد بمعنى أعطى، وهى ماض لفعل دادن بمعنى: أن يعطى، فيكون بذلك معناه: المدينة التى أعطاها الله، أو مدينة الله، ويقال لها أيضًا: مدينة المنصور، ودار السلام، والزوراء؛ لازورارها عن القبلة والكعبة، والروحاء؛ لطيب هوائها والمدورة لاستدارة بنائها.

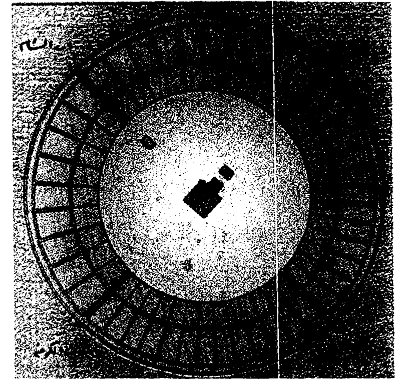
ولقد أحضر المنصور المهندسين والبنائين والحرفيين من نجارين وبنائين وحدادين من الشام ومصر وبلاد الديلم والبصرة والكوفة وواسط ليشرعوا فى بنائها، وقد قيل أن عدد هؤلاء بلغ مائة ألف رجل. وقد أناط المنصور الإشراف على البناء إلى قائده الحجاج بن أرطاة والإمام أبى حنيفة النعمان الذى كان ذا معرفة بالهندسة والبناء. ووضع مخطط المدينة على نهج مستحدث فى بناء المدن الإسلامية، إذ بنيت على شكل دائرة يتوسطها قصر الخليفة ومسجده ويحيط بها قصور القواد ورجال الدولة، ثم تقوم الأسوار فى سورين أحدهما ضخم والثانى يليه من الداخل ويسكن بينهما الرعية، ثم سور ثالث خارجى تقوم أمامه الخنادق، ويُرى الأثر الفارسى واضحا فى هذا المخطط.



باب بغداد – الرقة

٢٨

وسـرعـان مـا ازدحمت بغداد واتسع بناؤها على مر السنين وامــتـلأت بالـسكان الذين أقبلوا عليها من شـتى البلاد، ولما فـرغ المنصـور من عمـارة بغداد أمر سنة ١٥٧هـ بتخطيط الأسواق فى الكرخ، جنوب المدينة وشق الأنهر فيها ونقل البـاعة إليـها وجـمعـهم حسب مـهنهم كل أصحاب مـهنة فى حى عرف باسمـهم، فتيسر لـه بذلك توسيع شوارع المدينة والعناية بنظافـتها، كذلك أقطع المنصـور أعيان دولته قطائع من الأرض خـارج المدينة، رغبة منه فى تخفـيف الضغط عليها، وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان واتصلت بالعاصمة.



تصميم مدينة بغداد – ٧٦٢/٧٦٧م

ولا شك فى أن بناء بغداد كان رائعا، فـقد وصفها الجاحظ بهذ الروعة بعد وقت قليل من عهد المنصور بقوله عنها: «لم أر مدينة قط أرفع سمكا ولا أجود استدارة ولا أوسع أبوابا من الزوراء، وهى مدينة أبى جعـفر المنصور، كأنما صُبت فى قالب وكأنما أُفرغت إفراغًا».

واتصل ببناء بغداد بناء مدينة «الرصافة» على الضفة الشرقـية من دجلـة تجاه بغداد، وكـانت قد اتخـذت فى الأصل سكنات للجيش، وهو جيش خراسان الذى قدم به ولى العهـد «المهدى» إلى بغداد بـعد الانتهـاء من بنائها. فنزل المهـدى ذلك الموقع الذى بنيت الرصافـة فيـه. وقد تخير المنصـور ذلك الموضع عامدا لإقامة الجيش فـيه، حيث نصحه الناصـحون فى ذلك بقولهم: «يصير ذلك بلداً وهذا بلداً فإن فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب». وسرعان ما عـمرت الرصـافة واتسـعت توسع بغداد وأضـحت تضاهيـها فى الرونـق والقصور والحـدائق والمتنزهات والمبانى الضخـمة والأسواق والحمامـات وكثرة الخلق، ولقد اتصلت الرصافـة ببغداد، فيما بعد، وصـارتا مدينة واحدة، بلغ عدد سكانها المليون نسمة وصارت عـاصمة العالم. «وصار الخلفاء يدفـنون موتاهم فى الرصافـة بعد ذلك وبنوا بهـا الترب الجليلة وحـملوا إليهـا من الفرش العظيمة والآلات الجليلة ما يتجاوز الحصر».



ومن أهم الأخطار التى تعرضت لها الدولة العباسية فى بداية تكوينها وفى عصر المنصور بالذات، خطر الحركات الهـدامة التى قام بها دعاة الفرس المبطنين للعبادة المجوسية (الزرادشتية)، وأبرزها **حركة الراوندية** التى ظهرت فى عهد المنصـور، وقصد الفرس من ورائها هدم المجـتمع الإسلامى والدين الإسلامى، وقـد تصدى المنصور لهـذه الحركة وعـمل على القضاء عليـها، كذلك تصدى لمثلها من الحركات الأخرى التى وقعت فى عهد الخلفاء العباسيين من بعده.

ولقد بدأت هذه الحركات، أول ما بدأت، فى رفع شعار الثأر لمقتل أبى مسلم الخراسانى من الدولة العباسية وخلفائها. وكان مصرع أبى مـسلم على يد المنصور من أكبر الصدمات التى تلقتها الجمـاعات الفارسـية. وكان قتـل المنصور له، برغم الأمان الذى منحـه له، قد أثار عامـة الفرس ودفعهم إلى الثأر والانتـقام من العباسيين قاتليه، وعمـلوا ـ تحت هذا الشعار ـ على تقويض دولة بنى العباس وهدم الدين الإسلامى توطئة لاستعادة استـقلال الفرس القديم ومجد دولتهم الساسانية البائدة، فقاموا بالثورات ضد الدولة.

وكانت أولـى ثورات الفرس ضد العـباسـيين تلك التى قام بهـا رجل من أتباع أبى مـسلم الخراسانى يسمى «سنباذ» فى منطقة بلاد ما وراء النهر، وكـان سنباذ رجلا مجوسيا من بعض قرى نيسابور، وكان قائدا من قواد أبى مسلم، فلمـا قتل أبو مسلم وتبين لسنباذ غدر المنصور به، أعلن الثورة ضد العباسيين فى منطقة الجبال المعروفة بطبرستان، الواقعة جنوبى بحر قزوين، ونجح سنباذ

قصر الأخيضر - العراق - ٧٦٤/ ٧٧٨م





فى ضم الكثير من الأتباع إليه وقام بضم الكثير من بلاد خراسان إليه. ولقد أخبر سنباذ أتباعه بأن أبا مسلم لم يمت، وأنه قبل أن يقتل تلا اسم الله فتحول إلى حمامة بيضاء وحلق فى السماء وسكنها، وقال سنباذ بنبوة أبى مسلم، ثم قال بعد ذلك بألوهيته.

ولما بلغ المنصور خبر سنباذ أرسل إليه جيشا تعداده عشرة آلاف مقاتل استطاع أن يوقع الهزيمة به فى موقع بين همذان والرى، وقد قتل سنباذ فى المعركة وقتل معه حوالى ستين ألفا من أتباعه.

وثانى هذه الثورات التى قام بها الفرس فى عهد المنصور تلك الثورة التى قام بها قائد آخر من قواد أبى مسلم يدعى «أستاذ سيس»، وكانت ثورته فى خراسان سنة (١٥٠هـ/ ٧٦٧م). ونجح هذا الثائر فى الاستيلاء على بعض مدن خراسان مثل: مرو وهرات وسجستان، واجتمع له من الأنصار نحو ٣٠٠ ألف رجل. وجهز المنصور جيشا كبيرا أنفذه لمحاربة أستاذ سيس، وجعل قيادة هذا الجيش لابنه وولى عهده المهدى وأشرك معه فى قيادته أعرق قواده وأكفأهم خازم بن خزيمة التميمى. وبالقرب من مدينة نيسابور وقعت معركة دامية قتل فيها سبعون ألفا من رجال أستاذ سيس، وأسر منهم نحو أربعة عشر ألفا، وهرب أستاذ سيس إلى منطقة الجبال مع عدد من جنده، فلحق بهم القائد خازم وحاصرهم مدة حتى استسلم أستاذ سيس وقبض عليه وأرسل مصفدا فى الأغلال إلى بغداد، حيث قتل هناك وصلب على شاطئ نهر دجلة.

وأعقبت ثورة أستاذ سيس، تلك الثورة التى اندلعت من قرية راوند، القريبة من مدينة نيسابور وعرفت فى التاريخ بحركة الراوندية. وكانت هذه الحركة أخطر الحركات الهدامة التى ظهرت فى عصر العباسيين الأوائل؛ لأن أصحابها نادوا بتأليه أبى جعفر المنصور. ولم يكن ذلك التأليه حبًّا فى المنصور أو إرضاءً له وإعلاء لشأنه وزيادة لشرفه، إذ كان أتباع هذه الحركة فى الواقع أشد أتباع أبى مسلم خصومة للمنصور وعداوة له، وإنما كان هدفهم من وراء هذه الدعوة، هدم أبى جعفر المنصور فى نظر جمهور المسلمين وإثارتهم ضده، وهدم الدين الإسلامى عن طريق إدخال هذه الأفكار الوثنية الهدامة وإشاعتها داخل المجتمع الإسلامى.

وقد دعى لحركة الراوندية رجل يقال له: «الأبلق»، زعم أن الروح التى كانت فى عيسى ابن مريم صارت فى الإمام على بن أبى طالب ثم فى الأئمة العلويين واحدا بعد الآخر إلى أن حلت فى الإمام إبراهيم العباسى ثم انتقلت فى نسله إلى المنصور وأن جميع هؤلاء الأئمة آلهة وآخرهم المنصور. وقالت هذه الجماعة بأن المنصور هو الإمام الإله القادر وأن نبيّه هو أبو مسلم الذى حلت به روح آدم.

وكانت هذه الفرقة تلتف حول قصر المنصور وتقول له: «أنت. . أنت» يعنون «أنت الله»، وكانوا يطوفون حول قصره ويقولون: «هذا قصر ربنا». وكانوا يصعدون إلى قصر المنصور «الخضراء» ويلقون بأنفسهم من فوقه وكأنهم يطيرون فى السماء، فتضايق المنصور من أفعالهم.



وقام بالقبض على مائتين من زعمائهم، فثار الباقون وهاجموا السجن وأخرجوا منه أصحابهم، ثم هاجموا قصر المنصور يريدون قتله، وكاد هؤلاء يتمكنون من قتل الخليفة، بسبب قلة عدد حراسه، لولا أن ساق الله إليه من ينقذه وهو «معن بن زائدة الشيبانى»، أحد قواد الأمويين، الذى كان مختفيًا حتى ذلك الوقت خوفا من بطش العباسيين. وبرغم أن المنصور قتل عددًا كبيرا من جماعة الراوندية إلا أنه، ومع ذلك، لم يستطع أن يقضى تماما على دعوتهم وأفكارهم الهدامة التى انتقلت وظهرت فى حركات أخرى قامت بها شخصيات طموحة منهم فى عهد الخلفاء العباسيين من بعده استغلتها وتسترت وراءها.

* * *

ولقد حرص المنصور على أن يجعل الخلافة من بعده لابنه محمد المهدى لشغفه به وحبه الزائد له وكان عليه أن يأخذ له البيعة لذلك فى حياته من الناس دون أى متطلع لها، ولإتمام ذلك كان عليه أن يخلع ابن أخيه عيسى بن موسى منها، وكان الإمام إبراهيم قد جعله وليًا للعهد بعد المنصور وأخذه البيعة له من الناس بذلك. وقد اختلف أرباب السير فى كيفية خلع المنصور لعيسى ابن موسى. فقيل أن المنصور كان يقرب عيسى إليه ويكرمه ويجلسه على يمينه فى مجلسه، فلما طلب منه خلع نفسه عن ولاية العهد امتنع عن ذلك فتغير المنصور عليه وأبعده عنه، وقيل أنه دس إليه من سقاه سمًّا تسبب فى مرضه، ولم يزل المرض يعاوده حتى خلع نفسه عن ولاية العهد وبايع للمهدى. وقيل أيضا أن المنصور اشترى تنازله عن ولاية العهد بأحد عشر ألف درهم.

هذا، وقد وزر للمنصور وزيره الفارسى أبو أيوب الموريانى، لكن المنصور نكبه وقتله وقتل أقاربه وصادر أموالهم لدسيسة دسها أعداء المورياني ضده عند الخليفة اتهموه فيها بالخيانة، ثم وزر له الوزير أبو الفضل الربيع بن يونس، الذى ظل فى الوزارة حتى وفاة المنصور.

وقد توفى المنصور يوم السادس من ذى الحجة سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م، وكان ممعودًا، (أى مريضا بمعدته)، وكان يستحضر الأطباء من كل مكان لشفاء علته فكانوا يقررون له الدواء، لكنه لم يكن يتبع نصائحهم فمات بمعدته، وقد وافاه الأجل وهو فى الطريق إلى مكة حاجا ومحرما فلم يبلغها. وكتم وزيره الربيع بن يونس أمر موته حتى يأخذ البيعة لابنه محمد المهدى، ويقال أنه أجلسه وسنده وجعل على وجهه غلالة خفيفة يرى وجهه منها ولا يفهم أمره، وأذن لوجوه بنى هاشم فى الدخول عليه فلما دخلوا وقفوا بين يديه وهم يحسبون أنه حى، وتقدم الربيع إليه كأنه يشاوره، ثم عاد إليهم فأخبرهم بأمر أمير المؤمنين لهم بتجديد البيعة لابنه محمد المهدى، فبايعوه دون أن يعلموا أنه فارق الحياة. وقد بويع المهدى بذلك البيعة الخاصة فى مكة، ثم بويع البيعة العامة فى بغداد، حيث كان مقيمًا هنالك عند وفاة أبيه.

وقد دفن المنصور ما بين الحجون وبئر ميمون، وقد عاش ٦٤ عاما، وخلّف وراءه من الأموال تسعة ملايين ونصف المليون من الدراهم.



واسترضى المهدى عامة الناس بإطلاق كافة المسجونين إلا من أُتهم بجريمة القتل والسعى بالفساد فى الأرض. وقام المهدى بالحج سنة ١٦٠هـ ووزع على أهل الحجاز ثلاثين ونصف مليون درهم ومائة وخمسين ألف ثوب. وأعاد إليهم جراية الحبوب من مصر وكان المنصور قد قطعها عند قيام ثورة محمد النفس الذكية بالحجاز. واصطفى لنفسه خمسمائة رجل من الأنصار فأجرى عليهم الأرزاق الواسعة وجعلهم حرسه الخاص. وأكرم أبناء المهاجرين والأنصار ووزع عليهم مبلغ ثلاثة ملايين درهم. ولا شك فى أن مبالغ المال الطائلة التى تركها أبوه المنصور بعد وفاته فى بيت المال هى التى أعانت المهدى على اتباع سياسة السخاء فى العطاء هذه التى اتبعها طوال أيام حكمه.

٢ ـ سياسة العدل مع الرعية، فقام المهدى برد أموال الناس التى كان قد صادرها أبوه منهم، فرد بذلك الحقوق لأصحابها.

كذلك اعتنى المهدى بأمر المظالم، فكان يجلس لها بنفسه ويشرك معه القضاة عند النظر فيها. واتخذ للنظر فى المظالم بيتا له شباك حديد تطرح فيه رقاع الشكايات.

٣ ـ سياسة احترام الدين، فقد قرب المهدى الفقهاء والوعاظ وعلماء الدين إليه، وقام بتوسعة المسجد الحرام حتى توسطته الكعبة بعد أن كانت فى جانب منه، كذلك وسع مسجد الرسول ﷺ بالمدينة ومسجد البصرة الكبير، كذلك قام ببناء المحطات على طريق الحج العراقى إلى مكة.

وقد اتفق أن تفشت الزندقة فى الناس فى زمنه بسبب حالة الاسترخاء الاجتماعى والاقتصادى التى كان يعيشها الناس فى العراق آنذاك، كذلك بسبب تأثير الحركات الهدامة التى قام بها دعاة الفرس لهدم المجتمع والدين الإسلامى، فكافحها المهدى وَجدَّ فى طلب الزنادقة والقبض عليهم وقتلهم، وأنشأ لهذا الغرض ديوانًا لمكافحة نشاطهم عرف بديوان الزنادقة جعل عليه موظفا خاصا عرف بصاحب الزنادقة. وكان من ضحايا هذه المكافحة الواسعة عدد من الشخصيات المعروفة فى مجال الأدب أمثال ابن المقفع وبشار بن برد.

وفى أيام المهدى ظهر المقنع الخراسانى، وكان رجلا قصيرا أعور من أهل مرو، وكان قد عمل لنفسه وجهًا من ذهب ركبه على وجهه لئلا يُرى وجهه الدميم وادعى المقنع الألوهية، وكان يقول بالتناسخ، وبايعه عدد من أتباعه وكانوا يسجدون ناحيته أينما كانوا من البلاد، وكانوا يقولون فى الحرب: «يا هاشم أعنا»، وكان قد سمى نفسه هاشما، فأرسل إليه المهدى جيشا عظيما فاعتصم منهم بقلعة هناك ظل محاصرا إلى أن يئس من النصر فأضرم نارًا عظيمة وأحرق جميع ما



بالقلعة من دواب وثيـاب ومتاع، ثم جـمع نساءه وأولاده وقال لأصـحابه: «من أحب منكم الارتفاع معى إلى السماء فليلق بنفسه فى هذه النار».

ثم ألقى فيها نفـسه وأولاده ونساءه خوفًا من أن يظفر بجـثثهم، فلما احترقوا فتحت أبواب القلعة فدخلهـا عسكر المهدى فوجدوها خالية وخاوية على عروشها.

وقام المهدى بإعلاء شـأن الجهاد فغزى الروم عدة غزوات قاد مـعظمها، وتغلب عليهم عند مناطق الحدود (الثغور) بين الدولة العباسية وبيزنطة.

وقد كرر المهدى مع عـمه عيسى بن موسى ما سبق أن قام به والده المنصـور، فخلع عيسى عن ولاية العهـد وأخذ البيعـة لولديه موسى الهادى وهارون الـرشيد. وكان المهـدى قد طلب من عيسى أن يخلع نفسه عن ولاية العـهد فأبى فأرهبه وأرغبه حتى أجاب وأشـهد عليه بالخلع، فبايع لولديه الهادى أولا ثم الرشيد.

وماتت الياقوتة بنت المهدى سنة ١٦٩هـ. وكان معجبًا بها لا يطيق الصبر عنها حتى أنه كان يُلبسها لبس الغلمان ويركبها معه فلما ماتت وجد عليها، وأمر أن لا يُحجب عنه أحد فى عزائها؛ فدخل الناس يعزونه وأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أبلغ ولا أوجز من تعزية شبيب بن شيبة فإنه قـال: «يا أمير المؤمنين مـا عند الله مما عندك خير لـها منك، وثواب الله خيـر لك منها، وأنا أسأل الله أن لا يحزنك ولا يفـتنك وأن يعطيك على ما رزئت أجرا ويعقبك صبـرا ولا يجهد لك بلاء ولا ينزع منك نعمة وأحق ما صُبر عليه ما لا سبيل إلى رده».

وقضى المهـدى عشر سنوات على كـرسى الخلافة وتوفى سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م وعـمره ثلاث وأربعون سنة ببلدة مـاسندان من بلاد فارس على أثر سـقوطه من على فرسـه على ظهره أثناء قيـامه بصيد الظباء فمات من ساعته. وقيل فى رواية أخرى أن سبب موته أن بعض جواريه قد وضعت سما فى بعض المآكل لجارية من الجوارى كانت مقربة للمهدى فأكل المهدى منه بدلاً منها فمات بسببه.

يقول ابن الأثير فى ذلك: «وقد أُختلف فى سبب موته فقيل أنه كان يتصيد فطردت الكلاب ظبيا وتبعه فدخل باب خربة ودخلت الكلاب خلفه ثم تبعها فرس المهدى فدخلها فدقّ الباب ظهره فمات من سـاعته. وقيل بل بعـث جارية من جواريه إلى ضرة لـها بإناء فيه سم فدعـا به المهدى فأكل منه فخـافت الجارية أن تقول أنه مسموم فـمات من ساعته. وقيل: بل عـمدت حُسنة وهى جارية له إلى كمثرى فأهدته إلى جارية أخرى كان المهدى يتحظاها وسممت منه كمثرى هى أحسن الكمثرى فاجـتاز بالمهدى ببابها وكان يحب الكمثـرى فأخذ تلك الكمثرى المسمومـة فأكلها ومات بسببها».

٤- موسى الهادى
(١٦٩-١٧٠هـ/ ٧٨٥-٧٨٦م)

هو موسى بن محمد بن عبد الله، وقد ولد لأبيه المهدى فى الرى سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، وولد من بعده أخوه هارون سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م من أم ولد يمنية من جرش ببلاد اليمن اسمها الخيزران بنت عطاء، يقال أنها كانت مملوكة لرجل من بنى ثقيف باعها فى مكة واستحسنها المنصور فاشتراها ووهبها لابنه المهدى فولدت له قبل سنتين من ولايته للعهد ابنه موسى ثم هارون.

ونشأ الهادى مع أخيه الرشيد فى وسط زاد فيه الترف فظهر أثر ذلك فى ثقافتهما وأخلاقهما، وقد صارت الخلافة إلى موسى، عند وفاة والده، وقد كان قد توجه إلى جرجان للقضاء على ثورة قامت هناك ضد والده، وكان والده قد عينه لولاية كل المشرق. وأخذ له أخوه الرشيد البيعة من الناس فى بغداد وقد اتصف الهادى بالجرأة والشراسة وقسوة القلب، كما عرف بإسرافه فى الكرم، فقيل أنه منح شاعرا ثلاثين ألف دينار على أبيات أنشدها له واستحسنها، كذلك منح الشاعر سلم الخاسر ثلاثمائة ألف درهم فى قصيدة أعجبه بيت منها. وقال عن كرمه إسحاق بن إبراهيم الموصلى: «والله لو عاش لنا الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب».

ولقد اتبع الهادى وصية والده حين طلب منه أن يتصيد الزنادقة وينكل بهم فتابع الهادى عهد أبيه فى ذلك وقاتل وقتل عددا كبيرا منهم، كذلك حارب الخوارج وتصدى لثوراتهم، وخالف الهادى سياسة أبيه فى العفو عن الأمويين والعلويين. فتتبع بقايا الأمويين وأتباعهم، أما العلويون فقد قطع عنهم ما وصلهم المهدى به من أرزاق وأعطيات واشتد عليهم وأخافهم خوفا شديدا فثاروا ضده وكانت أكبر ثورة لهم ضده التى قام بها الحسين بن على بن الحسن فى المدينة، وقد ثار الحسين فى المدينة واجتمع إليه هناك عدد كبير فأرسل إليه قائده محمد بن سليمان فى عسكر كبير التقوا بموضع يقال له «فخ» بين مكة والمدينة، وقد قتل الحسين فى هذه المعركة وخمدت ثورته، وهو يعرف عند الشيعة بشهيد فخ، وكذلك ثار أخوه إبراهيم فى البصرة وأخمدت ثورته وقتلته قوات الهادى عند منطقة تعرف باسم باخمرى، وعرف لذلك باسم قتيل باخمرى.

ولم تطل مدة حكم الهادى فتوفى سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، أى بعد عام واحد من توليه الخلافة، وظروف هذه الوفاة كانت غريبة ومتضاربة، فرواية منها تنسب الوفاة لقرحة مزمنة فى معدته، ورواية أخرى تتهم أمه الخيزران بقتله وتدبيرها ذلك مع جواريه فأمرتهن بأن يجلسن على وسادة وضعوها على وجهه حتى مات.

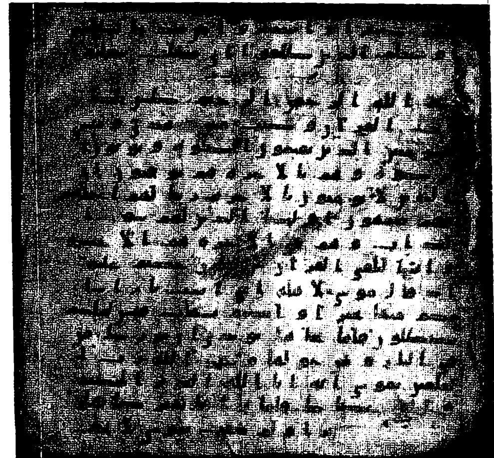


وقيل أن سبب ذلك يرجع إلى أنه سلبها سطوتها ونفوذها الذى كان لها فى عهد والده، وكان الهادى شديد الغيرة على النساء فلما رأى تردد الناس والشعراء على بابها قال لها: «ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك؟ أو بيت يصونك؟ لئن بلغنى أنه وفد ببابك أحد من خاصتى أو قوادى أو من خدمى لأضربن عنقه». وقيل أيضا أنه أرسل لها أرزا مسموما فلم تأكل منه ثم قتلته. وقيل أيضا أنه من أسباب قتل الهادى أنه عزم على خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد والبيعة لابنه جعفر، فخافت الخيزران على ابنها الرشيد وكان «أحب إليها من الدنيا بجميع ما فيها»، فقررت الفتك بالهادى فأوعزت لجواريها بخنقه وهو نائم.

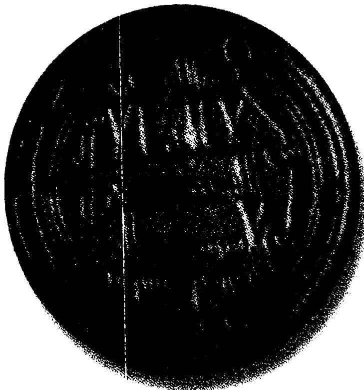


٥- هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م)

ولد الرشيد سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م أثناء بناء بغداد فى الرى بعد مولد أخيه موسى بثلاث سنوات من أمهما الخيزران بنت عطاء اليمنية الأصل، ونشأ فى الرى مع أولاد يحيى بن خالد البرمكى الذى كان على ديوان المهدى، هناك وهما الفضل وجعفر كما رضع من أمهما؛ ولذلك كانوا إخوة له من الرضاع. وعاد إلى بغداد وهو فى الثالثة من العمر واختار المهدى لتربيته هو



صفحة من مصحف من رق - معرب حسب طريقة أبى الأسود الدولى - القرن ٨/ ٩م



درهم ضرب مدينة واسط سنة ١٧٢م



وأخيـه كبـار العلماء، وتربى الرشـيد مع الهادى فى وسط زائـد فى الترف فظهر ذلك فى ثقافـتهما وأخلاقهـما. ولا يعرف الكثير عن طفـولة وشباب الرشـيد سـوى أنه ظهر لأول مـرة فى سنة ١٦٣هـ/ ٧٧٨م وهو فى قـرابة الخامـسة عشرة قـائدا لحملة أرسلها والـده إلى مناطق الثغور مع البـيزنطيين ليفـتتح بعض القلاع هناك علـى الحدود، وقد دل ذلك على تربيـة عسكرية وإدارية مـبكرة، وفى سنة ١٦٥هـ/ ٧٨٠م تزوج من ابنة عـمه زبيـدة بنت جعفر وجدها أبو جعفر المنصور، وقد سمـيت بزبيدة لشدة بياضها، وأنجب منها ابنه محمد الأمين ١٧٠هـ/ ٨٧٦م، وتزوج الرشيد أيضا من امرأة أخرى تدعى أمة العزيز أنجب منها ابنه على، كما تزوج أربعا أخريات غيرهن، وكانت له من أبناء الجـوارى عشرة أبناء منهم ابنه أبو إسحق المعتصم من أم تركية، عدا البنات.

وقبل أن يتـولى الرشيد الخـلافة نقرأ عن إرسـال والده له ثانية إلى جبـهة الروم على رأس جيش بلغ عدده مائة ألف مـقاتل ويرسل معه أكبر قواده يزيد بن مزيد الشـيبانى، وقد نجحت هذه الحملة فى قصدها حتى قاربت البسفور، ويعود هارون حاملا إكليل النصر ليلقبه أبوه بلقب الرشيد ويعقد له، بتأثير من أمه الخيزران، بولاية العهد بعد أخيه موسى الهادى سنة ١٦٦هـ/ ٧٨١م. ولما تولى الهادى الخـلافة سنة ١٦٩هـ ولم يبق بهـا غير عام واحـد وتوفى سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م تسلم هارون الخلافة فى ذلك العام وهو ابن اثنتين وعشرين سنة.

ولقد اختلفت المصادر فى حـديثها عن شخصية الرشيـد وتضاربت وجاءت من النقيض إلى النقيض، وقد خضع هذا بالطبع لميول المؤرخين ونزعاتهم ومواقفـهم السياسية والمذهبية من شخص هذا الخليفـة الذى صار أسطورة الأساطيـر، فهو تارة الخليفـة الورع الذى كان يخشع قلبـه لتلاوة القرآن وتسقط الموعظة دمـوعه، والذى كان يصلى فى اليوم مائة ركعـة ما بين فرض ونافلة إلى أن فارق الدنيا، وهو الذى يحج عاما ويغزو عاما آخر، ويتخذ لنفسه قلنسوة كتب عليها «غاز حاج». وهو تارة أخرى الخليفة الغارق فى الملذات والشهوات، المعاقر للخمر وللجوارى والموسيقى والغناء. وهو تارة الخليفة الحازم اليقظ الذى يقوم بالعسس فى الليل مـتنكرا متفقدا أحوال رعاياه، وهو تارة أخرى الخليفة الغافل الذى يقضى وقته بين جـارية وكأس خمر المنصرف عن تدبير ملكه والتارك له للبرامكة يصرفـونه كيف يشاءون، وهو تارة الخليفـة الكثير الصفح والرحـمة المتواضع الذى يصب بنفسه الماء على يد ضيـفه الفقير أبى مـعاوية الضرير، وهو تارة أخرى السفـاك العنيد القادر الذى شُبِّه بالدهر فى غدره وعدم أمانه. وقد يكون الرشيد هذا كله معا، وقد يكون يمثل بذلك عصره بما فيه من تطرف ومـتناقضات، والذى يظهر من وراء هذه الصـفات أن عاطفة الرشيـد المرهفة كانت تسيطر على أفعاله وتصرفاته وأنه كان انفـعالى الطبع سريع التأثر بالموعظة واللحن والغضب والثقة وتلك خصـال كانت تلون نفســه لونا بعد لون، على أن المصـادر تكاد تتفق على أنه كان صـحيح التدين وأنه كان سخيًا كريمًا وكان يقوم بواجبات منصبه كخليفة للمسلمين عليه الجهاد وقيادة الأمة، وكانت كل ناحية فى حياته متممة للأخرى.



ولقد كانت أهم الأسس فى سياسة الرشيد العامة:

أولا: تقيده وتمسكه بالدين، فقد كان الرشيد ينظر إلى الدين نظرة آل البيت إليه كأساس للدولة ويعمل علـى أن يتجسم فيه ذلك، يظهر ذلك من قيامـه بالحج المستمر والصدقـات الدائمة والجهاد والصلوات الكثيـرة وعمارة طريق الحج وكسوة الكعبة والإغـداق على فقراء الحرمين الشريفين، كل تلك أعمال تؤكد تمسكه بالدين وعمله على رفعة شأنه والتقيد بفرائض الله وشرعه.

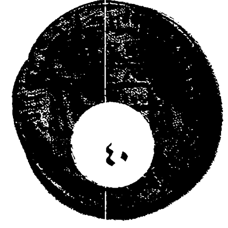
ثانيا: التمسك بالسلطة المطلقة، ولقد كـان الرشيد مثل غـيره من خلفاء العبـاسيين الذين ورثوا الحق الإلهى فى الحكم من الفرس مما جعلهم يتمتعون بالسلطة المطلقة والضرب على كل من يحاول مشاركتهم هذه السلطة أو الحد منها، وقد تجلى ذلك واضحًا فى نكبته للبرامكة.

ثالثا: تهاونه فى مـحاسبـة العمال وتداخلات رجـال البلاط فى أمور الدولة، وقـد خالف الرشيد فى ذلك ركنًا من أهم أركـان سياسة المنصور المؤسس الحقيـقى لدولة بنى العباس، مما أدى إلى خلق مشـاكل عديدة للدولة منهـا ثورات الأقاليم وقـيام الدول المنفصلة عـن الدولة مثل دولة الأغالبة ودولة الأدارسة، كذلك سمح للنساء وحاشيتهن بالتدخل فى شئون الدولة مما أدى إلى قيام حزبين سياسـيين فى الحاشية أحدهما عربى والآخر فـارسى، الأمر الذى أدى إلى الحرب بين ابنيه الأمين والمأمون.

رابعا: الصبر السـياسى والتخطيط الهادئ، وأبرز الأدلة على ذلك نكبتـه للبرامكة وولايته للعـهد لأبنائه الثـلاثة، وجعل الغـزو والحج عملْين دوريْين، وقـد نجح فى ذلك باستـخدام كـافة الأساليب والوسائل.

وقد قال «ابن طباطبا» عن الرشيد فى كتابه: «الفخرى فى الآداب السلطانية» ما نصه:

«كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وعظمائهم وعلمائهم وكرمائهم، كان يحج سنة ويغزو سنة طوال مدة خلافتـه إلا سنين قليلة، وكان يصلى كل يوم مائة ركعة وحج ماشـيا، ولم يحج خليفة ماشيا غـيره، وكان إذا حج أحج معه مائة من الفقـهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة البـالغة والكسوة الظاهرة.. وكانت دولة الرشيـد من أحسن الدول وأكثرها خيرا وأوسـعها رقعة، ولم يجـتمع على باب خليفة من العلماء والشـعراء والفقهاء والقضـاة والكتاب والأدباء ما اجتمع علـى باب الرشيد.. وفى عهده خـرج يحيى بن عبد الله بن حـسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ثائرا وهو أخ للنفس الذكـية وأخوه إبراهيم، قتـيل باخمرى. وكـان قد هرب إلى بلاد الديلم بعد فشل ثورة أخويه والتف حوله الناس هنالك واعتقدوا فى حقه وإمامته وبايعوه. فأرسل الرشيد إليه الفضل بن يحيى البرمكى لقتـاله، ولكن الفضل نجح فى كسبه إلى صفه والصلح على أن يأخذ له الأمان مـن الرشيد فأجابه الرشـيد إلى ذلك ولكن الرشيد قـبض عليه حين وصل إلى بغداد وحبـسه ثم قتله فى محبسـه.. وفى عهده أيضا خرج عليـه الثائر العلوى إدريس بن الحسن



ونجح فى الوصـــول إلى المغـرب وإقـامتـه هنالك أول دولة علوية شيعيـة عرفت بدولة الأدارسة فى المغرب الأقصى».


درهم ضرب مدينة نيسابور
سنة ١٩٥ ق/٣هـ

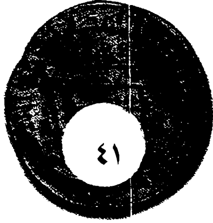
ولقد اشـتد الرشـيد على الزنادقة وقام بتعيين رجـل عرف بصاحب الزنادقة، كان يقوم بامتحان كل من يتـهم منهم بها ويعاقب من ثبتت عليه التهمة منهم بأشـد أنواع العقاب بما فى ذلك القتل والحرق، وقد قتل الرشيد من رجال الزنادقة الشهيرين: يزيد بن الفيض ويونس بن أبى فروة. وكان أبوه المهدى قد قـتل قبله من زعمـاء الزنادقة الشاعـر بشار بن برد والشاعـر حماد عجـرد وعبد الكريم بن أبى العـوجاء، وقتل أخوه الهادى ابن عمه داود بن على متهمًا إياه بالزندقة ويعقوب بن الفضل.



نكبة البرامكة

وتنسب إلى الرشيد النكبة التى عرفت فى التـاريخ بنكبة البرامكة، وهى النكبة التى وقعت بالبرامـكة فى آخر ليلة من شـهر المحرم سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م فى الـعام السابع عـشر من خـلافة الرشيـد بعد أن عاد من حجـه ووصل الأنبار ودخل فراشه مـبكرا على غير عادته، فلمـا انصرف جعفر بن يحيى البرمكى من عـنده، وكان وزيره الذى ولاه وزارة التفويض، أرسل وراءه مسرورًا كبير خـدمه وأمره بضرب عنقه وإحضـار رأسه. وقبل أن تنقضى تلك الليلة أمر الرشـيد بالقبض على يحيى وابنه الـفضل وحبسـهما ومـصادرة أموال البـرامكة والقبض على أنصارهم ومـواليهم وإعطاء تحذيراته بعـدم إيواء أحد منهم أو أتباعهم. ولم يصـرح الرشيد لفرط دهائه بسـبب نكبته للبرامكة، وترك الأمر ينحدر إلى الأجيال من بعده لُغزًا غامضًا، ومن جهة أخرى فإن البرامكة لم يرتكبوا جرما واضحًا ثابتًا عليهم يمكن أن يعتبر السبب المباشر فى نكبتهم.

لذلك اختلفت آراء المؤرخين فى محـاولة معرفة السبب الحقيـقى الذى دفع الرشيد إلى هذا المسلك مع هؤلاء القوم الذين لم يقصروا فى خدمته ولا فى ولائهم له والذين كان يعتبرهم إخوته ويعتبر والدهم «يحيى» والده وكان يناديه بقوله: «يا أبت».



بعض الكُتاب يلوم الرشيد، وبخاصة كتاب الفرس، ويتهمونه بالقسوة والعنف والغدر. والبعض الآخر ينسب الأمر إلى تدخل زوجته زبيدة التى كانت تكره البرامكة وتدخل وزيره الفضل بن الربيع الذى كان يتزعم الجانب العربى المنافس للفرس فى الاستحواذ على السلطة فى بلاط الخليفة.

والبعض يجعل ميل البرامكة للعلويين هو سبب الكارثة التى حلت بهم. والبعض الآخر ينسب النكبة لتصرف شخصى قام به جعفر مع العباسة، أخت الرشيد. وكان الفضل بن الربيع ورجاله من بطانة الرشيد يدسون للمغنيين شعرًا يثير عامل المنافسة والحقد فى نفس الرشيد ضد البرامكة، وكان العنصر العربى قوة ترجيح اعتمدت عليها الخلافة فى إحداث عملية التوازن فى حكم الدولة، وقد شارك العرب فى الإفادة من تغير الرشيد، أفاد من ذلك الفضل بن الربيع وزبيدة وأفلحا فى تنصيب الأمين وليًا للعهد، وأفادت فى إحراز العناصر العربية المتطلعة إلى المزيد من السلطة.

والذين قالوا بالرأى الأول استندوا على غدر العباسيين برجالهم ومفاجأتهم بذلك ولهم فيما فعله المنصور مع عمه عبد الله بن على وقائده أبى مسلم مثالا واضحا لذلك، وتبين من دراسة النصوص التاريخية أن الرشيد كان يتصرف وفق خطة مرسومة بينة تظهر من مقتل جعفر ومصادرة الأموال والكتابة إلى الأقاليم لضمان عدم تحرك أنصارهم إلى الثورة، ولا يمكن أن يكون ذلك مفاجئًا على الإطلاق. وإن السبب الحقيقى هو شعور الخلافة باختلال التوازن فى قضية المشاركة فى الحكم. وقد أدرك الرشيد هذا الاختلال فى التوازن من تصرفات يحيى البرمكى وأولاده. وتتحدث المصادر عن النفوذ الذى وصل إليه البرامكة فى عهد الرشيد قبل نكبتهم، وعن الثروات التى جمعوها وحياة الترف التى عاشوها والتى حاكوا فيها حياة السلاطين، وقد كانوا حكام الدولة بالفعل وقصد قصورهم الشعراء والأدباء دون باب الخليفة، وقد تحكم البرامكة فى أموال الدولة حتى أن الرشيد كان يطلب القليل من المال وكان يأتيه عن طريق البرامكة.



دينار عباسى (عهد هارون) باسم الأمين محمد بن أمير المؤمنين - ضرب سنة ١٨٣ هـ

والذين يقولون بسعاية زبيدة، زوجة الرشيد، والوزير الفضل بن الربيع ضد البرامكة عند الخليفة يرون أن زبيدة، وهى العربية القرشية العباسية، كانت تريد الخلافة لابنها محمد الأمين لما رأت ميل الرشيد، بتأثير من البرامكة، أن تكون الخلافة من بعده لابنه الأكبر عبد الله المأمون ابن الزوجة الفارسية، ولا شك فى أن الفضل بن الربيع كان يقود حركة المقاومة العربية ضد البرامكة الفرس.



وكان الرشيد يميل إلى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة، وكانت أمه الخيزران تحول دون ذلك، وكان الفضل يظن أن الذى حملها على ذلك هو جعفر البرمكى، فلما ماتت الخيزران ولّى الرشيد الفضل ديوان الخاتم وغيره من الدواوين التى كانت فى يد جعفر البرمكى، فأتيحت له بذلك فرصة التقرب من الرشيد والدس عنده للبرامكة.

والذين يقولون بأن ميل البرامكة للعلويين هو سبب الكارثة لا ينسون ميل الفرس الطبيعى إلى تولى العلويين الهاشميين الخلافة ومحاولة تحويلها إليهم من العباسيين. ويؤكد هذا الاتجاه موقف البرامكة من ثورة يحيى بن عبد الله العلوى الذى ثار ضد الرشيد فى بلاد الديلم. فقد بعث الرشيد إليه الفضل بن يحيى البرمكى لقتاله على رأس جيش قوامه خمسين ألف مقاتل، ونجح الفضل فى جعل يحيى يميل إلى الصلح مع الخليفة بعد أن أخذ له الأمان منه بخط الخليفة، ولما قدم يحيى تلقاه الخليفة بالحفاوة والإكرام ثم ما لبث أن انقلب عليه وقام بالقبض عليه وحبسه ثم سلمه لجعفر وقام جعفر بإطلاق سراح يحيى من سجنه دون أخذ رأى الخليفة مما جعل الخليفة يسرها عليه.

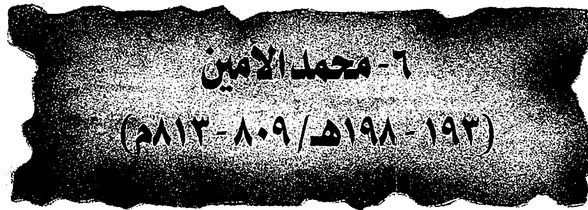
والذين جعلوا حادث جعفر مع العباسة، أخت الرشيد، هو سبب النكبة فقد جانبهم التوفيق فى ذلك؛ لأنهم أساءوا بظنهم هذا لشخص خليفة المسلمين ولأخته الهاشمية الشريفة النسب. ويميل المستشرقون لهذا الرأى من الحط من مكانة خلفاء المسلمين والحط عموما من تاريخ الإسلام وتاريخ العباسيين على وجه الخصوص، وهم يقولون أن الرشيد غضب حين علم بوجود علاقة خفية بين جعفر وأخته العباسة، وأنه كان متزوجا منها فى السر وأنجب منها ولدين، وأن الرشيد انتقم من البرامكة لشرفه حين علم بذلك فقام بنكبتهم «وما هذا إلا قول أُناس غافلين!».

والسبب المعقول والنهائى الذى نميل إليه هو إيقان الرشيد باختلال التوازن فى العلاقة مع البرامكة الفرس وإدراكه لمخططهم ومخطط رجالات الفرس عمومًا فى اغتصاب الحكم من العباسيين وتحويل الخلافة من العرب إلى الفرس، وهى سياسة اتبعها رجالات الفرس وحافظوا عليها منذ قضائهم على دولة الأمويين، وليس أدل على ذلك مما رواه الطبرى من شواهد تدل على مبلغ حقد الرشيد على البرامكة، قبل نكبتهم، وسعيه على الحط والتقليل من شأنهم، ويقول الطبرى فى هذا الخصوص ما نصه: «حتى أنه أمر غلمانه بالإعراض عنهم والاستهتار بهم إذا دخلوا قصره حتى أن خالدًا بن يحيى دخل مرة على الرشيد فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمسرور الخادم: مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار، فقال: فدخل فلم يقم إليه أحد فاربدَّ لونه، وكان الغلمان والحجّاب إذا رأوه أعرضوا عنه فكان ربما استقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقوه وبالحرى إن سقوه يكون ذلك بعد أن يدعو بها مرارًا»

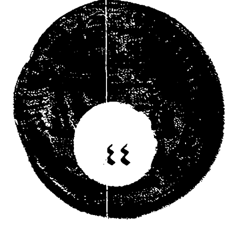


على كل، فـقد كانت نكبـة البرامكة وصـمة عــار فى جبين الرشــيد والعباســيين عموما أيًا كان سبــبها. وتقول المصادر بأن الرشــيد ندم على ما فعله مع البرامكة وظل، بعد النكبة، حزيناً مهـمومًا حتى وفاته وقد اشتد به الندم وعذاب الضمــير. وأخذت صحته تعـتل وتضمحل وتملكه الأرق وطار من عينيه النوم وغدا محتاجا لمن يسامره فى جوف الليل ليبعد الوحشة عنه، كما كان محتاجًا لمن يدخل الســرور على قلبه المحزون، وصار يحتاج إلى الوعظ والزهد فى الدنيا فيخشع قلبـه وتفيض عيونه بالدمع. على أن أشد ما ابتُلى به الرشــيد، بعد ذهاب دولة البرامكة، فتور العلاقة بينه وبين رعيته، فخافه الناس ورهبوه بعد أن كانوا يجلونه ويحبونه، وصاروا يشبهونه بالدهر فى تقلبه وغدره.

وقد توفى الرشيــد سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م، أى بعد ستة أعوام من نـكبة البرامكة، توفى بمدينة طوس بخراســان ودفن فيهــا، وكان الرشيــد مريضا بـالسرطان وقد أخـفى علته إلا عن طبيبه، وكان شــاخصًا لنجدة قائده هرثمة فيما وراء النهــر، واشتدت به علته فى مدينة طوس التى مات بهــا فى شهر صفر ودُفن قــريبا من البلد الذى ولد فيه وهو فى الــسادسة والأربعين من العمر.



ولد محمــد بن هارون، الذى عرف بالأمين بعد أن تولى والده الرشيــد الخلافة بستــة أشهر سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، وأمه زبيدة بنت جعفر بن أبى جعــفر المنصور، وليس فى خلفاء بنى عباس مَنْ أمه وأبوه هاشمــيان سواه. وكان أصغر من أخـيه عبد الله المأمون، الذى ولدته جارية فـارسية تدعى مراجل بستــة أشهر، وقد عنى الرشيد بتربيــته وأخيه المأمون خاصــة دون غيرهما من أولاده فاختار لهما فى التـأدب والعلم أشهر علماء عصره، فاختار لتأديب مـحمد: الأصمعى والكسائى وقطرب النحوى والشاعــر حماد عجرد، واختــار أبا محمد اليزيدى والحسن اللؤلؤى لتـأديب عبد الله، واختار لهــما أعظم رجال الدولة لممارســة الحكم؛ فكان محمد الأمين فى وصـاية الفضل بن يحيى البرمكى، بينما كان عبد الله المأمون مع جعفر ابن يحيى البرمكى.

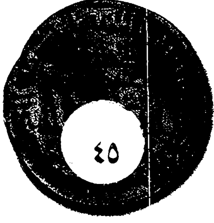


وقد بكرت المنازعات تطوف بالأخوين لانقسام البلاط العباسى بين حزبين؛ حزب هاشمى، وحزب برمكى فارسى. وقد أراد الحزب العربى، وعلى رأسه زبيدة أم الأمين، أن تسجل نصرا سياسيا تعتبره حقا لها ضد الحزب الآخر، وذلك بإعلان ولاية العهد لابنها محمد دون أخيه الأكبر. ونجحت زبيدة فى ذلك حتى جعلت الرشيد يعقد الولاية لابنها سنة ١٧٥هـ/ ٧٩٠م وعمر الأمين خمس سنوات ولم يستطع الحزب الفارسى أن يصل إلى نصر مماثل إلا سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٨م حين جعل الرشيد للمأمون ولاية العهد الثانية بعد أخيه وهو فى سن الثالثة عشرة، ثم بعدها بثلاث سنوات جعل ولاية العهد لابنه الثالث القاسم، الذى لقبه بالمؤتمن. وفى ذلك العام (١٨٦هـ) اضطر الرشيد أن يأخذ كل أخ على أخيه ميثاقا بالالتزام بما قرره بصدد ولاية العهد وأن يعلق ذلك الميثاق فى الكعبة تأكيدا له، وزاد على ذلك بأن جعل لكل ولد من أبنائه الثلاثة أقاليم يحكمها ويتدرب فيها على الحكم والإدارة، فجعل الأمين وكيلا عنه فى بغداد عند غيابه وجعله على حكم الجناح الغربى من الدولة وجعل للمأمون ولاية خراسان وللمؤتمن إقليم الجزيرة والثغور.


درهم ضرب آران سنة ١٩٦هـ

وقد تولى الأمين الخلافة عقب وفاة والده بطوس، وكان فى بغداد، وكان الفضل بن الربيع وزير الرشيد مع الرشيد بطوس، فلما مات الرشيد توجه الفضل بن الربيع إلى بغداد وبايع الأمين بالخلافة فاستوزره الأمين. وكانت مدة خلافة الأمين خمس سنوات حفلت بالصراع والنزاع بينه وبين أخيه على تولى الحكم.

وقد تأثرت سياسة الأمين، إلى حد كبير بتصرفاته الشخصية وتصرفات رجال حاشيته. ويبدو أن الدعاية الفارسية المغرضة قد لعبت دورا هاما فى تشويه هذه الشخصية، الأمر الذى لا يجعله أهلا للخلافة التى تولاها بالفعل ويجعل أهلها أخاه المأمون الفارسى الأم. وقد غالت هذه الدعاية فى استهتار الأمين وعدم أخذه الأمور مأخذ الجد فى أشد المواقف. من تلك ما أورده الطبرى، وما نقله المؤرخون المتأخرون عنه أنه كان يصطاد السمك من نهر دجلة هو وخادمه «كوثر» وقت زحفت قوات أخيه على بغداد لتنحيته عن العرش، واستهانته بالأمر ونهره من أورد الخبر إليه بقوله له: «ويلك! دعنى لقد اصطاد كوثر سمكتين وما اصطدت غير واحدة». ومنها



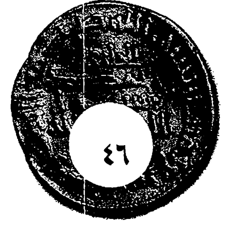
ادعاء صاحب الأغـانى من أنه كان غارقًا فى اللهـو مع الجوارى والغلمان، وأنه قاد فى ليلة أنسٍ جوقة تألفت من مـائة جارية يرقصن ويغنين. ويناقض تلك الأقوال مـا ورد عنه عن بعض أخبار تذكر سـهر الأمين الليل فى إدارة الدولة وحزن بغداد عليه حين قتل ورثاء الشعراء له فى قصائدهم.

ولقد كـانت بداية العداوة بـين الأمين والمأمون وكانت الـفتنة بينهـما بسبب نقض الأمين لعهده مع أبيه بشأن ولاية عهـد أخيه المأمون من بعده، وكان الوزير الفضل بن الربيع قـد زيَّن للأمين خلع أخيـه من ولاية العهـد وجعلها من بـعده لابنه موسى. فـركن الأمين لنصيحة وزيره وقام بخلع أخيه والبيعة لابنه موسى الذى سماه: الناطق بالحق. وانتهت هذه الفتنة بقتـل الأمين وتولى المأمون الخـلافة. وقـد حاول الأمين أن يسـتدرج أخـاه بالقدوم مـن فارس إلى بغـداد لكنه لم ينخـدع وكـتب يعـتذر له عن الحـضـور. وترددت المكاتبات والمراسلات بينهما حتى رق المأمون وعزم على الإجابة بخلع نفسه ومبايعة ابن أخيه موسى، لكن وزيره الفضل بن سهل شـجعه على الامتناع وضمن له الخلافـة وتأييد الفرس. فامـتنع المأمون وظل فى فـارس، ونهض الفـضل بن سهل بأمـر المأمون واستمال له أهل خراسان، واشتدت العداوة بين الأخوين وقطع المأمون الخطبة عن أخيه بخراسان، فأرسل الأمين جيـشا كبيرا لانتزاع خراسـان من أخيه قوامـه خمسين ألف رجل بقـيادة على بن عـيسى بن ماهان، فـالتقى بقوات المأمـون بقيادة قائده الشـجاع طاهر بن الحسين عند الرى، وكـان عدد جيش طاهر أربعة آلاف فارس فقط، واستطاع جيش طاهر إحراز النصر على قوات الأمين وقتل قائده فى المعركـة وإرسال رأسه إلى المأمون، وما زال الشر والخلاف يتزايد بين الأخوين حتى أرسل المأمون قائده طاهر بن الحسين يساعده القائد هرثمة بن أعين بعسكر كثيف لمحاصرة بغداد وإجبار الأمين على الاستسلام والتنحى عن عرش الخلافة.



طبق من الفضة عليه رسوم حفلات العزف والطرب - إيران القرن ٨م

فحاصروا بغداد مدة وتقاتل العـسكران قتالا شديدا على ضفاف دجلة، وجرت بين الطرفين وقائع كثيـرة هناك كان فى آخرها الغلبة لعسكر طاهر بن الحـسين. وقتل الأمين على أبواب بغداد وأرسل رأسه إلى أخيه المأمـون بخراسان. ودخلت قوات المأمون بغداد وأخذت له البيـعة بالخلافة هناك، وكان ذلك سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م.





٧- عبد الله المأمون
(١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٣٣م)

هو عبد الله أبو العباس بن الرشيد، ولد ليلة الجمعة سنة ١٧٠هـ منتصف ربيع الأول، وهى الليلة التى مات فيها الهادى واستخلف فيها أبوه، وأمه أم ولد فارسية اسمها «مراجل» ماتت فى نفاسها به.

قرأ العلم فى صغره وسمع الحديث من كثير من علماء عصره، وأدَّبه أبو محمد اليزيدى، وبرع فى الفقه واللغة العربية وأيام الناس، ولما كبر عنى بالفلسفة وعلم الكلام وكان أفضل رجال بنى العباس حزما وعزما وحلما وعلما ورأيا ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤددا وسماحة. لم يل الخلافة من بنى العباس أعلم منه حتى أنَّ من أرّخ لسيرته قال عنه: «أنه لو لم يكن خليفة لكان عالما» وذلك -لحبه للعلم ولمجالس العلم ولإكرامه العلماء وتقريبهم إليه أيام دولته والإغداق عليهم.

واستقل المأمون بالأمر بعد قتل أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م، وهو بخراسان وفى سنة ٢٠١هـ/ ٨١٦م خلع أخاه المؤتمن (القاسم) من ولاية العهد وجعل ولاية العهد من بعده لعلى الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق الإمام العلوى، وقد حمله على ذلك حبه للعلويين الهاشميين وميله إليهم، وقد قيل أنه هَمَّ بخلع نفسه عن الخلافة وتنصيبه خليفة مكانه. وهو الذى لقبه بالرضا وضرب الدراهم باسمه وزوّجه ابنته «أم حبيب» وكتب إلى الآفاق بذلك. وأمر الناس بترك لبس السواد، شعار العباسيين. ولبس الخضرة، شعار العلويين؛ فاشتد ذلك على قومه العباسيين فخرجوا عليه وعزموا على عزله عن الخلافة ومبايعة عمه «إبراهيم بن المهدى» بها، فبايعوه ولقبوه بـ«المبارك» فجن جنون المأمون، وجهز جيشا لمقاتلة ابن المهدى واتجه به من خراسان نحو العراق، وتوفى على الرضا سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٨م، وكتب المأمون إلى أهل بغداد يعلمهم بذلك فردوا عليه بأغلظ جواب، فسار المأمون بجيشه لقتال إبراهيم ابن المهدى الذى خذله أتباعه فاختفى وظل مختفيا عن عين المأمون مدة ثمانى سنوات حتى عفى عنه وأحسن إليه وجعله من ندمائه.

ووصل المأمون بغداد ودخلها منتصرا فى شهر صفر سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، ودان له أهلها بالطاعة بعد أن وعدهم بلبس السواد وترك الخضرة.



وفى سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٤م تزوج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل وبلغ جهازها ألوفا كثيرة، وقام أبوها بمنح خلَع للقواد والتكفل بكلفتهم مدة ١٧ يوما وكتب رقاعا فيها أسماء ضياع له ونثرها على القواد العباسيين فمن وقعت فى يده رقعة باسم ضيعة تسلمها، ونثر صينية ملئت جوهرا بين يدى المأمون عندما زفت إليه على حصير منسوج من الذهب، فلما رآه المأمون قال: «قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد مجلسنا هذا حيث يقول (فى الخمر):

كأن صغرى وكبرى من فقاقعها   حصباء درٍّ على أرض من الذهب

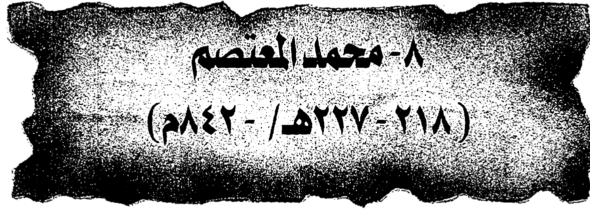
وفى سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٦م أظهر المأمون رأى المعتزلة بالقول بخلق القرآن وقام بامتحان العلماء والفقهاء فى ذلك، ومن قال بغير ذلك أمر بضربه وبسجنه وألزم الناس بالقول بخلق القرآن، وقد نوظر فى ذلك وأوذى بسببه الإمام أحمد بن حنبل وعدد غيره من علماء المسلمين من أهل السنة. وقبل وفاته أوصى المأمون أخاه المعتصم الالتزام بهذا الأمر فلما ولى المعتصم قال برأيه وقام بضرب الإمام ابن حنبل وسجنه على مخالفته له فى الرأى والقول بأن القرآن كلام الله، قديم أزلى وليس بمخلوق محدث.

وفى سنة ٢١٥هـ/ ٨٢٩م سار المأمون إلى غزو الروم ففتح حصن قرة وحصن ماجدة عنوة، ثم سار إلى دمشق. ثم عاد فى العام التالى إلى بلاد الروم وافتتح عدة حصون ثم عاد إلى دمشق، ثم توجه إلى مصر ودخلها وكان أول من دخلها من خلفاء العباسيين للقضاء على ثورة بها.

وفى أيام حكم المأمون ثار العلويون ضده، بعد أن عدل عن جعل الحكم لهم، فخرج عليه الإمام محمد بن جعفر الصادق بمكة، وبويع فى الحجاز بالخلافة وسمُّوه أمير المؤمنين. فأرسل إليه المأمون عسكرا فغلب عليه وظفر به المأمون لكنه عفى عنه. وكان المأمون يحب العفو عن الناس، وقد ورد عنه قوله: «لوددت أن أهل الجرائم عرفوا رأيى فى العفو ليذهب عنهم الخوف ويخلص السرور إلى قلوبهم»، كذلك قوله: «أنا والله ألذ العفو حتى أخاف أن لا أؤجر عليه، ولو علم الناس مقدار محبتى للعفو لتقربوا إلى بالذنوب».

ولقد تولى الوزارة للمأمون عدد من الوزراء أهمهم اثنان من بنى سهل وهما الفضل بن سهل وأخوه الحسن بن سهل. وقد سمى الفضل بذى الرياستين لجمعه بين السيف والقلم، وقد قتل الفضل سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م، وهو فى الحمام. فاستوزر المأمون بعده أخاه الحسن بن سهل





هو أبو إسحق محمد بن هارون الرشيد، ولد سنة ١٧٨هـ/ ٧٩٤م وأمه جارية تركية من مولدات الكوفة اسمها «ماردة» وكانت أحظى الناس عند الرشيد، ولا تذكر المصادر شيئا عن طفولته وشبابه إلا أنه كان واحدا من بين اثنى عشر ولدا أنجبهم الرشيد، نشأ أميًا لا معرفة له بالكتابة، على رأى بعض المؤرخين، ولكن المصادر تجمع بالمقابل على وصفه بجمال الهيئة، وبالقوة الخارقة، وذكروا أنه كان يصارع الأسود ويحمل حمل ألف رطل ويمشى به خطوات، ويلوى العمود الحديد حتى يجعله طوقا فى يده، ويشد على الدينار بأصبعيه السبابة والوسطى فيمحو كتابته. ويمتدحه المؤرخون على أنه فارس حرب وقائد شجاع، وسمى المثمن، لعدة وجوه منها أنه الثامن من ولد العباس، والثامن من الخلفاء، وتولى الخلافة ثمانى سنين وثمانية أشهر، وولد فى شهر شعبان وهو الشهر الثامن، وغزا ثمانى غزوات وخلف ثمانية ذكور وثمانى إناث وخلف ثمانية ملايين درهم.

وقد برز اسم المعتصم فجأة فى أواخر عهد أخيه المأمون، حين عينه لولاية الشام ومصر سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م، ثم اصطحبه معه للغزو على الجبهة البيزنطية وحين أصيب المأمون بالحمى وهو فى طرطوس ومعه ابنه العباس وأخوه المعتصم، ولم يكن قد عقد لأحد بعده بولاية عهده. فاستدعى أخاه أبا إسحق وعهد إليه بالخلافة من بعده، دون ابنه العباس فى شهر رجب ٢١٨هـ، وقد اختار المأمون أخاه المتمرس بالحروب لمواجهة حرب الروم وثورة بابك الخرمى وثورة جماعة الزط، وقد أسرع العباس لمبايعة عمه بالخلافة. ولما تمت البيعة للمعتصم فى جبهة القتال سارع بالذهاب إلى بغداد ليشرف على قاعدة ملكه حسبما أوصاه أخوه بذلك.

وكانت أيام المعتصم أيام فتوح وحروب، وهو الذى فتح مدينة عمورية سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٨م، وكانت بيد الروم، وقام بهدمها وتدميرها نكاية فى ملك الروم وانتقامًا مما فعله فى مدينة زبطرة وأهلها المسلمين، وكان ملك الروم قد خرج إلى بلاد المسلمين الحدودية فهاجم مدينة زبطرة واحتلتها قواته ومثلت بأهلها المسلمين وقتلت من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء. ويقال أنه كان فى جملة السبى امرأة هاشمية فسمُعت وهى تقول: «وامعتصماه!» فبلغ المعتصم ما فعله ملك الروم بالمسلمين فاستعظمه وكبر عليه وبلغه ما قالت الهاشمية، فقال وهو فى مجلسه: «لبيك.. لبيك»، ونهض من ساعته وصاح فى قصره: «الرحيل الرحيل» وسار بجيشه إلى مدينة «عمورية»



مسقط رأس ملك الروم، فحاصرها وفتحها ودخلها وقتل جميع رجالها وسبى نساءها وأمر بهدم عمورية ومحو أثرها فدمرت تدميرا كاملا وأحرقت. وكان قد صحب المعتصم فى هذه الحملة معه الشاعر أبو تمام الطائى، الذى مدحه بقصيدة طويلة عُرفت بالبائية، بسبب هذا النصر جاء فى مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب — فى حده الحد بين الجد واللعب

خليفة الله جازى الله سعيك عن — جرثومة الدين والإسلام والحسب

ولقد تعصب المعتصم للتركية واعتمد على أخواله الأتراك فى الجيش وغالى فى جمعهم إليه وشرائهم من مواليهم، فأوجد لنفسه عصبية جديدة تحكمت، فيما بعد، فى مصير الدولة العباسية فى عصر حكمها الثانى. وقد أسقط المعتصم سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م العرب من ديوان الجند وأحل محلهم جند الأتراك واستكثر منهم حتى ضاقت بهم بغداد وتأذى بهم أهلها وزاحموهم فى دورهم وتعرضوا بالأذى للنساء والأطفال، فكان فى كل يوم ربما قتل منهم جماعة، ويقول صاحب الفخرى أن المعتصم ركب يوما فلقيه رجل شيخ، فقال للمعتصم: «يا أبا إسحق»، فأراد الجند ضربه فمنعهم المعتصم، وقال له: «مالك يا شيخ؟» فقال: «لا جزاك الله خيرا عن الجوار. جاورتنا مدة فرأيناك شر جار. جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا، والله لنقاتلنك بسهام السَّحَر (يعنى الدعاء فى الفجر) والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله ولم يُر راكبا فى يوم مثل ذلك اليوم، فركب وصلى بالناس العيد وسار إلى موضع سامرا فبناها، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين ومائتين».

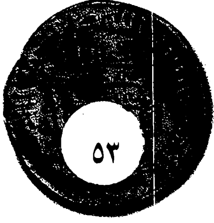
وقد قيل أيضا فى سبب بناء المعتصم لمدينة سامراء (سر من رأى) أنه خاف من عسكر بغداد لعدم ثقته بهم، فقال لخاصته: «اطلبوا لى موضعا أخرج إليه وأبنى فيه مدينة وأعسكر به فإن رابنى من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة وكنت قادرا على أن آتيهم فى البر والماء، فوقع اختياره على سامرا فبناها وخرج إليها». ولقد كان الموضع الذى اختاره المعتصم لبناء سامرا، قبالة بغداد، شرقى نهر دجلة، وهو مكان يبعد عن بغداد بنحو ستين ميلا من الشمال، وبعد إتمام بناء سامرا انتقل المعتصم إليها بجنده واتخذها حاضرة لدولته دون بغداد.

ولقد اتبع المعتصم سياسة أخيه المأمون ونفذها بحذافيرها، فيما يختص بالأخذ بآراء المعتزلة وعدم التهاون مع القائلين بغير رأيهم فى مسألة خلق القرآن. ولقد سمح لنفسه بأن يضرب الإمام أحمد بن حنبل بالسياط ويسجنه سنة ٢٢٠هـ؛ لأنه امتنع عن القول بخلق القرآن. وقد فعل المعتصم ذلك تقليدا لأخيه لا عن قناعة منه بصحة هذا الأمر.

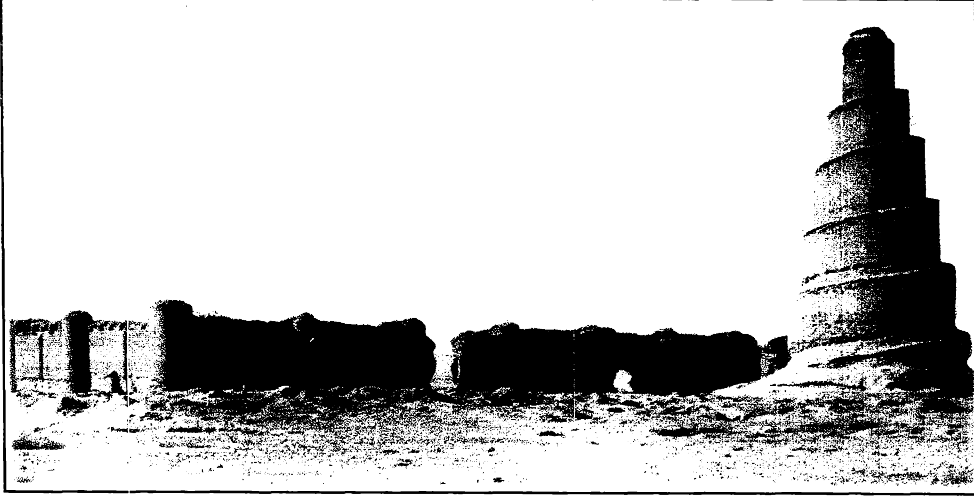
عمورية

مسجد سامراء





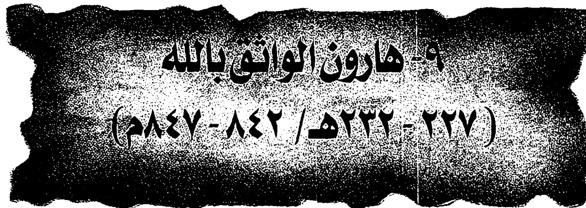
وقد تميز المعتصم بحبه للعمران وللعمارة وإحياء الأرض البور واستزراعها. وكان يقول فى ذلك: «إن فيها أمورا محمودة من عمران الأرض التى يحيا بها العالم ويزكو بها الخراج وتكثر الأموال وتعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش».



قصر الجوسق - بناه الخليفة المعتصم بالله

وقد تولى الوزارة للمعتصم رجل يدعى الفضل بن مروان بعد ثلاثة رجال تسمى كل منهم بالفضل تولوا الوزارة للمأمون وهم الفضل بن يحيى، والفضل بن سهل، والفضل بن الربيع، ثم وزر له محمد بن عبد الملك الزيات، وكان جبارا متكبرا غليظ القلب مبغضا إلى الخلق، ومات المعتصم وهو وزيره، ووزر من بعده لابنه الواثق وقبض عليه وقتل فى خلافة أخيه المتوكل.

وتوفى المعتصم لمرض أصابه يوم الخميس ١٩ ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م وتولى الخلافة بعده ابنه أبو جعفر هارون الواثق بالله.



٩- هارون الواثق بالله (٢٢٧- ٢٣٢هـ/ ٨٤٢- ٨٤٧م)

هو هارون الواثق بالله، ابن المعتصم، من أم رومية تدعى قراطيس، ولد فى ٢٠شعبان سنة ١٩٦هـ/ ٨١٠م، ونشأ فى قصور الخلافة فى بغداد وخارجها، وشارك فى العلم والأدب، وكان



كما قال عنه السيوطى: «وافر الأدب مليح الشعر»، و«كان يسمى المأمون الأصغر لأدبه وفضله، وكان المأمون يعظمه ويقدمه على ولده، وكان الواثق أعلم الناس بكل شيء، وكان شاعرا، وكان أعلم الخلفاء بالغناء، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت، وكان حاذقا بضرب العود، راوية للأشعار والأخبار، ولم يكن فى خلفاء بنى العباس أكثر رواية للشعر منه». و«كان الواثق من أفاضل خلفاء العباسيين، ما كان فى الخلفاء أحد أكثر حلما منه ولا أصبر على أذى ولا خلاف منه»، وقد تأدب على يد العالم هارون بن زياد، فأكرمه إلى الغاية، فقيل له: «من هذا الذى فعلت به هذا الفعل يا أمير المؤمنين؟» فقال: «هذا أول من فتَّق لسانى بذكر الله وأدنانى من رحمة الله».

وكان الواثق يطلب من العلماء التأليف فى بعض المواضيع، فألف له «حنين بن إسحق» كتاب «المسائل الطبيعية» وكان يعقد مجالس المناظرة فى قصره ويسأل عن أقوال الحكماء، وكان يجزل العطاء للشعراء.

ولاه أبوه العهد، فبايعه الناس بالخلافة فى سامرءا ليلة وفاة المعتصم، وكان عهد حكمه ركود سياسى، ويعلق على ذلك صاحب الفخرى بقوله:

«ولم يقع فى أيامه من الفتوح الكبار والحوادث المشهورة ما يؤثر وانقضت أيامه فى هدوء». وفى عهده استشرى نفوذ الترك وعظمت سلطة قوادهم ولم يوقف عناصرهم عند حدها الحربى بل فتح لهم الطريق إلى جهاز الحكم وذلك بتعيين كبار قواد الترك فى الإدارة. وقد أعطى، منذ ولايته الخلافة، أشناس التركى حكم غرب الدولة، وأعطى قائده إيتاخ التركى حكم ولايات دجلة وفارس والسند، وبذلك قسم إدارة الدولة العباسية بين اثنين من كبار قواد الأتراك، وقام كل منهما بالبقاء فى سامرا إلى جوار الخليفة وأنابا عنهما نوابا فى ولاياتهما.

كذلك قام الواثق بتثبيت نفوذ بنى طاهر الفرس ودولتهم فى منطقة عصبيتهم خراسان، وقلد الأمر وفوض الملك إلى اثنين من وزرائه صارت لهما السلطة الكبرى فى الدولة وهما: القاضى المعتزلى أحمد بن أبى دؤاد، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات وزيره، ووزير والده من قبله، فكان الواثق «لا يصدر إلا عن رأيهما ولا يعقب عليهما فيما رأياه».

وفى عهد الواثق ازداد فساد الكُتاب وعمال الخراج، فزاد إهمالهم وكثرت اختلاساتهم، الأمر الذى اضطره إلى مصادرة أموال كبار الموظفين، ويروى فى ذلك الطبرى قوله بأن الواثق قام فى سنة ٢٢٩هـ بحبس الكُتاب وألزمهم أموالا عظيمة، فأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه، ومن سليمان بن وهب، كاتب إيتاخ، أربعمائة ألف دينار، ومن الحسن ابن



وهب أربعة عشر ألف دينار، ومن إبراهيم بن رياح وكاتبه مائة ألف دينار، ومن أحمد بن الخصيب وكاتبه مليون دينار. . .».

ويذكر صاحب الفخرى أن الواثق أحسن إلى العلويين، فقال فى ذلك: «ولما ولى الخلافة أحسن إلى بنى عمه الطالبيين وبرهم». وقال السيوطى فى ذلك: «ما أحسن أحد إلى آل أبى طالب ما أحسن إليهم الواثق».

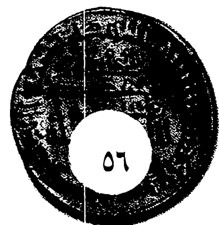
كذلك أكرم الواثق الأمويين ورد عليهم بعض أموالهم، كما أكرم أهل الحرمين الشريفين «وفرق فيهم أموالا لا تحصى حتى أنه لم يوجد بالحرمين فى أيامه سائل، وحتى خرجوا يندبونه ويبكونه حين مات». وقد احترقت منازل أهل الكرخ فى أيامه لحريق غير مدبر شب فيه، فأعطى الواثق فقراء الكرخ مليون درهم معونة لإصلاح منازلهم التى احترقت.

ولقد تعصب الواثق، مثل أبيه وعمه، لآراء المعتزلة، وأراد أن يجعل مذهبهم المذهب الرسمى للدولة. ولم يكتف بإقراره فى عاصمة الدولة بل كتب إلى حكام الولايات بفرضه على الناس فى ولاياتهم وامتحان الناس فى موضوع خلق القرآن، كذلك أمر فى سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٦م بألا يقبل فداء أسير مسلم لدى الروم قبل أن يقر بخلق القرآن. وفى نفس السنة أرسل كتابا إلى أمير البصرة يأمره فيه أن يمتحن الأئمة والمؤذنين بخلق القرآن. وقتل فى ذلك العام عالم الحديث «أحمد بن نصر الخزاعى»، بعد أن أحضره من بغداد إلى سامرا مقيدا وسأله عن القرآن فقال: ليس بمخلوق، قتله بيده وضرب عنقه وأمر بحمل رأسه إلى بغداد فصلب بها وصلبت جثته فى سامرا واستمر ذلك ست سنين إلى أن ولى المتوكل فأنزله ودفنه.

ويقال بأن الواثق رجع عن قول المعتزلة قبل موته، وأنه أفرج عمن حبس من علماء السنة الذين خالفوا رأى المعتزلة، ومنهم الإمام أحمد بن حنبل الذى كان المعتصم قد أودعه السجن واستمر فى حبسه أيام الواثق.

ولقد امتنع الواثق عن تعيين ولى عهد له يخلفه من بعده فى تولى خلافة المسلمين، فقال لمن طلب منه ذلك وهو على فراش الموت: «لا أتقلد أموركم حيًا وميتًا». وقد أخطأ فى ذلك، وفتح بذلك الباب لقادة الترك للتدخل فى اختيار خليفة الدولة، وسرعان ما استغل هؤلاء القادة ذلك لصالحهم فتحكموا فى أمر الدولة وقيادتها وكان لهم الفضل فى إيصال المتوكل إلى الخلافة، وقد كانت تلك سابقة خطيرة دفعت الدولة ثمنا غاليا لها فى العصر العباسى الثانى.

وقد توفى الواثق من مرض عضال لم يتركه على العرش أكثر من خمس سنين وتسعة أشهر، فقد توفى بسامرا يوم الأربعاء ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م.



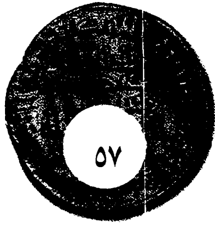


سكة باسم الخليفة الواثق بالله
(٢٢٧ - ٢٣٢هـ)

المئذنة الملوية - سامراء



جزء من تصوير جدارى - سامراء

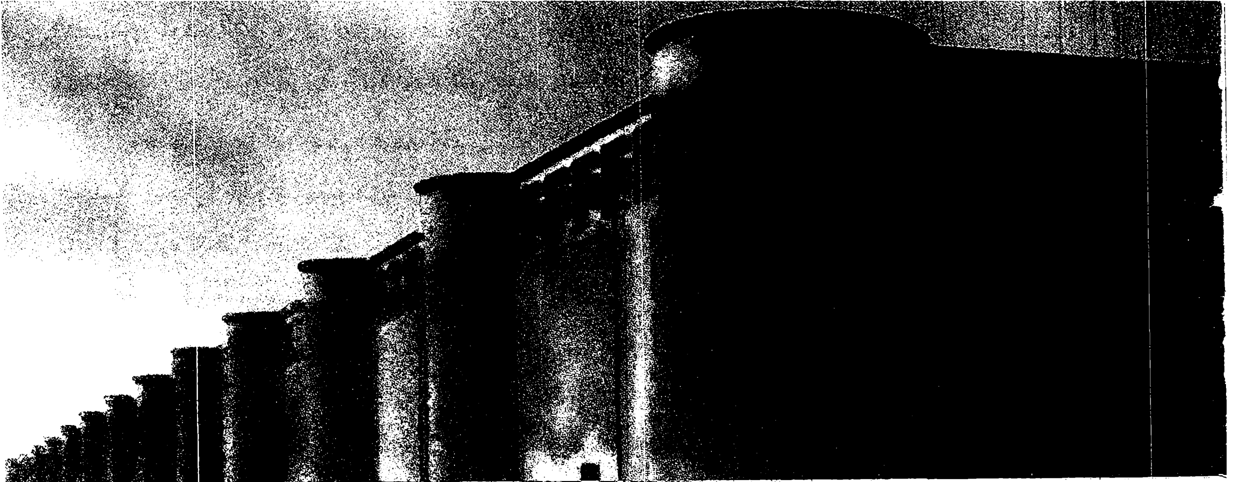


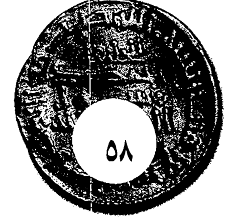
نهاية العصر العباسى الأول

وبنهاية عـصر الواثق ينتهى عـصر العباسـيين الأوائل، وهو عصر الخلفـاء الأقوياء من بنى العباس، ليبدأ بعد ذلك منذ تولى المتوكل عرش الخلافة سنة ٢٣٢هـ العصر الذى عرف فى التاريخ بالعصـر العباسى الثانى، أو عـضر العباسـيين الأواخر، وهو العصر الذى خـالف فى حكمه وفى نظمه وفى حضارته عـصر العباسيين الأوائل الزاهر وتميز بحكم خلفاء ضعـاف سيطر عليهم القواد الأجانب من أتراك وفرس.

وبسبب عدم تعيين الواثق لولى عهد من بعده يتولى أمر الخلافة وقع خلاف واضطراب كبير فى أمر اخـتيار خليفـة يرضى الناس عنه ويرضى، على الأخص، قواد الأتراك عنه، وقـد فوجئ الناس بموت الواثق، رغم طول علته، فتـركوا جثته دون أن يدفنوها حتى يتـدبروا أمر من يخلفه، ويقول السيوطى عن ذلك: «حكى أنه لما مات (الواثق) ترك وحده واشـتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جرذون فاستل عينه فأكلها»، وقد سمح شغور منصب الخلافة، دون ولى عهد شرعى مسمى للأتراك بالتدخـل، وأعطى الفرصة لهم لاخـتيار «جـعفر بن المعـتصم»، المولد من أم تركـية سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢٠م، أن يتولى الخلافـة باسم «المتوكل على الله»، وهو لقب لقبـه به الوزير أحمد بن أبى دؤاد، وقد اتفق قواد الترك فيما بينهم، وعلى رأسهم القائد وصيف التركى، على اختيار جعفر للخلافة لكونه من أم تركية خـوارزمية، ولم يختاروا للخلافة محمـداً بن الواثق بحجة عدم تعيين والده له وليا للعـهد من بعده. وفى هذه الآونة وجد قواد التـرك الفرصة سانحة لـفرض سيطرتهم

سور مسجد سامراء





السياسية وتحكمهم فى أكبر منصب فى دولة العباسيين، وهو منصب الخليفة، وهنا برزت القوة التركية الجديدة المسيطرة على الدولة الإسلامية بكامل نفوذها. وتصدى هؤلاء القواد، منذ ذلك الوقت فصاعدًا، لعملية اختيار وتعيين قيادات الدولة والحكم، وقد وضعوا فى خطتهم أن يختاروا خلفاء ضعافًا لتستمر سيطرتهم عليه ويظل الحكم الفعلى فى أيديهم وحدهم. وكان لنجاح قواد الأتراك فى تولية المتوكل الخلافة أثر كبير فى تولية من جاء بعده من خلفاء الدولة العباسية، وأصبح سابقة جرت عليها الأمور من بعده. وأصبح قواد الأتراك وحدهم هم أصحاب الاختيار ولا أحد دونهم ولا تتم الخلافة لأحد إلا بموافقتهم ورضاهم، وأن على من يختارونه للخلافة أن يخضع لهم ويلتزم بأوامرهم وينفذ ما يريدونه دون إبطاء، وأنَّ من لم يلتزم بذلك كان العزل مصيره، وفى بعض الأحيان كان السجن والتعذيب والقتل مصيره، كما وقع بعد ذلك مع بعض الخلفاء.

ولم يقتصر نفوذ قواد الأتراك على اختيار الخليفة فحسب، بل تعداه إلى منصب الوزارة، فضعفت إلى جانبهم، شخصيات الوزراء وكثر عزلهم ومصادرتهم وحبسهم وقتلهم. واستتبع ذلك انحطاط شخصيات من تولى الوزارة ووصول من لم يستحقها إليها ببذل المال والرشوة لكبار قواد الأتراك. وبذلك وصلت إلى كرسى الوزارة شخصيات هلامية كان كل همها جمع ما أنفقوا من أموال فى سبيل الوصول إلى الكرسى والزيادة عليه بقدر ما يستطيعون وبشتى الوسائل والطرق مما أثقل كاهل الرعية زاد من وقوع الظلم عليهم. وبسبب هذه السياسة ضاعت هيبة الوزير كما ضاعت هيبة الخليفة وتناقصت قيمته شيئًا فشيئًا حتى لم يصبح فى آخر الأمر إلا مجرد كاتب للخليفة وأصبحت حقيقة السلطة والسلطان فى يد قواد الأتراك.

ومن المعلوم تاريخيا أن خلفاء العباسيين لم يخضعوا للنفوذ التركى ويستسلموا له فى يسر وسهولة بل صارعوه مصارعة شديدة، ولم يجبرهم على الخضوع المؤقت له إلا بسبب افتقارهم إلى القوة العسكرية التى يستطيعون بها صد هذه القوة العسكرية التركية وإيقافها عند حدها، وخاصة أثناء تواجدهم فى سامرا، قاعدة النفوذ التركى الحصينة. ولم يستطع هؤلاء الخلفاء التصدى لهذه القوة إلا بعد أن عادوا إلى بغداد واتخذوها ثانية حاضرة لحكم بنى العباس، واستعانوا بالعناصر العربية والفارسية الموجودة فيها.

وهكذا نرى أن حكم خلفاء العباسيين الأوائل شمل تسع خلفاء من مجموع سبع وثلاثين خليفة حكموا الدولة العباسية. وحكم بعدهم ثمان وعشرون خليفة لم يكونوا فى قوة الخلفاء الأوائل، إذ تدهور نفوذ الدولة أيام حكمهم وخضع هؤلاء الخلفاء لسيطرة القواد الأجانب ولم يبق للخليفة سوى السيادة الاسمية والزعامة الروحية التى تمثلت فى سك اسم الخليفة على عملة الدولة والدعاء له فوق المنابر فى خطبة الجمعة. ولم يقتصر تدهور نفوذ خلفاء بنى العباس فى عصرهم

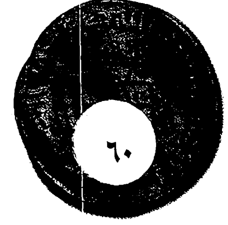


الثانى على دار الخلافة فحسب، بل تعداه إلى سائر أرجاء الدولة العباسية وبعد أن كانت الدولة فى العصر الأول وحدة واحدة تحكم من العاصمة المركزية تجزأت فى العصر الثانى إلى أجزاء ودويلات يحكم كل ولاية منها وال مستقل استقلالا شبه كامل فى ولايات المشرق والمغرب. ولم تعد تربط هؤلاء الولاة بدولة الخلافة سوى الرابطة الروحية والتبعية المذهبية السنية لدولة الخلافة.

ولذلك يعرف العصر العباسى الثانى بعصر تفكك الخلافة وتناثر أجزائها، ولو أن هذا التفكك وقيام الدويلات المستقلة عن الخلافة قد بدأت أعراضه فى عصر العباسيين الأول، وفى عصر الرشيد والمأمون بالذات، إلا أنه لم يصبح ظاهرة متفشية واضحة إلا فى العصر الثانى، ولقد قامت دولة الأدارسة العلويين فى بلاد المغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م، فى عهد الرشيد، وقامت دولة الأغالبة فى إفريقية (تونس) سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م فى عهد حكم الرشيد أيضا. وقامت دولة الطاهريين فى خراسان سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م فى عهد خلافة المأمون.

ورغم ذلك، فقد كان العباسيون الأوائل من القوة والنفوذ، الأمر الذى جعل هؤلاء الأمراء المستقلين يحرصون بدورهم على طاعة الخلفاء واحترامهم والخوف من عقابهم على ما فعلوا. لكن هؤلاء الحكام سرعان ما استأسدوا وتمتعوا بالاستقلال شبه الكامل فى ولاياتهم بعد نهاية عصر العباسيين الأول؛ لما رأوا من ضعف خلفاء العصر الثانى وتيقنوا من ضياع نفوذهم وهيبتهم بسبب سيطرة ونفوذ قواد الأتراك، وقد تتابع، فى العصر الثانى، تفكك دولة الخلافة وقيام الدويلات المستقلة عنها فى المشرق والمغرب حتى أنه لم يبق للخلفاء العباسيين من نفوذ إلا فى منطقة العراق الأوسط فحسب، وحتى هذا النفوذ كان يشاركهم فى إحرازه كبار قواد الأتراك.

كذلك شهد نهاية عصر العباسيين الأول، تدهور النفوذ والهيمنة الدينية والروحية للخلفاء العباسيين فى العالم الإسلامى؛ ذلك لأنهم لم يصبحوا الخلفاء الوحيدين لزعامة هذا العالم روحيا، بل كان هنالك من شاركهم فى هذه الزعامة. فقد شهد هذا العصر قيام خلافتين أخريين فى بلاد المغرب ومصر والأندلس وهما: الخلافة الفاطمية والخلافة الأموية الأندلسية، ولقد أصبح هناك، فى ذلك العهد، ثلاث خلافات إسلامية تتصارع على زعامة العالم الإسلامى الروحية وتتنافس فيما بينها لكى تنفرد إحداها بالسيادة الروحية على هذا العالم، الأمر الذى أضعف من هيبة خلفاء العباسيين على عالم الإسلام آنذاك، ولقد أدى انقسام الزعامة الروحية فى العالم الإسلامى وقيام العداء المذهبى بين هذه الخلافات إلى تفكك وحدة عالم الإسلام وإلى ضعف المسلمين بصفة عامة؛ الأمر الذى أطمع فيهم أعداءهم فى المشرق والمغرب من صليبيين ومغول، وحاقدين على الإسلام والمسلمين.





المصادر والمراجع

المصادر:

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ١٣ جزء.

(٢) ابن الجوزى: المنتظم فى أخبار الأمم.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر.

(٤) ابن خلدون: المقدمة (الجزء الأول من كتاب العبر).

(٥) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، ١٤ جزء.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى.

(٧) السيوطى: تاريخ الخلفاء.

(٨) الصابى، أبو هلال: تاريخ الراضى بالله.

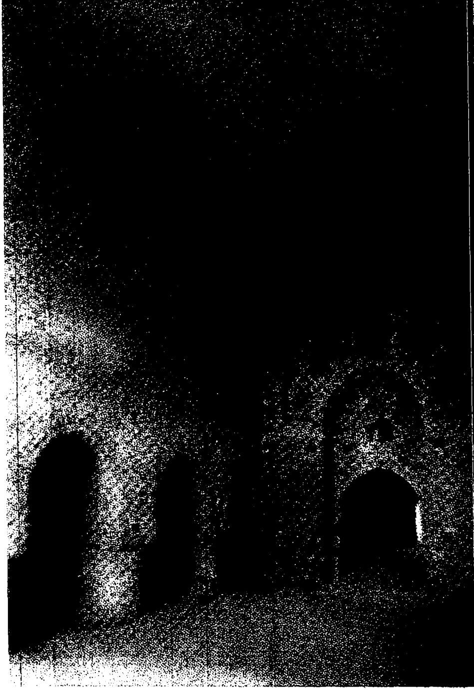
(٩) الصولى: كتاب الأوراق.

(١٠) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبرى.

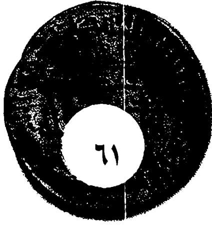
(١١) ابن طباطبا (ابن الطقطقى): الفخرى فى الآداب السلطانية.

(١٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ١٤ جزءا.

(١٣) ابن قتيبة الدينورى: التنبيه والإشراف.



قبو فى قصر الأخيضر



(١٤) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر.

(١٥) مسكويه: تجارب الأمم.

(١٦) المقدسى: البدء والتاريخ.

(١٧) النرشخى: تاريخ بخارى: ترجمة أمين عبد المجيد بدوى.

(١٨) ابن هشام: سيرة رسول الله ﷺ.

(١٩) أبو هلال العسكرى: الأوائل.

(٢٠) ياقوت الحموى: معجم البلدان.

(٢١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى.

المراجع:

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام.

(٣) أحمد الشريف وحسن محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.

(٥) بارثولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد.

(٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ٣ أجزاء.

(٧) الخضرى: محاضرات فى تاريخ الإسلامى ـ الدولة العباسية.

(٨) شاكر مصطفى: دولة بنى العباس، جزءان.

(٩) عبد العزيز الدورى: العصر العباسى الأول.

(١٠) عطية القوصى: تاريخ الدول العباسية.

(١١) محمد حلمى أحمد: الخلافة والدولة فى العصر العباسى.

(١٢) اليوزبكى: الوزارة فى الدولة العباسية.



المراجع الأجنبية:

(1) Barthold, W: Turkestan down to the mongol invasion, London 1928.

(2) Bouvat: Les Barmecides, Paris 1912.

(3) Bucher: Harun al Rashid and Charles the Great, Massachusetts 1931.

(4) Pirenne, H.: Mahomet et Charlemagne, Paris 1971.

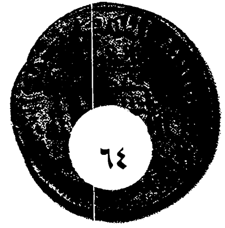
(5) Shaban, A.: The Abbasid Revolution, London 1960.

(6) Sourdel, D.: Le Vezirat Abbaside, Damas 1960.

(7) Terme Abbassides: The Encyclopeadia of Islam.


٦٣


المحتويات



الموضوع	الصفحة

Abstract

The Abbassids are the descendants of Abbas, the uncle of the Prophet "Peace be upon him". They came to power after the fall of Umyyad in the year 132H. " 750 A.D." Their rule lasted for more than five Centuries, which could be divided into two stages: The first which lasted for one Century, and the second which lasted until the fall of Baghdad in the hands of Hulago in the year 656H. " 1258A.D.

"The first stage was the golden era, when the early Abbassid Caliphs, Al-Mansour, Al - Mehdi, Al - Rashid, Al- Mamoun, and Al- Matassim, made Baghdad the greatest center of learning in the whole world. Scholars of various races flocked into Baghdad, and thus a movement of translation started to preserve the classical heritage of the Greek, Persian, and Indians.

This same stage was full of prosperity and abundance for all the segments of the society, and thus people enjoyed a happy life full of festivities and celebrations. On the other hand, the same period witnessed the appearance of some heretic groups which tried to divert people from the proper ways of faith, this is why the Abbassid Caliphs suppressed these heretical sects in order to safeguard Islamic religion.

More light is cast on the accomplishments of those early great Caliphs, who extended their efforts in order to secure stability and solidarity in the whole State.

Dr. Attia El - Qossi

(7)

The Early Abbassids

Dr. Attia El - Qossi





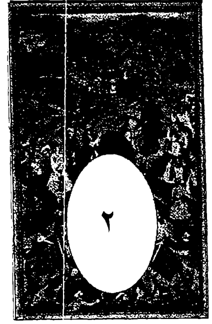
تأليف

د.عصام الدين عبد الرؤوف الفقى

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة





العباسية، إلا أنه على عهد المنصور جحد فضل هذا الرجل وأنكر جميله بغض الطرف عن تشدق أبى مسلم بالخدمات التى أداها للعباسيين، فمما يذكر فى ذات العام الذى تولى فيه أبو العباس الخلافة طلب منه أبو مسلم أن يوليه إقامة موسم الحج، إلا أن السفاح أخضعه لإمرة أخيه المنصور. وعندما ولي المنصور الخلافة وضع نصب عينيه إبعاد أبى مسلم عن خراسان، بل قتله غيلة باستدراجه للعراق، قرب العاصمة القديمة «المدائن»، ولقد ثأر له سنباذ الفارسى الذى رفع راية العصيان فى خراسان، وقد هزمته جيوش الخلافة العباسية، وقضت عليه بين همذان والرى.

ولقد كان انتشار الإسلام فى شرق الدولة الإسلامية على مذهب الشيعة الذى يحصر الخلافة فى نسل الإمام على بن أبى طالب؛ ومن ثم فقد ثار العلويون على الخلافة العباسية عندما غدروا بهم بإقصائهم عن الخلافة دون العلويين، مستغلين شعار الرضا من آل محمد واستئثارهم بالخلافة دون غيرهم. فقد أطلق العلويون سراح المسجونين من ذوى قرباهم، بل حملوا الفقيه مالك بن أنس، وهو صاحب المذهب المالكى السائد فى شمال أفريقيا الآن، ليحلهم من يمين البيعة للعباسيين على اعتبار أنهم بايعوهم مكرهين، ولقد قام هؤلاء الثائرون بحفر خندق كالذى صنعه الرسول ﷺ، إلا أنهم فشلوا فى ذلك مما أدى قضاء العباسيين على ثورتهم، وهذا ما قام به محمد النفس الذكية، أما ثورة أخيه إبراهيم فى البصرة، فكانت أعظم خطرا إلا أن هذا القائد العلوى كانت تعوزه المقدرة السياسية، وإن كان قد احتل البصرة، إلا أنه رفض المسير إلى الكوفة لملاقاة المنصور المرابط بجيشه، ولكن ثورة إبراهيم هذا انتهت بمقتله فى ١٤ فبراير عام ٧٦٣ ميلادية، ومن هذا يتضح أن العلويين لم يسعفهم الحظ فى إقامة خلافتهم أو دولة لهم فى آسيا على الرغم من كثرة أنصارهم فى هذه المناطق، فإن الدولة العباسية فى عصرها الأول كانت دولة قوية البنيان، شديدة المراس بخلفاء أقوياء، لهم من القدرة على تصريف دولتهم وحمايتها من أى خطر يتهددها.

فما يذكر بأن المنصور قرب إليه العلماء والفقهاء، فقد ظهر فى عهده أبو حنيفة النعمان بوصفه مولى من موالى تيمة الله، فعاش مستغنيا عن الناس من طريق التجارة بالحرير فى الكوفة بالعراق، وكان من مؤيدى زيد بن إبراهيم فى الثورة التى قام بها فى البصرة، وقد توفى عام ٧٦٧ ميلادية فى سجن بغداد، وكان يعقد حلقة للدرس فى الكوفة، وكان يلزم السنة لزوما قويا ولا يسمح بالاجتهاد بأكثر مما فعل أى من أصحاب المذاهب الأخرى. وكان معاصروه مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكى فى المدينة المنورة الذى كان نصيرا للعلويين حتى إذا ما قضى العباسيون على ثورتهم عاقبوه بالجلد. ومما يذكر أن هارون الرشيد قد زار مالك بن أنس قبيل وفاته عندما كان يؤدى فريضة الحج.



ومما لا شك فيه أن الاختلاف المذهبى فى الإسلام ما بين شيعة وسنة قد بدا واضحا فى آسيا، فعندما كان المنصور منهمكا بصيانة حدود دولته ظهرت الثورات المذهبية فى خراسان الواقعة فى أقصى الطرف الشرقى من الدولة الإسلامية، حيث كانت هذه المناطق أكثر احتكاكا بالديانة البوذية والشامانية، فقد كان الدين الإيرانى القومى يؤثر فى نفوس الناس وعقولهم، فإذا كان المنصور قد تخلص من أبى مسلم وقضى على بعض المتعصبين من أهل خراسان فيما سمى بحركة الراوندية عندما ظهروا أمام مقر الخليفة فى الهاشمية ليمجدوه بوصفه تجسدا للذات الإلهية (سبحانه وتعالى علوا كبيرا)، وقد عمل المنصور على تهدئتهم فاستعصوا عليه، وقد ظهر رجل فارسى من مدينة مرو من أتباع أبى مسلم الخراسانى واسمه حكيم الذى ادعى أنه التجسد الجديد للذات الإلهية بعد موت مولاه وكان يظهر للناس وعلى وجهه نقاب موشّى بالذهب بزعم أن الغرض منه أن يحجب كنقاب موسى بهاء الذات الإلهية عن العيون الدنسة، وعرف فى التاريخ بلقب المقنع الخراسانى، واستطاع هذا الثائر أن يخضع إقليم ما وراء النهر بآسيا واستطاع الخليفة العباسى التغلب عليه وحصاره فى قلعته، فما كان من هذا الثائر المقنع الخراسانى إلا أن أشعل النار فى قلعته فالتهمته النيران مع نسائه وأتباعه ومخلصيه.



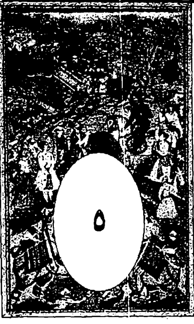
قوس النصر – الهند

فقد عاشت الدولة العباسية فى عصر خلفائها الأول (العصر العباسى الأول) عهد قوة وازدهار، فالمنصور عندما مات كانت خزانته عامرة بالأموال، وإن كانت قد ظهرت بعض حالات العصيان المتخذة من مخالفة العقيدة للثورة على الخلافة العباسية، فقد فشلت هذه الثورات فى العصر العباسى الأول.



ومما يجدر ذكره بأن الصـراع بين الشيعة والسنة فى الدولة الإسلامـية قد بدا واضحـا بين الأمين والمأمون، وقـد كان مـحمد الأمين ابن زبيـدة حفـيدة المنصور وليا للعهد وأميرا على سورية، والولايات الشرقية إلى عبد الله المأمون الذى كانت أمـه فارسية، وقـد نص الرشيد على أن أى اعتـداء يقوم به الأمين على حقوق أخـيه المأمون يترتب عليـه فقدانه العرش، ولقـد حدث صراع بين الأمين والمأمون انـتهى بمقتل الأول وتوليـة الثانى الخـلافة، ومـا من شك فإن النصر الذى تحقق للمأمون جعل له السيادة الكاملة على الدولة الإسلامية، وكان على إثر ظهور دول إسلامية عدة نورد منها ما يلى:

المؤلف



الدولة الطاهرية

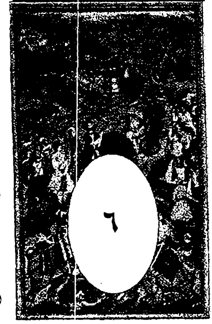
فقد كان طاهر بن الحسين من كبار قادة الدولة العباسية، وولى منطقة بوشنج (إحدى نواحى خراسان) حينما بدأ النزاع بين الأمين والمأمون وقاد جيش المأمون ضد قوات الأمين، وقام بدوره فى قهر الأمين طمعا فى المكاسب التى سوف يحصل عليها من وراء هذا العمل، فاشتبك مع على بن عيسى (قائد الأمين) وهزمه وقتله سنة ١٩٥هـ/ ٨١٠م.

فقد تقدم طاهر بن الحسين إلى بغداد واستولى على ما فى طريقه من البلاد، وحاصر بغداد والأمين بها، وانتزعها من الأمين وتخلص منه سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م، ولقد كافأه المأمون بعد أن استقر فى الخلافة بأن أسند إليه ولاية الجزيرة وولاية شرطة بغداد، ولم يشأ المأمون أن يوليه خراسان حتى لا يستقل بها، إذ لم يغب عن ذهن المأمون مدى ما يتمتع به طاهر بن الحسين من نفوذ فى خراسان، على أن طاهر بن الحسين لم يقنع بولاية الجزيرة، إذ كان يطمع فى ولاية خراسان إليه، وما زال بالمأمون حتى أسند إليه - سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م - جميع البلاد شرقى بغداد ووطد طاهر نفوذه فى خراسان واتخذ من نيسابور حاضرة لدولته، وعلى ذلك استطاع طاهر بن الحسين أن يؤسس أول إمارة شبه مستقلة عن الخلافة العباسية.

اعتزم طاهر بن الحسين الاستقلال نهائيا بدولته عن الدولة العباسية، ففى سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م أسقط اسم الخليفة المأمون من الخطبة، لكنه لم يلبث أن توفى، فوافق الخليفة المأمون على تولية طلحة بن طاهر ولاية أبيه، فعلى الرغم من استياء المأمون من الطاهريين فإنه كان يخشى انتزاع الأمر من أيديهم فتحدث الاضطرابات فى خراسان التى قوى فيها نفوذهم.

ثم خلف عبد الله بن طاهر أخاه طلحة سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م، وقد اتسع ملكه حتى شمل الرى وكرمان، علاوة على خراسان نفسها، وكذلك الأراضى التى تقع شرقيها حتى الحدود الهندية وتمتد شمالا حتى حدود دولة الخليفة.

حرص خلفاء طاهر بن الحسين على تحسين علاقاتهم بالخلفاء العباسيين وراعوا حقوق الدولة فى شئون الحكم والإمارة، بل وقفوا إلى جانبهم فى القضاء على حركات التمرد والعصيان التى حدثت ضدهم؛ لذلك لم يعمل الخلفاء العباسيون على استرداد نفوذهم على البلدان التى يسيطر عليها الطاهريون.



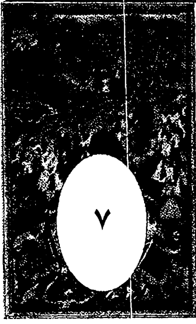
وكان محمد بن طاهر آخر حكام الدولة الطاهرية، ولم يكن على شاكلة أسلافه، فقد كان أميرا ماجنا، يميل إلى اللهو والعبث فضعف أمره كحاكم وعجز عن إخضاع الثورات التى قامت ضده، ولما ازدادت الاضطرابات فى الدولة الطاهرية، استنجد أهل خراسان بالأمير يعقوب بن الليث الصفار لإعادة الأمن والطمأنينة إلى بلادهم، فوجد الأمير الصفارى الفرص مواتية لتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الطاهرية المتداعية، فزحف بجيشه إلى نيسابور سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٣م وقبض على محمد بن طاهر وعلى أهل بيته وبذلك زالت الدولة الطاهرية.

الدولة الصفارية

كان يعقوب بن الليث الصفار من أفراد المطوعة (وهى تشكيلات عسكرية) تعمل على حماية سجستان وفارس وكرمان من حالة الفوضى التى تعرضت لها من ثورات الخوارج، وارتفع شأن يعقوب بعد أن ظهرت شجاعته فى محاربة الخوارج، فولى قيادة جماعات المطوعة، فعظم أمره حتى أن أهل سجستان استنجدوا به ليخلصهم من الفوضى التى حلت ببلادهم، فسار إليهم ودفع عنهم الضر. ولما رأى أهل سجستان شجاعته وإقدامه وحسن تدبيره، ملكوه أمرهم، فضبط البلاد، وقويت شوكته، وقصدته العسكر من كل ناحية.

لم يكتف يعقوب بحكم سجستان بل عول على مد نفوذه إلى البلاد المجاورة لها، فاستولى سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م على بوشنج وهراه وما والاها، ولم يلبث أن احتل نيسابور، التى كان يحكمها الطاهريون مخالفا أوامر الخليفة العباسى، ولم يتوقف عند ذلك الحد بل مد نفوذه على بلاد فارس وخراسان، وزبلستان ومكران وكرمان والسند وطبرستان والرى وقزوين وأذربيجان وجنديسابور والأهواز، حتى لقد هدد بغداد نفسها سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م وبذلك استطاع يعقوب بن الليث على الرغم من أنه لم يكن من بيت عريق أن يؤسس ملكا عريضا فى شرق الدولة الإسلامية يشتمل على معظم أرجاء فارس، بالإضافة إلى سجستان التى أقام فيها يعقوب دولته فى بداية أمرها وإن كان عمر هذه الدولة لم يتجاوز ستة وثلاثين عاما.

اشتهر يعقوب بن الليث الصفار باليقظة وحسن التدبير، وكان لا يطلع أحدا على سره ولا أحد يعرف بتدبيره وعزمه، وأكثر نهاره يقضيه خاليا بنفسه يفكر فيما يريده، ويظهر غير ما يضمر



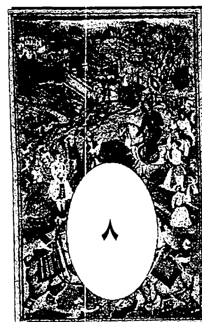
ولا يشرك أحدا فيما يدبره برأى، وكان يحسن اختيار رجاله، كما كان يعد جيوشه أحسن إعداد، واستطاع بذلك أن يهيئ الاستقرار والأمن فى دولته، ويجنى منها الأموال الكثيرة حتى عمرت خزينته.

عمل يعقوب على التقرب إلى الخلافة العباسية بإرساله الهدايا إليها حتى أقرته على البلدان التى استولى عليها، ولكن العباسيين لم يلبثوا أن توجسوا خيفة على سلطانهم من ازدياد نفوذ ابن الليث، وعملوا على التخلص منه، فغضب يعقوب من موقف الخلافة العدائى نحوه، فزحف إلى العراق، ولكن الدولة العباسية وجهت إليه جيشا، هزمه شر هزيمة سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م فانسحب إلى حاضرته نيسابور، وتوفى سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م.

أقرت الخلافة العباسية عمرو بن الليث خلفا لأخيه يعقوب على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان، وأرسلت إليه العهد ومعه العقد والخلع، واتخذ عمرو مع الخلافة العباسية سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياسة أخيه يعقوب، فتقرب إلى الخلافة وتودد إليها، وبلغ من ثقة الخلافة به أن أسندت إليه ولاية شرطة بغداد، بالإضافة إلى الولايات التى عهدت إليه بحكمها سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م وبذلك قوى نفوذه.

وضع عمرو بن الليث نظاما دقيقا لمراقبة عماله وقواده ورتب موارد الدولة وعمل على زيادتها، لكن عمرا لم يقنع باتساع ملكه، واستقرار أمر دولته، بل طمع فى المزيد من النفوذ، فأصر على المطالبة بحكم بلاد ما وراء النهر، ولم يجد الخليفة العباسى بدا من إقراره على حكم هذه البلاد، لكن الأمير إسماعيل بن أحمد السامانى أمير بلاد ما وراء النهر رفض أن يسلمها للأمير الصفارى وكتب إليه يحثه على عدم التعرض لبلاده وقال: «إنك قد وليت دنيا عريضة، وأنا فى يدى ما وراء النهر، وأنا فى ثغر، فاقنع بما فى يدك واتركنى مقيما بهذا الثغر» لكن عمرا أصر على تحقيق سياسته الرامية إلى توسيع ملكه على حساب الإمارة السامانية، ولم يقدر الصعاب التى تقف فى سبيله وتحول دون تحقيق سياسته، فسار على رأس جيش كبير إلى بلاد ما وراء النهر واشتبك مع الأمير السامانى إسماعيل بن أحمد فى معارك ضارية هُزِم عمرو فيها، بل وقع أسيرا فى قبضة غريمه الأمير إسماعيل سنة ٢٧٨/ ٩٠٠م وتمزق شمل جيشه شر ممزق، وكانت لهذه الواقعة نتائج حاسمة فى مراحل تطور الحياة السياسية فى شرق الدولة الإسلامية، إذ كانت بداية النهاية للدولة الصفارية، وأمنت الدولة السامانية الناشئة على حدودها من خطر الصفاريين بل تطلعت إلى بسط سيطرتها ونفوذها على بلدان الدولة الصفارية المتداعية.

ولما علم الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م) بهزيمة عمرو بن الليث الصفار، سر لذلك، وأشاد بذكر إسماعيل بن أحمد؛ ذلك لأن ازدياد نفوذ عمرو كان يشكل



خطرا كبيرا على سلطان الخلافة العباسية، ومهما يكن من أمر، فقد سيق الأمير الصفارى إلى بغداد، وبقى حتى وفاته ٢٨٨هـ/ ٩٠١م.

ولى طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث الصفار بعد هزيمة عمرو، وكان غرا صغيرا، نشأ على اللهو والعبث والصيد وغلب عليه سبك السبكرى - غلام عمرو بن الليث - فاستبد بالسلطة دونه، ولم يكن لهذا الأمير الصغير من الأمر من شىء ولم يكتف سبك السبكرى بذلك، بل قبض على الأمير الصغير وعلى أخيه يعقوب ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م، وبعث بهما إلى بغداد حتى لا يبقى له شريك فى الحكم.

على أن الأمور لم تَصفُ للسبكرى بعد تخلصه من الأمير الصفارى، ففى سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م سار الليث بن على بن الليث إلى فارس وتغلب عليها، وطرد منها السبكرى، فاستنجد السبكرى بالخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م) الذى أمده بجيش يقوده مؤنس الخادم سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م أوقع الهزيمة بالليث الصفارى وأسره. وعلى الرغم من وقوف الخلافة إلى جانب السبكرى إلا أنه امتنع عن إرسال الأموال إليها، فعملت الخلافة على التخلص منه، وانتزعت منه فارس سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م، فلجأ إلى سجستان فقصده الأمير أحمد بن إسماعيل السامانى، واستولى على سجستان، وقبض على سبك السبكرى، وعلى محمد بن على بن الليث الصفارى وبعث بهما إلى بغداد سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م؛ ومن ثم زالت الدولة الصفارية.

وصفوة القول أن الدولة الصفارية زالت بسبب جهود الخلافة العباسية المتصلة للقضاء عليها، والهزائم المتكررة التى منى بها الصفاريون من أعدائهم السامانيين، فقد هزم إسماعيل بن أحمد - كما ذكرنا - عمرو بن الليث وأرسله أسيرا إلى بغداد، وقضى ابنه أحمد بن إسماعيل على البقية الباقية من نفوذ الصفاريين، ونضيف إلى ما سبق تمرد قواد الدولة الصفارية على سادتهم وما ترتب على ذلك من ضعف الدولة الصفارية وانهيارها.



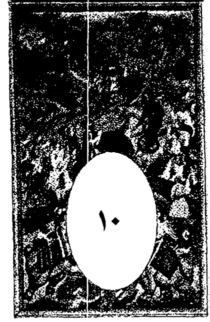
الدولة السامانية

تنتسب الدولة السامانية إلى أسرة فارسية ويرجع أصلها إلى سامان خوداه (بمعنى سيد قرية سامان فى منطقة بلخ) وكان فارسيا دخل فى دين الإسلام على عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، وعلى عهد الخليفة المأمون، تم تعيين أحفاد سامان الأربعة نوح وأحمد ويحيى وإلياس ولاة على سمرقند وفرغانة والشاش وهراة، فبدايتهم كانت ولاياتهم عن طريق الطاهريين، ثم إن أحمد السامانى أمير فرغانة عمل على أن يمتد نفوذه على سمرقند، وقد تم له ما أراد، ولما توفى خلفه عليها نصر بن أحمد السامانى (ابنه) سنة ٢٥١هـ/ ٨٦٥م. وقد ساد دولة السامانيين الهدوء والطمأنينة بعد أن كانت تعانى من الاضطرابات.

فعلى عهد الدولة السامانية، كانت البلاد الواقعة فى دائرة نفوذها وفى حوزتها مركزا لحضارة باهرة، فإذا كانت أراضى ما وراء النهر المنخفضة ومياهها الغزيرة تدر المحاصيل الوافرة، فبالإضافة إلى هذا كان هناك الوعى الدينى القديم عند الفرس فى محاولاتهم السابقة لإحياء عقائدهم القديمة بمحاولة جادة للخروج من استعباد السيادة العربية سياسيا ودينيا.

فإذا كان الفرس قد تفوقوا على العرب فى فن الإدارة وفى الثقافة تفوقا يفوق الحد منذ بداية الخلافة العباسية لاعتمادها على تلك العناصر الفارسية، مما يتضح معه عدم إمكانية إقصاء هذه العناصر عن المجتمع الإسلامى، ففى شرق الدولة الإسلامية فى آسيا كان هناك الشرف القومى الفارسى وعظمته والمجد التليد الذى قضت عليه الجيوش الإسلامية وجردت أصحاب هذه القومية من أراضيها فأخذوا يتغنون بقوميتهم فى سير حكامهم السابقين وأبطالهم، ولم ينس أبدا المسلمون فى آسيا ذو الأصل الفارسى هذه القومية، وظهر ذلك فى فن إنشاد الشعر، فظهر بروح جديدة فى بلاط السامانيين. فعندما تولى نصر الثانى بن أحمد السامانى عام ٣٠١هـ/ ٩١٣م ظهر فى عهده الشاعر الرودكى أول شاعر غنائى فارسى، وإن كان شعره لم يخل من الكلمات العربية بأوزان كأوزان جميع شعراء الفرس من بعده، مبتعدا عن القوالب العربية، فدعا فى منظومته إلى فلسفة فى الحياة تبعد عن كل مظاهر الكآبة.

وكان الرودكى يعد مؤسس الملحمة التعليمية وهى أخصب فروع الأدب الفارسى على الإطلاق، ونظم الرودكى قصة السندباد والوزراء السبعة شعرا فارسيا. وعلى عهد منصور بن نوح السامانى الذى حكم عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م ترجم الوزير البلعمى إلى اللغة الفارسية كتاب الطبرى الكبير فى تاريخ العالم، واضعا البداية لعلم التاريخ عند الفرس وسار فى الازدهار. ولا يستطيع



أحد أن ينكر دور قارة آسيا ومسلميها فى عالم المعرفة العلمية الخالصة، وهذا بظهور ابن سينا فيلسوفا وطبيبا شهيرا، وبدأ أول إنتاجه العلمى فى عهد الأمير السامانى نوح بن منصور الذى حكم عام ٢٦٦هـ/ ٩٧٦م وهو ثامن الأمراء السامانيين، فوضع ابن سينا باللغة العربية مؤلفاته الفلسفية، وكذلك وضع المرجع الأساسى فى علم الطب بأوروبا وهو كتاب القانون.

وفى بلاط الدولة السامانية أيضا وصل علم الجغرافية إلى أوجه العلمى، ففى بلاط إسماعيل السامانى (٢٧٩-٢٩٥هـ/ ٨٩٢-٩٠٧م) ألف الوزير الجيهانى كتابا بحث فيه الأمور المالية للبلدان المجاورة وإن كان لم يصلنا هذا الكتاب، كما وضع أبو زيد البلخى مصورا للجغرافية وجعله ذيلا لأطلس إسلامى قديم وضعه على أساس كتاب اقتبسه الخوارزمى عن جغرافية بطليموس.

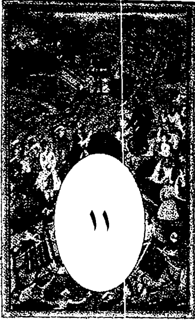


سلطانية خزفية - نيسابور - خوراسان/ إيران ص٤هـ/ ١٠م

وهذا الكتاب الذى وضعه أبو زيد تم تعديله ليطابق أحوال الدولة الفاطمية، وقد أضاف عليه أحد الأندلسيين إضافات أخرى لتلائم بلاده، وكان هذا الكتاب أيضا له أثره فيما وضعه المقدسى فى مصوره الجغرافى.

وما من شك فى أن الصراعات السياسية فى الدولة السامانية بين نصر بن أحمد السامانى وأخيه إسماعيل كان لها من الأثر فى وجود بعض الاضطرابات فى الدولة السامانية، غير أن هذا الخلاف قد انتهى بوفاة نصر بن أحمد السامانى عام ٢٧٩هـ. وآلت زعامة الدولة السامانية إلى أخيه إسماعيل الذى ظهرت الدولة السامانية فى عهده بمظهر القوة وقامت بدور بالغ الأهمية فى زوال الدولة الصفارية كما سبق ذكره.

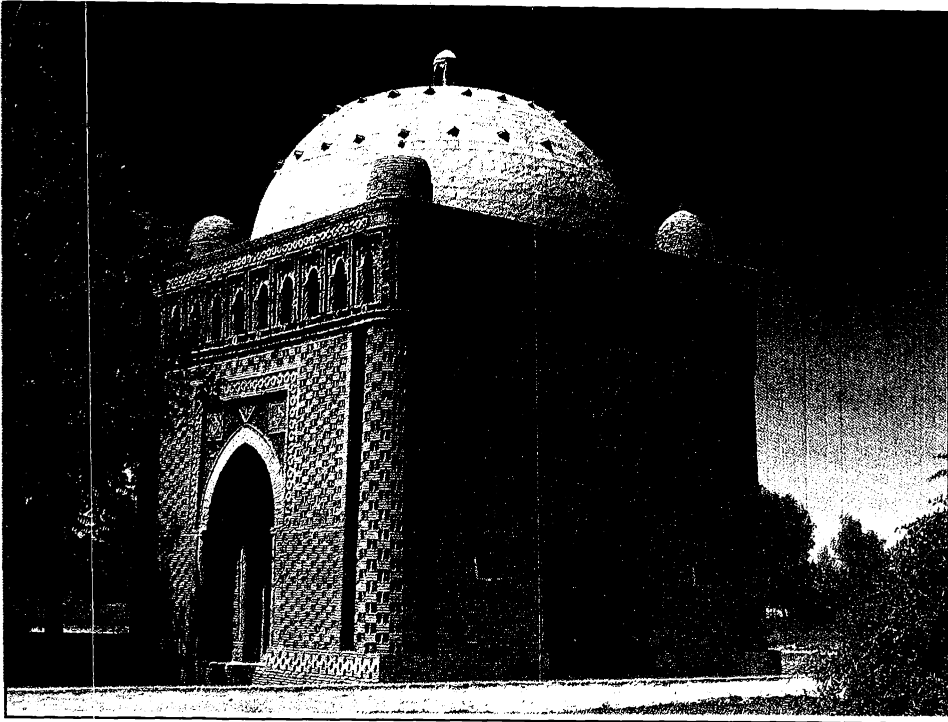
ومما لا شك فيه بأن الخلافة العباسية كانت تنظر بعين الشك والريبة إلى تلك الدولة الفتية الناشئة التى أخذت تزداد قوة ونفوذا فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية، فاتخذت الدولة العباسية سياسة ذات وجهين، فبينما فوض الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م) للأمير السامانى إسماعيل حكم بلاد ما وراء النهر، تآمر عليه سرا، وأرسل إلى عمرو بن الليث الصفارى يحرضه على التخلص من الأمير السامانى ولعل الخليفة العباسى كان يهدف من وراء ذلك إلى ضرب خصمين قويين له ببعضهما بقصد إضعافهما أو شغلهما عن الزحف إلى دولته، ومهما يكن



من أمر فقد استمرت الحرب بين الأمير الصفارى والأمير السامانى سنين عددا، وانتهت بانتصار إسماعيل وطارد جند إسماعيل جند الأمير الصفارى حتى اقتربوا من بلخ، فرأوا عمرا مع خادمين فقبضوا عليه سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م وسيق الصفارى إلى غريمه إسماعيل فأرسله إلى بغداد وظل بها حتى وفاته.

وارتفعت مكانة الأمير إسماعيل بعد هزيمته لعمرو بن الليث، وضم خراسان إلى حوزته، وفوض الخليفة المعتضد إليه حكم هذه البلاد، وقدم رسول الخليفة ومعه الخلع الفاخرة إلى الأمير السامانى فأكرم إسماعيل وفادته، ولم يلبث إسماعيل أن ضم طبرستان إلى دولته، بعد أن هزم أميرها محمد بن زيد العلوى الذى كثرت إغاراته على الدولة السامانية، ولم يكتف إسماعيل بذلك، بل ضم الرى إلى حوزته وبذلك أمن على حدود بلاده من ناحية الغرب، واستطاع إسماعيل بفضل شجاعته وقوة بأسه أن يمنع غارات الترك على بلاده ويجنبها ويلاتهم.

اتخذ إسماعيل من بخارى حاضرة لدولته وازدهرت فى عهد هذا الأمير، إذ أقام فيها المنشآت الضخمة والقصور المنيعة والمدارس، ووفد عليها العلماء ولقوا كل تشجيع من الأمير السامانى، وقد حكم إسماعيل أكثر من ثلاثين سنة أظهر خلالها العدل والإحسان بين رعايا دولته،



ضريح أحمد السامانى - بخارى - إيران/ ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م



وكان لا يتهاون مع عماله إذا ظلموا الرعية، ولأول مرة يتحد إيرانيو الشرق مع إيرانيى العرب فى دولة واحدة متماسكة العرى ذات إدارة قوية، وكانت خراسان تنقسم إلى أربعة أقسام: قسم عاصمته نيسابور، وقسم عاصمته مرو، وثالث عاصمته هراة، ورابع عاصمته بلخ. أما بلاد ما وراء النهر فتنقسم إلى خمسة أقسام: الصفد وله عاصمتان هما بخارى وسمرقند، وإلى الغرب من الصفد خوارزم، والقسم الثالث صفانيان، والرابع فرغانة، والخامس الشاش، وكان لعماله على هذه الولايات سلطات واسعة فى ولاياتهم.

لما توفى الأمير إسماعيل ٢٩٥هـ/٩٠٧م أخذت الدولة السامانية فى الضعف والانحلال، فقد انقسم البيت السامانى على نفسه طمعا فى السيادة والحكم، كما أن بعض رجال الدولة عملوا على تحقيق أطماعهم فى الوصول إلى السلطة وضعف شأن أمراء آل سامان حتى أصبحوا ألعوبة فى أيدى كبار الدولة، وقد أدى ضعف الدولة السامانية إلى ازدياد نفوذ الترك، فارتفع شأنهم بعد أن كانوا مجرد خدم وأتباع فلم يتمكنوا من القضاء على السامانيين فحسب بل نشروا نفوذهم كذلك فى الكثير من بلدان الدولة الإسلامية.

ولى الأمير أحمد بن إسماعيل الحكم بعد وفاة أبيه ٢٩٥هـ/٩٠٧م، وسار سيرة أبيه فى العدل والإحسان إلى الرعية، إلا أنه لم يكن مثل أبيه فى الحنكة الإدارية والمقدرة الحربية، لكنه استطاع القبض على عمه - والى سمرقند - الذى خرج عليه، واستولى على سجستان سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠-٩١١م وضمها إلى دولته ولم يستطع تخليص طبرستان من الأمير الحسن بن على الزيدى الملقب بالأطروشى، فقد تغلب على طبرستان وبلاد الديلم، وهدى الله على يديه الكثير من أهل هذه البلاد ممن كان على الوثنية أو المجوسية إلى الإسلام؛ ومن ثم التف أهل هذه البلاد حوله، وطرد منها والى السامانيين.

لم تطل ولاية أحمد بن إسماعيل، فقد راح ضحية مؤامرة سنة ٣٠١هـ/ ٩٠٤م بعد حكم دام ست سنوات، وخلفه ابنه نصر وكان فى الثامنة من عمره، فاستصغر الناس سنه واستضعفوه، وتنافس أمراء البيت السامانى على الوصول إلى الحكم، فشق عليه عمه إسحق بن أحمد عصا الطاعة، وانضم إليه بعض أفراد أسرته على اعتبار أنه أكبر أفراد الأسرة سنا، واستقل إسحق بسمرقند عن الدولة السامانية وبايعه أهلها، وخرج ابنه أبو صالح منصور بن إسحق فى نيسابور واستولى على بعض مدن خراسان، لكن لم ينعم هذان الأميران باستقلالهما عن الدولة السامانية كثيرا؛ ذلك لأن الأمير السامانى نصر بن أحمد استطاع أن يقضى على ثورة عمه وابن عمه ويعيد البلاد التى اغتصبها إلى حوزته، وأهم الحملات التى قادها الأمير السامانى لاستعادة نفوذه على



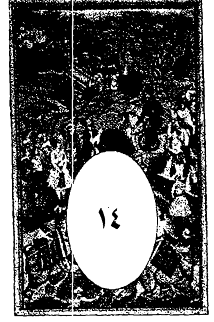
البلاد التى انتزعت من دولته، كانت على طبرستان، فقد زاد خطر العلويين بها، ومدوا نفوذهم إلى بعض بلدان خراسان فاستطاع الأمير نصر بن أحمد هزيمة العلويين فى طبرستان سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م وقتل قائدهم، وبفضل هذه الانتصارات استطاع الأمير السامانى استعادة نفوذ دولته على بلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس وطبرستان وكرمان وجرجان والعراق.

وقد ذاع صيته بفضل الانتصارات التى أحرزها، حتى أن الخليفة العباسى استنجد به، واعتمد عليه فى الضرب على أيدى عماله الخارجين عليه.

لما توفى الأمير نصر ٣٣١هـ/ ٩٤٣م ضعفت الدولة السامانية، حتى أن الأمراء طمعوا فيها، فاستقل كل منهم بناحية، فواجه الأمير نوح بن نصر - الذى خلف أباه - مصاعب كثيرة من جراء ذلك، فسار إلى نيسابور وقبض على أميرها أبى على الأصفهانى، وهزم المتمردين، وبدد شملهم وأسند حكم نيسابور لإبراهيم بن سيمجور، كما سار الأمير أبو إسحق أحمد، إلى بخارى وأظهر العصيان، فعاد الأمير نوح بن نصر إلى بخارى، واشتبك مع أبى إسحق أحمد، غير أن نوح بن نصر هزم، ودخل أبو إسحق بخارى ظافرا منتصرا سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م، وبايعه جميع أهلها وقرئت الخطبة على جميع منابر بخارى باسم أبى إسحق، على أنه لم ينعم بالحكم طويلا، إذ تمرد عليه جنده، وأعلنوا ولاءهم للأمير نوح بن نصر، وبذلك فشلت هذه الفتنة، وعاد الأمير نوح إلى حكم بخارى.

ومن أشد الصعوبات التى واجهت حكم الأمير نوح غزو ركن الدولة البويهى لبلاد الرى، واستيلاؤه عليها، ولم يلبث أبو على - القائد السامانى - أن طرد الأمير البويهى من الرى، على أن أبا علىٍّ نفسه انقلب على سادته السامانيين، فطمع فى إقليم خراسان، واستولى عليه، وأرسل إلى الخليفة العباسى تقليدا بحكم هذا الإقليم عام ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م، وبذلك انحسر النفوذ السامانى مرة أخرى، فلم يعد يتجاوز بلاد ما وراء النهر.

لما ولى الأمير عبد الملك بن نوح حكم الدولة السامانية سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م كان فى العاشرة من عمره، فجنح أمراء الولايات إلى الاستقلال بولاياتهم عن الدولة السامانية، ولم يقم بعمل من شأنه المحافظة على وحدة دولته، وتوفى سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م فخلفه أخوه منصور بن نوح، فأخذت الدولة فى الضعف بسبب خروج بعض القواد عليها، وازدياد نفوذ البويهيين الذين امتلكوا ما يقرب من نصف إيران، كما استقل خلفاء وشمكير بن زياد ببلاد جرجان وطبرستان، بينما اتسعت الدولة البويهية على حساب الدولة السامانية التى أخذت فى الضعف والانحلال، ولم يلبث السامانيون أن ألقوا بأنفسهم إزاء كل هذه الصعاب التى اعترضت سياستهم فى أحضان الدولة الغزنوية الناشئة حتى آل أمرها نهائيا للغزنويين.



وبذلك انقرضت الدولة السامانية التى ظلت تحكم آسيا الوسطى قرابة مائة وخمسة وأربعين عاما، وجدير بالذكر أن الحضارة الإسلامية ازدهرت فى عهد السامانيين حتى كانت بخارى وسمرقند وبلخ تحت حكمهم منارا للعلوم الدينية يفد إليها الطلاب للدراسة، وقد رحل المقدسى إلى إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر فى العهد السامانى، فامتدح السامانيين فى الحكم، وقال: إنهم أحسن سيرة، وهذا فضلا عما عرف عنهم من إجلال للعلم وأهله، فقد كان من مراسمهم ألا يكلفوا أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم، وقال المقدسى: فى وصف أهل خراسان فى العهد السامانى: إنهم من أشد الناس تمسكا بالحق، وهم بالخير والشر أعلم، كما أقر بعلمهم الكثير، وحفظهم العجيب، واستقرار الأمور فى خراسان، وانتشار الرخاء فيها.

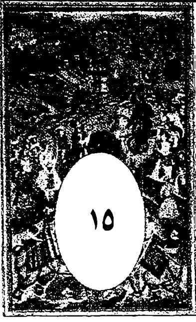


عُمله باسم مجد الدولة
أبى على بويه - ضرب الرى

لم تقتصر عناية الأمراء السامانيين بالعلوم الدينية، بل عنوا كذلك بالعلوم الأدبية والطبيعية، فنبغ فى عهدهم الرودكى - أول شاعر غنائى فى فارس - وهو مؤسس الملحمة التعليمية التى تعتبر من أخصب فروع الأدب الفارسى، وفى عهد الأمير منصور بن نوح ترجم إلى الفارسية كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبرى، ونجد ابن سينا الفيلسوف والطبيب الذى بدأ يظهر إنتاجه فى عهد منصور بن نوح، وبنوع خاص كتاب القانون فى الطب الذى كان المرجع الأساسى فى علم الطب فى أوروبا فى العصور الوسطى.



ابن سيناء



الدولة الغزنوية

كان اعتمـاد السامانيين على الأتراك قد بلغ مبلغا كبـيرا مما رفع شأن الأتراك، وزاد نفوذهم فى دولة آل ســامـــان، ومن المعـروف أن الأتراك من العنـاصـر التى كـانت مـصـدرا لـلقـلاقل والاضطرابات فى الدول التى استعانت بهم، ومن بينها الدولة السامـانية، فأضعفوها وعملوا على زوالها.

ومن أبرز هؤلاء الأتراك الذين ارتفع شأنهم فى الدولة السامانية «ألبتكين»، الذى كان يعمل فى الجيش السامـانى، وأخذ يرتقى فى سلك الوظائف حتى ولى منصب حاجب الحجـاب للأمير عبد الملك بن نوح (٣٤٣-٣٥٠هـ/ ٩٥٤-٩٦١م) فارتفع شأنه، وازداد نفوذه فى الدولة السامانية، حتى أننا نرى أن الوزير كان يأتمر بأمره، ويلتزم بتعليماته وتوجيهاته.

ولم تصف الأمور لألبـتكين، فلقد خـشى الأمير عـبد الملك بأسه، وعـول على إبعاده عن عاصمتـه، فأسند إليه ولاية خراسان فى عام ٣٤٩هـ/ ٩٦١م، ولما توفى الأميـر عبد الملك فى عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م تشاور الأمراء فى الدولة السامانية مع ألبتكين فـيمن يتولى الدولة السامانية، فوقع اختيار ألبتكين على عم الأمير المتوفى، ورفض اخـتيار منصور بن نوح خلفا لأخيه، إلا أن اقتراح ألبتكين صرف النظر عنه، إذ إن الأمراء قد ولوا منصورا دون انتظار رد ألبتكين؛ ومن ثم نشأ عداء بين الأميـر الجديد منصور بن نوح وألبتكين، ولـم تجد أو تسفر عن نتـيجة ما قـام به ألبتكين من محاولات التودد إلى الأمير السامانى.

وخشى الأمـير منصـور السامانى مـن أن ينقض عليه ألبـتكين فى خراسان فـاستـدعاه إلى بلاطه، ولما علم ألبتكين أن الأمـير السامانى يضمـر له السوء، رفض التوجه إليه، وأظهـر التمرد والعصيان فـعزله منصور عن خراسان، وأسند ولايتهـا إلى أبى الحسين سيمجور، فـقصد ألبتكين بلخا، وعـول الأمير السـامانى على إخضـاع هذا القائد الثائر، فـأرسل إليه جيشـا، اشتبك مـعه وهزمه، فتوجه ألبتكين إلى غزنة، وحاصرها واستولى عليها من حاكمها السامانى أبى بكر لوبك،



ولم يكتف بذلك بل غزا زابلستان وأقام بها إمارة مستقلة عن سادته السامانيين عاصمتها غزنة، على أن الأمير منصور السامانى لم يقف مكتوف اليدين إزاء تمرد ألبتكين، فبذل عدة محاولات لسحق تمرده، باءت كلها بالفشل، فكف عنه، وبذلك قوى شأن ألبتكين فى إمارته، وتوطد فيها سلطانه.

ولما توفى ألبتكين سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م خلفه فى حكم غزنة ابنه أبو إسحق إبراهيم - قائد جيوش خراسان السامانية - غير أنه لم يستطع السيطرة على مقاليد الأمور فى غزنة، إذ ثار عليه أهلها، وطردوه من بلدهم، فاستنجد بالأمير منصور بن نوح، فأمده بجيش مكنه من استرداد غزنة، وحكمها باسم السامانيين، وبذلك استرد السامانيون نفوذهم على غزنة.

على أن أبا إسحق لم يلبث أن توفى دون أن يترك وريثا يعقبه فى حكم غزنة، فحكمها بلكاتكين - أحد مماليكه - وضرب النقود باسمه فى غزنة سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م وخلف بيرى بلكاتكين، وهو فيما يبدو من أهالى غزنة، غير أنه لم يستطع القيام بأعباء الحكم فثار عليه الجند، وخلعوا طاعته، ونظروا فيمن يصلح لحكم غزنة، فلم يروا أفضل من سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه وكمال الخلال فيه وصرامته، ومما يجدر ذكره أن سبكتكين هو أحد موالى ألبتكين، وكان حاجبا لابنه أبى إسحق «وعليه مدار أموره، وبيده مناظم شئونه» وولى سبكتكين إمارة غزنة سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م.

ولما أفضى الأمر إلى سبكتكين، استطاع بحسن سياسته، وبعد همته اكتساب محبة الرعية وأمراء البلاد المجاورة له، ولم يلبث الخليفة العباسى أن اعترف بحكومته، فاصطبغ حكمه بهذا الاعتراف بالصبغة الشرعية، وتحققت أمنية له طالما اختلجت فى صدره، فتلقب بناصر الدولة، وبعث له الخليفة بالعقد والخلع التقليدية، وأصبح سبكتكين المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية الشرعية، وعلى الرغم من استقلاله الفعلى فقد ظل يظهر ولاءه للسامانيين.

ولم يكتف سبكتكين بحكم غزنة، بل عمل على بسط نفوذه على البلاد المجاورة، فبسط سيطرته على قصدار القريبة من غزنة كما سيطر على خراسان، وشرع فى غزو أطراف الهند، وسيطر على كثير من المعاقل والحصون هناك، فاتسعت ولايته، وعمرت أرض خزانته وأشفقت النفوس هيبته، وتوفى سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م وإليه يرجع الفضل فى وضع أساس إمبراطورية



الغـزنويين، إذ امتـد سلطانه إلى ناحـيـة الهند، حيث أسـس بها حكومـة فى بشاور، كما امتد نفوذه باستيلائه على خراسان وما إليها.

على أن الدولة الغزنوية كـانت لا تزال على ولائها للأمراء السـامانيين، يلتزمـون بالوقوف إلى جـانبهم ضد أى اعـتداء يقع عليـهم، ولما ازداد ضعف الأمراء السامـانيين وطمع فيهم أمراء البلاد المجـاورة لهم، لم ير الغزنويون بدا من الاستيلاء على البـقية الباقية من ملك آل سامان وتوسـيع رقعة دولتهم على حساب الدولة السامانية المتداعية.

ذلك أن الأمير السامـانى نوح بن منصور استاء من موقف أبى على سيـمجور - واليه على خراسان - الذى رفض إرسال الأموال المقررة عليه للأمـير السامانى، ولما خشى والى خراسان من عاقـبة تصـرفه مع الأمـير نوح بن منصـور حرض بفـراخان - ملك التـرك - على غزو بـخارى وانتزاعها من آل سامان لكن بفراخان بعد أن دخل بخارى لم يسـتطع البقاء فيها، فسار عنها وعاد الأمير نوح إليها.

على أن أبا علىّ اسـتطاع أن يضم إليه بعض الأمـراء المنشقين على الـدولة السامانـية ومن أبرزهم فائق، وأصبـحوا خطرا يهدد سيادة السامـانيين، فاستنجد الأمـير نوح على هؤلاء العصاة بالأمير سبكتكين سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م وولاه خـراسان، فاستجاب سبكتكين لمشيئـة الأمير السامانى وهبَّ لمساعدته فى التـخلص من أعدائه، وأعد العدة لذلك، أما أعـداء الأمير فاستنجـدوا بالأمير فخر الدولة بن بويه وسير إليهم عسكرا كثيفا، والتقى الأمير نوح ومعه سبكتكين وابنه محمود فى معركة ضد أبى على سيمجور وفائق بنواحى هراة، دارت فيها الدائرة على أعداء الدولة السامانية، سار الأميـر نوح وسبكتكين إلى نيسابور، واسـتولوا عليها واسـتعمل نوح على نيسـابور وجيوش خراسـان، محمـود بن سبكتكين، ولقبـه «سيف الدولة»، ولقب أباه - سبـكتكين «ناصر الدولة» وعاد نوح ظـافرا على أعدائه إلـى حاضرة دولتـه بخارى، بينمـا بقى سبكتكين فـى هراه، وأقام محمود فى نيسابور.

على أن أبا على وفائقا لم يركنا إلى الهزيمة، بل عـادا إلى الإغارة على خراسان، ففى سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م وفى ظاهر نيسابور اشتبك هذان القائـدان مع محمود بن سبكتكين - وكان فى قلة من الرجال - فانهزم وانسحب إلى هراة، ملتجئا إلى أبيه بعد أن تكبد خسائر فادحة.



أنف الأمير سبكتكين من الهزيمة التى لحقت بابنه محمود، وعول على إخضاع أعداد الدولة السامانية، فجمع جيشا كبيرا وسار نحوهم والتقى بهم فى طوس، واقتتلوا يوما كاملا وأنجد محمود أباه بمعسكر كثيف، وهزم الأعداء وقتل منهم خلقا كثيرا، ولاذ أبو على وفائق بالفرار.

وبذلك أمنت الدولة السامانية من شر هذا العصيان بفضل جهود الأمير سبكتكين وابنه محمود.

لكن الدولة السامانية لم تنعم بالأمن والسلام طويلا، فقد أخذت فى الضعف والانحلال مما أطمع أمراء البلاد المجاورة لها فى امتلاك بلدانها، وشجع هذا السلطان محمود بن سبكتكين على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السامانية، فلما ولى الأمير منصور بن نوح «بكتوزون» على خراسان سنة ٣٨٨هـ/ ٩٨٨م استاء محمود من ذلك، وأرسل إلى الأمير السامانى يذكره بمواقفه فى الذود عن الدولة السامانية ومناهضة أعدائها، وطلب منه أن يوليه خراسان لكن الأمير منصور رفض طلبه، وولاه بدلا من خراسان ترمذا وبلخا وما وراءهما من أعمال بست وهراة، فلم يقنع السلطان محمود بذلك، وعول على تحقيق مطامعه فى الدولة السامانية بالقوة المسلحة، فسار إلى نيسابور.

لما علم بكتوزون - والى خراسان - بمسير السلطان محمود إلى بلاده خشى الاشتباك معه، ورحل من نيسابور، فدخلها السلطان الغزنوى وامتلكها؛ لذلك غضب الأمير منصور من موقف محمود الغزنوى، وسار إلى نيسابور لاستردادها منه، وهنا حدثت مفاجأة كبرى لم تكن فى حسبان الأمير السامانى؛ ذلك أن بكتوزون انقلب على سيده، وانضم إلى بعض القواد السامانيين فى التآمر على الأمير منصور وقبضوا عليه فعلا، بل أمر بكتوزون بسمل عينيه وأقاموا أخاه عبد الملك مقامه فى ملك السامانيين وكان طفلا صغيرا.

لما رأى محمود بن سبكتكين مدى ما بلغه الأمراء السامانيون من ضعف ووهن ومدى طمع قادة الدولة فيهم، عوَّل على تنفيذ سياسته الرامية إلى توسيع دولته على حساب السامانيين، ورأى أن ذلك لا يتيسر إلا بالتخلص من القادة الطامعين فى الدولة السامانية، ومن أمراء آل سامان كذلك، فالتقى محمود الغزنوى بفائق وبكتوزون ومعهما عبد الملك بن نوح بمرو، فى معركة ضارية، دارت فيها الدائرة على أعداء محمود بن سبكتكين، واستطاع محمود أن يبعدهم عن خراسان ويستولى عليها ويضمها إلى حوزته، ويزيل كل أثر لحكم السامانيين.

على أن الأمير السامانى عبد الملك بن نوح لم يركن إلى الهزيمة التى ألحقها به محمود بن سبكتكين، بل عوَّل على محاربته وانتزاع خراسان منه، ففى سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م جمع فى بخارى



الأمراء المعادين للسلطان محمود وعلى رأسهم فائق وبكتوزون وأعدوا جمعا غفيرا للقضاء على خطر محمود ابن سبكتكين الذى أضعف نفوذهم، لكن خططهم باءت بالفشل، فقد توفى فائق - وهو من أقوى المعادين للسلطان محمود - ففت ذلك فى عضدهم، وأضعف من شأنهم، وزاد الأمر سوءا تعرض بخارى لأطماع أخرى ليست من قبل الغزنويين، بل من الترك؛ وذلك أن «إيلك خان» ملك الترك سار إلى بخارى وأظهر لعبد الملك أنه لم يقدم إلى بلده إلا للذود عنها والوقوف إلى جانبه ضد أعدائه، فظن عبد الملك صدق قوله، ولم يحترس منه، بل أمر بكتوزون وغيره من القواد بالخروج من بخارى واستقباله والترحيب به، لكن إيلك خان بعد أن استقبله قواد بخارى أحسن استقبال، غدر بهم، وقبض عليهم، ودخل بخارى، وكان عبد الملك بن نوح فى قلة من الجند؛ لذلك كان من اليسير على إيلك خان القبض على الأمير والاستيلاء على بخارى حاضرة السامانيين، وبذلك زالت الدولة السامانية.



محمود الغزنوى يحاصر إحدى القلاع

وعلى الرغم من انهيار الدولة السامانية، فإن بعض أمرائها عملوا على استرداد ملكهم السليب، ففى سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م فرَّ إسماعيل بن نوح السامانى من سجنه، واختفى فى أحد بيوت بخارى، ولما خشى من اكتشاف أمره، فرَّ إلى خوارزم، وتغلب عليها ولقب بالمنتصر، والتف حوله بقية قواد السامانيين، وجمع غفير من الجند، وبذلك قوى بأسه، وعظم خطره، عندئذ رأى الفرصة سانحة لاسترداد ملك آبائه وأجداده فسار على رأس جيش جمعه إلى سمرقند، وهناك دحر قوات إيلك خان ملك الترك - وغنم مغانم كثيرة، قوى بها شأنه وشأن أتباعه وأنصاره، وعاد إلى بخارى، فرحب به أهلها، وفرحوا واستبشروا لعودة السامانيين إلى الحكم،



ولم يستطع إيلك خان دفع الأمير السامانى عن بخارى فعظم شأن المنتصر السامانى واعتزم استرداد البلاد التى كانت خاضعة لبخارى أيام السامانيين فاستولى على أبيورد، وجبى أموالها، وسار نحو نيسابور وكان يحكمها منصور بن سبكتكين نائبا عن أخيه محمود فاشتبك الأمير السامانى مع الأمير الغزنوى فى معركة كان النصر فيها للأمير السامانى، وفرَّ منصور بن سبكتكين إلى هراة لا يلوى على شىء، واستولى المنتصر على نيسابور.

لما علم السلطان محمود الغزنوى بهزيمة قواته، واستيلاء السامانيين على بعض ممتلكاته، سقط فى يده، وخشى أن يعود السامانيون إلى استرداد البلاد التى آلت إلى دولته، مما يهدد دولته بخطر جسيم؛ لذلك سار على رأس جيش كبير إلى نيسابور، فلما اقترب منها، غادرها الأمير السامانى إذ خشى العاقبة، ولجأ إلى الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان وجرجان، فأكرم وفادته، ومما يجدر ذكره أن الأمير شمس المعالى كان من أتباع السامانيين المخلصين.

أمد أمير طبرستان وجرجان، المنتصر السامانى بجيش للمسير إلى الرى والاستيلاء عليها من حكامها المتنازعين فيما بينهم، وفعلا كان من اليسير على الأمير السامانى امتلاك الرى وشغل الفراغ السياسى بها، لكنه لم يستطع البقاء فى الرى طويلا بسبب الفرقة التى حدثت بين أتباعه، إلا أن المنتصر السامانى لم يكف عن محاولة استرداد ملك آبائه وأجداده على الرغم من الهزائم التى لحقت به، فاشتبك مع إيلك خان فى معركة دارت فيها الدائرة عليه، فاتجه إلى مرو، وكانت تتبع محمود بن سبكتكين، فخشى السلطان الغزنوى على إمارته من الأمير السامانى؛ لذلك سير إليه جندا لمنعها عنه، فغير الأمير السامانى وجهته إذ عاد إلى ما وراء النهر، لكن جند إيلك خان أجبروه على مغادرة هذه البلاد، عندئذ ضاقت عليه الأرض بما رحبت وظل يضرب فى الأرض، ويتنقل من مكان إلى آخر، وجند السلطان محمود الغزنوى فى أثره حتى نزل عند قبيلة موالية للسلطان محمود، فقبض رجالها عليه وقتلوه، وبموته غربت شمس الدولة السامانية.

وعلى ذلك تخلص السلطان محمود من آخر أمراء الدولة السامانية، وصفت البلاد له، ولم يعد ينازعه فيها أحد من آل سامان حكامها السابقين.

ومما لا شك فيه أن ما قام به حكام الدولة الغزنوية وحملاتهم فى بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقرا لهم يعتبر بدء حكم المسلمين الحقيقى لهذه البلاد؛ ذلك أن ملوك الغور الذين ورثوا الدولة الغزنوية تولوا سلطنة دلهى ونشروا نفوذ المسلمين فى أرجاء بلاد الهند الشمالية قاطبة.

ولا شك أن الإسلام انتشر بين الهنود نتيجة غزوات سلاطين بنى سبكتكين. ودخل الهنود فى الإسلام عن طوع واختيار، حقيقة ساهم التجار المسلمون بدور كبير قبل أن يعمل الغزنويون فى

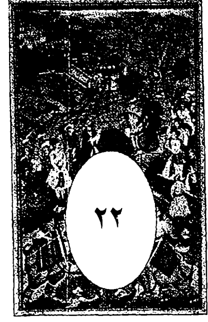


بلاد الهند على نشر الإسلام، وبنوا مساجد فى بعض مدن الهند، كما أن حكومة الملتان الإسلامية كان لها السيادة فى بلاد السند منذ الفتح العربى فى عهد بنى أمية، وكان لها نصيب فى نشر الإسلام فى هذه البلاد، ولكن ينبغى أن نؤكد أن السلاطين الغزنويين - وخصوصا محمود بن سبكتكين - كان لهم تأثير كبير على الهنادكة حتى أن جموعا غفيرة منهم أقبلوا على اعتناق الإسلام.

ومما يجدر ذكره أن الإسلام رفعت راياته ببلاد الهند، ففى سنة ٤١٠هـ حقق السلطان محمود الغزنوى انتصارا رائعا على هرداتا - أحد ملوك الهند - فوافق على اعتناق الإسلام، وتقدم إلى السلطان الغزنوى مع عشرة آلاف رجل معلنين إسلامهم، ومؤكدين رغبتهم فى التحول إلى الإسلام ونبذ عبادة الأوثان، ومما لا شك فيه أن بعض الهنود تحولوا إلى الإسلام رغبة فى التقرب لحكامهم الجدد، ولقى الإسلام ترحيبا كبيرا من الطوائف الفقيرة الذين كان حكامهم الآريون ينبذونهم ويحتقرونهم وينقصون من شأنهم، فأعلى الإسلام - دين المساواة - منزلتهم ورفع شأنهم.

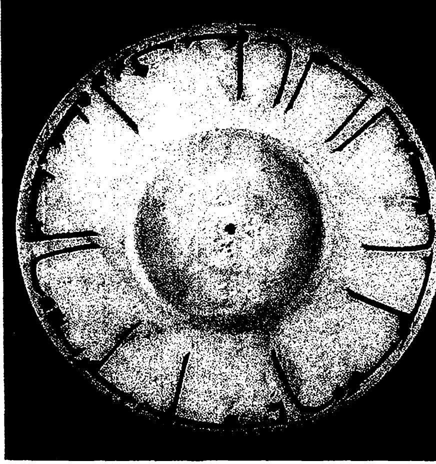
وكان من الوسائل التى نشرت الإسلام بين الهنود الفقهاء والوعاظ ودروسهم والعلماء والمتصوفة ورحلاتهم، ومن أبرز وأشهر هؤلاء الشيخ إسماعيل، وكان من أهل بخارى، وعرف بثقافته الدينية والدنيوية، وقدم إلى لاهور سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٥م وظل يدعو الناس بها إلى الإسلام ويعلمهم شرائعه، وقد وفد عليه كثير من أهل الهند للاستماع إلى مواعظه، وسرعان ما هدى الله الكثير من الناس إلى الإسلام على يديه.

ولما كان الغزنويون سنيين متشددين، فقد اعتنق الهنود الإسلام على المذهب السنى وحذوا حذو غزاتهم فى تعصبهم وتزمتهم، كذلك عرف أهل الهند اللغة الفارسية عن الغزنويين، والمعروف أن هذه اللغة نمت وازدهرت فى بلاط سبكتكين فى غزنة، كذلك وجد المتصوفون من الفرس والترك فى بلاد الهند خير موئل يلجأون إليه من بلادهم المضطربة، ولقيت الصوفية ترحيبا من أهل الهند الذين يميلون إليها بطبيعتهم، كذلك أثر الترك فى الهنود، والهنود فى الترك، كما نقل الترك إلى الهند الثقافة الفارسية ومظاهر الحياة التركية والفارسية، وبهذا انتشرت فى المجتمع الإسلامى بآسيا فى بلاد الهند اللغة الفارسية وهى لغة ثقافة العصر، واللغة الأوردية وهى خليط من الهندية والعربية والفارسية والتركية، ولم تنتشر اللغة العربية فى هذه البقاع، إذ كان العلماء الذين وفدوا على بلاد الهند من بلاد ما وراء النهر، وكانوا أتباع مذهب الإمام أبى حنيفة، واعتمدوا على كتب فقهاء هذا المذهب، كما كانوا شغوفين بعلوم اليونان القديمة والثقافة الفارسية، ولقد نشأ فريق من المولدين يمثل الحضارة الإسلامية، وهذا مزيج من الحضارات التركية والفارسية



والهندية، ينعم بالتسامح الإسلامى وينبذ التفرقة التى كانت من أبرز خصائص المجتمع الهندى من قبل، وظهر مفكرون يهاجمون الديانة البرهمية، واحترم الهنادكة عقائد المسلمين، كما أن المسلمين استفادوا من فلسفة الهند وتقدم علمائهم فى علم الفلك.

ومما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية ببلاد الهند قد تأثرت تأثرا كبيرا بالترك وعقيدتهم الإسلامية، وظهر هذا بشكل واضح فى انتشار الحجاب بين النساء، وتخلص المنبوذون من قيود النظام الطبقى وساهموا بحرية فى ميادين الحياة المختلفة من سياسة واقتصاد، وشهد الأدب الفارسى ازدهارا، ازداد بتوجه الأدباء الفرس إلى الهند، وأصبحت اللغة الفارسية لغة التأليف والكتابة للمسلمين.



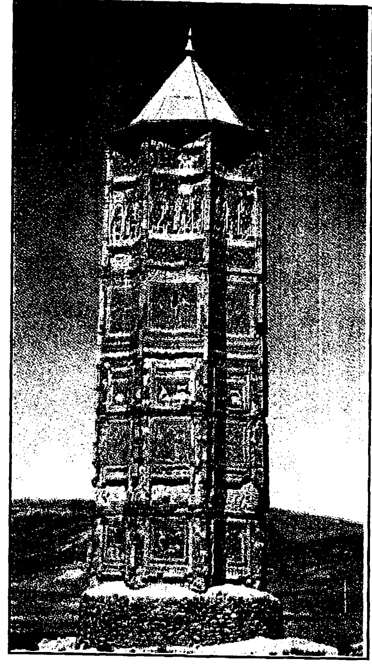
طبق خزفى - تركستان - القرن ١٠م/ ٦هـ

ومن الأمور الهامة التى نريد أن نوقف القارئ عليها هى النهضة الثقافية فى الدول الإسلامية بآسيا، فقد قدر لأمرائهم أن يحوطوا أنفسهم برجال العلوم والفنون، فقد كانت بخارى ومدن جنوب وغرب إيران مركزا للأدب فى عهد السامانيين، والرى وأصفهان فى عهد البويهيين، وقصور العلويين والزياريين فى ولاية طبرستان، وقصور ملوك خوارزم، فلقد كانت غزنة فى أواخر القرن الرابع الهجرى مركز إشعاع كبير فى جنوب شرق آسيا، يعلو شأنه على المراكز السابقة، وذلك بفضل تشجيع السلاطين الغزنويين، فقد ضم بلاط الغزنويين كثيرا من العلماء منهم على سبيل المثال:

البيرونى:

وهو عالم جليل، يعد وحيد عصره، وأحد كبار علماء الدنيا الإسلامية واسمه أبو الريحان محمد البيرونى، فقد دخل فى خدمة محمود الغزنوى سنة ١٠١٧م، ومن غزنة قام البيرونى بالعديد من الرحلات العلمية إلى البلاد الهندية، وتعلم البيرونى اللغة السنسكريتية على يد عدد من العلماء الوطنيين، فانفتح أمامه باب الثقافة الهندية ينهل منها ما شاء الله له من الناحيتين العلمية والدينية، فبدأ عام ١٠١٧م فى تأليف كتابه الشهير عن الهند الذى يعد بوصفه صورة كاملة عن عالم ثقافى وهو «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل ومرذولة»، كما وضع كتابا آخر



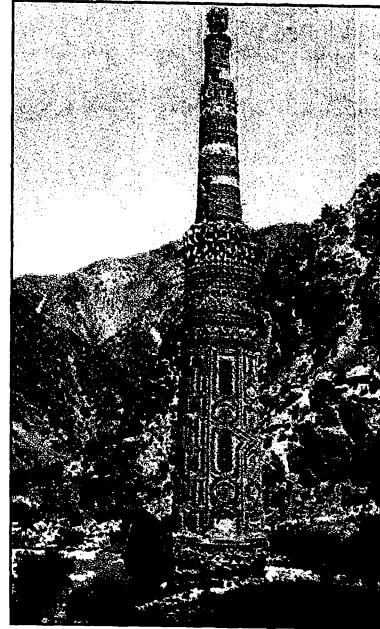


قبر مسعود الثالث
غزنة ١٠٩٩ : ١١١٥م



صفحة من كتاب البيرونى تاريخ العالم

ألفه بجرجان هو «الآثار الباقية عن القرون الخالية» وذلك عام ١٠٠٠م، استعرض فيه البيرونى تاريخ الشعوب كلها، ولقد نبغ البيرونى فى كثير من العلوم وخاصة الرياضة والفلك، وكان يزهد فى المال إلا ما يكفيه حاجته وأهدى كتابه «القانون المسعودى» للسلطان مسعود الغزنوى، ويبحث هذا الكتاب فى الرياضة والفلك وفلسفة الهند، فأجازه السلطان بأموال كثيرة، فردها معتذرا بعدم حاجته إليها، وقيل عن البيرونى أن القلم لم يكد يفارق يده، وعينه النظر، وقلبه الفكر إلا فى الأعياد، ولا يمل الاستزادة من العلم، وقد تعلم عدة لغات، ففيما كتبه عن العقاقير والجواهر ذات الأسماء بالعربية واليونانية والسريانية



منارة برهام شاه
غزنة -(١١٦٣:١٢٠٣م)



والفارسية والتركية، ويقارن بين اللغات مقارنة دقيقة، فيمدح اللغة العربية بحسن أدائها للمعانى، ويفضلها عن اللغة الفارسية.

وكان البيرونى على علم تام بمدارس بغداد والبصرة، وكانت نظرياته تفوق نظريات العلماء المعاصرين له، وظل مؤمنا بالتنجيم، مشاركا معاصريه فى ذلك، وكانت مكانته ممتازة بتطبيقه الأصول العلمية، فكتبه كانت للعلماء لا للعوام.

وخلاصة القول أن البيرونى كان من كبار العلماء الذين ظهروا فى القرنين الرابع والخامس الهجريين، فلم يترك علما يؤلف فيه إلا وكان أسبق إليه، ووضع كتبا بالعربية على اعتبار أنها أكثر طواية للعلم ومصطلحاته من اللغة الفارسية.

البيهقى:

هو أبو الفضل محمد بن حسين البيهقى، من أبرز رجال الأدب والتاريخ فى الدولة الغزنوية، ولد فى قرية بيهق فى الجنوب الشرقى لخراسان حوالى سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م وتوفى فى صفر سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، بدأ البيهقى حياته فى نيسابور، وتثقف بها ثقافة دينية وأدبية كبيرة اشتملت على علوم القرآن والحديث، وارتبط بروابط وثيقة برجال العلم والأدب، ومن أبرز كتبه كتابه الذى وضعه عن الدولة الغزنوية، ويعد أهم مرجع فى تاريخها على عهد السلطان مسعود بن محمود، ومن يقرأ هذا الكتاب يشعر بسعة اطلاع مؤلفه البيهقى، وعمق ثقافته، وإحاطته الكاملة باللغتين العربية والفارسية، وله أشعار باللغة العربية.

وترجع أهمية كتاب البيهقى إلى أن صاحبه كان معاصرا للأحداث التى كتب عنها، والبيئة التى حدثت فيها، ولم يكتف بالأحداث التاريخية كعادة معاصريه من المؤرخين، وإنما كان يتوقف فى سرده للأحداث ليبدى رأيه ورأى الوزير ورئيس الديوان، وينقل صدى الأحداث عن الرأى العام للغزنويين.

الفردوسى:

من أبرز شعراء وأدباء العصر الغزنوى، وقد اقترن اسمه بالشهنامة التى شرع الدقيقى فى نظمها، واغتاله أحد عبيده ليلا؛ لذلك فإن الدقيقى سبق الفردوسى فى نظم الشهنامة، فنظم ألف بيت، وزاد الفردوسى ستين ألفا. ويقول الفردوسى: «فلما قرئت هذه القصص على الناس أولع بها العقلاء والحكماء، حتى ظهر فتى فصيح اللسان، قوى البيان، ذكى الفؤاد، فقال: سأنظم هذا

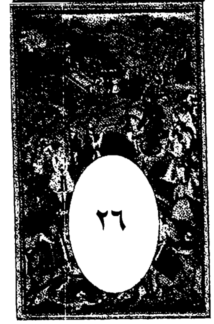


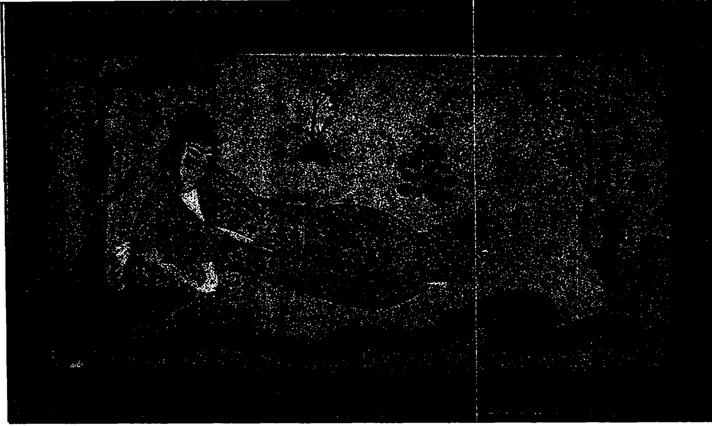
الكتاب، ففرح الناس واستبشروا، لكنه لـم يتمكن، إذ قتله أحد عبيده بعد أن نظم ألف بيت فقط».

وكان الفردوسـى كلما فرغ من قصة أو مـجموعة قـصص بعث بها إلى السلطان محمود الغزنوى، وتتضمن الـشهنامة أخبار الفرس القدامى ورواياتهم الشعبيـة، وتوجه بها إلى الوزير أحمد حسن الميمندى، فـقدمها إلى السلطان، وكـان هناك منافسـون لهذا الـوزير، أوغروا صـدر السلطـان محـمـود على الفردوسـى، فأرسل السلطان مـبلغا قليـلا من المال لا يتناسب مع الجهـد الذى بذله هذا الشـاعر الكبير، فرحل الفـردوسى من غزنة عاصمة الدولة الغزنوية ومقر حكم مـحمود الغزنوى، وذهب إلى هراة، ومنها رحل إلى طبرستان، وكتب مقدمـة الشهنامة مائة بيت فى هجاء السلطان محمود الغزنوى، وأهدى الكتاب إلى شهـريار أمير طبرستان وجرجان، وقـال الفردوسى: «سأحول إهداء هذا الكتاب من اسم محمود إلى اسمك، فإن هذا الـكتاب كله أخبار أجدادك ومآثرهم». فتلطف شهـريار به، وأكرمـه، وحذف أبيات الهـجاء منهـا، إذ كان يخشى بأس مـحمـود، وأغدق على الفردوسى الأموال حتى أرضاه.

ولم يلبث أن أدرك السلطان محمود الغزنوى أهمية شـاعرنا الفردوسى، فحاول استرضاءه، وأرسل إليه رسولا يطلب منه العودة إلى غزنة، لكن القدر لم يحقـق رغبة السلطان محمود، فقد توفى الفردوسى فى أثناء ذلك.

وعلى الرغم مما بلغـته الدولة الغزنوية من مكانـة مرموقة فـى العلم والثقافـة، وظهر فيـها العلماء والشعراء الذين لم يـجود الزمان بأمثالهم، فإن هناك عدة عـوامل تجمعت أدت إلى ضعف هذه الدولة وانهيارها فى آخر الأمر، ومن أبرز هذه المحاولات، المحاولات المتكررة التى بذلها ولاة الأقاليم للاسـتقلال بولايـاتهم، هذا علاوة على الصراع بين الأمـراء الغزنويين أنفـسهم من أجل الوصول إلى السلـطة والنفوذ، بالإضافـة إلى ظهور الأتراك السلاجـقة، وارتفـاع شأنهم، وازدياد قوتهم وسـعيهم إلى توسـيع ممتلكاتهم على حسـاب الدولة الغزنوية، كـما أن الغور خـرجوا من عزلتهم الجبلية، وعملوا على مـد نفوذهم فيما وراء حصونهم، وكان خير ميدان لتنـفيذ سياستهم هو أراضى الدولة الغزنوية التى أخذت فى الضعف والانحلال.





صورة بلقيس ملكة سبأ - من الشاهنامة - للفردوسى



يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين كانوا يقيمون فى الصحراء الواسعة الشاسعة التى تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين، وكثرت هجـراتهم إلى شواطئ جيحون وخصوصا فى وقت انهيار الدولة السامانية حيث المراعى الوفيرة.

أظهر السلاجقة نشاطا ملحوظا فى الجهات الجديدة التى هاجروا إليها فـقاموا بالذود عنها فى صد خطر كفار التـرك من بنى جلدتهم، واشترك السـلاجـقـة فى الصـراع المرير الذى حـدث بين القرهخانية والسامـانيين حول السيادة على بلاد ما وراء النهـر، وانضموا إلى جـانب السامـانيين فى القتـال الذى دار بينهم وبين أعدائهـم، وقد تمكن سلجوق من خلال هذا الصـراع من السيطرة على منطقة خصيبة فى بلاد ما وراء النهر، وضمها إلى إمارته الناشئة.



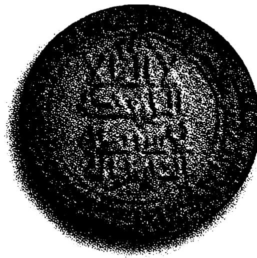
طبق فضى عليه اسم السلطان ألب أرسلان



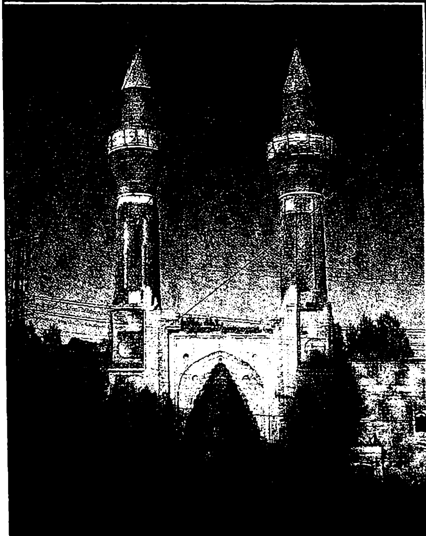
وبعد أن تمكن السلاجقة بمنازلهم بخراسان ضايقوا أهلها فشكوا إلى السلطان محمود الغزنوى فسار إلى خراسان سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م ومزق شملهم فيها، إلا أن الحال تغيرت وتبدلت بانتصار السلاجقة على الغزنويين وتمكنوا من خراسان مرة أخرى وهزم طغرل السلطان مسعود الغزنوى فى موقعة داندانقان سنة ٤٣١هـ وسيطر على خراسان، وبذلك قامت الدولة السلجوقية.

ولما توفى طغرلبك خلفه ابن أخيه ألب أرسلان الذى أوصى لابنه ملكشاه بالحكم بوصاية الوزير نظام الملك، ولقد حاول ملكشاه عندما آل إليه الحكم التخلص من نفوذ وزيره نظام الملك، فدوام الحال من المحال، وتفسير هذا يرجع إلى رأى نظام الملك بأن بركياروف الابن الأكبر للسلطان ملكشاه هو الأحق بولاية العهد، ورفضت تركان خاتون زوجة ملكشاه هذا الرأى، ورشحت ابنها محمود لولاية العهد، وأدى ذلك لتدهور العلاقة بين السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك.





عُملة باسم طغرل بك



مدرسة چوك - سلجوكية

هذا بالإضافة إلى ما قام به الوزير نظام الملك من إسناده حكم ولايات الدولة السلجوقية إلى أبنائه وأحفاده وأقاربه، وكان بعضهم سيئ السيرة فأساء فى تصرفاته تجاه الرعية، الذين رفعوا شكاياتهم للسلطان، الذى أرسل رسالة للوزير يؤنبه، ويقبح تصرفه، وكان الوزير قد جاوز الثمانين من عمره، فأرسل الوزير نظام الملك رسالة للسلطان قائلا فيها: «إن الذى وضع التاج على رأسك قد وضع القلنسوة على رأسى».

ونتيجة لهذه الخلافات الشديدة أمر السلطان بعزل وزيره، إلا أن نظام الملك قد قتل بعد عزله فى



شهر رمضان سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٣م بالقرب من نهاوند، فقد اغتاله شاب ديلمى، وهو داخل إلى مخيمه من طائفة الإسماعيلية، حين أرخى الليل سدوله؛ ذلك لأن نظام الملك كان شديد العداء والتنكيل بهذه الطائفة، ولم يلبث أن توفى ملكشاه بعد مقتل وزيره بشهر واحد، وأخذت الدولة السلجوقية فى الضعف والانهيار بعد وفاة ملكشاه، ومن أهم أسباب هذا الضعف تنافس الأمراء السلاجقة حول الوصول إلى عرش السلطنة، الأمر الذى أحدث انقساما شديدا بين أبناء البيت السلجوقى، وبدأت هذه الخلافات بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ. وما من شك فى أن الخوارزميين قد أقاموا دولتهم على حساب دولة السلاجقة، فعلى عهد السلطان سنجر استطاع الخوارزميون الاستقرار فى بلاد ما وراء النهر، واشتبكوا مع سنجر فى عدة حروب أنهكت قواه، وكانت القاصمة عندما اشتبك طغرل السلطان السلجوقى مع تكش السلطان الخوارزمى وانتصر الثانى على الأول، واستولى على ملك السلاجقة فى العراق، واستولى على أصفهان والرى.

نظام الملك:

ازدهرت الحضارة الإسلامية فى الدولة السلجوقية، فانتشرت المكتبات فى المدن الكبرى، وتقدم فن الوراقة، ويقصد به نسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها وكل ما يتعلق بإخراج الكتاب، وكان الوراقون يبيعون هذه الكتب فى دكاكينهم، والمهتمون بالحياة الثقافية يترددون على هذه الدكاكين للقراءة أو لشراء ما يلزمهم من الكتب والمصنفات، وكانت الدراسة الابتدائية تتم فى هذه الكتاتيب، أما الدراسة المتخصصة فكان مقرها المسجد أو المدارس التى أنشأها نظام الملك، وسميت بالنظامية وأهمها مدرسة بغداد، وبلغ من اهتمام الخليفة العباسى بها أنه كان يعين الأساتذة بها بنفسه، ومن المواد التى درست بها الفقه والحديث، وبرز فيها علماء أجلاء مثل الغزالى، وشهدت المجالس العلمية فى المساجد والدور والمدارس مناظرات علمية بسبب تعدد المذاهب الإسلامية، وحرص العلماء على القراءة والاطلاع حتى يتمكنوا من دحض حجج معارضيهم، وشهدت السلجوقية حركة ترجمة نشيطة من الفارسية واليونانية إلى العربية، ومن العلماء الأجلاء الذين لعبوا دورا كبيرا فى ازدهار الحياة الثقافية فى العصر السلجوقى الوزير نظام الملك وكان عالما جوادا، وكان مجلسه عامرا بالقراء والفقهاء وأئمة



تمثال لأمير سلجوكى



المسلمين وأهل الخير والصلاح، وأمر ببناء المدارس فى سائر أرجاء الدولة، وأجرى لها الجرايات العظيمة، وصنف كتاب سياسة نامه، وكان ملكشاه قد عهد إلى كبار رجال دولته بأن يؤلف كل واحد منهم رسالة فى الحكم يبين فيه أنواع المفاسد والمحاسن التى انتشرت فى أرجاء الدولة، وإدارة أقاليمها، والبدع التى ظهرت وعمت بين الناس، وما أهمله الناس من عادات طيبة، وألف نظام الملك رسالته، وأعجب بها ملكشاه، وفضلها على غيرها من الرسالات، ولأجل هذه الرسالة اتخذه هاديا وناصحا ومرشدا، ويشتمل الكتاب على قدر كبير من الروايات التاريخية والآراء السياسية وكتب بلغة فارسية سهلة.

ناصر خسرو:

ومن أعجب رجال هذا العصر ونوابغهم الشاعر الرحالة ناصر خسرو، الذى زار مصر فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر، واعتنق في القاهرة المذهب الإسماعيلى، ومكث فى مصر بضع سنين، وصنف كتاب سفرنامه، وصف فيه رحلته إلى مصر، ووصف القاهرة ومساجدها بما فيها الجامع الأزهر، كما وصف حاراتها وحدائقها ومبانيها، وتحدث عن التنظيمات الإدارية فى مصر الفاطمية ونظام الجيش، وعاد إلى بلخ يدعو الفاطميين، ولقب حجة خراسان، وحاول خصومه قتله، فهرب منهم إلى بعض الجبال حيث بقى عشر سنوات يأكل العشب والماء، وله ديوان أبرز فيه آراءه الدينية والفلسفية وكلها توضح تماما عقيدته الإسماعيلية، ويتضح فيها اتخاذه التأويل الذى اعتاده الباطنية، ومن أهم مؤلفاته كتاب «روشنائى نامه» أو كتاب الضياء، و «سعادت نامه» أى كتاب السعادة، وأما الكتاب الثالث فهو «زاد المسافرين».

عمر الخيام:

اشتهر الشاعر عمر الخيام برباعياته التى أنشدها بلهجته الخاصة، وكان فيلسوفا وعالما بالنجوم، وقد اشترك فى وضع التقويم الجلالى فى مدينة أصفهان سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م بتشجيع من نظام الملك، ودفن فى مدينة نيسابور، وقد وصف عمر الخيام بأنه من حملة العلوم اليونانية، أى الحكمة والفلسفة، ومما هو جدير بالذكر أن رباعياته قد نقلها فيتزجرالد Fitzgerald إلى الشعر الإنجليزى بتصرف، كما عرفها الألمان من الرجل السياسى روزن Rosen.

توفى عمر الخيام فى الفترة ما بين سنة ٥٠٩هـ و ٥٣٠هـ، وتبلغ مؤلفاته عشرة كتب بما فى ذلك رباعياته المعروفة وزيج ملكشاه الذى اشترك فى وضعه، وأغلب الرسائل عبارة عن رسائل علمية أو فلسفية مكتوبة باللغة العربية، وقد نهج بعض الأدباء فى ذلك العصر منهج عمر الخيام فى رباعياته.



طبق خزفى محفور وملون (لقب)
ق٦هـ/ ١٢م سلجوقى إيران



تمثال عُمر الخيام - إيران

ونتهى من هذا إلى أن الدولة السلجوقية شهدت نهضة ثقافية وعمرانية كبيرة، وعنى سلطانها ملكشاه بمدينة أصفهان، وأصبحت فى عهده من أهم مدن العالم وأكثرها عمرانا، وشيد فيها كبار رجال الدولة القصور والدور الفخمة.

الدولة الخوارزمية

أسس الدولة الخوارزمية «توشتكين» أحد الأتراك ملكشاه، وكان يشغل وظيفة الساقى، وما زال يترقى فى سلك الوظائف، كما اختار «بركياروق» ابن توشتكين وكان يدعى محمدا حاكما على إقليم خوارزم ولقبه خوارزمشاه سنة ٤٩٠هـ وكان حاكما عادلا، فقد قضى أوقاته بنشر العدل، وقرب أهل العلم والدين، فازداد ذكره حسنا، ولما ملك السلطان سنجر السلجوقى خراسان، أقر محمدا هذا على إقليم خوارزم وأعمالها، فظهرت شجاعته وكفايته، وعظم سنجر قدره، ولما توفى محمد خوارزمشاه خلفه ابنه «أتسز»، فمد ظلال الأمن وأفاض العدل، وعمل أتسز على توسيع رقعة دولته على حساب الدولة السلجوقية التى كانت فى أواخر أيامها، وانتهز أتسز تهديد «الخطا» للسلاجقة، وإن كان سنجر قد هزمه إلا أن أتسز جمع قواته، واستغل فرصة



استغلال الخطا لبلاد ما وراء النهر، وقام بالاستيلاء على خراسان، وجلس على عرش السلطان سنجر السلجوقى، واستولى على ماله وجاهه سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، وقام أتسز بقطع الخطبة للسلطان سنجر، إلا أن سنجر استرد إقليم خراسان عام ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م وتعهد أتسز بالاعتراف بسيادة الدولة السلجوقية.

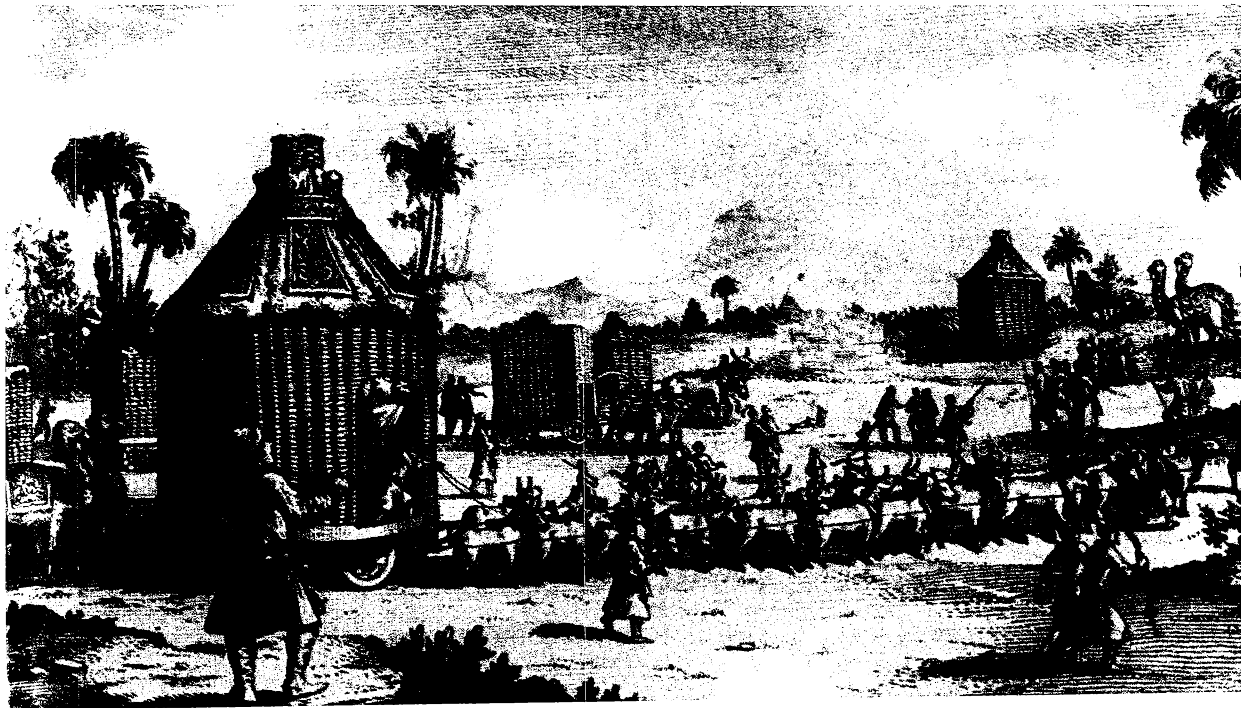
على أن الدولة الخوارزمية أخذت تزداد قوة، بينما أخذت الدولة السلجوقية فى الضعف والانحلال بعد وفاة السلطان سنجر، ومدت الدولة الخوارزمية نفوذها على البلاد التابعة للسلاجقة، واستطاع السلطان الخوارزمى تكش من أن يهزم ويقتل آخر سلاطين السلاجقة، ويستولى على مُلك السلاجقة فى العراق، واستولى على أصفهان والرى أيضا.

ولما توفى تكش فى عام ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م خلفه ابنه علاء الدين محمد خوارزمشاه، وسار على سياسة أبيه فى توسيع حدود دولته، فاستولى على معظم إقليم خراسان، واستطاع أن يهزم الخطا سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م ويبسط سيطرته على بلاد ما وراء النهر، وأيضا على الأقاليم الواقعة غرب نهر السند وعلى ممتلكات الغور فى أفغانستان، وبذلك بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها فى عهد السلطان علاء الدين خوارزمشاه، إذ امتدت من حدود العراق العربى غربا إلى حدود الهند شرقا، ومن شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالا إلى الخليج الفارسى والمحيط الهندى جنوبا.



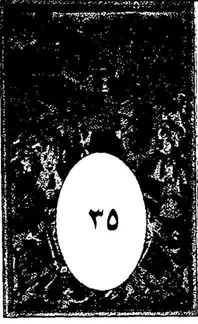
امرأة تقدم مظلمة للسلطان سنجر

ولقد جاورت الدولة الخوارزمية دولة المغول، وكان لابد من الاحتكاك بين الدولتين، ودخلا فى صراع أفضى فى النهاية إلى سقوط هذه الدولة على يد المغول. فقد تطلع جنكيزخان بعد أن وحد القبائل المغولية تحت سيطرته إلى توسيع رقعة دولته الوليدة، وكان المجال الحيوى أمامه بلاد الصين جنوب دولته، حيث الرخاء والازدهار، فشن عدة حملات على إمبراطورية كين، واستولى على بكين عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، وصارت إمبراطورية المغول



خيام المغول

چنكيز خان



وتسلم چنكيز خان القلعة، وأمر أعيان المدينة وتجارها بالاجتماع معه، وجردهم جميعا من أموالهم، وطردهم من المدينة، وقتلوا كل من صادفوه فى بخارى من أهلها بعد ذلك، ونهبوا البلدة «وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من النساء والرجال والولدان وتفرقوا أيدى سبأ ومزقوا شر ممزق» وساروا إلى سمرقند، وأمامهم الأسرى مشاة على أقبح صورة، وكل من عجز عن المشى قتل، وحاصروا سمرقند، وبها الكثير من الجند الخوارزمى، وأعد أهل سمرقند العدة لمقاومة المغول، ودار قتال شديد بين الفريقين، هلك فيه أكثر الجند الخوارزمى، الأمر الذى أضعف مقاومة أهل سمرقند، وطلبوا الأمان، وأجابهم المغول إلى طلبهم، وفتحوا أبواب البلدة، وطلبوا من أهلها تسليم أسلحتهم وأمتعتهم ودوابهم، ففعلوا تجنبا للقتل، ولكن المغول - كعادتهم وحبهم لسفك الدماء - أعملوا السيف فى رقاب الأهلين، حتى أفنوهم عن آخرهم، ودخلوا البلد، ونهبوا ما فيه، وأحرقوا الجامع، وبذلك دخلت سمرقند فى حوزة المغول سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م.

وبعد أن امتلك المغول بخارى وسمرقند، أعد جنكيزخان جيشا يتألف من عشرين ألف مقاتل، وأمر قائده بالتوجه إلى خوارزمشاه والبحث عنه أينما وجد «ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه» فسارت الجيوش تتعقب خوارزمشاه الذى أخذ يضرب فى الأرض، وينتقل من بلد إلى بلد، وجند المغول تطارده، وانتهى به المطاف إلى« الاستنداد» - وهى من أمنع النواحى فى إقليم «مازندران» - وباغته المغول، فلجأ إلى إحدى جزر بحر قزوين، وقد انتابه اليأس من الحياة، ومرض، وكان يقول: «لم يبق لنا مما ملكناه من أقاليم الأرض قدر ذراعين نحفر فنقبر، فما الدنيا لساكنها بدار، ولا ركونه إليها سوى انخداع واغترار» وأقام بالجزيرة فى عزلة تامة يعانى المرض، وكان أهل مازندران يقدمون إليه كل ما يشتهى، وقبل وفاته سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م أوصى بالسلطنة من بعده لابنه جلال الدين، وولى جلال الدين منكبرتى السلطنة بعد أن سيطر المغول على بلاد ما وراء النهر - أهم أجزاء دولته المتداعية وامتلكوا إقليم «مازندران» رغم حصانته ومناعته، ثم اتجهوا إلى الرى، وفى الطريق التقوا بالملكة «تركان خاتون» والدة السلطان علاء الدين - وقد غادرت خوارزم على أثر تهديد المغول، ولم تر فيه دار قرار واستصحبت ما أمكنها استصحابه من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه، وقبض المغول عليها، واستولوا على ما معها من ثروات هائلة، وكذا قضت هذه الملكة أيامها الأخيرة فى أسر المغول، وجدير بالذكر أن تركان خاتون كانت ذات مهابة ورأى، تنظر فى المظالم، وتحكم فيها بالعدل، وتنصف المظلوم من الظالم، ولها إصلاحات كثيرة، وكان لها من كتاب الإنشاء سبعة من مشاهير الكتاب.



باغت المغـول الرى عـلى حين غـفلة من أهلهـا وملـكوها ونهـبـوها، واسترقوا نسـاءها، وقتلوا أطفالها، ثم غادروها فى طلب خـوارزمشاه، وعاثوا فى البلاد التى مروا بها نهبا وفسادا، واقـتربوا من همذان، فقدم أهلها للمغول الأموال والهـدايا حتى كـفوا عن قـتلهم، وسيطر المغـول على هذه البلدة، ثم زحفـوا إلى قزوين، وامـتلكوها عنوة وقهـرا؛ وبذلك سيطر المغـول على بلاد العراق العجمى.

أثار المغول الرعـب فى بلدان الدولة الخوارزميـة، حتى أن اقـترابهم من مدينة أو قـرية، يثير الفزع فى النفـوس، فيهـجرون بلدانهم، أو يقدمون فـروض الولاء والطاعة لأعدائهم، وبذلك استسلمت البلاد الإسلامية للمـغول فى سهولة ويسر، إلا أن استسلام الأهلين لم ينجهم من بطش المغول وويلاتهم، وظل المغـول يواصلون تقدمهم حتى بلغوا تبـريز - عاصمة أذربيجـان - ويحكمها «أوزبك بن البـهلوان»، وهو شيخ بلغ من العـمر أرذله، يقضى وقـته فى الشراب، ولا يكاد يفيق، ولما اقترب المغول من بلاده، أرسل إليهم المال والهدايا والثياب والدواب وصالحهم، ثم اتجهـوا إلى ساحل البحر حيث المراعى الكثيرة الـلازمة لدوابهم، وواصلوا سيرهم حتى بلغوا موقان، ودخلوا فى معارك حامية مع أهالى بلاد الكرج وهزموهـم، وامتلكوا مراغة سنة ٦١٧هـ وبذلك سيطروا على أذربيجان وبلاد الكرج.

شرع جنـكيزخان بـعد أن امتلك بـلاد ما وراء النهـر وبلاد العراق العـجمى وأذربيـجان إلى السيطرة على خـراسان وخوارزم حـتى يتم له السيطرة الكاملة على بلاد الدولة الخـوارزمية قـاطبة، فأعد جيشين؛ الأول توجـه عبر جيحون وقصد مدينة بلخ، وطلب أهلـها الأمان فأمنهم المغول سنة ٦١٧هـ، ولـم يتعرض المغول لهم بالقـتل والنهب وأدخلوا البلدة فى حوزتهم، وواصلوا تقدمهم فى بلاد خراسان، فـسقطت البلاد فى أيديهم، البلدة تلو الأخـرى، ثم حاصروا «مرو» وشـددوا عليها الحـصار حـتى استـسلمت ثم أمعنوا فى قـتل أهلهـا، ونهبـوا البلدة وضمـوا إليهم أرباب الحـرف والصناعات من سكان مـرو، ويقال أنهم أجهـزوا على أهل البلدة جميـعهم حتى بلغ عـدد القتلى سبعمائة قتيل، ثم ساروا إلى نيسابور، فامتلكوها بعد حصار دام خمسة أيام، وارتكبوا مع أهلها من الفظائع ما ارتكبـوه مع غيرهم، وأقـاموا فى البلدة خمـسة عشـر يوما ينهبـون ويدمرون، وواصلوا مسيرتهم حتى بلغوا طوس، وامتلكوها، ثم ساروا إلى هراة، وبسطوا سيطرتهم عليها، ومنها اتجهوا إلى غزنة، فالتقوا بالسلطان جلال الدين منكبرتى ودارت معركة انتصر فيها خوارزمشاه على أعدائه.

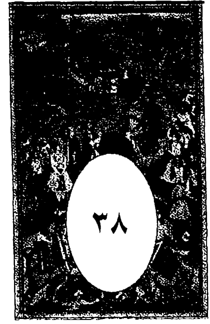
أما الجيش المغـولى الذى اتجه إلى خوارزم، فقد لقى مقـاومة باسلة من أهلها، ودارت بين الفريقين معارك ضاريـة، وصمد أهل خوارزم للحصار الذى دام خمسة أشـهر، وقتل من الفريقين



خلق كثير، وبلغ الأمر بالمغول أن أرسلوا إلى جنكيزخان يطلبون منه النجدة وأمدهم بجيش كبير وتمكنوا من الاستيلاء على خوارزم بعد عناء، وبعد أن امتلك المغول خوارزم بعد هذا الجهد الشاق والتضحيات الكثيرة، قتلوا كل من فيه، ونهبوا كل ما فيه ولم يكتفوا بذلك، بل فتحوا ماء جيحون على خوارزم، فغرقت البلد، وتهدمت الأبنية ولم يسلم من البلد أحد، «فمن اختفى من النار أغرقه الماء ومن سلم من الماء قتله الهدم، فأصبح البلد خرابا يبابا، كأن لم يغن بالأمس».

ولى السلطان جلال الدين منكبرتى - كما رأينا - فى وقت حرج، إذ استولى المغول على معظم المملكة، ونهبت خزائنها ومزق جيشها، وكان جلال الدين شجاعاً مقداما، اعتزم استرداد ملكه السليب، ورد الغزاة المعتدين عن بلاده، واستطاع جمع شمل جنده المبعثرين فى البلاد الخوارزمية، وأقام فى غزنة بعد أن استردها من المغول، ونظم جيشا قوامه ستين ألف مقاتل، وقد أزعج ذلك جنكيزخان ورأى التخلص من خصمه، فأرسل جيشا إلى غزنة، التقى بالجيش الخوارزمى فى معركة حامية الوطيس، أنزل الله فيها نصره على المسلمين، وانهزم المغول شر هزيمة، وقتل المسلمون منهم الكثير، وكان لهذا النصر أهمية كبيرة فى البلاد الإسلامية التى مزقتها هزائم المغول المتكررة، وعاش أهلها فى يأس وقنوط وتمزق، فارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين وتيقظوا وثاروا على المغول، وقتل أهل هراة واليهم المغولى.

سار جلال الدين على سياسته الرامية إلى طرد المغول من بلاده، وأرسل إلى جنكيزخان يتوعده ويتهدده ويقول: «فى أى موضع تريد يكون الحرب حتى نأتى إليه» فلم يتغاض جنكيزخان عن هذا التهديد، وشن الحرب من جديد على جلال الدين الذى أصبح يشكل خطرا على مملكته المترامية الأطراف، ولكن السلطان الخوارزمى انتصر مرة أخرى على جيش جنكيزخان وقتل الكثير من المغول، وغنم الخوارزميون ما معهم، واسترد المسلمون أسراهم من العدو، لكن الخوارزميون انشغلوا بجمع الغنائم، وكانت تفوق الوصف وتنازع جند السلطان حول الغنائم، نزاعا أدى إلى انقسام خطير فى الجيش عجز السلطان عن تداركه، وفارق فريق من الجيش الخوارزمى المعركة بقيادة «بفراق» إلى بلاد الهند، وحاول جلال الدين عبثا أن يثنى هذا الرجل عن عزمه، وأوضح له خطورة عمله هذا على الإسلام والمسلمين، وألح عليه فى ترك الخلاف والشقاق بل بكى بين يديه؛ لذلك ضعف أمر جلال الدين بمفارقة معظم جيشه له، ونهض إليه عدو الله بجيوشه، ودارت المعركة بين الجمعين على حافة نهر السند، وكادت أن تدور الدائرة على المغول، لولا أن نصب جنكيزخان كمينا أدى إلى قتل كثير من الخوارزميين وحلت الهزيمة بالمسلمين، وكان الرجل منهم يأتى النهر فيهوى بنفسه فى تياره، وهو يعلم أنه لابد غريق «وأن ليس له إلى الخلاص طريق»



وأسر ولد جلال الدين، وكان غرا فى الثامنة من عمره، وقتل بين يدى غريمه جنكيزخان، ولما عاد جلال الدين إلى حافة السند كسيرا، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يصحن بصوت عال: بالله عليك اقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن «وهذه من عجب البلايا ونوادر المصائب».



جيش المغول يضرب قلعة

وعبر جلال الدين نهر السند مع أربعة آلاف من رجاله متجهين إلى الهند «حفاة عراة كأنهم أهل النشور، حشروا فبعثوا من القبور» وقد أعادت الهزيمة التى لحقت بالخوارزميين إلى المغول هيبتهم، واستردوا قوتهم، وامتلكوا غزنة التى خلت من الجند، وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم وأسروا النساء، ودمروا البلدة تدميرا، حتى أصبحت غزنة خرابا دمارا.



عملة باسم السلطان التمش - دلهى - الهند

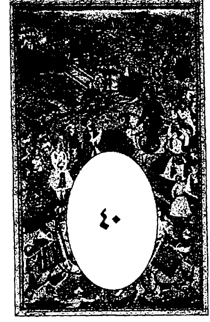


اعتزم جلال الدين استرداد قوته فى بلاد الهند، واستعان بسلطان دهلى لكن «ألتمش» توجس خيفة من جلال الدين، وقضى فى الهند ثلاث سنوات واشتبك مع سلطان دهلى فى عدة معارك، وخشى قباجة - حامى السند - من إقامة الخوارزميين فى ولايته؛ لأنها قد تؤدى إلى تعقب المغول لهم، وما ينجم عن ذلك من خطر داهم على البلاد، ولكن جلال الدين أوقع بهم الهزيمة، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القدوم إلى الهند والنيل منه، سار إلى دهلى وسأل سلطانها - ألتمش بأن يعطى جنده حق الإقامة فى دهلى، لكن السلطان المملوكى اعتذر إليه بحجة أن حرارة الجو فى دلهى لا تناسب الخوارزميين؛ ذلك أن سلطان دهلى خشى أن ينضم جند الترك فى دولته إلى سلطان الخوارزميين جلال الدين منكبرتى وأرسل إليه يراوغه ويوادعه ويقول: ليس بخفى ما وراءك من عدو الدين، وأنت اليوم سلطان المسلمين وابن سلطانهم، ولست أستحل أن أكون عليك عونا للزمان، وعدة للحدثان، ولا يليق بمثلى أن يجرد السيف فى وجه مثلك إلا إذا اضطره إليه دفاع أو سامه إليه تحرز وإقناع، وإن رأيت زوجتك يا بنت لتحتكم الثقة.

وعلم السلطان جلال الدين أن ألتمش - سلطان دهلى - وسائر ملوك الهند وراجاتها وأصحاب ولاياتها قد تآمروا على طرده من ديارهم، ولم يتغاض جلال الدين عن موقف سلطان دهلى العدائى منه، فاشتبك مع قواته بالقرب من دهلى، ثم انسحب إلى لاهور، وكثر جمع جلال الدين بما وفد عليه من الجند التابعين لأخيه غياث الدين - حاكم العراق - كذلك انضمت إليه قبائل الكهكرية الهندية - وكانوا ناقمين على قباجه، فكثر جمعه واشتد بأسه، وعظم أمره، وتمكن من انتزاع بعض البلدان من والى السند.

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه إلى الهند، الإقامة فيها، وإنما كان يهدف إلى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته، ويعود إلى بلاده، وقد واتته الفرصة للانتقام من المغول، وشن الحرب ضدهم، واستعادة ملكه السليب، حين توفى جنكيزخان - قاهر الخوارزميين - وأعقب وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التى تحتل أقاليم الدولة الخوارزمية إلى مواطنها الأصلية، فعبر جلال الدين نهر السند سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م وقصد إيران، واشتبك مع المغول فى عدة معارك.

عادت معظم بلدان الدولة الخوارزمية إلى حوزة السلطان جلال الدين منكبرتى «ولجأ إليه حكام المدن والبلاد الخوارزمية يعلنون ولاءهم وبهجتهم بالتخلص من حكم المغول وأبقى بعضهم على ما بيده، وعزل بعضهم» وأفرجت أيام السلطان عن الناس الكرب، وأطفأت من نيران الفتن ما التهب، وتفرقت العمال والوزراء فى الأطراف بتواقيع السلطان فضبطوها.



وبذلك استـرد هذا السلطان الشجاع ملكه وسلطانه على أقـاليم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازنـدران، على أن بلاد ما وراء النهر بقيت فى أيدى المغول.

خلف أجتاى جنكيزخان، وعول على استرداد البلاد التى آلت إلى جلال الدين، وسـير جيـشا كـبيـرا إلى الرى فانتـزعها واسـتولى على همـدان سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٣١م وطارد المغول السلطان جلال الدين، وتعقبوه فى موقان وتبريز وفى أذربيـجان، واتجه إلى آمـدان فهـزمه المغـول هناك وشردوا رجالـه، وقتل المغول كل من تتـبعه فى فراره، وظل السلطان ينتـقل من بلد إلى بلد، والمغول تلاحقـه أينما سار واتجه، حتى وصل إلى جـبال كردستان، وقـد شك فيه بعض الأكراد، وأخذوه وسلبـوه كعادتهم بسائر من ظفـروا به، فحين همـوا بقتله قال لكبـيرهم سرا: «إنى أنا السـلطان فلا تستـعجل فى أمرى، ولك الخيار فى إحـضارى عند الملك المظفر شهاب الدين، فيـفتيك، أو إيصالى إلى بعض بلادى فتـصير ملكا، فـرغب الرجل فى إيصاله إلى بلاده، وتركـه عند امرأته ومضى بنفـسه إلى الجبل لإحضار خيله ولكن هاجم المنزل رجل من الأكـراد وقتله بعد أن تعرف عليه، ثأرا لمقتل أخ له على يديه سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م.

وهكذا كان مصير هذا السلطان الشجاع، وبوفاته زالت الدولة الخوارزمية.

دولة الإسماعيلية فى إيران

هذه الدولة دولة شيعية، بمعنى أن أتباعـها هم أنصار لعلى بن أبى طالب ووقفوا إلى جواره مؤيدين له ولأبنائه من بعـده، واستند الشيعة فى أحـقية آل بيت رسول الله ﷺ إلى هذا اعـتمادا على حديث رسول الله ﷺ الذى قـاله فى عودته من حجة الوداع، وكـان قد نزل عند غدير خم بين مكة والمدينة فى الثامن من ذى الحجة، وأخذ بيد على بن أبى طالب وقال للناس:

«ألستم تعلمون أنـى أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى يـا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلى مـولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصـره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار».



ومما يجدر ذكره أن الإمامة للعلويين انتقلت من الحسن بن على إلى أخيه الحسين بن على ولا تنتقل بعدها من أخ إلى أخ، والإمامة تكون فى الأعقاب، وانقسمت الإمامية إلى فريقين، الإمامية الموسوية ويطلق عليها الإثنا عشرية، وينتسبون إلى موسى الكاظم بن جعفر الصادق، والإمامية الإسماعيلية وقالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان إسماعيل هذا أكبر أبنائه، واعترضوا على خلع جعفر الصادق لابنه إسماعيل، وأسند الإمامة إلى ابنه الآخر موسى الكاظم، ولما توفى إسماعيل بن جعفر الصادق فى حياة أبيه دعا أتباعه إلى إمامة ابنه محمد بن إسماعيل على الاعتقاد بأن الإمامة تكون فى الأعقاب، وأصبح محمد بن إسماعيل هذا هو الإمام السابع عندهم.

لجأ أئمة الإسماعيلية إلى التستر والتخفى حتى لا يبطش بنو العباس بهم، وأخيرا ظهر الإمام الإسماعيلى عبيد الله المهدى فى بلاد المغرب، وأعلن داعيه أبو عبد الله الشيعى قيام الدولة الفاطمية، وأركب الإمام الدابة التى قادها وهو ينادى جموع كتامة «هذا إمامكم، هذا إمام الحق، هذا هو المهدى».

اتخذ عبيد الله المهدى قادة حاضرة لدولته الجديدة سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وأمر بذكر اسمه فى الخطبة على منابر البلاد، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين، وبذلك قامت الخلافة الفاطمية فى شمال إفريقية، ولم تلبث أن ضمت إليها مصر والشام والحجاز واليمن، متخذة من المدينة الجديدة، القاهرة، حاضرة لها.

حرص الفاطميون على نشر دعوتهم الإسماعيلية فى أرجاء الدولة الإسلامية، ولقيت دعوتهم نجاحا فى فارس والعراق رغم اضطهاد العباسيين والسلاجقة لأتباع هذه الطائفة، وازداد نفوذ الإسماعيليين فى عصر السلطان ملكشاه حتى استولوا على أصبهان، ونشروا فيها دعوتهم فى عهد زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش، ومن تلاميذه الحسن بن الصباح الذى رأس الدعوة فى أصبهان، ثم سافر إلى مصر ليتعمق فيها من شيوخها، وسعى لمقابلة الإمام، وهذه المقابلة من أركان العقيدة الإسماعيلية، بل هى التأويل الباطنى للحج عندهم، فالحج فى الإسلام هو زيارة بيت الله الحرام والسعى بين الصفا والمروة والوقوف بعرفات، وأما الحج الباطنى عند الإسماعيلية فهى زيارة الإمام الإسماعيلى.

وكان الحسن بن الصباح فى مصر حين عهد الخليفة الفاطمى المستنصر لابنه نزار بولاية العهد، ثم عاد الخليفة المستنصر بخلعه تحت تأثير وزيره بدر الجمالى، وأسند ولاية العهد لابنه



المستعلى، وقد استاء الحسن بن الصباح من ذلك لمخالفته لتقاليد الإسماعيلية التى ترى بأحقية الابن الأكبر بالإمامة، ولما توفى المستنصر خلفه ابنه المستعلى فأعلن نزار الابن الأكبر للمستنصر الثورة فى الإسكندرية، والتف حوله أهلها، وبايعوه، غير أن الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى أحبط ثورته وقتله وقضى على أنصاره.


عُملة باسم الخليفة الفاطمى المستنصر بالله

ورأى الحسن بن الصباح هذه الأحداث فى مصر، وزج به فى السجن، وأفرج عنه عام ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، فغادر مصر واتجه إلى بلاد الشام والعراق وفارس ناشرا عقيدته الإسماعيلية، واختار معقلا فى أطراف الدولة الإسلامية ينفرد فيه بدعوته بآسيا، لا ينال منه ملك أو خليفة، فاتخذ معقلا فى بلاد الديلم، وقيل: إنه تلقى من مصر فى تلك الأثناء ولدا لنزار بايعه بالإمامة، وكان معقل الحسن بن الصباح لأحد العلويين أحسن استضافة الحسن بن الصباح، وتركه ينشر دعوته ويجمع الأنصار حوله، ولما قوى مركز الحسن بن الصباح طرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التى تجاورها، وكان هذا عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، وزود الحسن بن الصباح قلاع الإسماعيلية بالمكتبات ببلاد فارس بآسيا، والتى تؤكد أحقية نزار بالإمامة من المستعلى.

حرص الحسن بن الصباح على توسيع أملاكه بعد وفاة السلطان ملكشاه السلجوقى الذى بذل أقصى جهد له لدرء خطر هذه الدولة الإسماعيلية.

تمكن الحسن بن الصباح من تكوين دولة قوية فى فارس، واعتكف الحسن بن الصباح فى منزله، وانصرف إلى القراءة وكان يصدر الأوامر من منزله والرسائل إلى دعاته، وإلى الذين اختارهم لتنفيذ رسالته دون أن يقابلهم، وعرف عنه الصرامة والشدة والقسوة على نفسه وعلى أتباعه وجمع طائفة من أبناء الرعاة ومن أتباعه وأخذ فى تدريب هؤلاء الأطفال على الطاعة العمياء والإيمان بدعوته، وإذا بلغوا مبلغ الشباب يأمر بتدريبهم تدريبا عسكريا شاقا على الأعمال الفدائية، ويدربهم على كتمان سرهم، وأسرار الدعوة والدولة، ويقال أنه كان يأمر الفدائى أن يقتل نفسه فيفعل، وبهذه الطائفة من الشباب التى نجح فى تدريبها قام بعمليات إرهابية فى



الشـرق، لعل أبرزها قتل الوزير نـظام الملك الذى كان زمـيل ابن الصبـاح فى الدراسة، وكـان قد جـرد عدة حـملات للقـضاء على الإسـماعيليـة، وتوالى الإسماعيليـون فى اغتيال قادة الدولة السلجوقية، ونجـحت خطط الاغتيال التى كان يدبرها الحسن بن الصباح.

ويصف أحد الرحالة المعاصرون - وهو ماركوبولو - الروضة الغنَّاء التى أمر الحسن بن الصباح بزراعتها على سفح الجـبل الذى فيه قلعته، فيقول: «إنها من أجمل ما رأته الأعين، ووقعت عليـه الأبصار مليئة بمختلف الفواكه وأطيب الثـمار، وأقام بها القصور والجواسق مما لا عين رأت ولا أذن سمعت وقـد طلاها بالذهب، ونقشها بأطيب النقوش، وزعم أن بها أنهـارا من خمر وأخرى من عـسل وثالثة من لبن وبها حـور عين وولدان مخلدون، وبها مغنيات يعزفن على مختلـف الآلات، ويغنين بأعذب الأصوات، ويرقصن أجمل الرقصات، ولم يكن يسمح لأحد من الناس أن يدخـل هذه الحديقة إلا من شاء أن يجعلهم من فدائيـيه وكان يمدهم قبل دخولهم جنته بالحشيش فيتعـاطونه، ويناموں على أثره، حينئذ يأمر الشيخ بعض أتباعه بأن يحملوهم ويضعوهم فى داخل الحديقة، فـإذا أفاقوا وجدوا أنفسهم داخل هذه الروضة الغناء، وفى هذه الحالة يظنون أنهم فى جنة الخلد، ثم يقبل النساء والفتـيات بعد ذلك على هؤلاء الفتيان وبذلك يسيطر الشيخ على الشباب الفدائى، ومن هنا سموا بالحشاشين.

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الرواية يخالجنا الشك فى تصديقـها؛ لأن من يتعاطِى الحشيش لا يمكن أن يضطلع بعـمل شـاق كعـمل الفدائى، وبذل السـلاجقـة مـحاولات كـثيـرة للتنكيل بالإسماعيلية وباءت بالفشل، بل اشتد خطر الإسماعيلية بقتلهم الخليفة العباسى المسترشد.

ولما توفى الحسن بن الصبـاح خلفه فى قاعدته آلموت كيابزرك وأبو على وهـما أقرب الدعاة إليه - وعـهد إلى أحدهمـا بأن يتولى الزعامة الروحـية للدعوة، على حين يـحكم الثانى الإقليم ويقود الفدائيين والدعاة، ولقد حدث اختلاف من أتباع الإسماعيلية على قادتهم، بل إننا نرى أنهم قتلوا الحسن الثالث لنبذه سياسة الإلحاد، وخلفـه ابنه محمد الثالث، إلا أن الدولة الإسماعيلية قد زالت على يد المغول، واكتسحوها كما اكتسـحوا غيرها من دول الإسلام، فقد عهد منكوقاآن إلى أخيـه هولاكوخان بقيـادة الحملة على إيران، وأمده بجـيش يبلغ ١٢٠ ألف مقاتل من خـيرة جند المغول، ورسم منكوقاآن خطة الحرب لأخيه هولاكـو، وتتلخص فى أن يستولى على البلاد الواقعة من نهر جيحون حتى أقاصى بلاد مصـر فى دائرة نفوذ المغول، وأمره بأن يحسن معاملة من يدخل فى طاعته بدون حرب أو قتال، وأما من آثر الحرب فله الذلة والمهانة هو وقومه.



عبـر هولاكو بجـيشه نهـر جيحـون فى أواخر عام ٦٥٣هـ، فـلما بلغ الشـاطئ الفارسى تلقـى بالترحـاب من ممثلى أتبـاعه الجـدد، وابتدأ هولاكـو بمهاجمة قلاع الإسماعيلية قبل الشروع فى مـهاجمة الخلافة العباسية فى بغداد، ولقد تغلب هولاكـو على أكثر قـلاع الإسماعـيلية، ولم يستـعص على المغول سوى قلعتى «ميمون دز» و«آلموت»، وأخيرا، وجد حاكم الإسماعيلية خورشاه أنه لا مفر من التسليم للمغول، بعـد أن أضنى القتال جنده، ووهنت عزيمتهم، وضعفت مقاومتهم، فنزل من قلعة مـيمون دز وسلم نفسه إلى هولاكو، ودخل فى طاعته، وعلى الرغم من استسـلام حاكم الإسماعيلية فقـد رفض قائد آلموت الخضوع، واشتد فى المـقاومة حتى سقطت هى الأخرى فى يد المغول بعد قتال مرير، واقتحم المغول بذلك الوكر الأصلى للحسن بن الصباح وخلفائه، وحطموا ما وجدوه من أدوات الـقتال واستولوا على الكنوز والأموال، ووقعت فى أيديهم تلك المكتبة النفيسة التى اجتهد الإسماعيليون فى إعدادها فى سنوات طوال حتى طبقت شهرتها الآفاق، وكانت عاملا هاما فى كـشف أسرار هذه الجماعة، وقد أذن هولاكو للمؤرخ عطا ملك الجوينى بالاطلاع على الكتـب الإسماعيليـة، فأبقى الصالح منها، وأحـرق ما دون ذلك مما يتناول العـقائد الإسـماعـيليـة الفاسـدة، وجمع منهـا المصـاحف والكتب القديمة وآلات الرصـد والنجوم، ومن أهم هذه الكتب كـتاب «سركذشت سـيدنا» الذى يتضمن شـرح أقوال الحسن بن الصباح وخلفائه من بعده.

وبذلك زالت دولة الإسماعيلية سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م بعد أن ظلت سنوات طوال تفزع وتقلق المسلمين، ودكت حصـون الإسماعـيلية دكا، وهرب منهـا سكانها تاركين خزائنهم وكنوزهم نهـبا لجيش المغول، ثم أخذ المغول بعد ذلك فى تتبع الإسمـاعيلية، فكانوا يقتلون كل إسماعيلى يقابلونه حتى لم ينج منهم سوى الشريد، وشـردوا فى البلاد مصطنعين التقية خيـفة الوقوع فى أيدى المغول وحفاظا على حياتهم، وتخلص العالم الإسلامى فى آسيا من شر فدائيى الإسماعيلية.



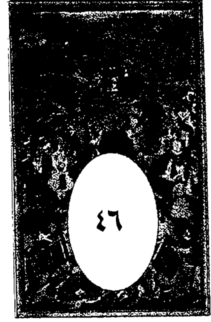
سقوط الخلافة العباسية على أيدى المغول

لقد كانت الخلافة العباسية فى عصرها الأخير إبان القرن السابع الهجرى تعانى من التمزق والحركات الانفصالية للبلدان الإسلامية، هذا فضلا عن تسلط العناصر الخارجية من غير العرب على خلفاء المسلمين فى بغداد، هذا فى الوقت الذى كان فيه المغول يجتاحون الدولة الخوارزمية ودولة الإسماعيلية فى إيران متجهين إلى بغداد ليقضوا على خلافة المسلمين فيها، تلك المدينة التى شهدت مجد الخلفاء العباسيين الأوائل المنصور وهارون الرشيد والمأمون بما كان فيها من نهضة ثقافية وعلمية لم تتكرر إلى وقتنا الحاضر، وكان الأجدر بالعالم الإسلامى إبان هذه الفترة أن يوحد صفوفه ويتجه إلى عدوهم المشترك ليقفوا له صفا واحدا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، إلا أن الصراع على الحكم والسيادة أضعف إيمانهم بتغلبهم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة فكانت الطامة الكبرى، فانتهز عدوهم هذا وأخذ يتخلص من قوة بعد قوة لهم كلٌّ على حدة. فلقد وصفت المصادر الإسلامية آخر خلفاء بنى العباس الخليفة المستعصم بأنه كان لين الجانب، ضعيف الوطأة، لين العريكة، قليل الخبرة، ولعل هذه الصفات هى التى لم تجعله يستطيع أن يقف ضد عدوه، ويعد العدة لملاقاته، قبل أن يستفحل خطرهم ويستطير شرهم.

جاء المغول فى عهد المستعصم إلى العراق عدة مرات، حيث حدثت مناوشات بينهم وبين جيش الخليفة العباسى لكنهم لم يوفقوا فى الاستيلاء على بغداد سنة ٦٥٦هـ وعندما اعتزم هولاكو مهاجمة الإسماعيلية أرسل إلى الخليفة العباسى يطلب منه أن يمده بجيش ليعاونه فى القضاء على تلك الطائفة، فلما شاور الخليفة أتباعه حذروه من أن يقدم على هذا العمل، وأدخلوا فى روعه أن هولاكو يريد بهذه الحيلة أن تخلو بغداد من قواتها فيسهل عليه دخولها من غير عناء.

ولما فرغ هولاكو من أمر الدولة الإسماعيلية وقضى عليها قضاء مبرما، قصد همدان، وفى شهر رمضان سنة ٦٦٥هـ أرسل رسولا يحمل رسالة إلى الخليفة مصاغة فى قالب التهديد والوعيد لامتناعه عن إرسال المدد، ولم يكن هذا الاحتجاج فى الواقع إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التى سبق أن منحت فى بغداد للأمراء البويهيين ثم السلاجقة.

ويقول هولاكو فى رسالته إلى خليفة بغداد: «لابد أنه قد وصل إلى شخصك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدى الجيوش المغولية منذ جنكيزخان، وعلمت أية مذلة لحقت بأمر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب



الشوكة، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط فى وجه أى طائفة من تلك الطوائف التى تولت السيادة، واعلم أننى إذا غضبت عليك وقدت الجيش إلى بغداد فسوف لا تنجو منى ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت فى باطن الأرض».

ورفض الخليفة العباسى هذا الإنذار، ونبذ فكرة الطاعة أو الإذعان للمغول، وناصبهم العداء، وأرسل إلى هولاكو يتوعده بالويل والثبور، وفى حقيقة الأمر أن المسلمين فى هذا الوقت كانوا كما سبق بيانه، فى حالة شديدة من الضعف والانقسام، ولا شك فى أن هولاكو هذا العدو القاطع آلاف الأميال كان يقف على حالة المسلمين قبل القدوم إليهم من المسافات الطوال، فبالتالى نرى أن تهديد الخليفة لهولاكو لم يكن ذا أثر، بل أغضب القائد المغولى واعتزم على فتح بغداد.

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطلع على رسالة الخليفة وعلم بما لحق برسله من أذى العامة فى بغداد غضب غضبا شديدا وأعاد رسل المستعصم وحملهم رسالة أخرى تضمنها إنذارا نهائيا له صيغ فى لهجة شديدة عنيفة جاء فيها:

«لقد فتنك حب المال والعجب والغرور بالدولة الفانية بحيث لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين . . فإنى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد».

ورأى الوزير مؤيد الدين بن العلقمى وزير خليفة بغداد أن يرسل الأموال والتحف والهدايا إلى هولاكو مع تقديم الاعتذار له، وكان يرى ذكر اسم هولاكو فى الخطبة ونقشه على السكة حتى يبعده عن غزو بغداد، ولكن الخليفة رفض العمل بمشورة وزيره، وأصر على إعداد العدة للدفاع عن بغداد.

وقبل أن يقدم هولاكو على غزو بغداد، وكعادة المغول، استشار المنجمين فيما يتعلق بأحكام النجوم وطوالع السعد والنحس، حتى يتبين قدر استطاعته أن يوافق هجومه ساعة حظه، فيتحقق له النصر، ويظفر بعدوه، ويصل إلى هدفه، فأشار على هولاكو أحد المنجمين والفلكيين المسلمين بعدم التعرض للخليفة العباسى، قائلا له:

«الحقيقة أن كل ملك تجاسر حتى هذه اللحظة على قصد الخلافة والزحف إلى بغداد لم يبق له عرش ولا جاه وإذا أبى الملك أن يسمع لنصائحى وتمسك بمشروعه فسوف تحدث هذه الحملة خللا فى الكون، فضلا عن أنها ستكون وبالا على الخائن نفسه إذ سيهلك، ويهلك الزرع والحيوان ولن تطلع الشمس ولن ينزل المطر».

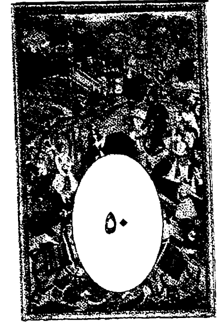
ويتضح من قول هذا الفلكى المسلم بعطفه على الخليفة العباسى، لكن المنجمين الآخرين أكدوا لهولاكو نجاح مشروعه، ومهما يكن من أمر فقد أمر هولاكو بتحريك جيشه من أطراف بلاد الروم والاتجاه إلى بغداد، وأقام معسكره خارج بغداد من الشرق، ولم يستطع جيش الخليفة منع

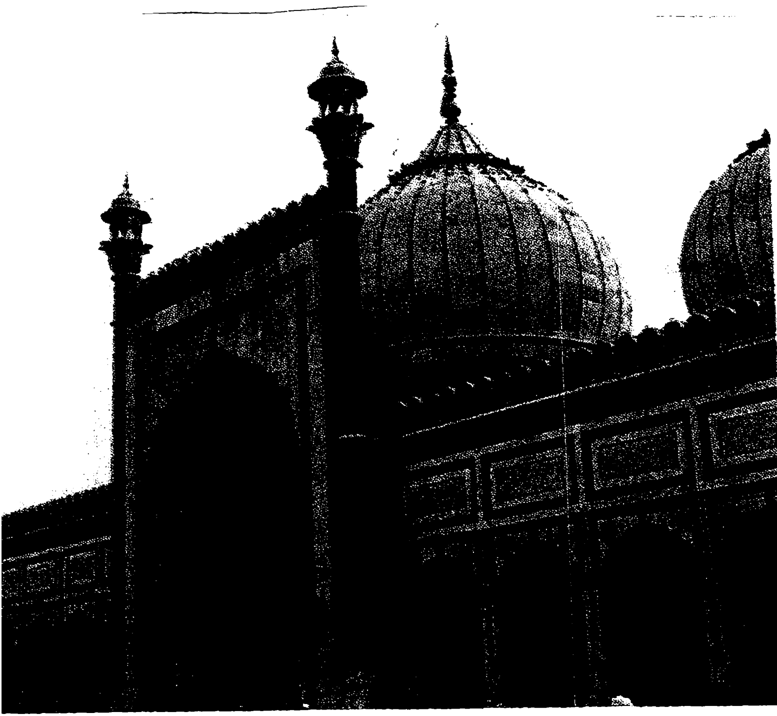
المغول من الإقامة فى الجهة الشرقية، وفى بداية **عام ٦٥٦هـ** حاصر المغول بغداد وأحكموا حصارها وأطلقوا أيدى التخريب فى المدينة وفتحوا أقساما منها، ولما رأى الخليفة العباسى المستعصم حرج موقفه أراد أن يثنى هولاكو عن عزمه، فأرسل إليه الهدايا القيمة، لكن هولاكو لم يستجب لمحاولة الخليفة. وهزم هولاكو جيشا أنفذه الخليفة لمحاربته، وأباده عن آخره، عندئذ خرج الوزير ابن العلقمى إلى هولاكو وتوثق منه لنفسه وعاد إلى المستعصم وأخبره أن هولاكو يبقيه فى الخلافة، وزين للمستعصم الخروج للقائد المغولى، فخرج المستعصم ومعه أبناؤه إلى هولاكو فأحسن استقبالهم، وطلب من الخليفة أن ينادى فى الناس بإلقاء سلاحهم والخروج من المدينة لإخضاعهم، فلما ألقى الناس سلاحهم وخرجوا قتلهم جميعا، أما الخليفة وأولاده وكل ما يتعلق بهم فقد وضعهم فى معتقل، وبعد ذلك أمر هولاكو بردم الخنادق وهدم أسوار المدينة، كما شيد جسرا على نهر دجلة، وأعلن هجوما عاما على المدينة، فدخلها المغول ودمروها وخربوا المساجد، ودمروا القصور، بعد أن سلبوا ما بها من تحف نادرة، وأباحوا القتل والنهب وسفك الدماء أربعين يوما، واندلعت فيها ألسنة النيران فى كل جانب من المدينة، وأتت على الأخضر واليابس ودمر أكثر المدينة وجامع الخليفة، وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد قصد قصر الخليفة، واستولى على ما فيه من نفائس وتحف نادرة، وأخيرا، بعد أن سفك هولاكو من الدماء ما سفك وخرب ما خرب، وقتل خليفة بغداد، اتجه المغول إلى سائر البلاد سواء فى الجزيرة أو فى بلاد الشام فتسقط فى يده الواحدة تلو الأخرى إلى أن وصلوا فى عين جالوت، فقابلهم المماليك رافضين سياسة التوسع المغولى على حساب الدول الإسلامية.

موقعة عين جالوت

لقد أرسل هولاكو رسالة إلى حاكم مصر تنفيذا لأمر أخيه الخاقان منكوقاآن آمرا إياه بالمسير من جيحون إلى أقصى ولايات مصر، قائلا فى رسالته إلى الملك المظفر قطز مهددا إياه، ويتوعده بأن يسلم أرض مصر دون قيد أو شرط، وأن على المماليك التسليم والإذعان للمغول حتى يفوزوا بالنجاة من القهر والتدمير على يد الجنود المغول، وجاء فى خطاب هولاكو إلى قطز:

«لكم فى جميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، فنحن لا نرحم من بكا، ولا نرق لمن شكا، وأى أرض تؤويكم، وأى طريق تنجيكم؟ فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال . . . وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص».





المسجد الكبير/ دلهى - الهند

بناء مسجد فى أجرا - الهند





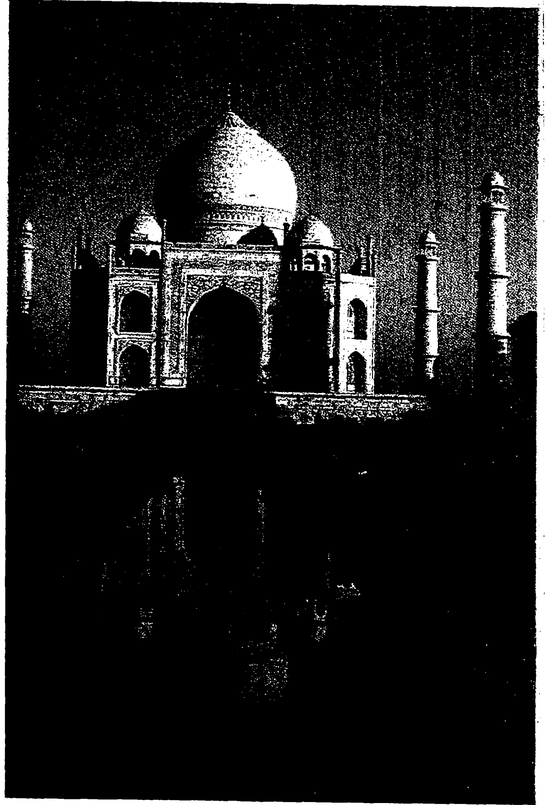
الإمبراطور بابر - الهند



ولم يدخل الإسلام فى الهند وينتشر بسبب الفتوحات فقط، بل ساهم التجار المسلمون بدور كبير فى نشر الإسلام، وشيدوا المساجد فى بعض مدن الهند.

وأقبل بعض أمراء الهند على أثر انتصارات المسلمين بقيادة السلطان محمود الغزنوى ومعهم عشرات الألوف من أقوامهم يعلنون دخولهم فى الإسلام.

ورحل الفقهاء والوعاظ والصوفية إلى بلاد الهند بعد الفتوحات الغزنوية، ونشروا الإسلام بين أهلها، وانسجم الهنود مع المتصوفة المسلمين؛ لأن الزهد والتصوف من أبرز صفات الهنود، ولجأ إلى بلاد الهند بعض علماء فارس وبلاد ما وراء النهر؛ فرارا من الاضطهاد الذى لحق بهم.



تاج محل - ضريح من روائع العمارة الإسلامية فى الهند

لذلك انتشرت اللغة الفارسية فى الهند، ونشأت اللغة الأوردية التى هى خليط من الهندية والعربية والفارسية ولغات محلية. ولم تنتشر العربية؛ لعدم هجرة القبائل العربية إلى الهند، والحكام والغزاة الجدد ليسوا عربا.

وقامت دولة الغور فى الهند، وحقق الإسلام أروع انتصاراته فى الهند بقيام سلطنة دهلى الإسلامية، واتسعت أملاك المسلمين فى شبه القارة الهندية، حتى ضمت البنغال والدكن، ثم قامت دولة المماليك والدولة الخلجية، وأدى سقوط بغداد وفارس والعراق فى أيدى المغول إلى هجرة علماء الإسلام فرارا بدينهم إلى الهند، وأنعشوا الحياة الإسلامية فيها. ثم قامت دولة المغول فى الهند، ودخل ملوكها الإسلام، ومن ملوكها بابر الذى ثبت فى الهند أركان الإسلام ومهد الطريق لتوسيع رقعته حتى شمل شبه القارة الهندية كلها، وشيد المساجد الجميلة فى الهند، وفى أيامه أصبحت «أجرا» عاصمة دولته من أجمل بلاد الدنيا.

وواصل خلفاؤه نشر الإسلام فى الهند، ولكن الإنجليز احتلوا الهند، وانتعشت الهندوكية من جديد، وضعف المسلمون أمام الهنادكة وحلفائهم الإنجليز.



انتشار الإسلام في آسيا الصغرى

اشتبك السلطان السلجوقى ألب أرسلان فى آسيا الصغرى مع رومانوس - إمبراطور الدولة البيزنطية - فى موقعة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م انتهت بهزيمة البيزنطيين، وانتصار المسلمين على أعدائهم، وكان من نتيجة هذه المعركة انسحاب الروم من آسيا الصغرى، ودخول هذه البلاد فى حوزة السلاجقة، وانتشر الإسلام بين أهلها، بعد أن كانوا يدينون بالمسيحية، ونتج عن هذه الواقعة تأسيس دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، وازداد ضعف الدولة البيزنطية، وانكمشت ممتلكاتها التى آلت إلى المسلمين، حتى سقطت القسطنطينية نهائيا فى أيدى السلطان العثمانى محمد الفاتح.



أكبر إمبراطور الهند يشاهد تدريبات الأفيال - العصر المغولى

وواصل السلطان السلجوقى ملكشاه سياسة أبيه فى توطيد نفوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى، وانتزاع الأراضى البيزنطية، وضمها إلى دولة الإسلام جهادا فى سبيل الله، وأسند إلى سليمان بن قتلمش بن إسرائيل حكم هذه البلاد. ويعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، وظلت تحكم هذه البلاد حتى سنة



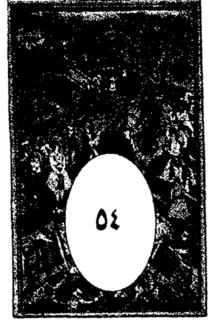
٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م. ثم قامت الدولة العثمانية الصغرى، وهى دولة إسلامية عظمى، قوى بها الإسلام، وتوطدت دعائمه فى آسيا الصغرى، وهاجر علماء الإسلام إلى هذه البلاد، فعزَّ بهم الإسلام، وانتشرت علومه وأقبل الطلاب على دراسة علوم الإسلام، وأُنشئت المكتبات ومجالس العلم فى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، وانتقل إليها الفكر الإسلامى من علماء وكتب من العالم العربى.

انتشار الإسلام فى الصين

مهدت حملات قتيبة بن مسلم الباهلى على بلاد ما وراء النهر، وفتح كاشغر سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م السبيل أمام نشر الإسلام فى الصين. كما أن التجار العرب كوَّنوا جالية فى كانتون، وأقاموا بها مسجدا، وكثر المسلمون فيها، واضطربت الأحوال الداخلية فى الصين، واضطر إمبراطور الصين إلى الاستنجاد بالمسلمين فى أواسط آسيا لقمع ثورات بلاده، وقام المسلمون بدور بارز فى إخماد ثورة سكان الصين. عندئذ خيَّرهم الإمبراطور سو تسنغ بين الإقامة فى بلاده أو العودة إلى ديارهم. فقبل فريق من المسلمين البقاء فى شمال الصين، واختلطوا بأهل الصين، وتزوجوا منهم، ونشأ جيل جديد يجمع بين الدماء العربية الإسلامية والدماء الصينية.

ومن بين هؤلاء المسلمين الذين أقاموا فى الصين علماء فى الفقه والحديث، نشروا الإسلام بين أهل الصين؛ لذلك انتشرت المساجد وكثر عدد المسلمين. ومن أقدم المساجد فى الصين مسجد (جانغ آن) عاصمة الصين فى ذلك العصر، ثم مسجد آخر فى كانتون، وثالث فى بنانكين، والأول كان للجند المسلمين، الذين قدموا لإخماد ثورة الصين. والثانى والثالث للتجار، الذين قدموا إلى الصين عن طريق البحر، وأكثرهم عرب وبعضهم فرس. وأدى ازدهار التجارة الإسلامية وكثرة التجار فى الصين إلى ازدياد عدد المساجد، وبالتالى إلى انتشار الإسلام، وبدأ الإسلام بالمدن الساحلية وتوغل فى الأقاليم الداخلية، وأُنشئ فى بكين وحدها ستة عشر مسجدا، منها ستة شيدها أحد الأمراء يتسع لمائة ألف من المصلين.

وازداد الإسلام انتشارا فى الصين، بعد سيطرة المغول على ولايات كثيرة منها، حتى أن رشيد الدين يذكر أن ثمانى ولايات من اثنتى عشرة ولاية كان يحكمها مسلمون.



ونال المسلمـون تقدير أهل الصـين الذين ساهمـوا بدور فعـال فى طرد المغـول من بلاد الصين، كمـا حظوا بمكانة كـبيـرة فى الحكومـة الصينيـة التى حكمت الصين بعد طرد المغول.

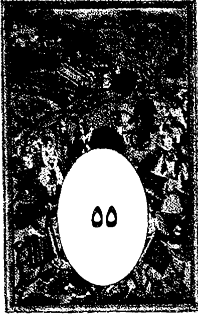
ولكن تعرض المسلمون لـلاضطهاد فى عهد مانشـو لأنه خشى أن يعمل المسلمـون على إعادة أنـصارهم من أسـرة منغ إلى الحكم، وهلك العـديد من المسلمين فى شـمال الصين الغربى، وعلى الرغم من هـذا الاضطهاد الذى حل بالمسلمين، إلا أن علماء المسلمين، صنفوا كتبا قيمة فى الدراسات الإسلامية.

وحرُم المسلمون من امتيازاتهم التـجارية، ومن زيارة التجار المسلمين، والسفراء، والمناصب الحكومية.

وعلى الرغم مما حل بالمـسلمين من الاضطهـاد، إلا أن تمسكهم بالإسـلام قد مـيـزهم عن سكان الصين الوثنيين، فحـرموا طبقا لشعـائر الإسلام على أنفسهم تعـاطى المخدرات والمسكرات وتناول الأطعمة الضارة، فـقويت أجسامهم، وصحت أبدانهم واستطاعـوا تحمل العمل الشاق فى الزراعة والصناعـة والتجارة، وبالتالى تحسنت أحـوالهم الاقتصادية، كـما دعتهم طبـيعة المسلم - وهى رعاية اليتيم وكـفالة الفقراء والمساكين - إلى التقاط الأطفـال الذين ألقاهم آباؤهم على قارعة الطرق عجزا عن رعايتهم أو لأنهم غير شرعيين، وتربية هؤلاء المساكين ورعايتهم، وتنشئتهم نشأة إسلامية صحيحة، كل ذلك أدى إلى زيادة عـدد المسلمين، بينما انتشر الفقر والإدمان والمرض بين سكان الصين الأصليين، وفـسدت الحكومة الصـينية، وانغمس آل سـانشو فى العبث والفـجور، وانتشرت الأمراض بين سكان الصين.

ومن أهم عوامل انتشـار الإسلام والحفاظ عليـه فى الصين انتشار المساجـد التى يأوى إليها المسلمون للعبادة، ولتعلم مبادئ وتعاليم الإسلام، وللتـعارف، وحل مشاكلهم الاجتماعية والمالية ولتدارس أوضـاعهم، وللحفـاظ على مكارم الأخلاق التى حث عليـها الإسلام، وللحـفاظ على وضع المسلمين وخصوصيتهم فى هذا المجتمع الكبير، ومواجهة كل ما يتعرضون له من أزمات.

وتسربت اللغتان العـربية والفارسية إلى الصين ولكن بشكل محـدود، وانتشر المسلمون فى مدن الصين وأقاليمـها، ولكن علماء الصين عرفوا اللغة العـربية، ودرسوا الفقه والتفـسير، وألفوا كتبـا فى علوم الإسلام. وانتشرت اللغـة العربية فى المدن الساحـلية بسبب التجـار، وانتشرت فى تركسـتان الصينية قـبل الغزو المغولى بعـدة قرون. بل أُنشئت فى الصين بعض المدارس العـربية، لتعليم المسلمين اللغة العربية وآدابها وعلوم الإسلام.



انتشار الإسلام بين المغول

بعد غزوات المغول المدمرة التى شنها هولاكو على بلاد الإسلام، قامت الدولة الإيلخانية فى العراق وإيران، واضطهدت فى بداية عصرها المسلمين، حتى أن أرغون - رابع إيلخانات المغول (١٢٨٤-١٢٩١) - اضطهد المسلمين وأبعدهم عن الوظائف الرئيسية فى بلاده، ولكن مع مرور الزمن انتشر الإسلام بين المغول فى سائر إمبراطوريتهم الواسعة.

وأول من أسلم من أمراء المغول بركة خان، وكان رئيسا للقبيلة الذهبية فى روسيا (١٢٥٦-١٢٦٧م)، وحفظ القرآن الكريم ومبادئ الإسلام، واعتنق جنده الإسلام، بل إن كل فارس كان يحمل ضمن أدواته مصحفا وسجادة للصلاة، حتى يؤديها فى وقتها، وحذر جنده من تعاطى المسكرات، وكانت الطبقة المثقفة فى عصره تضم الفقهاء والمحدثين والمفسرين وعلماء الكلام، وكانت مجالسه تضم العلماء والفقهاء.

قلعة تبريز - العصر الإلخانى القرن ١٤م



ودخل بركة خان فى حلف مع الظاهر بيبرس - سلطان مصر والشام - لتعزيز حكمه الإسلامى (١٢٦٠-١٢٧٧)، ومن أثر هذا التحالف وفود بعض الناس من القبيلة الذهبية إلى مصر لتعلم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم ومبادئ الإسلام، وعادوا إلى بلادهم ينشرون الإسلام فيها.

وأول من اعتنق الإسلام من إيلخانات المغول أحمد تكودار، وبذل جهدا كبيرا فى تحويل المغول إلى السلام، وأقبل المغول على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة، وأرسل بنبأ إسلامه إلى السلطان قلاوون فى مصر. ومما يثير دهشة المؤرخين أن هؤلاء المغول الذين اقترفوا كل الجرائم البشعة ضد المسلمين وقتلوا الألوف وخرَّبوا ديارهم وارتكبوا المذابح المروعة ضدهم، إذا بهم فى عهد تكودار ينالون التقدير والاحترام، ويرسل تكودار خطابا إلى السلطان قلاوون يتحدث فيه عن فضل الإسلام وعظمته، وعن الإصلاحات التى أجراها فى خدمة الإسلام وأهله.

أرسل تكودار إلى علماء الإسلام فى بغداد يخبرهم باعتناقه للإسلام، وأعلن نفسه حاميا لدين الإسلام، وأمر ببناء المساجد فى دولته، وحكم البلاد طبقا للشريعة الإسلامية، وعيَّن الشيخ كمال الدين عبد الرحمن الرافعى شيخا للإسلام، وولاه الإشراف العام على الأوقاف فى البلاد، وأمر بأن تُصرف شئون الأوقاف إلى مستحقيها، وأثرت هذه الخطوة فى رعايا الدولة من المسلمين، فأحبوه وقدروه، واطمأنوا إليه. وكان لاعتناق تكودار الإسلام أثر كبير فى تحسن علاقته مع الدولة المملوكية، وهى الدولة الإسلامية القوية التى تدافع عن الإسلام والعروبة.

وفى سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م تولى غازان حكم الدولة الإيلخانية، وأعلن دخوله فى الإسلام، واتخذ من الإسلام دينا رسميا للدولة، واتخذ من الشريعة الإسلامية دستورا لبلاده، وخيَّر البوذيين بين الإسلام أو مغادرة البلاد، فدخل بعضهم الإسلام، وغادر بعضهم البلاد، كما اضطهد المسيحيين واليهود، ودمر كنائسهم، وحولها إلى مساجد، وبذلك عاد المسلمون إلى وضعهم الطبيعى، بعد أن لاقوا الكثير من الاضطهاد على أيدى المغول وأنصارهم المسيحيين.

وبذلك تخلى غازان عن البوذية، وانقطعت صلته ببلاط خاقان المغول الأعظم فى الصين، وأعلن نفسه خاقانا مستقلا عن خاقان المغول، وكان لإسلام غازان أكبر الأثر فى انتشار الإسلام فى دول المغول المنتشرة فى الشرق الأقصى وفى روسيا، وحل الإسلام محل البوذية فى تلك البلاد.

أما جغطاى فكان من ألد أعداء الإسلام، وكان يحكم إمبراطورية المغول الوسطى، وفرض على المسلمين قيودا شديدة.



إلا أن الإسلام انتشر فى الدولة الجغطائية حوالى سنة ١٣٣٦م، وكانت الإمبراطورية الجغطائية قد انقسمت بين أمرائها، ووحدها تغلق تيمور - ملك كاشقر - واعتنق الإسلام، وحمل أمراء المغول على اعتناقه، ودخل المغول الإسلام بين سكان الحضر فى الولايات الخاضعة لسلطان خلفاء جغطاى، أما البدو فقد بقوا على عقيدتهم حتى القرن الخامس عشر الميلادى.

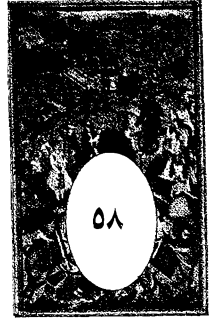
المسلمون فى إندونيسيا:

واصل الإسلام انتشاره عن طريق التجار اليمانية والحضارمة والعمانية إلى شبه جزيرة الملايو وإندونيسيا، وكانت جماعات التجار التى حملت الإسلام إلى هذه البلاد، قد خرجت من موانى غرب الهند مثل قاليقوت وكولام إلى جزيرة سوقطرى، وخرجت أيضا من هرمز ومسقط وسيراف فى عُمان ويصلون إلى سرنديب، ومنها إلى جزير الملايو، ونجح المسلمون فى إقامة ممالك إسلامية فى الملايو أهمها على الإطلاق، سلطنة ملقا التى اتسعت حتى شملت الجزء الجنوبى من الملايو، واتسعت هذه السلطنة الإسلامية حتى شملت جمهورية واسعة، هى جمهورية الملايو التى تعرضت للاستعمار البرتغالى والهولندى ثم الإنجليزى، وعاصمتها كوالالامبور وهى من أجمل المدن الإسلامية.

ودخل الإسلام إلى إندونيسيا عن طريق هؤلاء التجار، وأول انتشاره كان فى جزيرة سومطرة، حيث أنشأ المسلمون مراكز لهم فى سواحلها الغربية، انتشر منها إلى هذه الجزيرة، وواصل الإسلام انتشاره إلى جزيرة جاوة عن طريق التجار والدعاة وتغلب الإسلام على العقبات التى صادفته من الهندوكية، ولكنه انتصر عليها؛ لأن الإسلام لابد أن ينتصر على القوم الكافرين، وفى القرن السابع عشر كان الإسلام قد انتشر فى كل الجزر الإندونيسية، وانتصر الإسلام على تحديات العقائد البوذية التى تأصلت فى هذه البلاد منذ قرون.

وتعرضت إندونيسيا للاستعمارين الهولندى واليابانى، واستقلت إندونيسيا من اليابان بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، وتخلصت من الاستعمار الهولندى سنة ١٩٤٧ وتغلب المسلمون فى الملايو وأندونيسيا على الجماعات التبشيرية التى تهدف إلى تحويل الناس إلى المسيحية، وانتشرت المساجد فى أندونيسيا والملايو، وأقبل أهلها على دراسة علوم الإسلام، فوفد الشباب إلى مكة والقاهرة والمدن الإسلامية لدراسة علوم الإسلام، وبرز منهم علماء وفقهاء يسعون إلى تبصير الناس بعلوم الإسلام ومبادئه وأسسه.

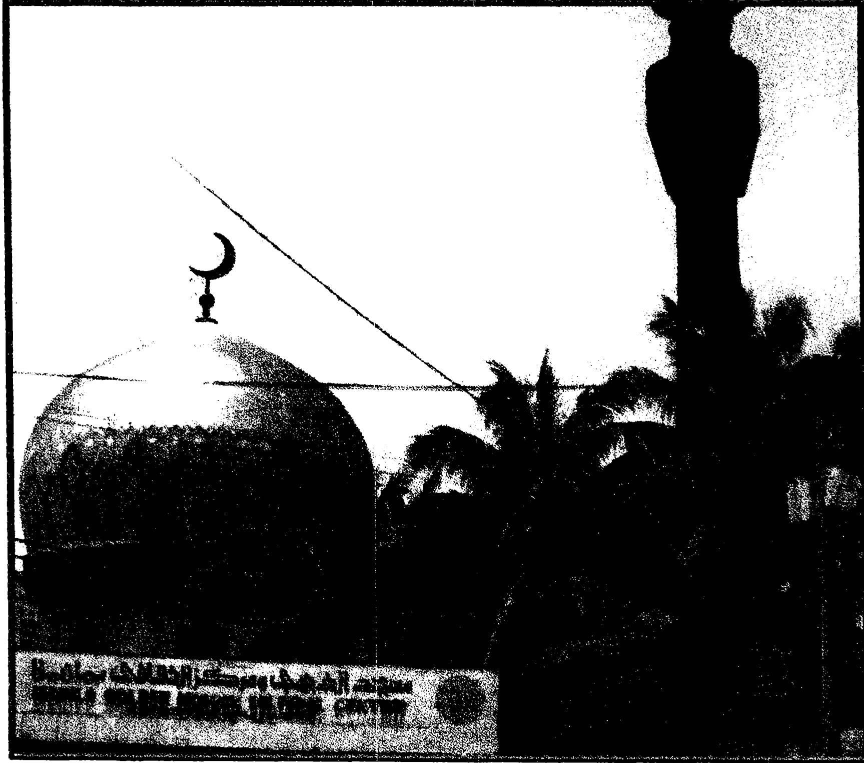
ومن أندونيسيا انتشر الإسلام فى الفلبين وأوقف الاستعمار الإسبانى انتشاره فى هذه البلاد، وتركز المسلمون المسمون بالموروس فى جنوب الجزيرة - أى جزيرة الفلبين.



المسلمون فى كوريا:

وفى كوريا الجنوبية، تشير المصادر إلى أن الإسلام وصل إليها فى القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى، ونشأت علاقات تجارية بين العرب والكوريين فى القرن الخامس الهجرى، وزار وفد من تجار العرب كوريا الجنوبية فى عام ١٠٤٠م قادما من الصين، وقدم الهدايا إلى الملك جوان جونج - ملك كوريا.

انتشر الإسلام بشكل قوى فى كوريا بعد الحرب الكورية، بواسطة القوات التركية التى انضمت إلى القوات الدولية فى حفظ السلام بين الكوريتين الشمالية والجنوبية، وشيد الأتراك مسجدا فى كوريا، وعينوا له إماما ومؤذنا ومقرئا وواعظا. ومن هذا المسجد انتشر الإسلام فى كوريا حتى تكون الاتحاد الإسلامى الكورى وأقيمت مساجد ومراكز إسلامية فى كوريا بموافقة الحكومة الكورية فى سيول سنة ١٩٧٥م، وأقيمت مدارس إسلامية فى كوريا الجنوبية لتعليم أبناء المسلمين أسس ومبادئ الإسلام، وقدمت الدول الإسلامية مساعدات كثيرة للمسلمين فى كوريا، وازداد عدد المسلمين فى كوريا حتى ازداد عن ثلاثين ألف مسلم.

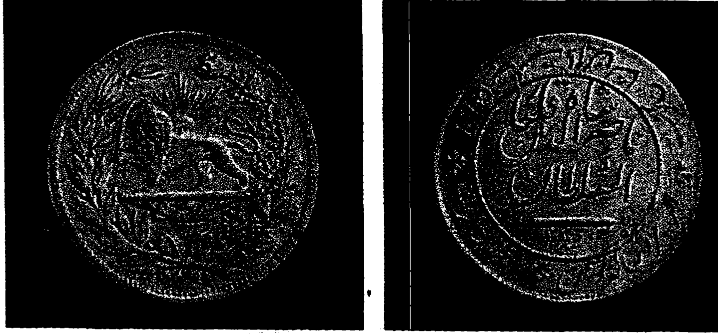


المسجد الكبير - مانيلا - الفلبين



ودخل الإسلام لاوس عن طريق التجارة البحرية، ووصل أولا إلى منطقة السواحل فى القرن الخامس الهجرى ثم انتشر فى المناطق الداخلية، بفضل جهود الدعاة الذين وفدوا من الملايو فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وازداد عدد المسلمين فى لاوس حتى بلغ خمسين ألف مسلم، ودخل الإسلام كمبوديا وبورما كذلك.

ودخل الإسلام نيبال فى القرن الخامس عشر الميلادى وانتشر فى ڤيتنام، ومن العقبات التى واجهها الإسلام فى هذه البلاد، تمكن البوذية فى نفوس شعوب الشرق الأقصى، وانتشار جماعات التبشير الداعية إلى المسيحية، وضعف نشاط الدعاة المسلمين أمام هذه الجماعات.



ميدالية استحقاق ذهبية - إيران

المسلمون فى تايلاند:

كما انتشر الإسلام فى تايلاند عن طريق التجار الذين كانوا يقصدون بلاد الصين، وبدأ انتشار الإسلام فى الجنوب خصوصا منطقة قاطائى، حيث تأسست فيها مملكة إسلامية فى القرن السادس عشر الميلادى.

ويزيد عدد سكان تايلاند عن ٥٤ مليون نسمة، من بينهم ما يزيد على سبعة ملايين فرد يدينون بالإسلام، وتحاول الحكومة البوذية التلاعب فى إحصاء عدد المسلمين، ومنع إعلان العدد الحقيقى للمسلمين، لذلك يرى البعض أن عدد المسلمين يزيد عن هذا التقدير.

المسلمون فى اليابان:

وانتشر الإسلام فى اليابان عن طريق الشيوخ المسلمين الذين فروا من روسيا فى مطلع القرن العشرين، ولجأوا إلى اليابان، ونشروا الإسلام بها، وكان لقوة العلاقة بين اليابان وتركيا أكبر الأثر



فى نشر الإسلام فى اليابان، ووفد على اليابان دعاة مسلمون من الهند والصين، وأنشئت المساجد فى اليابان والمدارس الإسلامية وتُرجمت معانى القرآن الكريم إلى اللغة اليابانية، ووفد بعض طلاب العلم إلى الأزهر الشريف لتعلم علوم الإسلام، وقويت الصلات الاقتصادية بين اليابان والدول الإسلامية، وأدى ذلك إلى زيادة انتشار الإسلام، وهناك جهود لترجمة علوم القرآن والحديث إلى اللغة اليابانية.

ومن أهم المساجد فى اليابان، مسجد أسسه المرحوم محمد على قربان، وهو على طراز تركى. والمسجد الآن ملك للسفارة التركية، وفى حاجة إلى ترميم، ويوجد مسجد فى مدينة أوزاكا، ومسجد فى مدينة كوب، ومسجد فى مدينة ناجويا، وقد أعادت دولة الإمارات بناءه وهناك بعض المساجد المنتشرة فى المدن اليابانية. وأعداد المسلمين فى اليابان فى ازدياد، ولكنهم فى حاجة إلى تدعيم من الدول الإسلامية، ونشر الدعاة فى أنحاء اليابان.

وهكذا فإن الإسلام بخير والمسلمون بخير ما نصروا الله ونصروا دينهم، وأعدادهم فى ازدياد فى قارة آسيا.

ولا يسعنا فى النهاية ونحن نقدم للقارئ الكريم موجزا مختصرا قدر استطاعتنا عن تاريخ الأجداد والآباء وماقدموه من تضحيات فداء لدين آمنوا به، وبحق لهو خير الأديان ألا وهو دين الإسلام، فقد غزا الإسلام العقول والقلوب بالعدل والإنصاف، فانساق إليه القريب والبعيد حبا وطواعية لا جبرا وعدم اعتناق، فلنا مما سبقونا القدوة لنتعلم وندرس وننفذ ما جاء فى ديننا من وحدة وإجماع الكلمة على الحق والعمل به حتى نكون وبصدق كما قال الله سبحانه وتعالى عن الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس، ولنكون للأمم اللاحقة هديا ونبراسا تهتدى بعملنا فى تنفيذ ما شرع به الله، وبما رفع الحق سبحانه وتعالى أقدارنا به من نعمة الإسلام.



المصادر والمراجع

أولا - المراجع العربية:

١- إبراهيم دسوقى شتا: ترجم وحقق، المثنوى، مولانا جلال الدين الرومى.

٢- ابن الأثير (ت ٦٣٠/١٣٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم «الكامل فى التاريخ».

٣- أحمد أمين: «فجر الإسلام» - «ضحى الإسلام» - «ظهر الإسلام».

٤- أرنولد: The preaching of Islam ترجمة الأستاذ: حسن إبراهيم حسن باسم «الدعوة إلى الإسلام».

٤- الأصفهانى: (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) أبو الفرج «كتاب الأغانى».

٥- الإصطخرى: (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الإصطخرى المعروف بالكرخى «المسالك والممالك» تحقيق: د. محمد جابر عبد العال.

٦- ابن أبى أصيبعة: (ت ٦٦٧هـ/ ١٢٧٠م) أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجى، موفق الدين «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء».

٧- إقبال: عباس «تاريخ مفصل إيران».

٨- الآلوسى، السيد محمود شكر البغدادى «بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب».

٩- أمير على، سيد: "A short hist. of the saracens"، نقله إلى العربية: رياض رأفت باسم: «مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى».

١٠- أنتونى ناتنج: «العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام»، ترجمة راشد البراوى.

١١- ابن إياس (٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م) محمد بن أحمد «بدائع الزهور فى وقائع الدهور».

١٢- بارتولد، ف: «تاريخ الحضارة الإسلامية». الترك فى آسيا الوسطى، تركستان حتى الغزو المغولى».

١٣- بروكلمان، كارل: «تاريخ الآداب العربية»، «تاريخ الشعوب الإسلامية».



١٤- البكرى (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٧م) أبو عبيد الله بن عبد العزيز «معجم ما استعجم» حققه الأستاذ مصطفى السقا.

١٥- بديع الزمان الهمذانى: المقامات، تحقيق: الإمام محمد عبده.

١٦- تاريخ البيهقى.

١٧- البندارى: تاريخ دولة آل سلجوق.

١٨- التوحيدى: أبو حيان: الإمتاع والمؤانسة.

١٩- البلاذرى (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) أحمد بن يحيى بن جابر «أنساب الأشراف» «فتوح البلدان».

٢٠- ترتون، أ.س: «أهل الذمة فى الإسلام» نقله إلى العربية، د. حسن حبشى.

٢١- الثعالبى (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) أبو منصور عبد الملك «لطائف المعارف»، «يتيمة الدهر».

٢٢- الجاحظ (ت٢٥٦هـ/ ٨٧٩م) أبو عثمان عمرو بن بحر «البيان والتبيين»، «التاج فى أخلاق الملوك»، «الحيوان»، «رسائل الجاحظ».

٢٣- ابن جبير: (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م) محمد بن أحمد بن جبير «رحلة ابن جبير» تحقيق د. حسين نصار.

٢٤- الجهشيارى: (ت٣٣١هـ/ ٩٤٣م) أبو عبد الله محمد بن عيدروس «الوزراء والكتاب» حققه: مصطفى السقا وآخرون.

٢٥- ابن الجوزى (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) أبو الفرج عبد الرحمن على بن الجوزى «مناقب عمر بن عبد العزيز»، «المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم».

٢٦- حتى، فيليب: «تاريخ سورية ولبنان»، «تاريخ العرب المطول».

٢٧- ابن حجر (ت٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى «الإصابة فى تمييز الصحابة».

٢٨- الحريرى: «المقامات».

٢٩- حسن إبراهيم حسن «تاريخ الإسلام السياسى»، «النظم الإسلامية»، «انتشار الإسلام فى إفريقيا».

٣٠- حسن أحمد محمود «الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا»، «قيام الدولة السلجوقية».

٣١- الحسينى: أخبار الدولة.

٣٢- خواندمير: حبيب السير فى أخبار أفراد البشر «دستور الوزراء» تحقيق د. فؤاد الصياد.



٣٣- حسن الباشا: «الآثار الإسلامية»، «دراسات فى الحضارة الإسلامية».

٣٤- حنين بن إسحاق: (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) تحقيق ودراسة الدكتور: محمد على أبو ريان، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٨م.

٣٥- ابن خرداذبة (ت٣٠٠هـ/ ٩١٢م) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله «المسالك والممالك»، «مختارات من كتاب اللهو والملاهى».

٣٦- ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) عبد الرحمن بن محمد «مقدمة ابن خلدون»، «العبر وديوان المبتدأ والخبر».

٣٧- ابن خلكان (ت٦٨١هـ/ ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى «وفيات الأعيان».

٣٨- الدميرى (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) محمد بن موسى كمال الدين «حياة الحيوان الكبرى».

٣٩- دى بور: «تاريخ الفلسفة فى الإسلام» نقله إلى العربية: محمد عبد الهادى أبو ريدة.

٤٠- الدينورى: (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) أبو حنيفة أحمد بن داود «الأخبار الطوال».

٤١- الذهبى: (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م): «تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام»، «سير أعلام النبلاء».

٤٢- الرازى (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م) أبو بكر: «الحاوى فى الطب والتداوى»، «الكليات فى الطب».

الراوندى: «راحة الصدور وآية السرور» تحقيق د. عبد النعيم حسنين.

٤٣- رشيد الدين فضل الله: «٧١٩هـ-١٣١٨م أو جامع التواريخ» تحقيق د. فؤاد الصياد وآخرون.

٤٤- زكى محمد حسن: «الرحالة المسلمون فى العصر الوسيط»، «فنون الإسلام».

٤٥- زكى نجيب محمود: «جابر بن حيان».

٤٦- الساداتى: تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية.

ابن الساعى: (ت٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) على بن أنجب. «نساء الخلفاء».

٤٧- سعاد ماهر: «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون».

٤٨- ابن سعد: (ت٢٣٠هـ/ ٨٣٥م) محمد «الطبقات الكبير».

٤٩- السخاوى (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) شمس الدين «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.



٥٠- سعيد بن البطريق المعروف باسم أوتيخا (ت٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق».

٥١- ابن سيده (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م) أبو الحسن على بن إسماعيل الأندلسى «كتاب المخصص».

٥٢- سيدة إسماعيل كاشف: «مصر فى فجر الإسلام».

٥٣- ابن سينا (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م) أبو على الحسين بن على «القانون فى الطب» ٤ أجزاء، تحقيق: إدوار القش، مؤسسة عز الدين، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م - «الشفاء».

٥٤- السيوطى (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين «تاريخ الخلفاء» - «حسن المحاضرة»، «الشماريخ فى علم التاريخ».

٥٥- صادق رضا زاده حقق: تاريخ أدبيات إيران.

٥٦- شوقى ضيف: «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» - «الأدب فى العصر العباسى».

٥٧- ابن طباطبا (ت٧١٠هـ/ ١٣١٠م) محمد بن على بن طباطبا «الفخرى فى الآداب السلطانية».

٥٨- الطبرى: (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م) أبو جعفر محمد بن جرير «تاريخ الأمم والملوك».

٥٩- ابن طيفور (ت٢٨٠هـ/ ٨٩٤م) أحمد بن طاهر الكاتب «مناقب بغداد».

٦٠- عاشور، سعيد عبد الفتاح: «الحضارة الإسلامية»، «الحركة الصليبية»، «عصر المماليك فى مصر والشام».

٦١- عبد الرزاق، أحمد «الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى».

٦٢- عبد العزيز الدورى «مقدمة فى صدر الإسلام»، «التاريخ الاقتصادى للعراق فى القرن الرابع الهجرى».

٦٣- عبد المنعم ماجد: «الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى».

٦٤- ابن العبرى (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) أبو الفرج ابن هارون «مختصر تاريخ الدول».

٦٥- عطا ملك جوينى: تاريخ جهانكشاى - فاتح العالم. ترجمة وتحقيق د. فؤاد الصياد.

٦٦- ابن عساكر (ت٥٧١هـ/ ١١٧٦م) أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله «تاريخ دمشق».

٦٧- العتبى: تاريخ اليمينى.



٦٨- عصام الدين عبد الرءوف الفقى: «الحواضر الإسلامية الكبرى»، «الهند فى العصر الإسلامى»، «اليمن فى ظل الإسلام»، «الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق»، «تاريخ الفكر الإسلامى».

٦٩- عطية القوصى: «الحضارة الإسلامية».

٧٠- العينى (ت٨٥٥هـ/ ١٥١٤م) بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان».

٧١- فامبرى: تاريخ بخارى.

٧٢- أبو الفدا (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) إسماعيل بن على، عماد الدين «المختصر فى أخبار البشر».

٧٣- الفردوسى فى «الشاهنامه» تحقيق وترجمة د. عبد الوهاب عزام.

٧٤- فلهاوزن «تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية». فؤاد عبد المعطى الصياد: الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين.

٧٥- ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) أبو محمد عبد الله بن مسلم «الإمامة والسياسة»، «عيون الأخبار»، «المعارف».

٧٦- القرطبى (ت٦٧١هـ/ ١٢٦١م) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى، التفسير «الجامع لأحكام القرآن».

٧٧- القزوينى أحمد الله متوفى: تاريخ كزيده.

٧٨- القفطى (ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم «أخبار العلماء بأخبار الحكماء».

٧٩- القلقشندى (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م) أبو العباس أحمد «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا».

٨٠- ابن كثير (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل الدمشقى: «البداية والنهاية»، «تفسير ابن كثير».

٨١- الكرديزى: «زينة الأخبار»، ترجمة وتحقيق د. عفاف زيدان.

٨٢- كرد على: «الإسلام والحضارة العربية»، «أعلام الإسلام».

٨٣- الماوردى: (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٧م) أبو الحسن على بن حبيب «الأحكام السلطانية».

٨٤- المبرد: (ت٣٨٥هـ/ ٩٥٥م) أبو العباس محمد بن يزيد «الكامل فى اللغة والأدب».



٨٥- متز آدم: «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى»، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.

٨٦- محمد جمال الدين سرور: «تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق».

٨٧- المسعودى (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٦م) أبو الحسن على بن الحسين «مروج الذهب»، «التنبيه والإشراف».

٨٨- المقدسى: (ت٣٨٨هـ/ ٩٩٧م) «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم».

٨٩- المقريزى (ت٨٤٤هـ/ ١٤١٤م) تقى الدين أحمد بن على «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، «إغاثة الأمة بكشف الغمة».

٩٠- ماركبولو: رحلة ماركبولو.

٩١- المعرى: (ت٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) أبو العلاء: «سقط الزند»، «لزوم ما لا يلزم».

٩٢- مير خواند: روضة الصفا.

٩٣- ابن النديم: (ت٣٨٣هـ/ ٩٩٣م) محمد بن إسحاق «الفهرست».

٩٤- ابن النفيس (ت٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) علاء الدين على بن أبى الحزم: «رسالة الأعضاء» دراسة وتحقيق د. يوسف زيدان، الدار المصرية.

٩٥- نظام الملك: سياسة نامة.

٩٦- نظامى سمرقندى: جهار مقالة.

٩٧- النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى.

٩٨- نيكلسون «فى تاريخ التصوف الإسلامى».

٩٩- ابن الهيثم (ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) الحسن «كتاب المناظر» تحقيق عبد الحميد صبرة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣م.

١٠٠- الواقدى: (ت٢٠٨هـ/ ٨٣٢م) أبو عبد الله محمد بن عمر «فتوح الشام».

١٠١- ياقوت: (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى «معجم الأدباء»، «معجم البلدان».

١٠٢- اليعقوبى: (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر «البلدان»، «تاريخ اليعقوبى».



الدوريات:

- مجلة التراث العلمى العربى.
- دائرة المعارف الإسلامية.
- الأبحاث المنشورة فى المجلات العلمية.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

1. Arnold, T.W.: Arab Trawellers and Merchnts, A.D. 1000-1500 London, 1929.
2. Ashtor m. E. Histoire Des Prix et Des Salaries dans L, Orient Medieval, Paris 1969.
3. Cahen G.: Economy, Society, Institutions, The Cambridge History of "Islam" Cambridge 1970.
4. Goitein, s: A Mediterranean Society of The High Meddle Ages. V.I, New York, 1967.
5. Heyd, W.: Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age, T.II, Leipzig 1923.
6. Pirenne, H.: Historie Economir et Social du Moyen age, Paris, 1969.
7. Rice, D.S.: A drawing of The Fatimid Period, BSOAS, V. 21, Lodnon, 1958.
8. Rosental, F.: A History of Muslim Historigraphy, Leiden, 1968.
9. G. Le Strange, Gaghdad During The Abbasid Caliphate, Oxford, 1924.
10. G. Lestrange, The Lands of Eastern Caliphate, Cambridge, 1930.
11. Von Kremer, The Orient Under The Caliphs, Frand. By Khuda Buksh, Beirut, 1973.
12. Y. Wellhausen, The Arab Kingdom and Its Fall, Trans. by Weir, Calcutta, 1927.
13. G. Weit, Matériaux Pour un Corpus inscryptionum Arabicarum, Egypte, MIFAO; LII Le Caire, 1930.



٦٨



المحتويات

Abstract

With the rise of Islam the Arabs began to expand in Asia in order to spread the Word of God in the neighboring countries including Iran, Khurasan, Afghanistan, South Russia, and Syria. These conquests started during the age of the first Rightly Guided Caliph Abu Baker " May God be pleased with him"The Muslims under the umbrella of Jihad reached as far as Northern India to spread the religion of Islam, and that was how the pagan Indians abandoned their old idols and embraced Islam.

Another channel for the spread of Islam was through the merchants and their caravans who reached as far as China, Malaya, and East Indies. These countries produced prominent Muslim scholars, who had great impact on Western Europe, Which was at that time in state of backwardness.

Dr. Essam El - dine Abdel Raouf

(8)

Islam and Muslims in Asia

Dr. Essam El-Din Abdel Raouf



(٩)
القدس عبر العصور

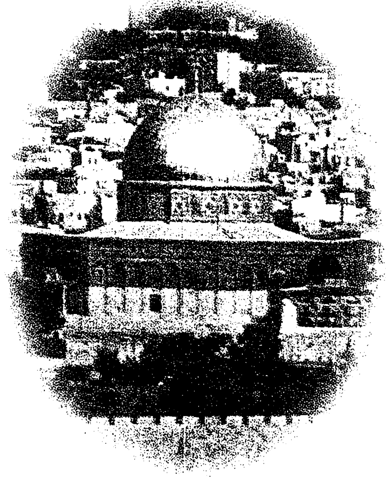
تأليف

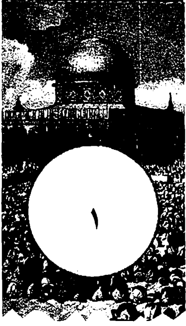
د. محمد جلاء إدريس

أستاذ الدراسات الإسرائيلية

ورئيس قسم اللغة العربية

كلية الآداب - جامعة طنطا







القدس عبر العصور هى تاريخ البشرية دون أن نبالغ. فهى مدينة ارتبط تاريخها بالقوى العظمى قديماً وحديثاً، ولا يمكن الحديث عن تاريخ القدس دون الحديث عن الساميين القدماء : العرب والكنعانيين والبابليين والآشوريين وغيرهم، ولا دون الحديث عن الفرس واليونان والرومان والفراعنة والمسلمين والصليبيين واليهود.

ولا يمكن لنا التغاضى عن الأتراك والمماليك والإنجليز والأمريكان والصهيونية والاستعمار والقومية العربية والصحوة الإسلامية المعاصرة.

ولابد من الغوص فى أعماق ما يسمى باليهودية والنصرانية، وكذلك الحديث عن الإسلام. وهل هذا كله إلا تاريخ البشرية ؟!

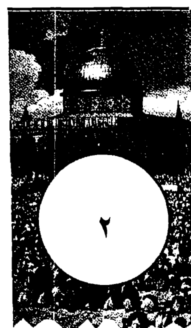
أمم وممالك وإمبراطوريات وشعوب وديانات وحضارات، ترتبط بدرجة أو بأخرى بالقدس.

هذا التشعب التاريخى يجعل من الصعوبة بمكان الإلمام بكل تاريخ المدينة على نحو مفصل، إذ أصبحت القدس هى التاريخ، وحصر التاريخ فى صفحات معدودات ضرب من ضروب المستحيل.

لذلك تأتى هذه الصفحات المحدودة، لتقدم لنا فى شكل موجز، محطات توقف عندها قطار التاريخ، نبين فيها المعالم البارزة، ونشير من خلالها إلى الأحداث التى يصعب أن نتجاوزها مهما كانت سرعة هذا القطار.

لقد بادت شعوب وممالك، ودالت أمم وحكومات، واندثرت آثار وانمحت معالم، وبقيت القدس.

لقداسة المدينة، وعظم مكانتها فى النفس البشرية، نقدم هذه الصفحات التى نعتبرها نوافذ نطل منها على تاريخ المدينة، فمن أراد أن يطيل الوقفة فليستزد مما سنلحقه فى الخاتمة من مراجع، ومن كان على عجل كفاه ما كتبناه، ففيه مفاتيح هذه القداسة، وسر تلك العظمة.



ولقد حـاولت التزام المـوضوعيـة والتمـسك بأهداب النصـوص التاريخـية واستخلاص التأريخ منها، والإشارة إلى مصادر هذه النصوص عند ذكر كثير من الحقائق، وبخاصة تلك الحقائق التى غـفل عنها المسلمون والعرب، وتغافل عنها الآخرون.

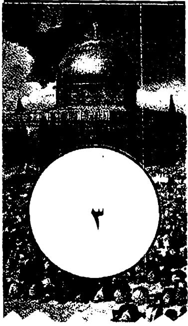
إن استعراض تاريخ مـدينة القدس عبر العصور على النـحو الذى أقدمه فى هذه العجـالة إنما يهدف إلى فـتح أبواب التاريخ لمن يريد الولوج إلى الأعـماق لمعرفة كثير من الحقائق والأسرار.

ولئن كان كل عصر من عصور الـقدس يستحق مؤلفًا مسـتقلاً، فإنى أذكّر فى هذا المقام بأن الهدف الرئيس من هذه الصفـحات هو ذكر المعالم دون الغوص فى التفاصـيل، مراعاة للهدف من المعالجة، والمقصد من النشر.،

والله أسأل أن يعيد للقدس سلامها وإسلامها، وأن يحفظها من الخبث والخبائث.

المؤلف

د. محمد جلاء إدريس



أسماء المدينة

ربما يندر أن نجد مدينة تعددت أسماؤها واختلف فى تأويل هذه الأسماء على نحو ما نجد فى أورشليم القدس.

ومما يثير الانتباه حقًّا أن تغفل الأسفار الخمسة المقدسة عند اليهود والنصارى (التوراة) عن ذكر هذه المدينة التى احتلت - فيما بعد - مكانة بارزة فى الفكر الدينى الإسرائيلى، إلا فى مجال الذكر العارض، وقد سجلت هذه الأسفار - وغيرها من أسفار العهد القديم - عدة أسماء لهذه المدينة، تعكس جانباً من تاريخها.

ففى سفر التكوين ١٤/ ١٨ - ١٩، يرد اسم «شاليم» وملكها المسمى «ملكى صادق»، وهو نفس الاسم الوارد فى المزمور ٧٦/ ٣ بصيغة «ساليم»، والأرجح هنا أن هذا الاسم ليس سوى اختصار للاسم الكامل الوارد فى نصوص أخرى وصيغته «أورشليم».

وورد فى سفر يشوع ١٩/ ١١ - ١٢ اسم آخر للمدينة وهو «يبوس»، حيث كانت مدينة لليبوسيين، لا يقطنها عبرى واحد.

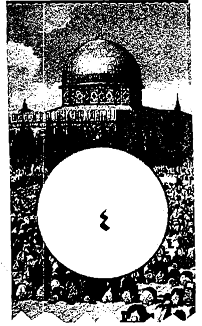
ويحمل سفر نحميا ١١/ ١ اسماً جديداً للمدينة هو : مدينة القدس، ويتكرر فى المزامير (١٣٤/ ٢-٣) وفى سفر إشعياء (٤٨ / ١ -٢).

وأورشليم ليست مدينة داود، ولا هى صهيون، إذ تفرق نصوص العهد القديم تفرقة حاسمة بين أورشليم من جانب، وصهيون أو مدينة داود من جانب آخر (مزمور ١٤٧/ ١٢، أشعياء ٣١/ ٩، ٤١/ ٢٧..).

فصهيون، هى مدينة داود، وهى قلعة داخل أورشليم، فهى جزء من المدينة، وأورشليم سابقة فى الوجود على وجود داود ذاته.

وجدير بالذكر أن هذه التسميات الواردة فى النصوص العبرية المقدسة (صهيون، بروشالايم «أورشليم»، القدس) ليست أسماءً عبرية أو يهودية، ولا يمكن ادعاء ذلك بأى وجه من الوجوه، وإنما هى أسماء كنعانية، عرفت بها المدينة قبل أن يدخلها الإسرائيليون.

وأول ذكر لأورشليم ورد فى تلك النصوص المصرية القديمة المعروفة باسم نصوص اللعنة، وهى شذرات من الفخار عليها نقوش بالمصرية الهيروطيقية القديمة، ويرى العلماء أن تاريخها يرجع إلى



زمن حكم الفرعون **سيزوستريس الثالث** (١٨٧٨ - ١٨٤٢ ق م) وضمت أسماء ١٩ مدينة كنعانية كانت «روشاليموم» من بينها.

وتدل أسماء أمراء أورشليم الواردة فى تلك النصوص المكتشفة على أن أهل أورشليم - شأنهم فى ذلك شأنْ أهل سوريا - كانت لهم أصولهم السامية الغربية، وأنهم يشتركون معهم فى نفس النظرة إلى العالم.

وعاد اسم أورشليم مرة أخرى للظهور - فى الوثائق المصرية أيضاً - حيث ورد فى وثائق **تل العمارنة** التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق م (يوروساليم)، كما وردت فى مخطوطات سنحاريب الآشورية (يوروساليمو).

وتشير المكتشفات السابقة إلى أورشليم كمدينة كنعانية، حيث لم تكن فى أرض كنعان وقتئذ دولة متحدة، وإنما جمع من تكتلات قبلية شبه جوالة، ومدن قليلة يسيطر على كل منها «ملك» يخضع بشكل عام لإحدى القوتين العظميين آنذاك : مصر جنوباً، وآشور شمالاً.

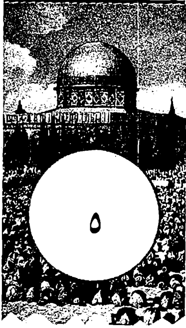
وجدير بالذكر أن تسمية «القدس» قد رافقت المدينة منذ بداية تاريخها - أى قبل غزو العبريين لها - عندما أقيمت فيها لأول مرة أماكن مقدسة خاصة بالعبادات القديمة، وقد ذكر المؤرخ اليونانى **هيرودوت** (٤٨٤ - ٤٢٥ ق م) مدينة كبيرة فى الجزء الفلسطينى من الشام وسماها مرتين «قديتس» (فى الجزء ٢ والجزء ٣ من تاريخه)، ويقول المؤرخ الفرنسى اليهودى سالومون مونك فى كتابه عن فلسطين : إن هذا الاسم على الأرجح هو القدس، محرفاً عن اليونانية عن النطق الآرامى «قديشتا».

ومادة هذا الاسم وهى : القاف والدال والسين (التى تقابلها الشين فى بعض اللغات السامية) تتعلق بالعبادة والطهارة والتخصيص، ومن ثم فإن دلالة «القدس» ترتبط على نحو ظاهر بالعبادة.

أما «حصن صهيون» فقد كان لليبوسيين - سكان المدينة الأوائل - قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية من أورشليم، كانوا يطلقون عليها اسم «صهيون»، تم إنشاؤها لحماية مدينتهم والدفاع عنها، وربما كانت حصناً خاصًّا بملك أورشليم.

ولفظ صهيون كنعانى - وليس عبرياً - ولا يعرف معناه، وقد صار يعرف هذا الحصن فى عهد المسيح عليه السلام باسم **جبل صهيون** (رسالة إلى العبرانيين ١٢/ ٢٢، إلى أهل رومية ١١/ ٢٦).

وقد ظلت قلعة صهيون منذ أن شيدت - ولا يعرف تاريخ تشييدها - هى وأورشليم فى حوزة أصحابها اليبوسيين حتى تم غزو داود لهما، والاستيلاء على هذا الحصن لدوافع عسكرية بحتة، ثم قام - فى إطار سياسة تغيير المعالم - بتغيير اسم الحصن، ونسبه إلى نفسه وسماه بمدينة داود (صموئيل الثانى ٥/ ٤ - ٢٠).



وثمة محاولات لربط اسم أورشليم بإله معبود فى هذه المنطقة، وأخرى ترده إلى صيغة آرامية مكونة من مقطعين : «**أور**» بمعنى موضع أو مدينة، «**سالم**» بمعنى السلام، وهو اسم إله وثنى لسكان فلسطين الأصليين، وذهب آخرون إلى أن الاسم أورشليم يتضمن اسم الإله السورى «**شالم**»، وهناك من ربط بين أورشليم وكلمة «شالوم» العبرية حتى يصبح الاسم ذا مغزى سياسى وهو «مدينة السلام».

وما سبق كله موضع نظر، إذ لا يوجد بين آلهة الكنعانيين إله بهذا الاسم، كما لم يكتشف - حتى الآن - أى معبد فى أورشليم يرجع إلى تلك الفترة التى ظهر هذا الاسم فيها، وليس من المعقول أن تسمى مدينة باسم إله - تعظيماً وتمجيداً له - ولا نجد له معبداً يتعبد فيه سكان المدينة الذين أطلقوا عليها اسم معبودهم.

أما محاولة «عبرنة» الاسم وربطه بكلمة «شالوم» فلا تعتمد على أسس منطقية أو تاريخية على الإطلاق، فليس ثمة وجود للعبرية يعتد به فى القرن ١٩ أو ١٨ ق م، وهو الزمن الذى ظهرت فيه تسمية أورشليم، بل هناك فاصل بين ظهور هذه التسمية وظهور اللغة العبرية يصل إلى ثمانمائة عام.

ولعل الربط بين أورشليم و«مدينة السلام» يرجع إلى موقعها الجغرافى كمحطة قوافل، تنعم فيها القوافل عند وصولها إليها بالسلامة والأمان، لأنها بعد هذه المحطة تستطيع أن توازى ساحل البحر حيث لا ينقطع الماء ولا الأمن، ومن هنا فهى «مدينة السلامة» لا «مدينة السلام».

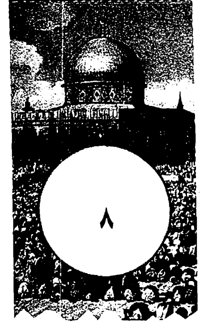
وقد سميت المدينة فيما بعد، فى العصر الرومانى، إيليا كابيتولينا، كما سماها العرب والمسلمون بيت المقدس.

عروبة القدس:

ثمة نصوص عبرية عديدة فى أسفار العهد القديم تشير إلى السكان الأصليين للقدس من ناحية، كما تشير إلى منشأ هذه المدينة وأصولها من ناحية أخرى.

ففى سفر يشوع (١٥/ ٦٣) إشارة إلى اليبوسيين ساكنى أورشليم وقت الغزو الإسرائيلى للبلاد، كما نجد الغازين من بنى يهوذا يدمرون أورشليم فى عصر القضاة، حيث ظل سكانها الأصليون فيها ولم يتمكن الإسرائيليون الغزاة من طردهم (القضاة ١/ ٨ - ٢١)، كما ذهب الملك داود ورجاله إلى اليبوسيين سكان أورشليم (صموئيل الثانى ٥/ ٦)، ولم يطرد داود سكان المدينة الأصليين منها، بل تزوج منهم وأنجب البنين والبنات (صموئيل الثانى ٥/ ١٣ - ١٥).

وقد أكد النبى الإسرائيلى حزقيال فى سفره (١٦/ ١ - ٤) على أن أورشليم مدينة كنعانية : أمورية حثية، والكنعانيون مهاجرون من الجزيرة العربية - أى عرب - استقروا فى فلسطين قبل



وادى سلوان الذى يتصل بوادى قدرون فى هذه النقطة نفسها، ويعرف عند اليهود باسم «هار هامشحيت» (الجبل الفاضح)، وقد ورد فى سفر الملوك الأول (١١/ ١-٨) أن سليمان قد أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الأجنبيات.

٣- **جبل صهيون**، ويقع فى جنوب غرب القدس القديمة، وكانت عليه قلعة حصينة أقامها اليبوسيون - السكان الأصليون للقدس - وشيدوا حولها سوراً فى طرفه برج عال للسيطرة على المنطقة من فوقه، وقد انتزع داود هذا الحصن من أصحابه، حيث نقل مقر حكمه إليه فى السنة الثامنة من ملكه.

وعرف هذا الجبل كذلك باسم «الأكمة» أو «أوفل» (الملوك الثانى ٥/ ٢٤، الأخبار الثانى ٢٧/ ٣، ٣٣/ ١٤، إشعياء ٣٢/ ١٤، ميخا ٤/ ٨)، ويبلغ ارتفاع جبل صهيون حوالى ٢٥٥٠ قدماً فوق سطح البحر، وينحدر باتجاه وادى قدرون.

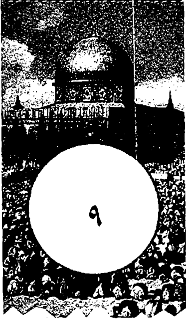
وقد أنشأ السلوقيون فى موضع حصن صهيون، فى عهد الملك اليونانى السلوقى أنتيوخوس الرابع (أبيفانوس) الذى حكم الشام من ١٧٥ - ١٦٤ ق م، قلعة عرفت باسم « **أكرا**» ومن ثم أصبح يطلق على هذا الجبل اسم «جبل أكرا».

٤- جبل موريا، جبل بيت المقدس، وهو الحرم الشريف، وبه يوجد **المسجد الأقصى**، وقد ورد اسم «موريا» فى سفر التكوين (٢٢/ ٢) فى قصة الذبيح ، حيث حدد الرب هذا الموضع كى يذبح إبراهيم - عليه السلام - ابنه عليه.

ويبلغ ارتفاع هذا الجبل حوالى ٢٤٤٠ قدماً، وسماه المؤرخ اليهودى يوسيفوس بالمدينة العليا، فى مقابل المدينة السفلى التى هى القسم الجنوبى من الهضبة الشرقية، أى موضع حصن صهيون.

٥- جبل المشارف، وسمى كذلك لأنه يشرف على القدس، ويبتدئ من شمالى شعفاط وينتهى بجبل الزيتون، ويقع فى شمالى بيت المقدس بانحراف قليل تجاه الشرق، ويرتفع عن سطح البحر بنحو ٨٥٠ متراً. ويسمى هذا الجبل أيضاً بجبل المشهد وجبل الصوانة، وكان معظم الفاتحين والغازين للقدس يقيمون معسكراتهم عليه، على نحو ما فعل القائد الرومانى **تيتوس** عام ٧٠م، والصليبيون عام ٩٩:١م تقريباً، ويمتعون أنظارهم بمرأى المدينة المقدسة، ويطلق الأوروبيون على هذا الجبل اسم «جبل سكوبوس» (باليونانية تعنى : المراقب أو الملاحظ)، بينما يسميه اليهود «هار هاتسوفين» وهى ترجمة للتسمية العربية، وقد أقام الإسرائيليون عليه الجامعة العبرية فى بدايات القرن العشرين.

أما أسوار المدينة فأقدمها يرجع إلى عهد اليبوسيين، وكان يحيط بحصن يبوس «حصن صهيون»، ويشكل شبه مستطيل يتوسطه الحصن، وكان النفق الذى يسحب المياه من عين جيحون ينتهى إلى البركة داخل هذا السور، وقد أقام داود بعد احتلاله للحصن فى القرن العاشر ق م أبنية



أضافها للحصن وقام بتغيير اسم المنطقة إلى «مدينة داود»، ثم اشترى بيدراً من «أرونة اليبوسى» شمال حصن يبوس وبنى فيه مذبحاً للرب، وربما قام داود بتوسعة للسور اليبوسى ليضم جبل المريا الذى يقع فيه البيدر المشترى، وطبيعى أن يكون سليمان قد قام بتقوية هذا السور وتوسيعه بعد أن شيد هيكله وقصره، وقد قام نبوخذ نصر فى غزوه لأورشليم بتدمير الهيكل والسور، ولا يوجد أى أثر لهذا السور حتى الآن.

وقد أعاد الإسرائيليون بناء هذا السور بعد عودتهم من النفى البابلى فى عهد نحميا فى منتصف القرن الخامس ق م والذى يعتبر بمثابة «السور الثانى» للمدينة، واستعملت نفس الأسماء القديمة لأبواب السور وأبراجه (انظر سفر نحميا ٣/١ - ٣٢)، وربما بقى هذا السور حتى عهد المكابيين (١٦٧ - ٣٧ ق م)، مع أن **بطليموس الأول** قد دك جانباً منه عام ٣٠٠ ق م، وانتيوخوس الرابع جانباً آخر عام ١٦٨ ق م، وفى عهد هيرودس الكبير (٣٧ - ٤ ق م)، تمت تقوية السور دون أى تغيير فى تخطيطه على الأرجح، وقد شرع اليهود فى عهد **هيرودس** أجريبا (٤١ - ٤٤ م) فى بناء سور جديد فى الجهة الشمالية، غير أن الإمبراطور الرومانى قلوديوس منعهم من مواصلة العمل، فأتموا البناء قبل حصار تيتوس لأورشليم عام ٧٠م، ويسمى هذا السور الثالث سور «هيرودس أجريبا»، وقد ضم منطقة «بيزثيا» الشمالية.

وجدير بالذكر أن مدينة القدس كانت وما زالت محط أنظار الدارسين التوراتيين والطامعين فى الكنوز الأثرية، وقد توالت البعثات التى سعت جاهدة لإثبات وجود صلة ما بين آثار المدينة والحوادث التوراتية، وباءت جهودها كلها بالفشل، ولم تعثر هذه البعثات على أية «بقايا يهودية» فى المناطق التى يحاولون تزوير تاريخها وتهويدها.

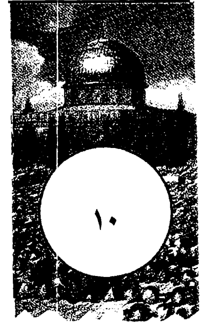
ونتيجة هذا الفشل، ظهر فى الآونة الأخيرة اتجاه جديد فى دراسة العلاقة بين آثار فلسطين والأردن من جانب، والكتاب المقدس من جانب آخر، وتزعم هذا الاتجاه كل من : لاب، دوفو، ديغر، فرانكن، وهم من رجال الدين العاملين بالآثار، وقد نادوا بالفصل الكامل بين الآثار الأردنية - الفلسطينية وأسفار العهد القديم ، بحجة أنهما يختلفان اختلافاً جوهرياً من حيث النوعية، فالآثار ملموسات مادية، بينما الكتاب المقدس كتاب روحى دينى.

وجدير بالذكر أن الآثار الفلسطينية لا تدل بشواهدها على مخلفات يهودية، لسبب بسيط للغاية، وهو عدم استقرار اليهود على أرض فلسطين بوجه عام.

أورشليم فى الفكر الدينى اليهودى :

• أورشليم والإله يهوه:

مع أن ذكر أورشليم قد ورد مبكراً مع ظهور إبراهيم - عليه السلام - على مسرح أحداث تاريخ بنى إسرائيل، إلا أنه من الصعب أن نستخرج كلمة واحدة من النصوص العبرية المقدسة تدل



على تفضيل هذه المدينة من قبل إله بنى إسرائيل، ولا من قبل بنى إسرائيل أنفسهم على مدى أسفار التوراة الخمسة، التى هى محل إجماع سائر الطوائف والملل من اليهود والنصارى.

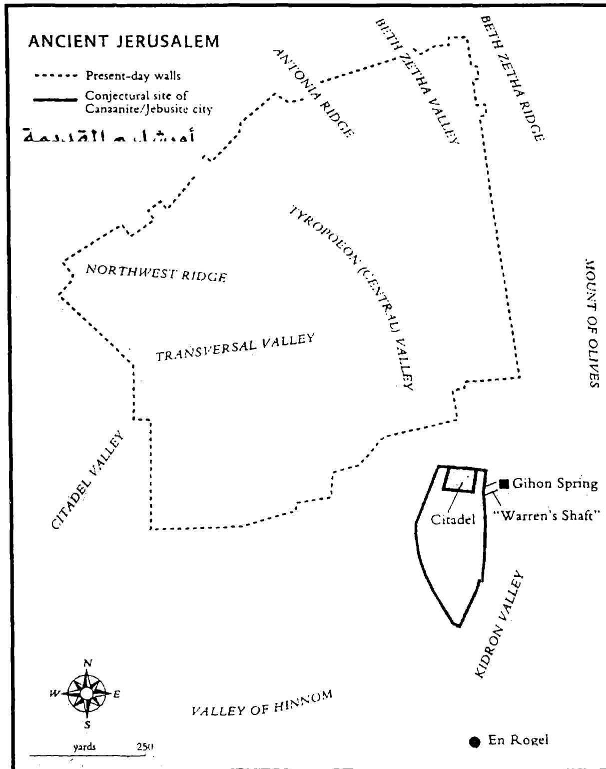
كما لا نجد شيئاً يدل على قداسة المدينة فى سفرى يشوع والقضاة، ولا حتى فى سفرى صموئيل الأول والثانى. فصموئيل النبى لا يذكرها على الإطلاق، وربما لا يعرفها، **وشاؤل** الملك لا يخبرنا بشىء عنها ولا تبدو على خارطة اهتماماته العسكرية والملكية، ولا يبدى داود - كذلك - خلال صراعه مع **شاؤل** ومع الفلسطينيين، أى اهتمام بالمدينة، لا عسكرياً ولا سياسياً، ولا دينياً، وهو الرجل المعتمد من قبل الرب - يهوه - مخلصاً لبنى إسرائيل من أعدائهم (صموئيل الثانى ٣/١٨).

ومات داود دون أن يخص أورشليم بوصية، وورث سليمان داود، ويرتكب - وفق رواية سفر الملوك الأول (١١/١- ١٠) - كل الموبقات المهلكات فى أورشليم، دون أن يحرك «يهوه» ساكناً لقداسة المدينة.

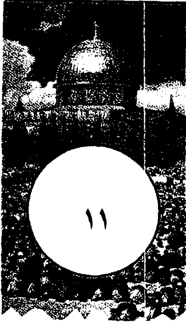
وفجأة، ودون سابق إنذار - يحدث التحول الخطير، ويختار إله إسرائيل أورشليم فى عبارة غامضة، دون إبداء الأسباب (الملوك الأول ١١/ ٩ - ٢٣)، الأمر الذى يجعلنا نرجح إقحام هذه العبارة على النص الأصلى، إذ لا



ملك يهوذا يسجد أمام نبوخذ نصر (الصف الثانى)



خريطة (١) أورشليم القديمة



علاقة لهـا بموضوع الفقرات السـابقة عليها، بل إن عـبارة «لأجل أورشليم التى اخترتها» لا تشير بالضرورة إلى أورشليم المدينة، وإنما هى كناية عن «سبط» يهوذا وهو السبط الذى اختاره الرب بالفعل منذ داود ليجـعل اسمه فيـه، ويؤكد ذلك العديد من نصوص أسفار العهد القديم التى يخاطب فيها إله إسرائيل «أورشليم» ويقـصد أهلهـا الساكنين فـيهـا من بنى إسرائيل (الملوك الثـانى ١٩/ ٣٢ - ٣٤، ٢٠/ ٥-٦، أخبار الأيام الثانى ٦/ ١-٩، أشعياء ٣٧/ ٣٥ وغيرها).

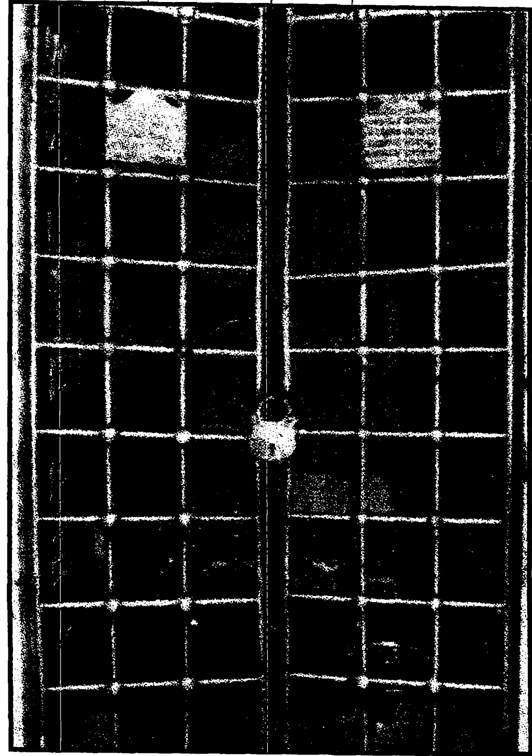
أما المزامـير فـتقـدم لنا لوحات من «الحب الإلهـى» و«الغزل اليـهودى» فى أورشليم وصهيون (مزمور ١٨٧ / ٢-٣، مزمور ١٤٧/ ٢ وغيرها).

كما يعـكس سفر إشعيـاء موقف الرب المقيم بأورشليم (إشـعياء ٤٩/ ١٤ - ٢٥، ٥١/ ١٧ - ٢٣، ٥٢/ ١، ٥٢/ ٧ - ١٠، ٦٢/ ١ - ٩).

وتنتهى إصحاحـات سفر إشعياء بوعود إلهية لأورشلـيم، كلها ذات طابع «يوتوبى» لم تتحقق فى تاريخ أورشليم حتى يومنا هذا، سواءٌ أكانت الوعود للمدينة أم لساكنيها من اليهود.

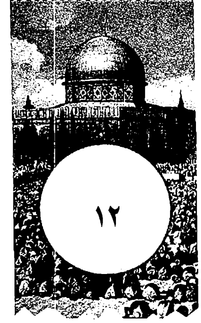
ولكننا نفـاجأ بموقف مـناقض من إله إسرائيل تجـاه أورشليم، وبخـاصـة بعـد إصـلاحـات الملك «يوشـيا» الثـورية التى أصلح فـيـهـا العقـائد الفاسدة، وطهر الأرض من رجـاسات اليهود، فـالرب يعلن رفضـه لأورشليم (الملوك الثـانى ٢٣/ ٢٧ - ٢٨) ويصب جام غـضبه عليـها - وعلى أهلها وسكانها من اليهود (إرميا ٤/ ١٠- ١٨، ٥/ ١ - ٣، ٩/ ٦-٨، ٧/ ١٧ - ٢٠).

مقام إبراهيم عليه السلام



وتشير إصحاحات سفـر إرميا ومراثى إرميا إلى مـا صـارت عليـه أورشليم وسكانهـا من احتـقار ربانى، ونبـذ وطرد من رحمـة «يهوه» وتهديد ووعيد لها.

ويسجل الإصحاح السـادس عشر من سفر حزقيال نعم وأفضال الرب على أورشليم، كما يسـجل - كـذلك - انـحـرافـات أورشليم وضلالاتها وما ينتظرها من ويل وثبور، إلا أننا نجـد - بعـد هذا كله فى نفس الإصـحـاح -

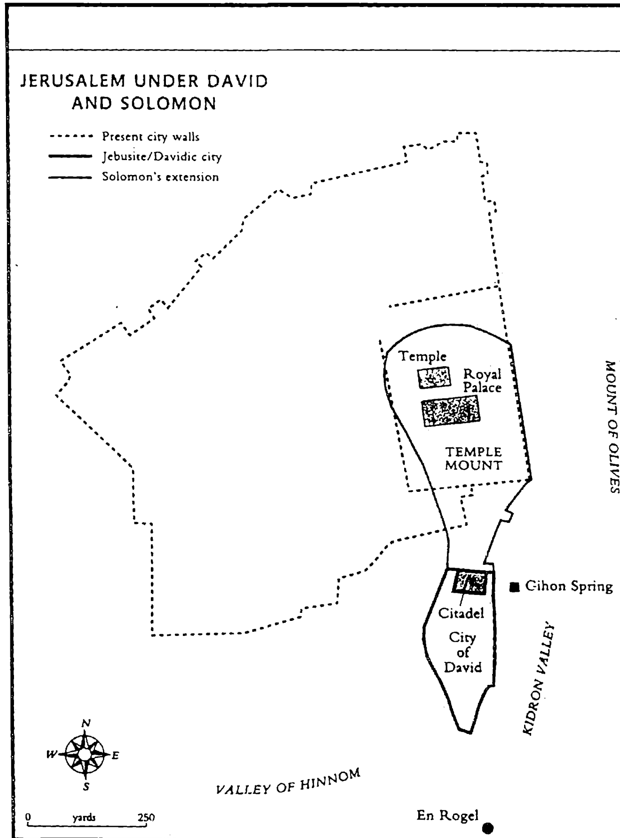


تراجعاً ملحوظاً من قبل الرب، وعودة محمومة إلى تفضيل المدينة وغفران ذلاتها ومحو سيئاتها.

وهكذا تتحول «المدينة السافكة الدم» ، «نجسة الاسم»، «كثيرة الشغب»، «المدينة الجائرة»، «المتمردة النجسة» (انظر سفر صفنيا)، إلى مدينة الرب المقدسة، التى يفعل الأعاجيب من أجلها (صفنيا ٣/ ١٤ - ٢٠).

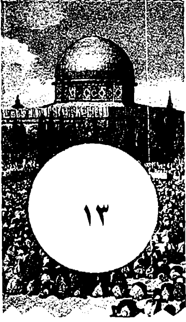
الهيكل بين الحقيقة والأسطورة:

بدأت فكرة بناء بيت «هيكل» (وكلمة هيكل التى يستخدمها اليهود علماً لبيت الرب ليست عبرية وإنما هى ذات أصل سورى بابلى) للرب فى ذهن داود بعد أن استقر فى أورشليم وثبت دعائم مُلكه، واستراح من الحروب، ونقل تابوت عهد الرب من بيت عوبيد أدوم الجتى، حيث بقى فيه ثلاثة أشهر فى أعقاب استرداده من الفلسطينيين إلى مدينة داود - صهيون - على نحو ما يذكر الإصحاح السادس من سفر صموئيل الثانى.



خريطة (٢)
أورشليم فى عصر داود وسليمان

لقد بدأ داود يفكر فى «محل إقامة» دائم للرب، كما أصبح له هو ذاته محل إقامة دائم فى صهيون وأورشليم، ويشير نص الإصحاح السابع من سفر صموئيل الثانى (١- ١٧) إلى استنكار إله إسرائيل لأن يكون له مقر دائم، إذ هو «إله جوّال». وبينما يرى داود بناء «بيت أبدى للرب» يعرب الرب عن رغبته فى بناء «بيت أبدى» لداود ونسله من بعده، أى استمرارية الملك الداودى والمملكة الداودية، لكن الرب - فى النهاية - يتراجع عن استنكاره ويعطى داود «ترخيصاً» لبناء البيت، لا لداود نفسه، بل لابنه الخارج من أحشائه.



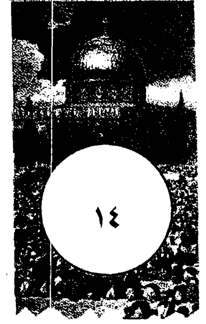
لم يتم تحديد الابن البانى للبيت من بين أبناء داود، كما لم يتم تحديد موقع البيت، لكن سليمان يتولى الملك بعد موت أبيه - دون أحقية له فى ذلك - حيث يخوض غمار سلسلة من العمليات : الحربية والسلمية، حتى تم تثبيت دعائم مملكته، ثم فكر سليمان فى بناء بيت الرب. ولما لم تكن لبنى إسرائيل أدنى خبرة فى الفن المعمارى والإنشائى، كما لم تكن لهم «صحيفة خبرة» فى عمليات البناء، فقد تم الاستعانة بملك صور، حيث زوده بالخبراء والفنيين والعمال، بل وأمده بمواد البناء المطلوبة لإتمام هذا العمل (سفر الملوك الأول ٥/ ١ - ١٨)، وتم إنجاز بناء بيت متواضع مساحته : ٦٠ ذراعاً طولاً × ٢٠ ذراعاً عرضاً × ٣٠ ذراعاً سمكاً (الملوك الأول ٦/ ٣٨)، الأمر الذى جعل ويلز H.G. Wells فى كتابه موجز تاريخ العالم (ص ٩٣) يقول عنه : «إننا لو استخرجنا أطوال معبد سليمان لوجدنا أنه فى الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحى».

تبدو المبالغة - إذن - فى هيبة البناء وعظمته واضحة جلية، وهذا ما يقوله أيضاً اليهودى الأمريكى لويس براون فى كتابه : حياة اليهود، إذ يرى أن إنجازات سليمان فى أورشليم - وفى مقدمتها قصره الملكى - كانت تبدو فى عيون اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور، مع أنها لو قورنت بالقصور الهائلة فى مصر أو بابل أو الهند لبدت ضئيلة، سمجة الذوق.

ومما لا شك فيه أن هيكل سليمان لم يكن نموذجاً معمارياً فريداً، فلم يكن الملك سليمان وقومه من ذوى الخبرة فى تشييد مثل هذه المعابد والهياكل، ولو كان الإسرائيليون القدامى، الذين عاشوا فى مصر عدة قرون، قد أسهموا - حسبما يزعم البعض - فى بناء الأهرام، لتوارث الإسرائيليون تلك الخبرة، وذلك التراث، وما جلبوا العمال والبناة من لبنان.

إن التصميم العام لهيكل سليمان يشابه إلى حد كبير المعبد الكنعانى، مع اختلافات يسيرة تحتمها اختلافات العقائد والشعائر، ولم يكن جل اهتمام سليمان هنا هو «فخامة الهيكل» وإنما كانت لسليمان رؤية جديدة، وخريطة متكاملة، لعاصمة تضم بين أسوارها المعبد والقصر وسائر المبانى الدينية والإدارية ومساكن زوجاته الكثيرات. لقد أقام سليمان فى أورشليم - عاصمة ملكه - حياً دينياً وآخر ملكياً، وثكنات للحرس، ومساكن لغير المؤمنين بشريعة موسى من نسائه، على نحو ما فعل مع بنت فرعون (الملوك الأول ٩/ ٢٤)، كما أقام سليمان الأسوار الفاصلة بين الأحياء والتحصينات والسلالم وخزانات المياه والأحواض والبرك.

ولإضفاء طابع التقديس على بيت الرب فى نفوس بنى إسرائيل، جمع سليمان شيوخ قومه ورؤساء الأسباط والآباء فى أورشليم، وأصعد تابوت العهد من صهيون - مدينة داود - إلى بيت الرب فى أورشليم لتبدأ صفحة جديدة لأورشليم فى الفكر الدينى الإسرائيلى.



وجـدير بالذكـر، أن إله إسـرائيل لـم يحـدد على الإطلاق، لا لداود ولا لسليمان، مكان إقـامة بيته وسكناه، وإنما كـان الأمر كله مجرد اختـيار حر من قبل داود وسليمـان، وهذا فى حد ذاته لا يعكس قداسة المكان الـذى أقيم عليه بيت الرب أو خصوصيته قبل البناء، وإنمـا اكتسب المكان ما اكتسب من تقديس وخصوصية بحلول تابوت العهد فـيه، وإن كان المكان كله، والمدينة برمتها، لم تكن قد احتلت مكانة فى الفكر الدينى الإسرائيلى إلا بعد سليمان بقرون.

والنص المقـدس الوارد فى سـفر الملوك الأول (٩/ ١-٩) يـقدم لنا شـروط سكنى الرب فى هذا البيت، وهى : أن يسلك سـليمان - كأبيه داود - طريق الرب بـسلامة قلب واستقامة، وأن يعمل سليمان بكل ما أوصاه به الرب، وأن يحفظ فرائضه وأحكامه، وأن لا يحيد بنو إسرائيل وأبناؤهم عن طريق الرب وأن يحفظوا فرائضه وأحكامه، وأن لا يعبد بنو إسرائيل آلهة الأمم الأخرى.

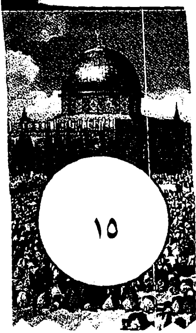
هذه الشروط جـميعاً - وهى شـروط تعاقد الرب لسكنى البـيت - لم تنفذ على الإطلاق من قبل سليمان وبنى إسـرائيل على نحو ما ورد فى نصوص أسفار العـهد القديم، وهذا يعنى «فسخ التعاقد»، وعدم سكنى الرب فى البيت المزعوم.

ومع أن سليمان - حسب روايات العـهد القديم - قد بنى العديد من البيـوت والهياكل لشتى الآلهة الأخـرى إرضاءً لزوجـاته (الملوك الأول ١١/ ٥ - ٨)، إلا أننا نجـــد بنى إســــرائيل يخصصـون قداستهم لهـيكل واحد دون سائر الهيـاكل والمرتفعات السليمـانية ربما لأن هيكل سليـمـان الأورشليـمى كـان «خـاصـاً» ببنى إسرائيل دون سـائر الأمم المجاورة، وربما لأنه - رغم مـساحـته المتـواضـعة - كـان أكبـرها وأعظمها، وربما لأنه كان فى العـاصمة، الرمز السياسى الوحيد فى تاريخ بنى إسرائيل، ومن ثم تمخضت حـوله وبسببـه تطلعات قوميـة ما كان لنـا أن نجدها حول سـائر المعابـد الأخرى التى بناها سليمان.

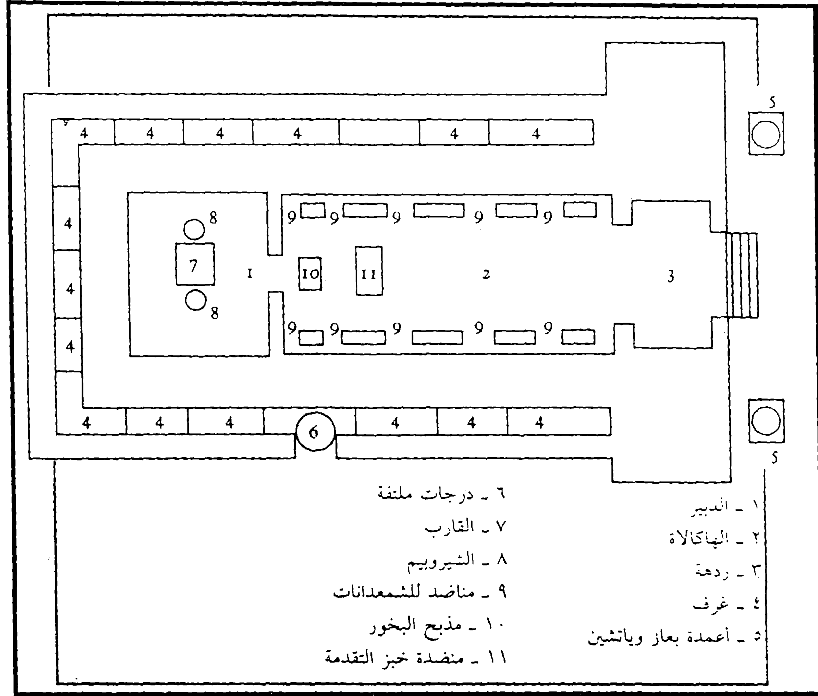
إن هيكل سلـيـمـان الوارد فى النصـوص العبرية المقدسة، كـان مكاناً خاصاً بعبادته هو وتضرعه للرب، ولم يكن مـقصداً لسائر أبناء قومه، على نحـو ما يفهم من سيـاق العبارات



تصور لهيكل سليمان



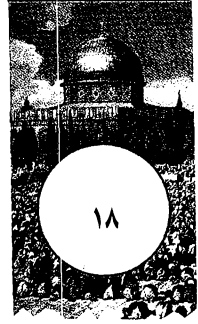
الواردة فى سفر الملوك الأول، ويؤكـد ذلك أن الهيكل، بل وأورشليم كلها، لم تكن محل قداسة على الإطلاق فيما بعد سليمان، لا من قبل بنى إسرائيل، ولا من قبل الأمم والشعوب الأخرى.



خريطة (٣)
رسم تخطيطى تخمينى لمعبد سليمان

فسفـر الملوك الأول (٢٥/ ١- ٣٠) وسفر أخبـار الأيام الثانى (٣٦/ ٢٠) يقدمان لنا انتـهاكات البابليين للهيكل والاسـتيلاء على ما فيه وتدمـيره تماماً. فيما يعرف بالسـبى البابلى عام ٥٨٦ ق م تقريباً، حيث تم سبى يهود أورشليم إلى بابل، وقضوا بها قرابة السبعين عاماً، حتى ظهرت مملكة فارس وتغـلبت على بابل، وسمـحت لليهـود - فى عهد الملـك الفارسى كورش - بالـعودة إلى أورشليم وإعادة بناء الهـيكل مرة ثانية بدعم مـادى كامل من الفرس وملكهم، وهو ما يقـدمه لنا سفر عـزرا بالتفصـيل، ونرى فيه بوضوح دور الجـوبيم «الأغيار» الحيـوى والجوهرى فى بناء هذا الهيكل للمرة الثـانية، كما نلاحظ أيضاً من خلال مـا ورد فى سفر عزرا اختلاف مسـاحة الهيكل الثانى عما كان عليه الهيكل الأول الذى دمره البابليون (عزرا ٦/ ٢-٤).

كما يقص علينا سـفر نحميا بالتفصـيل عملية إعادة إعمار أورشليم وتحصـينها، وهى تختلف عما رواه عزرا فى سفره، كما لا نعرف إذا ماكانت إعادة بناء الهيكل قد تمت فى نفس مكان هيكل سليمان أم فى مكان آخـر بأورشليم، لكن الأمر المؤكد هو زيادة مساحـة الهيكل الثانى عن الأول فى إطار سياسة التوسع الإسرائيلية بعد العودة من النفى البابلى.



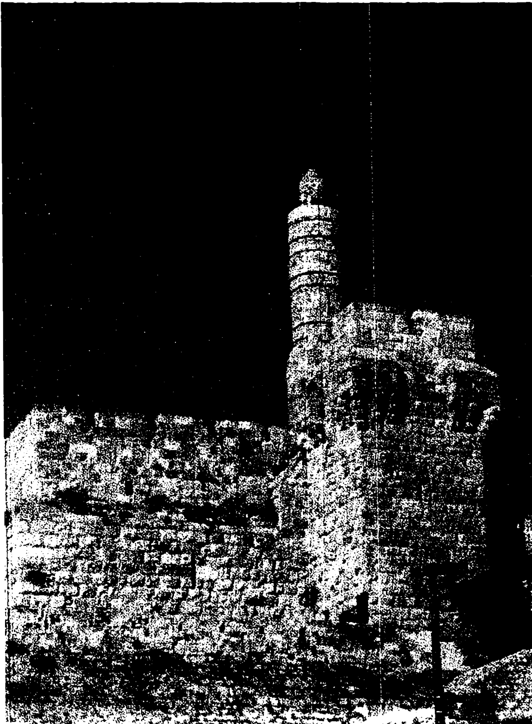
قبائل سيناء والنقب، أو أى من المملكتين الجديدتين : مملكة عمون ومملكة موآب على الضفة الشرقية لنهر الأردن.

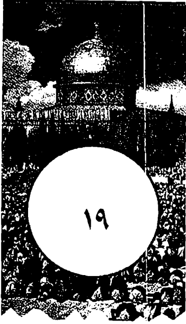
ويؤكد لنا تلك الأهمية الإستراتيجية ذلك التركيز من قبل داود على الاستيلاء على جبل أو حصن صهيون، وكانت فيه قلعة أمامية لليبوسيين يدافعون منها عن أورشليم.

ولما كان داود قد استولى على أورشليم بجنوده هو، فقد أصبحت المدينة - وفقا لعادات المنطقة - من ممتلكاته الشخصية، ويعكس هذا المفهوم تغيير اسم المدينة إلى مدينة داود (صموئيل الثانى ٥/ ٩)، وهناك من يرجح هذا الانتقال السلمى - دون حروب أو معارك - للحكم من أيدى اليبوسيين فى أورشليم إلى داود والإسرائيليين، إنما كان بمثابة «انقلاب عسكرى» تمكن داود وجنوده من خلاله من احتلال مكان الملك اليبوسى وحاشيته المقربة دون المساس على الإطلاق لا بالمدينة ولا بسكانها على النحو المألوف فى تاريخ الغزوات الإسرائيلية، وربما مهد لذلك أيضاً ما تشير إليه الفقرات العديدة من أسفار الكتاب المقدس من تعايش سلمى بين اليبوسيين والإسرائيليين منذ زمن (انظر : يشوع ١٥/ ٦٣، القضاة ١/ ٢١)، فلولا أن ثمة علاقة بين الغازين الإسرائيليين واليبوسيين سكان أورشليم الأصليين، ما التزم داود العدل والرحمة تجاه المغلوبين، وهو «رجل الدماء» (صموئيل الثانى ١٦/ ٧).

كما لم نسمع - على كثرة تفاصيل العهد القديم مع الأمم الوثنية عن تدخل من جانب داود بأى شكل من الأشكال فى الدين المحلى للسكان، بل إن الأفكار الدينية والعقائد التى تحمس لها اليبوسيون قد اندرجت فى سياق تطوير ديانة «يهوه» إله إسرائيل فى أورشليم، ومن ثم شهدت «مدينة داود» الجديدة تفاعلاً خلاقاً بين التقاليد اليبوسية والتقاليد الإسرائيلية، وانعكس ذلك على تلك الاستجابة السخية من قبل أرونة اليبوسى (ولعله آخر ملوك اليبوسيين فى المنطقة) لمنح «بيدره» لداود، كى يبنى مكانه مذبحاً لإله إسرائيل، بل دعا أرونة لداود وباركه (صموئيل الثانى ٢٤/ ٢١ - ٢٤).

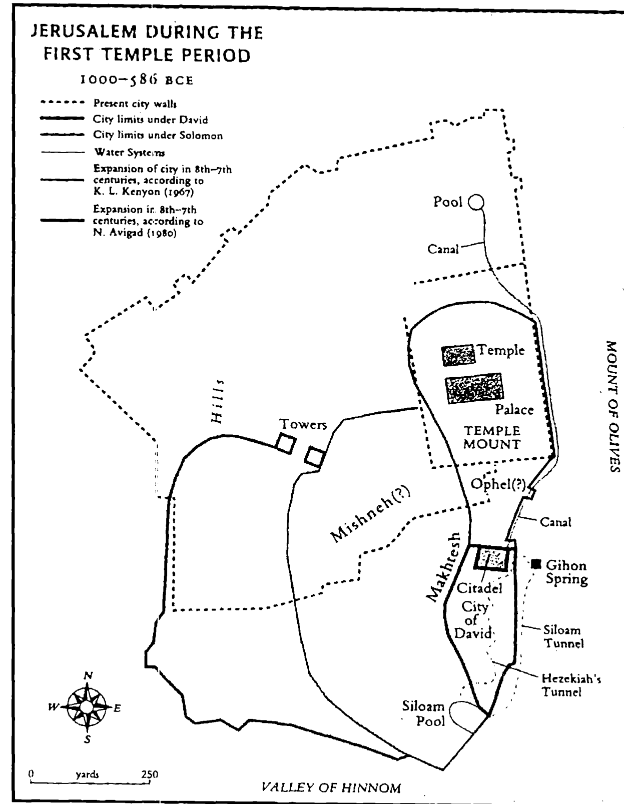
قلعة الخليل وبرج الملك داود - صورة حديثة





ومما لا شك فيه أن داود كان بحاجة لجهود اليبوسيين فى المدينة وخبرتهم فى الشئون المالية والسياسية، إذ لم يكن الإسرائيليون الغازون يتمتعون بالخبرة اللازمة لإدارة شئون المملكة التى تعتبر نظاماً سياسياً جديداً غير مألوف فى التاريخ الإسرائيلى الذى لم يشهد من النظام الملكى سوى عصر **شاؤل** المضطرب.

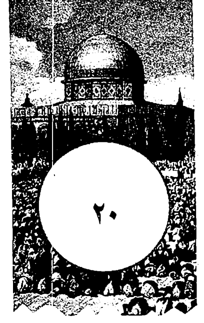
وكان داود قد أخذ من نساء أورشليم زوجات له وأبرزهن بتشبع زوج أوريا الحثى اليبوسى (صموئيل الثانى ١١/٣ - ٢٦) التى أنجب منها ابناً، ليكمل لنا بذلك التزاوج صورة الانصهار اليبوسى - الإسرائيلى فى أوضح مظاهرها، بل إن هناك من يرى أن النبى ناثان - المعاصر لداود - (صموئيل الثانى ١٢/١-١٥) كان يبوسياً، كما يذهب البعض إلى أن صادوق - رئيس كهنة أورشليم - كان من اليبوسيين كذلك، استناداً إلى أن الاسم «صادوق» يبوسى وليس إسرائيلياً.



خريطة (٤)
أورشليم فى زمن المعبد الأول

وبحنكة داود السياسية، وتدعيماً لملكه، استقدم داود تابوت العهد من المدينة الكنعانية «قريات يعاريم»، وأودعه فى أورشليم، ليجعل من هذه المدينة مركزاً للرابطة بين الأسباط الاثنى عشر.

ثم جاء سليمان وريثاً لعرش أبيه داود، وليبنى الهيكل - على نحو ما أسلفنا - فى أورشليم، دون تحديد من الرب لمكان البناء، ودون تقديس للمدينة بأسرها، لا من قبل سليمان ولا من قبل أتباعه، إذ تشهد أسفار العهد القديم بأن أورشليم - بعد وفاة سليمان - لم تكن لها أدنى قداسة عند يربعام بن نابط الإفرايمى ولا عند رحبعام بن سليمان، بل إن يربعام قد أقام فى «شكيم» بديلاً عن بيت الرب الأورشليمى ليجذب الناس إليه، ويحول أنظارهم عن هيكل سليمان وعن أورشليم كلها.



أما من جاء بعد سليمان من ورثة وحكام على أورشليم من أمثال رحبعام وأبيام ويهورام بن يهوشافاط وأخزيا بن يهورام ويهودياع ويهوآش وأمصيا بن يهوآش وعزريا بن أمصيا وآحاز بن يوثام ومنسى وصدقيا وحزقيا بن آحاز وغيرهم، فجميعهم لم يبدوا أقل قدر من القداسة أو الاحترام لأورشليم والهيكل، ودنسوا المدينة وعاثوا فيها فساداً، وارتكبوا شتى الموبقات فيها وفى هيكلها، وفى سفر الملوك الثانى كله تفاصيل تاريخ هؤلاء ومواقفهم تجاه أورشليم وتجاه الهيكل، باستثناء حزقيا بن آحاز الذى أعاد للمدينة بعض قداستها، وكذلك محاولات الملك يوشيا الإصلاحية التى شملت كافة جوانب الشريعة وبيت الرب وتطهير أورشليم (الملوك الثانى ٢٣/ ٤- ٢٠).

اللاهوت الأورشليمى فى الفكر الدينى الإسرائيلى:

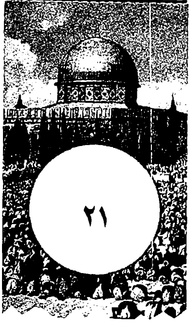
فى النفى البابلى - وبعده - بدأت ملامح لاهوت (فكر دينى) يجعل من أورشليم نقطة ارتكازه ومحوره، ومع إسقاط ملك اليهود نهائياً من على أرض أورشليم على أيدى البابليين فى القرن السادس قبل الميلاد، بدأت أورشليم القدس تأخذ شكلاً صوفياً عند اليهود، وتحولت إلى رمز للوطن الضائع، فى الوقت الذى تحرك فيه التعصب الطبقى لليهود المنفيين إلى بابل، والذى كان يشعرهم بأنهم متميزون حاكمون فى فلسطين، لقد تحول هذا التعصب الطبقى إلى تعصب دينى وعنصرى.

وجدير بالذكر أن هؤلاء اليهود المنفيين فى بابل لم يحيوا فى المنفى حياة الأسر والمذلة، بل تمتعوا بملذات الحياة فى بابل، وبأمر الرب إله إسرائيل، على نحو ما صوره لنا سفر إرميا (٢٩/ ٤-٧)، وربما كانت مشكلتهم الوحيدة هى استحالة الإعلان عن عبادتهم للرب «يهوه» حسب تقاليدهم، أى : فى أورشليم.

ومن هنا كان تركيز المنفيين على حب أورشليم، وعلى جميع الشعائر الدينية التى يمكن أن تجعلهم متميزين على غيرهم، وأن تفصلهم وتفردهم عن ذلك المحيط الجديد.

ومع أن الهيكل السليمانى الأورشليمى كان يزخر بصور «وثنية» فى ظاهرها، فقد أصبح من المؤسسات التى تتمتع بأكبر إعزاز وتكريم فى إسرائيل، وكان بعض الأنبياء المصلحين يبدون اعتراضهم عليه ويحثون الناس على العودة إلى «دين الخروج من مصر»، زاعمين أنه أنقى وأصفى، لكن مع التدمير البابلى لهذا الهيكل، شعر معظم المنفيين بأن عالمهم قد أصابه الفناء، ومن هنا تحول الفكر اليهودى تجاه الهيكل تحولاً ملحوظاً فى معناه ومبناه.

لقد أسهمت أحاسيس الاغتراب فى المنفى، وآلام النزوح، فى التحول الفكرى إلى الأساطير القديمة، ومن ثم تصوروا العودة إلى المكان الذى عليهم أن يقيموا فيه، وابتكر «حزقيال» فى رؤياه



هيكلاً فى وسط المدينة فى إطار خريطة مقدسة، هذا الهيكل يطابق هيكل سليمان الذى أصبح حطاماً (حزقيال ٤١/٣-٤)، لكنه يختلف عن الهيكل السليمانى فى أمرين مهمين : فلم يعد قصر الملك مجاوراً للهيكل، وأصبحت مبانى محاطة بفناءين حولهما الأسوار (انظر حزقيال ٤١).

إن وصف حزقيال لأرض الميعاد - فى رؤياه - يختلف تماماً عن جغرافية هذه الأرض الطبيعية، فمدينة «يهوه شمه» (أى : يهوه هناك) تختلف عن أورشليم من حيث إنها «مركز الأرض» نفسه، كما أنها كانت أكبر من مملكتى إسرائيل ويهوذا معاً.

لم تكن رؤيا حزقيال بـ «الوطن الموعود» فى حقيقتها وصفاً واقعياً لوطنه، بل هى صورة روحية أكثر منها واقعية، فالهيكل أو المعبد هو نواة حقيقة العالم، يليه المدينة المحيطة به، ثم منطقة خاصة يشغلها القائمون على الكهانة والقداسة وهم : الملك والكهنة واللاويون.

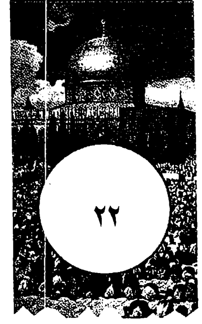
إن التفاصيل الدقيقة التى يرسمها لنا حزقيال فى رؤياه للمعبد والمحراب وطقوسه وكهنته قد تم تصويرها فى وقت لم يكن ثمة أمل فى تنفيذها، إذ كان المعبد قد دمر تماماً، ومع ذلك فقد أسهمت - على ما يبدو - «خصوبة بابل الطبيعية» فى «خصوبة الخيال اليهودى».

لم تكن تلك النصوص العبرية الحافلة بالتفاصيل الدقيقة عن هذا المكان المقدس، على نحو ما نجد فى سفر حزقيال، معبرة عن أوضاع قائمة بالفعل وقت كتابتها، ولا حتى قبلها. لقد أصبحت أورشليم - وفق الفكر الناشئ فى النفى - «قيمة» داخلية فى نفوس المنفيين، وأصبحت صورة للخلاص الذى يمكن تحقيقه.

إن «الأحلام الحزقيالية» لم تكن أحلاماً قابلة للتحقيق، بل لم يطلب حزقيال نفسه تحقيق هذه الأحلام، ولم يفكر المنفيون فى التطبيق المادى لها، بدليل أنه لما أتيحت الفرصة لهؤلاء المنفيين كى يعودوا إلى «أرض الأحلام» فضّل كثير منهم البقاء فى بابل لأمر بسيط للغاية، وهو أنهم كانوا يدركون أن الوجود الجسمانى المادى فى أورشليم ليس ضرورياً وفق قيمهم الجديدة تجاه صهيون وأورشليم.

لقد كان حزقيال يتطلع إلى «يوتوبيا» متمثلة - فى تحول روحانى يتم بموجبه منح «يهوه» لشعبه قلباً جديداً وروحاً جديدة، ومن ثم لم يكن «الخلاص» ليتمثل فى بناء هيكل جديد وحسب وإنما فى بعث «شخصية يهودية» جديدة تماماً.

لكن يبدو أن أحلام حزقيال ورؤاه الطوباوية المثالية لم تكن بينها وبين الواقع أية وشائج، إذ كانت قلوب العائدين من المنفى قد استعاضت عما يرى فيها من دماء، بعنصرية بغيضة جعلتهم ينظرون إلى الأمم الأخرى كأعداء لهم، بل إنهم كانوا يرون فى «عام هآرتس» أى : اليهود الباقين



فى أورشليم، ما يرونه فى الأغراب الجوييم، وإن كان - وفقاً لشرعة القداسة - يسمح لهم بدخول أورشليم. إن العائدين من المنفى لم يبدوا أى ترحيب بالعيش مع إخوانهم «عام هآرتس»، ومن هنا لم تحقق أورشليم السلم المنتظر، بل تحولت إلى موضع خلافى فى الأرض المقدسة.

وهكذا ضاعت أحلام حزقيال، وشطحات إشعياء، وعاد المنفيون ليجدوا هيكلاً مادياً جديداً، لكنه فقد شيئاً رئيساً لم يعثر عليه حتى الآن، ألا وهو تابوت العهد، الذى انقطعت أخباره منذ النفى البابلى وحتى يومنا هذا.

إن النصوص العبرية التى تصف لنا ما بعد النفى لا تشير إلى عودة الإله «يهوه» إلى صهيون على النحو الذى تنبأ به إشعياء، ومع هذا فقد استمر الناس يحلمون بأورشليم الجديدة، فالآمال القديمة لم تمت، وأصبحت أورشليم رمزاً للخلاص النهائى الذى لم يتحقق حتى الآن (انظر إشعياء ٦٥/١٧ - ٢٥).

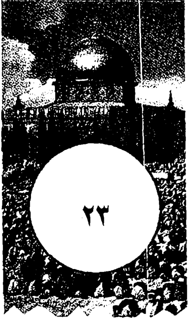
إن الحقبة التاريخية التالية لإشعياء ونبوءته حول أورشليم لتفيد بوقوع عكس ما جاء فى هذه النبوءة، فالوثنية القديمة مازالت تعشش فى أوكارها وأسوارها، والمشاكل الاجتماعية متأججة، فالقادمون من المنفى يسعون إلى استبعاد الآخرين من المدينة وقصرها عليهم فقط مع أن الرب يقول: «بيتى بيت الصلاة، يدعى لكل الشعوب» (إشعياء ٥٦/ ٧).

ومنذ رؤى حزقيال ونبوءات إشعياء، وحتى وقتنا هذا، لم يسجل لنا التاريخ اليهودى - المثبت فى كتبهم المقدسة وغير المقدسة - تحقيق ما جاء فى هذه الرؤى والنبوءات، وأغلب الظن أنها لا تعكس واقعاً دنيوياً، بل ربما كانت صورة من صور الملكوت الربانى المنتظر فى الآخرة.

لقد أسهمت كل هذه الأحلام والرؤى فى خلق «لاهوت» أورشليمى تضخم مع مرور الزمن، وازداد تضخمه مع تداخل العناصر السياسية والمصالح الدنيوية فى العصر الحديث.

لكن ثمة قضية مهمة تنسف هذا اللاهوت بأكمله، ألا وهى قضية الفهم الخاطئ لعلاقة الرب بأورشليم.

فالعلاقة «السكنية» بين «يهوه» والهيكل في أورشليم تحددها بنود واضحة فى عقد السكن المزعوم على نحو ما جاء فى سفر الملوك الأول (٩/ ١-٩)، تتمثل فى التزام بانى الهيكل (سليمان) بسلامة القلب والاستقامة والعمل حسب وصايا الرب (الساكن) وحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه، كما اشترط الساكن (الرب) شرطين يتم بموجبهما فسخ العقد، وهما: تخلى صاحب العقار (سليمان) وورثته (بنى إسرائيل) عن طريق الرب وعدم حفظ وصاياه، وعبادة المالك وورثته للآلهة الأخرى والسجود لها.



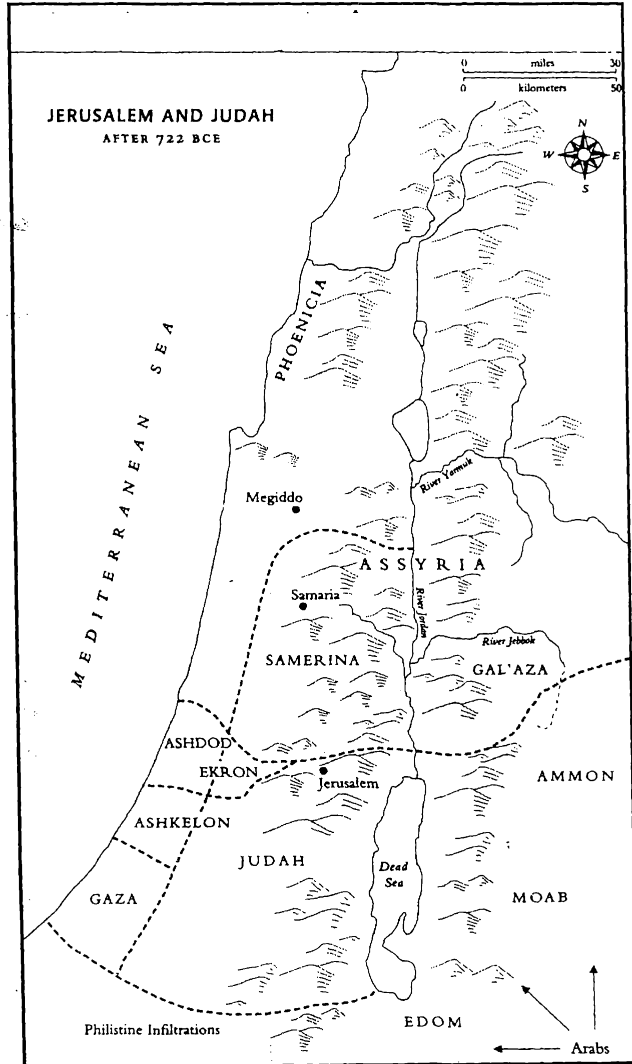
وسفر الملوك كله يضم «شهادات موثقة» و«محاضر» مسجلة تسجيلاً أميناً لإخلال المالك وورثته بشرطىّ سكنى الرب وإقامته فى البيت، ومن ثم فإن الرب لم يسكن على الإطلاق فى هذا المكان.

ونتيجة عدم الالتزام الإسرائيلى، والإخلال ببنود العقد السابقة، فقد أعلن إله إسرائيل بطلان العقد (الملوك الأول ١١/١١-١٣)، بل وقام بتوقيع العقوبات الملائمة على بناة البيت وأصحابه.

لكن إله بنى إسرائيل يعطى الفرصة مرة أخرى للعودة والسكنى فى بيته الأورشليمى والعودة - كذلك - مشروطة (نحميا ١/٨ - ٩).

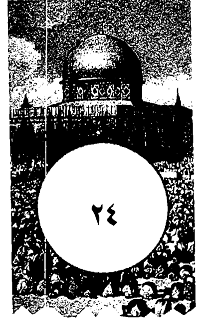
وتم بناء البيت المدمر على أيدى الفرس، وتجدد العقد مع الرب للسكنى فى بيته بأورشليم، وأخل بنو إسرائيل مرة أخرى بشروط العقد، مما يؤكد عدم إقامة الرب فى البيت المزعوم.

هكذا تبدو الحقيقة المؤلمة : أساطير تحاك حول بيت مهجور. الرب - وفق حكمه وشروطه - لا يسكن فيه، حتى تابوته المقدس، لم يعد له ذكر، بل لم يعد له أثر لا من الناحية المادية الملموسة، ولا من الناحية المعنوية المتمثلة فى تطبيق ما فيه، ومع هذا يتضخم اللاهوت حول أورشليم وبيت الرب، ليصبح هذا التضخم صعب الاستئصال لتشعبه فى الفكر اليهودى تشعباً سرطانياً، ولم تعد هناك إمكانية تدخل جراحى يعيد الأمور إلى نصابها.



خريطة (٥)

أورشليم ويهودا بعد عام ٧٢٢ ق م



وأصبحت أورشليم محور الفكر الدينى الإسرائيلى:

فهى تحدد موقف الرب من الشعب ومن الأغيار.

وهى مقدسة فى ذاتها، وجالبة القداسة لمن يسكن فيها.

وهى مصدر الشريعة.

ومركز العبادة .

و. . . و. . . (انظر إشـــعـيــاء ٢/٢-٣، ٤/٢-٦ ، ٣٣/ ٢٠-٢٤٤، ٤٩/٢٤- ٢٥ ، ١/٥٢، ميخا ٢/٤، مزمور ١٣٧ / ١-٤، زكريا ٩/٩-١٠ . . .)

ويقدم لنا الإصحـاح الستون من سفر إشعـياء صورة أورشليم المستقـبل، وأبعادها على النحو التالى :

* ستكون أورشليم - وبالطبع سكانها اليهود - مصدر هداية للأمم : شعوباً وملوكاً.

* سيطرة أورشليم - واليهود - على مقدرات الأمم وثرواتها.

* اتخاذ أمم العالم أورشليم قبلة لهم، تهفو إليها نفوسهم ويتجهون إليها بكل ما لهم.

* الويل والهلاك لكل من لم يخضع لسلطان أورشليم.

* استنزاف أورشليم لموارد الأمم والشعوب الأخرى.

* حصول الشعب اليهودى الأورشليمى على براءة من الرب، ومجازاته بميراث الأرض.

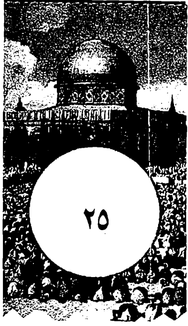
هذه النقاط المستقاة من نص إشعياء تشكل بؤرة الشعور فى العقل الإسرائيلى، ودستوراً للعمل اليهودى على مر العصور.

وجدير بالذكر، أن الحـديث عن أورشليم - على نحو ما قدمنا - لا يعنـى الحديث عن مدينة ذات شوارع ومـبان، وإنما المقـصود هنا من أورشليـم هو اليهود، وأحـاديث الرب إليهـا إنما هى أحاديث موجهة لمن فيها من البشر، لا إلى محتوياتها الصماء.

هكذا كان تـاريخ أورشليم القدس المادى حـتى فترة العـودة من النفى البابلى، وهـكذا أصبح وضعها المادى، ومكانتها المعنوية حتى تلك الفترة.

وإن كانت أورشليم بمكانتها المعنوية فى نفوس اليهود لم تتـغير كثيراً، فإن أوضاع المدينة المادية وأحوالها قد تغيرت وتبدلت وفق معطيات الزمن ووقائع التاريخ.

لقد أعاد قمبيز الفارسى بناء المعابد والمدن التى حل الخراب بها، وكان ضمن هذه الخطة الرامية إلى استتـباب الأمن والسلام فى مملكته، إعـادة بناء أورشليم ومعبد الإله يهـوه فيها، حتى اعـتبر



النبى اليهـودى إشعياء الثـانى الإمبراطور قمـبيز المسيح المخلص لليـهود، الذى مسح «يهـوه» على رأسه بالزيت المقـدس وكلفه بمهمـة خاصـة، هى إعادة بناء أورشليم ومعبدها.

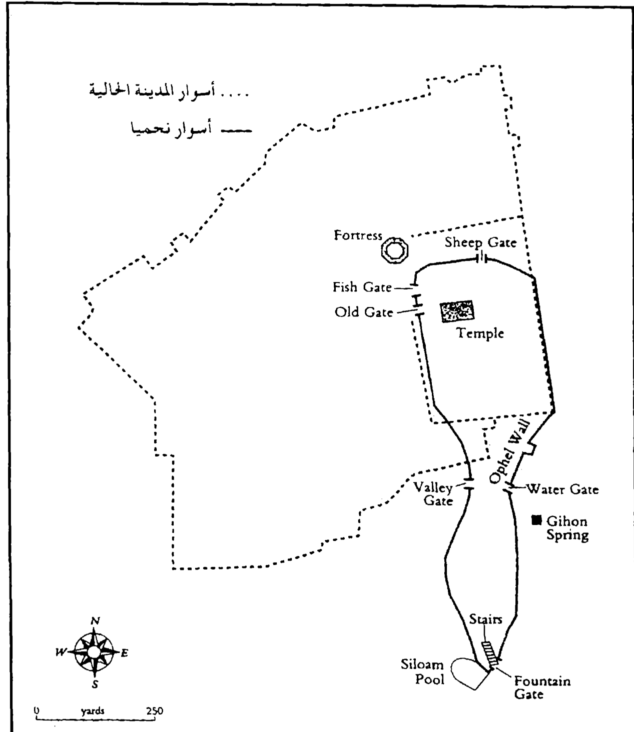
كما أعاد قمبيز إلى معبـد أورشليم الأوانى الفضية والذهبية التى كان نبوخذ نصر البابلى قد صادرها إبان غزوه للمدينة ونفيه لسكانها.

لكن اليهـود المنفيين فضلوا البـقاء فى بابل على العـودة إلى مدينة أورشليم الخربة، ولم يعد منهم سـوى القليل، واستقر آخرون منـهم فى المناطق المعمورة من يهودا والسامرة.

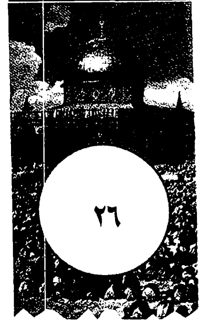
ولما تولى الملك الفارسى **دارا الحكم** عـام ٥١٩ ق م تقريبـاً وكان العـمل فى بناء المعـبد قـد توقف، اشتعل الحـماس من جديد، عندما وصل زربابل (أخبار الأيام الأول ٣/ ١٩) حـفيد الملك يهوياكين إلى أورشليم من بـابل مع يشوع حفيـد آخر كبيـر للكهنة فى المعبد القـديم، وتم إرساء أسس المعبد الثانى بحلول خريف عام ٥٢٠ ق م.

وحدث الشقاق بين الإسـرائيليين، إذ اعتبر اليهود العائدون من المنفى أنفـسهم الممثل الشرعى الوحيد لإسرائيل، ونظروا إلى بقية الإسرائيليين على أنهم من الأعداء، ولم يرحبوا بدخول هؤلاء إلى المدينـة المقـدسـة، وهكذا فـإن أورشليـم الجـديدة لـم تأت بالسـلم المأمول إلى البلاد بل أصـبحت موضع خلاف ونزاع بين بنـى إسرائيل، وربما تعرضت أورشليم للمزيد من الأضرار فى عـام ٤٥٨ ق م، إبان الاضطرابات التـى نشـبت فى شـتى أنحـاء الإمـبراطورية الفـارسيـة عند اعتـلاء كسرى عرش فارس.

ولما عـاد عـزرا من فـارس إلى أورشليم (٣٩٨ق م تقـريباً) فى عـهد الملك أرتخشتا الثـانى، فوجئ بما عليه المدينة من خـراب (نحـميـا ٢/ ١٣)،



خريطة (٦)
أورشليم فى عصر نحميا



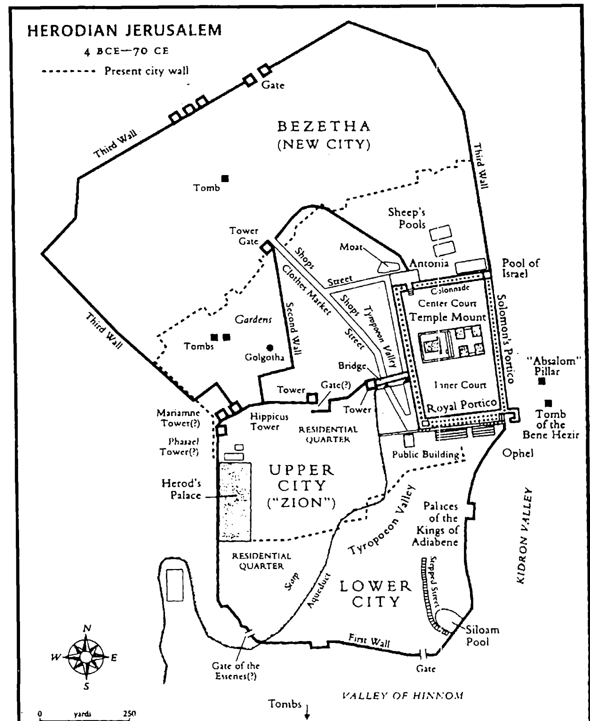
وبدأ يحث قومه على رفع العار ومحو المهانة عن أورشليم، واستجابوا له، وبدأوا فى بناء أسوار جديدة للمدينة فى وقت قياسى، واقتصرت عمليات إعادة الأعمال على مدينة داود القديمة، وقام نحميا فى مدة حكمه الثانية التى بدأت عام ٤٣٢ ق م تقريباً. بإصدار قانون جديد يحظر على أفراد اليهود العائدين من المنفى الزواج من يهود أورشليم الذين بقوا فيها.

لقد كانت الإصلاحات الدينية التى قام بها اليهود المنفيون فى بابل إبان القرن الخامس قبل الميلاد هى الأساس الذى شكل جوهر الديانة اليهودية، وأصبح الانتماء إلى إسرائيل مقتصرا على سلالة الذين نفوا إلى بابل.

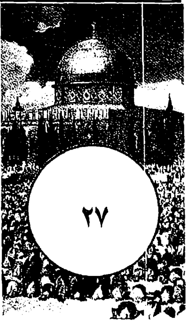
ومنذ تلك الفترة، أصبح تاريخ أورشليم يتميز بالاتجاه إلى استبعاد الشعوب الأخرى بصورة حاسمة، وتضاءلت أخبار المدينة فيما بعد عزرا، وحتى عصر الإسكندر المقدونى.



كان انتصار الإسكندر المقدونى على دارا الثالث ملك الفرس بالقرب من نهر إيسوس، فى أكتوبر عام ٣٣٣ ق م، بمثابة صدمة ليهود أورشليم، إذ كانوا أتباعاً مخلصين للفرس الذين أعادوهم إلى المدينة وساعدوهم فى إعادة بناء الهيكل بعد تدميره على أيدى البابليين عام ٥٨٦ ق م ويذكر المؤرخ اليهودى جوسيفوس فلايوس (عاش فى القرن الأول) أن الكاهن الأكبر قد رفض التسليم للإسكندر حيث أقسم على أن يظل موالياً لآخر



خريطة (٧)
أورشليم اليهودية



ملك من ملوك الفرس، لكنه رأى رؤية جعلته يستسلم، وبعد أن وعده الإسكندر باستمرار تطبيق القانون اليهودى على جميع اليهود فى شتى أنحاء إمبراطوريته.



الإسكندر الأكبر

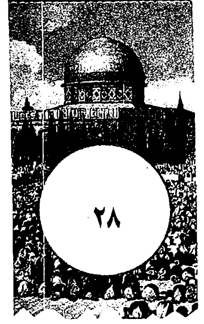
وليس ثمة أدلة على زيارة الإسكندر لأورشليم، وبقى اليهود على حالهم، إلا أن آثار الفكر اليهونانى الهلينى قد قسمت اليهود إلى فريقين : أحدهما معارض لهذا الفكر، والآخر متعاطف معه، واستمر الصراع بين الفريقين نحو ثلاثة قرون.

وبعد وفاة الإسكندر الأكبر فى بابل عام ٣٢٣ ق م، ساد الاضطراب إمبراطوريته حيث نشبت معارك خاضها الخلفاء الستة (أطلق عليهم الديادوك) - حيث لم يكن للإسكندر من وريث سوى طفل صغير - وتعرضت منطقة يهوذا - حيث، كانت معبراً للجيوش السائرة من آسيا الصغرى إلى سورية أو مصر - لعمليات غزو متواصلة، وفتحت أورشليم ست مرات على الأقل خلال العقدين التاليين لوفاة الإسكندر.

وقد قسمت إمبراطورية الإسكندر الأكبر فى النهاية بين قواده، فقبض **بطليموس** على زمام الأمور فى مصر واختار الإسكندرية عاصمة له، وأصبح سلوقس مسيطراً على الشمال بعد سنوات، وكانت له عاصمتان : أنتيوخ على نهر العاص فى سورية، وسلوقيا فى بابل، وبعد صراع بين القائدين، انتصر بطليموس وخضعت أورشليم فى القرن التالى لأسرته، بدءاً من عام ٣٠١ ق م، وقد أخذ **بطليموس** معه إلى مصر عدداً كبيراً من الأسرى اليهود، أصبحوا فيما بعد مركزاً لما يسمى بيهود الشتات Disapora Jewry.

وتعد هذه الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد من فترات الاستقرار النسبى، وإن حاول السلوقيون عدة مرات أخذ البلاد. وقد أقام البطالمة نظاماً جديداً للإدارة يراعى خصوصيات كل منطقة من مناطق حكمهم، ولم يكن من شأنهم التدخل كثيراً فى الشئون المحلية للسكان، وازدهرت أورشليم، واستمرت العبادة فى المعبد، وفى عهد بطليموس الثانى ترجم العهد القديم العبرى إلى اليونانية، وهى تلك الترجمة المعروفة بالسبعينية.

وظلت أورشليم فى نظر يهود العالم مدينة مقدسة، معبدها هدف روحى لهم، وهى قبلة لهم، وكان على كل يهودى أن يرسل كل عام نصف شيكل كضريبة، وكانوا يحجون إلى أورشليم كلما أتيحت لهم الفرصة.

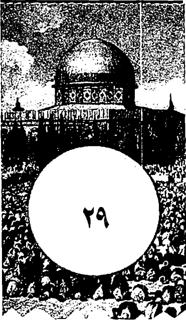


ولم تتأثر أورشليم فى أول الأمر بالثقافة الهلينية العلمانية الجديدة، حيث لم يهتم البطالمة كثيراً بأرض يهودا، واستمرت التوراة قانوناً لليهود كما كانت عليه منذ أيام الفرس، واستمر الكهنة فى حكم أورشليم، ومن المحتمل أن يكون البطالمة قد عينوا وكيلاً محلياً «أويكونوموس» للإشراف على شئون يهودا، ومن المحتمل كذلك أنهم كانوا يرسلون حامية عسكرية للدفاع عن أورشليم فى زمن الحرب على الأقل، ولكنهم كانوا يتركون لليهود - فى معظم الأوقات - تصريف أمورهم بأنفسهم، واقتصرت صلتهم الرئيسة بالحكومة المصرية على دفع الجزية التى التزموا بدفعها كل سنة ومقدارها عشرون مثقالاً من الذهب.

وقد نجح أحد أبناء أورشليم اليهود ويدعى يوسف خلال فترة حكم بطليموس الثانى (٢٨٢ - ٢٤٦ق م) فى الحصول على منصب جابى الضرائب لمقاطعة سورية كلها، وكان يوسف ينتمى إلى عشيرة طوبيا، واستطاع أن يدخل النظام التمويلى المصرفى اليونانى إلى القدس، بل أصبح أول صاحب مصرف من بين اليهود، الأمر الذى أدى إلى ازدهار اليهود الاقتصادى، وفتح الباب أمام التأثيرات اليونانية التى كان أفراد عشيرة طوبيا من روادها والمتحمسين لها، وبدأ اليهود فى العالم الإغريقى يشاطرون اليونان إحساسهم فى «المواطنة العالمية» وكسر قيود الانغلاق التى فرضتها عليهم عقيدة «الشعب المختار»، وإن لم نعدم وجود يهود عارضوا هذا الانفتاح وتمسكوا بتقاليدهم القديمة.

أورشليم فى عهد السلوقيين
٢٠٠ق م - ٦٣ق م

قام الملك السلوقى أنتيوخس الثالث فى أواخر القرن الثالث ق م بالاستيلاء على السامرة وساحل فينيقيا، إلا أن **بطليموس الرابع** تمكن من إجلائه عن هذه الأقاليم، ولما كان «الطوبيون» على علاقات وثيقة مع البطالمة منذ أن أصبح يوسف رئيس جباة الضرائب لهم، فقد أعرب يهود أورشليم المحافظون عن دعمهم ومؤازتهم للسلوقيين، ولما عاد أنتيوخس الرابع لغزو البلاد من جديد عام ٢٠٤ ق م، أعانه اليهود على فتح قلعة أورشليم عام ٢٠١ ق م واحتلالها لعام كامل حيث عاد البطالمة إلى البلاد وأجلوه عنها فى العام التالى. وفى عام ٢٠٠ ق م تعرضت أورشليم لحصار طويل ودمار شديد بعد نجاح أنتيوخس فى استعادة السيطرة عليها، حيث كافأ يهود أورشليم على دعمهم له، وعين سمعان الثانى (من أسرة أونياد) رئيسا لهم، وبهذا تفوق اليهود المحافظون على اليهود الطوبيين المنحازين إلى اليونان، واستمر اعتبار التوراة قانون البلاد، وتم



تطهير أورشليم من كل ما يدنسها، وسنت قوانين يهودية معادية للأغيار (الجوييم) الأمر الذى أجج روح العداء بين اليهود وهؤلاء الأغيار.

وليس ثمة دليل على ظلم السلوقيين لأهل فلسطين، ولكنهم أرادوا تقريبهم من الأساليب اليونانية فى الحياة.

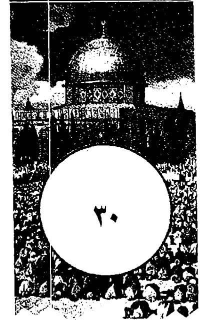
كما يشير المؤرخ اليهودى بن سيراه إلى الأعمال الإنشائية الكبيرة التى أنجزها سمعان الثانى فى أورشليم حيث أصلح أسوار المدينة ومداخل المعبد الذى أصيب ببعض الأضرار إبان حصار عام ٢٠٠ ق م، كما قام بحفر خزان للمياه شمالى جبل المعبد.

وجدير بالذكر أن أهل أورشليم قد أصيبوا بداء حب المال والرشوة، ومع أن عقيد اليهود ترى فى أورشليم مأوى للفقراء، إلا أن أهل المدينة باتوا يرون الفقر عاراً، ومن ثم أزاحوا الفقراء من طريقهم.

وقد شهدت أورشليم صراعاً بين من مالوا إلى الهلينية والمحافظين، وبرزت مظاهر هذا الصراع فى عام ١٨٠ ق م تقريباً عندما اتهم أونياس الثالث - الكاهن الأكبر وابن سمعان الثانى - باكتناز المال فى خزانة المعبد، حيث أرسل الملك سلوقس الرابع وزيره هليودوروس من أنطاكية إلى أورشليم لإحضار المال المكتنز الذى كان الملك يعتقد أنه من حق الدولة، إذ إنه ملتزم بدفع جميع نفقات شعائر أورشليم الدينية من دخله الخاص، الأمر الذى يخول له - فى رأيه - حق التحكم فى الشئون المالية للمعبد. لكن الملك السلوقى لم يكن يقدر حساسية المعبد بالنسبة لليهود؛ لذلك قوبل الوزير المبعوث بحالة من الهياج والاضطراب بين يهود المدينة، إذ اعتبروا أى محاولة لانتهاك قداسة المعبد ضرباً من الاغتصاب، واعتبر أعداء أونياس أنه مسئول عن تلك الأحداث، وقام أخوه يشوع بالتقرب من الملك سلوقيوس وقدم له رشوة ضخمة مقابل تعيينه كاهناً أكبر محل أخيه، وفر أونياس من البلاط ثم قتل بعد ذلك.

ولم يكن يشوع محافظاً، بل كان من أنصار الهلينية، لكن من الصعوبة أن تتحول أورشليم إلى مدينة يونانية فى وقت قصير نظراً لخصوصيتها بين اليهود آنذاك، إلا أن مظاهر الهلينية بدت واضحة فى المدينة، إذ أقيمت صالة مغطاة للألعاب فى أورشليم بالقرب من المعبد، وبدأ الشباب فى تعلم الفلسفة اليونانية والموسيقى وممارسة الألعاب الرياضية، وإن ظلت التوراة قانوناً للمدينة، وأصبح الكهنة يشاركون فى هذه المظاهر، ربما على أمل إنعاش اقتصاد المدينة، وتمادى دعاة التحول إلى الهلينية فى دعوتهم رغبة فى التخلص من انغلاق اليهودية وانعزالها.

وفى عام ١٧٠ ق م حاول يشوع (وكان يدعى كذلك جاسون) الإطاحة بالنظام السلوقى الحاكم إثر إشاعة مفادها مصرع أنتيوخس فى معركة مع الرومان فى مصر، لكن النبأ لم يكن صحيحاً مما دفع أنتيوخس إلى الانقضاض فى ثورة عارمة على المدينة، حيث نهب خزانة المعبد



واستولى جيشه على المذبح الذهبى وقاعدة المصباح وحجاب قدس الأقداس وجميع الآنية والمباخر، وأقيم حصن حربى سمى حصن أكرا للاحتفاظ بالرقابة الحربية على المدينة.

وقد اعتبر اليهود هذه الأحداث انتهاكاً سافراً لأقدس مكان عندهم، وتحولت أورشليم بعد ذلك إلى مستعمرة عسكرية حيث أرسل أنتيوخس فى العام التالى فرقة عسكرية جديدة قامت بغزو أورشليم فى عطلة السبت وهدمت بعض أسوار المدينة.

وجاءت الفترة الأخيرة من عهد السلوقيين فى محاولة لتغيير حالة أورشليم إلى الهلينية، وأصبح يطلق على المعبد «**معبد زيوس**» ومارست الفرق اليونانية طقوسها فيه، وأدخلت تمثال زيوس، وتم تقديم لحم الخنزير (وهو محرم فى الشريعة اليهودية) على مائدة قربان المعبد، ومزقت صحف الشريعة، وكان الإعدام مصير كل من حاول الحفاظ على تقاليد السبت والأعياد والطهارة، بل كان اليهودى يحاكم إذا ما رفض أكل لحم الخنزير أو عدم السجود لتماثيل اليونان، ولم يبق إلا قلة من «الحسيديم» المتدينين الذين كانوا يؤدون الشعائر الدينية سراً.

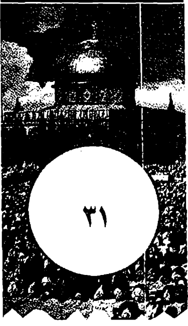

رأس تمثال زيوس

كما أصدر أنتيوخس مرسوماً يحظر ممارسة العبادات اليهودية فى يهودا، وإعدام كل من يخالف ما جاء فى هذا المرسوم، ثم اضطر انتيوخس إلى إلغائه عام ١٦٤ ق م، حيث تمكنت يهودا من السيطرة على أورشليم وإن لم تستطع زحزحة اليونانيين أو اليهود السائرين فى ركاب الهلينية من أكرا.

وبدأت عملية. إعادة تطهير الهيكل وتعميره مرة أخرى، وأعيد تكريس المعبد مرة أخرى بعد ثلاث سنوات من تدنيسه حيث أعلن اليهود هذا اليوم (٢٥ كسلو ١٦٤ ق م) يوم عيد «التدشين» (الحنوكاه)، ويحتفل به سنوياً حتى الآن.

تمرد الحشمونيين (المكابيين):

كان من نتائج تلك التغيرات الجوهرية فى الحياة اليهودية الأورشليمية ظهور «المتنبئين» الذين قاموا برسم صورة أحداث الأيام الأخيرة على الأرض من خلال خيالاتهم، كنوع من مقاومة الوضع الجديد، كما لجأ آخرون إلى معارضة هذا الوضع بالسلاح.



وأدى التدخل السلوقى السافر فى أحـوال اليهود وأورشليم إلى خلق حزب وطنى قـوى، وقاد اليـهودى مـاتاثيس (متى فـياس) عـام ١٦٧ ق م ثورة على السلوقـيين السوريين بمعـاونة أبنائه الخـمسـة، وخاضـوا حرب عـصابات ضـد السلوقيين فـى وقت كان السلوقيـون فيه يعـانون من الصراعات الـداخلية على السلطة، حيث اسـتغل يهودا بـن ماتاثيس تأليب بعض السلوقـيين على البعض الآخر، وقـد انتقلت الزعـامة إليه فى أعـقاب وفـاة أبيه، وتسمـى يهودا باسم المكابى (بمعنى المطرقة)، وعرفت حركته التمردية هذه باسم الحركة المكابية، وإن كانت الأسرة تسمى بالحشمونية نسبة إلى حاشمون، الجد الأعلى لأبى يهودا.

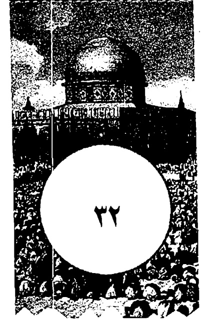
وكان يهـودا محارباً، واسـتطاع أن يحول الجـماعات اليـهودية المحيطة به والتـى كانت تشكل عصابات من المقاتلين إلى جيش نظامى، ويسجل لنا سفر المكابيين أربع معارك رئيسة خاضها اليهود فى تلك الفترة، حيث قتلوا القائد اليونانى أبولونيوس فى الـسامرة، كما هزموا القائد سيرون عند بيت حورون ومنعـوه من دخول أورشليم، وهزموا أيضاً حـملة أمانوس على بعد ١٥ مـيلاً غربى أورشليم، وحملة أخرى عند بيت زور جنوب المدينة، ومن ثم أصبح الطريق إلى أورشليم مفتوحاً أمام اليهود، حيث اجتمع المكابيون اليهـود عند جبل صهيون وكانت القوات السلوقية لاتزال خلف الأسوار المحصنة فى قلعة أكرا.

وتفيـد الروايات المكابية أن يهودا ورجـاله لم يعيدوا احتـلال المدينة، وإنما سيطروا على معـبد الصخرة، ويبدو أن أورشليم قـد بقيت فى أيدى اليونان تحت حماية قلعة أكرا ورجـالها، بينما فر باقى السكان من المذابح إلى القرى، وظلت المدينة قاعدة للسلوقيين.

وقد قتل يهودا المكابى فى معركة السـا على بعد ١٢ ميلاً شمال أورشليم فى عام ١٦٠ ق م، وانتقلت زعامة المتمردين من بعده إلى أخيه يوناثان الذى تمكن من دخول أورشليم عام ١٥٢ ق م كزعيم محارب وككبير للكهنة وكحـاكم فعلى لليهود، وقد عينه الملك ديمتريوس الذى تولى عرش السلوقيين عام ١٦٢ ق م، وأصبحت أورشليم فى قبضة اليـهود المكابيين، فأعيد بناؤها وتحصينها، وفى الوقت نفسه بقى حصن أكرا معقلاً للهلينية.

وبعد مـقتل يوناثان الذى حكم اليهـود من ١٦١ - ١٤٣ ق م، والذى استطاع أن يستفـيد من خلافات الأسرة السلوقية الحاكمة لتحقيق أكبر قدر من الفوائد والمزايا لليهود، تولى أخوخ شمعون الزعامة والكهانة، واستطاع أن يستولى على حصن أكرا عام ١٤١ق م.

وجدير بالذكـر أن المكابيين اليهـود قد سمـوا أنفسـهم بالملوك مع أنهم كانوا تابعين ويدفـعون الخـراج للسلوقيين حـتى تمكن شـمعـون من الحـصول على إعـفـاء من دفع هذا الخراج من قـبل الإمبراطور ديمتـريوس الثانى عام ١٤٣ ق م، الذى عينه حاكـماً على اليهود، واعتبـره اليهود ملكاً يتولى ورثته الحكم من بعده، حتى ظهور «نبى معتمد».



وقد اعتبر اليهود عام ١٤٣ق م عصراً جديداً وأرخت الوثائق الرسمية باسمه وبسنة حكمه، وانتهى عصر حكم الكهنة التقليدى، ليبدأ حكم ملكى اعترف به الإمبراطور السلوقى، وليبدأ حكم أورشليم حتى الفتح الرومانى عام ٦٣ ق م إضافة إلى سنوات معدودة بين ٤٠ - ٤٧ ق م.

وقد تميزت الأسرة الحشمونية، أو المكابية، بالقوة، وازداد سكان أورشليم فى عهدها، ووفد إليها الحجاج من كل مكان.

ولما قتل شمعون عام ١٣٥ ق م، تولى الحكم من بعده ابنه جون هيركانوس الذى تمكن من ضم أجزاء من شرقى الأردن والسامرة فى الشمال وأرض أدوم إلى بلاده، كما تمكن من عقد هدنة مع انتيوخس سيدتس آخر الملوك العظام فى الأسرة السلوقية، الذى غزا فلسطين فى عهد هيركانوس.

وشهدت فترة هيركانوس خصاماً مع رجال الدين اليهود - الفريسيين - وساعده فى ذلك الصدوقيون أعداء الفريسيين.

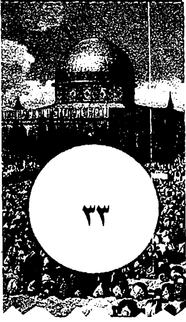
وبعد موت هيركانوس عام ١٠٥ ق م، ورثه ابنه يهودا ارستوبولس الذى حكم عاماً واحداً، وجاء من بعده أخوه الإسكندر ينای، وقامت فى عهده حرب أهلية بين الصدوقيين الذين مع التزامهم بالرموز الدينية العريقة، كانوا قد اكتسبوا الطابع الهلينى وأقاموا علاقات طيبة مع جيرانهم الوثنيين، وبين الفريسيين الذين كانوا ملتزمين بمراعاة التوراة مراعاة دقيقة وصارمة، وكانوا يرون أن الحكام الحشمونيين لا ينبغى لهم شغل منصب كبير الكهنة، وانتهى الأمر إلى الاعتقاد بأن الحكم الأجنبى لهم أفضل من حكم هؤلاء اليهود الفاسدين.

وقد يكون هؤلاء الفريسيون هم الذين دبروا الثورة على يناى وهاجموا المعبد أثناء احتفال اليهود بعيد «السكوت» (المظال) الأمر الذى جعل الملك المكابى الإسكندر يناى يعدم ستة آلاف رجل منهم.

كما اندلعت ثورة أخرى، قام على أثرها يناى بصلب ثمانمائة متمرد فى أورشليم وذبح زوجاتهم وأطفالهم أمام أعينهم وهم فوق الصلبان، وكان خلال ذلك يتمتع بالمشهد أثناء مأدبة حافلة ويلهو مع محظياته.

وقد وسع يناى حدوده بحيث شملت من جبل الكرمل شمالاً إلى قطاع غزة جنوباً، وغرب الأردن والبحر الميت وشريط من شرق الأردن، من غرب سورية فى الشمال إلى الطرف الجنوبى للبحر الميت.

ولما كان يناى على فراش الموت قام بتعيين زوجته «سالومى» وريثة للعرش، إذ كان له ولدان صغيران، وقد حكمت سالومى من ٧٦ - ٦٧ ق م.

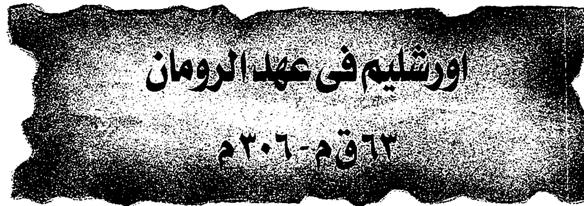


وقد عينت سالومى ابنها الكبير هيركانوس كبيراً للكهنة، وكان شأن الفريسيين قد ارتفع فى عهدها ارتفاعاً عظيماً، إلا أنه بوفاتها نشب الصراع على كرسى الملك بين الأخوين هيركانوس الثانى واريستوبولوس الثانى، وبدأ كل منهما يستعين بقوات أجنبية، فساعد الأنباط العرب هيركانوس، وتمكن بفضلهم وفضل الحاكم غير اليهودى لإيدومية العربية «أنتى بيتر»، من السيطرة على الأراضى العليا، وتراجع أريستوبولوس إلى أورشليم واحتمى بأسوارها.

فى ذلك الوقت، كانت روما تغزو أرمينيا، وأرسلت قوة إلى الجنوب للاستيلاء على دمشق، وعندما سقطت دمشق، تقدم ماركوس سكاوروس للاستيلاء عليها، وسمع بالثورة فى بلاد يهودا. ولما أتى القائد الرومانى بومبى إلى سورية ودخل دمشق، اتجه إلى الجنوب حيث احتل أريحا وتقدم إلى أورشليم، حيث طلب منه التوسط بين الأخوين المتحاربين، واستطاع أنتى بيتر حاكم إيدومية العربية، إقناعه لصالح هيركانوس، ويعود العرب ليشاركوا - مرة أخرى- فى تقرير مصير أورشليم.

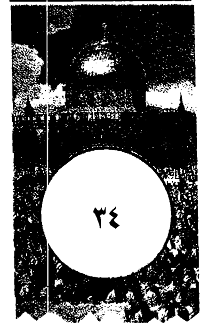
وقد حاصر بومبى أورشليم ثلاثة أشهر، سلمت المدينة بعدها للرومان الذين دخلوا معبد اليهود المقدس عام ٦٣ ق م وقتل اثنى عشر ألف يهودى فى المذبحة التى تلت دخول المعبد، إلا أن بومبى انسحب منه، وأمر بتطهيره وخضعت المدينة للرومان حيث عينوا عليها سكاوروس حاكماً، وهيركانوس كاهناً، وعاد بومبى إلى روما وأخذ معه أريستوبولوس وولديه.

لكن الاحتلال الرومانى للبلد، الذى تم إطلاق اسم فيليسطيا (=باليستيا باللاتينية) بدأ بانتهاك حرمة المعبد وجعل اليهود يراقبون سادتهم الجدد بعين الحذر خوفاً من تكرار ذلك التدنيس.

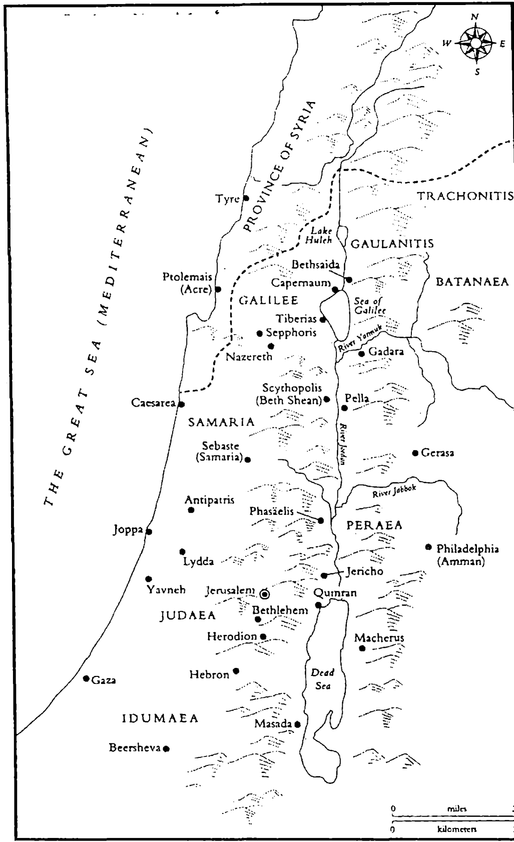


أورشليم فى عهد الرومان
٦٣ ق م - ٣٠٦ م

بعد انتصار القائد الرومانى بومبى على المملكة الحشمونية اليهودية، فرض على أهلها شروطاً قاسية، إذ سمح لليهود بحكم يهودا وأيدوميا وبيريا والجليل، ولكنه سمح للمؤمنين بإله إسرائيل «يهوه» فى السامرة، وكذلك لغير اليهود من سكان السهل الساحلى والمدن اليونانية والسهل الفينيقى، ومنطقة ديكابوليس، بإدارة شئونهم بأنفسهم، كما سمح للذين رفضوا اعتناق اليهودية وطردوا من البلاد بالعودة إليها.



وقد كافأ بومبى حلفاءه من اليهود، فعين أنتى بيتر حاكم أيدوميا - الذى تهود على ما يبدو - قائداً للجيش، ومسئولاً عن يهودا، مع التزامه بإطلاع السفير الرومانى فى دمشق على كل شىء، بينما عين هيركانوس الثانى كبيراً للكهنة، لكن أورشليم فقدت جانباً كبيراً من مكانتها السياسية بعد أن دمر بومبى أسوارها تماماً، ولم تعد سوى عاصمة لمقاطعة فرعية لا منفذ لها على البحار، وتفصلها عن الجليل منطقة يحكمها السامريون وغير اليهود، كما تخلص بومبى بالقتل من اليهود المشاغبين، وسبى معه من سبى، وبتر الأجزاء الأخرى التى كان يسيطر عليها اليهود ونقلها إلى حاكمه الجديد فى سورية، وواصلت الأسرة المكابية وجودها على هذا النحو المتقلص فى ظل الرومان.



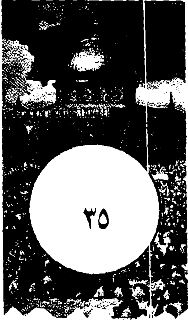
خريطة (٨)
أورشليم الرومانية

وقد حاول أريستوبولوس استعادة سلطته فى أورشليم بعد أن فر من آسريه الرومان، وشرع فى إعادة بناء الأسوار، لكن السفير الرومانى فى سورية قمع ذلك التمرد عام ٥٧ ق م، وأعيد أريستوبولوس وابنه مرة أخرى إلى روما، وإن سمح الرومان لأبنائه الآخرين بالبقاء فى فلسطين لعدم استعداء رعاياهم اليهود، ونظراً لما تمثله فلسطين من أهمية إستراتيجية للرومان.

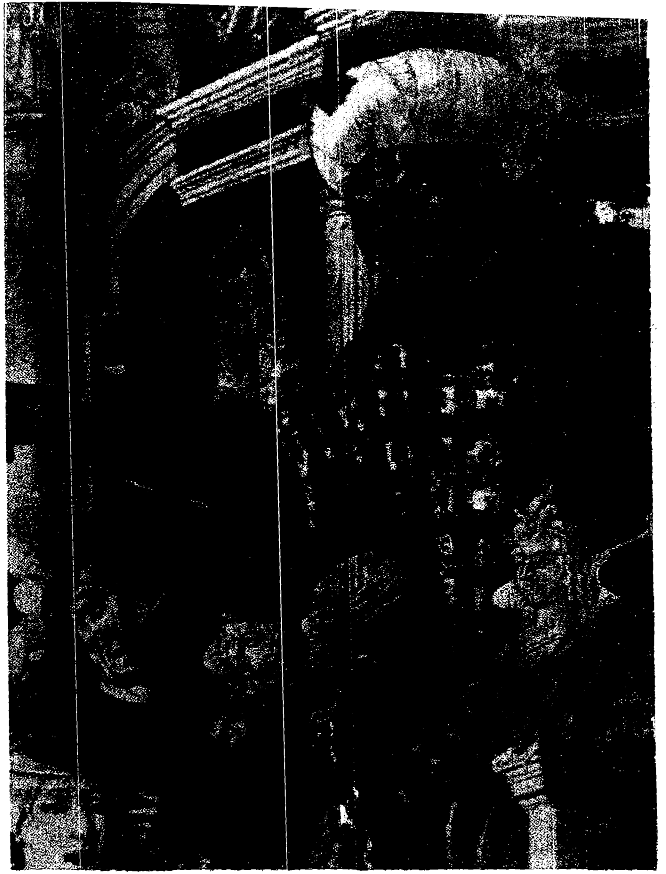


يوليوس قيصر

واستمر الوجود الحشمونى القوى فى البلد، وكان أنتى بيتر حاكماً يحظى باحترام اليهود، وإن كانت أسرته حديثة العهد بالدين اليهودى، وكان هو وأسرته يحولون ولاءهم بذكاء إلى صاحب الأمر إذا تأثر سلطان حاميهم، ومن ثم عندما انتصر يوليوس قيصر عام ٤٩ ق م على بومبى، كان أنتى بيتر إلى جانبه، وكافأه يوليوس قيصر على ذلك بأن جعله ذا سلطة كاملة على يهودا، وسمح له بإعادة بناء أسوار أورشليم، وأعيد ميناء يافا ووادى يزرعيل إلى سلطة اليهود.



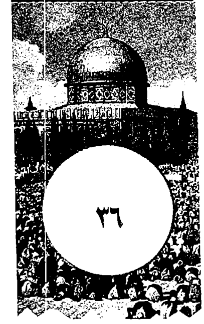
وقد عين إنتى بيتر ولده البكر فاصائيل حاكماً على أورشليم، بينما عين ابنه الثانى هيرود حاكماً على الجليل، ومات إنتى بيتر بالسم عام ٤٣ ق م، وتقاسم ولداه سلطته، وإن كان نصيب هيرود هو الأكبر.



هيرود - جزء من لوحة للفنان (ماتيورى چيوفانى) حيث قتل ١٤٤ ألف طفل خشية ميلاد المسيح وهو سبب هروب العائلة المقدسة إلى مصر

آثار رومانية فى القدس





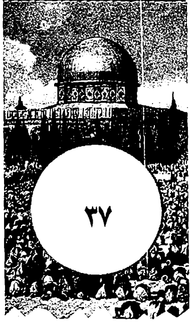
ولما قتل يوليـوس قيصر عـام ٤٤ ق م فى روما إثر مؤامرة دبرها مـاركوس بروتوس وجايـوس كاشيـاس، مال كل من فـاصائيل وهيرود إلـى الحكام الجدد وأصبحـا من عملاء كاشيـاس، ولما أعلن أوكتافيان ومـارك أنطونيو الحرب على بروتوس وكاشيـاس ، أظهر هيرود وفاصائيل اسـتعدادهما لتحـويل ولائهما من جديد إليهما، وبالفعل، بعد أن هزم كل من بروتوس وكاشياس فى موقعة فيليبى عام ٤٢ ق م، مد أنطونيو يد الصداقة لهيرود وفاصائيل، حيث تمتعا برعايته لهما فى ظل الإمبراطورية الرومانية فى مرحلتها الجديدة.

وفى عام ٤٠ ق م فـقد الرومـان السيطرة مـؤقتاً على فلسـطين فى أعقاب نجـاح انتيـجونس الحشمونى وطائفة الفريسيين فى التقدم إلى أورشليم والاسـتيلاء عليها بعد قتال فى المعبد والمدينة، حيث تم تنصيب أنتيـجونس حاكماً لأورشليم، وأسر فاصـائيل وأرغم على الانتحار، لكن هيرود تمكن من الفرار إلى روما، وأقنع الرومان بأنه اليهودى القـادر على الحفاظ على تبعية البلد لروما، ومن ثم عينه الرومان ملكـاً على اليهود، وعاد إلى فلسطين عام ٣٩ ق م، وفـتح الجليل بمساعدة مارك أنطونيو وحاصـر أورشليم عام ٣٧ ق م، ودخل المدينة بعد أربعة أشهر، فى أعـقاب مذبحة قتل فيـها آلاف من اليهود فى الشوارع وفى المعبـد الذى كانوا يحتمون به، وتم إعدام انتـيجونس الحشمونى بناء على رغبة هيرود.

وقد اتسم عصر هيرود الطويل (٣٧ - ٤ ق م) بالرفاهية العامـة والاستقرار، واستطاع استعادة الأراضى التى كان بومبى قـد استولى عليها، ونظم الإدارة على النمـط الهلينى، وكان هيرود من أنصار الرومـان الذين كان يدين لهم بالفضل فى تنصـيبه ملكاً على البـلد، بل كان ضد القومـية اليهودية، وكان لا يحظى بحب اليهود.

وجدير بالذكر أن الرومان قد تركوا لهيرود السيطرة الكاملة على أورشليم بعد أن ضمنوا ولاءه لهم، واسـتقرار الأمـور تحت زعامـته، حيـث وقف اليهود الفـريسيـون إلى جانبـه ضد اليـهود الحشـمونيين، وإن عمـد هيرود إلى استـمالة هذا الفريق الأخـير بزواجه مـن بناتهم، الأمر الذى أضفى على حكمه لوناً من الشرعية، بل إنه قام بتعيين شـقيق زوجته الحشمونية الأصغر - يوناثان - فى منصب كبير الكهنة، الأمر الذى أثار كوامن الحشـمونيين وأجج مشاعرهم، مما جعل هيرود يدبر قتله على الفور خشية تزايد نفوذه.

ومع أن هيـرود كان مخلصـاً لليهـودية - بأسلوبه الخاص - إلا أنـه لم يعترض عـلى وجود الأديان الأخرى فى فلسطين وما حولها، ولم يكن - على خلاف الحـشمونيين - يتدخل فى الحياة الدينية لرعاياه، بل قام ببناء المعـابد للآلهة اليونانية والرومانية فى المدن غيـر اليهودية داخل مملكته وخارجها.



ولما كان «الأمن» و«الحدود الآمنة» الشغل الشاغل لهـيرود إبان فترة حكمه، فقـد قام ببناء قلعـة بدأ فى إنشائهـا عام ٣٥ ق م فى الموقع الذى كانـت تشغله القلعة التى بناها النبى نحميا، فى أضعف نقطة دفاعية بالمدينة، إلى الشمال من المعبد ، وأطلق عليها اسم «أنطونيا» تكريماً لراعيه وحاميه **مارك أنطونيو**.

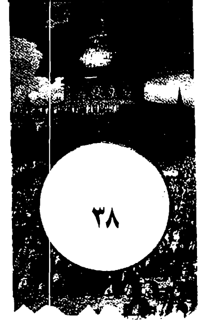
وقد شهدت أورشليم فى عهد هيرود تغيراً كبيراً فى طابعها، وذلك فى عام ٢٣ ق م، حيث بدأ هيـرود فى بناء قصر له فى المدينة العليـا على التل الغربى وكان محـصناً بثلاثة أبراج، مازالت أسسهـا باقية حتى الآن. كمـا أعاد هيرود تخطيط طرقات المدينة العليا وكان بالمدينة مسرح وحلبة لسباق الخيل، حيث كانت دورات الألعاب تقام مرة كل خمس سنـوات تكريماً لأغسطس، مما اجتذب حشود اللاعبين المتـميزين إلى أورشليم التى أصبحت فى ظل حكم هيرود مدينة مهـيبة متميزة، يقيم فيها بصفـة دائمة نحو مائة وعشرون ألفاً، وأعاد بناء أسوارها وإن اختلف الباحثون حول مسار هذة الأسوار.

وفى عام ١٩ ق م تقريبـاً قرر هيرود إعادة بناء المعبد، واسـتمر العمل فيه قرابة ثـمانية أعوام، ولم ينته العمل تمامـاً إلا قبل عام ٧٠م بقليل، ولم يكن هيرود يملك تغيـير حجم أو شكل المكان المقدس، وإن كان قـد زاده جمالاً حيث كـسيت الجدران بالرخام الأبيض، وكـانت أبواب الهيكل مغطاة بالذهب، وإن قام هيرود بتوسيع المنصة التى أقيم المعبد عليها، وتزايد عدد الحجاج فى عهد هيرود، وازدهرت أورشليم ازدهاراً لم تشهده من قبل، واستمر المعـبد محوراً للحياة الروحية أثناء حكم هيرود، وإن كان البعض من اليهود غير راض عن سلوك هيرود الذى أدخل الكثير من المبانى اليونانية والرومانية التى كانت تزاول فيها الطقوس الوثنية.

وجدير بالذكر أن أحد حوائط هذا المعبد هو الذى يعرف الآن **بحائط المبكى**، وقد بنى أساسه من كتل حجـرية كبيرة مسـتطيلة بلغت حوالى ١٩ سطراً ويبلغ ارتفاعه فـوق سطح الأرض ثمانية عشر مـتراً، بنى أسفله بكتل ضخـمة مستطيلة إلـى ارتفاع ستة أمتـار، ويأتى فوق هذه الكتل ١٤ سطراً من حجـارة صغيرة بنيت غـالباً فى القرن الثـانى عشر الميلادى، وبقـايا هذا السور هى التى يعتقد اليهود المعاصرون أنها من بقايا سور المعبد السليمانى، لكن صخور السور وأحجاره تشير إلى غير ذلك.

ولقد أقام هيرود تمثالاً ذهبـياً لعقاب، هو رمز الإله جوبيتر ورمـز إمبراطورية روما، فوق باب المعبد، تمت إزالته أثناء احتضار هيرود فى العام الرابع قبل الميلاد.

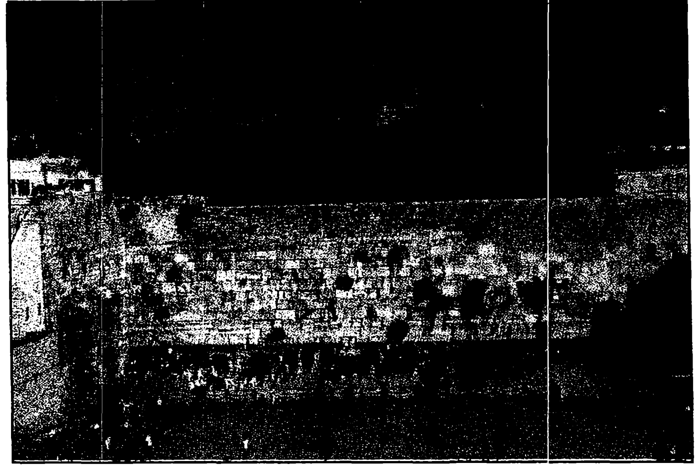
وكان هيرود قد قتل زوجته الحشمونية عام ٢٩ ق م كما قتل ثلاثة من أبنائه قبيل وفاته لاعتقاده بتآمرهم ضده. ولما مات هيرود ترك وصيـتين وثلاثة أبناء، الأمر الذى وضع مصير مملكته فى يدى الإمبراطور الرومانى **أغسطس** الذى استدعى أبناء هيرود الثـلاثة إلى روما، وانتهى الأمر بأن تولى الحكم من بعده ابنه أرخـيلوس الذى حكم قرابة عـشر سنوات انتهت عـام ٦ ميلادية حـيث عزله الرومان بعد أن عينوا حـاكماً رومانياً مباشـراً، واستمر الرومان يحكمون البلد، وبموافقـة كثير من



اليهود، وكـان الفريسيون خصـوصاً ما يزالون يعـارضـون أى شكل من أشكال الملكيـة اليـهودية، وقـد شهـدت البلد بوجه عـام حـالة من الاضطرابات فى أعـقاب وفـاة هيرود، وعادت هذه القـلاقل للظهور مرة أخرى عام ٢٦ م، وتعـرض المعبد للخطر من جديد.



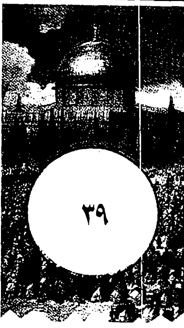
الإمبراطور الرومانى أغسطس



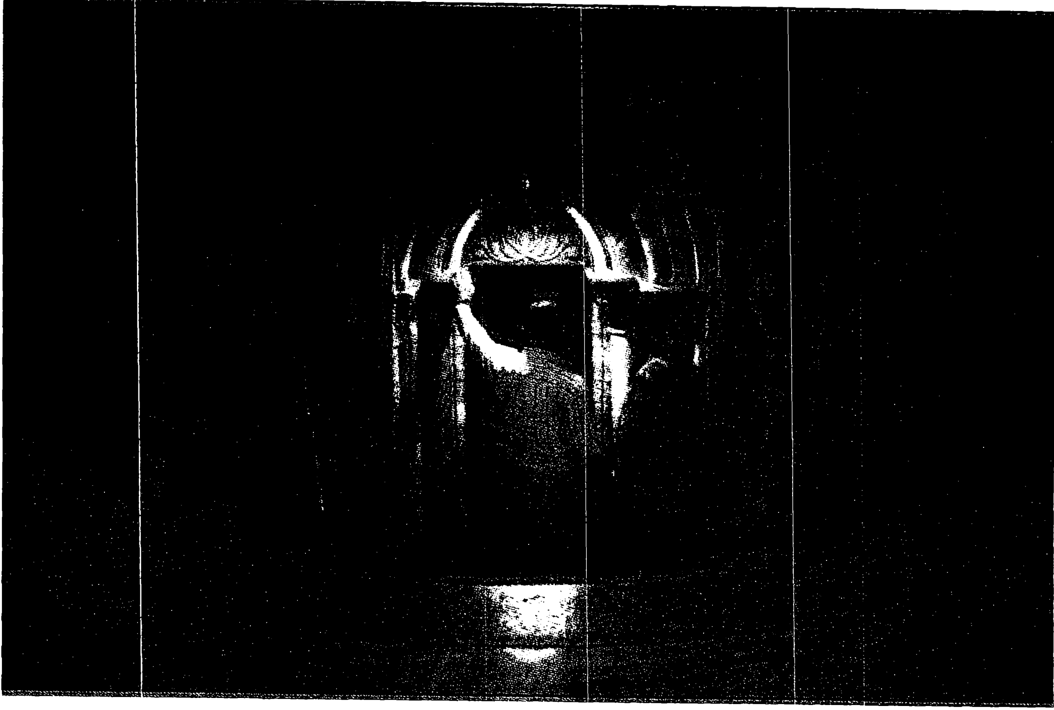
حائط البراق

تصور للمذبحة التى راح ضحيتها آلاف الأطفال على يد





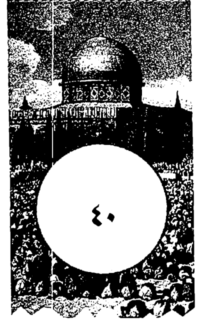
وظهر يسوع المسيح، ودخل أورشليم، وتنبأ برفضها له ونزول العقاب الإلهى بها فى المستقبل القريب حيث ستهدم وتسوى بالأرض، وقد أعرب المسيح عن رفضه لما كان يفعله اليهود فى الهيكل من أمور تمس قداسته وطهارته (انظر إنجيل مرقس ١١/ ١٥ - ١٨) وكان ذلك فى عهد الحاكم الرومانى بيلاطس (٢٦ - ٣٦م)، الذى وقعت فى عهده المحاولة اليهودية لصلب المسيح عليه السلام.



المغارة التى ولد بها السيد المسيح فى كنيسة المهد

وعند نهاية عهد بيلاطس عاد الحكم مرة ثانية إلى أسرة هيرود، حيث تم تعيين هيرود أجريبا الحفيد البكر لهيرود وزوجته الحشمونية ملكاً على البلاد، وقام ببناء سور جديد لأورشليم يعرف بالسور الثالث فى الشمال لحماية الضاحية الشمالية.

ومع موت هيرود أجريبا عاد الحكم من جديد ونهائياً إلى الرومان الذين اعتبروا فلسطين كلها إقليماً رسمياً لهم، وانطفأت آخر شمعة للسيادة اليهودية الصورية التى كانت أسرة هيرود - اليهودية نفاقاً - تمارسها، وإن كانت السيادة اليهودية الاسمية قد انتهت بالفعل مع سقوط انتيجونس، آخر مكابى حكم أورشليم عام ٤٠ ق م، هذا مع أن الدويلة اليهودية التى قامت بعد مجىء اليهود من بابل، إنما قامت كتابعة للدول الأخرى سواء الفرس أو اليونانيين الهلينيين.



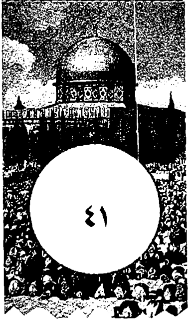
ومما لا شك فيه أن لعصر هيرود مكانة فى التاريخ الأثرى الأورشليمى، إذ مازالت أطلال منشآته باقية حتى الآن، ولم يبق من عمارة المعبد السليمانى شيء على الإطلاق، والذى بقى فى أورشليم حتى اليوم هو **الدكة التى أقيمت عليها قبة الصخرة**، وتقع المدينة فى غربها، وتسيطر دكة معبد هيرود على الجزء الجنوبى الشرقى للمدينة القديمة الحالية.

وفى عام ٦٤م، حينما جاء جيسيوس فلورس إلى البلاد كحاكم، حدث نزاع شديد، إذ تميز حكمه بالمذابح، واندلعت الحرب بين اليهود والرومان عام ٦٦م واستمرت خمس سنوات، أصبح خلالها **فسباسيان إمبراطوراً**، وجاء إلى فلسطين عام ٦٧م ومعه ابنه تيتوس وجيش بلغ تعداده ستين ألف رجل، وغزا **الجليل**، وأخضع يهودا، وعزل أورشليم عن فلسطين.

وفى عام ٧٠م اتجه تيتس إلى أورشليم، حيث أحاطت قواته بالمدينة من كل جهة، واستطاعت دخول المعبد بعد سبعة عشر يوماً، وأشعلت النار فى قدس الأقداس، وأضرمت النار فى المدينة كلها، وأمر تيتس بإبادة المدينة وتدميرها باستثناء ثلاثة أبراج من أبراجها وكذلك السور الغربى وذلك لحماية بعض القوات.

وقد عاد تيتس إلى روما، وقام هو وأبوه فسباسيان بعرض **كنوز المعبد المنهوبة** فى موكب كبير، سار فيه أسرى اليهود الذين جيء بهم من أورشليم، وأقام قوساً **للنصر سمى قوس النصر لتيتس**، بنى فى ساحة روما، ونقش عليه الكثير من المناظر.

وفى سنة ٧٣م كانت كل أنواع المقاومة اليهودية للرومان قد انتهت وأطلق الرومان اسم «يهودية» على كل فلسطين باعتبار إطلاق الجزء على الكل، وأصبح يديرها قائد الفيلق الرومانى السادس، إلا أن محاولات الشعب اليهودية قد استمرت، وفى عام ١٣٢ قام باركوخبا ومعه بعض اليهود بمحاولة لتحرير أورشليم من الرومان، واشتعلت كل أرض التلال بالثورة، ونجح المتمردون فى الاستيلاء على بعض معاقل الرومان، بل واستردوا أورشليم لبعض الوقت، واستقل اليهود لثلاثة أعوام اتخذوا خلالها أورشليم عاصمة ومركزاً دينياً لهم، إلا أن **هادريان** تمكن عام ١٣٥م من إخماد هذه الثورة فى التاسع من آب (أغسطس) وهو نفس التاريخ الذى هدم فيه المعبد فى المرة الأولى والثانية، وتم القبض على باركوخبا وقتل، وتم القضاء على اليهود تماماً، وهدم هادريان المدينة وبنى فوقها مدينة إيليا كابيتولينا، وصدر الاسم هو لقب عائلة **هادريان**، وعجزه هو الإله الرومانى الرئيس «كابتولين جوبيتر»، كما أقام هادريان هيكلاً وثنياً للإله **جوبيتر** على نفس مكان الهيكل اليهودى القديم.



وقد دفعت السلوكيات اليهودية الحاكم الرومانى هادريان كى يقرر محق القومية اليهودية العنيدة حيث أصدر مرسوماً يمنع بمقتضاه قراءة التوراة واحترام السبت وسنة الختان. ويبدو أن هادريان لم يصل إلى هذا الحل إلا بعد أن فشل فى استرضاء اليهود، فالمؤرخ اليهودى هيامسون يذكر أن هادريان كان قد سمح لليهود بإعادة بناء الهيكل، وإعادة بناء أورشليم كمدينة وثنية، إلا أنه غير سياسته تجاه اليهود، وكان القضاء عليهم وعلى أورشليم على النحو الذى صورته لنا كتابات المؤرخين.

وما دمنا نسجل معالم اللحظات الأخيرة من عمر أورشليم، تجدر الإشارة هنا بإيجاز عن **حقيقة السور الغربى الذى يدعى حائط المبكى** ومازال قائماً حتى الآن، وقد سبق وأن ذكرنا أنه يعود إلى الفترة التالية لعصر هيرود أجريبا.

لقد اعتقد البعض أن هذا السور من عمل **هيرود أجريبا** كأحد الاستحكامات التى أقامها اليهود فى الثورة الأولى عام ٦٦ - ٧٠م أو الثانية عام ١٣٠ - ١٣٥م، وبعد أن تم الكشف حديثاً عن أجزاء كثيرة من هذا السور، وما عثر عليه من فخار، لم يثبت تأريخه بالقرن الثانى بعد الميلاد.

ومن الثابت تاريخياً أن اليهود فى ثورتهم الأولى ضد الرومان كانوا منقسمين على أنفسهم، وأن مثل هذا العمل المتمثل فى بناء سور عرضه ٤٥٠ متراً من كتل كبيرة من الحجر، وطوله ٣٧٥ متراً، أو أكثر من ذلك، لا يمكن أن يتم فى عهد أصحابه على هذا الحال من الانقسام والتنافر، كما كان هذا العمل صعباً على اليهود فى فترة الثورة الثانية لأنهم كانوا أضعف مما كان عليه الثائرون اليهود فى الثورة الأولى.

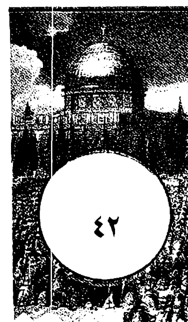
لم يبق أمامنا إلا احتمال أن هذا السور من عمل الرومان المهاجمين، وأنه كان يمثل جزءاً من محيط مركز إدارة الفرقة العاشرة التى أناط بها تيتس مراقبة أورشليم بعد الاستيلاء عليها، ويؤكد ذلك احتمال أن تكون هذه الكتل الحجرية المنحوتة بهذا الحجم الكبير والموجودة بالسور إنما توافرت بعد أن هدمت أورشليم.

ويحتمل أن يكون السور جزءاً من الاستحكامات التى أقامها تيتس - كما ذكر المؤرخ اليهودى يوسيفوس - حول أورشليم ليحاصر سكان المدينة.

على أية حال، لقد استمر الحكم الرومانى المباشر لفلسطين التى ضم إليها كذلك شرقى الأردن وجلعاد وموآب، ولم يبق من المظاهر اليهودية فى فلسطين إلا المدارس الدينية التى تأسست فى المدن الأخرى من يهودا دون القدس، وقد استقرت هذه المدارس بعد مطاردات ومشاغبات فى طبرية، وكانت أولى هذه المدارس قد تأسست فى الخليل عام ١٣٥ م.

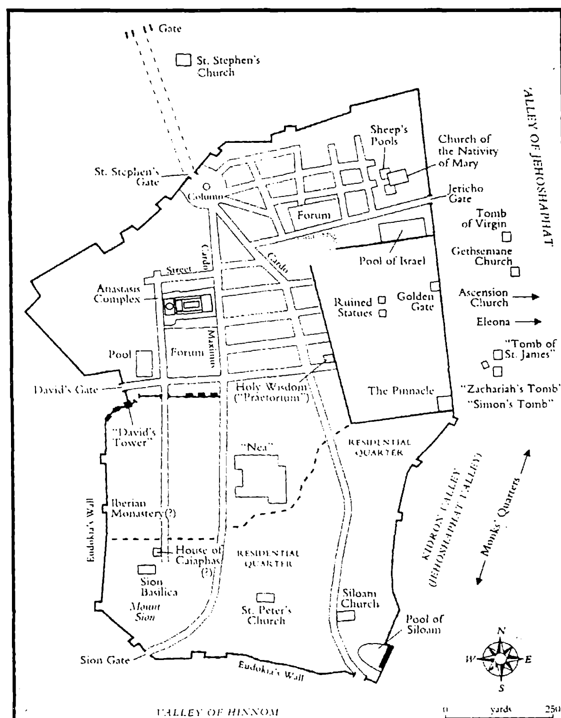


كنوز المعبد اليهودى
المنهوبة فى عهد تيتوس



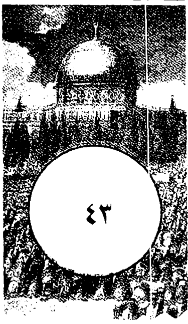
وجدير بالذكر، أن فلسطين خلال هذه الفترة من الحكم الرومانى قد عادت إلى الحكم العربى لمدة ثلاث سنوات على إثر غزو الملكة العربية **زنوبيا** عام ٢٧٠م سائر فلسطين وسورية ومصر، وقد تمكن الإمبراطور الرومانى **أورليان** من قتال التدمريين وهزيمتهم واسترداد فلسطين وسورية ومصر من أيديهم بعد ثلاث سنوات من الحكم العربى.

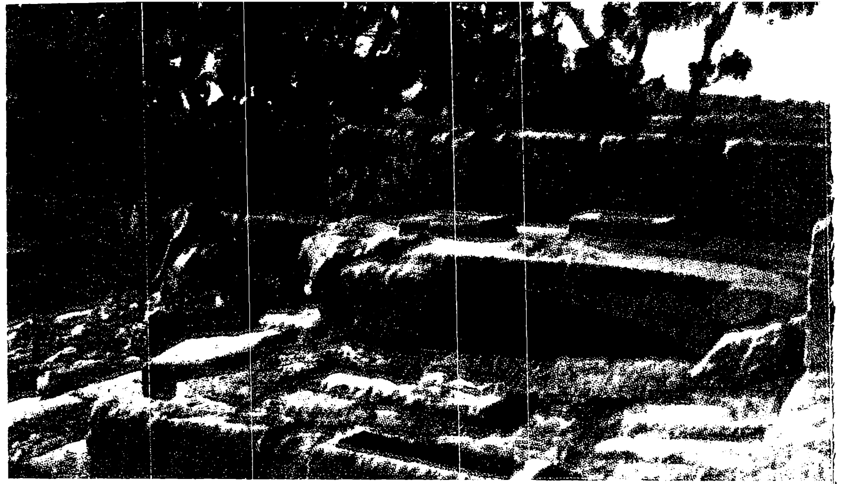
أورشليم النصرانية
٣٠٦ - ٦٣٩م



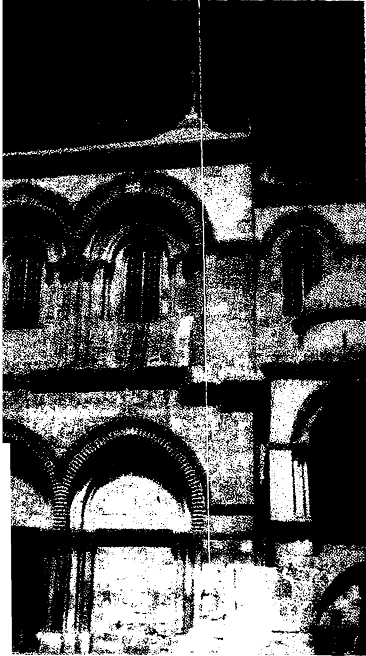
أصبح قسطنطين إمبراطوراً فى الغرب بعد انتصاره فى موقعة جسر ميلفيان، ثم انتصاره عام ٣٢٣م على لوكينيوس، إمبراطور المقاطعات الشرقية، الأمر الذى جعله الحاكم الأوحد للعالم الرومانى، وقد وقع تطور مثير فى غير صالح اليهود حين اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية عام ٣١١م، حيث ازداد الاضطهاد المسيحى لليهود، وأعاد قسطنطين أحكام هادريان الخاصة بمنع اليهود من الإقامة فى القدس، والتى كان أوريليوس قد خففها، وتساهل الحكام فى تنفيذها قبل قسطنطين.

خريطة (٩)
أورشليم البيزنطية ٣٢٦ - ٦٨٣م





آثار كنيسة
بيزنطية



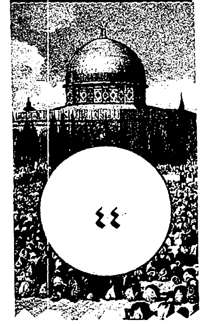
واجهة كنيسة المهد



قسطنطين الأكبر - أول إمبراطور
رومانى يدخل المسيحية

دير (مار سابا) أنشأه القديس ساباس سنة ٤٨٦ - العصر البيزنطى





واستمر أخوه قسطنطيوس من بعده فى تنفيذ سياسته ضد اليهود الذين اعتبرهم قتلة المسيح عليه السلام، وأصبحت أورشليم مقدسة عند النصارى، واتخذوا الحج إليها عادة - كما كان يفعل اليهود - إذ حج إليها المسيح عليها السلام منذ صباه فى النصف الأول من القرن الأول الميلادى (لوقا ٢/ ٤٢-٥٠).

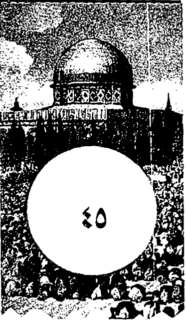
كما اهتمت هيلانة - أم قسطنطين - بدور العبادة النصرانية، وزارت أورشليم عام ٣٢٦م ومعها المال اللازم حيث شيدت كنيسة القيامة، وكانت الديانة النصرانية قد أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية عام ٣١٣ م بعد اعتناق هيلانة للنصرانية.

لكن الإمبراطور جوليان الذى تولى العرش عام ٣٦١م، ارتد عن المسيحية، وألغى جميع الأحكام ضد اليهود، وأرسل إلى جميع الجاليات اليهودية فى مملكته يؤكد فيها عزمه على إعادة بناء الهيكل، بعد أن خصص الأموال اللازمة لذلك وجمع مواد البناء الضرورية للعمل، وجند العدد اللازم من العمال، وكان يقصد من ذلك إبطال النبوة. وقد تعطل هذا المشروع نتيجة وقوع الحرائق والانفجارات التى تم تأويلها على أنها حكم سماوى ضد محاولة إبطال نبوة المسيح.

وعندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية عام ٣٩٥م وقعت فلسطين فى حصة الإمبراطورية الشرقية : بيزنطة، ولم يكن للبلاد تاريخ خارجى خلال القرنين التاليين وكانت هذه السنوات تمثل حقبة من السلام والأمن فى فلسطين، واصل خلالها الحجاج - اليهود والنصارى - زياراتهم للأماكن المقدسة فيها.

وقد كثرت الكنائس فى أورشليم خلال هذه الفترة، وبخاصة أيام الإمبراطورة أيودكسا (٤٤١ - ٤٦٠م)، واتسعت رقعة أورشليم فى العهد البيزنطى إلى الجنوب من وراء حدود إيليا، وقامت أيودكسا ببناء سور جديد حول المنطقة التى أضيفت إلى المدينة، ويحتمل أن يكون هذا السور قد سار بحذاء السور الجنوبى لهيرود أجريبا.

لقد كانت أورشليم الجديدة مصدر حزن لليهود، وربما حاولت مجموعة منهم وقف إقامة الأبنية النصرانية فى الأرض المقدسة، وبدا لهم من غير المعقول أن تحظى النصرانية - وهى فى رأيهم صورة غير مشروعة من اليهودية - بتأييد الإمبراطورية آنذاك، وأصبح من العسير أن تتم إعادة بناء الهيكل اليهودى، ولا إعادة أورشليم لليهود فى ظل الواقع النصرانى الجديد، بل لقد استولى النصارى على كتب اليهود المقدسة، ونسبوها إلى أنفسهم، وأطلقوا على أنفسهم اسم إسرائيل الجديدة.



وفى عام ٦١١م تعرض أمن فلسطين للخطر مرة أخرى حين أغار الفرس عليها بقيادة خسرو الثانى حيث حارب الإمبراطور فوكاس الذى كان قد اغتصب الإمبراطورية من موريس (صديق خسرو الذى زوج الإمبراطور الفارسى إحدى بناته)، واعتقد اليهود أن خسرو قد جاء من أجل خلاصهم ومن ثم ناصروا الفرس الغزاة، وانضم إليهم بعض الفرق النصرانية - كالنسطورية واليعاقبة - الحاقدة على النظام الجديد فى روما، وحمل اليهود السلاح إلى جوار الغزاة، وانتقموا شر انتقام من نصارى فلسطين.

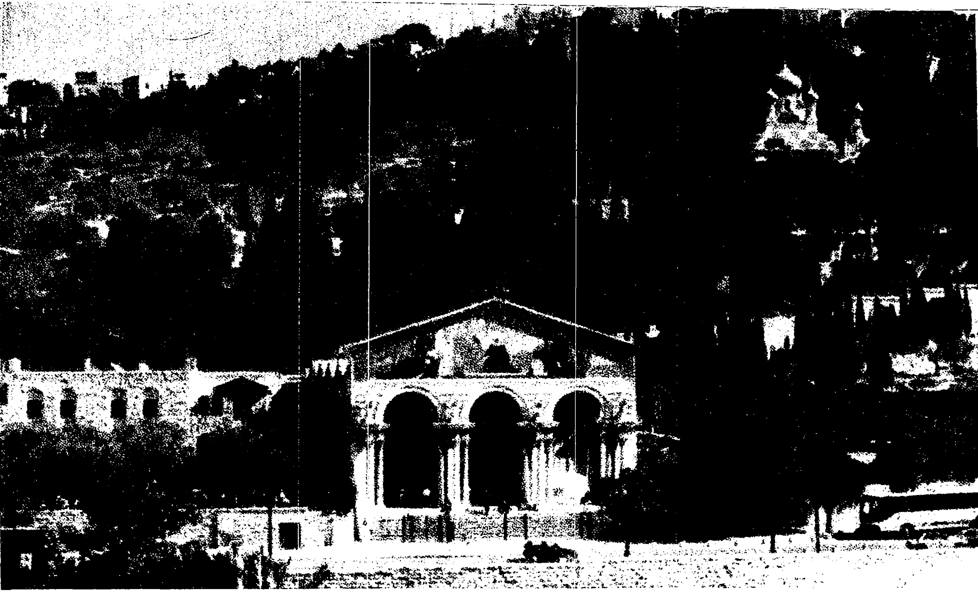
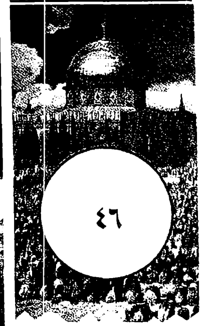
وقد دمر الفرس كنيسة القيامة ونهبوا جميع كنوزها وحطموا كنائس أخرى، واشترك اليهود مع الفرس فى قتل جميع نصارى القدس وتدمير أماكنهم الدينية، على نحو ما يذكر المؤرخ اليهودى هايمسون، وقد رممت الكنيسة بعد ذلك فى عام ٦٢٩م، وبقيت سالمة عند الفتح الإسلامى للمدينة.

أما اليهود فى ظل الفرس، فقد نشب الخلاف فيما بينهم، إذ كان اليهود يحلمون بإقامة مملكتهم، ناهيك عما فرضه الفرس عليهم من ضرائب، الأمر الذى جعل اليهود يميلون مرة أخرى إلى البيزنطيين حين قدم إليهم هرقل وعدًا بالتسامح معهم عام ٦٢٧م، ثم وعداً آخر بالعفو عام ٦٢٨م، لكن **هرقل** لم يف بوعده تحت ضغط رجال الدين، ووقعت مذبحة لليهود، فر الناجون بعدها إلى مصر، وإلى مناطق أخرى فى فلسطين.

وفى هذا المقام تجدر الإشارة إلى أهم الكنائس النصرانية التى أقيمت فى تلك الفترة، إذ بنى قسطنطين - وربما أمه - كنيسة **إيليونا على جبل الزيتون**، فى المكان الذى كان به الكهف الذى أماط فيه السيد المسيح اللثام عن كثير من المعجزات لحوارييه، وتقع هذه الكنيسة على بعد قريب إلى الجنوب من كنيسة الصعود التى يعتقد النصارى أنها فى المكان الذى صعد منه المسيح، وقد بنيت هذه الكنيسة فى القرن الرابع الميلادى بعد وفاة الإمبراطورة هيلانة بخمسين سنة.

كما أقامت الإمبراطورة أيودكسا فى أورشليم كنيسة سان استيفن، بالإضافة إلى العديد من الكنائس التى أقيمت فى القرن السادس وأهمها : كنيسة سان مارى نوفا بالقرب من حائط البراق (المبكى)، وقد بناها الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م).

وقد تم اكتشاف خريطة مصورة لأورشليم بالفسيفساء ضمن خريطة لأجزاء كبيرة من فلسطين، ثم عملها عام ١٨٨٤م اعتماداً على خريطة رومانية اعتمدت بدورها على خريطة لأسقف قيسارية يوزيبوس (القرن الثالث والقرن الرابع بعد الميلاد) تعكس لنا ما كانت عليه أورشليم فى العصر البيزنطى من انتشار للنصرانية فى أرجائها من خلال الكنائس والأديرة العديدة.

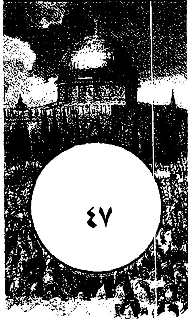
الكنيسة الجثمانية ومجموعة كنائس على جبل الزيتون

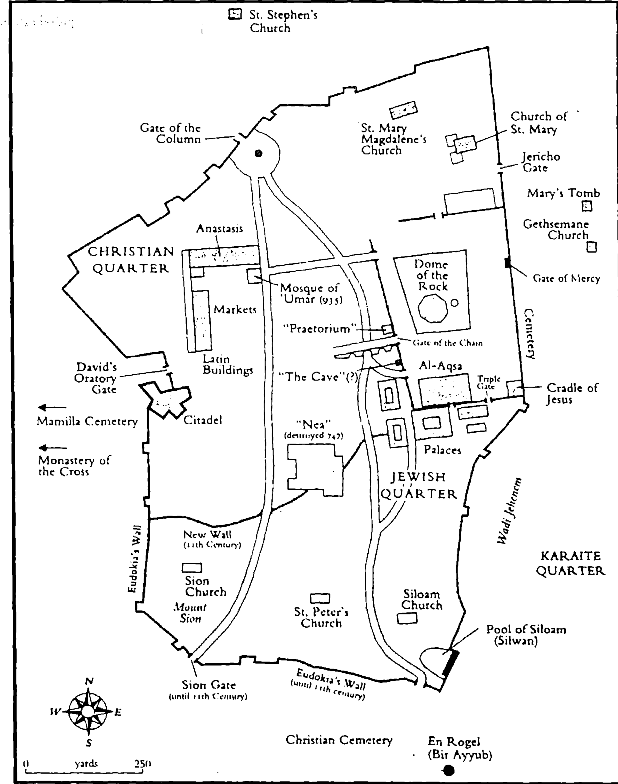


بعد أن استولى هرقل على الحكم فى القسطنطينية، كافح كفاحاً مريراً حتى تمكن من هزيمة الفرس واسترد صليب المسيح الذى كان قد وقع غنيمة فى يد جيوش كسرى، وأودع فى كنيسة «صوفيا» بالقسطنطينية، كما أطلق سراح «زكريا» بطريق بيت المقدس.

آيا صوفيا - إستانبول







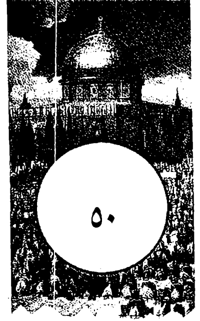
خريطة (١٠)
القدس الإسلامية ٦٣٨ - ١٠٩٩م

وفى العام التالى - ٦٢٩م - سار هرقل إلى أورشليم لأجل الحج، والتقى فى طبرية بوفد من اليهود محملين بالهدايا استرضاءً له خشية معاقبتهم من قبله على تعاونهم مع الفرس، ونجحوا - قبل وصوله إلى أورشليم - فى الحصول على عهد منه بعدم الانتقام منهم، إلا أنه بعد أن وصل إلى المدينة تلقاه أهلها برواياتهم عما فعله الفرس واليهود بهم، وما أوقعوه من مذابح بين نصارى المدينة، فكان انتقام هرقل وأتباعه من اليهود فى كل مكان خاضع لحكم النصارى، وقد ذكر المقريزى أن مصارع اليهود عمت «حتى لم يبق منهم أحد فى دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب واختفى»، وكان ذلك عام ٦٣٠م، وقد أصدر هرقل مرسوماً بألا يقترب يهودى من القدس إلى مسافة ثلاثة أميال من أسوارها.

وكان المسلمون فى تلك الفترة قد بدأوا فى فتوحاتهم بالشام، وتمكنوا من هزيمة حاكم جنوبى فلسطين سرجيوس عام ٦٣٤م، وأقاموا معسكراتهم الدفاعية فى هذه المناطق، كما تمكنوا عام ٦٣٥م من هزيمة ثيودور - شقيق هرقل - فى وادى السنت، وغزوا دمشق فى السنة ذاتها.

وكان خالد بن الوليد قائداً لقوات المسلمين آنذاك، وكانت عملياته العسكرية تهدف إلى انسحاب الروم من «درعا» لحماية مؤخرتهم، وهو ما لم يتحقق، فقام خالد باحتلال مدينة بصرى وهى إحدى المدن الإغريقية العشر التى بناها الإسكندر الأكبر المقدونى قبل عشرة قرون.

فى الوقت نفسه، كان عمرو بن العاص يواصل غزو سهول فلسطين الجنوبية من القاعدة التى أقامها لنفسه فى وادى عربة، بينما كان هرقل يقيم فى حمص ويعد جيشه للتحرك إلى جنوب فلسطين.



ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم حتى يحصدوا حصادهم.

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء والمؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية.

كتب سنة ١٥ للهجرة»

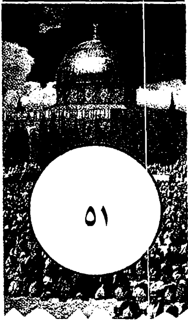
«شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان».

وهذا النص من عمر بن الخطاب أمر ملزم لكل حكام المسلمين وحكوماتهم، وهو شبيه بالنص على ألا يدخل مكة أو المدينة من ليس مسلماً. وقد احترم المسلمون القاعدة الثانية، ولكن الأولى ظلت محترمة، حتى أمكن بطريقة ما تزال غامضة، أن يسحب من خزائن الكنيسة فى القدس العهد الأصلى، وكان مكتوباً على رق من جلد، ويوضع بدلاً منه نص مزيف ورد بعد ذلك فى كتب الكنائس، وقدم إلى السلاطين العثمانيين ورد فيه ما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرفنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه محمد ﷺ وهدانا من الضلال، وأنقذنا من التهلكة، ووحد قلوبنا، ونصرنا على الأعداء، وثبت أيدينا وجعلنا أخوة متحابين، فاحمدوا الله يا عباد الله على هذه النعمة.

أما بعد، فهذا عهد منى أنا عمر بن الخطاب أعطى للشيخ الوقور بطريرك الأمة الملكية صفرونيوس، على جبل الزيتون بمقام القدس الشريف فى الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا وأين وجدوا وأن يكون عليهم الأمان، لأن الذى إذا حفظ أحكام الذمة وجب له الأمان والصون منا نحن المؤمنين، وإلى من يتولى بعدنا. وانقطع عنهم أسباب جوانحهم كحب ما قد جرى منهم من الطاعة والخضوع. وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم ودياناتهم وكافة زياراتهم التى بيدهم داخلاً وخارجاً وهى : القيامة وبيت لحم مولد عيسى (عليه السلام) والكنيسة الكبرى، والمغارة ذات الثلاثة أبواب قبلى وشمالى وغربى، وبقية أجناس النصارى الموجودين هناك



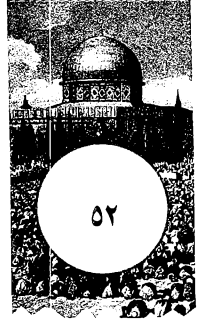
وهم الكرج والحبش والذين يأتون للزيارة من الأفرنج والقبط والسريان والأرمن والنساطرة واليعاقبة والمواتنة تابعين للبطريرك المذكور، ويكون متقدماً عليهم لأنهم أعطوا من حضرة النبى الكريم والحبيب المرسل من الله، وشرفوا بختم يده الكريم وأمر بالنظر إليهم والأمان عليهم، كذلك نحن المؤمنين نحسن إليهم، ويكونون معافين من الجزية والغفر والمواجب. والمسلمين (كذا!) من كافة البلاد فى البر والبحر، وفى دخولهم للقيامة وبقية زياراتهم، لا يؤخذ منهم شىء، وأما الذين يقبلون إلى الزيارة إلى القيامة (كذا!!)، يؤدى النصرانى إلى البطريرك درهم (كذا ...) وثلث من الفضة وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطاناً أم حاكماً أم ولياً يجرى حكمه فى الأرض غنى أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام عبد الله، وعثمان بن عفان، وسعد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف! وبقية الأئمة الصحابة الكرام. فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا ويعمل به ويبقى فى أيديهم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين، حسبنا الله ونعم الوكيل.

فى العشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٥ للهجرة النبوية. وكل من قرأ مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن إلى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثاً ولرسوله الحبيب باغضاً.

وقد ورد النص السابق فى دليل الأرض المقدسة الذى وضعه الأرشمندت بنيامين، وطبع عام ١٨٧٧م، ونقله عنه تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية المطبوع عام ١٩٢٥م.

والمدقق فى النص السابق يلحظ بوضوح أمارات التزييف بما فيه من أخطاء لغوية وأسلوبية، استطاع الكاتب محمد صبيح فى كتابه عن القدس، أن يفندها ويقدم لنا معها مبررات التزوير التاريخى على النحو التالى :

«فمثلاً لم تكن كلمة «بطريرك» معروفة فى الأسلوب العربى القديم، وإنما استعملوا كلمة بطريق بالقاف أو الكاف. ولم يعرف العرب فى صدر الإسلام كلمات :الغفر والمواجب، فهذه ضرائب استحدثت أيام المماليك. وغنى عن البيان أن عمر بن الخطاب كان يعرف أن المبتدأ يرفع، ولا يعقل أن يخطئ ويملى كلمة المسلمين، وهى المسلمون. وتدل كلمة «سلطان» الواردة فى هذا



العهد المزيف على الوقت الذى ابتدعت فيه الوثيقة، وهو عهد السلاطين المتأخر جدا عن صدر الإسلام. ولم يكن عثمان بن عفان من شهود هذه المعارك ولكن لم يجد المزور بأساً من إضافة اسمه كشاهد. ويكفى أن هذه الوثيقة أسميت «مرسوماً» وهى كلمة محدثة فى عهد الأتراك.

وأما لماذا زور هذا العهد، فهناك ثلاثة أسباب:

١- حذف النص بمنع إقامة اليهود فى بيت المقدس.

٢- إضافة بعض امتيازات مالية لرجال الكنائس مثل تحصيل رسوم على زوار الكنائس الأثرية، والإعفاء من الجزية.

٣- تقديم هذه الوثيقة بإمضاءات مزورة للسلطان العثمانى سليم الأول، لكى يقر ما زعموا أن عمر بن الخطاب أقره.

ومنذ ذلك الوقت زالت أو اختفت العقبة الكبرى فى تسرب اليهود إلى بيت المقدس، وهذه العقبة كانت عهد أمير المؤمنين عمر».

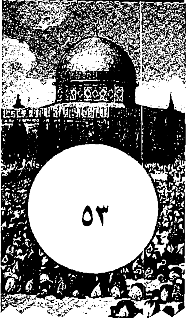
وتعلق كارين آرمستزونج على هذا الفتح الإسلامى للمدينة قائلة :

«عبر عمر أيضاً عن مبدأ التراحم التوحيدى أكثر من أى ممن فتحوا أورشليم قبله، ربما باستثناء الملك داود. فقد أشرف على أكثر غزو للمدينة سلاماً، ودون أى إراقة للدماء، لقد كان فتحاً لم تشهد مثله المدينة فى تاريخها الطويل والمأساوى فى غالب الأحوال. فبمجرد أن استسلم المسيحيون لم يحدث قتل، أو تدمير للمتلكات، أو إحراق للرموز الدينية المنافسة، وأيضاً لم يكن هناك طرد للسكان أو نزع للملكية، أو محاولة لإجبار السكان على اعتناق الإسلام. ولو أخذنا احترام سكان المدينة السابقين معياراً لسلامة وقوة العقيدة التوحيدية، يمكننا القول هنا إن الإسلام قد بدأ ولايته الطويلة هناك بداية حسنة جداً».

كما علق المؤرخ رابو بورت على الوثيقة العمرية فى مؤلفه «تاريخ فلسطين» وهو يكتب من وجهة نظر يهودية قائلاً :

«يجب أن نعترف بأن إعلاناً كهذا فى بداية القرن الوسيط (وقد التزمت به كل الجيوش الإسلامية بعامة) هو إعلان حافل بالإنصاف، فهو يتنفس عدالة وتسامحاً، وما استطاع أباطرة بيزنطة ولا أساقفة الكنيسة أن يعبروا مطلقاً عن مشاعر من هذا القبيل باسم ذلك الذى دعاهم إلى دين الحب.

إن وثيقة كإعلان الخليفة كانت كفيلة بإحداث تأثير عميق، لا فى روح اليهود فحسب، بل فى روح نصارى سورية وفلسطين، وبعضهم كان يعانى من الظلم والطغيان، فى حين كان الآخرون



يعانــون من اضطهاد الكنيــسة التــابعة للدولة، جــزاء ما يعــتقون من آراء ديــنية مختلفة وكان الجميع يتحملون أغلال الموظفين وأعباء الضرائب الباهظة».

وبعد أن تم تسليم المدينة لعمر بن الخطاب، تحرك موكب المسلمين إلى داخل القدس، وحان وقت الصلاة أثناء وجوده فى كنيسة القيامة، وطلب منه البطريق صفرونيــوس الصلاة فى الكنيسة، إلا أن عــمر رفض خشية أن يتــخذ المسلمون الكنيسة من بعــده مسجداً لهم وصلى خارجها، فى المكان الــذى أقيم عليه بعد ذلك مسجد عرف **باسم مسجد عمر**.

وزار عمــر مكان هيكل سليمان وهيرود، فــإذا الصخرة التى كــان عليها قد تحــولت إلى مزبلة ومكان لتجميع القمامة، بأمر من الرومان النصــارى، فبدأ يزيل بنفسه تلك القاذورات عنها، وتبعه من كان معه من المسلمين حتى طهروا المكان، وأقام المسلمــون مسجداً عند الحافة الجنوبية للدكة فى موقع رواق هيرود الملكى، حيث يقع المسجد الأقصى الآن، خلافاً لما أشار عليه به كعب الأحبار، ليتفادى عمر اتجاه المسلمين فى صلاتهم إلى قدس الأقداس.

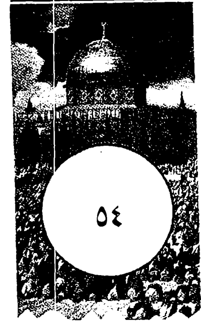
ثم طاف عمر بشوارع المدينة وأزقتها، واطلع على ما خلفته الحروب من تدمير للمدينة وإهمال لها، ووضع أسس إدارتهــا، وعين لها قضاة وعمــال نظافة، وجعل عمــر على حكم بيت المقدس يزيد بن أبى سفيان على أن يأتمــر بأمر أبى عبيدة بن الجراح، وقسم فلسطين إلى قــسمين: شمالى وعاصمته الرملة، وجنوبى وعاصمته إيلياء (أورشليم - القدس).

وثمة سـؤال مهم للغاية يطرح نفســه على المؤرخ لهذه الأحداث وهو : هل العــرب الساكنون هذه البلاد هم أخــلاف المسلمين الذين خرجــوا من الجزيرة العربيــة عقب الفــتح الإسلامى، أم أن تاريخ وجودهم فى فلسطين وما حولها يرجع إلى ما قبل ذلك؟

يرى المؤرخــون الصليبــيون واليــهود أن عرب اليــوم ليســوا سوى أخــلاف هؤلاء الذين دخلوا فلسطين بعــد فتحــها فى عهــد عمر، وهم بذلك يزيفــون الحقائق، ويــخلطون الأمور، فعــمر بن الخطاب قــد أدخل الإسلام إلى البــلاد ولم يدخل العرب، إذ الوجــود العربى ســابق بكثيــر على الوجود الإسلامى، الأمر الذى تؤكده دائرة المعارف اليهودية العامة حيث تقول:

«أصبحت فلسطين بلاداً عربية ، ليس بسبب الفــتح المحمدى وحسب، ولكن لأن العرب كانوا قد أتوا إلى البلاد مهاجرين منذ قرون مضت».

إن التواجد العربى فى فلسطين لم يكن مجــرد تعايش كغيرهم من الأجناس والأعراق، وإنما - وعلى نحو ما أشــرنا من قبل - كان الوجود العربى مؤثراً فى مــجريات الأحداث بفلسطين وذلك من خلال الإنباط والإيدوميين والتدمريين ، وكلهم عرب، وهذا لا يمنع حــقيقة توافد الكثيرين من



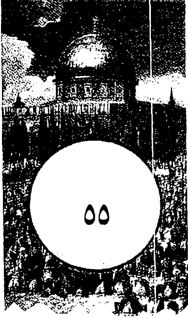
العرب بعد الفتح الإسلامى للبلاد، وهذا أمر طبيعى.

ويشير جفريز فى كتابه «فلسطين إليكم الحقيقة» إلى هذه القضية قائلاً : «لكن القادمين الجدد الذين تدفقوا على هذه البلاد آنذاك انصهروا مع سكانها الأقدمين لدرجة أن عرب اليوم فى فلسطين لا يمثلون مجرد جنس فاتح، ولكنهم سلائل تلك الشعوب التى عاشت فيها قبل الإسرائيليين...».

مدخل مسجد عمر بن الخطاب بجوار كنيسة القيامة

صورة نادرة للمسجد الأقصى فى بداية القرن العشرين

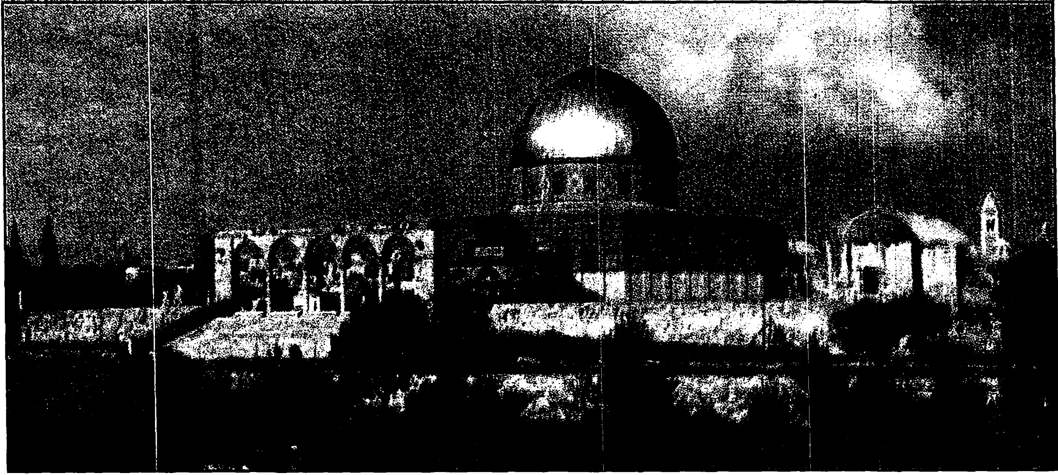




ويقول المؤرخ الأمريكى تشارلز مثيوز: «إن الواقع البسيط هو أن الشعب العربى فى فلسطين ليس سليل أولئك القادمين الجدد الذين اقتحموا مع الفتح الإسلامى العربى فى القرن السابع، إن أغلبية السكان المحليين سواء العرب المسيحيين أو المسلمين، هى من جنس مختلط، ترجع صلته بالأرض بعيداً إلى تاريخ قديم جداً».

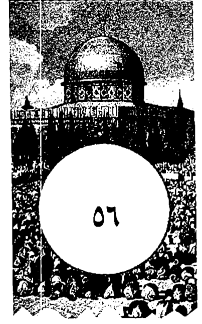
وازدهرت القدس فى عهد الخلفاء الراشدين، فبعد مقتل عمر بن الخطاب، تولى عثمان بن عفان الخلافة، وكان إسهامه الرئيس فى مدينة بيت المقدس هو إقامة الحديقة العامة الشاسعة حول بركة سلوام من أجل فقراء المدينة، ثم بعد مقتل عثمان وعلى ابن أبى طالب نودى بمعاوية بن أبى سفيان خليفة فى بيت المقدس، لتبدأ القدس عصراً جديداً فى ظل الخلافة الأموية.

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان بنى فى أورشليم القدس مسجد قبة الصخرة بعد أن خصص لبنائه جميع الجزية الواردة من مصر خلال سبعة أعوام، ويرجح الكثيرون أن موقعه هو ذات الوقع الذى بنى عليه سليمان معبده الذى هدمه بختنصر ثم أعاد بناءه هيرودس، ثم دكه الرومان، ويعد الكثيرون هذا المسجد تحفة رائعة من الفن الإسلامى الأصيل، وأفاضت كتب التاريخ فى وصفه.



قبة الصخرة - صورة من السبعينيات فى بداية القرن العشرين

وشمل اهتمام عبد الملك كافة أرجاء بيت المقدس، فقام بإصلاح أسوار المدينة وبواباتها، وبنى دار الإقامة مقر حاكم إيلياء قرب الحرم القدسى الشريف، بل لقد حظيت أعمال الخليفة - بما فيها بناء المسجد على قبة الصخرة - بمدح اليهود، على نحو ما ذكر مؤلف «أسرار الحاخام سيمون بن يوحاى» اليهودى عام ٧٥٠م.



وفى عام ٧٠٥م خلف الوليد **أباه عبد الملك**، واستمر فى تصعيد قداسة وجلال الحرم القدسى، وأمر فى عام ٧٠٩م **بتشييد مسجد** جديد يحل محل مسجد عمر البدائى، وأقيم على نفس موقع المبنى الحالي للمسجد الأقصى، وقد تعرض هذا المسجد للتدمير عدة مرات، وأعيد بناؤه، وأحدثت به تغييرات.

كما قام الخليفة أيضاً بإصلاح جدران هيرود المساندة وتعلية أطوالها، كما أعيد بناء البوابات التى تقع فى الطرف الجنوبى للرصيف، وشيدت مجمعات من أبنية عامة.

وقد جذبت المدينة اهتمام سليمان بن الوليد (٧١٥ - ٧١٧م) بدرجة كبيرة، ويذكر البعض أنه كان يخطط للعيش فى بيت المقدس وجعلها عاصمة ملكه.

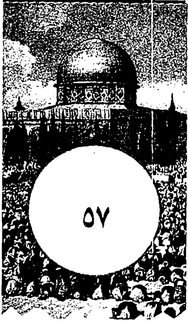
وبدأت الدولة الإسلامية الأموية تعيش حالة اضطراب شديد فى منتصف القرن الثامن الميلادى، واغتيل الخليفة الوليد الثانى عام ٧٤٤م، وتمردت القبائل فى فلسطين والأردن ضد ابنه يزيد، واستمر التمرد فى الشام ضد مروان الثانى خليفة يزيد، وحدث أن دمر الخليفة أسوار بيت المقدس وحمص ودمشق ومدن اخرى كإجراء وقائى، ثم أصاب القدس تدمير أشد إثر زلزال تعرضت له عام ٧٤٧م، وتساقط جدارا قبة الصخرة الشرقى والغربى، كما تهدم مسجد الوليد والقصر الأموى وكنيسة قسطنطين نيا.

ودالت دولة بنى أمية بعد ذلك (١٣٢ هـ - ٧٥٠م) وجاءت الخلافة العباسية، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور منهمكاً فى بناء بغداد لتكون حاضرة الدولة، ولفت نظره ما حدث للمسجد الأقصى من عطب، فأمر بأخذ سبائك الذهب والفضة من أبواب المسجد، وسكب دنانير وأعيد بناء ما تهدم من المسجد.

وقد تكرر حدوث الزلزال بعد ذلك، وحدث تهدم جديد، وقام الخليفة العباسى المهدى بإصلاحه.

فى صدر العهد العباسى، وتحديداً فى أيام هارون الرشيد (٧٨٦م)، نشأت علاقات خارجية تتصل بالقدس، وسمح الخليفة لملك فرنسا شارلمان بترميم كنائس القدس، وأن ينفق على بناء كنيسة جديدة هى كنيسة العذراء.

وتشير كتابات الرحالة إلى حالة الأمن والأمان التى عمت أرجاء القدس، وإلى التفاهم القائم بين سكانها، وإن اضطربت الأحوال قليلاً مع أفول الدولة العباسية، لكن مع قيام الدولة **الطولونية فى مصر** واستيلاء أحمد بن طولون على السلطة عام ٨٦٨م، وإنشاء دولة مستقلة تتبعها سورية وفلسطين، تمكن ابن طولون من إعادة فرض القانون والنظام، وتحسن الاقتصاد وانتعشت التجارة، كما عين ابن طولون حاكماً نصرانياً للقدس وأمر بإعادة بناء وإصلاح ما تهدم من الكنائس، كما سمح لأعضاء أحد المذاهب اليهودية (القرائين) بإرساء قواعدهم فى القدس.



وانتـهى حكم الطولونيين عـام ٩٠٤م حين تمكـن العبـاسيـون من إحكام قبـضتـهم على فلسطين، لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ تمكـن محمـد بن طغج الأخشـيدى عـام ٩٣٥م- وهو تركى من آسيـا الوسطى - من الاستـيلاء على الحكم فى مـصر وسـوريا وفلسطين، وحكم تلك المناطق باسم خليـفة بغـداد، وأصبحت القدس ميداناً لتنافس العديد من الأسر على حكمها، الأمر الذى دفع الأباطرة اليـونان فى بيزنطة إلى إعـلان الحرب المقـدسة على الإسـلام، وتمكن البيـزنطيون خلال القـرن العاشر من إعـادة سيطرتهم على كيليكيـة وطرسوس وقبرص، وأعلنوا أن تلك خطوة فى سبيل استعادة أورشليم، الأمر الذى أدى إلى تدهور العلاقات بين مسلمى ونصارى المدينة.

وتم طرد الأخـشيـديين من فلسطين على أيدى القـرامطة الشيـعة فى البـداية، ثم على أيدى الفاطمـيين الشيعـة فى تونس الذين تمكنوا عام ٩٨٣م من إقامـة خلافتـهم، ونقل عاصمـتهم من القيروان إلى القاهرة.

وكان نصارى القـدس فى تلك الفترة - حسب روايات الجـغرافيين والرحالة - أكـثر تميزاً عن المسلمين واليهود فى المدينة.

وقد عين العزيز بن المعز لديـن الله الفاطمى حاكماً قبطياً على فلسـطين هو أبو اليمن قزمان، وتمتعت القدس بخاصة وفلسطين بعامة برعاية كـاملة من قبل الفاطميين حتى تولى الحاكم بأمر الله الخلافة، وتغيرت فى عهده أمور كثيرة، ولم يسلم من قوانينه مسلم أو نصرانى أو يهودى.

وأصبـحت القدس فى عهـد الفاطميين عـاصمة إدارية لليـهودية الفلسطينية، وواصل اليـهود تأييدهم بقوة للفاطميين، وقـام المسلمون بإعادة تشييد أبنيتهم فى القدس، فقـد كانت قبة الصخرة قد انهارت عام ١٠١٧م.

وفى منتصف القرن الحـادى عشر بدت القدس وقد استـعادت قوتها وعـافيتها إلى حد كـبير، وتشير كـتابات المؤرخين والرحالة إلى أسواق المدينـة الممتازة ومبانيـها المرتفعة، وكـان لكل حرفة سوق، بالإضافة إلى وجود مستشـفى كبير يدرس به الطب، وانتهى العمل فى بناء **كنيسة القـيامة الجديدة** بأموال الإمبراطور قسطنطين التاسع مونورماخوس عام ١٠٤٨م.

وزاد تدفق الحجاج من أوروبا إلى الأمـاكن المقدسة بالمدينة، وواصل اليـهـود حجهم وزيارتهم للمدينة أيضاً، حيث كانوا يفدون إليها من أماكن بعيدة.

وسرعان ما واجه أهل القدس أعداءً جدداً من الشمال، ففى عام ١٠٥٥م تقريباً، تمكنت بعض القوات التركـية التى اعتنقت الإسلام السنى مؤخـراً، من الإمساك بزمام الأمور فى شـمال سورية باسم السنة والخليفـة العباسى، وعرفت هذه الـقوات الماهرة إدارياً باسم السلاجقـة، وتمكن القائد

وبمجرد تحرير إخوانهم من عبودية «الكفرة» وجب عليهم السير إلى أورشليم لتحـرير مقبرة المسـيح من الإسلام، وبهذا يعم السـلام والرخاء أوروبا، وتندلع «حرب الرب» فى الشرق الأدنى.

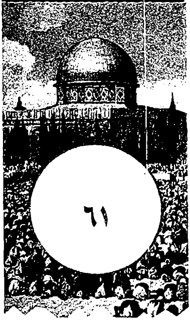
ويمكن القول إن الحملات الصليبية لم ترتبط بداية بغزو فلسطين، وإنما بدأت قبل ذلك بنحو قرن من الزمان، وكانت موجهة إلى الأندلس والممالك الإسلامية الأوروبية، إذ بدأ الأوروبيون يحاربون المسلمين منذ عـام ٩٧٠م واحتلوا صقلية وأجزاء من أرمـينية واسـتمرت هذه الحمـلات حتى انهـارت الدولة الأموية فى الأندلس مع بدايات القرن الحادى عشر.

وكان الأسبان الذين يقاتلون المسلمين يتلقون الدعم الوافر من الأمراء الأوروبيين ومن الكنيسة، وبدأ رجال مدينة بيسا غزو سردينية بتحريض من البابا بينيدكت الثامن، كما بدأ النورمان يحاربون عرب صقلية ابتداء من ١٠٦٠م وحتى ١٠٩٠م وكانوا يحاربون كأتباع للبابا.

الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٩م):

بعد أن غزا الصليـبيون **طليطلة** عـام ١٠٨٥م، وبعـد عـشـر سنوات تقـريبـاً أبحـروا إلى الشـرق حـيث حـاصـروا أنطاكـيـة فى أواخـر عـام ١٠٩٧م، وسـقطت المدينة نتيـجة مـا كان فيه المسلمـون من شقاق وانقسام، وواصل الصليـبـيـون حملتـهم تجـاه فلسطـين، وكـانت تحت أيدى ولدى «أرتق»: سكمـان وإيلغـازى، وكـان الحاكم الحقيـقى فى مصر هو **الأفضل شاهنشاه الذى خلـف أباه بدر الجمالى الأرمنى الذى أسلم**، وكان الأفضل قد زحف نحو بيت المقدس حيث هدمت أسـوار المدينة واحـتـل المصـريون كل فلسطين، وكـان على المدينة المقـدسـة فـترة غـزو الصليـبيين لهـا «افـتـخـار الدولة»، حاكماً من قبل الفاطميين.

خريطة (١١)
أورشليم فى العصر الصليبى ١٠٩٩ - ١١٨٧م



وقد تقدمت قوات الصليبيين فى السابع من يونيو ١٠٩٩م، وحاصرت المدينة المقدسة من جميع نواحيها فيما عدا الناحيتين : الشرقية والجنوبية الشرقية، لأنهما كانتا مكشوفتين.

واستمر حصار المدينة حوالى أربعين يوماً حتى نفد ما لدى المسلمين المحاصرين من عتاد ومؤن، وتمكن الصليبيون من دخول بيت المقدس فى الخامس عشر من يونيو عام ١٠٩٩م.

واتفقت جميع المصادر التاريخية على دموية القوات الغازية وبشاعتها. فيقول مؤلف أعمال الفرنجة Gesta Francorum الذى أيد الصليبيين، أنهم «قتلوا كل المسلمين والأتراك. لقد قتلوا كل شخص ذكراً كان أم أنثى، وتم بعد ذلك ذبح المسلمين الألف الذين التجأوا إلى سطح المسجد الأقصى، وحوصر اليهود فى معبدهم وقتلوا بالسيوف حتى لم يتبق منهم أى أحياء تقريباً» وسالت الدماء فى الشوارع، وكما يقول شاهد العيان البروفنسالى ريمون الأجويلى: «كان بالإمكان رؤية أكوام الرؤوس والأيدى والأرجل، وتحولت القدس المزدهرة الآمنة إلى مستودع نتن لجثث القتلى».

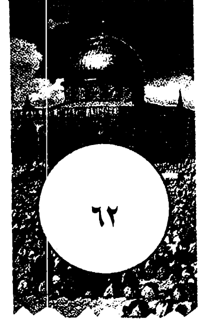
وذكر المؤرخ النصرانى ابن العبرى فى كتابه «تاريخ مختصر الدول» قوله : «ولبث الفرنج فى البلد أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً».

ودمر الصليبيون ما دمروه، ونهبوا ما نهبوه من كنوز وتحف كانت فى قبة الصخرة، وطاردوا اليهود الذين لجأوا إلى معبدهم وأشعلوا النار فى المعبد فاحترق بمن فيه.

وقد أصدر المحاربون الصليبيون قانوناً يمنع المسلمين واليهود من دخول أورشليم، كما طردوا النصارى المحليين لأنهم شكوا فى تآمرهم مع المسلمين، وحول جودفرى بعد الغزو مباشرة قبة الصخرة إلى كنيسة أطلق عليها اسم «معبد الرب» حيث بدأ الصليبيون يعتقدون أنهم شعب الله المختار الجديد.

وخرجت من مصر حملة بقيادة الوزير الأفضل لمواجهة الصليبيين، إلا أنها هزمت فى عسقلان فى التاسع من أغسطس عام ١٠٩٩م، واستولى الصليبيون على إقليم الجليل وطبرية وحيفا وأرسوف وقيسارية وعكا وغيرها من المدن، وأسس الصليبيون من القدس وما جاورها مملكة لاتينية جعلوا مقرها القدس، وأقاموا عليها جودفرى دوبويون أميراً، ولما مات خلفه أخوه بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨م)، حيث أصبحت القدس فى عهده عاصمة لمملكة تمتد من بيروت إلى العقبة.

أما عن شكل القدس فى تلك الفترة فكان كما كان عليه أيام الرومان، إذ يقع جبل صهيون خارج الأسوار، وأقيمت الكنائس والأديرة فى الداخل، **وزاد الاعتناء بكنيسة القيامة** حيث أعيد بناؤها. وقد ازدادت المبانى النصرانية بالقدس فى حى البطاركة والحى الأرمنى، كما قامت مبانى الصليبيين فيما يعرف الآن بحى اليهود فى الناحية الجنوبية الغربية من القدس، وبنيت فى القطاع الشمالى المسمى حالياً بالحى الإسلامى عدة كنائس أهمها : كنيسة «سانت آن»، وكان النصارى السوريون يقيمون فى هذا الحى حيث أحضرهم إليه الملك بلدوين.



وقد حدثت مناوشات بين المسلمين والصليبيين، حيث وقعت موقعة حران أو البالخ عام ١١٠٤م وقتل السلاجقة من الصليبيين حوالى عشرة آلاف مقاتل، وساعد على هزيمة الصليبيين العداء القائم بينهم وبين النصارى البيزنطيين، واستطاع مودود آتابك الموصل أن يوقع بالصليبيين هزيمة أخرى فى موقعة الصنبرة، وتقدم الجيش الفاطمى من عسقلان إلى أن وصل أسوار بيت المقدس، إلا أن عدم وجود خطة شاملة توحد جهود المسلمين فى الشرق الأدنى، وانقسامهم، والعداء بين الفاطميين والسلاجقة، وبين الشيعة والسنة، حال دون القيام بعمل حربى كبير مشترك، وأعطى ذلك الفرصة للعدو الصليبى أن يستولى على المزيد من الأراضى الإسلامية على فترات متلاحقة.

وتتفق مصادر تاريخية عديدة على أن الأسباب الرئيسة وراء تلك الحملة لم تكن ذات صبغة دينية أصيلة، وإنما تمثلت فى رغبة الأوروبيين فى التخلص من الثقافة الإسلامية والعربية فى المنطقة، وجعل تلك البقعة من العالم العربى لاتينية والقضاء على الأرثوذكسية التى كانت منتشرة فيها، ناهيك عن الدوافع الاقتصادية المحمومة، وكذلك الحيلولة دون اصطدام الأمراء الإقطاعيين فى أوروبا وتقاتلهم وشغلهم بقتال أعدائهم المسلمين، أما الزعم بأن هؤلاء الغازين قد أتوا «لتحرير النصارى من الظلم الإسلامى» كما يزعم المؤرخ اليهودى هيامسون، فالتاريخ يكذبه، لأن موقف

صخرة المسرى حولها الأعمدة الإسلامية فى قبة الصخرة



الصليبيين من اليهود ومن نصارى الشرق، بالإضافة إلى حملاتهم إلى بلاد أخرى كسورية ومصر وشمال افريقيا، يؤكد الطابع الاستعمارى الإقطاعى لهذه الحملات.

الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧م):

استطاع الأمير عماد الدين زنكى توحيد المسلمين فى العراق والشام وتمكن من فتح إيديسا (الرها) الصليبية عام ١١٤٤م، كما تمكن من هزيمة الصليبيين فى عسقلان وبعد مقتله تولى ابنه نور الدين الأمر، وعمل على توحيد المسلمين وجمع كلمتهم، وامتد نفوذه إلى مصر وقام بتولية صلاح الدين على مصر، الأمر الذى أزعج الصليبيين إذ أصبحت قواتهم فى بيت المقدس محاطة من الشمال الشرقى والجنوب الغربى، واستنجد الصليبيون فى الشرق بإخوانهم فى الغرب، وتم شن حملة صليبية ثانية بقيادة ملكى فرنسا وألمانيا إلا أنها فشلت أمام صمود نور الدين.

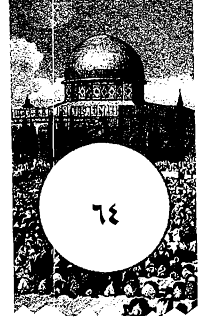
صلاح الدين وتحرير بيت المقدس:

استطاع صلاح الدين أن يوحد سورية ومصر تحت رايته عام ١١٨٣م، وكان ملك القدس الصليبى آنذاك هو بلدوين الرابع، وقد تمكن صلاح الدين من هزيمته فى موقعة بانياس، واضطر الصليبيون إلى عقد صلح مع المسلمين، إلا أنهم سرعان ما نقضوه، وخلف بلدوين الخامس أخاه، ثم دس له الصليبيون السم ليتولى الملك جاى دى لوزيجنان الحكم، الأمر الذى خلق حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار بين الصليبيين وساعد **صلاح الدين** على أن يحقق نصره المؤزر **فى حطين**.



نصب تذكارى للبطل صلاح الدين الأيوبى محرر القدس

وكان قاطع الطرق رينالد دى شاتيلون المعروف عند العرب باسم أرناط الفرنسى، صاحب حصن الكرك، من أشد الناس عداوة للمسلمين، وكان صلاح الدين قد حاصر حصنه عدة مرات وأجبره على الصلح، لكنه عاد فغدر بقافلة كبيرة واستولى عليها ورفض طلب صلاح الدين بإطلاق سراح الأسرى والأموال، بل سعى أرناط إلى اعتراض قوافل الحجاج، وعزم على



السير إلى مكة والمدينة، وقام **الأسطول المصرى** بعمل عظيم ضد الأسطول الصليبى عام ١١٨٢م، حيث قام حسام الدين لؤلؤ الحاجب بفك حصار الصليبيين لحصن العقبة (أيلة) وميناء (عيذاب) المواجه لمدينة جدة، واستطاع صلاح الدين أن يوقف نشاط أرناط المعادى للحرمين الشريفين.

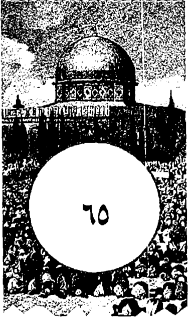
ازداد مركز صلاح الدين قوة مما جعله يخرج لقتال الصليبيين شمالاً عام ١١٨٣م، كما اتجه فرخشاه ابن أخيه ونائبه فى دمشق نحو الجنوب، وانضم الاثنان وهاجما حصن كوكب فى إقليم الغور وتم الانتصار على الصليبيين.

وقد أجرى صلاح الدين حركة تنظيم داخلى مكنته من تعبئة جميع موارد المسلمين وبدأ الاستعداد لمعركة فاصلة حاسمة ضد الصليبيين من أجل تحرير بيت المقدس من احتلالهم. والتقى الفريقان فى موقعة حطين فى يوليو ١١٨٧م، وكان انتصار المسلمين بقيادة صلاح الدين حاسماً، واستسلمت قلعة طبرية فى اليوم التالى لمعركة حطين، وكان موقف صلاح الدين من أسرى الصليبيين مشرفاً، إذ وقع فى الأسر ملوك وأمراء العدو وفى مقدمتهم الملك جيفرى والبرنس أرناط.

استقبل صلاح الدين عام ١١٨٧م فى عسقلان وفداً من سكان بيت المقدس، ورفض الوفد تسليم المدينة، وبدأ الصليبيون فى جمع الأسلحة وتوزيعها على أتباعهم، وجاء جيش صلاح الدين فى ١١٨٧/٩/٢٠م أمام بيت المقدس وبدأ فى مهاجمة المدينة من السور الشمالى والشمالى الغربى، ثم نقل معسكره بعد خمسة أيام إلى جبل الزيتون، وبدأ رجاله ينقبون السور قرب باب العمود. ولما يئس الصليبيون من الانتصار طلبوا الصلح، فجمع صلاح الدين قادته ورجاله واستشارهم فى ذلك، فوافقوا على تسليم المدينة صلحاً ويرحل عنها الصليبيون من النصارى غير العرب خلال أربعة أيام، على أن يحملوا كل ممتلكاتهم معهم نظير فدية يدفعونها بينما استمر النصارى العرب من أهالى سورية فى سكنى القدس.

ودخل صلاح الدين المدينة المقدسة فى يوم الجمعة ١١٨٧/١٠/١٢م، وفرح النصارى الأرثوذكس بمقدمه، واتخذ صلاح الدين عالماً نصرانياً أرثوذكسياً هو يوسف بابيط مستشاراً له ورفض الانتقام من أعدائه، كما رفض فكرة طرحت عليه تهدف إلى هدم كنيسة القيامة حتى لا تكون هدفاً للزوار.

وإلى جانب النصارى الأرثوذكس، دعا صلاح الدين اليهود للعودة إلى القدس، والتى كانت قد حرمت عليهم من قبل الصليبيين بشكل شبه كلى، ومن ثم تعالت الأصوات اليهودية المرحبة باسمه على أنه قورش (ملك فارس الذى أعاد اليهود من النفى البابلى إلى أورشليم عام ٥٣٨ ق م) الجديد فى أنحاء العالم اليهودى.



بينما رحل المحتلون الغازون، وأمر صلاح الدين **بعمارة المسجد الأقصى وتحسينه ومحا** الرسوم والتماثيل، وزين القبة بنقوش جميلة.

وسقطت بعد ذلك مدن فلسطين، واحدة تلو الأخرى، فى أيدى المسلمين، ولم يبق - بعد سنتين - فى أيدى الصليبيين إلا مرافئ أنطاكية وطرابلس وصور. ويقول المؤرخ اليهودى هيامسون: «أدى سقوط القدس إلى هجرة يهودية تستحق الاعتبار إلى فلسطين، لأنه حيثما حكم صلاح الدين كانت هناك حرية لليهود، وكذلك للأجناس والأديان الأخرى، وكان الطبيب اليهودى موسى ابن ميمون طبيباً خاصاً لصلاح الدين».

وقد فتح صلاح الدين عسقلان فى سبتمبر ١١٨٧م، وتم توطين يهودها فى القدس، وسمح لهم صلاح الدين ببناء معبد فيها، كما خصص لهم مكاناً غربى حى المغاربة الجديد، وفى حوالى عام ١٢١٠م قامت ثلاثمائة عائلة يهودية بالحج إلى القدس فى مجموعتين قدمتا من فرنسا.

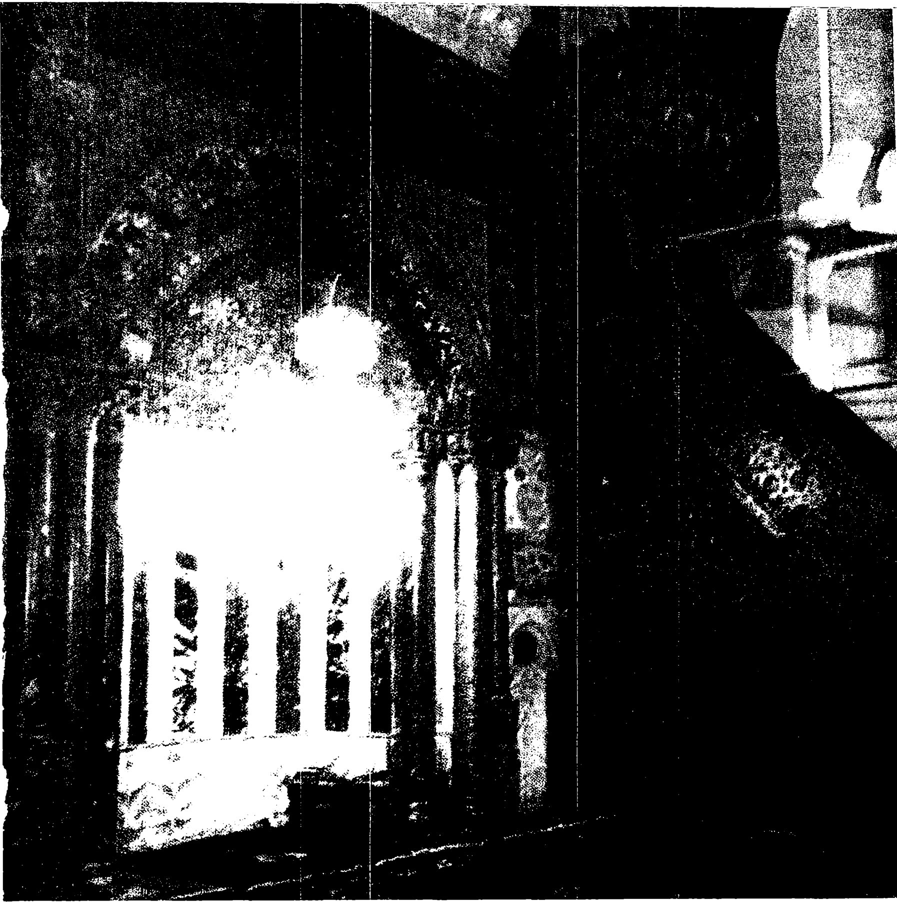
الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩م:

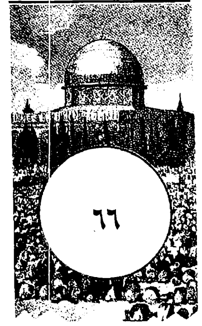
بدلاً من سعى بابا النصارى وملوك الغرب إلى التفاهم مع صلاح الدين الأيوبى بشأن مبادلة الأسرى - كما سبق وأن طلبوا - وتنظيم شئون الحجاج النصارى إلى بيت المقدس وحماية رعايا الكنيسة الشرقية، نجد البابوية تقوم بإرسال الرسائل إلى سائر ملوك أوروبا حيث تعلن هدنة عامة بينهم لسبع سنوات، سميت «هدنة الرب»، ينسون خلالها خلافاتهم وصراعاتهم وأحقادهم، وينشرون السلام بين الكاثوليك، من أجل تجنيد حملة شرسة لتخليص بيت المقدس من المسلمين، بقيادة الإمبراطور **فردريك بربروسا الألمانى، وفيليب أغسطس الفرنسى، وريتشارد قلب الأسد الإنجليزى**، حيث حشد الغرب قواته ورجاله، ودخلوا عكا فى يوليو ١١٩١م وغدروا بأهلها المسلمين خلافاً لما بينهم من اتفاق، وقتلوا ثلاثة آلاف مسلم.

واختلف القادة الصليبيون الثلاثة، ولم يصل منهم إلى فلسطين سوى ريتشارد قلب الأسد الذى سعى لإحياء مملكة بيت المقدس الصليبية، فاستولى على قيسارية فى أواخر أغسطس ١١٩١م **وانتصر فى موقعه أرسوف** فى ٧/٩/١١٩١م، وأخلى المسلمون عسقلان، وفتح الصليبيون عكا.

وكان صلاح الدين قد أخلى سبيل ريتشارد بعد أن أسره فى حطين، بعد أن وعده ألا يعود للقتال، فاتجه صلاح الدين فى أواخر عام ١٩٩١م للدفاع بنفسه عن مدينة القدس التى حصنها تحصيناً قوياً أسهم فيه بنفسه هو وأولاده.

وجرت محاولات للصلح بين الطرفين، وساد الانقسام بين الصليبيين، وفى الوقت نفسه زاد تحصين المسلمين للمدينة المقدسة، وانتهى الأمر بعقد معاهدة «الرملة» بين المسلمين والصليبيين فى ٢/٩/١١٩٢م لثلاث سنوات تنازل فيها ريتشارد عن المطالبة بالسيطرة السياسية على بيت المقدس،



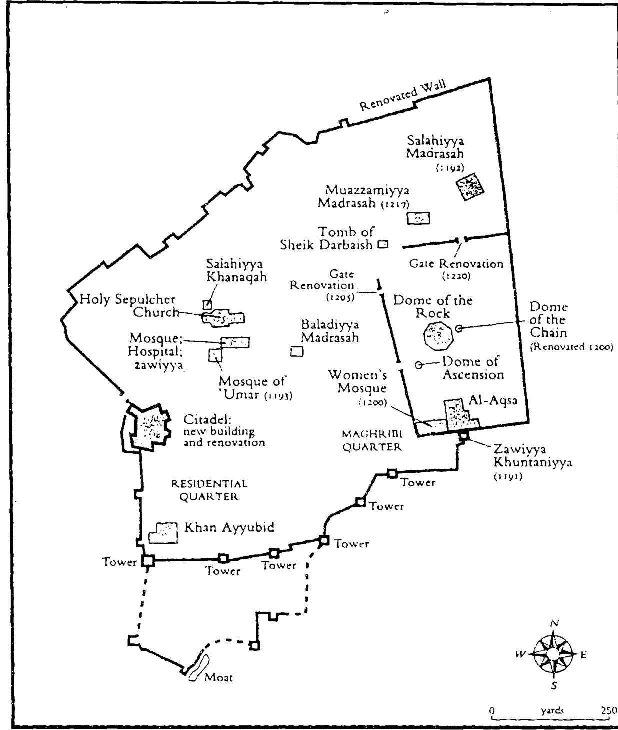


صورة المنبر والمحراب الذى بناهما صلاح الدين فى المسجد الأقصى قبل حريقه سنة ٦٩

وظلت الأماكن المقدسة فى أيدى المسلمين، وحصل فردريك على شريط ساحلى ضيق بين صور ويافا، وعلى حق اللاتين فى زيارة القدس دون دفع أية ضرائب.

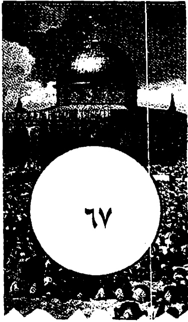
وفى مستهل عام ١١٩٥م، أى بعد انتهاء المدة التى حددتها معاهدة الرملة (ثلاث سنوات)، مضى البابا إكلستيان الثالث فى تعبئة نصارى أوروبا ضد مسلمى الشرق، والدعوة إلى القيام بحملة مقدسة لاستخلاص بيت المقدس من المسلمين، ولم يستجب له إلا هنرى السادس إمبراطور ألمانيا، صاحب الأطماع التوسعية وسياسة السيطرة العلمانية والعدوانية ضد الشرق الإسلامى والنصرانى البيزنطى، وقد وصلت حملته إلى عكا فى سبتمبر عام ١١٩٧م ولم تجد ترحيباً من النصارى الشرقيين، ولم تحقق أية انتصارات عسكرية حاسمة على الأيوبيين، فأسرعت إلى عقد صلح مع السلطان العادل عام ١١٩٨م ولمدة ثلاث سنوات، وعادت إلى أوروبا خاسرة.

وكان صلاح الدين الأيوبى قد توفى قبل هذه الحملة متأثرًا بحمى التيفود عام ١١٩٤م، وانقسمت مملكته التى حكم مدنها المختلفة أعضاء من الأسرة الأيوبية، كل بجيشه الخاص ونظامه الإدارى الخاص، وبدأ ورثته القتال فيما بينهم، وعانت القدس من ذلك الصراع الداخلى، وإن لم يقل الحماس الإسلامى لها، ومن ثم استمر جهادهم الإعمارى للمدينة ومقدساتها الإسلامية



خريطة (١٢)

أسلمة القدس تحت الحكم الأيوبى ١١٨٧ - ١٢٥٠م



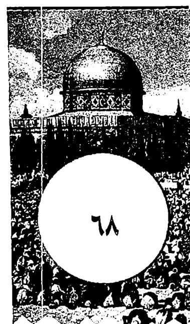
وافتتحت المدارس الدينية بها، وبدأ نظام الوقف ينتشر فى ربوعها، ولم يكن نصارى الغرب آنذاك قد نفضوا أيديهم عن المدينة، إذ ظل حلم إحتلالها يراود ملوكهم وكنيستهم، وبدأت قواتهم تتجه إلى الشرق، الأمر الذى خلق حالة من الرعب فى بيت المقدس، حيث لم تغب عن أذهان أهلها تلك المذابح الرهيبة التى قام بها الغازون الصليبيون.

الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢م):

استمرت هذه الحملة من ١٢٠٢ إلى ١٢٠٤م وكانت موجهة فى حقيقة الأمر إلى الإمبراطورية الشرقية، وكان الملك العادل - أخو صلاح الدين وخليفته - يحكم الشام وفلسطين ومصر. وقد ضمت هذه الحملة جيشاً من الشبان والفتيات بلغ عدده خمسين ألفاً، غرق معظمهم فى البحر المتوسط، ووصل قليل منهم إلى فلسطين، ثم لم يلبثوا أن عادوا مخفقين، بعد أن تمكنت القوات المصرية والسورية من وقف تقدمهم نحو بيت المقدس، وعقد الملك العادل صلحاً معهم فى سبتمبر عام ١٢٠٤م استرد بمقتضاه يافا ورام الله والرملة.

وإزاء هذا الفشل المتكرر للصليبيين فى استرداد بيت المقدس، تجلت للعدو حقيقة تاريخية جغرافية مهمة، وهى أن مصر هى مفتاح الشرق وقاعدته الحصينة التى تمد جيوشه بالمؤن والإمدادات البشرية والمعنوية، وأنه لا فائدة من محاولاتهم لاسترداد بيت المقدس ما دامت مصر خارج نطاق النفوذ الصليبى .

كما أثبت التاريخ ووقائعه مدى ما تمثله الوحدة المصرية - السورية من قوة فى صد أى اعتداء خارجى على قلب العالم الإسلامى، بيت المقدس، وهو ما أدركه صلاح الدين ومن قبله من الحكام.



وتحولت ميادين القتال الفعلى بين الشرق والغرب من الشام ومدنه إلى وادى النيل مع بدايات القرن الثالث عشر الميلادى، واستمرت حتى نهاية الحروب الصليبية فى منتصف القرن الخامس عشر.

الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٥م):

اجتمع بعض أمراء الصليبيين فى روما - مقر البابا أنوسنت - وتعاقدوا على انتزاع بيت المقدس من المسلمين، وتم إعداد حملة صليبية خامسة عام ١٢١٥م توجهت لاحتلال مصر أولاً، وتمكنت بالفعل من احتلال ميناء دمياط، وطالبت من الملك العادل - ملك مصر - التنازل عن جزء من مملكة القدس، ودفع التعويضات لهم، إلا أن السلطان العادل رفض وتمكن من هزيمتهم فى دمياط، وتم أسر الملك لويس التاسع فى المنصورة.

الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٩م):

تمكن الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى من استغلال حالة الوهن التى سادت بين المسلمين، وجاء على رأس حملة إلى فلسطين، فى الوقت الذى قرر البابا فيه تجريد حملة صليبية ضد مملكة فريدريك الأوروبية نفسها لماطلته فى تجهيز الحملة ضد المسلمين.

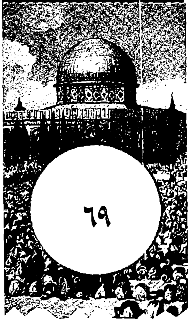
واستطاع فريدريك استغلال تناحر الجماعات الإسلامية، وأن يفرض شروطه على السلطان المصرى الذى تنازل له عن القدس والناصرة وبيت لحم مع شريط ساحلى لمدة عشر سنوات، مع احتفاظ الصليبيين بالمدن الساحلية الأخرى التى كانت فى أيديهم بالفعل، حتى غزا الخوارزميون القادمون من آسيا الوسطى شمالى سورية - بعد اتحادهم مع المصريين - وتمكنوا من الاستيلاء على القدس عام ١١٤٤م، وأغاروا على سورية واحتلوها، واضطر الخوارزميون - نتيجة الخلافات فيما بينهم - إلى ترك فلسطين تحت حكم مماليك مصر الذين خلفوا الدولة الأيوبية، حيث استعاد المماليك القدس.

الحملة الصليبية السابعة (١٢٣٩م):

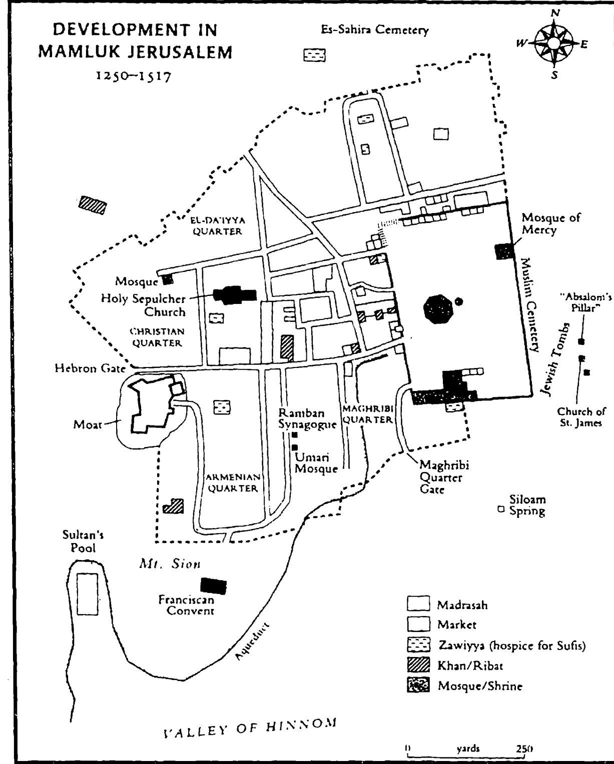
مع نهاية سنوات الهدنة بين فردريك والمسلمين، كانت الحملة الصليبية السابعة قد جاءت بقيادة ثيوبالد، ونزلت فى عكا، إلا أنها هزمت شر هزيمة على أيدى المسلمين فى عسقلان وتم أسر الكثيرين منهم.

القدس المملوكية (١٢٥٠ - ١٥١٧م):

بعد وفاة صلاح الدين والعادل الأيوبيين، حكم ورثتهما مصر والمدن السورية وما بين النهرين، وقد استغل أعداء الشرق الإسلامى ما بين هؤلاء الورثة من عداوات أججت نيران الحروب بينهم.



وفى عــام ١٢٥٠م اغتـيل فى المنصورة الأمير الأيوبى توران شـاه على يد بعض الأمـراء المـماليك البـحـرية، وكـانوا يمثلون خيـرة قوات الحكم الأسبق، ولم يـكن هناك مرشح شـرعى ذو مكانة يخلفـه، ناهيك عن تعاظم دور المماليك وبروزهم كقوة فى الدفاع عـن مصالح مـصر إبان حـملة لويس التـاسـع، مما أدى إلى حـدوث انقلاب فى السلطة، حيث تم استبعاد أبناء العائلة الأيوبية تدريجياً عن مراكز السلطة، بل حرموا - فـيما بعد - من ألقـابهم الرسـميـة، وأمـسك ضبـاط المماليك بزمام الأمور.



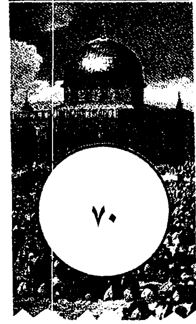
خريطة (١٣)

وبعد عقد من الزمـان، استطاع سلطان مصر من خلال استغـلاله الضعف العسكرى والفوضى السياسـية التى أصابت سورية مع قدوم المغول، أن يطيح بـحكام دمشق وحلب، وأن يسيطر على الشام كله.

وقد واجهت دولة المماليك منذ البداية بعض التـحديات العسكرية أخطرها المغول القادمون من صحارى آسـيا فى القرن الثالث عشر، الذيـن تمكنوا من احتلال بغداد مقر الخـلافة عام ١٢٥٨م، ومن ثم لم يوجه المماليك اهتماماً أمنياً كافياً للقدس ولباقى المدن الفلسطينية وذلك لسيطرتهم على مناطق شاسعة، ولمخاوفهم من هجمات المغول من شمال سورية.

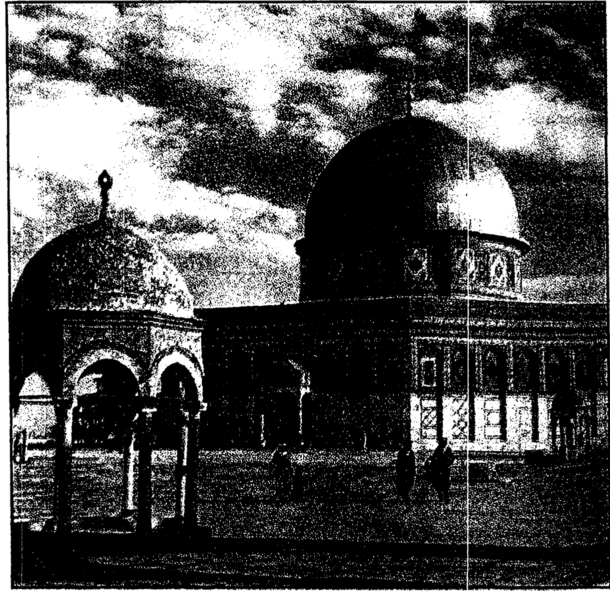
وواجه المماليك أيضاً فى بداية حكمهم المملكة الصليبيـة فى القدس، والتى كانت عاصمتها ما زالت فى عكا، وكانت قدراتهم البحرية مؤرقة للمماليك.

وفيما يتعلق بالقـدس لم يبذل المماليك جهداً لتحصينهـا وإعادة بناء أسوارها التى قام السلطان الأيوبى حاكم دمشق بهدمها عام ١٢١٩م خوفاً من خيانة شقيقه حاكم مصر، أما السور الذى كان قائماً قبل السور الذى بناه سليمان القانونى فى القرن السادس عشر فهو السور الصليبى أو الأيوبى، وهذا ما تؤكده الحفريات التى أجريت مؤخراً فى السور الغربى والجنوبى.

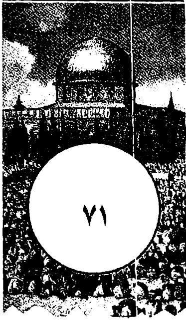


ولم تكن للقدس فى تلك الفترة أهمية سياسية أو عسكرية بالنسبة للمماليك، فكان مقر السلطان وحصن جنوده والمركز الإدارى والقضائى وخزانة الدولة والمؤسسات التدريسية فى مصر، وقد بدأ السلطان بيبرس - أبرز سلاطين المماليك - فى الستينيات من القرن الثالث عشر بشق الطرق وبناء المحطات والجسور بهدف تأمين الاتصال السريع بين المدن السورية والقلاع المصرية، كما واصل ورثته ذلك النشاط.

ولقد تمت إقامة بعض المبانى ذات النقوش الجميلة فى الشوارع الرئيسة للقدس بمبادرة من الأمراء المماليك المستبعدين من قبل السلطان، الأمر الذى يكرس عدم اهتمام سلاطين المماليك بالقدس من الناحية السياسية، ومن ثم لم يتحسن وضعها الاقتصادى.


مسجد قبة الصخرة والساحة

لكن المكانة الدينية للمدينة كرمز إسلامى كانت بارزة وذات تأثير كبير على الأوساط الشعبية بشكل عام والطبقة الحاكمة بشكل خاص، وعمل المماليك على إعلاء شأن القدس كمدينة إسلامية واتضح اهتمامهم من خلال ما أقاموه من منشآت فى منطقة الحرم، وقام بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧م) بتجديد الفسيفساء الخارجية حول الأضلاع الثمانية لقبة الصخرة، كما قام ببناء محراب فى قبة السلسلة وأصلح قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠م) سقف المسجد الأقصى فى الجهة الجنوبية الغربية، ورمم ابنه الناصر محمد بن قلاوون (١٣٠٩ - ١٣٤٠م) السور الجنوبى للحرم، كما غطى حائط قبلة المسجد الأقصى بالرخام، وسبك الذهب من جديد فى قبة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وبنى القناطر فى الجزء المرتفع من الدرج الشمالى الذى يوصل من المنطقة السفلى للحرم إلى المنطقة المرتفعة التى تقوم عليها قبة الصخرة، وبنى الأشرف شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٧م) مئذنة باب الأسباط، كما أمر برسباى (١٤٢٢ - ١٤٣٨م) بإدخال نسخة فريدة من القرآن الكريم مزينة ومنقوشة من أجل حراستها فى المسجد الأقصى، كما بادر قايتباى إلى بناء أفخم مدرسة مملوكية فى القدس وهى المدرسة الأشرفية، وقام آخر سلاطين المماليك قنصوة الغورى (١٥٠٠ - ١٥١٦م) بتغطية قبة



المسجد الأقصى وقاعدة قبة الصخرة مرة ثانية بالرصاص، كما مسح الحيطان ودهن أبواب المسجد الأقصى بالألوان الزيتية.

وقد أسهمت الحملات الصليبية فى إلهاب مشاعر الزهاد المسلمين فى الشرق كله، وسارعوا إلى الحياة فى القدس أو زيارتها، ووفدوا إليها من كل فج عميق، وأقاموا أحياءهم ومساجدهم ومدارسهم، وتزايد عدد الصوفيين فى القدس، منهم من أتى عابراً، ومنهم من استقر فى القدس، وازدهرت الأعمال الخيرية فى المدينة، وكثرت الأوقاف الإسلامية، وتعددت المدارس الدينية بمبادرات من السلاطين والأمراء والضباط وحكام المدن، وبذلت الأموال من العامة والخاصة، واحتل الحرم الشريف مكان الصدارة فى الحياة الروحية والدينية لمدينة القدس، وحظى الحرم القدسى باهتمام المسلمين فى المدينة.

وتم تزويد القدس بالمياه من عدة مصادر، وأحاطت البساتين المثمرة بالقدس من كل جانب، ويصفها الحاخام اليهودى مئير لطيف قائلاً : «إن القدس تزينها الثمار التى لم أر أجود منها كما لم أعرف أسماءها».

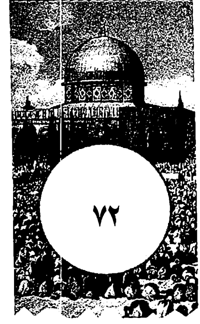
أما فيما يتعلق بأبناء الطوائف الأخرى، فقد عاشت فى القدس فى أواخر القرون الوسطى أقلية نصرانية تركزت فى الأساس حول كنيسة القيامة، ونشب نزاع بينهم وبين اليهود حول بعض الأماكن المقدسة فى المدينة.

ويمكن القول بأن نصارى الشرق لم يتعرضوا لأى اضطهاد من قبل المماليك، إذ كانوا أقرب فى طباعهم وعاداتهم إلى المسلمين منهم إلى النصارى الكاثوليك الأوروبيين، كما حصل النصارى الأرمن على مرسوم بحماية ممتلكاتهم من قبل السلطان المملوكى «جقمق» ما زال مرسوماً حتى الآن على لوح فى المدخل الجنوبى لحارة الأرمن.

أما عن اليهود فى القدس فى زمن المماليك فليست هناك معلومات وفيرة عنهم، وقد كان مكان تواجدهم فى حارة اليهود وتقع فى الجزء الجنوبى من الطريق التى توصل بين باب العمود وباب النبى داود، وقد وصف أحد الحجاج اليهود العلاقات بينهم وبين جيرانهم بقوله : «إن العرب يعيشون بسلام معنا لا يقومون عموماً بالاعتداء أو بالسلب».

لقد كان اليهود أقلية فى القدس لا تشكل أى خطر على الطابع الإسلامى للمدينة، ولم تكن لهم طموحات سياسية، ومن ثم كانوا فى ذمة السلطان شرعاً، ولم يكن من السهل وقوع حوادث معادية لهم من قبل عامة الناس.

أما فيما يتعلق بالنشاط الصليبى المعادى للمسلمين فى عصر المماليك فإن المحاولات الصليبية لاحتلال القدس، قد باءت كلها بالفشل، وكانت آخر محاولة هى التى قام بها بيتر ملك قبرص

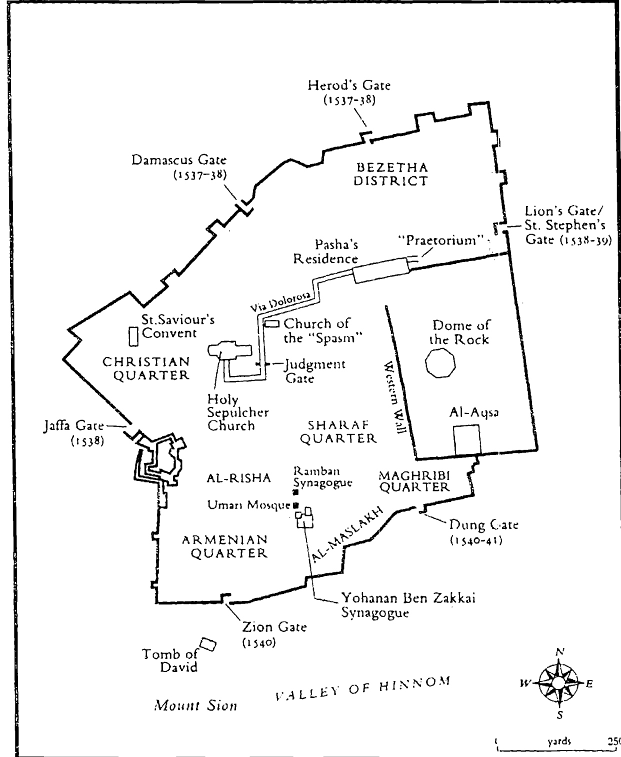


عام ١٣٥٩م، حيث أغار على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م ونهبها ثم رحل إلى سورية بعد سنتين، وقتل عام ١٣٦٩م لتنتهى معه أسطورة الحروب الصليبية، وإن لم تنته - حتى الآن - الدوافع والأطماع التى حركت هذه الحملات لعدة قرون.

وفى عام ١٢٩١م تمكن السلطان المملوكى خليل من تدمير مملكة عكا الصليبية تماماً، وطرد الصليبيين منها، لتعود فلسطين لأول مرة إلى أيدى المسلمين منذ ما يقرب من قرنين.

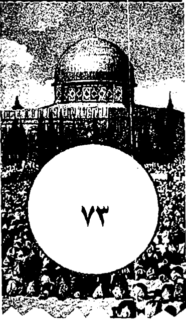
القدس العثمانية (١٥١٦-١٩٠٨م)

بات من الواضح صعوبة كبح جماح العثمانيين الأتراك من قبل المماليك إبان حكم قنصوه الغورى (١٥١٣ - ١٥١٦م)، فقد استطاع العثمانيون فتح القسطنطينية، واستولوا على بيزنطة النصرانية القديمة، واتجهوا إلى أوروبا، غير أن الجيش الهنغارى أخرجهم من بلغراد. وقد استطاع السلطان سليم الأول العثمانى أن يعيق تقدم الجيش الإيرانى فى معركة تشالديران وأن يهزم المماليك فى معركة مرج دابق شمال حلب، وكانت معركة شمال القاهرة هى التى أنهت دولة المماليك بالفعل.



خريطة (١٤)

قدس العثمانيين ١٥١٧ - ١٩١٧م



وفى أول ديسمبر عام ١٥١٦م وصل سليم الأول إلى القدس، حيث لم يجابه بأية مقاومة، بل خرج العلماء للقائه وأهدوه مفاتيح الأقصى وقبة الصخرة.

وكانت القدس قد عاشت حالة من الإهمال مع أفول نجم المماليك، إلا أن العثمانيين، بما لهم من خبرات عسكرية وإدارية، تمكنوا من إعادة النظام والقانون مرة أخرى إلى فلسطين كلها، وتحسنت أحوالها، واستقرت أوضاعها، وقسمت فلسطين إلى ثلاث مناطق (سناجق) تشمل القدس ونابلس وغزة، ولم يسكن الأتراك القدس، وإنما أرسل العثمانيون إليها حكاماً (باشوات) فقط ومسئولين مدنيين وقوة صغيرة كان مركزها فى القلعة.

وبعد استقرار الفتوحات العثمانية فى أوروبا، اتجه العثمانيون إلى التنمية الداخلية، حيث شهدت الإمبراطورية العثمانية صحوة حضارية، استفادت القدس منها وبخاصة إبان حكم السلطان سليمان العظيم (١٥٢٠ - ١٥٦٦م)، الذى أمر بإعادة بناء أسوار المدينة، وبلغ طول الحائط الذى ما زال قائماً حتى اليوم ميلين، وارتفاعه نحو أربعين قدماً، وأحاط بالمدينة تماماً، وكان به أربعة وثلاثون برجاً وسبع بوابات.

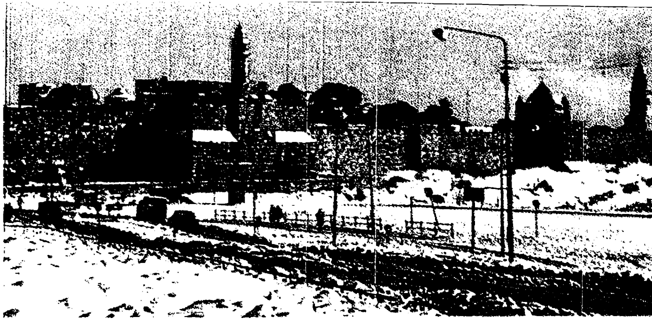
ووجه السلطان سليمان اهتمامه لنظام المياه بالمدينة، فبنى النافورات، وشق القنوات والبحيرات، وجددت «بحيرة السلطان» جنوب غربى المدينة وأصلحت قنواتها، وحاول السلطان حث رعاياه على سكنى المدينة بما فى ذلك اليهود الذين استقروا فى الإمبراطورية العثمانية بعد طردهم من أسبانيا النصرانية عام ١٤٩٢م.

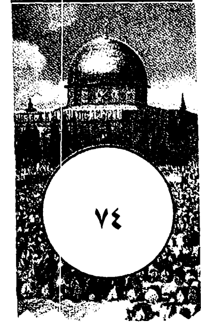
وقد ساعدت تلك الفعاليات على ظهور اتجاهين أساسيين فى النصف الأول من القرن السادس عشر، تمثلا فى: تزايد كبير فى عدد السكان المحليين، وتعاظم الأحوال الاقتصادية.

ففيما يتعلق بسكان القدس، تشير الإحصاءات إلى وجود ما يقرب من ١٣٣٨٤ نسمة، وبلغ عدد السكان اليهود والنصارى حوالى ١٦٥٠ نسمة من كل طائفة، وكان معظم المسلمين عرباً محليين من أهل السنة، بالإضافة إلى مسلمين من شمال أفريقيا ومصر وفارس والعراق والبوسنة والهند وآسيا الصغرى، وكانت القدس أكثر مدن فلسطين ازدحاماً بالسكان.

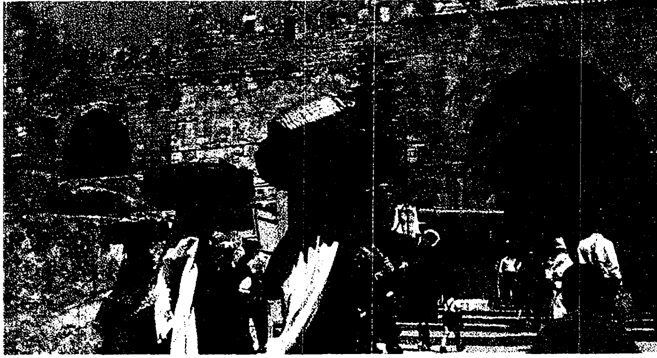
أما فيما يتعلق باقتصاد المدينة، فإن قوائم تحرير سناجق الإمبراطورية وسجل المحكمة الشرعية فى القدس يشير إلى حالة الأمن التى سادت المدينة **بعد تشييد الأسوار وبناء البوابات والأبراج،** ومشاريع المياه التى أقامها السلطان العثمانى سليمان القانونى، والتى أدت إلى زراعة الخضروات والكروم والبساتين داخل وخارج الأسوار.

وقد تم تطوير أسواق المدينة، وارتفعت أسعار البضائع، وازدهرت أربع صناعات مهمة هى: صناعة الأغذية، والنسيج، والصابون، والجلود، وكان الصابون المقدسى يصدر إلى مصر ورودس





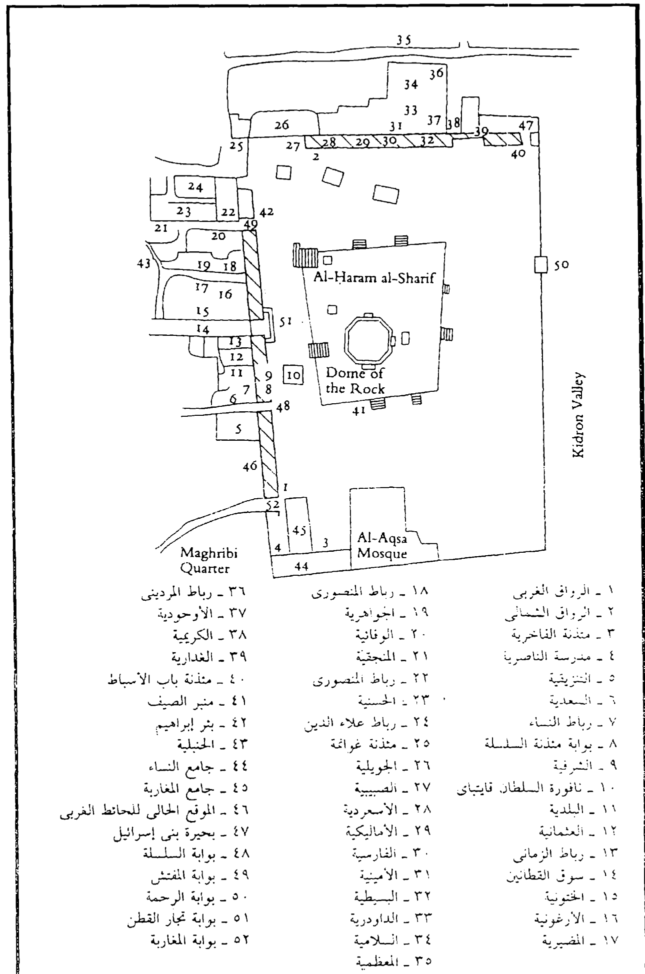
ودبروفنيك، بينمـا كانت القـــدس تســتــورد المنسـوجـات والأرز من مـصـر، والملابس والبن من دمـشق، والسـجـاد والملابس من أسطـنبـول والصين والحـجـاز، وانتظمت الحرف والصناعات فى القدس فى أربعين طائفـة لكل طائفـة شيـخهـا ونائبه، وازدادت الحوانيت وارتفعـت أسعارها، مما



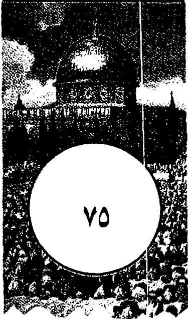
أسوار وبوابات القدس العثمانية

يعكـس الازدهار التـجــارى فى المدينة.

ونتـيجـة لهـذا كله، تم ترفـيع منزلـة القـــدس إدارياً فى الـنصف الثـانى من القـرن الـسادس عشـر، وأصبحـت «متصرفيـة» وهى وحدة إدارية كـبـرى تحـوى سناجق نابلس وغزة، وحمل البـاشـا الذى يحكمها لقب «المتــصــرف» وكـانـت سلطة قاضى القـدس متسـعة لتـشمل من غزة إلى حيفا.



خريطة (١٥)
تطوير الحرم فى ظل المماليك
١٢٥٠ - ١٥١٧م



ولم يغب عن اهتمام السلطان سليمان القانونى أمر الحرم القدسى، فقد قام بترميم فسيفساء الجزء الأعلى من الحائط الخارجى لقبة الصخرة، كما غطى الجزء الأسفل بـالرخام، وتمت تغطيـة قبة السلـسلة بزخارف جمـيلة. وبنى سليـمان كذلك نافـورة رائعة للوضوء فى الفناء الأمـامى للمسجد الأقـصى، وأعاد بناء أوقاف الحرم وبعض المدارس، وتنازل عن حقه فى رسوم دخول الحجاج لصالح تمويل تلاوة القرآن فى قبة الصخرة لمدة عام، وقامت زوجه «رولكسانه» - وهى روسـية الأصل - بإنشـاء تكية فى القـدس عام ١٥٥١م، ومـجمع كـبيـر ضم مسجداً ورباطاً.

ومع أن معظم اليهود آنذاك قد فضلوا الإقامة فى طبـرية وصفد، إلا أن مجتمعهم فى القدس قد تزايد فى عهـد السلطان سليمان القانونى، ولم يكن لهم حى يهودى رسـمى، وإنما عاشوا فى ثلاث مناطق سكنية فى جنوب المدينة وهى : الريشة وشـرف والمسلخ، حيث عاشوا مع المسلمين، وتمتعوا بحـرية أدهشت الزوار الأوروبيين، إذ تقلدوا المناصب الحكومية ولم تفرض عليـهم ضريبة خاصة، وكانوا يحظون بحماية المحاكم، وتقبل شهادتهم.

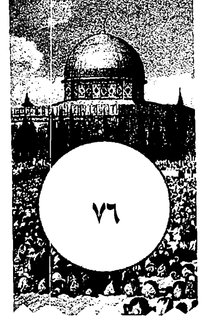
وقد وصل إلى القدس عام ١٥٢٣م شاب يهـودى ادعى أنه المسيح المنتظر، حيث زعم أنه أمير مملكة يهودية، وأن اليهود سيعـودون إلى أورشليم، وقد رفض يهود القدس تلك المزاعم، وإن كان يهود البلدان الأخرى قد تأثروا بتلك الدعـوة وأخذوا يبيعون أملاكهم استعـداداً للرحيل إلى مهبط «المسيح المنتظر».

وتركزت نشاطات داود الرأوبينى - المسيح المزعوم - فى منطقـة الحائط المساند الغربى للحرم، وهو ما تبـقى من آثار معبد هيـرود، وقد بنيت المدارس على طول هذا الحائط فى عصـر المماليك باستثناء حوالـى اثنين وعشرين متراً بين طريق السلسلة وباب المغاربة، ولم يـكن اليهود يبدون أى اهتمام بذلك الجزء من الحائط، كما كان المكان فـى عهد هيرود جزءاً من مركز تجارى ولم يكن له أهمية دينية على الإطلاق.

وكان اليهود يتجمعون للصلاة على جبل الزيتون وعند بوابات الحرم، ولما منعهم الصليبيون من ذلك كانوا يصلون عند الحائط الشرقى جبل المعبد.

ونظراً لهجمات البدو على اليهود فى العـصر المملوكى أثناء صلاتهم على جبل الزيتون خارج المدينة، تحول اليهـود إلى ساحة الامتداد الخاليـة من الحائط الغربى للحرم حيث تشبـثوا بآخر صلة لهم بالماضى.

وحينما كان سـنان باشا يقيم بالمدينة أثناء بناء **حائط القدس**، أصدر سليمان القـانونى فرماناً **يسـمح بمكان لليهـود للصـلاة عند الحائط الغـربى**، ويروى أن سنان هو الذى قام بـتخطيط الموقع



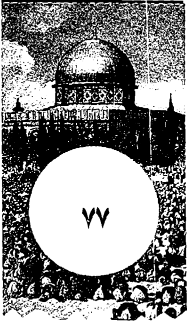
وبالحفـر كى يتيح للحائط ارتفـاعاً أكبـر، وقام ببناء حائط مـواز له كى يفصل مصلى اليهود عن حى المغاربة، ولم يتعد عرض هذه المنطقة آنذاك ثمانية أقدام، وسرعان ما أصبحت هذه المنطقة المحاطة عند **الحائط الغربى** مركز الحياة الدينية ليهود القدس، مع الأخذ بعين الاعتـبار أنه لم يكن لليهود وجود دينى ملحوظ فى هذه المنطقة قبل ذلك.

ولم تكن لليهود فى هذه المنطقة شعـائر دينية، واقتصر وجودهم على تلاوة المزامير وتقبـيل الأحجار، إلا أن الأساطير اليهودية - التى تميز العـقلية اليهودية على مر تاريخها - قد نسجت حول الحائط، وتم ربطه بمقولات تلمودية، وساد الاعتقاد «بالحضور الإلهى» فى هذا المكان، وتبع ذلك ممارسات وسلوكـيات يهودية لم تكن معروفـة بينهم من قبل، الأمر الذى أدى إلى حالة من التوتر بينهم وبين المسلمين، لتجـاوزهم الحد المسموح لهم بعد تزايد أعداد القادمين إلى المكان.

بدأت حالة من التوتر تسود بين المسلمين واليهود فى القدس، كما نشأت حالة توتر أخرى بين المسلمين والنصارى الغربيين فى القدس نتـيجة الفتوحات العثمانية فـى الغرب والتى نتج عنها تغير المكانة النسبية للـطوائف النصرانية المختلفة. فاليونانيـون الأرثوذكس والسوريون من الأرمن رعايا عثمانيون، أى أعضاء طوائف دينية معترف بها، أما الفرنسيسكان فكانوا أجانب مقيمين، وإن تزايد عددهم وقـويت شوكتهم فى آخـر أيام المماليك، الأمر الذى نتج عـنه توتر الأوضاع بينهم وبين اليونانيين الأرثوذكس كذلك.

وبدأت الإمبراطورية العثمانية فى التدهور بعد وفاة سليمان القانونى عام ١٥٦٦م، فقد تدهور الاقتصاد بسبب النـقص الحاد فى الإنتاج الزراعى، كما ازدادت الخسائر التجاريـة نتيجة فتح طرق تجارية بحرية إلى الهند، وبدأ تذمر الانكشارية والفلاحين فى تركيا والأقاليم، وفقدت الإمبراطورية سيادتها العـسكرية بعد هزيمة العثمانيين فى معركـة لوبانتو عام ١٥٧١م، وانعكست آثار ذلك كله على القدس، إذ بدأ الباشوات يـضطهدون سكانها المسلمين واليهود والنصارى، وغـادر كثير منهم المدينة فيما بين عامى ١٥٧٥ - ١٥٨٤م، كما تدهور الأمن فيـها، وبدأ البدو فى مهاجمة الحجاج والزائرين، مما دفع الحكومـة إلى إنشاء المستـوطنات الريفيـة للبدو فى المناطق الزراعـية، وتم بناء القلاع وإقامـة حاميات. وفى عام ١٦٣٠م بنى السلطـان مراد الرابع قلاعاً كبـيرة بالقرب من بيت لحم وبحيـرة السلطان غير أن انشغـال تركيا بحـروبها فى أوروبا وروسيا لم يحـقق الأمن المنشود للمدينة.

وفى خضم ذلك كله، لم يهـمل السلاطين الحرم، فـقد أعيد ترمـيم قبة الصـخرة على أيدى السلطان محمد الثالث عـام ١٥٩٧م والسلطان أحمد الأول عام ١٦٠٣م والسلطان مصطفى الأول عام ١٦١٧م، وأصدر السلاطين العديد من الفرمانات الخاصة بالأماكن المقدسة.



ورغم تدهور أحوال القدس فى القرن السابع عشر، فإن المدينة ظلت محط إعجاب الزائرين، إلا أن صعود القوى الغربية قد تزامن مع أفول نجم الدولة العثمانية، واستطاعت القوى الصاعدة إملاء شروطها، على السلاطين، وتعاظم شأن الفرنسيسكان فى مدينة القدس.

واشتعل التنافس بين اليهود والنصارى فيما يتعلق بالطقوس والشعائر، ونادى «شبتاى» اليهودى بنفسه «مسيحاً منتظراً» عام ١٦٦٥م، وإن كان يهود القدس قد توجسوا من ذلك خشية انتقام المسلمين منهم لانتهاك قداسة الحرم من قبل شبتاى وأتباعه، وازداد عدد مؤيديه، وذهب شبتاى إلى السلطان فى إسطنبول يطلب منه تنصيبه ملكاً لليهود وإعادة أورشليم له، لكن السلطان خيره بين الموت أو اعتناق الإسلام فأعلن إسلامه، ومات بعد عشر سنوات من ذلك وإن بقى أتباعه كما بقيت خيبة أمل الأكثرية اليهودية فى المسيح الكاذب.

ومع تطور الغرب الأوروبى والاكتشافات العلمية الحديثة، تغيرت الجغرافيا المقدسة القديمة، ولم يعد الغربيون ينظرون إلى الأماكن المقدسة فى القدس نفس نظرة السابقين، بل لم تكن زياراتهم للمدينة كحجاج، وإنما كسائحين وحسب.

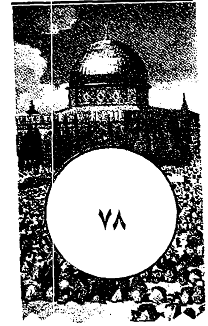
وانهزم العثمانيون فى معركة بلغراد عام ١٦٨٨م من النمسا وبولندا وفينسيا، وبدأت الإمبراطورية العثمانية بحلول القرن الثامن عشر فى التداعى بشكل نهائى، إذ دب الفساد فى أوصالها، وانغمس السلاطين فى ملذاتهم، وبدأ الرعايا يضيقون ذرعاً بسياساتهم الظالمة، وفى عام ١٧٠٢م قام سكان القدس بثورة ضد حاكم المدينة جورجى محمد باشا نتيجة الضرائب القاسية التى فرضها عليهم، وأجبروا خلالها الباشا على الفرار، ولم يسيطر الأتراك على القدس مرة أخرى إلا بعد عامين.

ونتيجة ضعف الولاة الأتراك، قامت العائلات المقدسية الكبرى بإدارة شئون المدينة، وكان رجالاتها حلقة وصل بين السكان والحكام.

وفى الوقت الذى ظلت فيه القدس مركز جذب للمتصوفين والعلماء، بدأت أحوالها العلمية والاقتصادية فى التدهور، ولم يكن حال الذميين فيها أقل سوءاً من حال المسلمين.

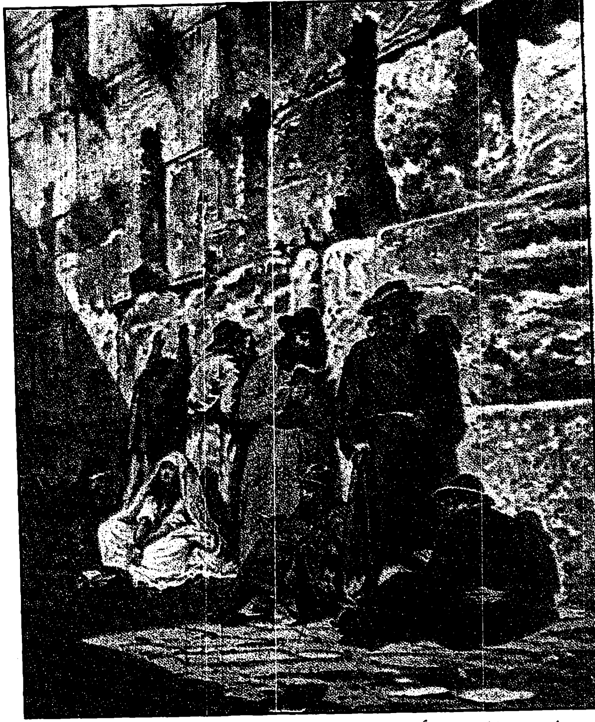
ومع بداية القرن الثامن عشر تزايد عدد اليهود الإشكناز (الغربيين) فى القدس، وقاموا - بعد رشوة الولاة - ببناء المعابد والمساكن والمدارس.

وكان حال النصارى اللاتين أفضل من سائر إخوانهم، إذ كان الغربيون يمدونهم بالأموال، وتمكنوا من ترميم كنائسهم وتوسيع أماكنهم المقدسة، وزاد الضغط الغربى على السلطان، وبلغ ذروته عام ١٧٣٢م حيث منحهم امتيازات دائمة، الأمر الذى دفع اليونانيين إلى التمرد والثورة عام ١٧٥٧م، مما أدى إلى صدور فرمان فى صالحهم، أصبحوا بموجبه رعاة للقبر المقدس حتى الآن.



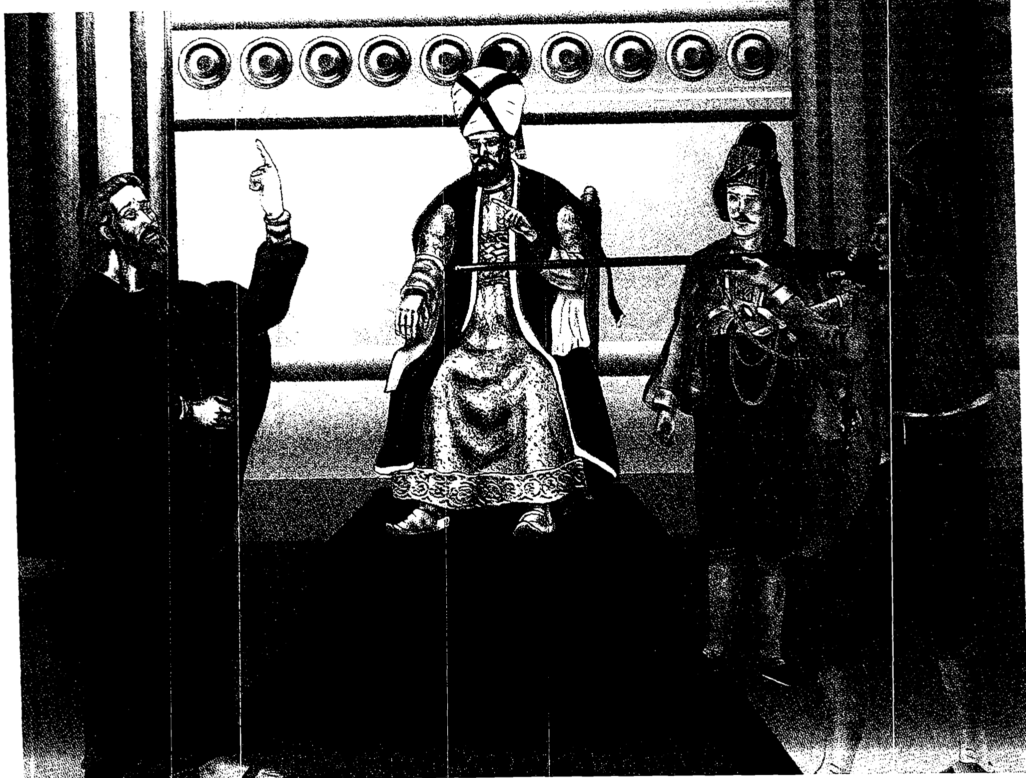
وبنهاية القرن الثامن عشر أصبحت القدس مدينة يعمها الفقر، تهدمت حوائطها وأسوارها، وامتلأت بالقاذورات، وتحولت مبانيها إلى أطلال تشهد بما آلت إليه أحوال المدينة من سوء.

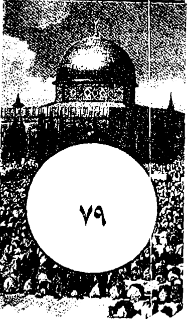
وفى عام ١٧٩٨م بدأت حملة نابليون على مصر بهدف إرساء وجود فرنسى فى الشرق، وفى يناير عام ١٧٩٩م، أرسل نابليون ١٣٠٠ جندى فرنسى إلى فلسطين، وهزم العثمانيين فى العريش وغزة ثم تقدم نحو عكا، ووجه نابليون خطابه من رام الله إلى اليهود والنصارى



لوحة لليهود أمام حائط المبكى أواخر القرن ١٩م

لوحة شبتاى اليهودى الذى ادعى أنه المسيح المنتظر





والمسلمين كى يتخلصوا من أسر العثمانيين، ويقبلوا «حرية» الثورة الفرنسية، وهى نفس مزاعم المستعمرين فى كل عصر وحين.

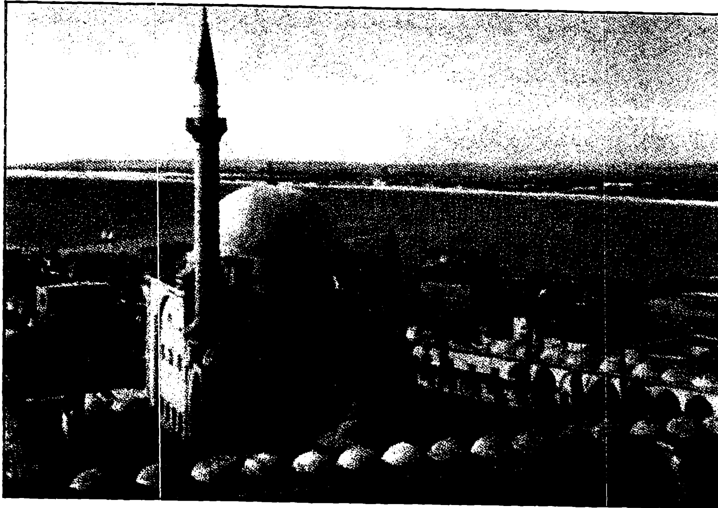
لكن مسلمى القدس لم ينخدعوا بتلك الدعوة، وأدركوا حقيقة الدوافع الاستعمارية النصرانية الغربية فهاجموا كنيسة المخلص وأسروا عملاء الفرنسيين من الفرنسيسكان كرهائن، بينما أصر السلطان العثمانى على توفير الحماية لكنائسهم وممتلكاتهم.



جيش نابليون بونابرت يعانى من الطاعون فى عكا

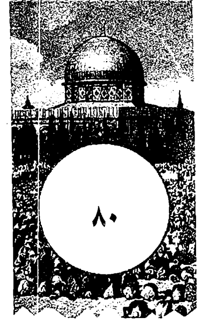
وفى الوقت الذى أصاب فيه الطاعون جيش نابليون تمكن الأسطول البريطانى، وأحمد باشا الجزار والى عكا من صد القوات الغازية، وتحطيم حلم نابليون فى إقامة إمبراطورية فى الشرق، وأجبروه على العودة إلى أوروبا.

وقد أسهمت هذه الحملة الفرنسية فى تحديث فلسطين ونقل العلوم إليها، حيث أسهم المستشرقون فى نقل القدس إلى العصر الحديث.



جامع الوالى العثمانى أحمد باشا الجزار

ولم يكن القرن التاسع عشر يحمل للقدس من المبشرات ما تتحول به أحوالها إلى الأفضل، وإنما عانت المدينة خلال هذا القرن من الفقر والتوتر والفوضى من جراء سوء الحكم، حيث أصبح والى صيدا هو الحاكم الفعلى



للقدس خلال بدايات ذلك القرن، مع أن القدس كانت تتبع رسمياً متصرفية دمشق، وكثر عدد الولاة العرب على القدس، وبلغ عدد سكان المدينة مع مطلع القرن التاسع عشر حوالى ٨٧٥٠ نسمة منهم ٤٠٠٠ من المسلمين، ٨٥٠ من النصارى ٢٠٠٠ من اليهود، وكانوا جميعاً يقتسمون نفس السوق ويسكنون فى تجمعات حول المبانى الدينية الرئيسة، وتميزت العلاقات بين المسلمين واليهود بالود، حيث سمح المسلمون لليهود بالسير فى حى المغاربة للوصول إلى الحائط الغربى، فى الوقت الذى حرم عليهم فيه الدخول إلى منطقة القبر المقدس النصرانية. لقد وجدت حالة من العداء المسموم بين الطوائف النصرانية ذاتها، كما ساءت علاقاتهم مع اليهود. وتوترت العلاقات داخل الحى اليهودى بين اليهود السفارديم (الشرقيين) والإشكنازيم (الغربيين) الذين عادوا إلى المدينة فيما بين ١٨١٠ و١٨٢٠م.

وفى عام ١٨٠٨م اشتعلت النيران فى كنيسة القبر المقدس، وبدأت فى سرداب القديسة هيلانة الذى كان تحت رعاية الأرمن، وأتلفت أجزاء من المبنى، وتم تبادل الاتهامات بين الجماعات النصرانية المتصارعة على الكنيسة.

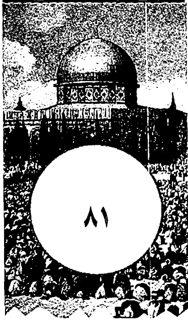
وساءت العلاقة بين سكان المدينة العرب وقادة الحكم العثمانى نتيجة سياسة الضرائب الظالمة، وتمكن المقدسيون من طرد الأتراك من مدينتهم عام ١٨٢٤م، لكن العثمانيين أخضعوها مرة أخرى عام ١٨٣١م وشددوا عليها قبضتهم.

فى تلك الأثناء تمكن محمد على من محاربة نابليون فى مصر، والاستقلال التام بها بعد خروج الفرنسيين، واستطاع أن يبسط نفوذه بجيشه القوى على فلسطين وسورية، واستمر حكمه لهما حتى عام ١٨٤٠م، حيث شهدت المدينة محاولات التحديث من جانب حكم محمد على، وتم تقليص قوة البدو وإرساء نظام قضائى علمانى على يدى ابنه إبراهيم باشا، وأصبح الذميون يتمتعون بمساواة كاملة وأمان شخصى لحياتهم وممتلكاتهم.

كما تم تمثيل اليهود والنصارى فى مجلس القدس الذى كان بمثابة «مجلس شورى» لوالى المدينة.

إلا أن المعارضين لهذه الإصلاحات قد تمردوا لعدة أيام حتى تمكن إبراهيم باشا من وأد هذا التمرد، واستغل الذميون مالهم من امتيازات، وقاموا بترميم معابدهم وكنائسهم، وأصدر محمد على عام ١٨٣٤م أمراً يسمح للسفارديم بإعادة معبد بن زكاى المهدم، وحصل اليهود الإشكنازيم عام ١٨٣٦م على تصريح لبناء معبد جديد ويشيفا (مدرسة دينية) لهم.

وفى إطار كسب ود الغرب سعى محمد على باشا إلى حث الغربيين وتشجيعهم على استيطان المدينة، وتأسست أول قنصلية أوروبية فى القدس عام ١٨٣٩م عندما وصل الدبلوماسى



الإنجليزى ويليام ثيرنر يونج كقنصل مساعد لبريطانيا، تلاه قناصل دول أوروبية أخرى منها فرنسا وبروسيا وروسيا والنمسا، وقد أسهم هؤلاء جميعاً فى دفع عجلة التحديث فى مدينة القدس، وبدأت طلائع المبشرين البروتستانت فى الوصول إلى القدس، حيث اصطدموا بكل الطوائف النصرانية القديمة وباليهود كذلك.

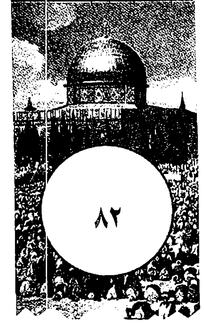
وعندما أجبرت القوى الأوروبية المصريين عام ١٨٤٩م على إعادة فلسطين للسيطرة العثمانية، واستعاد الأتراك السلطة بالفعل، لم يكن من السهل وقف تلك التغييرات التى حدثت فى عصر محمد على باشا، وأكد السلطان العثمانى محمود الثانى امتيازات الذميين التى منحت لهم من قبل، وأصبحت القدس عام ١٨٧٢م مستقلة، يخضع واليها لاسطنبول مباشرة، وتزايد عدد سكانها من ١٠٧٥٠ نسمة عام ١٨٤٠م إلى نحو ٢٢٠٠٠ نسمة عام ١٨٧٠م، ولأول مرة منذ هدم الهيكل فى المدينة أخذ نجم اليهود فى الصعود، وسارعت شتى الطوائف للتنافس فى أعمال البر لجذب الأتباع إليها، مما أذكى روح العداوة بين طوائف القدس النصرانية واليهودية المختلفة، ووصل الأمر فى كثير من الأحيان إلى إسالة الدماء داخليا، والصدام بين فرنسا وروسيا حاميتى اللاتين واليونان، وقد انتهى ذلك الصدام بحرب القرم التى نشبت عام ١٨٥٤م بين بريطانيا وفرنسا من جانب وروسيا من جانب آخر، وكان هدفها الرئيس هو وقف التقدم الروسى داخل الأراضى العثمانية.

واستمرت عمليات التحديث فى القدس، فاشترت الكنائس النصرانية بعض المطابع، كما كان لليهود مطبعتان عبريتان عام ١٨٦٢م، وأنشئت المدارس اليهودية الحديثة مما أشعل الصراع بين الإشكنازيم والسفارديم.

وأبرز أحداث هذا القرن هو حصول المليونير اليهودى موسى حاييم مونتيفور على قطعة أرض اشتراها خارج أسوار المدينة فى مواجهة جبل صهيون، حيث أقام بها منازل صدقة للعائلات اليهودية الفقيرة، وتتابعت بعده عمليات مماثلة، وأصبح بحلول عام ١٨٨٠م تسع من الضواحى اليهودية خارج الأسوار، كما سعى الرهبان اليونانيون والمبشرون البروتستانت إلى زراعة الأراضى وإقامة المبانى خارج الأسوار، وقد اتسعت المبانى اليهودية فى هذه المناطق حيث بلغ عدد الأحياء والحارات اليهودية التى أقيمت فى الفترة ١٨٩١ - ١٨٩٧م حوالى ٢٣ حارة يهودية، بالإضافة إلى عدد مماثل سبق وأن أقيم فى الفترة ١٨٦٠ - ١٨٩٠م.

وفى نفس الوقت، أخذت القدس العربية فى التطور، وتم تأسيس أول بلدية للمدينة عام ١٨٦٣م، وكانت القدس بذلك أول مدينة عثمانية بعد إسطنبول تنشأ فيها هيئة كتلك.

وواصل الأوروبيون عمليات التحديث فى القدس، وجعلوها وسيلة لتملك المدينة، فقامت الدراسات والأبحاث المختلفة، وتم الإفصاح عن الرغبة فى التملك المتأصلة فى تلك «الحملة



الصليبية السلمية» على لسان أسقف يورك الذى أعلن فى خطاب له قائلاً : «إن بلدة فلسطين هى ملكى وملكك. وإنها ملكنا بشكل جوهرى. إنها الأرض التى خرجت منها أبناء خلاصنا، وإنها الأرض التى نتوجه إليها كأساس لكل آمالنا، وإنها الأرض التى ننظر إليها بوطنية خالصة كما ننظر إلى إنجلترا الحبيبة العتيقة».

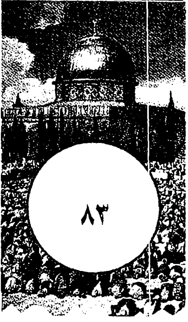
وتزايدت الحفريات فى المدينة، وظل مسلمو القدس ينظرون إليها على أنها نشاط يسعى إلى اختراق المقدسات الإسلامية بأساليب عدوانية.

وفى نفس الوقت بدأت تباشير القومية اليهودية الداعية إلى التخلص من العداء المزعوم لليهود، وتركيز الأنظار على القدس، فكان كتاب أبى الصهيونية موسى هيس «روما وأورشليم» الصادر عام ١٨٦٠م، والداعى إلى تأسيس مجتمع يهودى اشتراكى فى فلسطين وتحرير أورشليم.


تيودور هرتزل - مؤسس الصهيونية

وكان عام ١٨٨٢م حداً فاصلاً فى تاريخ القدس فى فلسطين، فقد أسس البريطانيون وجودهم سياسياً فى المنطقة باحتلال مصر، وفى نفس العام، وعقب نشوب المذابح الضارية فى روسيا، تم إنشاء أول مستوطنات صهيونية فى فلسطين، وتم عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى يناير بسويسرا عام ١٨٩٩م بزعامة هرتزل الذى زار القدس عام ١٨٩٨م ولم تترك المدينة أثراً بالغاً فى نفسه، ولتدخل المدينة بعد ذلك مرحلة جديدة، كثرت أحداثها، وتشعبت خيوطها إذ شهدت هذه


صورة للمؤتمر الصهيونى الأول فى زيورخ

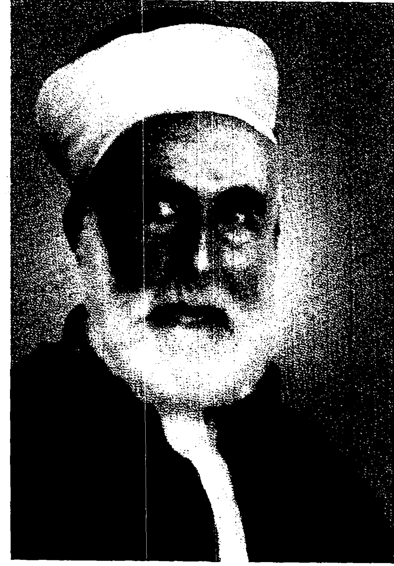




جيش جمال باشا يذهب، لفلسطين



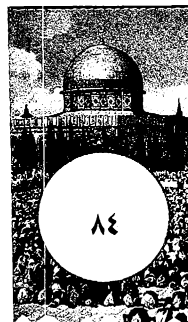
بلفور



الشريف حسين بن على



الشيخ الحُسينى مفتى القدس مع أول أمين عام
لجامعة العربية - عبد الرحمن عزام



المرحلة تداعى الدولة العثمانية، وتشعب السرطان البريطانى فى جسد الأمة العربية، والسعى إلى تحقيق الأحلام الصهيونية ليس فى القدس وحدها بل فى سائر أنحاء فلسطين.

لقد شهدت أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين موجات محمومة من المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا إلى فلسطين، ومع أن معظمهم كان من العلمانيين إلا أن القدس كانت رمزاً ذا قوة فى إلهام أولئك الصهانية لخلق حلمهم الاستعمارى الجديد.

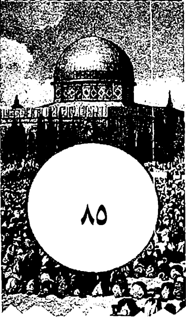
وبدأ أهالى القدس العرب يشعرون بالاستياء من الحكم العثمانى من جانب، وما يمثله الاستيطان الصهيونى فى القدس وفلسطين من جانب آخر، وفى عام ١٨٩١م أرسل عدد من أبرز أهالى القدس التماساً إلى إسطنبول يطلبون فيه من الحكومة العثمانية منع أى هجرة إضافية لليهود ومنع بيع الأراضى للصهاينة.

وسقطت الدولة العثمانية فى الوقت الذى شهدت فيه القدس وفلسطين نشاطاً استيطانياً يهودياً محموماً، ليبدأ فصل جديد من فصول تاريخ المدينة المقدسة، لعله أسوأ فصولها، لكنه لن يكون بأى حال من الأحوال خاتمة تاريخها.

القدس فى عهد الانتداب البريطانى (حتى ١٩٤٨م)

بعد سقوط الدولة العثمانية إثر ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨م، بدأ القوميون العرب فى فلسطين يتطلعون إلى دولة لهم متحررة من الأتراك العثمانيين، وقد تنبه بن جوريون إلى هذه التطلعات عام ١٩١٥م، وأنكر أن يكون للعرب أية حقوق فى أورشليم وفلسطين.

نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م حيث ساندت تركيا الألمان فى حربهم ضد البريطانيين والفرنسيين، وأصبحت القدس مقر قيادة الجيش التركى الثامن، وقررت بريطانيا عام ١٩١٦م، نقل قوة الطوارئ البريطانية فى مصر إلى شبه جزيرة سيناء، لكنها قوبلت بمقاومة تركية شديدة فى غزة، وتم تكليف الجنرال إدوارد اللنبى من قبل رئيس وزراء بريطانيا حينئذ لويد جورج بفتح القدس. وقد تمكن اللنبى من احتلال غزة عام ١٩١٧م واتجه صوب القدس، وأصدر الوالى جمال باشا أوامره بإجلاء سكان المدينة، وأصبح حسين سليم الحسينى - رئيس بلدية القدس - المسئول الوحيد الذى



بقى فيهـا، وقام بتسليمهـا لاثنين من أعضاء فريق الكشافـة البريطانيين. وعندما وصل اللنبى إلى بوابة يافا دقت أجراس المدينة ترحـيباً به، وأكد لسكان أورشليم أنه سيقوم بحماية الأماكن المقدسة والمحافظة على حرية العقيدة.

وبهذا أكـمل اللنبى - باسم حكومـة بريطانيا - عـمل الصليبيين، واسـتطاعت بريطانيا خداع العرب، ولم تف بعهدها لهم، إذ وعد السير هنرى مكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر، شريف مكة حسين بن على، باعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العـربية وبقاء الأماكن المقـدسة فى قبضـة دولة مسلمة ذات سيـادة نظير ثورة العرب ضد الأتراك فى الحرب، ومساعدة البريطانيين.

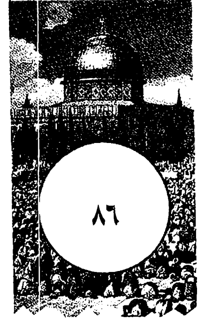
وأوفى العرب بالعـهد من جانبهم - كـالعادة - ولم ينفذ صليبـيو القرن العشـرين وعودهم - كالعـادة أيضاً - بل وبينما كان مـكماهون يتفاوض مع العـرب بشأن وعده لهم، كـانت بريطانيا وفرنسا تتفاوضان بشأن اتفاقية سايكس - بيكو التى تم بمقـتضاها تقسيم العالم العربى شمالى شبه الجزيرة العربية إلى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية.

وقبل غزو اللنبى للقدس بحوالى شهـر، أصدر لويدجورج رئيس وزراء بريطانيا تعليماته لوزير خارجيـته آرثر بلفور بكتـابة خطاب إلى اللورد اليهودى روتشيلد، وهـو ما عرف فيمـا بعد باسم «وعد بلفور» ونصه ما يلى:

> «إن حكومة الملك تنظر بارتياح إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، وستبـذل كل ما تستطيع لتسـيهل هذا الغرض، على أن يكون مفهـوماً جلياً أنه لن يعمل شيء يضر بالحقـوق المدنية أو الدينية للجماعـات غير اليهـودية المقيمة الآن بفلسطين، أو بالحـقوق والمكانة السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أية دولة أخرى».

ومع ما فى هذا الإعلان من مغالطات تـاريخية، وقلب الحقائق التاريخية الثابتـة حيث اعتبرت الجماعات اليـهودية «شعباً» والشعب العربى «جـماعات»، فقد أوفى البريطانيون بعـهدهم لليهود، ولم يتحقق - على الإطلاق - وعدهم الوارد فى هذا التصريح للعـرب، فى الحفاظ على حقوقهم المدنية والدينية.

وقد ظلت فلسطين والقدس تحت السيطرة العسكرية البريطانية (إدارة أراضى العدو المحتلة) من عام ١٩١٧م إلى يوليو ١٩٢٠م، وتسربت أنباء وعد بلفـور إلى العرب، كما أعرب الفاتيكان عن رغبتهم فى بقـاء مقدسات النصارى فى أيدى النصارى، وقد أوصـى تقرير كينج / كرين الذى تم بناء على تكليف من عـصبة الأمم آنذاك، بعدم تنفـيذ وعد بلفـور، وضم فلسطين إلى سورية فى دولة عربيـة موحدة تحت رعاية قـوة انتداب مؤقتة، بيـد أن عصبة الأمم فى هذه الـفترة، وهى لا



تختلف كثيراً من هيئة الأمم فى العصر الحالى - ذهبت توصياتها أدراج الرياح أمام الصلف البريطانى، الذى حل الأمريكى محله فى العصر الراهن.

اشتعلت الاضطرابات فى مدينة القدس أثناء احتفالات «النبى موسى» فى ٤/٤/١٩٢٠م وخرجت الجماهير العربية ثائرة إلى الحى اليهودى، وقتل بعض اليهود وأصيب البعض الآخر، وأعلن الانتداب البريطانى فى أبريل ١٩٢٠م، وكان هذا الانتداب - خلافاً لمضمونه القانونى - أداة لتنفيذ وعد بلفور وإقامة الوطن اليهودى فى فلسطين، فكان أول مندوب سام بريطانى تم تعيينه فى فلسطين فى شهر يوليو عام ١٩٢٠م هو اليهودى السير هربرت صموئيل، وتم الاتفاق على إنشاء الوكالة اليهودية لتسهيل مهمة هجرة اليهود وإقامة الوطن المزعوم.

وازدهرت أحوال القدس بعض الشيء تحت الانتداب، وأنشئت الضواحى الأنيقة فيها، وأقيمت الحدائق، وتم افتتاح الجامعة العبرية على جبل سكوباس (جبل المشهد - جبل المشارف) حيث رأس اللورد بلفور الافتتاح.

لقد اتخذت سلطات الاحتلال البريطانى عدة خطوات تمهيداً للوفاء بوعدها لليهود، أهمها : إعادة تخطيط المدينة، وتدعيم المؤسسات اليهودية فى القدس، والهجرة إلى المدينة وبناء المستوطنات.

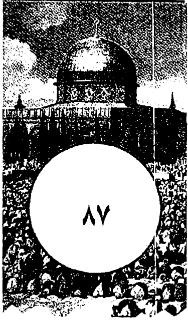
وكانت نتيجة هذه السياسة البريطانية ارتفاع عدد اليهود فى فلسطين من ٥٦ ألف يهودى عام ١٩١٨م مقابل ٦٤٤ ألف عربى (مسلم ونصرانى) إلى حوالى ٦٥٠ الف يهودى مقابل ١,٤٠٠,٠٠٠ عربى (مسلم ونصرانى) فى آخر عهد الانتداب البريطانى عام ١٩٤٨م،

وارتفع كذلك عدد يهود القدس أضعاف ما كان عليه فى بداية الانتداب البريطانى، وزادت ملكية اليهود للأراضى الفلسطينية برعاية ودعم من سلطات الانتداب.

وتم تعيين الحاج أمين الحسينى - وكان قومياً عربياً متشدداً - من قبل سلطات الانتداب مفتياً لمدينة القدس عام ١٩٢٠، وتم تعيينه فى العام التالى رئيساً للمجلس الإسلامى الأعلى، وقد أدى تعيينه إلى انقسام الشارع العربى الفلسطينى - كالعادة - بين فريق مؤيد له، ضم الراديكاليين المتشددين، وفريق معارض له، تجمع حول رئيس البلدية الجديد راغب النشاشيبى، وانضم إليه المعتدلون.

فى تلك الأثناء، لم يدع اليهود الفرصة كى ينظموا أنفسهم ويعدوا العدة لتحقيق «الوعد البلفورى» كخطوة أولى لتحقيق «الوعد الإلهى» بميراث أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات.

لقد انشغل يهود فلسطين فى عهد اللورد بالامار الذى خلف هربرت صموئيل عام ١٩٢٥م بإيجاد دولة موازية فى قلب دولة الحماية، لها جيشها (منظمة الهاجاناه) وتنظيمها البرلمانى من ممثلى المستوطنات الاشتراكية ونقابات العمال (الهستدروت) ونظامها الضريبى ومؤسساتها المالية ومعاهدها التعليمية وأصبحت الوكالة اليهودية التى جعلت من القدس الغربية مقراً لها الهيئة التى تمثل المجتمع اليهودى فى فلسطين أمام الحكومة البريطانية.



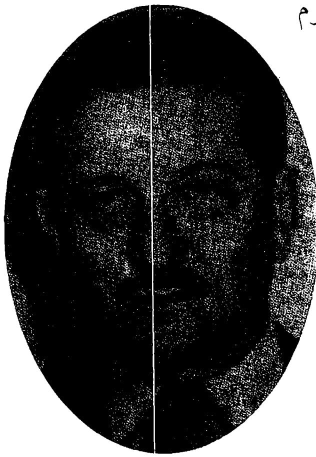
فى الوقت نفسه، لم يكن ثمة تنظيم يجمع العرب، وساد التوتر بين حزبى الحسينى والنشاشيبى نتيجة اختلاف وجهات نظرهما فى سبيل معارضة الصهيونية.

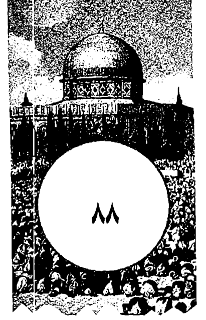
وفى صيف عام ١٩٢٩م عقد المؤتمر الصهيونى السادس عشر فى زيورخ، وطالب فيه اليهودى الصهيونى المتطرف فلاديمير جابوتنسكى بإقامة دولة يهودية - وليس وطناً - على ضفتى الأردن، الأمر الذى أصاب العرب بالذعر، واندلعت أعمال العنف فى فلسطين، وتزايد عدد اليهود المهاجرين الشرعيين وغير الشرعيين، وتعاظمت قوتهم العسكرية نتيجة عمليات تهريب الأسلحة التى كانت السلطات البريطانية - فى الغالب - تغض الطرف عنها.


ثورة عرب القدس سنة ١٩٣٧

وفى عام ١٩٣٦م أعلن العرب فى فلسطين العصيان المدنى العام، وتلا ذلك الثورة العربية ضد البريطانيين التى استمرت إلى عام ١٩٣٨م وعانت خلالها القدس معاناة شديدة.

ولم يكن أمام البريطانيين إلا تشكيل لجنة لبحث مطالب الجانب العربى وواجبات بريطانيا تجاه اليهود، فكانت لجنة «بيل» عام١٩٣٧م، والتى اقترحت تقسيم فلسطين إلى ثلاثة أقسام: قسم الشاطئ وما وراءه من السهول الخصبة لتقوم فيه دولة يهودية، وقسم أكبر ساحة وأقل خصوبة ليكون مع شرق الأردن دولة عربية، وقسم يشمل الأماكن المقدسة فى فلسطين ويمتد من شمال القدس حتى جنوب بيت لحم، ويشمل كذلك الناصرة وشواطئ بحيرة طبرية لقداستهما، على أن ييسر له الاتصال بالبحر عن طريق ممر يمتد من القدس إلى يافا شمالاً، واقترحت اللجنة أن يظل هذا القسم الأخير تحت الانتداب


حاييم وايزمان



البريطانى، فلا يسرى عليه وعد بلفور، وتكون لغته الرسمية هى الإنجليزية، ومنذ ذلك الحين اهتمت كل الخطط التى فكر فيها المجتمع الدولى لحل مشكلة فلسطين ببقاء القدس خارج نطاق الصراع للتأكد من بقاء الأماكن المقدسة التى هى «وديعة حضارية مقدسة» حسب تعبير أعضاء لجنة بيل، فى متناول الجميع.

وقد قدم اليهود- بعد قبولهم لخطة بيل - خطتهم الخاصة للتقسيم، واقترح الصهاينة تقسيم القدس بحيث يستأثر اليهود بضواحى غرب المدينة الجديدة، بينما تبقى القدس القديمة والقدس الشرقية تحت سلطة الانتداب.

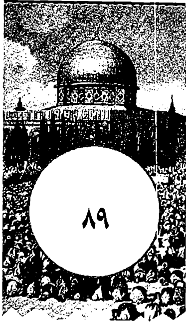
أما العرب، فقد أعلنوا رفضهم لخطة «بيل»، ومارس العرب ضغوطهم على بريطانيا التى كانت تستعد لخوض غمار الحرب العالمية الثانية، فصدر عام ١٩٣٩م ما يعرف بالكتاب الأبيض الذى يحد من الهجرة غير الشرعية لليهود إلى فلسطين، فى الوقت الذى شن فيه اليهود حرباً شعواء بكل ما يملكونه من أسلحة ضد بريطانيا فى فلسطين بهدف إلغاء هذه القيود.

وعندما ضمنت بريطانيا عام ١٩٤٣م كسبها للحرب دون حاجة للعرب قام تشرشل فى سبتمبر من هذا العام بإبلاغ الصهيونى حاييم وايزمان بقرار حكومته بمنح اليهود السيادة الكاملة على جزء من فلسطين، وفى أبريل عام ١٩٤٤م، اتخذ المجلس التنفيذى لحزب العمال البريطانى قراراً صهيونياً جاء فيه : «رغبة فى تحقيق استعمار مستقر فى فلسطين، نرى واجباً علينا أن نوصى بوضع اتفاق دائم ينص فيه على هجرة السكان وأن نشجع ذهاب العرب وقدوم اليهود، ويجب تعويض العرب تعويضاً واسعاً ثم توجيههم بعناية وتحويل استقرارهم فى أماكن أخرى تحويلاً سخياً. إن لدى العرب مساحات واسعة من الأرض، ويجب عليهم ألا يطلبوا طرد اليهود من تلك المنطقة التى تقل مساحتها عن مساحة ويلز (مقاطعة إنجليزية) بل ويجب فى الحقيقة النظر مرة أخرى فى إمكان توسيع الحدود الفلسطينية عن طريق الاتفاق مع مصر وسورية وشرق الأردن».

أما المذكرة التى قدمتها الوكالة اليهودية فى أكتوبر عام ١٩٤٤م فكانت أخف صهيونية من قرار حزب العمال البريطانى إذا جاء فيها :

«لن يترتب على تنفيذ المشروع اليهودى حرمان العرب من المكان الذى هو حق لهم لأنهم يمتلكون الآن عدداً من الدول التى بها ثروات ضخمة لم تمس بعد»، وسارع بن جوريون إلى تخفيف حدة صهيونية القرار العمالى البريطانى بقوله: «أما إذا شاء العرب أن يهاجروا فهذا من شأنهم».

وهكذا يبدو التطابق بين السياسات الاستعمارية ممثلة فى مواقف بريطانيا فى هذه الفترة ومواقف الولايات المتحدة فى الوقت الراهن.



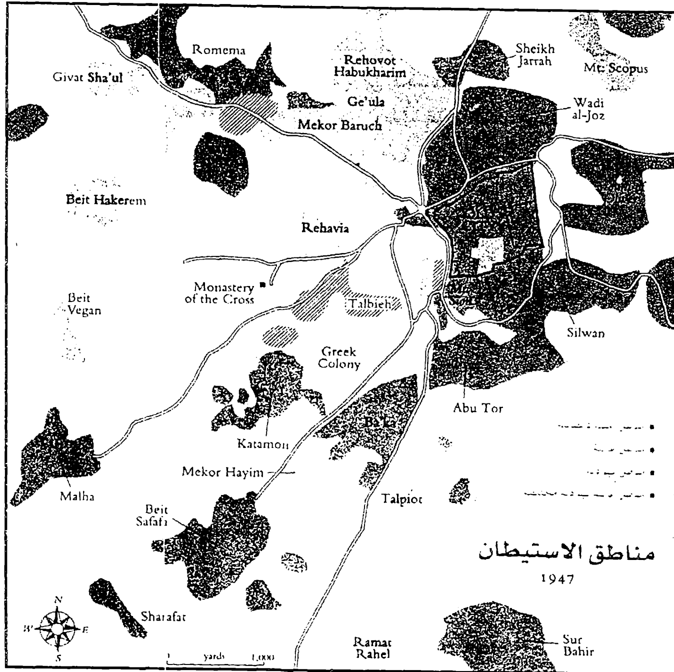
وهكذا يبدو أيضاً التطابق والإصرار على تحقيق الهدف من قبل الصهاينة منذ هرتزل ومروراً بوايزمان وبن جوريون وجولدا مائير ورابين وبيجن وباراك وشارون.

والدور الأمريكى الصهيونى المعاصر ليس وليد الساعة، وإنما يعود إلى قرار حكومة بريطانيا فى ١٣/ ١١/ ١٩٣٥م الذى دعيت فيه الولايات المتحدة إلى المشاركة فى لجنة تحقيق يعهد إليها بتحرى أوضاع اليهود الأوروبيين وبحث إمكانية توطين جانب منهم فى فلسطين.

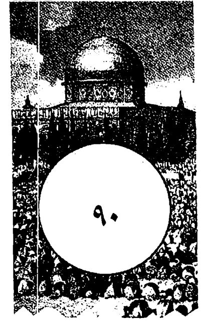
وتكونت - بالفعل - هذه اللجنة البريطانية - الأمريكية المشتركة برئاسة الإنجليزى سنجلتن والأمريكى هيتشون، وعقدت اجتماعها الأول فى واشنطن فى يناير ١٩٤٦م، وانتقلت فى شهر مارس إلى فلسطين ومنها إلى لوزان ثم سلمت تقريرها إلى الحكومتين فى أول مايو ١٩٤٦م، وقد جاء هذا التقرير فارغاً، محتوياً على توصيات تصب بشكل أو بآخر فى صالح الجانب الصهيونى، وإن حاول واضعوها تجميل الصورة الصهيونية الرامية إلى احتلال فلسطين.

إن تاريخ القدس خلال هذه الفترة لا يمكن عزله عن تاريخ فلسطين والمنطقة العربية ككل، وإن كانت ثمة قرارات فى خضم هذه الأحداث ترتبط بشكل رئيس بالقدس نفسها.

فعندما أخفقت بريطانيا فى إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية على مدى ثلاثين عاماً، تقدمت إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢/ ٤/ ١٩٤٧م بطلب تقديم توصياتها حول مستقبل الوضع فى فلسطين طبقاً للمادة ١٠ من ميثاق الأمم المتحدة، وقد عقدت الجمعية العامة دورة خاصة وانتهت إلى تشكيل لجنة تحقيق، قدمت تقريرها فى سبتمبر ١٩٤٧م، وبعد مناقشات طويلة تم تقديم مشروع قرار من قبل الجمعية العامة يقضى بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية مع إنشاء وحدة مستقلة



خريطة (١٦)
مناطق الاستيطان



لمنطقة القدس، تكون لها حكومتها الدولية الخاصة، وتدار من قبل الأمم المتحدة عن طريق مجلس الوصاية، وكان هذا المشروع هو أساس القرار رقم ١٨١-٢ الصادر عن الجمعية العامة فى ٢٩/١١/١٩٤٧م بتقسيم فلسطين وتدويل القدس.

ورفض العرب القرار، ونشبت الاضطرابات فى فلسطين، واجتمعت الجمعية العامة لتوصى فى ٦/٥/١٩٤٨م حكومة الانتداب البريطانى بتعيين محافظ محايد لمنطقة القدس يدير الأمور فيها حرصاً على الأماكن المقدسة وحمايتها، كتجربة أولية لمدى إمكان تطبيق نظام دولى بها، وتم تعيين الأمريكى هارولد إيفانز لهذه المهمة، لكنه فشل، ليحل محله الكونت فولك برنادوت الذى تلخصت مقترحاته فى بيانه التمهيدى على النحو التالى : «ضم مدينة القدس إلى الإقليم العربى، مع منح الطائفة اليهودية حق الاستقلال بشئون البلدية، ووضع تدابير خاصة لحماية الأماكن المقدسة» وقد قوبلت هذه المقترحات بالرفض من جانب العرب واليهود على حد سواء.

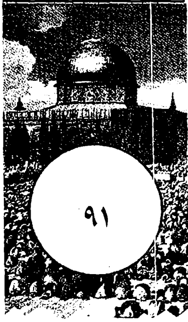
وكانت بريطانيا قد أعلنت فى يناير عام ١٩٤٨م أنها ستضع حدًّا للانتداب على فلسطين فى منتصف ليلة ١٥ مايو ١٩٤٨م بعد أن تم ترتيب الأوضاع من أجل تحقيق الهدف الصهيونى - البريطانى المتمثل فى إقامة إسرائيل، وتخلت بريطانيا عن مسئولية الانتداب دون أن تقيم حكومة وطنية تتسلم مقاليد الأمور، ودون أن تحصل على موافقة بذلك من الأمم المتحدة.

ومهما كانت مبررات بريطانيا المزعومة حول أسباب إنهاء انتدابها على فلسطين، فإن الشكل الذى تم الإنهاء به، والظروف والملابسات التى رافقت فترة الانتداب، وجميع الأحداث التى وقعت خلال وجود البريطانيين فى المنطقة ناهيك عن كل القرارات الصادرة من الحكومات البريطانية، ليؤكد ذلك كله أن قيام إسرائيل فى فلسطين، وتقديم القدس هدية للصهاينة، إنما تم مع سبق الإصرار والترصد من قبل بريطانيا، وبتنسيق وإتقان تام مع الصهيونية العالمية.



يمكن تمييز مرحلتين فى تاريخ مدينة القدس منذ إعلان قيام إسرائيل فى فلسطين: الأولى من ١٩٤٨م وحتى ١٩٦٧م، والثانية من ١٩٦٧ وحتى الآن.

كما يمكن تلخيص قرارات إسرائيل المتعلقة بالقدس فى أربع مجموعات أو مراحل:



١- من ١٥/ ١١/ ١٩٤٩ ، حينما أشار بن جوريون على الحكومة الإسرائيلية بالعمل بسرعة على تنفيذ قرار جعل القدس عاصمة لإسرائيل، وحتى ١١/ ١٢/ ١٩٤٩م حيث صدر قرار نقل مقر الحكومة إلى القدس.

٢- من ١١/ ١٢/ ١٩٤٩م وحتى ٢٣/ ١/ ١٩٥٠م، حيث تم تنفيذ القرار السابق.

٣- من ٤/ ٥/ ١٩٥٢م، حيث الإعلان الرسمى بنقل وزارة الخارجية إلى القدس وحتى ١٢/ ٧/ ١٩٥٣ حيث تم نقل الوزارة فعلياً إلى المدينة.

٤- من ٧/ ٦/ ١٩٦٧م وحتى ٢٨/ ٦/ ١٩٦٧، حيث تم الاستيلاء على كل القدس وتوحيد شطريها.

أما ما أعقب ذلك من قرارات حتى الآن، فهو نتيجة حتمية للقرارات السابقة.



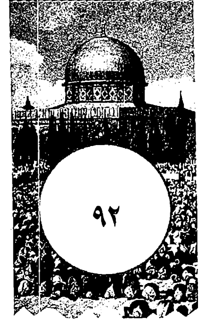
صور تذكارية للمزود الذى ولد عنده السيد المسيح وأقيمت عليه كنيسة المهد فى بيت لحم تحت حراسة جنود الأتراك



الجنود العرب يحرسون المسيحيين أثناء إقامة شعائرهم الدينية خلال أسبوع الآلام فى عام ١٩٤٨



الأماكن التى ضربتها المدفعية اليهودية فى المسجد الأقصى أثناء الحرب العالمية



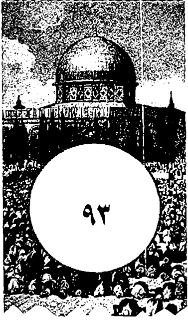
(أ) المرحلة الأولى ١٩٤٨ - ١٩٦٧:

نشب القتال بين العرب واليهود عام ١٩٤٨م، وتدخلت بعض الدول العربية فى هذه الحرب التى استمرت حتى يونيو ١٩٤٨م، أى بعد قيام إسرائيل بأسابيع، وكان الفيلق العربى قد تمكن من الوصول إلى القدس وإخراج اليهود من أحيائها القديمة بعد قتال مرير، وأصبحت المدينة منقسمة إلى قسمين : داخل الأسوار بيد العرب، وخارجها فى منطقة القدس الجديدة بيد اليهود.

فى تلك الأثناء، كان مجلس الوصاية قد انتهى فى المدة المحددة له من بحث مشروع النظام الخاص بمنطقة القدس الدولية، وتم عرضه على الجمعية العامة فى ٢١/ ٤/١٩٤٨، إلا أن الجمعية العامة انشغلت ببحث سبل فرض الهدنة بين المتحاربين ، وأوصت فى ٦/ ٥/١٩٤٨م بأن تقوم حكومة الانتداب بتعيين محافظ محايد لمنطقة القدس يدير أمورها حرصاً على المناطق المقدسة فيها تمهيداً لتطبيق نظام دولى خاص بالمدينة، واختير لهذه المهمة الأمريكى هرولد إيفانز، لكنه فشل فى التوفيق بين اليهود والعرب إلى أن تولى فولك برنادوت المهمة كوسيط من قبل الأمم المتحدة بمقتضى قرار الجمعية العامة الصادر فى ١٤/ ٥/١٩٤٨م.

وقد قوبلت مقترحات برنادوت (التى رأت ضم القدس إلى الإقليم العربى مع منح اليهود حق الاستقلال بشئون البلدية ووضع تدابير خاصة لحماية الأماكن المقدسة) بالرفض من جانب العرب واليهود، وضاعت جهود برنادوت، واستطاع اليهود خلال الهدنة - بفضل تهريب المهاجرين والأسلحة إلى فلسطين - من احتلال بعض الأماكن العربية كاللد والرملة، وشق طريق لهم بين تل أبيب والقدس.

وبمقتل برنادوت فى ١٧/ ٩/ ١٩٤٨م توقفت جهوده لإيجاد تسوية فى فلسطين، وخلفه رالف بانش حيث توصل إلى هدنة بين الطرفين وفقاً لقرارات الأمم المتحدة، وقد انتهزت الدول العربية فرصة تكوين لجنة التوفيق بقرار الجمعية العامة فى ١١/ ١٢/ ١٩٤٨ - وكان من مهامها وضع نظام دائم لتدويل القدس خلاف نظام مجلس الوصاية المقترح - ووافقت وفودها على فكرة التدويل التام لمنطقة القدس، على أساس وحدتها ودون تقسيم الأماكن المقدسة فيها. أما الجانب اليهودى فقد قامت اقتراحاته على أساس الأخذ بالوضع الراهن فى المدينة، إذ أصبحوا يحتلون القسم الأكبر منها، وقصر التدويل على الأماكن المقدسة فى الأحياء القديمة التى تحت سيطرة الجيش الأردنى، وانتهت لجنة التوفيق إلى إقرار الوضع الراهن - كما أراد اليهود - والعهد إلى السلطات



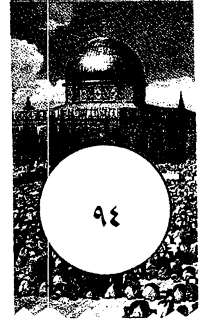
العربية واليهودية بإدارة المناطق التابعة لكل منهما، مع عدم أحقية العرب واليهود فى اتخاذ مدينة القدس عاصمة لهم.

وقد رفضت الدول العربية هذا المشروع بينما قبلته الأردن التى كانت تطالب بضم القدس إليها، كما رفضه اليهود، وكذلك رفضته الجمعية العامة فى ٩/١٢/١٩٤٩م، واتخذت - تحت تأثير الكنيسة الكاثوليكية - القرار رقم ٣٠٢-٤ الذى أكدت فيه عزمها على وضع القدس تحت نظام دولى دائم يضمن حماية الأماكن المقدسة، وعهدت بهذا القرار إلى لجنة الوصاية من جديد، حيث عقد المجلس أكثر من ثلاثين جلسة انتهى فيها إلى قرار نظام من ٤٣ مادة، لكنه سرعان ما أعلن عن عجزه عن تنفيذ هذا النظام، وفى الوقت نفسه أعلنت إسرائيل رسمياً فى ١١/١٢/١٩٤٩م نقل عاصمتها إلى القدس، وفى اليوم التالى أعلنت الأردن ضمها للأراضى التى سيطرت عليها من فلسطين بما فيها بعض مناطق القدس، واعترفت الحكومة البريطانية رسمياً بإسرائيل، كما اعترفت بضم الأردن للأراضى الفلسطينية وتكوين المملكة الأردنية الهاشمية التى وضع خطوطها الأولى مشروع لجنة بيل عام ١٩٣٧م.

وقد احتج مجلس الوصاية على خطوات الحكومة الإسرائيلية إزاء القدس حيث قامت بنقل وزاراتها وبعض إداراتها المركزية إلى المدينة كما أعلن فى ١٤/٦/١٩٥٠م إحالة الموضوع مع مشروع النظام المعدل الذى تم إعداده إلى الجمعية العامة، غير أن الجمعية لم تبت فى تقرير مجلس الوصاية خلال دورتها المنعقدة فى شتاء ١٩٥٠م.

واستطاعت بريطانيا وأمريكا أن تدفع السويد إلى تقديم مشروع قرار معدل لقرار الجمعية العامة الخاص بتدويل القدس، بحيث يقتصر التدويل على الأماكن المقدسة دون مساس بالسلطة القائمة على قسمى المدينة اليهودى والأردنى، وقد فشل هذا المشروع رغم تأييد بريطانيا وأمريكا له، وأصبح الوضع القانونى للمدينة يتلخص فى أن التدويل الشامل ودستوره قائمان من ناحية الأمم المتحدة لكنهما يفتقران إلى التنفيذ، بإيعاز من الولايات المتحدة وحلفائها، ومن ثم يصبح من الأمور غير المشروعة - والخطيرة أيضاً - المناداة بتدويل الأماكن المقدسة وحدها، أى القدس العربية.

وتمادت إسرائيل فى غيها وسياستها الاستعمارية عن طريق فرض الأمر الواقع، وسعت فى صيف ١٩٥٤م إلى أن يقدم السفراء الأجانب أوراق اعتمادهم إلى الحكومة الإسرائيلية فى القدس الغربية وكان السفير البريطانى أول من سارع إلى ذلك فى ١٠/١١/١٩٥٤م ثم السفير الأمريكى، الذى جاء فى خطابه آنذاك :



«لا يسعنى إلا الفخر بما قامت به بلادى فى سبيل إنشاء بلادكم . . وإنه لجدير بنا نحن الأمريكيين، الذين ندين بحضارتنا إلى الكثير من إلهام أنبياء إسرائيل، أن نعمل متحدين مع أحفادهم فى المهمة العظمى، وهى بناء أمة حديثة فى الأرض القديمة».

ويتم استنساخ المشاهد «والسيناريوهات» ليكرر حكام الولايات المتحدة بعد نصف قرن من الزمان، نفس المواقف، ونفس العبارات.

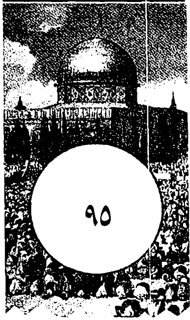
وفى إطار تصعيد عملية تهويد القدس وأسرلتها، اتجهت إسرائيل إلى إقامة العرض العسكرى - بمناسبة ما يسمى بعيد الاستقلال - سنوياً فى القدس، مع استنكار مجلس الأمن لذلك، هذا الاستنكار الذى لم يكبح جماح إسرائيل وإنما دفعها إلى الاستمرار فى غيها وسياستها الاستعمارية الاستيطانية تجاه القدس بخاصة، وفلسطين بعامة.

ومع أن القدس العربية قد أصابتها الجراح الخطيرة عام ١٩٤٨م، وسقطت فى بحور من المعاناة بسبب مشاكل اللاجئين، والدمار الذى لحق بها فى الحرب، وامتناع الأردن عن تلبية احتياجات المدينة الفلسطينية، بل ونقل الدوائر الحكومية من القدس إلى عمان، وتدهور العلاقات بين المدينة والحكومة الأردنية فى أعقاب اغتيال ملك الأردن على يد مؤيدى المفتى فى أبريل عام ١٩٥١م، فإن القدس الأردنية - بعد ضم الأردن لها - قد بدأت تنهض من جديد، وتم إصلاح المسجد الأقصى عام ١٩٥٣م، كما أنشئت جمعية البر الإسلامية لإعادة تعمير القدس وبناء المدارس والمستشفيات والهيئات الخيرية، وأقيمت خلال الخمسينيات مساكن جديدة للاجئين فى وادى الجوز وأبى طور والشيخ جراح، وتم إنشاء منطقة تجارية جديدة إلى الشمال والشرق من المدينة القديمة.



(المسجد الأقصى) صورة نادرة

وتم البدء عام ١٩٥٨م فى عملية تجديد شامل للحرم القدسى الشريف، وبدأ الاقتصاد



المقدس فى التحسن، وشهدت السياحة ازدهاراً ملحوظاً بحيث أصبح فى المدينة ما يقرب من سبعين فندقاً حتى عام ١٩٦٦م.

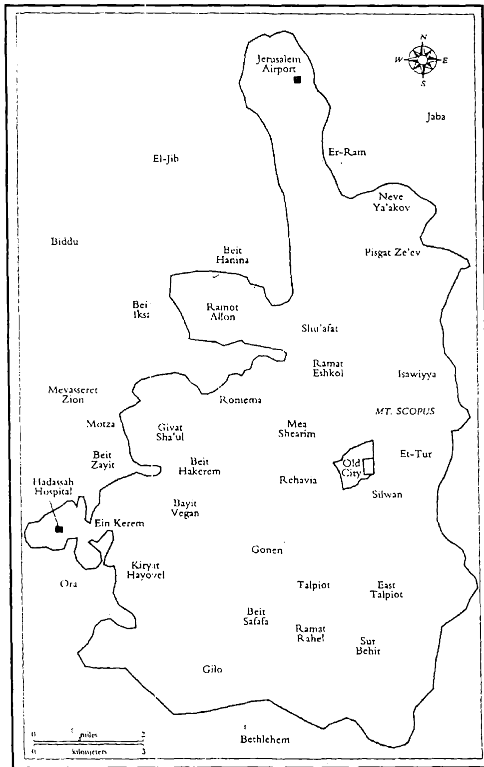


فندق الأردن فى أريحا

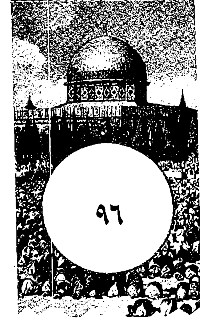
وكرد فعل لعملية نقل مقر الحكومة الإسرائيلية إلى القدس الغربية، رفعت الأردن من مكانة القدس بحيث أصبحت عام ١٩٥٩م «أمانة» على نفس مستوى عمان، وأعلن الملك حسين القدس عاصمة ثانية للمملكة الأردنية وخطط لبناء قصر له شمالى المدينة.

أما القدس الغربية، فقد خلت من التناسق والوحدة، إذ تتكون من سلسلة من الضواحى، يسكن كل ضاحية منها مجموعة عرقية، أو دينية، لها حياتها المستقلة، بل أصبحت مدينة منقسمة على نفسها، يعادى كل فريق من سكانها الفريق الآخر، واحتدم الصراع بين المتدينين والعلمانيين.

وأخذ شقا المدينة يتباعدان على المستوى الواقعى، فالقدس العربية أخذت تتوجه شرقاً نحو عمان، والقدس الغربية تتوجه نحو تل أبيب والساحل، وكان السفارديم (اليهود الشرقيون) يسكنون المناطق الفقيرة بجوار الحدود، وتم إهمال المركز التجارى اليهودى فى المدينة لعدم استتباب الأمن بصورة كاملة، وأصبح مركز القدس الغربية الجغرافى هو الجامعة العبرية.



خريطة (١٧)
الحدود البلدية للقدس كما حددتها إسرائيل عام ١٩٦٧م



ومع تولى تيدى كوليك رئاسة بلدية القدس الغربية - عام ١٩٦٥م وهو أحد أقطاب حزب العمل الصهيونى - تغير الكثير من واقع المدينة، وسعى إلى التوجه إلى الأماكن الفقيرة تعبيراً عن قناعته بجعل القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل.

(ب) المرحلة الثانية ١٩٦٧ - ؟

كانت حرب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧م بمثابة نقطة تحول فى تاريخ مدينة القدس، وكان اليوم الثانى من المعارك مسرحاً لمعارك سياسية داخل التيارات السياسية فى الحكومة الإسرائيلية، وما إن حل السابع من يونيو، ووصلت أخبار وقف إطلاق النار إلى قادة إسرائيل حتى سارع بيجن وحث ليفى أشكول على القيام بعملية فورية لاحتلال المدينة القديمة، ووافق الوزراء الإسرائيليون، وأعطيت الأوامر باحتلال القدس الشرقية، وتم الاحتلال مساء نفس اليوم، ووقف موشى ديان عند حائط البراق (المبكى) ليقول:

«لقد قام جيش الدفاع الإسرائيلى هذا الصباح بتحرير القدس. لقد وحدنا من جديد القدس المبتورة، عاصمة إسرائيل المشطورة. رجعنا إلى قدس أقداسنا، عدنا إليها ولن نتركها إلى أبد الآبدين».

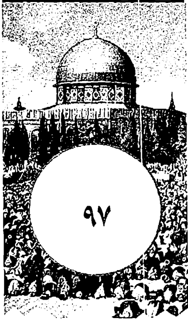
وفى صباح الثامن من يونيو ١٩٦٧م كان الحاخام شلومو جورين - حاخام الجيش الإسرائيلى آنذاك - يقف بالقرب من حائط البراق ويقيم شعائر الصلاة اليهودية معلناً أن حلم الأجيال اليهودية قد تحقق، فالقدس لليهود ولن يتراجعوا عنها وهى عاصمتهم الأبدية.

وفى الحادى عشر من يونيو اجتمعت الحكومة الإسرائيلية لبحث ضم القدس إلى إسرائيل، وتوالت الاجتماعات حتى تم تقديم قرار للكنيست الإسرائيلى فى ٢٧/٦/١٩٦٧ يقضى بضم القدس إلى إسرائيل، ووافق الكنيست على ذلك، وفى اليوم التالى أصدرت الحكومة ما يسمى بأمر القانون والنظام رقم(١) لسنة ١٩٦٧م، وأخضعت بموجبه منطقة مدينة القدس للقوانين والنظم الإدارية الإسرائيلية.

وجدير بالذكر أن عملية الاستيطان اليهودى للقدس - بعد احتلالها - قد تمت على مرحلتين:

الأولى: الاستيطان فى القدس القديمة، وقد باشرتها السلطات الإسرائيلية فور الانتهاء من عمليات المصادرة والهدم داخل البلدة القديمة حيث أقيم أول حى يهودى فيها، ضم سوقاً تجارياً ومعبداً للصلاة، أقيمت كلها على أنقاض أربعة أحياء عربية هى : حى الشرف، حى الباشورة، حى المغاربة وباب السلسلة.

كانت هذه الخطوات بمثابة «استيطان عاجل» صاحبته مجموعة من إجراءات التهويد الأخرى وأهمها توسيع ساحة حائط البراق على حساب العقارات الوقفية الإسلامية، والبدء فى عمليات الحفر والتنقيب تحت الحائطين الغربى والجنوبى للمسجد الأقصى، وترحيل الأسر والعائلات العربية



من المناطق المجاورة للحى اليهودى، ومصادرة المزيد من الأراضى والعقارات العربية فى البلدة القديمة وخارج الأسوار وفى نطاق حدود أمانة القدس لعام ١٩٦٧م.

الثانية: الاستيطان فى حدود أمانة القدس لعام ١٩٦٧م، والبدء فى إقامة حزام من الأحياء السكنية يحيط بالقدس من الناحيتين الشمالية والجنوبية. وتهدف الخطة الإسرائيلية التوسعية إلى توسيع حدود مدينة القدس بحيث تمتد لتشمل ما يقارب ٣٠٪ من مساحة الضفة الغربية، وقد نشرت ملامح هذا المخطط الاستيطانى فى صحيفة معاريف العبرية بتاريخ ٢٦/٣/١٩٦٩م.

وقد أعلن الدكتور «ميرون بنفنستى» نائب رئيس بلدية القدس الإسرائيلى فى مارس عام ١٩٧١م مشروعاً عرف باسمه يقترح فيه توسيع حدود بلدية القدس لتشمل المناطق الممتدة من رام الله شمالاً وحتى بيت لحم جنوباً، وأقيمت فى إطار هذا المشروع حوالى ١٩ مستوطنة تشكل حزاماً يطوق الأحياء السكنية المجاورة للمدينة.

وفى فبراير عام ١٩٧٤م، أعلنت الصحف العبرية عن تفاصيل مشروع آخر وضعه الدكتور «رافل بنكلر»، يطرح وفقه تصورات عامة لمستقبل المدينة، ويتضمن ما يلى :

١- إبقاء مدينة القدس موحدة تحت السيادة الإسرائيلية.

٢- توسيع حدود المدينة وتقسيمها إلى ثمانية أحياء، لكل حى منها مجلس بلدى فرعى، وتخضع المدينة كلها لهيمنة المجلس البلدى المركزى الذى يضم ٥٥ عضواً من بينهم ٣٨ عضواً من اليهود.

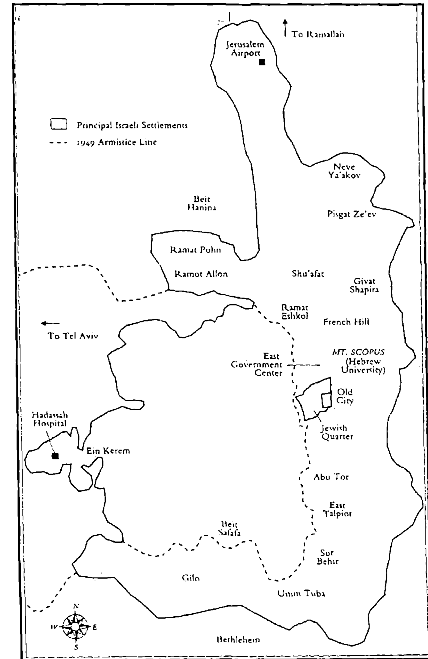
٣- إعطاء الأحياء العربية نوعاً من الحكم الذاتى.

٤- ضمان حرية العبادة والوصول إلى المقدسات لجميع الأديان.

٥- عدم تجاوز نسبة السكان العرب على ٢٥٪ فى الفترة ١٩٦٧ - ٢٠١٠م.

٦- يضم المشروع التوسعى المقترح المناطق العربية الممتدة شمالاً حتى رام الله والبيرة، وشرقاً حتى أبو ديس والعيزرية، وغرباً حتى اللطرون، وجنوباً حتى بيت لحم.

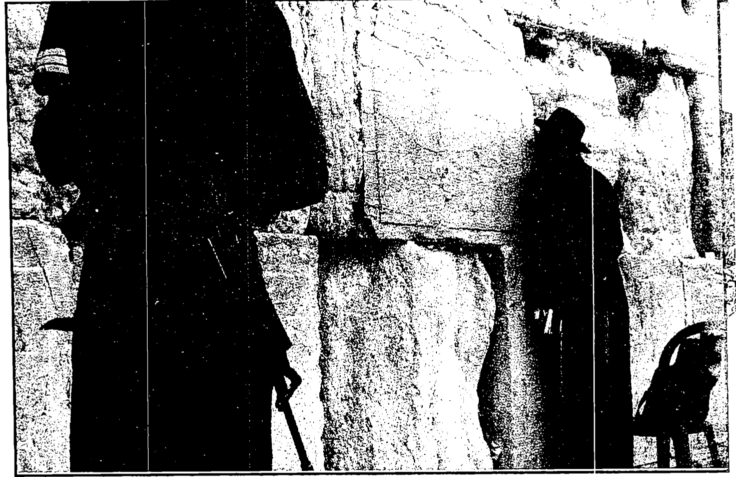
كما شكلت الحكومة الإسرائيلية لجنة لوضع مخطط



خريطة (١٨)
البناء الذى تم خارج حدود وقف إطلاق النار منذ عام ١٩٦٧م



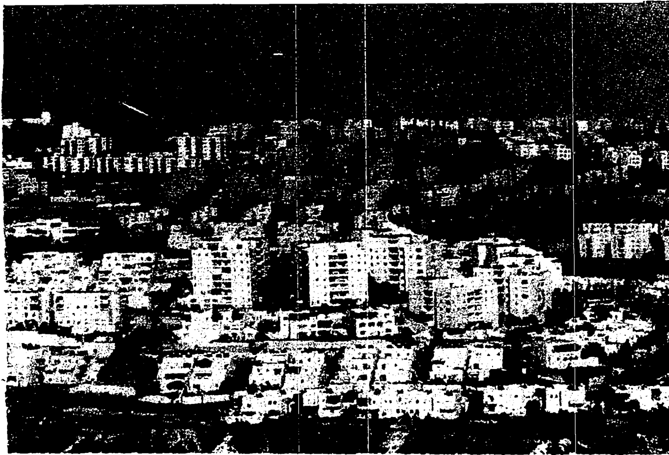
موشى ديان



حائط المبكى تحت الاحتلال الإسرائيلى



منظر لمخيم شعفاط ومن خلفه مستوطنة بسغات زئيف



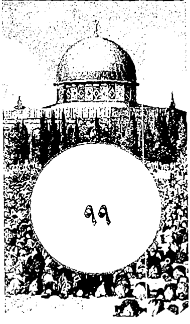
مستوطنة نيفيه يعقوب

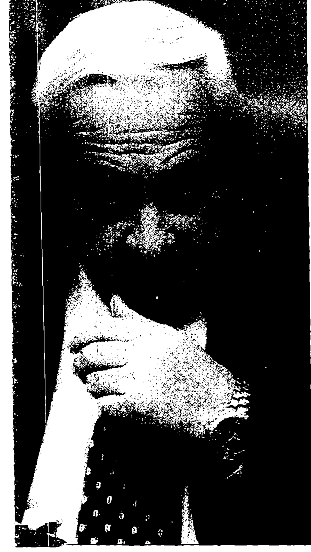
لتوسيع القدس أطلقت عليها لجنة «جفنى» ونشرت توصياتها فى صحيفة هآرتس العبرية فى ١٤/ ١٠/ ١٩٧٥م ودعت إلى إقامة ٢٨٦٠٠ وحدة سكنية خلال الفترة من ٧٥ - ١٩٧٩م.

وفى ٣٠/ ٩/ ١٩٧٥م نشرت صحيفة دافار العبرية خبراً لمسئول إسرائيلى أعلن فيه الموافقة على خارطة القدس الموسعة على النحو التالى :

«تمتد حدود بلدية القدس مابين الخان الأحمر شرقاً واللطرون غرباً ودير دبوان وتبين شمالاً وضواحى مدينة الخليل (مستوطنة كريات أربع) جنوباً».

ويقضى هذا التوسع الإسرائيلى بضم ٩ مدن، ٦٠ قرية عربية وما يقارب من ٣٠٪ من إجمالى مساحة الضفة العربية. وقد أقيمت وفق هذا المشروع ١٥



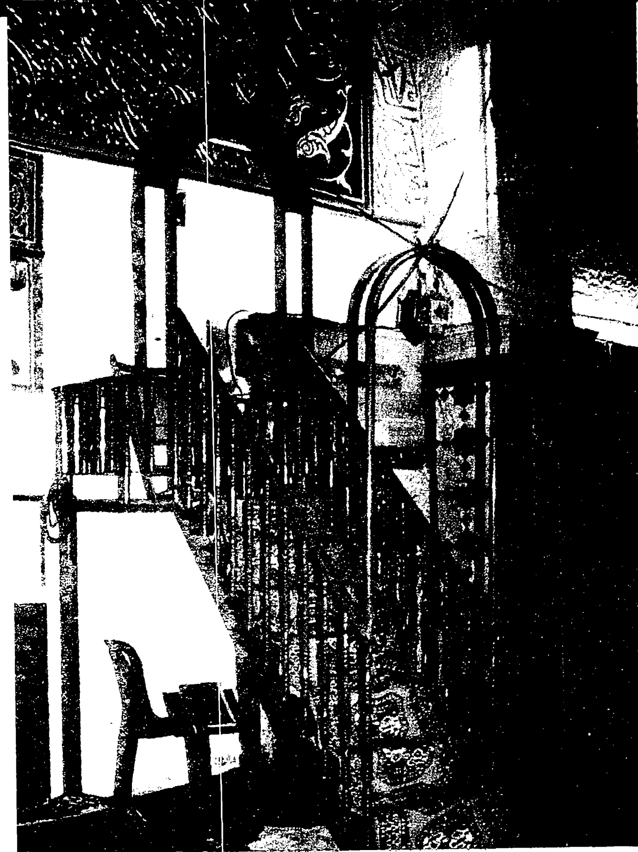


شارون

مستوطنة منها فى الشمال «كوخاف هشاجر عفره، بيت إيل، كفار روش، نيفى تسوف، ومنها فى الجنوب : تكواع، كفار عتسيون، اليعازر أوب، افرات مجدل عوز، روش تسوريم وغيرها، وفى ٣٠/ ٧/ ١٩٨٠م أصدرت إسرائيل قراراً يعتبر القدس عاصمة موحدة وأبدية لها، وقد اتخذت إسرائيل من هذا التاريخ وسائل استعمارية استيطانية شتى تهدف إلى تغيير الطابع العربى الإسلامى للمدينة مع العمل على الإخلال بالميزان السكانى لصالح اليهود، وقد شكلت إسرائيل لجاناً مختلفة للإشراف على الاستيطان اليهودى فى الأحياء الإسلامية.

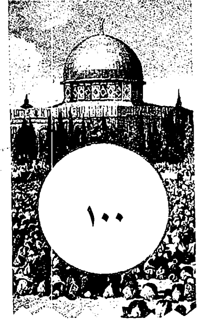
كما تعمل سلطات الاحتلال بشتى الوسائل للضغط على سكان المدينة العرب لإجبارهم على بيع ممتلكاتهم فى البلدة القديمة، أو مصادرتها فى حالة رفضهم، وقد طبق شارون ذلك بنفسه عندما سكن فى يوم ١٥/ ٢/ ١٩٨٧م منزلاً فى شارع الواد فى الحى الإسلامى بعد أن قام بطرد سكانه العرب.

المنبر المؤقت للمسجد الأقصى بعد حريق ١٩٦٩



مسجد عمر بن الخطاب تحت يد الاحتلال الإسرائيلى





لقد أصبح السكان العرب، بعد إعلان توحيد شطرى المدينة تحت سيطرة إسرائيل، أقلية لم تتجاوز نسبة ٣٠٪ فى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين.

وفى عام ١٩٩٠م تمت هجرة يهودية مكثفة من الاتحاد السوفيتى، شكلت قوة دفع هائلة لاستيطان القدس، سواء فى شكل إقامة مستوطنات جديدة، أو فى تكثيف القائم منها بالفعل.

ويمكن أن نوجز ملامح السياسة الإسرائيلية تجاه القدس منذ قيام إسرائيل وحتى الآن فيما يلى:

١- إرهاب السكان العرب وطردهم ونسف ممتلكاتهم.

٢- فرض سياسة الأمر الواقع بضم القدس إدارياً إلى إسرائيل.

٣- نهب أملاك العرب المقيمين والغائبين ومصادرتها.

٤- عزل القدس عن القرى والمدن العربية والسيطرة عليها اقتصادياً.

٥- تهويد التعليم العربى فى المدينة.

٦- تهويد الإنسان العربى المقدسى.

٧- تهويد النظام القضائى والشرعى الإسلامى.

٨- استحداث مدن وضواح يهودية جديدة للقدس.

٩- الاعتداء على المقدسات الإسلامية بدءاً من التصريحات المعادية ومروراً بالحفريات الرامية إلى هدم المسجد الأقصى وإباحة الحرم المقدسى لليهود وحريق المسجد الأقصى فى ٢١/٨/١٩٦٩، وانتهاء بتدنيس شارون للحرم والسماح لليهود والأجانب بدخول ساحة الأقصى وانتهاك حرماته.

إن الإشارات السريعة السابقة هى موجز لسياسات وقرارات وسلوك سجلته الأيام، وسجله التاريخ فى كتابه، كما سجل التاريخ أيضاً تقاعس المسلمين والعرب تجاه بيت المقدس.

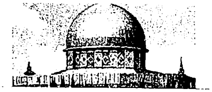
ولئن امتلأت صفحات التاريخ بتدنيس اليهود - منذ عهد يشوع - للمدينة، وحتى عهد شارون، ولئن حفلت صفحات التاريخ بمحاولات محمومة من قبل الإسرائيليين لتهويد المدينة، فإن هذا التاريخ نفسه يسجل صفحات من نور بعض المسلمين المجاهدين الذين حافظوا على القدس على مر تاريخها الإسلامى.

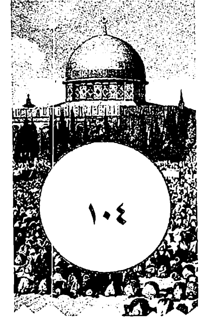
التاريخ يثبت أن الاحتلال أمر طارئ على الأمم والشعوب، وأن التحرر هو الوضع الطبيعي لها، وإذا كانت إسرائيل قد فعلت ما فعلت بالقدس منذ ١٩٤٨م وحتى يومنا هذا فإن المؤمنين على يقين من أن للأقصى ربًّا يحميه.

هذا ما فعله الإسرائيليون المعاصرون بالمدينة المقدسة، مسرى رسول الله ﷺ ومعراجه، أولى القبلتين وثالث الحرمين فماذا نحن فاعلون لهذه المدينة ؟!

هذه مرحلة جديدة من تاريخ القدس، سيسطرها اللاحقون لنا، ونأمل أن تكون أفضل مما كانت عليه مراحلها عبر العصور.

خريطة (١٩)
منطقة الحرم الشريف الحالية





المحتويات

Abstract

The city of Jerusalem is rich in history, as it accommodates the most sacred relics of the three religions, furthermore it accommodates " al Aqsa Mosque ", and the traces of the Prophet's " Night Journey".

Many ancient kingdoms were established in Jerusalem but were dismantled by the Persians and the Romans consequently.

When the Arabs conquered Syria, they entered Jerusalem in the time of Caliph Omar Bin El-Khatab, who demonstrated an equaled tolerance toward the Christians and the Jews in the city.

The Ummayads established the "Rock Mosque" and its magnificent Dome. It is important to note that non- Moslems enjoyed full freedom in practicing their own religious services, and rituals under the Islamic umbrella in Jerusalem.

However, in the eleventh Century A.d. The Papacy launched an aggressive campaign against the Islamic world, hoping to restore the city of Jerusalem. The Crusaders committed all sorts of barbaric crimes against the peoples of Jerusalem in 1099 A.D. Later on the great hero Sultan Saladin succeeded in unifying the Islamic world, and restoring Jerusalem from the hands of the Crusaders.

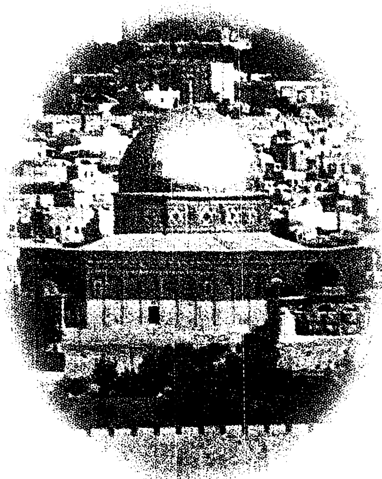
In modern times, the British Minister of Foreign Affairs Balfour issued his declaration which pledged to make Palestine a national home for the Jews, to the determent of the indigenous Palestinians, thus in 1948 the State of Israel was established, and Jerusalem was split into two parts, eastern and western. In 1967 Israel invaded east Jerusalem, which accommodates the "Aqsa Mosque", and the church of Holy Sepulchre. Sadly enough, the whole world has done nothing to salvage these Holy Sites from the hands of Zionists.

Dr. Mohammed Galaa Idris

(9)

Jerusalem

Dr. Mohammed Galaa Idris



(١٠)

المغول وعالم الإسلام

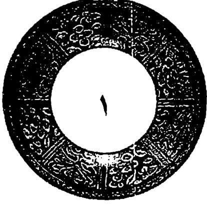
تأليف

د. صبرى عبد اللطيف سليم

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المساعد

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة - فرع الفيوم





مقدمة

عاش المغول منذ القدم فى هضبة منغوليا الفسيحة التى تقع بين شمالى الصين وجنوبى روسيا، وتأثر المغول بالمناخ القارى المتقلب فى بيئتهم تأثرًا واضحًا ظهر فى تكوينهم الجسمى والنفسى.

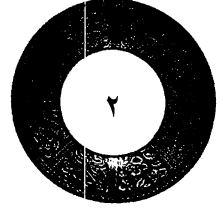
وشكَّل المغول من حيث السلالة عنصراً مهمًّا من العناصر الثلاثة الأساسية فى التكوين البشرى وهى الزنجى والقوقازى والمغولى، وانتشرت سلالتهم الصفراء فى جنوبى شرقى آسيا كله.

والمغول بهذه الصفة ليسوا من الأتراك، لاختلاف الصفات الجسمية والنفسية والمواقف التاريخية المتباينة، كذلك لم تكشف الرسائل المتبادلة بين الطرفين فى عهد جنكيزخان عن وحدة الأصل بينهما، ولعل اشتراكهما فى البداوة وبعض العادات والتقاليد القبلية وبعض مفردات اللغة، وتجاورهما فى المكان حيث تقع تركستان- موطن الترك- فى غربى هضبة منغوليا موطن المغول، هو ما دفع بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بوجود أصل مشترك بين الطرفين.

ولقد كان من أشهر القبائل المغولية التى انتشرت فى أرجاء منغوليا (قيات) وهى قبيلة تيموجين (جنكيزخان) التى نشا فيها، والتتار، والمركيت، والأويرات، والتانجوت،، وقد اتصل بالمغول كثير من القبائل التركية البدوية التى كانت تتحرك حول هضبة منغوليا وترتاد أطرافا منها سعيا وراء المرعى أحيانا، ومن أشهر هذه القبائل النايمان والكرايت والقارلوق والأويغور والقرغيز، وجرت بين هذه القبائل وبين جنكيزخان علاقات سلمية أحيانا وعدائية فى معظم الأوقات.

واعتمدت حياة المغول الاجتماعية على النظام القبلى المعروف الذى يقوم على الأسرة والعشيرة، وتدخلت «الياسا» قانون المغول الشهير، فى تحديد العلاقات داخل كل مستوىً من هذه المستويات فظهرت علاقات الزواج والميراث والسلوك العام وتحددت عقوبات عديدة منها عقوبة السرقة والزنا واللواط والاعتداء على حقوق الغير.

وفى حياة المغول الاقتصادية اتضحت أهمية الرعى باعتباره المقوم الأساسى لحياتهم وكذا الصيد الذى كانوا يمارسونه فى أوقات محددة وبنظام دقيق باعتباره وسيلة حياة لا وسيلة ترف، وباعتباره تدريبا عمليا على ما سوف يخوضونه من معارك قادمة. واتضح أيضا مدى كراهية المغول للزراعة والزراع، لان المغول جبلوا على الحرية والفروسية لا على الهدوء والاستقرار.



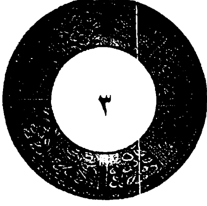
كذلك اقتصرت الصناعة عند المغول على أنماط حرفية بدائية ساذجة قامت على وجود الحيوانات بأعداد وفيرة فى بيئتهم، فلما خرجوا من منغوليا بهرتهم الحضارة المجاورة فعمدوا إلى الاستفادة من الصناع المهرة والحرفيين فأعفوهم من القتل العام ونقلوهم إلى عاصمتهم قراقورم ليقوموا على تزيينها وتطويرها.

وأولى المغول التجارة والتجار اهتمامًا خاصًّا، ورغم عدم اشتغالهم هم بهذه الحرفة، فقد شجعوا حركة التجارة وعملوا على تأمين طرق القوافل التجارية داخل منغوليا وخارجها، وفرضت الياسا عقوبات صارمة على كل من يعوق حركتها، كذلك اهتم المغول بإقامة الأسواق وإرسال البعثات التجارية وتنظيم العملة، وبتنظيم حركة الغزو الخارجى للبلاد المجاورة لهم باعتبار ذلك الغزو مجالاً مفتوحاً للعمل وموردا للرزق ثم مصدراً للثراء فيما بعد، حتى إنهم عقب الغزو حددوا نظم الضرائب وفرض الجزية ومصادرة أموال الغير.

وتعرض المغول فى حياتهم الدينية لكثير من المؤثرات حيث كانوا فى البداية بلا دين واضح المعالم، فسيطر رجال الشامانية الوثنيون على أفكارهم وفرضوا عليهم خرافات وأباطيل لا حصر لها، ثم نجح دعاة البوذية فى اقتحام حياة المغول والتأثير فيهم،وفى عصر جنكيزخان وخلفائه نشطت المسيحية ثم الإسلام فى النفاذ إلى المغول، واستطاع الإسلام فى نهاية المطاف أن يجتذب إلى حوزته معظم هؤلاء المغول فأصبحوا فى إيران وبلاد ما وراء النهر والقوقاز من أشد مؤيديه، والمدافعين عنه.

وكان للياسا المغولية رأيها الحاسم فى كثير من القضايا الدينية عند المغول ومنها الإقرار بوجود إله واحد، وتعظيم جميع الملل والأديان، واحترام رجال الدين بإعفائهم من الضرائب، والتكاليف الإجبارية التى كانت تفرضها الحكومة المغولية على الشعوب المغلوبة، وقد أثبت المغول جدارة عالية بإطلاقهم حرية التدين لديهم، وللشعوب التى خضعت لهم وبسماحهم بإقامة المناظرات الدينية تحت بصرهم بين دعاة الأديان المختلفة.

واتضح لدى المغول كثير من النظم السياسية وبخاصة بعد خروجهم من منغوليا واتصالهم بالشعوب المتحضرة ومنها الصينيون والأتراك الأويغور والإيرانيون،ومن ذلك تقسيم أجزاء الإمبراطورية الضخمة إلى أجزاء إدارية ذات طابع سياسى. فالخاقانية هى رأس الدولة وعاصمتها قراقورم، وتسيطر على مساحات واسعة فى شرقى الإمبراطورية فى منغوليا والصين، وتتبع الخاقانية خانيات منها خانية تركستان وبلاد ما وراء النهر وعاصمتها الماليق، وخانية القبجاق فى جنوبى روسيا وعاصمتها سراى، وخانية إيران وتوابعها[العراق - آسيا الصغرى -أرمينية] وعاصمتها طوس ثم مراغة ثم تبريز.



وكشف المغـول بعد الاسـتفادة من خـبرات المتـحضرين عـن ألوان عدة من بروتوكـولات العمل السيـاسى والإدارى ومنها، التـقارير الدورية المكـتوبة، الرسـائل الديوانيـة، الأخـتـام المخـتـلفـة الألوان والأحـجـام والأشكال، البايزات(العلامات المميزة)، السجلات، مراسم استقبال السفراء. . . . إلخ.

وأعطى عقد القوريلتاى(أى المؤتمر المـغولى العام) برهانا واضحا على ما كان يتمتع به المغول من حرية فى إبداء الرأى عند اختيارهم خاقانا أعظم جديدا أو تقرير الحرب والتوسع أو الخـلافات الخطيرة التى تهـدد سلامة الدولة، ولقـد عمد المغـول إلى توسيع دائرة هذا المؤتمر حتى إنه فى بعض الأمـور لم يكن مقصـوراً على كبار أمرائـهم وقوادهم وإنما امتد ليـشمل ممثلى وسفراء بعض الشعوب الأخرى المجاورة أو الخاضعة لنفوذهم.

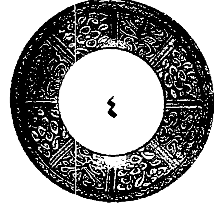
وأدى نجاح المغول بقيادة جنكيزخـان فى اقتحام سور الصين العظيم سنة٦١٢هـ/ ١٢١٥م، واستيلائهم على العاصمة بكين، ثم توجههم غربا بقيادة جوجى أكبر أبناء جنكيزخان لمطاردة بعض القبائل المغولية والتركية المناوئة لهم إلى احتكاكهم بالمسلمين فى أقصى الشرق الإسلامى.

وكانت الدولة الخوارزمية قد بلغت أقصى اتساعها فى عهد السلطان علاء الدين محمد بن تكش (٥٩٦:٦١٧هـ) حين نجحت فى إخـضاع معظم القوى الإسلاميـة فى شرقى بلاد المسلمين وعلى رأسها السلاجقة فى إيران والغوريون فى بلاد الغور وما حولها جنوباً حتى حدود الهند، بل إن هذا السلطان الكبـيـر قد عـبـر عن عظم نفـوذه عندما رفض دفـع الجزية التى كـان يفـرضهـا القراخطاى على بلاده خوارزم، والتى كان يؤديهـا أبوه تكش وجده آتسز من قبل مكرهين، بل إنه حاربهم وقلَّص نفوذهم على بلاد ما وراء النهر إلى درجة كبيرة.

وقد وقع الاحتكاك الأول بين المغـول والخوارزميين عند حـدود نهر ايرتيش على الحدود الغربية لمنغوليا، حيث اكتشف الخوارزميـون بأنفسهم وبرغم تفوقهم العددى مدى شدة بأس المغول وبراعتـهم فى فنون الهجوم المبـاغت والانسحاب المنـظم وإيقاع الرعب فى نفوس الخـصوم وعلى رأسهم السلطان علاء الدين الخوارزمى نفسه.

ولم تكشف السـفارات المتـبادلة بين جنـكيزخـان والسلطان الخوارزمى عن نتـائج عملـية، وسرعان ما وقع الصدام الـعسكرى بين الطرفين بعد حادثة مدينة أترار الشهيـرة، فانتهى الأمر إلى هزيمة الخوارزميين وضياع دولتـهم ووفاة سلطانهم الهارب إلى جزيرة أبسكون فى بحر قزوين سنة ٦١٧هـ كمـدًا وحزنًا بعد أن وقعت أمـه تركان خاتون وبعض زوجاته فى مـذلة الأسر على أيدى المغول.

ولم يستطع السلطان الخوارزمى الأخير جـلال الدين منكبرتى(٦٢٨:٦١٧)هـ رغم شجاعته الفائقة التى أذهلت المغول أنفسهم الصمود طويلا فى مواجهتهم فقد انتهت حياته فى جبال الأكراد صريعًا على يد أحد هؤلاء الأكراد الموتورين فى شوال سنة ٦٢٨هـ.



وفى الحقيقة لم يكن الخوارزميون هم وحدهم أصحاب المسئولية الكبرى فى هزيمة المسلمين أمام المغول، فالخلافة العباسية فى عهد الخليفة الناصر لدين الله(ت/ ٦٢٢هـ) تتحمل النصيب الأكبر فى ذلك، واتهام الخليفة الناصر لدين الله بالاتصال بجنكيزخان وتحريضه لا يزال قائمًا رغم محاولات بعض المؤرخين نفى ذلك أو تبريره، وعجز الخليفة الظاهر (ت/ ٦٢٣هـ) رغم قصر مدته- والخليفة المستنصر(ت/ ٦٤٠هـ) رغم محاولاته العسكرية والسلمية واضح جلى، وتخاذل الخليفة المستعصم بالله وضعفه واستسلامه أشد وقعا مما ارتكبه الخوارزميون وغيرهم من أخطاء عسكرية أو سياسية

ويشترك فى هذه المسئولية أيضا طائفة الإسماعيلية فى إيران الذين كانوا يقيمون فى قلاع منيعة فى آلموت -لمبسر- رودبار- قهستان، حين بادر رئيسهم جلال الدين الحسن الثالث(٦٠٨ : ٦١٧هـ) إلى تقديم فروض الولاء والطاعة لجنكيزخان بمجرد اشتباكه مع الخوارزميين سنة ٦١٦هـ ثم تقديم العون للمغول بإعطائهم معلومات دقيقة عن الحالة العسكرية لجيش السلطان جلال الدين منكبرتى حتى نجحوا فى هزيمته سنة٦٢٨هـ وعلى الرغم من ذلك فقد اقتضت الاستراتيجية العسكرية المغولية ضرورة إزالة قلاع الإسماعيلية الذين أدركوا ذلك بعد فوات الأوان، وبعد فشلهم فى إقناع ملوك غربى أوروبا والبابوية فى روما سنة ٦٣٦هـ بالتحالف معهم ضد المغول، وانتهى الأمر إلى سقوط هذه القلاع الحصينة فى أيدى المغول بقيادة هولاكو سنة٦٥٤هـ.

وكانت السياسة العامة للشيعة الإثنى عشرية أو الزيدية فى إيران تقتضى عدم الدخول فى مواجهات عسكرية ضد المغول على الرغم من تعرض مراكز هؤلاء الشيعة فى قم وآوه وقاشان وسيزاور وطوس وطبرستان للهجوم المغولى المدمر وبخاصة فى اندفاعة الغزو الأولى فى عهد جنكيزخان (ت/ ٦٢٤هـ).

وجاء سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ حدثا مروعا هزَّ نفوس المسلمين وإن لم يكن ذلك أمرا مفاجئا، فالتهديد المغولى المبكر للمدينة العريقة بدأ منذ عهد الخليفة الناصر واستمر فى عهد خلفائه حتى إنها تعرضت مرات عديدة للهجوم فى عهد المستنصر بالله وحده.

ولقد حاول الخليفة العباسى الأخير المستعصم بالله أن يعالج الأمر بطريقة مختلفة فأرسل سفارة من لدنه إلى قراقورم عاصمة المغول لتشارك فى حفل تتويج الخاقان الأعظم كيوك(٦٤٤ : ٦٤٦هـ) غير أنها تعرضت للإهانة والسب تماما مثلما حدث لسفير طائفة الإسماعيلية الذى كان قد حضر إلى هناك لنفس الغرض.

ولم يستطع هذا الخليفة العاجز رأب الصدع داخل إدارة دولته، أو وقف الصراع الذى شب بين ابنه الأمير أبى بكر وقائد جيوشه الدوادار الصغير، وأستاذ دار الخلافة ابن الجوزى من ناحية والوزير الشيعى ابن العلقمى وأنصاره من ناحية أخرى.



ولم يحسن الخليفة إعداد جنده أو حتى التفاوض مع عدوه هولاكو حتى آل الأمر إلى محاصرة بغداد ثم استسلامه وقتله على يد المغول فى ١٤ صفر سنة٦٥٦هـ وبالتالى سقوط الخلافة العباسية وانتهاء أمرها فى بغداد.

ولم يكن هذا السقوط هو نهاية المطاف فقد قام هولاكو بتنظيم إدارة بغداد وجعل على رأسها ابن العلقمى الوزير وأنصاره، وأصبحت بذلك مجرد جزء ضئيل من إيلخانية المغول فى إيران، بعد أن كانت العاصمة الأولى للمسلمين فى المشرق الإسلامى كله.

وأخيراً- فقد اخترتُ- وفقا للمساحة المسموح بها للنشر أن أتحدث عن هذا الموضوع المهم، من خلال ثلاثة فصول فقط تبدأ من تاريخ المغول فى عهد جنكيزخان وتنتهى بسقوط بغداد على أيدى المغول سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م وهذه الفصول على النحو التالى:

١- المجتمع المغولى

٢- القوى الإسلامية فى مواجهة المغول

٣- سقوط بغداد فى أيدى المغول

وقد تتاح فرصة أخرى للحديث عن المغول بعد سقوط بغداد ومدى علاقتهم بالمسلمين فى الشرق الإسلامى.

وجدير بالذكر أن ضيق مساحة النشر قد حال دون كتابة أسماء المصادر والمراجع جميعا فى هوامش الصفحات، وأوجب أيضا الاكتفاء بذكر أهم هذه المصادر والمراجع فى نهاية الكتاب.

والله أسأل أن ينال هذا العمل رضاه، ورضا القارئ الكريم

المؤلف

٦

الفصل الأول
المجتمع المغولي

السلالة المغولية:

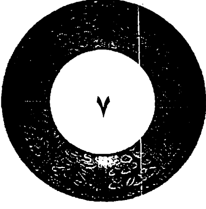
يقسم علماء الأجناس البشرية السلالات الإنسانية الرئيسية إلى عناصر ثلاثة أساسية: المغولى والقوقازى والزنجى، وبديهى أن كل عنصر أساسى من هؤلاء ينقسم إلى مجموعات فرعية قد تختلف فيما بينها فى بعض الخصائص لكنها تظل محتفظة بالخصائص العامة المشتركة للعنصر الأساسى الذى يميزها عن العنصرين الآخرين، ويقصد بالعنصر المغولى السلالة الصفراء التى تنتشر فى هضبة منغوليا والصين وكوريا واليابان أى فى جنوبى شرق قارة آسيا بعامة.

والمغول - موضوع البحث - كانوا فى الأصل يعيشون فى الهضبة الآسيوية التى تعرف بهضبة منغوليا التى كانت تمتد فى أواسط آسيا ما بين جنوبى سيبريا وشمالى التبت وبين غربى منشوريا وشرقى تركستان مكونة حاجزا منيعا بين الأقاليم الحارة فى الصين وبين الأراضى الباردة فى سيبيريا، وبهذا التحديد يمكن القول إن حياة المغول تدخل ضمن إطار منطقة الاستبس.

والسمة المناخية الغالبة على هضبة منغوليا هى القارية، فالمناخ هناك شديد القسوة يندر وجود نظير له فى منطقة أخرى فى قارة آسيا، فهو يبلغ النهايات العظمى فى درجات الحرارة أو البرودة وفى جفافه الشديد وكذلك فى قوة الرياح العاصفة، وقد انعكس أثر البيئة القاسية على حياة المغول وتكوينهم الجسمى والنفسى، فالمغولى يتصف بتكوين جسمى خاص يميزه عن غيره من الأجناس الأخرى، فهو يتصف بالقامة القصيرة أو المتوسطة والرأس العريضة والجبهة المرتفعة، وكان للسحنة المغولية سمات خاصة أيضا فالوجه عريض والبشرة صفراء سميكة والأنف أفطس غائر فى الوجه وعظام الوجنات ناتئة، وكذلك فالعين المغولية منحرفة ذات جفن ثقيل، وقد تميز المغول بالشفاة الغليظة والذقون الجرداء كما كانت شعورهم خشنة مسترسلة وسيقانهم قصيرة معوجة وأجسامهم ممتلئة ككتل.

وكان هولاكو خان- حفيد جنكيزخان - صورة صادقة لهذه السمات فقد وصفه الصارم أزبك مملوك الأشرف موسى الأيوبى صاحب حمص، وكان هولاكو قد استدعاه إليه، قال: «رأيت ملكا جليلا ذا هيبة عظيمة وصفته أنه قصير القامة ليس له عنق يظهر، ورأسه كدماغ البغل على كتفيه، وجفون عينيه على رءوس خديه، كأن وجهه ترس، النار تشعل من عينيه.

وفى الجانب النفسى كان المغول - من جراء الطبيعة القاسية - مقاتلين بالفطرة، فقد أجادوا فنون القتال وبرعوا فيه لدرجة جعلت بعض المؤرخين لا يكاد يرى مزية لهم إلا فى نظم حياتهم العسكرية.



ومن خلال هذه الطبيعة العسكرية اتسم المغول بصفات نفسية عدة منها، الطاعة المطلقة فقد كان المغول أطوع الناس إلى ساداتهم وقوادهم، فهم يبجلونهم ويوقرونهم ولا يخونونهم فى القول أو العمل.

وكان المغول فى المقابل يتمتعون بروح الإقدام والمخاطرة، فقد خاضوا معارك ضارية فى الصين وتركستان وإيران والقوقاز وشرقى أوروبا والعراق والشام، وهى بيئات متنوعة التضاريس والمناخ والسكان ولكنهم رغم ذلك حققوا انتصارات حاسمة معتمدين على روح الإقدام والمخاطرة التى كانت انعكاسا واضحا لقسوة البيئة التى نشأوا فيها.



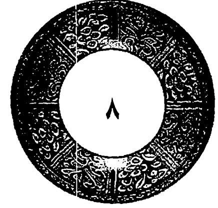
فارس مغولى أثناء المعركة (كان يشرب من دماء فرسه)

ومن الصفات النفسية التى تحلى بها المغول أيضا الصبر، فقد كان المغولى - رغم قوة شهيته - يصبر فى الحرب على ألم الجوع عشرة أيام مكتفيا بما يتناوله من الكومس أى اللبن الحامض الذى يحمله فى قربته، ولم يقتصر صبر المغول على تحملهم ألم الجوع بل إنهم كانوا يتحملون البرد الشديد والحر اللافح بعزيمة قوية.

كذلك كان المغولى - كما يقول الدكتور **جمال حمدان** - كريما فالكرم عنده أحد سنن الاستبس الرعوى الذى نشأ فيه بل هو من وسائل التساند والتعاون لمواجهة البيئة الفقيرة الترحلية.

ومن البيئة الرعوية الفسيحة أيضا استمد المغولى صراحته، إذ كان صريحا فى الحق جريئا فى إبداء رأيه لا يتردد ولا يلين وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة فيه بما فرضه عليه من العادات الموروثة.

وبالإضافة إلى الصفات السابقة كانت هناك سمة أخرى اتضحت تماما عند احتكاك المغول بالشعوب الأخرى، فقد تمسك المغول بالعنصرية والاستعلاء إذ كانوا يعتقدون فى أنفسهم التميز على سائر الأجناس الأخرى، وربما قوى ذلك لديهم توالى انتصاراتهم وتسابق كثير من غير المغول إلى خدمتهم. ويبدو أن هذا كان وراء إعلان جنكيزخان« أن المغول شعب الله المختار وأن لهم جميع خيرات الأرض أينما وجدوها، وأما سائر الشعوب والقبائل فقد خلقوا لكى يكونوا عبيدا لهم وخدما».



وقد لاحظ الرحالة الأوربى القس وليم رويرك الذى كان سفيراً من قبل الملك لويس التاسع الفرنسى إلى المغول فى سنة ٦٤٨هـ أن حراسه من المغول كانوا قوما متكبرين يعتقدون أنهم أرفع شأنا من الآخرين إذ لم يرضوا بالسير فى حراسته طويلا.

أصل المغول:

اتضح منذ قليل أن المغول عنصر متميز مستقل يطلق عليه السلالة الصفراء وهو يختلف فى التركيبة الجسمية عن العنصرين الأخيرين الزنجى والقوقازى.

ويؤكد أحد الجغرافيين الذين عالجوا قضية نشأة الأجناس البشرية على «أن العنصر المغولى كانت له نشأة خاصة فى أواسط آسيا». مما قد يدفع إلى القول بأن المغول ليسوا أتراكا، كما أن العكس صحيح أيضا أى أن الأتراك ليسوا من المغول.



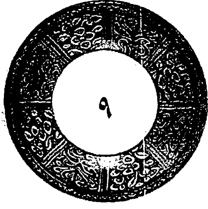
المتوكل على الله (من نقش على عُملة)

وقد ذهب بعض المؤرخين الإسلاميين إلى القول بأن المغول من الأتراك، وربما أمكن ردّ ذلك إلى وجهة نظر خاصة لديهم فى أهل الشرق إذ كانوا يرون أن كل من ليس عربيا أو فارسيا أو صينيا فهو من الترك وبخاصة أن الأتراك قد ظهروا كعنصر مسيطر منذ قتلهم الخليفة العباسى المتوكل على الله سنة ٢٤٧هـ - سنة ٩٨٥م وحتى سقوط بغداد فى أيدى المغول سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م.

وقد تبع هؤلاء المؤرخين الإسلاميين مؤرخون محدثون قالوا بهذا الرأى أيضا، وأعتقد أنهم فى الغالب قد تأثروا برأى **ابن الأثير** (ت/ ٦٣٠هـ) خاصة، أو برأى من نقلوا عنه من المؤرخين التاليين له.

وقد تنبه بعض المؤرخين إلى وجود التشابه بين المغول والأتراك وأن هذا التشابه لا يعنى وحدة الأصل. يقول مؤرخ المغول الشهير **رشيد الدين فضل الله الهمذانى** (ت/ ٧١٨هـ): «أما جنكيزخان وأولاده وأقاربه وأنسابه الذين هم المغول الصرف فقد كانوا يشبهون كثيرا من الأتراك الذين ليسوا من المغول».

وكذلك أشار **السيوطى** (ت/ ٩١١هـ) أيضا إلى التشابه بين الأتراك والمغول فهو يذكر أن المغول بالنسبة إلى الأتراك عراض الوجوه واسعو الصدر، خفاف الأعجاز، صغار الأطراف، سمر الألوان، سريعو الحركة فى الجسم والرأى.



وعلى هذا يمكن التقرير أن المغول ينتمون إلى العنصر الأصفر ومكانهم الأصلى منغوليا التى أعطتهم اسمها على ما يبدو. أما الأتراك الذين خرجوا فى القرن الثالث عشر فى ركاب المغول تحت قيادة جنكيزخان (ت/ ٦٢٤هـ) فليسوا من المغول من ناحية السلالة وإن اتصلوا بهم بحكم الجوار وأخذوا عنهم بعضًا من عاداتهم.

وإذا وضعنا فى الاعتبار آراء بعض المؤرخين الأوروبيين وجدنا أنها تؤكد على أن المغول ليسوا أتراكًا وإن كانوا يشبهونهم. يقول **سيديو**: «والمغول أوجدوا عند ظهورهم هولاً وفزعًا لا فى العرب وحدهم بل أيضا فى الترك» ويقول **شبولر**: «فلقد كانت هذه المنطقة - يقصد منغوليا - مقرا لسكن أمتين مختلفتين تعيشان جنبا إلى جنب وتجمعهما خصائص مشتركة كثيرة ولكن تفرقهما اللغة، وهاتان الأمتان هما الأتراك والمغول». ويقول **فامبرى**: «وفى صحراء جوبى - يقصد جنوبى منغوليا - كان المغول وهم شعب يشبه الترك إلى حد ما فى اللغة والسحنة». ويقول **لوبون**: «ولا تزال تجد شبها بين التركمان والمغول، ومثل هذا الشبه كان موجودا ولا ريب فى غابر القرون بين الأتراك الخلص والمغول».

ومن الملاحظ بالإضافة إلى ما سبق أن بعض المؤرخين المحدثين يستخدم مصطلح القبائل التركية المغولية على أنهما شيء واحد دون فصل بين العنصرين، وليس هذا صحيحا كما سبق الإيضاح.

والرأى الذى أميل إليه هو أن التجاور المكانى بين المغول الذين نشأوا فى هضبة منغوليا والترك الذين نشأوا فى منطقة تركستان المجاورة لها والتى تشمل غالبية آسيا الوسطى. وما ترتب على ذلك من الاتصال الذى حدث بين الطرفين لأنهما معا من أهل البداوة الذين تقوم حياتهم على السعى وراء الماء والمرعى والحرب لتعويض حالة الجفاف والفقر فى البيئة المجدبة، قد أدى إلى وجود نوع من التقارب بين الشعبين المغولى والتركى اتضح فى مظاهر عدة منها: التقاليد البدوية المشتركة والتماثل فى بعض مفردات اللغة والتوافق فى الكثير من المعتقدات الدينية، غير أن ذلك كله لا يثبت وحدة الأصل المشترك بين المغول والأتراك.

وتؤكد هذه الحقيقة أمور عدة منها:

- اختلاف الصفات الجسمية عند المغول وبخاصة قصر القامة والعين المائلة وملامح الوجه. . . . . إلخ عنها عند الأتراك.

- المواقف التاريخية للمغول مع الأتراك منذ ظهور جنكيزخان، فعدد القتلى الذين سفك المغول دماءهم من الخوارزميين والقبجاق والتركمان لا يقل إن لم يزد على عدد القتلى من الشعوب الأخرى كالصينيين والفرس والعرب. . . إلخ.

- الرسائل التى بعث بهـا جنكيزخان إلى السلطان التـركى الخوارزمى علاء الدين خوارزم شاه (ت/٦١٧هـ) أو إلى أمـه تركان خاتون لم تشر أبدا إلى أى أصل مشترك بين المغول والترك.

القبائل المغولية:

نشأ المغول -كما سبق القول- فى هضبة منغوليا وجابوا أرجاءها سعيا وراء المرعى والماء واحـتكوا بالترك النازليـن على أطرافهـا من ناحيـة الغرب أو الجنوب الغـربى، ونشأت بينهما علاقات متباينة كانت تأخذ شكل التحالف أحيانا وشكل العداء أحيانا أخرى إلا أن كلا العنصرين ظل متحفظا باستقـلاله عن العنصر الآخر بدافع الطبيعة البدوية التى تميل دائما إلى إظهار روح العنصـرية والاستعلاء والتمـسك بعراقة الأصل والأنساب، ومـا يترتب على ذلك من إبراز السطوة والسيطرة. . . إلخ.

ويمكن الإشـارة إلى أهم القبـائل المغوليـة أبان ظهور جنكيـزخان وتلك نفـسهـا هى التى اشتركت معا فى حركة الغزو خارج منغوليا.

حياة البداوة المغولية



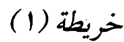
١١



أ. قيات.

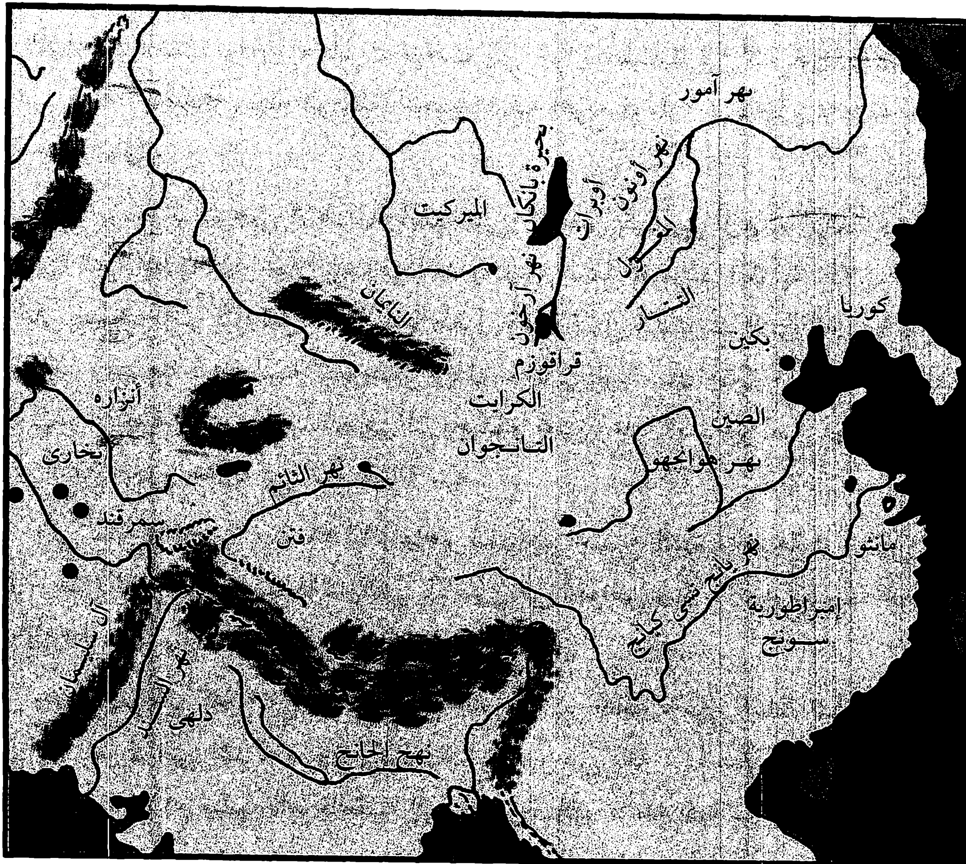
موقعها على الضفة اليمنى لنهر (أونون) أى أنها تقع فى الأراضى الروسية الآن، وتعتبر (قيات) أكثر القبائل المغولية عددا وأصالة ولها حق التقدمة عليها إذ إليها يعود نسب آباء جنكيزخان وأجداده، وكان بيسوكاى بهادر والد جنكيزخان زعيما لهذه القبيلة وكان ذا كفاءة عالية وخبرة بشئون السياسة، ومن ثمة فقد أجبر الصينيين على احترامه برفضه أداء الجزية لهم

جنكيزخان



خريطة (١)

خريطة لمقر القبائل المغولية فى منغوليا قبل جنكيزخان





ومقاومته للحملات التى أرسلت ضده من أجل هذا الغرض، كما أجرى تحالفا مع زعيم قبيلة الكرايت فى الغرب حيث عاونه على استرداد عرشه، وقد أفاد جنكيزخان فيما بعد من هذا التحالف، كذلك استطاع بيسوكاى أن يقلم أظافر التتار حين صرع زعيمهم تيموجين TEMUCHIN وكان ذلك فى نفس الوقت الذى ولد فيه ابنه جنكيزخان فأطلق عليه اسم «تيموجين» تخليدا لهذا الانتصار وتم ذلك على الأرجح فى حدود سنة ٥٤٩هـ / سنة ١١٥٥م.

وقد ظل بيسوكاى بهادر محافظا على مكانته فى قبيلة قيات وبين جيرانه الأقوياء من الصينيين والتتار حتى توفى فى سنة ٦٦٢هـ / سنة ١١٦٦م مسموما على أيدى أعدائه من التتار الذين كانوا قد دعوه إلى وليمة فاخرة فى إحدى مضاربهم، وقد ساءت أحوال أرملة بيسوكاى وأطفاله بعد وفاته إذ لم تلبث أحقاد خصومه أن انطلقت بسبب ما كان قد أحرزه من انتصارات، وكان من أشد هؤلاء عداوة وضراوة جماعة (التايجوت) التى أنكرت على تيموجين حق الزعامة.

وسرعان ما انفض عن تموجين بن بيسوكاى أكثر أقاربه وأتباع أبيه، وهكذا بقى وحيدا مع أمه وإخوته، فاضطروا إلى العيش على صيد الحيوان والأسماك، وفى الحقيقة لعبت أمه (ألون أيكى) ELUN EKE دورا مهما فى إنقاذه من ورطته فبعد أن حاولت كثيرا دون جدوى أن تجمع كلمة القبيلة حوله بعد وفاة أبيه بادرت فوقفت إلى جواره بنفسها فى أثناء فترة طرده، فتزوجت من زعيم قبيلة (ايجيكه) وبهذه الوسيلة التحقت قبيلته (قونغ قومار) بتيموجين مما ساعده كثيرا فى التفوق على مناوئيه.

وكان بوسع تيموجين الاعتماد أيضا على حليفين كبيرين **أولهما** والد زوجته الأولى (بورتارى) التى خطبها أبان حياة أبيه وهو أحد زعماء طائفة القنقرات المغولية وكانت هذه الطائفة تنزل على ضفاف نهر كيرولين. **وثانيهما** طغرل زعيم قبائل الكرايت الذى كان والده بيسوكاى حليفا له. ومن هنا توجه إليه تيموجين وبذل له يمين الولاء بأن يكون من أتباعه، ولما ارتاح طغرل لهذه التبعية وعده بأن يسانده فى أن يجتمع تحت زعامة تيموجين من جديد سائر رجال عشيرته الذين هجروا منازله فى أثناء حداثة سنه.

وفى سنة ٥٨٤هـ / سنة ١١٨٨م هاجم تيموجين جموع القبائل التايجوت - التى كانت قد طردته - فأنزل بهم هزيمة ساحقة، وألقى بالأسرى فى أحواض امتلأت بمياه شديدة الحرارة فافتتح بذلك إثارة الخوف والرعب فى نفوس الخصوم من ناحيته.

ونجح تيموجين أخيرا فى التخلص من جاموغا أكبر منافسيه على زعامة قبيلته (قيات)، فقد دارت أول المعارك التى اشترك فيها جاموغا ضد تيموجين سنة ٦٠١هـ/ سنة ١٢٠٤م، وفى سنة ٦٠٢هـ/ سنة ١٢٠٥م سلم جاموغا نفسه إلى جنكيزخان، فأعدم كما تروى مصادر المغول. وفى



سنة ٦٠٣هـ / سنة ١٢٠٦م أُعلن جنكيز خاقانًا أعظم على كافة القبائل المغولية والتركية المجاورة لها فأعلى من شأن قبيلته (قيات) ووضعها فى مكانة أرفع من الجميع.

وقد ظلت مكانة قبيلة (قيات) عالية فى نفوس المغول بعد وفاة جنكيزخان (ت/ ٦٢٤هـ) بفترة طويلة، ففى عهد غاران خان ٦٩٤هـ:٧٠٣ هـ / ١٢٩٤م: ١٣٠٣م كان (نورين آقا) وهو من قبيلة (قيات) ذا مكانة مرموقة فى البلاط كما كانت لديه سلطة كبيرة فى خراسان ومازندران، مما دفع الأمير نوروز بن أرغون أقا وهو من قبيلة (أويرات) إلى أن يحاول مقاومة نفوذه. وأدى تفاقم الخلاف بين الرجلين إلى الحط من شأن (نوروز) وإضعاف منزلته عند غازان رغم أنه صاحب الفضل فى إسلامه بل وفى جلوسه على عرش الإيلخانية المغولية فى إيران والعراق.

ب- التتار:

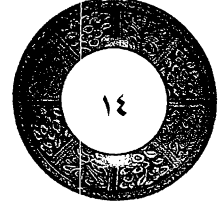
من أشهر شعوب البدو الرحل فى آسيا الوسطى، وهم فى الأصل فرع من المغول أى ليسوا من الشعوب التركية. وقد التبس الأمر على بعض المؤرخين المحدثين فى تفسير العلاقة بين المغول والتتار وأيهما الأصل ؟ وأيهما الفرع؟

ويرجع ذلك إلى ذيوع شهرة التتار منذ زمن بعيد حين اضطر الصينيون إلى بناء سور الصين العظيم كى يصد عنهم غارات هؤلاء التتار، هذا بالإضافة إلى وقوع منازل التتار على طريق التجارة الرئيسى بين الصين وبلاد المسلمين فى الغرب. الأمر الذى أكسبهم شهرة أكثر من مغول جنكيزخان، وجعل المؤرخين المسلمين يطلقون اسم التتار - حتى بعد زوال قوتهم - على المغول فى عهد جنكيزخان وبعده فى بعض بلاد أواسط آسيا وإيران وفى سوريا ومصر.

وتقع منازل قبائل التتار شرقى منازل قبيلة جنكيزخان (قيات) فى المنطقة التى تحد شمالا بنهر أونون، وجنوبا بإقليم التبت ومملكة التانجوت، وشرقا بالصين الشمالية.

وقد ذكر الصينيون ثلاثة أنواع من التتار: التتار البيض وكان الصينيون يجاورونهم جنوبا، فى شمالهم. التتار السود (السمر). وفى الشمال من هؤلاء عاش التتار المتوحشون الذين كان المغول يسمونهم (شعوب الغابة). وكان التتار البيض والسود بدوًا، أما المتوحشون فكانوا يعيشون على الصيد فى الغابات.

وقد عمل أباطرة الصين دائما على اتباع سياسة التفريق بين القبائل البدوية خارج سور الصين، ولهذا عمدوا إلى إجراء التحالف مع مغول (قيات) التى ينتمى إليها جنكيزخان وقبيلة الكرايت ضد التتار حتى يشغلوهم جميعا عن الإغارة على الأراضى الصينية، وأسفر ذلك عن نشوب معارك عديدة اشترك فيها بيسوكاى بهادر والد جنكيزخان، فصرع أحد زعماء التتار وكان يدعى (تيموجين) فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٥م ثم توفى هو نفسه مسموما على أيدى التتار سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م كما سبق القول.





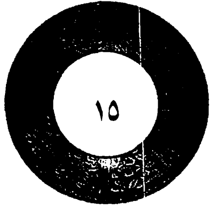
سور الصين العظيم

وقد أدت ظروف الانقسام التى عاشها المغول بعد وفاة بيسوكاى إلى سيطرة التتار على شرقى صحراء جوبى بعد أن كانت فى حوزة المغول، وأضحى التتار يشكلون من جديد خطرا على إمبراطورية الصين، وعاد الصينيون إلى فكرة التحالف مع المغول والكرايت، وفى سنة ٥٩١هـ / ١٢٩٤ م تقرر مصير الحرب لصالح الحلفاء وعلى سبيل المكافأة حصل ملك الكرايت على لقب WANG وحاز تيموجين لقبا من ألقاب التشريف.

وفى الجانب الآخر بادر التتار إلى الانضمام إلى كل تحالف عقدته القبائل المناهضة لتيموجين سواء أكان ذلك فى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠ م أو سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١ م وقد كان مسلكهم هذا يتفق مع مسلكهم مع أبيه وجده من قبله، إذ كانت تزكيه روح الكراهية المتأصلة المتبادلة بين الطرفين، وعلى هذا هاجم (تيموجين) سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢ م التتار وهزم قبيلتين من قبائلهم.

ثم هيأت الظروف لتيموجين الفرصة للانتقام من التتار، إذ لما أرسلت إمبراطورية الصين جيشا لمعاقبة هؤلاء التتار انتهز تيموجين الفرصة، وعندما تقهقر جيش التتار أمام جيش الصينيين الذى كان معظم جنوده مشاة يصعب عليهم اللحاق بفرسان التتار انقض جنكيزخان وحلفاؤه من الكرايت عليهم من الخلف وحطموا قوتهم فاضطروا إلى الاستسلام لتيموجين.

وأمر جنكيزخان المغول أن يقتلوا التتار كافة وألا يبقوا منهم أحدًا على قيد الحياة حتى إن المغول كانوا يقتلون النساء والصبيان من التتار ويشقون أجواف النساء الحوامل ليستأصلوا بالمرة



وتنقطع مادة فسادهم؛ لأنهم كانوا أصل الشر وسبب الفتنة؛ لأنهم قتلوا من أقارب جنكيزخان وأقوامه خلقا كثيرًا، وهكذا لم يبق من التتار سوى عدد يسير لا يؤبه له.

وأغلب الظن أن جنكيزخان عمد إلى القضاء التام على التتار بدافع سياسى أكبر من مجرد الانتقام لما فعلوه بآبائه وأجداده ذلك هو تأمين مؤخرة جيوشه إذا ما فكر فى الاتجاه شرقا نحو الصين أو الاتجاه غربا تجاه بلاد القراخطاى ثم الخوارزميين، وعلى الرغم من ذلك كله فقد أقبل كثير من المغول على الزواج من بنات التتار وكان النسل الجديد يضم فيما بعد كبار قواد المغول وزعمائهم.

جـ- المركيت Markit.

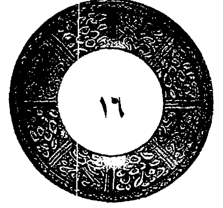
ويعدون أصلا من المغول، وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمالى بلاد الكرايت على مجرى نهر سيلنجا Selenga وجنوبى بحيرة بيكال، وكانت منازل المركيت تتصل بمنازل مغول جنكيزخان من ناحية الجنوب الشرقى على حين كانت تقع منازل المغول الأويرات فى الشمال من منازل المركيت

وقد احترف المركيت مهنة الصيد فى الغابات المحيطة بهم؛ ولذلك كانوا يستخدمون الوعول فى جر الزحافات فوق الطرق الجليدية، وجدير بالذكر أن المركيت - وهم صيادون - كانوا ينظرون إلى البدو الرحل نظرة ازدراء تماما كما كان البدو الرحل ينظرون إلى أهل الزراعة بنفس المفهوم

وكانت علاقة المركيت بمغول جنكيزخان علاقة عدائية، فقد أغار بيسوكاى بهادر - رئيس قبيلة قيات المغولية -عليهم واختطف من بين ظهرانيهم إحدى نسائهم وتدعى (أولون إيكى) وتزوجها، ومع أنها كيفت حياتها وأصبحت أما لتيموجين إلا أنها كانت على يقين بأن قبيلتها لا بد أن تهب لأخذ الثأر مهما طال الزمن.

وظل المركيت يترقبون الفرصة أكثر من سبعة عشر عاما حتى إذا ما شرع تيموجين بن بيسوكاى فى الزواج من ابنة أحد رؤساء طائفة القنقرات بادروا إلى اختطاف زوجته وسلموها إلى واحد من محاربيهم انتقاما من أسرة تيموجين الذى فر أمام الهجوم الجرىء، وبعد فتره قصيرة من الوقت استطاع تيموجين بمعاونة زعيم الكرايت أن يسترد زوجته مرة ثانية ولكن لم يكن من السهل أن ينسى كلاهما أسر المركيت لها.

وحاول رشيد الدين مؤرخ المغول الشهير أن يضع هذا الحادث فى صورة رومانسية رقيقة مراعاة لجنكيزخان وحفيده غازان [٦٩٤ هـ / ٧٠٣ هـ] الذى كان رشيد الدين يعيش فى كنفه ويتولى له أمر الوزارة يقول: «ونقل أن قوم مركيت نهبوا بيوت جنكيزخان وأخذوا زوجته التى هى



أم جوجى وهى حامل فيه وسلموها إلى أونك خان زعيم الكرايت، والسبب فى ذلك أن قوم مركيت كانوا فى حالة صلح مع أونك خان وكان بين أونك خان وبين أبى جنكيزخان صحبة وصداقة قديمة فلم يتعرض لخاتون جنكيزخان وأحسن فى وجهها إحسانا تاما، وأشار الأمراء عليه بأنه ينبغى أن يختصها لنفسه، فقال: هذه كابنتى، فلما سمع جنكيزخان الخبر أرسل إلى أونك خان فى طلب تلك الخاتون، فاحترم مبعوثه وسلم إليه الخاتون وفى الطريق ولدت جوجى».

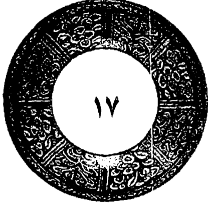
ولا يستطيع المرء أن يقتنع بسهولة بمسألة تسليم المركيت الخاتون إلى أونك خان وخصوصا أن هجوم المركيت كان أخذا بثأر قديم، كما أن عبارة أمراء أونك خان تناقض الصداقة مع بيسوكاى (والد جنكيزخان) وموقف أونك خان نفسه يبدو مناقضا لما تعود عليه البدو فى مثل هذه المواقف

ولا يعدو أن يكون الأمر كله من قبيل المجاملة أو حفظ النعمة من قبل رشيد الدين المؤرخ، يؤكد ذلك الشكوك التى دارت حول صحة نسب جوجى الابن الأكبر إلى والده جنكيزخان، والحقيقة أن جنكيزخان استطاع أن ينال الدعم والتأييد من قبل أونك خان زعيم الكرايت فأغار هو على قبائل المركيت وتحقق له من خلال النصر استعادة زوجته مع بعض من الهيبة والنفوذ، ويبدو أن هذا حدث فعلا فى سنة٥٦٧ هـ / ١١٧١م لأن المدة التى استغرقتها زوجته فى الأسر لم تزد عن قرابة العام

ويتحدث رشيد الدين أيضا عن اختطاف المركيت لجغتاى ثانى أبناء جنكيزخان، ويحدد تاريخ الاختطاف فى أثناء إغارة جنكيزخان عليهم إلا أنه لم يحدد كيفية إعادته إلى أبيه غير أن ذلك يشير إلى مدى حدة الصراع بين الطرفين وإصرار كل منهما على معاداة الآخر.

ويبدو أن تيموجين قد انشغل بعد ذلك إلى حين عن المركيت فى مشاكله الداخلية وعلاقاته بجيرانه الآخرين كالتتار والكرايت، فلما تفرغ بعض الشىء اتجه شمالا نحو المركيت سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م وكانوا حينها يكونون أمة كبيرة يرأسها ملك يدعى (توقتابيكى) هزمه جنكيزخان وقهره ونهب منه أموالاً عظيمة إلا أنه وهب غنائم تلك المعركة إلى حليفه الكبير أونك خان زعيم الكرايت.

واضطر ملك المركيت أن يفر تاركا دياره عرضة للخطر الذى جاء هذه المرة من ناحية أونك خان نفسه فبينما كان جنكيزخان نازلا فى خيامه فإن أونك خان ركب مع عسكره وأغار على قوم مركيت وكانت زوجة (توقتاى بيكى) هى الحاكمة على أولئك القوم فأخذها أسيرة واختارها لنفسه وأرغم ابن توقتاى بيكى على الانقياد له فأطاع وأمر قومه أن يتابعوه.



ومكث جنكيزخان فترة من الوقت لا يفكر فى مهاجمة المركيت إلى أن عاد ملكهم إلى الظهور من جديد حيث رفض الخضوع وأعلن العصيان وقاد قبائل المركيت مهاجرا فى اتجاه الغرب، فنهض جنكيزخان فى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م متعقبا القبائل المركيتية فأخضعها بالقوة واحدة بعد أخرى ثم أصدر أمره بالقضاء عليهم جميعا فلم ينج منهم إلا بعض الهاربين أو من استطاعوا الاختفاء لدى أقاربهم، ثم تجمع المركيت والنايمان الفارِّين معا من وجه جنكيزخان الذى أدرك بخبرته مدى خطورة هذا الأمر ولهذا بادر إلى استقبال رسل ملك قبائل الأتراك الأويغور وقبل دخولهم تحت طاعته، فحقق من جراء ذلك هدفين **أولهما** تضييق الخناق على الفارين **وثانيهما** نقل تبعية الأويغور بعيدا عن نفوذ دولة القراخطاى فى تركستان وما حولها.

وفى سنة٦٠٥هـ/١٢٠٨م عاودت قواته الاتجاه إلى الشمال الغربى صوب تجمع المركيت والنايمان فألحق بهما هزيمة ساحقة هرب على أثرها (كوجلك) أمير النايمان إلى بلاد القراخطاى فى تركستان، أما أبناء (توقتابيكى) أمير المركيت الذى سقط فى المعركة فقد هربوا إلى (ايديقوت) ملك الأتراك الأويغور.

د- قبائل أويرات Oirat:

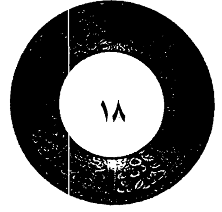
وهم من أصل مغولى، ويقيمون فى المنطقة الواقعة بين نهر نهراونن وبحيرة بيكال، وكان المركيت يجاورون الأويرات من ناحية الجنوب الشرقى، أما قبيلة جنكيزخان (قيات) فكانت تقع إلى الجنوب من الأويرات، وفى اتجاه الغرب كان الأويرات ينتقلون أحيانا على مقربة من المنطقة التى كان يعيش فيها الأتراك القرغيز عند منابع نهر ينسى.

ولغة هؤلاء الأويرات تشبه إلى حد كبير لغة مغول (قيات)، ومع أنهم خالفوا جنكيزخان فى البداية إلا أنهم أطاعوه آخر الأمر على وجه حسن، وزوَّج إليهم جنكيزخان وتزوج منهم.

ومكافأة لقبائل الأويرات على إظهار تبعيتها إبان خروج جنكيزخان من منغوليا للحرب، ومساندتها لتحركات جيوشه فقد أصدر فرمانا منه يقضى بمراعاة حقوقها.

ولعل أبرز دور لعبته الأويرات هو مساندتهم لجنكيزخان فى محاربة المركيت، والنايمان سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م، فقد دلوا عسكره بمهارة فائقة حتى إنهم أوقفوهم على حين غفلة على رأس (توقتابيكى) ملك المركيت و(كوجلك) ملك النايمان حتى أناخوا عليهما، ونهبوا بيوتهم وأغنامهم أيضا، وقُتل (توقتابيكى) فى تلك المعركة - كما سبق القول - وخرج كوجلك فارا إلى بلاد القراخطاى.

وتعتبر الأميرة أورغنة أشهر شخصية نسائية ظهرت فى قبيلة الأويرات، وكانت قد تزوجت من قرا هولاكو حفيد جغتاى بن جنكيزخان - وهو غير هولاكو بن تولوى ابن جنكيزخان الذى



أسقط قلاع الإسماعيلية سنة ٦٥٤هـ، وبغداد سنة ٦٥٦هـ - ولما مات زوجها قبضت على زمام الأمور فى خانية جغتاى (تركستان وبلاد ما وراء النهر) وتمكنت من قتل (بيسو منكو) غريم زوجها المتوفى.

واستمرت أورغنة تحكم هناك مدة تزيد على سبع سنوات، وكانت قد تمكنت خلال ذلك من تربية ابنها الأمير مبارك تربية صالحة، فنشأ على الإسلام منذ طفولته، وأصبح أول حاكم مغولى مسلم يحكم فى منطقة تركستان وبلاد ما وراء النهر.

هـ - التانجوت.

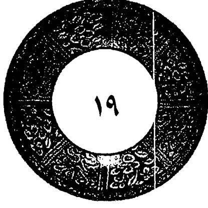
وهم من المغول أصلا، وكانوا يقطنون جنوبى هضبة منغوليا المتاخمة للصين على امتداد الروافد العليا للنهر الأصفر أى أنهم كانوا يقيمون فى جنوبى منازل قبيلة جنكيزخان (قيات)، وإلى الشرق منهم كانت تقع منازل التتار وسور الصين العظيم، أما فى الغرب فقد كانت تجاورهم قبائل الأويغور.



جنود المغول وهم يقتحمون سور الصين العظيم

أما التركيبة السكانية لبلاد التانجوت فقد كانت تتمثل فى أغلبية مغولية وثنية من عباد الأصنام بالإضافة إلى بعض الترك مع قليل من النساطرة ومن المسلمين، وكان للمغول الوثنيين منهم لغة خاصة تختلف فى النطق عن لغة الآخرين.

ولم تكن هناك علاقة ظاهرة بين التانجوت وجنكيزخان إذ كانت تبعيتهم فى الغالب لأباطرة الصين المجاورين لهم أو التتار إبان انتشار سطوتهم. غير أن جنكيزخان هاجمهم فى سنة ٥٩٠هـ/ ١١٣٩ م وقبض على جماعة منهم فرماهم فى الماء المغلى أحياء فقتلهم بهذه الطريقة البشعة ثم تقدم إلى مواطنهم فاستولى عليها وانتهب ما فيها من أموال واتخذ أبناء الرؤساء



منهم أسرى والباقين ألحقهم بقبيلته. ولم يتوقف جنكيزخان عند ذلك فقد انطلق سنة ٦٠٢هـ / سنة ١٢٠٥ على رأس حملة أخرى لمهاجمة إقليم التانجوت وعاد من هناك محملاً بالغنائم.

ولم يكن أباطرة الصين ليرضوا عن هذا الوضع الذى كشف عن مدى خطورة جنكيزخان وتهديده لحدودهم وأضحى التانجوت أنفسهم فى موقف حرج بين الطرفين، إلى أن نهض جنكيزخان سنة٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م فاستولى على بلاد التانجوت بعد أن كان إمبراطور كين (الصين الشمالية) قد أخضعها من آن قريب فألقت بنفسها فى أحضان الفاتح الجديد.

ولما كان جنكيزخان يدرك مدى أهمية الموقع الجغرافى لبلاد التانجوت وخصوصا عند الصينيين فإنه عاود الخروج إليها سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م، فبادر ملك التانجوت إلى إعلان الخضوع وأعطى ابنته لتكون زوجة لجنكيزخان الذى رجع مظفرا منصورا إلى مضاربه.

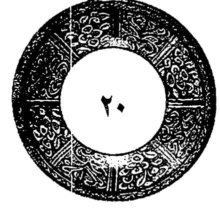
وهكذا أدرك التانجوت مدى إصرار جنكيزخان على إخضاعهم لسيطرته مهما كلفه الأمر. كما أن نجاحه فى مواجهة الصينيين والتتار والكرايت وغيرهم ترك أثراً مؤداه أن معارضته ستكون وخيمة العواقب، فلم يسع ملكهم إلا أن يقبل سيادة جنكيزخان على بلاده فى سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، ومن هذا المنطلق تحولوا إلى مؤيدين له ومناصرين ضد أعدائه الآخرين، وكان جنكيزخان - كعادته دائما - مستعدا لمقابلة الإخلاص بما يناسبه فعندما لقى زعيم التانجوت مصرعه فى أثناء القتال ضد زعيم النايمان تكفل جنكيزخان بتوفير أسباب العيش لأسرته واختص ابنه برعايته فزوجه من ابنته وحفظ السلطان له فى بيته.

وقد أدى انشغال جنكيزخان فى مطاردة الفارِّين من أعدائه من المركيت والنايمان ثم إخضاع الخوارزميين فى الغرب إلى إتاحة فرصة العصيان أمام التانجوت. وما إن عاد جنكيزخان إلى منازله الأولى فى منغوليا سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م حتى عاود الخروج إلى مملكة التانجوت ولكنه توفى فى أثناء الحصار فى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م تاركا لأولاده مهمة الإجهاز عليهم فأتموا ذلك فى براعة كعادتهم فى أثناء إجراء مراسم العزاء لأبيهم حيث كانوا قد أخفوا خبر موته عن هؤلاء الأعداء حتى لا ترتفع روحهم المعنوية فتزداد مقاومتهم للمغول.

و- القراخطاى:

وهم من المغول وينتمون إلى السلالة المغولية الصفراء وإن كان بعض المؤرخين يعتقدون أنهم من الأتراك على حين ينسبهم البعض الآخر إلى المغول والأتراك معا.

و يرجح ما ذهبتُ إليه أن الموطن الأصلى لهذه القبائل كان فى منشوريا التى تقع فى شمالى الصين. وهو مكان يختلف كثيرا عن الموطن الأصلى للأتراك فى تركستان وبلاد ما وراء النهر.



وقد أدى ازدياد ضغط القراخطاى على بعض المناطق فى شمالى الصين إلى تمكنهم من السيطرة على معظم أراضى المنطقة هناك حيث عرفوا باسم (ليائو) Leaco وهو نفس الاسم الذى عرفوا به فى التاريخ الصينى.

أما اسم قراخطاى فأغلب الظن أن الأتراك الذين تحاربوا معهم فى تركستان ومنهم القارلوق والقرغيز والأويغور وغيرهم - هم الذين أطلقوا عليهم هذه التسمية دلالة على كراهيتهم لهم، فكلمة (قرا) تعنى فى اللغة التركية (أسود).

وتنفرد المصادر الصينية دون الإسلامية بتناول حدث التقاء القراخطاى - بعد فتحهم بلاد المغول سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م - بالتجار المسلمين هناك فإذا كانت هذه المصادر لا تعطى أى إشارات عن نتائج هذا اللقاء فإن المرء يمكنه أن يستنتج أن القراخطاى وهم بدو بوذيون قد استقبلوا بعض المؤثرات الإسلامية من خلال هذا اللقاء وغيره وإلا فكيف يمكن تفسير اختيار القراخطاى بعد هجرتهم الطويلة من شمالى الصين إلى تركستان وهى من - بلاد المسلمين- كى يستقروا فيها دون التفكير فى العودة إلى الوطن الأصلى، وكيف يمكن أيضا تفسير روح التسامح الدينى التى عاملوا من خلالها رعاياهم من المسلمين فى تلك المناطق.

وكان زعيم القراخطاى قد اضطر إلى الهجرة من شمالى الصين فى اتجاه الغرب سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥م - بعد أن قوى فى منشوريا شعب جورجين فاستولى على شمالى الصين - غير أن الذى تبعه فى هذه الهجرة كان جزءاً من شعبه أما الجزء الأكبر فقد بقى فى شمالى الصين، فلما قوى جنكيزخان وحارب شعب جورجين أعلن القراخطاى هناك الثورة ضد شعب جورجين تأييدا لجنكيزخان.

و بالطبع فإن ما يهمنا بالدرجة الأولى هو الهجرة التى حدثت فى اتجاه الغرب وامتدت من شمالى الصين إلى قلب تركستان عن طريقين: **أولهما** عبر بلاد الأتراك الأويغور إلى منطقة حوض نهر تاريم وفرغانة، **وثانيهما** إلى غربى منغوليا ثم بلاد القرغيز فى أعالى نهر ينسى ثم إلى الجنوب الغربى حيث شيد القراخطاى هناك مدينة أميل، ثم استولوا على مدينة (بالاساغون) واتخذوا منها مركزا بدأوا منه غزواتهم تجاه الشرق فأخضعوا مدينة (كاشغر) ثم وجهوا عساكرهم نحو الشمال الشرقى ليؤدبوا القرغيز أعداءهم القدامى على حين خضع لهم الأتراك الأويغور.

وفى سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م هزموا السلطان السلجوقى الشهير سنجر فى صحراء قطوان شمالى سمرقند ومنذ ذلك الحين صار أميرهم يحكم رقعة واسعة من الأرض تمتد من حوض نهر ينسى فى الشمال إلى حدود بلخ فى الجنوب ومن خوارزم حتى بلاد الأويغور فى الشرق واضطر السلطان الخوارزمى أتسز(ت/ ٥٥٢هـ) إلى مصالحتهم على جزية قدرها ثلاثون ألف دينار يؤديها إليهم فى كل عام.



وهكذا اتضح أن هجرة القراخطاى إلى تركستان أسفرت عن قيام دولة كبيـرة امتد عمـرها إلى حوالى مائة عام، ومن المؤكـد أن هذه الدولة كانت ذات كيـان سياسى وإدارى راسخ، فقـد كان القراخطاى بعد خـروجهم من الصين وتوطنهم فى تركستان يستعملون اللغة الصـينية لغة رسمية كما حملوا معهم أصول الإدارة من الصـين وعلى سبيل المثال كانوا يستخـدمون العلامة المميـزة لموظفى الإدارة وكـانوا يسمـونها (بايزا) وكـذا استـعمل المغـول هذه العلامـة فيـما بعد، فـلا غرو إذن أن أصـبح ملك القراخطاى ذا قـوة بالغة الأهمـية والتـأثير فى سياسات المسلمين فى الشرق.

سقوط دولة القراخطاى:

ثمة عوامل كثيرة تجمعت فعجلت بسقوط دولة القراخطاى ويمكن إجمالها فيما يلى:

١- تنامى قوة الدولة الخـوارزمية وبخـاصة بعد إزالتـها الدول القوية المجـاورة كالسلاجـقة والغـوريين، وكان من أبـرز مظاهر هذا التنامى رفض السلطان عـلاء الدين خـوارزمشـاه فى سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م أداء الجزية التى كان يؤديها أبوه وجده للقراخطاى بل إنه زاد فأعلن الحرب عليهم وهزمـهم وأسر قـائدهم سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م وهكذا تهـددت حدود دولة القـراخطاى من جهـة الغرب تهديدا مباشرا.

٢- ظهور جنكيزخان على الساحة السياسية والعسكرية فى منغوليا وما حولها وازدياد قدرته على إخضاع كثير من القبائل المغولية والتركية لسلطانه الأمر الذى ترتب عليه:

أ- تحول القبائل التركية التى كانت خـاضعة لدولة القراخطاى ومنها الأويغور والقارلوق إلى الدخول فى طاعة جنكيزخان.

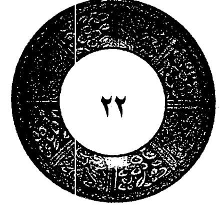
ب- فرار قبـائل المركيت والنايمان من سيطرة جنكـيزخان وبطشه فى منغوليـا وتسللها إلى داخل حدود دولة القراخطاى مما أشاع الفوضى والاضطراب فى شرقى الدولة.

٣ - ضعف شخصـية الكورخان (رئيس دولة القراخطاى) وعجزه عن تدبيـر شئونها وترك مقـاليد الحـكم فى يد كوجلك أمـير النايمـان الهارب من منغـوليا الذى بـادر إلى اعتـلاء عرش القراخطاى وبالتالى جرى إسقاط الدولة القراخطائية.

و نتيـجة لكل ما سبق فـقد اندفع المغول نحو عـدوهم القديم كوجلك وأجهـزوا عليه سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م وبذلك خضعت لهم كل الأراضى المتـاخمة لحدود الدولة الخوارزميـة فأصبحت المواجهة مع الخوارزميين آتية لا ريب فيها.

حياة المغول:

عاش المغول - شأن البدو جميعًا - حياة تتوافق مع البـيئة التى نشأوا فيها فى هضبة منغوليا فكانت حياتهم صدى لهذه البـيئة فى الداخل، ثم إنهم حملوا خصائصها مـعهم أثناء حركة الغزو



الخارجى وبعدها. ومن هنا جاء صدامهم مع الشعوب الأخرى مروعا داميا وترك آثارا عميقة إذ لم يكن لهذا الصدام نظير من قبل فى الشرق أو الغرب.



منمنمة عليها (سنجر) السلطان السلجوقى

ومما لا شك فيه أن نجاح حركة الغزو المغولى كان يستند بالدرجة الأولى إلى ما كان عليه المغول من نظام عسكرى بالغ القوة والتفوق لا يكاد يضاهيه نظير. وبقدر ما كان هذا النظام العسكرى عند المغول قويا محكمًا فإن النسيج الاجتماعى لديهم كان يعانى كثيرا من دواعى النقص والتخلف، وقد حاول جنكيزخان أن يعالج هذا القصور فاعتمد على ثلاثة محاور مهمة:

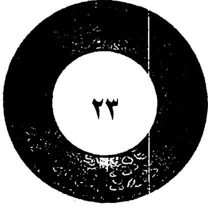
١- فض المنازعات القبلية بين القبائل الخاضعة له.

٢- الاستفادة من خبرات المتحضرين وبخاصة المستشارون من الصينيين والأويغور والمسلمين.

٣- إجبار الرعايا على الالتزام بقوانين الياسا الصارمة.

ولقد وفق جنكيزخان إلى حد بعيد - بعد مكابدة - فى أن يجمع المغول حوله، ذلك أن القبائل المغولية والتركية كلتيهما قد أيقنت أن الانضواء تحت طاعة جنكيزخان، والعمل تحت لوائه أفضل بكثير من عصيانه أو التشاحن مع أتباعه، ومن هنا خرجت هذه الجموع تحت رايته صوب الشعوب المجاورة، فبرهن جنكيزخان بذلك على قدرة متميزة فى السيطرة على الخاضعين له وكبح جماحهم ومنعهم من التصارع فيما بينهم وتوجيه طاقتهم صوب أعدائه أو الذين لم يخضعوا لسلطانه بعد.

وقد هيأت الظروف لجنكيزخان مجموعة من المستشارين الأكفاء عملوا معه بصدق وإخلاص وحاولوا قدر استطاعتهم أن يكونوا همزة الوصل بين المغول والشعوب الخاضعة لهم من جهة وبين المغول والحضارة من جهة أخرى ومن أهم هؤلاء:



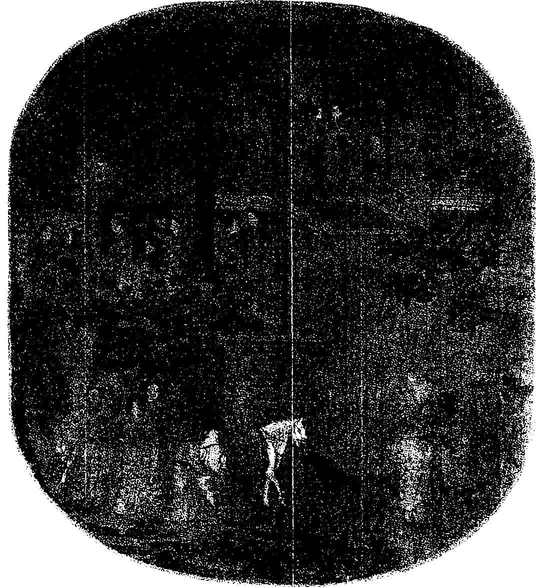
* مستشاره الأول (لى. ليو. جو تساى) الذى كان وزيرا فى بلاط إمبراطور الصين الشمالية وقد نجح الرجل - بعد وقوعه فى الأسر - فى اجتذاب عقل جنكيزخان إليه، إذ لفت نظره إلى أهمية تحقيق الاستقرار السياسى والاجتماعى للمغول وللخاضعين لهم. وبيَّن له أن الغزو العسكرى وحده لا يكفى لحكم الشعوب دون أن تكون هنالك نظم وقوانين إدارة وموظفون مدربون على تسيير شئون الدولة المتعددة.

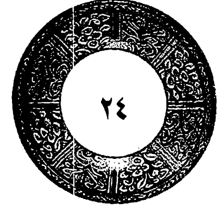
* مستشاره الثانى (تأنت وانجا) وهو تركى أويغورى انتقل إلى خدمة جنكيزخان متطوعا ونقل إلى المغول أبجدية الخط الأويغورى واستطاع هذا المستشار أن يقوم بدور بارز فى تنظيم الدواوين لدى المغول لأول مرة وبالتالى ظهرت لديهم الأختام والتقارير واليراليغ(القرارات المكتوبة) والبايزات(العلامات المميزة). . إلخ.

* مستشاره الثالث (محمود يلواج) وهو تاجر خوارزمى مسلم. وقد لعب دورا خطيرا فى قيامه بمهام السفارة المغولية الأولى التى أوفدها جنكيزخان إلى السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد سنة ٦١٥ هـ / سنة ١٢١٨ م والتى بموجبها تم عقد معاهدة تجارية بين الطرفين، ومن المؤكد أن محمود يلواج قد نقل إلى جنكيزخان أدق التفاصيل عن مختلف ألوان الحياة فى مملكة خوارزمشاه، ولقد أثبت محمود يلواج كفاءة عالية عندما أُسنِد إليه حكم بلاد ما وراء النهر بعد سقوط الدولة الخوارزمية تحت وقع ضربات المغول. حيث بذل جهودا كبيرة فى تعمير ما خربه المغول وأدار هذه الممالك أحسن إدارة واستطاع بحسن تدبيره وتوخيه العدل أن يخفف من آلام الضربة القاسية التى أوقعها المغول بالرعايا فى تلك المنطقة.

أما المحور الثالث فقد كان الياسا أى النظام المغولى الصارم، وتلك لم تكن ابتكارا جديدا توصل إليه جنكيزخان بمفرده وإنما هى نتاج عادات وتقاليد وأعراف توارثها المغول جيلا عن جيل. فما إن جاء جنكيزخان حتى جمع ذلك كله ونظمه وأضاف إليه من عنده وجعله مكتوبا، وألزم المغول كافة باتباع الياسا فى كل الظروف.

وقد صدرت ياسا جنكيزخان التى اقترنت شهرتها به وعاشت بعده سنوات


الإمبراطور منكو - تصوير صينى سنة ١٢٢٥م



طويلة مجزأة طوال حكمه، ولما كان هو نفسه يدرك أهميتها فقد كان يقول: «إذا لم يتبع الأمراء الذين سيأتون بعدنا قوانين الياسا فإن إمبراطوريتنا سوف تتحطم»، وعلى هذا فقد وكل جنكيزخان إلى ابنه الثانى جغتاى مهمة متابعة التزام المغول بقوانين الياسا حتى صار بحق أكبر مرجع للمغول فيها.

ولم يحاول خلفاء جنكيزخان (أوكتاى - كيوك - منكو) الخروج على نصوص الياسا أو وقف بعضها، وفى سنة ٦٥٠هـ / سنة ١٢٥٢ م أى بعد وفاة جنكيزخان بست وعشرين سنة فإن حفيده الخان الأعظم منكو أوصى أخاه هولاكو عند خروجه إلى غزو الإسماعيلية وبغداد أن يحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه فى الكليات والجزئيات. وفى الحقيقة جاءت الياسا صدى لحياة المغول فى مختلف جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

الحياة الاجتماعية:

ظلَّ جنكيزخان مهتما إلى أبعد الحدود بتنظيم العلاقات داخل مجتمعه، ومن ثم كانت الياسا فى حقيقتها عبارة عن قوانين محددة لربط علاقة الفرد بالفرد، وعلاقة الفرد بالمجموع وعلاقة المجموع بالملك، وبالطبع فإن هذه العلاقات كانت تنتهى إلى حقيقة مهمة هى ضرورة خضوع الجميع فى النهاية لإرادة جنكيزخان، وإدارته والاتحاد فى قبيلة واحدة والعقاب الصارم لكل مخطئ.

لم يكن المجتمع المغولى إذن مجتمعا بلا نظام كما يعتقد البعض. فقد كانت هناك ثلاثة أنماط للحياة فى القبيلة المغولية لا تكاد تختلف فيها كثيرا عن غيرها من القبائل البدوية الأخرى وهى:

أ- **الأسرة**.. ويرأسها الأب وهو يتمتع فى العادة بسلطة مطلقة.

ب- **العشيرة**.. وتتكون من مجموعة الأسر، ويدير شئونها مجلس يتكون من رؤساء العائلات ويختار من بينهم رئيس للعشيرة.

ج- **القبيلة**.. ويدير شئونها مجلس من رؤساء العشائر ويختار من بينهم بالانتخاب رئيس القبيلة

ولا بد أن تتوافر فى الزعيم القبلى صفات أقوى وأبرز من صفات زعيم العشيرة، فواجباته أكثر وأعباؤه أثقل، وعليه يتوقف نمو القبيلة أو تداعيها فهو الذى يقودها أو يرتحل بها إلى مكان جديد سعيا وراء المرعى والماء أو طلبا للغزو أو إفلاتا من الخطر، وعلى هذا فخبرته ضرورة لازمة لضبط النظام ولتحديد العلاقات مع الجماعات المختلفة التى يمرون بأراضيها. ومن ثم كان الزعيم القبلى بالضرورة شخصية قوية بارزة متفردة بين رؤساء الجماعات (العشائر).



ولقد كان هذا التسلسل كفيلا بأن يحقق صورة مكتملة للنسق الاجتماعى المترابط عند المغول، غير أن فقر البيئة المغولية والصراع الدائم حول الماء والعشب وملكية قطعان الحيوان جعل الحروب المتصلة بين العشائر فى القبيلة الواحدة من جهة وبين القبائل من جهة أخرى ضرورة من أجل السيطرة أو البقاء، وعلى هذا فقد غلب التفكك والتمزق على هذا النظام وجعله ضعيفا متهالكا.

ومن هنا برز دور جنكيزخان الحاسم فى فض المنازعات بين هذه القوى المتناحرة من ناحية، وإخضاع الجميع لسلطانه من ناحية أخرى؛ وبالتالى برز دور الياسا وأثرها على المجتمع المغولى كله.

وجاءت الخطوة التالية أكثر حسما وأبعد تأثيرا؛ ذلك أن جنكيزخان الذى لم يحاول إدخال أى تعديل على النظام القبلى الذى كان موجودا قبله فرض أسرته المعروفة (التون أوردو) أى الأسرة الذهبية على الجميع وأقام حكومة مركزية يسيطر عليها رجال حاشيته وأصدقاؤه المخلصون.

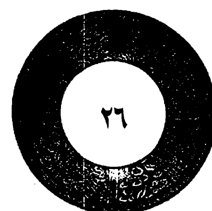
وعلى وجه العموم، فقد حافظ المغول أنفسهم على نظامهم الاجتماعى القبلى بما فيه من مزايا وعيوب محافظة شديدة حتى عند اندفاعهم خارج بيئتهم، فأينما استقروا بين الشعوب المقهورة كانوا يحتفظون بنظام العشيرة والقبيلة فيعيشون فى مجموعات مركزة ويتمسكون قدر استطاعتهم بنظم الحياة القديمة للبدو الرحل.

وإذا كانت البداوة هى السمة الغالبة على التركيبة الاجتماعية لدى المغول فإن اقتناء القطعان من الخيل والأغنام ظل يمثل عنصرا مهما فى حياتهم إذ كانت عنوانا للثراء ورمزا للسيطرة والهيبة.

غير أنه كان من بين المغول مَنْ يمتهنون الصيد حيث الغابات والجليد فى أقصى شمالى منغوليا كما هو حال قبائل المركيت والأويرات، والغريب أن الصيادين من المغول كانوا يأنفون من حياة الرعاة ويعتزون بما فى حياتهم هم من حرية وشجاعة وإقدام، وفى الوقت نفسه كان الرعاة يكرهون الزراعة والزراع ويعتبرونهم عبيدًا للأرض.

أما الزراع فكانوا عادة من بين فقراء عائلات المغول وكان ينظر إليهم على أنهم أقل مكانة من غيرهم، ولعل ذلك يفسر كيف أن القبائل المغولية التى كانت تقيم فى بعض السهول الخصبة لم تحاول زراعتها مطلقا.

ولا عجب أيضا أن قام المغول بتدمير الأراضى الزراعية خارج بلادهم وحولوا معظمها إلى مراعٍ لخيولهم، أما الفلاحون أنفسهم فكان مصيرهم القتل أو الاستعباد أو التسخير فى أعمال شاقة يتطلبها الوضع العسكرى أو تفرضها الحروب.



أى أن التسلسل الاجتماعى كان يضع الصيادين أولاً ثم الرعاة ثانيا (وأولئك كانوا يمارسون الصيد عند الضرورة) وأخيراً يأتى الزراع فى نهاية المطاف.

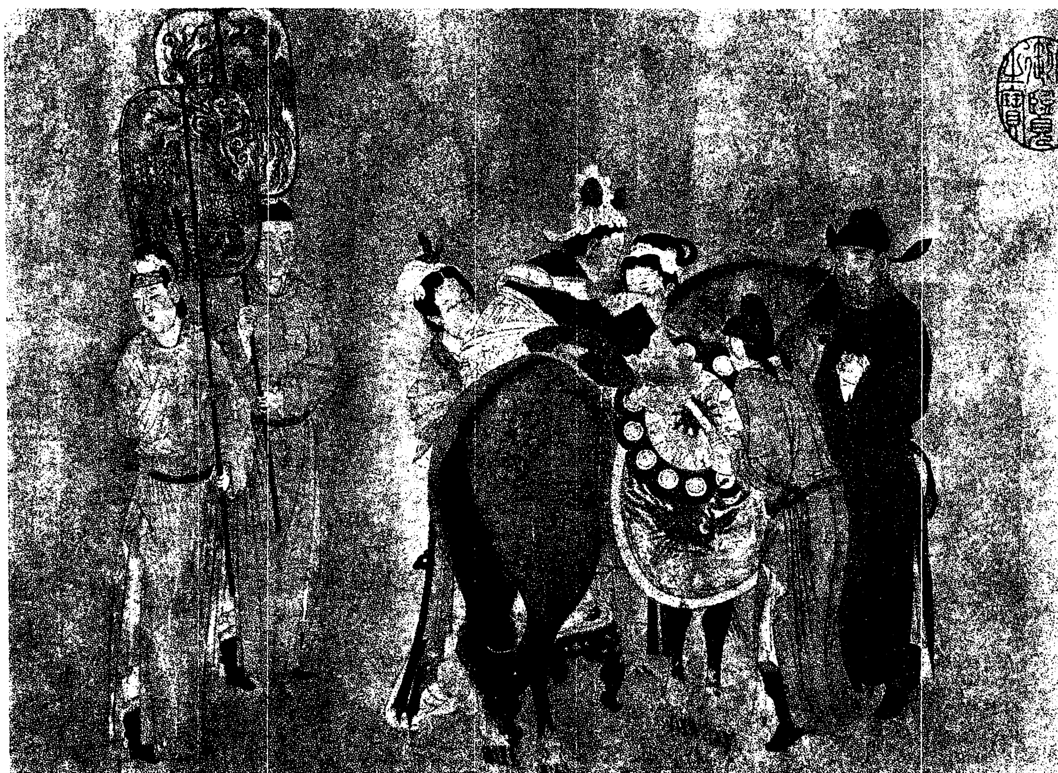
القوانين الاجتماعية.

حاول جنكيزخان - من خلال الياسا - وضع تقنين لكثير من الجوانب الاجتماعية فى حياة المغول. وجاء ذلك مناسبا لحياتهم وما جبلوا عليه من طباع وعادات وهو بالطبع ما لم يكن مناسباً فى الغالب لغيرهم من الشعوب التى تجرى حياتها وفق أنماط أخرى من السلوك والتقاليد والأعراف، وعلى هذا يجب النظر إلى حياة المغول وقوانينهم بما يلائم ظروف بيئتهم وتكوينهم النفسى والجسمى.

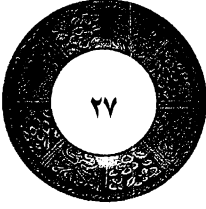
وسنحاول أن نعرض - فى إيجاز - أهم النقاط فى هذا الشأن:

أ- فى مجال الأسرة:

حرص جنكيزخان على تقوية الروابط المختلفة داخل كيان الأسرة المغولية ولذلك صرح فى الياسا بأنه يغضب إذا علم بولد لا يطيع أبويه أو بأخ صغير يخالف أمر أخيه الكبير أو بمخالفة المرأة



تصوير من حياة الإمبراطور المغولى (تيان سوان)



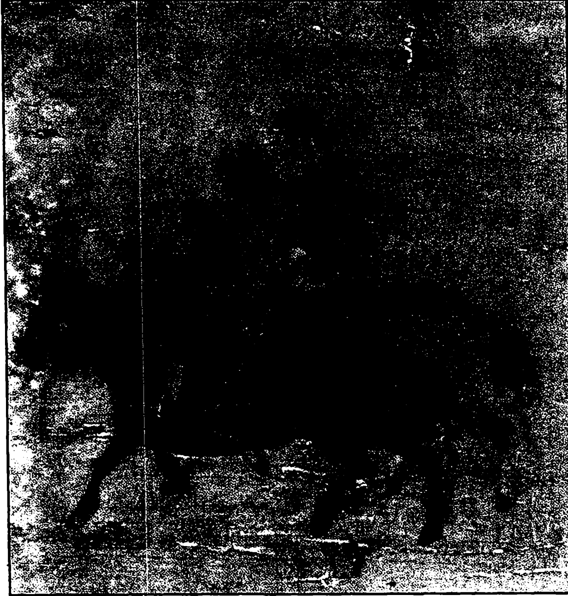
لزوجها، كما كان يحض الأزواج على ضـرورة السيطرة المطلقة على مقدرات أسرهم ولم تغفل الياسا أهمية الطفل المغولى فقد أمرت أن يتعلم أطفال المغول الخط الأويغورى وكان المغول من قبل أميين يجهلون القراءة والكتابة.

أما قضية الوراثة فـإن للياسا تشريعًا خاصًا إذ تقضى بأن يعطى الأب قبل وفـاته قسما من أمـلاكه لأبنائه الكبار بحسب سنهم ويتـرك الجزء الأهم لأصغر أبنائه.

ونلاحظ أن هذا التشريع يميز الابن الأصغر على بقية الأبناء فلربما اعتقد المغول أنه سيحتاج إلى مؤازرة أكبر فـى مواجهة إخوته الكبار، وخـصوصا بعد وفاة الأب. غير أن هذا الـتشريع قد جلب على المغول متاعب جـمة لم تفلت منها أسرة جنكيزخان نفسه، فـتولوى أصغر أبنائه حاول فى فترة وصـايته على العرش بعد وفـاة أبيه سنة ٦٢٤هـ / سنة ١٢٢٧ م وعلى امتـداد عامين أن يستأثر لنـفسه بمنصب الخاقانيـة دون أخيه أوكتـاى لولا تدخل المستشار يى - ليـو - جو - تساى وإلحاحه على تنفيذ وصية جنكيزخان.

ب- المرأة المغولية:

لعبت المرأة المغـولية دورا مهما فـى حياة المجتمع المغـولى ونالت من التقدير والاحـترام ما يناسب هذا الدور الكبير الذى نهضت به، فـفى مجـال السيـاسة كـان الخان يسـمح لزوجته أن تحـضر معه الاجتماعـات المهمة وأن تشاركه الظهور فى المناسـبات العامة، فـقد كـانت (بورتاى) زوجـة جنكيزخـان الأولى ونساؤه الأخـريات يجلسن فى مثل هذه المناسبـات راكعات عند قدمـيه، وهن مرتديات ثيـابًا من القطيفة المطرزة بخـيوط من اللآلئ.


كانت المرأة تركب الخيل مثل الرجال

تصوير من القرن ١٢/١٣م

ولم يتـوقف الأمر عـند ذلك فقـد كانت الخـواتين تتدخل أحـيانا فى شـئون الحكم كـالعـفـو عن مـظلوم أو التـوسط لحليف أو إرجـاء قرار أو تعديله والأمـثلة على ذلك كثـيرة. . ففى خـانية القبـجاق على سبيل المثـال وصلت المرأة المغولية إلى درجة عـالية من النـفوذ لدى الخان المـغولى،



على أن أخطر المواقع السياسية التى شغلتها المرأة المغولية هو منصب الوصاية على العرش

وتعتبر توراكينا خاتون أشهر من تولى هذا المنصب، فعقب وفاة زوجها الخاقان الأعظم أوكتاى بن جنكيزخان سنة ٦٣٩هـ / سنة ١٢٤١م تدخل أخوه الأكبر - آنذاك - جغتاى لمعالجة الأمر، واتفق وبعض الأمراء على أنها تتصرف فى تدبير الممالك إلى وقت القوريلتاى لأنها أم الأبناء (أبناء أوكتاى) الذين لهم حق استحقاق الخانية.

وقد ظلت توراكينا تشغل هذا المنصب طيلة خمس سنوات حتى مهدت السبيل أمام ابنها الأكبر كيوك بن أوكتاى فى الوصول إلى عرش الخاقان الأعظم ٦٤٤هـ/سنة ١٢٤٦م، رغم ما عرف عنه من اعتلال صحته.

كما تولت أوغول قاميش زوجة كيوك بن أوكتاى منصب الوصاية على العرش عقب وفاته ٦٤٦ هـ / سنة ١٢٤٨ م وظلت تحكم مدة عامين حتى انتخب منكو بن تولوى بن جنكيزخان خاقانًا أعظم. على أن سلطان الوصية على العرش لم يكن يعترف به من الجميع، إذ إن بعض الأمراء كانوا وبوحى من أنفسهم غير عابئين بحقوقها. ربما لأنهم كانوا يعلمون أن وصايتها أمر مؤقت ينتهى بانتخاب خاقان جديد من قبل القوريلتاى [المؤتمر المغولى العام].

ولا ينفى ذلك الموقف الأثر الكبير الذى تركته المرأة المغولية على الحياة العامة لدى المغول فقد كان فى حياتهم نساء تمتعن بقدرات خاصة حتى ذاع صيتهن وانتشر داخل منغوليا وخارجها ومنهن:

١- **أولون إيكى**: أم جنكيزخان وهى من قبائل المركيت، وقد سبق الإشارة إلى دورها عند الحديث عن قبيلة (قيات) والصعوبات التى واجهت ابنها فى مطلع حياته بعد وفاة أبيه، وكيف ساندته بكل ما تملك حتى ارتفع شأنه من جديد.

٢- **سرقوينى**: أرملة تولوى (أصغر أبناء جنكيزخان) وتنتمى إلى قبيلة الكرايت أيضا، وقد اعتذرت عن الزواج من كيوك حفيد حنكيز خان بعد وفاة زوجها، ولما كانت مسيحية نسطورية شديدة العطف على المسيحيين فقد امتدحها المؤرخ المسيحى ابن العبرى صاحب كتاب تاريخ مختصر الدول بقوله:

فلو كان النساء كمثل هذه لفُضِّلت النساء على الرجال

وظلت هذه المرأة فى مكانة بارزة مرموقة لا تقل شهرة عن أبنائها الأربعة: منكو، قوبيلاى، هولاكو، أريق بوقا وهم الذين شكلوا تاريخ المغول منذ منتصف القرن السابع الهجرى.



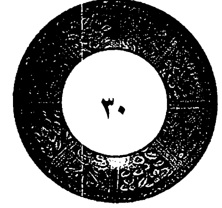
٣- **ججنك**: وكانت أشهر امـرأة مغولية مسلمة وكـذلك كان زوجها بركـة خـان بن جـوجى بن جنكيـزخـان (٦٥٥-٦٦٤هـ/ ١٢٥٧-١٢٦٦م) حاكم القبـجاق أول خان مغولى أسلم هناك وليـس أدل على مكانتها من أن رسل السلطان الظاهر بيبرس قـد أنزلوا عندها، فنالوا رعايتها وإكرامـها حين استضافتهم فى خيمتها فى سنة ٦٦١هـ، ثم انصرفوا آخر النهار إلى منازلهم بعد أن خلعت عليهم الكثير من الهدايا والإنعامات.

٤- **دوقوز**: زوجة هولاكو الشـهيرة وكانت من قـبل زوجة لأبيه تولوى وتنتمـى إلى قبائل الكرايت وبلغ من حكمتها وسـعة أفقها ما دفع الخاقان الأعـظم منكو أن ينصح أخاه هولاكو حين خروجه لغـزو قلاع الإسماعيلية وبغـداد بأن يشاورها فى جميع القضايا والشـئون، ولما كانت هذه المرأة مسـيحيـة نسطورية فقـد تجلى تأثيرها تمامـا عند سقوط بغـداد فى يد هولاكو فـإن النساطرة وغيرهم من المسيـحيين من أهلها قد تمتعـوا بالأمان الشامل على حين نال غيرهم كـثيرا من القتل والأذى والمذلة. وبصفة عـامة فإن خواتين المغول كن يؤثرن على قـرار الخان تأثيرا مباشـرا، فآباقا خان (٦٦٤- ٦٨٠هـ) بعـد أن عفا عن البراوناه وسـمح له بالعودة إلى مقـر حكمه فى بلاد الروم التابعة آنذاك لمغول إيران عاد فأمر باستدعائه بـعد أن استصرخت الخواتين أباقا وذكرنه بدماء المغول الذين قتلوا فى موقعة ابلستين بفـعل تواطؤه مع المصريين سنة ٦٧٥ هـ، ثم قتله حيث مزق المغول جسده وأكلوا من لحمه انتقاما منه.

وعندما همَّ أحمد تكودار خان (٦٨١-٦٨٣ هـ) بقتل أرغون ابن أخيه أباقا حين وقع أسيرا فى يده تدخلت الخواتين فـعفا عنه، وكان هذا العفـو سببا فى هلاكه ووصـول أرغون إلى العرش مكانه.

وفى مجال التكليف الاجتماعى قامت المرأة المغولية بدور خطير لا يقل شأنا عن دور الرجل فقـد كانت النسـاء المغوليات ينسـجن الملابس من الصوف والشـعر كمـا كُنَّ يقمن بجـمع اللبد، وتصنيـعه وبالإضـافة إلى ذلك كـان على النسـاء المغوليـات أن يحلبن المواشى، ويضـربن الزبدة، ويعددن الحليب المجفف، وبلغ من بـراعة المرأة المغولية أن كان بإمكانهـا فك المنزل كله وحزمه فى ظرف ساعة أو ساعتين ثم إقامته بنفس هذه السرعة.

ولم يقتصر الأمر على هذه الوظائف بل امتد ذلك إلى جوانب أخرى أشد خطرا ففى وقت الحرب لم يكن الرجـال وحدهم هم الذين يمارسـون شئون الحرب بل إن النسـاء كن يركبن الخيل كالرجال، ويستعملن الأقواس والسهام كما كانت المرأة تتولى إدارة المعسكر وتقود المحاربين أحيانا، وفى المعارك التى لم تشترك فـيها النساء كان عليهن القيـام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتـهم وعلى هذا فعندما كان المحاربون يذهبون للصيد أو للإغـارة كان على النساء أن يقمن بحراسة الحيوانات المهمة وهن راكبات يجسن خلال المرعى.



وكانت النساء المغـوليات بالإضافة إلى ما سبق يشـتغلن بصناعة أوتار القسى والدروع من جلود البقر وتجهيز الرماح من العظام.

ج- الزواج:

يعتبر الزواج أهم القضايا الاجتماعية على الإطلاق، فهو الرابطة التى تحفظ علاقة الرجل والمرأة فى إطار شـرعى يرعاه المجتمع ويؤيده، وينكر كل ما عداه من علاقات غير مشروعة.

ويرى بعض المؤرخين «أن المغول لم يعرفوا نكاحا وأن المرأة يأتيها أكثر من واحد، فإذا ولد الابن لم يعرف له أب».

ويبدو هذا الرأى غيـر صحيح. فالحقائق تؤكـد أن المغول مثلهم مثل غيرهم كـانوا يعرفون الزواج ويلتزمون به كـما كانت قوانينهم تنص عليـه وتشجعه، أما أصـحاب الرأى السابق - وهم معـذورون فيه - فـقد كانوا مـوتورين مما فعله المغول من شناعـات بالنساء المسلمـات فى بخارى وسمرقند ومرو.. إلخ.

وينبغى التقرير هنا على أن الزواج على الطريقة المغولية كـانت له سمات خاصة. فقد شرع جنكيزخان فى الياسا «أن كل من أحب امرأة بنتـا كانت أو غيرها لا يُمَنع من التزوج بها ولو كان زبالا والمرأة بنت ملك» وأغلب الظن أن هذا الـزواج كان مرهونـا بموافقة المرأة نـفسهـا على هذا الزواج، كمـا يلاحظ أن هذا النص لا يجعل من الفـوارق الطبقيـة حائلا يقف دون إتمام الزواج. وكذلك شرع جنكيـزخان فى الياسا.. أنه لا يجوز الزواج من أقارب الدرجتـين الأولى والثانية، ويجوزالزواج بأختين معًا، وبدهى أن الجمع بين الأختين أمر يخالف الطبيعة البشرية، لما يسفر عنه من الغيرة والتشاحن والبغضاء بين الضـرائر.. إلخ، وهذا ما رفضه التشريع الإسلامى الذى حرَّم الجمع بين الأختين فى زواج واحد.

كذلك كان من عادة المغول أنه عندما يمـوت الأب يتزوج ابنه من نساء أبيه ما عدا الأم، وواضح أن زواج الابن من زوجات أبيـه بعد وفاته أمر مرفـوض، لأنه قد يدفع بعض الأبناء إلى سلوك عدائى لا يتناسب مع علاقته بأبيه أو زوجة أبيه، ولهذا رفضه التشريع الإسلامى أيضا.

ومن أشهر المواقف فى حياة المغول زواج هولاكو بدوقوز خاتون وكانت زوجة لأبيه تولوى ابن جنكيزخان، وزواج غـازان خان ببلغان خاتون وكانت زوجـة لأبيه أرغون بن أباقا. أما فـيما يتعلق بمسألة العـدة فهناك نص للمؤرخ القرمانى يقول فـيه: وفى الياسا التى وضعهـا جنكيزخان عدم العدة وحصر الزوجات فى عدة وبغض الطرف عن الصنعة اللفظية الواضحة فيه فإننا نرى أن عدم اعتراف المغول بالعـدة يعتبر أيضا مخالفا لما ينبغى أن يكون عليـه الأمر من ضرورة التأكد من

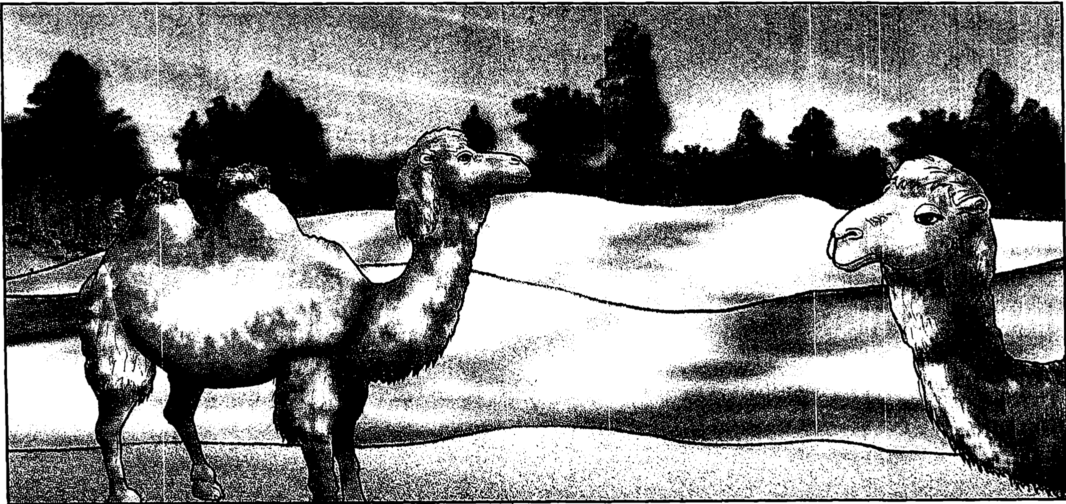
خلو المرأة من الحمل قبل زواجها من آخر، والتشريع الإسلامى ينص صراحة على وجوب العدة مراعاة لصحة الأنساب.

وهناك نص صريح فى الياسا يرفض العلاقات غير المشروعة من جهة، ويؤكد على أهمية الزواج بين المغول من جهة أخرى، فقد نصت الياسا على أن «من زنى قتل، ولا يفرق فى ذلك بين المحصن وغير المحصن، ومن لاط قتل أيضا».

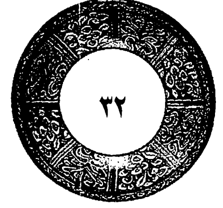
د- أنماط السلوك العام.

حرصت الياسا تماما على تحقيق الترابط بين المغول وحثتهم على الالتزام بألوان من الأخلاق العامة، فمن نصوص الياسا التى عبرت عن معنى التراحم «لا يؤذ بعضكم بعضا على أمور الدنيا، فإذا شعر بعضكم بألم من الآخر فليسارع إلى إزالته حالاً لتكونوا بمأمن من شرور الأعداء» وكذلك «لا يستأثر أحد بالطعام دون الآخرين وخاصة إذا كانوا يرونه، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل».

وحضت الياسا على التكافل الاجتماعى فقد نصت على أن الغنى لا يمتنع عن إعانة الفقير وكذلك نهت عن أن يتميز أحد على أصحابه بالشبع بل يقسم الطعام بالتساوى، ودعت الياسا إلى تحقيق العدالة المطلقة ولو كانت فى الخصومة وجعلت عقوبة مخالفة ذلك شديدة، فقد نصت على أن «من يعن أحد الخصمين على الآخر يعاقب بالموت» وجعلت الياسا عقوبة الموت جزاء رادعا لكل من يتعمد الكذب وخصوصا على قائده. وكذلك كل من مارس السحر لأنه يضر بالأبدان والنفوس. وأيضا كل من تجسس على الآخرين للتعرف على أسرارهم.



الجمل ذو السنامين



ولما كانت المياه الجارية ذات أهمية قصوى فى حياة المغول فقد حرَّمت الياسا غسل الأيدى فيها، واعتبرت ذلك من أمهات الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام.

وكانت قضية السرقة تمثل خطرا داهما فى حياة المغول وخصوصا فى فصل الشتاء المروع الذى لم يكن أمام المغول فيه إلا سلب بعضهم بعضا وسرقة ما تستطيع أن تمتد إليه أيديهم من موارد الرزق الشحيحة وقتل مَنْ يعترض سبيلهم، ومن هنا جاءت العقوبة فى الياسا صارمة فقد نصت على أن من سرق قتل، أما طريقة تنفيذ العقوبة فيبدو أنها كانت تتم بطريقة الصلب وفى بعض السرقات البسيطة كان الحكم يخفف إلى الضرب المبرح الذى قد يتراوح بين سبع إلى سبعمائة جلدة.

وبعد استعراض هذه النماذج من نصوص الياسا «قانون جنكيزخان الشهير» يتضح أنها كلها تؤكد على أن المغول كانوا يتبعون نظاما اجتماعيا محددا قد يختلف أو يتفق مع النظم الأخرى إلا أنه فى النهاية يمثل حياة المغول تمثيلا صادقا يعكس الطبيعة الخاصة لهم والتى تميزهم عن غيرهم من الشعوب. أما اتهامهم بأنهم قوم لا يحكمهم قانون، ولا يخضعون لشيء من النظام وبخاصة فى كل الجوانب الاجتماعية من حياتهم فهو اتهام لا يستند إلى دليل أو معرفة. ولقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن المغول حريصون على نظام الأسرة وترابطها وتحديد العلاقات بداخلها وأن الزواج والطلاق من الأمور المعروفة لديهم تماما، وإن كانت تختلف وسائل تنفيذ شرائطها عما فى الإسلام أو غيره من الأديان الأخرى.

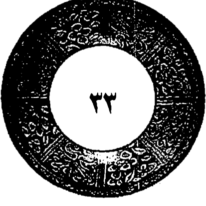
الحياة الاقتصادية:

اعتمدت حياة المغول على الإجمال على دعائم اقتصادية مهمة أثرت فى جوانب حياتهم أبلغ تأثير، ومن أهمها:

أولا: الرعى:

ينضوى اقتصاد المغول بصورة عامة تحت اقتصاد الرعاة، فالرعى كان يشكل الحرفة الأساسية لديهم فى هضبة منغوليا الفسيحة، وكان الحيوان - على اختلاف أنواعه - يمثل حجر الأساس فى هذا الاقتصاد الذى كان يعانى من مشاكل كثيرة منها ندرة الماء وجفاف المرعى وما ينجم من متاعب من جراء الطبيعة القارية الحادة التى تباينت فى درجات الحرارة والرطوبة وسرعة الرياح...إلخ.

و كثيرا ما تعرض المغول لمواجهة خطر فقر المراعى وبخاصة فى فصل الشتاء، فكانوا يندفعون بقوة صوب ممتلكات جيرانهم الأغنياء طلبا للقوت، وبالطبع لم يكن استيلاؤهم على هذه الممتلكات استيلاء من يرغب فى الاستقرار والاستثمار وإنما كان استيلاء الباحث عن الفائدة السريعة المؤقتة.



وثمة وسيلة أخرى كان المغول الرعـاة يلجأون إليها عند الضرورة ففى غير أوقات الحرب والرعى كان المغول يحترفون الصيد، وفى أثناء الانسحاب عقب إحدى المعارك الحـربية ضد قبائل الأتراك الكرايت استـدعى جنكيزخان ابنه الأكبر جوجى وطلب إليه أن يعاود حملة الصيد الكبير من جديد - ضد الحيوانات البرية - فقد كان المغول آنذاك فى حاجة أكثر من ذى قبل إلى لحوم الحيوانات وأغطية الخيام.

والصيد وإن كان يمـثل تدريبا عسكريا للجند فى وقت السلم ورياضة بدنية منـظمة للشباب والأطفال أيضا إلا أنه كان فى الأغلب وسيلة إنقـاذ من خطر الجوع المروع فى فصل الشتاء القارس الذى تنخفض فيه الحرارة إلى ما تحت الصفر، فتصبح حياة الإنسان والحيوان معا مهددة بالخطر.

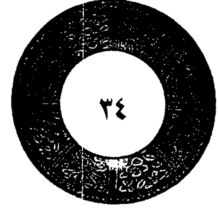
ومع قدوم فـصل الربيع الذى تزدهر فيـه المراعى، وتدب الحيـاة فى أوصال الكائنات الحـية كانت حيـاة المغول تميل إلى الاستقرار نوعا مـا فيبادرون إلى انتخـاب المراعى لقطعانهم إلى جوار الماء، وينعمون بشىء من الهدوء والسكينة.

وعلى وجه العموم كان المغول يعشقون حـياة الرعى التى يكون الراعى فيها حرا يتجول مع خيـمته التى صنعهـا من اللباد، والتى تتيح له حـرية الانتقال إلى أى مكان يلائمـه فى ظلّ أسرته وعشيـرته وكانت قطعان الخيل تمثل الثـروة الأساسية لدى المغول، فـالحصان هو عصب الاقـتصاد الرعوى كله، وبقدر عـدده تتحدد الثروة والقوة، وهذا العـدد بدوره يحدد فقر المراعى الطبيـعية أو غناها، ولهذا كانت قطعان الخيل ترعى منفصلة عن بقـية الحيوان بحيث تنال أطيب المرعى، وبعد قطعان الخـيل فى الأهمية تأتى قطعـان الأغنام بكثرتها الـعددية وفوائدها العـديدة ثم تأتى قطعان الماشية بلحومها وألبانها وفى نهاية المطاف نجد الجمال ذات السنامين.

وما يعنينا فى هذا المقام هو التأكيد على أن الاقتصاد المغولى الرعوى كان يعتمد اعتمادا كليا على الحيوان لا باعتبـاره مؤشرا على الثروة فحسب وإنما باعتبـاره مصدرا للطعام والملبس والسكن فى بيئة طبيعية قاسية.

ثانيا: الزراعة:

فرضت البيئة القارية فى هضبة مـنغوليا على ساكنيها ألا يكونوا من أهل الزراعة فكانوا فى معظمـهم رعاة وصـيادين عند الضرورة، واسـتلزمت حيـاتهم تلك سرعة الحـركة والانتـشار هنا وهناك، وذلك ما يختلف كثيرا عن حياة الاستقـرار التى يعيشها الزراع، وقد سبق القول أن المغول - بسبب ذلك - كانوا يكرهون الزراعة ويأنفون من العمل فيها وترتب على ذلك أن الزراعة داخل منغوليا كانت نادرة جداً أو قليلة بحيث لا يمكن اعتبارها إحدى دعائم النظام الاقتصادى المغولى.



وفى خارج منغوليا اتسمت سياسة المغول تجاه الزراع والزراعة فى بادئ الأمر بالعداء الشـديد إذ عمد المغول إلى تحويل غالبيـة الأراضى الزراعية إلى مراعٍ لخيولهم، وتعرض الفلاحون للقتل العام أو الإرغام على الانضمام قسرا إلى الجيش المغولى.

وبعـد أن هدأت ثورة الغزو ومـال المغـول إلى الاستـيطان فى البـلاد الخاضعـة لسيطرتهم فإنهم بدلا من أن يمـارسوا الزراعة أو يشجـعوا المزارعين عمـدوا إلى فرض الضرائب البـاهظة التى رزح تحت وطأتها الأهالى وبخاصـة الزراع حتى بلغ الأمر حـدا جعل كل محصولاتهم لا تكفى لغطاء نصف التزاماتهم من هذه الضرائب.

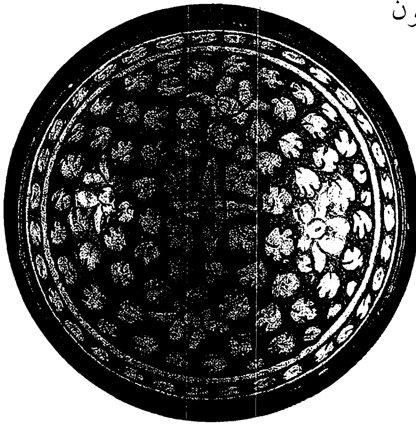
وهكذا انتكست الزراعة من جـديد فى البلاد المفتوحـة إذ لم يهتم بها المغول كـمصدر من المصادر الثابتة للاقتصاد واكتفوا بالتركيز على ما يحصلون عليه من ضرائب من القائمين عليها.

ثالثا: الصناعة:

عُرِفَتْ لدى المغول صناعـات أولية ساذجة تناسب البيـئة التى نشأوا فيهـا ومنها صنع اللبد والسروج وعَدَد الخـيل والجعاب والأسلحة والهيـاكل الخشبية للمظـلات والعربات والجلود والفراء ومعظم هذه الصناعات كان يقوم أساسا على الحيوان الذى كانت تتوافر منه أعداد هائلة فى منغوليا حيث كان المغول يعتبرونه المصدر الرئيسى للحياة كما سبق القول.

وهذه الصناعـات الأولية - رغم بساطتـها - كـانت كافيـة لسد احتـياجـات المغول داخل منغوليـا، أما خارجهـا فقد اكتـشف المغول عند احتكاكهم بالـشعوب الأخرى المتحـضرة مدى النقص الحضـارى الذى كانوا يعانون منه، ولذلك أبقوا على الحرفيين المهرة والصناع الذين وقعوا أسرى فى أيديهم وأرسلوهم إلى منغوليـا ليسدوا النقص الحاد هناك وليشيدوا البناءات والقصور.

وعلى الرغم من أن الصناعـات المحلية فى الـبلاد المفتوحة تلقت صدمات عنيفة خلال حركة التدمير والقتل العـام فى الغـزوات المغـوليـة الأولى إلا أن المغـول بعـد استقرارهم فى هذه البلاد واتصالهم السلمى بالأهالى فيها عمـدوا إلى تشجيع هذه الصـناعات، وعلى سبـيل المثال فقد أمر هولاكـو بتجديد عمارة مدينة خـبوشان الإيرانية



طبق خزفى إيرانى عليه تأثيرات صينية - الدولة الإيلخانية إيران



ودفع التكاليف اللازمة من الخزانة العامة حتى لا يتحمل الرعايا عبء هذه النفقات وشيدت المصانع وأقيمت حديقة بجوار المسجد.

وبالإضافة إلى سياسة التشجيع فإن امتداد طرق القوافل وتأمين حركة التبادل التجارى وبخاصة بين الصين وإيران ساعد على انتشار هذه الصناعات وتبادلها بين المغول وغيرهم من الأمم.

وأدى ذلك إلى انتعاش صناعات كثيرة منها صناعة الخزف وصناعة القيشانى ونجارة الخشب، وظهر أثر الفن الصينى فى طرائق الرسم والتصوير الإيرانية وعادت إلى الظهور من جديد صناعة النسيج وانتشرت صناعة السجاد الإيرانى. ويمكن من خلال ذلك ملاحظة أمور عديدة منها:

١- أن موقف المغول يختلف هنا عن موقفهم تجاه الزراعة والزراع.

٢- أن المغول لم يكونوا هم أنفسهم صناعا محترفين ولم يحاولوا ذلك، وإنما اكتفوا بأن يكونوا رعاة لهذه الفنون والصناعات، وقد ضمن ذلك للصناع والحرفيين حقن دمائهم فى مرحلة الغزو المغولى الأولى فقد كان المغول يرسلونهم إلى قراقورم العاصمة المغولية لتجميلها.

٣- أن تدعيم المغول لهذه الصناعات كان موقفا حسنا حسب لهم حتى دعا أحد المؤرخين إلى نسيان ما ارتكبوه من فظائع وتدمير فى غزواتهم الأولى مقابل تشجيعهم فيما بعد لحركة الفن والصناعة.

رابعا: التجارة:

القوافل التجارية للمغول





لم ير المغول فى التجارة حرفة يمكن أن يقبلوا عليها، فقد كانوا فى الغالب رعاة يعشقون الفروسية ولم يكن لديهم من المؤهلات النفسية والمهارة والخبرة ما يناسب عمل التجار ؛ولهذا انصرفوا عن هذا العمل وتركوه لغيرهم.

ووفد على بلاد المغول كثير من التجار الأجانب الذين كانوا يمثلون حلقة الاتصال بين المغول وجيرانهم من الأتراك والصينيين وغيرهم ولم تترك الياسا مسألة التعامل مع هؤلاء التجار دون تشريع، فقد نصت على «أنه من أعطى بضاعة فخسر فيها، فإنه يقتل فى المرة الثالثة».

ولقد أدرك جنكيزخان بثاقب بصيرته أهمية تيسير حركة التجارة بين شرقى آسيا وغربيها وتوسيع نطاقها فحرص على تأمين طرق القوافل بالضرب على أيدى اللصوص وتزويد الطرق الرئيسية بحراس من قبله وتكليفهم بمرافقة كل أجنبى يحمل تجارة إلى معسكرات المغول ونتج عن ذلك إعادة فتح طرق التجارة القديمة المهجورة منذ قرون عديدة بسبب مخاطر السير فى البيد.

ولقد أثبت جنكيزخان أنه بحق رجل دولة وسياسة عندما استجاب لنصيحة مستشاره الصينى يى. ليو. جو. تساى حين طلب منه الموافقة على رفع الضرائب عن البضائع التى تمر خلال أرض المغول.

وهكذا أضحى بوسع القوافل الضخمة أن تجتاز قارة آسيا من أقصاها إلى أقصاها فى أمان تام، فقد شجعت تلك السياسة الحكيمة التجار على ارتياد أصعب الطرق وأكثرها وعورة، ولقد كان من الطبيعى أن تعتمد حركة التجارة فى عصر جنكيزخان وخلفائه الأول على أنماط متعددة من التعامل منها:

أ- الأسواق:

وكانت تقام عادة على مقربة من منازل القبائل المغولية حيث يجرى التعامل فيها من خلال نظام بدائى بسيط، ففى عصر جنكيزخان كانت النساء المغوليات تنهض بمسئولية شراء مستلزمات بيوتهن من الأسواق.

ويبدو أن المغول كانوا قد تعودوا على نظام المقايضة منذ القدم، ولهذا كانوا يعطون التجار قضبانًا من الفضة أو الذهب أو أى أشياء أخرى وغالبا ما كان تجار القوافل يجمعون ثروة طائلة فى أثناء رحلة واحدة.

أما خارج منغوليا وبعد اتساع حركة الغزو المغولية فإن الأسواق كانت تقام حول معسكرات الجيش المغولى أو على مقربة من محطات البريد المغولية حيث كان يباع هناك من إنتاج المدن



الكبرى المجاورة الشىء الكثير على الرغم من أن الأسعار كانت تغلو حتى يصير الشىء بقيمة مثليه أو أكثر لكلفة الحمل ومشقة السير.

وقد أسفر جو الأمان والطمأنينة الذى حققه المغول بالنسبة لحركة التجارة والتجار أن ظهرت - بالإضافة إلى ما سبق - أسواق جديدة من نوع مختلف فقد أسست بعض المدن التجارية الإيطالية (جنوة - البندقية) لها أسواقا فى بلاد إيران وما يجاورها.

وبدهى أن المغول كانوا حريصين أيضا على تأمين الأسواق وحمايتها وتيسير الحركة فيها وما حولها وبخاصة فى المناطق الخاضعة لنفوذهم.

ب- البعثات التجارية:

أدرك المغول بفطرتهم أهمية التبادل التجارى، وكيف أنه يمكن أن يؤدى وظيفة حيوية فى تخفيف المعاناة الاقتصادية عن حياتهم الصعبة فى ظل الطبيعة القاسية فى منغوليا، وكان المغول يعانون من ندرة الإنتاج الزراعى من ناحية، ويتوافر لديهم أعداد كبيرة من قطعان الحيوان ومعادن الفضة من ناحية أخرى.

ومن هنا يظهر سبب الحرص الشديد على تنشيط حركة التبادل التجارى التى أولاها المغول دائما عناية خاصة، فقد أتاح لهم هذا التبادل فرصة التعرف على أشياء لم تقع أبصارهم عليها من قبل مثل العاج المحفور والحرير الموشى اللامع والأبسطة والمصابيح الفضية.

وعلى سبيل المثال كانت البعثة التجارية التى أوفدها السلطان علاء الدين خوارزم شاه إلى جنكيزخان تحمل أشياء كثيرة من أهمها المنسوجات المزركشة بخيوط الذهب والقماش الزنجانى.

وكان ذلك ردا على البعثة التجارية التى أوفدها جنكيزخان مسبقا إلى السلطان الخوارزمى وكانت تحمل بالإضافة إلى الهدايا الثمينة سبائك الفضة وأحجار اليشب الكريمة وأردية من الوبر الأبيض وكميات كبيرة من الحرير الشفاف الموشى بالذهب، وقرون الخرتيت وأحمال المسك وكذلك كتلة من الذهب فى حجم عنق الجمل حملت على عربة جميلة الألوان.

ويمكن أن يلاحظ بسهولة أن أشياء كثيرة مما حملته بعثة جنكيزخان تلك ليست من إنتاج منغوليا ومعنى ذلك أن المغول كانوا يستخدمون الأسلاب التى حصلوا عليها من غزوهم للصين على أنها بضائع مغولية.

ج- العملة:

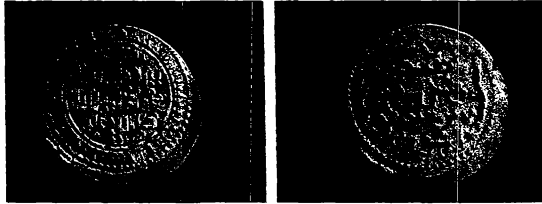
لم يعرف المغول قديما نظام العملة فقد كانوا يعتمدون فى البيع والشراء على نظام المقايضة ولم يرد فى تاريخ جنكيزخان قبل اعتلائه عرش المغول سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م ما يفيد أنه أو



المغول عامة كانوا يستخدمون العملة فهو نفسه كان يعطى التجار فى غالبية الأحوال أى كمية من الذهب أو الفضة نظير ما يعجبه من بضائعهم.

فلما اتصل المغول بالأمم المتحضرة حولهم كالصينيين والأتراك الأويغور، والخوارزميين أدركوا قيمة استخدام العملة فى التعامل التجارى بدلاً من نظام المقايضة، وهناك مسميات عدة لعملات مغولية ظهرت فى أواخر عصر جنكيزخان ثم فى عصر خلفائه منها:

* **البالش الذهبى** ووزنه (٥٠٠) مثقال من الذهب وقيمته تساوى ألفى دينار وهو عبارة عن ٢٥ جزءا، قيمة الجزء الواحد تساوى (٨٠) دينارا أى قيمة المثقال الواحد تساوى أربعة دنانير.



عُملة ذهبية باسم أرغون (الدولة الإيلخانية) (ضرب شيراز) سنة ١٣٠٠م/ ٧٠٠هـ

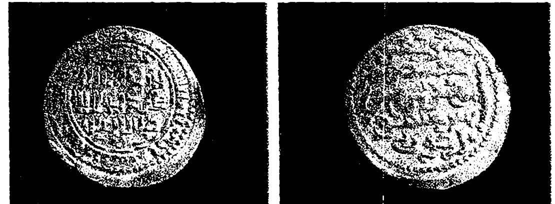
* **البالش الفضى** ووزنه (٥٠٠) مثقال من الفضة وقيمته تساوى مائتى دينار، وهو عبارة عن ٢٥ جزءا، قيمة الجزء الواحد تساوى(ثمانية) دنانير أى قيمة المثقال الواحد تساوى ٤, ٠ من الدينار.

* **العملة الورقية** وكان هذا النظام مستعملا فى الصين آنذاك، ولم يظهر له أثر، فى الاستعمال لدى المغول إلا فى إيلخانية إيران فى عصر الإيلخان كيخاتو(ت/ ٦٩٤هـ). الذى اضطر إلى وقف التعامل بها بعدما نجم عن ذلك كثير من المتاعب والقلاقل فى الإيلخانية.

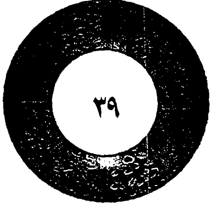
أما العملة التى تم سكها فى البلاد الخاضعة للمغول فإنها لم تختلف فى الغالب عما كانت عليه من قبل سوى أنها كانت تحمل اسم الخان الأعظم المغولى ونائبه وسنة السك ومكانه، كما كانت فى معظمها إسلامية الطابع إذ كانت تشتمل عادة على الشهادتين وبعض العبارات الدينية مثل: «توكلت على الله وحده. . . . إلخ».

خامسا: الحرب:

عاش المغول فى هضبة منغوليا الواسعة بين طبيعة قارية متقلبة وبيئة فقيرة مجدبة ومن ثم ظلت حياتهم حربا لا تكاد تنقطع مع الطبيعة والبيئة والأعداء المغيرين أو الذين لديهم فائض من الغذاء والكساء يمنعونه عنهم.



عُملة ذهبية غازان محمود (تبريز) سنة ١٢٩٥م/ ١٣٠٤



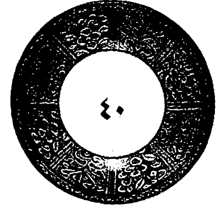
وأدرك جنكيزخان بعد تمكنه من إخضاع غالبية القبائل المغولية والتركية المناوئة لنفوذه أن الحكمة تفرض عليه أن يستنفد الطاقة القتالية لدى أتباعه من المغول فى مهاجـمة الدول والشعوب المجاورة ذات الثراء العـريض فيأخذ من ثرواتها ما يريد وينأى بالمغول أنفسهم عن خطر حروب داخلية طاحنة تستنفد طاقتهم وتضعف قوتهم.



جنكيز خان

ومع ازدياد الانتصارات العسكرية خـارج منغوليا زاد افتتان المغول بالحرب كـعمل أو حرفة وأضحت موردا للرزق. ولهـذا كان يمر بمحطات البريد المغـولية فرق من الشباب المغـول المتلهفين على الانضـمام للجيش فقـد كانوا يحـسدون رجـال الحرب المحنكين العـائدين إلى الوطن وهم محملون بالغنائم من سيوف وجواهر ودروع ونفائس عدة.

وهكذا انتقل مفهوم الحرب عند المغول من كونها - فى الغالب - ضرورة اقتصادية ملحة من أجل الحصول على الطعام أو الكساء إلى أن صارت موردا للرزق ثم مـصدراً للثراء والرفاهية، فقد



اشـتملت غنـائم الحرب على العـينيـات والجوارى والـغلمان والأسـرى من الحرفيين والعبيد وغيرهم، وتلك كانت توزع على القادة والمحاربين بعد خصم حصة الخان منها.

وقد ترتب على حركـة الغزو واستقرار المغول فى البـلاد الخاضعة لهم استعمال المغول للعديد من النظم الاقتصادية التى أتاحت لهم تحقيق كثير من الثراء والرفاهية وإن كان ذلك على حساب الآخرين، ومن هذه النظم:

أ-الضرائب:

تعرض المغـول فى فتـرات ضعفـهم ووقوع بلادهم منغـوليا تحت سـيطرة القوى الأجنبـية كالصـينيين والأتراك الأويـغور والقرغـيز لفـرض ضرائب ثقـيلة فاقت احـتمالهم وأضـافت إلى مشاكلهم العديدة متاعب أخرى موجعة.

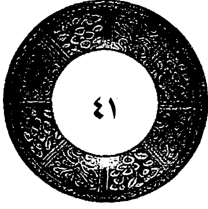
فلما اشتـد ساعد المغول - فى عصر جنكيـزخان - وأخضعوا غيـرهم لنفوذهم بدأ المغول بدورهم فى فرض الضرائب على الأمم المغلوبة واشتطوا فى ذلك حـتى عجز الأهالى عن سدادها واضطروا إلى الهرب وترك مساكنهم وأملاكـهم والجلاء عن أوطانهم، أما الذين تمسكوا بالبقاء فى مدنهم وقراهم فكانوا يغطون أبواب منازلهم بالحجارة ويلجـأون إلى الاختفاء فى السراديب، وأما الذين كانوا يعجزون عن أداء الضريبة ويقعون فى أيدى المغول فكان مصيرهم القتل أو الاستبعاد أو أن يكرهوا على بيع أولادهم فى أسواق النخاسة.

وفى بعض الأحوال كـان خانات المغـول فى البلاد الخاضـعة لهم يقيـمون من قـبلهم أحد الأمراء المحليين فيقـوم بجباية الضرائب مقابل مبلغ ضخم يدفعه مـقدما للخان، وبالطبع كان هذا الأمير يبذل كل المساعى من أجل نيل هذا الشرف العظيم وما يتبعه من مكاسب مادية كبيرة، ولهذا كان الموظفـون الذين يعينهم هذا الأميـر غاية فى القسوة المفـرطة وكثيـرا ما كانوا يتجـاوزون حد الإعفاءات ولو كانت لرجال الدين الذين نصت الياسا على إعفائهم من الضرائب.

هذا - وقد تعددت الضرائب المغولية فكان منها:

١- ضريبة الرأس:

وكانت تجمع على طريقتين: **وحدة البيت، ووحدة الرأس**: الأولى منهما كانت تؤخذ عن البيت الواحد بـصرف النظر عن عدد الأفراد المقيـمين فيه، وكـانت تلك الطريقة متبـعة أصلا فى الصين، وقـد حاول المغـول بعد استـيلائهم على بكين أن يغـيروها هناك فى عهـود مخـتلفة بأن يأخذوها عن كل شخص على حدة.



وأما الثانية وهى الضريبة عن الرأس الـواحدة فكانت متبعة فى المناطق الأخرى التى خـضعت للمغـول، فجغـتاى ثانى أبناء جنكيزخـان الذى كان يحكم خانية تركستان وبلاد ما وراء النـهر ربط ضريبة الرأس على سبع فئات وفق ثراء كل شخص.

وفى إيلخـانية إيران كـانت ضريبـة الرأس تتراوح بين دينـار وسبـعة دنانير، وفى إيلخانية القبـجاق كانت هذه الضريبة تدفع دون تمييز بين الفقـراء والأغنياء كما كانت تدفع نقدا أو عينا فى بعض الأحيان.

٢- ضريبة الحيوان:

رأينا - فيمـا سبق - أن الحيوان كان يشكل أهمـية بالغة فى الاقتصـاد المغولى ومن ثم فإن فرض الضريـبة على الحيوان - داخل نطاق القـبيلة - كان يشكل مسـألة حيوية، وكانت الضـريبة تؤخذ بواقع رأس واحدة عن كل مـائة رأس مماثلة،فإذا قل القطيع عن مائة فإن صاحـبه يعفى من الضريبة عليه.

هذا ما فرضه المغـول على حيواناتهم هم، أما فى البلاد الخاضـعة لهم التى كان يغلب على معظمها الطابع الزراعى أو الحـرفى وبالتالى يكثر فيها أن يقل عـدد القطيع الواحد من الحيوان عن المائة رأس فإن الإعفاء من هذه الضريبة كان أمرا واردا لكن المغول كانوا يعوضون ذلك بطريق آخر وهو تكرار الضريـبـة على الممتلكات الأخرى لدرجـة أن الجباة كـانوا يحصلونها من الأهالى عـشر مرات فى السنة الواحدة.

٣- ضريبة الأرض الزراعية (الخراج):

كان المغول - كمـا ذكرت - يكرهون الزراعة ويأنفون منها وممن يعملـون فيها،ولذلك ندرت لديهم فى منغوليا المحاصيل الزراعية وبالتالى لم يكن لديهم أى نظام ضرائبى على الأرض الزراعية.

أما خارج منغوليا حيث كانت معظم الشـعوب الخاضعة لهم من أهل الزراعة الذين يفلحون الأرض، فقد استوجب الأمر أن يكون هناك نظام ضرائبى محدد وكان فى الغالب يسدد على هيئة عشر نقدى يدفـعه الفلاحون عن أصل مواسمهم الزراعيـة أى أنه مرتبط بزمن نضج المحصول ولا يشترط فيه أن يكون جزءا من هذا المحصول.

الإعفاء من الضرائب:

أسفر نظام الضرائـب السابق عن عائد مادى ضخم حصل عليـه المغول دون عناء أو جهد، ومن ثم لم يروا ضررا من التسامح مـع بعض الفئات تقديرا لمكانتها أو لدورها أو احتـراما لمنزلتها فى نفوس المغول وأهالى البلاد المفتوحة، ومن أهم تلك الإعفاءات الضريبية:

* طبقة الأمراء من الأسرة الحاكمة.

* ضباط الجيش والحرس الخاص للخان.

* موظفو الدولة (الديوان - الجباة - القضاة - رجال البريد..... إلخ).

* رجال الدين أيا كانت ديانتهم.

* دور العبادة كالمساجد أو الكنائس أو المعابد على وجه العموم.

* الأوقاف الإسلامية.

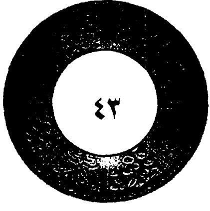
وجدير بالذكر أن هذه الإعفاءات لم تكن لتشكل العبء الكبير الواضح على الخزانة المغولية وإلا لسارع المغول إلى إلغائها أو التنصل منها دون حرج.

ب- الجزية:

فرض المغول الجزية على الشعوب الخاضعة لهم أو الواقعة تحت طائلة التهديد بالغزو، وفى معظم الأحوال كانت هذه الجزية من الضخامة بحيث يصعب أداؤها فيكون ذلك ذريعة لكى يقوم المغول بهجومهم المدمر، ومن خلال هذا المنطلق أرسل جنكيزخان رسالة إلى إمبراطور الصين الشمالية سنة ٦١١ هـ / سنة ١٢١٤ م يطالبه فيها بدفع الجزية فبادر الإمبراطور بإرسال مئات من العبيد الصغار ومعهم خيول مطهمة وعربات محملة بالذهب والحرير، وبعد أن سقطت مدينة سمرقند فى يد جنكيزخان وفعل بها وبأهلها ما فعل فرض على أهلها جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار.



صورة من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين - فصل حياة «محمد ﷺ»



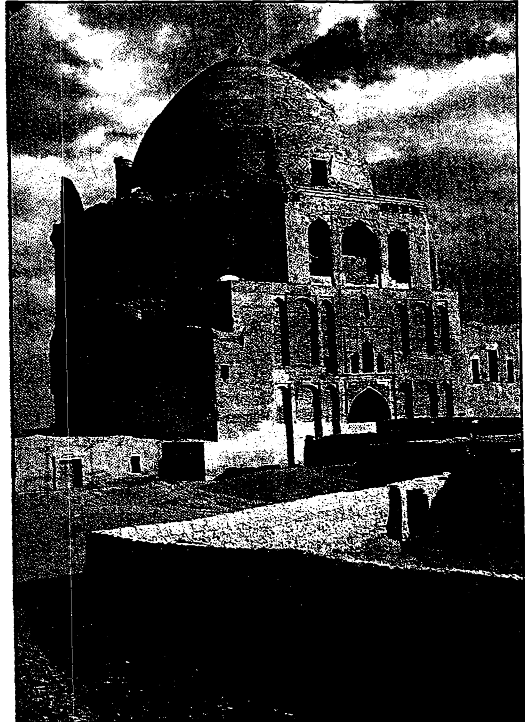
وقد بادر حاكم أذربيجان وأرّان الأتابك أوزبك بن البهلوان نتيجة انهماكه فى الملذات وضعف جيشه ونفسه فأرسل يعرض الصلح على المغول مقابل مال وثياب ودواب فقبلوا منه ذلك وانصرفوا عنه دون أن يتعرضوا لبلاده بأذى. كذلك تعهد حكام الجزء الجنوبى لإيران (إقليم كرمان) بدفع جزية ضخمة للغزاة المغول.

ومن الذين قبلوا الجزية أيضا حاكم إنطاكية وغيره من حكام المدن المسيحية المجاورة وكذلك فعل هيثوم ملك أرمينيا الصغرى وبدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل فكل هؤلاء دفعوا جزية سنوية للمغول أملاً فى الإفلات من شرهم.

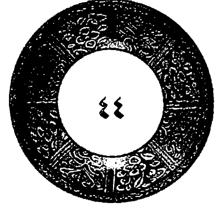
أما كوريا التى تعرضت لهجوم جنكيزخان فقد خضع ملكها سنة ٦٣٩هـ / ١٢١٤م، ووعد بدفع جزية سنوية وإرسال رهائن إلى أوكتاى الخان الأعظم آنذاك فى عاصمته قراقورم.

وفى أثناء حكم توراكينا خاتون سنة ٦٣٩-٦٤٤هـ/ ١٢٤١-١٢٤٦ م حكم المغول على سلاجقة بلاد الروم وألزموا صاحبها غياث الدين كيخسرو السلجوقى أن يحمل إليهم كل يوم ألف دينار ومملوكا وجارية وفرسا وكلب صيد.

وواضح من تحديد الجزية يوميا هنا بدلا من أخذها سنويا مدى إمعان المغول فى إذلال خصومهم وإهانتهم، غير أن هذا التقدير لم يعجب الخان الأعظم كيوك ٦٤٤-٦٤٦هـ/١٢٤٨-١٢٥٠م- وكان رجلا حاد الطبع سريع الغضب - فحدده على شكل آخر وهو ١,٢٠٠,٠٠٠ دينار، ٥٠٠ من الثياب الحريرية الموشاة بالذهب، ٥٠٠ حصان، ٥٠٠ جمل، ٥٠٠ رأس من الغنم فضلا عن مقادير ضخمة من الهدايا تضارع فى القيمة هذه المقادير وجعل ذلك سنويا بعد أن تحقق الغرض المطلوب.


قبر أولجايتو

وفى الرسالة التى صدرت عن أوغول قاميش - أرملة الخان الأعظم كيوك وكانت وصية على عرش المغول بعد وفاته سنة ٦٤٤هـ ردا على سفارة الملك لويس التاسع إلى المغول مطالبة إياه بالجزية « لذلك ننصحك أن تبعث إلينا - عاما بعد عام - بشىء من ذهبك



وفضتك وبذلك تبقينا أصدقاءك، فإن لم تفعل هذا دمرناك أنت وشعبك كما فعلنا مع من ذكرنا لك من الملوك».

ولم يسلم جنوبى روسيا (القبجاق) من فرض جزية سنوية ثقيلة فرضها باتو حفيد جنكيزخان، حقا أن الروس حاولوا التخلص منها لكن المحاولة فشلت وشرط عليهم باتو أن يؤدوا هذه الجزية إليه أو إلى الخان الأعظم وإلا فقدوا أرضهم.

وفى عهد الخان الأعظم قوبيلاى نفذ المغول - بواسطة الأسطول الحربى - إلى الهند الصينية وجاوة وأخذوا منهما الجزية، وعندما رفضت بورما دفع الجزية حطت جيوش مغولية على مدينة (باجان) ونهبتها وهدمت قلعتها.

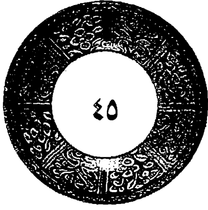
وهكذا استطاع المغول من خلال نظام الجزية أن يوجدوا مصدرا ماليا استنزف قدرات الآخرين.

ج- المصادرة:

ويقصد بها الاستيلاء على ممتلكات الغير بالقوة وتحويلها إلى خزانة الخان المغولى، حقا أن المغول كانوا فى حالة حرب وأنهم صادروا أموال أعدائهم بعد هزيمتهم لكن هذه الأموال كانت السبب الرئيسى وراء هذه الحرب، وأن المفاوضات التى كانت تسبق الحرب والتعلل بفتح طرق التبادل التجارى وحسن الجوار كلها كانت من حيل السياسة التى يتقنها المغول،والتى كانوا يخفون وراءها أطماعهم فى ثروات الآخرين الذين لم يكونوا أغبياء كى يفهموا وإنما كانوا ضعفاء فلم يقاوموا أو يحسنوا الاستعداد للمواجهة مع عدو مدرب صبور حرفته ومورد رزقه الأساسى هو الحرب.

وعلى سبيل المثال فقد صادر جنكيزخان كل ما وقع تحت يده من كنوز الصينيين ونفائسهم سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م وتلك لم تكن للمغول عهد بها من قبل، وفى سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ولمّا فرغ المغول من مدينة مازندران ومضوا فى طريقهم نحو مدينة الرى عثروا على تركان خاتون والدة السلطان الخوارزمى الشريد علاء الدين ووجدوا معها أموالا عظيمة فيها كل غريب ونفيس مما لم يشاهد مثله من الجواهر وغيرها فاستولوا على ذلك كله وصادروه.

أما هولاكو الذى كان مكلفا من قبل أخيه الخان الأعظم منكو بتدمير قلاع الإسماعيلية وبغداد عاصمة الخلافة العباسية فقد أرسل فى سنة ٦٥٦ هـ /١٢٥٨م - بعد سقوط بغداد - الخزائن والأموال الوافرة التى أتى بها من بغداد إلى أذربيجان وكذلك كل ما غنمه من قلاع الإسماعيلية والروم والكرج واللور والأكراد، وكلف الملك مجد الدين التبريزى ببناء عمارة عالية شديدة الإحكام على جبل يقع على ساحل بحيرة أرومية ثم صهر الكنوز كلها وجعلها سبائك



ووضعها هناك، وأرسل بعضا من تلك التحف والأموال إلى حضرة القآن منكو مع بشارات الفتح والنصر.

فلما استقر المغول فى البلاد المفتوحة وسكنت ثائرة الغزو واختلط المغول بالأهالى المحليين وعاشوا معهم فى بلادهم أصبح لزاما عليهم أن يجدوا أسلوبا جديدا للمصادرة فكان أن عمد المغول الإيلخانيون إلى إلصاق تهم الاختلاس أو الاتصال بالمصريين أو دس السم للآيلخان المتوفى أو التآمر لخلع الإيلخان الحالى... إلخ إلى كبار موظفى الدولة ولم يكن هؤلاء فى الغالب من المغول وإنما كانوا من أهالى البلاد المفتوحة، وسرعان ماكان يصدر الأمر بالإعدام الذى كان يشمل عادة أسرة المحكوم عليه أيضا ثم تتم المصادرة فتشمل تحويل جميع أملاكه وأمواله هو وأسرته كلها إلى خزائن الإيلخان.

ومن أشهر الوزراء الذين صودروا صاحب الديوان شمس الدين الجوينى الذى وزر لهولاكو وابنيه آباقا وتكودار من سنة ٦٥٧ إلى سنة ٦٨٣هـ وهى مدة تزيد عن ربع قرن، فقد اتهمه أرغون بأنه دس السم لأبيه آباقا خان سنة ٦٨٠هـ. وفى ٤ شعبان سنة ٦٨٣ هـ قتلوه فى مدينة (أهر) الإيرانية، فبادر الأمير بوقا (نائب الإيلخان) بإرسال الأمير على إلى تبريز للاستيلاء على أملاك الصاحب وأمتعته.

أما الوزير النابه رشيد الدين فضل الله الهمذانى صاحب الكتاب الشهير «جامع التواريخ» فقد اتهم بدوره بأنه تعمد قتل أولجايتو خان بأن أعطاه الدواء المسهل الذى عجل بوفاته، ولم يغفر المغول له كبر سنه أو خدمته الطويلة لهم فقد وزر من سنة ٦٩٧ إلى سنة ٧١٨ هـ لغازان وأخيه أولجايتو ثم لابنه أبى سعيد فكان جزاؤه أن قتلوه بطريقة بشعة بالقرب من تبريز بأن شقوه نصفين فى ١٧ جمادى الثانية سنة ٧١٨ هـ وبعد مقتله نهبت ثروته الطائلة، وتم تدمير الحى الذى كان قد أنشأه بالقرب من تبريز، ثم صودرت أملاكه حتى تلك التى كان قد وقفها على الأعمال الخيرية وكذلك صودرت أملاك أبنائه.

وهكذا استغل المغول ضعف غيرهم واستطاعوا من خلال الضريبة الثقيلة والجزية المرهقة والمصادرة الظالمة أن يثقلوا كواهل الشعوب الواقعة تحت سلطانهم بكثير من ألوان الشقاء والتعاسة إذ لم يكن بمقدور شخص واحد أن يفلت من مطالبتهم له بالمال على أى طريقة كانت حتى تعطلت الحياة العامة أو أوشكت فى كثير من البلاد الخاضعة لهم.

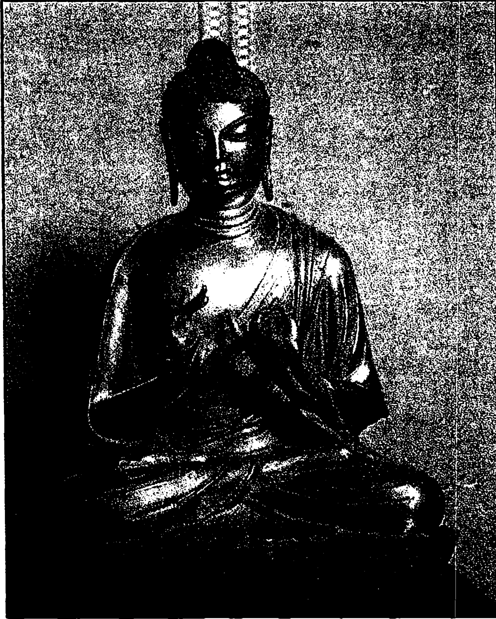
واقتصاد هذا شأنه ما كان له أن يصمد طويلا، فما إن تناقصت القوة العسكرية التى كانت تفرضه أو تنامت تلك القوة عند المستضعفين من غير المغول حتى اهتز هذا الاقتصاد بعنف لأنه لم يبن على ركائز ثابتة، ولم يقم على دعائم أصلية.

الحياة الدينية:

يشكل الدين مقوما أساسيا فى حياة كثير من الشعوب، والمغول وهم شعب بدوى مغرق فى البداوة لم يعرفوا - فى بادئ الأمر - دينا معينا واضح المعالم، وأغلب الظن أن مرجع ذلك يعود إلى حياة العزلة التى عاشوها فى منغوليا القارية التى لم يفكر كثير من الدعاة فى اقتحام صحاريها لما يحتويه ذلك من مخاطر جسيمة لا تؤمن عواقبها ومن ثم فإنه يمكن قبول الرأى القائل بأن المغول كانوا آنذاك لا يؤمنون بدين ولا شريعة ولا يعرفون حلالا ولا حراما.

ويبدو أن حياتهم كانت تسير وفقا للأعراف البدوية التى كانوا قد درجوا عليها جيلا بعد جيل وتوارثوها عن الآباء والأجداد حتى أصبحت تمثل القانون العام الذى يحكمون من خلاله على سلوكياتهم وسلوك الآخرين حيالهم.

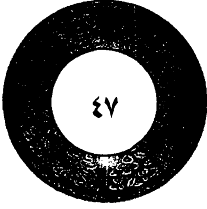
وأمام جبروت الطبيعة القاسية وفقر البيئة المجدبة التمس المغول قوة أكبر اعتقدوا أنها تحميهم من الأخطار المحدقة بهم أو تعود عليهم بالنفع فى أجسامهم وعقولهم أو قد ترعى أبناءهم وحيواناتهم، وعلى هذا فقد كان منهم مَنْ يسجدون للشمس عند طلوعها ومنهم من يعظمون النجوم ويعبدونها ومنهم من يعبدون النار كما كان منهم من يعبدون أرواح أجدادهم لاعتقادهم أن لها سلطانا عظيما على حياتهم وعلى حياة أعقابهم أيضا.



بوذا - تمثال برونزى مطلى بالذهب

وبدهى أن هذا الاتجاه عند المغول كان مرده الخوف من الأذى وعدم القدرة على الاهتداء إلى الله بصورة كاملة، وبالطبع استغل الكهان والمشعوذون والسحرة من الشامان هذه الفرصة ونشروا خرافاتهم وأساطيرهم بين المغول وأمعنوا فى ذلك كثيرا حتى أصبحت لهم مكانة خطيرة فى نفوس العامة والحكام على السواء.

وكذلك أدى اتصال المغول بالصينيين والأويغور إلى انتشار البوذية بينهم فقد نشط الدعاة البوذيون لترويج مذهبهم مستغلين ضعف الشامانية كديانة من جهة وخلو الساحة من دين سماوى من جهة أخرى، وهكذا بدأ المغول



ينتقلون من عبادة الطبيعة إلى عبادة الأصنام البوذية التى صنعت فى الأصل كتذكار لبوذا ثم عبدها البوذيون زلفى ثم نقلوا فكرهم هذا إلى غيرهم ومن أولئك المغول.

وعن طريق قوافل التجارة التى انتشرت عبر الطرق التجارية من إيران إلى تركستان ثم إلى منغوليا انتقلت إلى المغول أديان جديدة تختلف عن وثنية الشامانية والبوذية، فقد استطاع كلٌّ من المسيحية والإسلام أن ينفذ إلى المغول على حين ظلت اليهودية على عزلتها فلم يلق إليها المغول بالاً؛ لأنها لا تناسب بيئتهم أو تكوينهم النفسى، ونجد لدى المؤرخ القلقشندى (ت/ ٨٢١هـ) نصا يشير فيه إلى أن بعض المغول قد اعتنقوا اليهودية وهذا النص ليس بدقيق إذ لا دليل عليه، ولا تأييد له فى مصادر أخرى.

وفى الحقيقة فإن خروج المغول فى أثناء حملات الغزو المتتابعة ضد جيرانهم قد عمَّق اتصالهم بالأديان الثلاثة البوذية والمسيحية والإسلام حيث كانت الشعوب التى اختلطوا بها تضم أهل الديانات الثلاث.

وبالطبع فإن هذه الأديان التى لم تكن تستند إلى قوى عسكرية تحميها فى وجه المغول الغزاة العتاة نهضت كى تكشف عن جوهرها وتعبر عن نفسها وعن منهجها فى الدعوة معتمدة على وسائل مختلفة، ومن هنا نشب الصراع فيما بينها، وهذا ما عبَّر عنه أحد المستشرقين حين قال: «وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، وكانت كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى الأقطار والأقاليم».



أحد الأوثان الصينية

الياسا والدين:

اختلفت آراء المؤرخين حول الدين الذى كان يعتنقه جنكيزخان، فبعضهم يرى أنه كان لا يؤمن بأى دين، والبعض الآخر يرى أنه كان يدين بالشامانية، والرأى الثانى أرجح؛ لأن المغول قبل زمن جنكيزخان وبعده بقليل كانوا يدينون فى غالبيتهم بالشامانية، كما أن جنكيزخان الذى



اتصف بالحنكة وسعة الأفق لم يكن ليعزف عن دين آبائه وأجداده فى وقت كان فى أمس الحاجة فيه إلى مناصرة أتباعه له ضد أعدائه من المغول والأتراك فى منغوليا.

ويؤكد ذلك ما اشتهر عن جنكيزخان من أنه كان قبيل اشتباكه مع أعدائه فى معركة حاسمة يصعد فوق تل عال ويكشف عن رأسه متضرعا إلى ربّه كى يؤازره فى معركته القادمة ويظل على هذا الحال ثلاث ليال متصلة وهو صائم على حين يمنع حراسه أى شخص من الاقتراب منه.

أما الياسا التى ألزم جنكيزخان المغول باتباعها إلزامًا كاملاً فقد تضمنت بعض القضايا الدينية ومنها:

أ- الاعتقاد بإله واحد قاهر يهب الملك لمن يشاء ويسلبه ممن يشاء وهو قوى جبار حسب معتقدهم الوثنى.

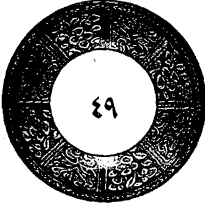
ب- تعظيم جميع الملل والأديان من غير تعصب لملة أخرى.

ج- تعظيم رجال الدين على اختلاف دياناتهم بإعفائهم من أداء الواجبات الحكومية التى تفرض على غيرهم ومن الضرائب وقبول وساطتهم أثناء عمليات الحصار أو الغزو.

وينبغى على المرء أن يدرك أن جنكيزخان كان يفرق تماما بين نصوص الياسا والواقع الذى تفرضه مقتضيات الحرب أو السياسة، بمعنى أنه إذا تعارض نص فى الياسا مع ظروف طارئة أو ملحة فإن جنكيزخان كان لا يتردد لحظة فى تجاوز هذا النص، وتاريخ المغول - على امتداده - حافل بكثير من المواقف التى تم فيها تجاوز الياسا دون حرج سواء من جنكيزخان نفسه أم من خلفائه، وعلى سبيل المثال تنص الياسا على أن يلى العرش المغولى أكبر الأمراء الأحياء سنا، لكن جنكيزخان قدم ابنه الثالث أوكتاى على أخويه جوجى وجغتاى، وتم ارتقاؤه العرش فعلا بعد وفاة أبيه جنكيزخان، فسجل بذلك مخالفة خطيرة ترتب عليها كثير من الفتن فيما بعد.

وهذا التناقض كان ينبع أصلا من عوامل عدة أبرزها حدة المزاج التى اتصف بها المغول والتى جعلت تصرفاتهم تميل إلى هذا الاتجاه ثم تنحرف عنه فجأة إلى اتجاه مغاير له تماما، فهم على الرغم من اعترافهم بإله عظيم الشأن قادر كانوا لا يؤدون له الصلوات، وإنما يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التى كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم.

وفيما يتعلق بالقضية الثانية فإن تعظيم المغول لجميع الملل والأديان من غير تعصب لملة أو أخرى قد دل بوضوح على مدى براعة جنكيزخان وحنكته السياسية ذلك أنه كان يدرك تماما أثر القوة



الروحية الكامنة فى الدين ولهذا ترك للمغول حرية التدين، فقد كان يخشى أن يؤدى التعصب الدينى - إذا انتشر بين المغول- إلى نشوب حروب طاحنة بين القبائل المغولية تضعف من كيانها وتعود بها إلى حالة التفكك والاضطراب التى كانت تتيح للقوى الأجنبية السيطرة وفرض الضرائب على المغول.

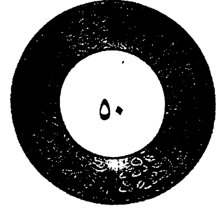
وقد عمد جنكيزخان بكل وسيلة ممكنة إلى إثبات قوة إيمانه بالحرية الدينية، ومن ذلك أنه بعد استيلاء كوجلك خان ملك النايمان على مملكة القراخطاى وبالتالى خضوع كثير من المدن الإسلامية منها بالأساغون وكاشغر وختن لسلطانه أمر الأهالى بترك الدين الإسلامى، وخيّرهم بين أمرين فإما أن يدينوا بالنصرانية أو البوذية وإما أن يتزيوا بزى البوذيين فحسب، ولما كانوا قد رفضوا التخلى عن دينهم فإنهم وافقوا على ارتداء زى البوذيين لكن انقطع الأذان وأوقفت الصلوات وأغلقت المدارس ودمرت، فلما جاء المغول وهزموا كوجلك أجازوا الأذان والتكبير وأداء الصلوات، ونادوا بأن لكل فرد أن يدين بالدين الذى يعتقده.

وكان أوكتاى بن جنكيزخان (٦٢٦-٦٣٩هـ) / (١٢٢٨-١٢٤١م) على شاكلة أبيه فى هذا الشأن ومن ثم فإنه حين قدم شخص وثنى - بإيعاز من أخيه جغتاى الذى كان يكره المسلمين - إلى بلاط أوكتاى وقال له: «لقد رأيت جنكيزخان فى المنام فقال لى: أبلغ ابنى أن يكثر القتل فى المسلمين لأنهم أناس فى غاية السوء» أدرك أوكتاى الحيلة بذكاء فكشف كذب القائل علنا وأشار بقتله.

وكذلك كان منكو حفيد جنكيز خان (٦٤٨-٦٥٧هـ)/ (١٢٥٠-١٢٥٩م) فقد أجرى بنفسه محاكمة لملك الأويغور، فلما اعترف بأنه كان ينوى قتل المسلمين فى بلاده فى أثناء سجودهم لأداء صلاة الجمعة أمر منكو أن يعاد هذا الحاكم إلى مدينته بيش باليغ وأن تقطع عنقه وأصحابه فى يوم الجمعة الذى كانوا قد حددوه لقتل المسلمين ودُعِى الناس جميعا إلى ظاهر المدينة ليشاهدوا التنفيذ.

أما جغتاى ثانى أبناء جنكيزخان وكان شامانيا كأبيه ومسئولا عن تطبيق أحكام الياسا الصارمة التى تخالف فى كثير من موادها الشريعة الإسلامية كما كان موتورا من المسلمين لمقتل ابنه مواتكن فى أثناء حصار المغول لمدينة (باميان) التى تقع بإقليم أفغانستان الآن سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، فإنه كان قد اتخذ من المسلمين وزراء ومستشارين له، وبنيت فى عهده جملة من المدارس والمساجد ببلاد ما وراء النهر وغيرها بعد أن تولى الحكم فى منطقة تركستان وبلاد ما وراء النهر عقب وفاة أبيه سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م.

وفى الحقيقة لم يكن الحكام المغول جميعا على شاكلة واحدة، فقد كان منهم من يصرح بكراهيته لدين معين أو يتعصب لدين بعينه وعلى سبيل المثال كان الخان الأعظم قوبيلاى (ت/ ٦٩٣هـ) وهولاكو (ت/ ٦٦٣هـ) وأرغون (ت/ ٦٩٠هـ) يكرهون الإسلام بشدة على حين كان بركة خان (ت/ ٦٦٤هـ) وتكودار (ت/ ٦٨٣هـ) وغازان (ت/ ٧٠٣هـ) من أشد مناصريه.



وعلى وجه العموم فإن ظاهرة احترام رجال الأديان المختلفة لدى المغول قد أسفر عنها التزام غالبية المغول بمفهوم الحرية الدينية لديهم ولدى الرعايا الخاضعين لهم وإن لم يخل هذا الأمر من أهداف سياسية أو تحقيق مصالح خاصة.

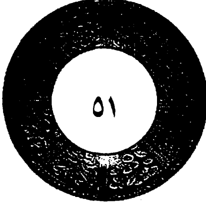
المناظرات الدينية:

اشتملت ديانة المغول الوثنية (الشامانية) على خرافات كثيرة وعلى نقاط ضعف خطيرة فلم تكن الديانة التى تكفى لإقناع العقل وإشباع النفس، وكان رجال الديانات الأخرى يعلمون جيدا أن المغول ليس عندهم دين واضح الحدود بيّن المعالم وأنهم يحبون الاطلاع على جميع العقائد التى تعرض لهم. ومن هنا أيضا اشتهر المغول بفضولهم فى سؤال الأجانب عن ديانتهم.

ولعله يمكن القول أن المناظرات الدينية وإن كانت وليدة الحرية الدينية لدى المغول فإنها أيضا إحدى ثمرات اتصال المغول بالأمم المجاورة، وقد كانت هذه المناظرات الدينية تجرى عادة فى حضرة الخان نفسه إلا أنها كانت تختلف كثيرا عما كانت عليه عند غيرهم من المعاصرين لهم فإن كوجلك ملك النايمان الذى استولى على مملكة القراخطاى فى تركستان، وأخضع المدن الإسلامية هناك لسلطانه دعا رجال الدين المسلمين لمناظرته، وكان هو نفسه قد تحول عن ديانته المسيحية إلى البوذية واجتمع فى ظاهر مدينة ختن عدد كبير ليشاهدوا المناظرة بين المسلمين والبوذيين وبرز له الإمام علاء الدين محمد الختنى وجلس تجاهه وشرع فى مداحضته فى الأديان الأخرى وقدم البراهين الدامغة على صحة الإسلام، فوقف كوجلك أمامه مذهولا متحيرا ثم أصدر كلاما نابيا بحقه وبحق الشرع الإسلامى، فقال الإمام له، فليملأ فمك ترابا يا عدو الدين يا لعين، فأمر كوجلك بسحبه وإجباره على التراجع عن الإسلام واتباع الكفر، ثم ألقى فى السجن وعذب بشتى الوسائل وفى النهاية صلبوه على باب مدرسة ختن، فمات شهيداً.

وهكذا انتهت مناظرة ملك تركى نايمانى تحول عن المسيحية إلى البوذية إلى فاجعة مروعة للمسلمين وعندما نقارنها بأى مناظرة أخرى أجراها المغول يتضح الفارق على الفور؛ ففى عهد جنكيزخان (٦٠٣-٦٢٤)هـ/(١٢٠٦-١٢٢٧م) كان رجال الدين البوذيون يقومون بمناظرة رجال الدين الشامانيين فى حضرته ولم تكن هذه المناظرات تنتهى إلى معاقبة أحد الطرفين أيا كان ما يجرى فيها.

ويروى مؤرخ محدث أن جنكيزخان كان يناظر رجال الدين بنفسه أحيانا فقد سأل علماء الإسلام فى بخارى بعد سقوطها فى يده سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م عن حقيقة الإسلام وأركانه فقيل له: إن أولها توحيد الله سبحانه وتعالى فقال أنه يعتقد أن الله واحد، كذلك وافق على بقية أركان الإسلام ما عدا الحج إذ قال عنه أنه لا فائدة منه لأن الأرض كلها لله ولا داعى لتخصيص مكان معين لذلك.



وفى عصر الخان الأعظم كيوك ٦٤٤-٦٤٦هـ/ ١٢٤٦-١٢٤٨م، أغراه النصارى فى بلاطه بأن يدعو الإمام نور الدين الخوارزمى ليناظرهم فى الدين، فجرت المناظرة فى حضرة كيوك على النحو التالى:

النصارى: بيِّن لنا أى ضرب من الناس كان محمد؟

الإمام: هو خاتم النبيين وسيد المرسلين ورسول رب العالمين، قال عنه موسى الذى أعجب بمناقبه اللهم اجعلنى من أمة محمد، وبشر عيسى برسول يأتى من بعده اسمه أحمد.

النصارى: أن النبى هو من يعيش عيشة روحانية خالصة وليس له تعلق بشهوة النساء، أو اهتمام بهن كما كان عيسى مثلا، هذا بينما كان لمحمد تسع من النساء وعدد من الأولاد فكيف تفسرون هذا ؟

الإمام: لقد كان للنبى داود عليه السلام تسع وتسعون من الزوجات وكان لسليمان ثلاثمائة وستون حليلة وألف سرية.

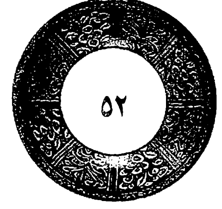
النصارى: هذان لم يكونا من الأنبياء بل من الملوك.

وفى آخر الأمر أوقف النصارى المناظرة والتمسوا من كيوك أن يأمر الإمام بإقامة شعائر الصلاة جماعة، فدعا الإمام أحد المسلمين وشرعا فى الصلاة وجهد النصارى بكافة الوسائل فى إعاقة صلاتهما فانهالوا عليهما ضربا عند السجود ودقوا رأسيهما بالأرض، ولكنهما لم يقطعا صلاتهما وبعد أن سلما انصرفا بهدوء وفى تلك الليلة هلك كيوك، وفى اليوم التالى اعتذر أولاده للإمام وجهدوا فى ترضيته.

وفى عصر الخان الأعظم منكو ٦٤٨-٦٥٧هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٩م، كان علماء المسيحية والبوذية والإسلام جميعا على قدم المساواة أمامه ويلقون الاحترام منه بلا تفريق بينهم وقد منحهم قدرا كبيرا من الحرية فكانوا يتناظرون فى حضوره فى أمن وسلام.

وقد قال منكو تعقيبا على إحدى المناظرات الدينية التى أجريت فى حضور هيثوم ملك أرمينية الصغرى والقس وليم رويرك مبعوث لويس التاسع ملك فرنسا: «نحن المغول نعتقد أنه يوجد إله واحد به نحيا ونموت وأن قلوبنا تتجه نحوه بإخلاص، ولكن الله الذى جعل لليد أصابع مختلفة قد أرشد الناس إلى عبادته بطرق عديدة، لقد أعطاكم الكتب المقدسة ولكن المسيحيين لا يتبعونها، أما نحن فقد أعطانا الشامانيين (Shamanas) ونحن نفعل ما يأمروننا به فنعيش فى سلام».

وفى عصر الخان الأعظم قوبيلاى ٦٥٨-٦٩٣هـ/ ١٢٦٠-١٢٩٥ م استمرت المناظرات الدينية وكانت تجرى فى بلاطه بين دعاة الكنفوشيسية والبوذية والمسيحية والإسلام وبلغ من اهتمامه



بهذه المناظرات أن أمر بترجمة أجزاء من القرآن الكريم والإنجيل والتوراة وتعليمات بوذا إلى اللغة المغولية.

مكانة رجال الدين:

شغل رجال الدين مكانة عالية لدى المغول فقد كان للكاهن الشامانى الذى يقوم بوظيفة الطبيب المقام الأول لأنه وحده - حسب اعتقاد المغول - يستطيع أن يغير الخير أو الشر وكان هذا الكاهن يتقدم على كافة أصحاب المقامات فى حاشية الإمبراطور وكان عادة ما يظهر فى ثياب بيضاء فضفاضة.

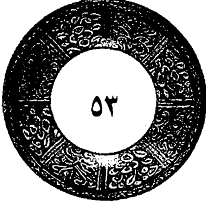
أما رجال الدين البوذيون فقد كانوا أكثر كفاءة وخبرة وتحضرا من نظرائهم الشامانيين، ومن خلال المناظرات التى جرت بين الطرفين فى حضرة جنكيزخان أثبتوا تفوقهم وعجز خصومهم فكان أن عهد جنكيزخان إلى كثير منهم بإدارة أعمال ديوانه.

وتمكن البوذيون من التأثير على جنكيزخان بدرجة أكبر فكان أن عهد إلى بعضهم بمهمة تعليم أولاد المغول وبخاصة أبناؤه أبجدية الخط الأويغورى، ومن هنا نقلوا تعاليم البوذية إلى حفيديه قوبيلاى وهولاكو وغيرهما، وليس أدل على براعة رجال الدين البوذيين من نجاحهم فى تحويل العديد من الحكام المغول عن الشامانية ديانة المغول الأولى إلى البوذية على حين عجز غيرهم عن ذلك.

أما رجال الدين المسيحى سواء أكانوا من النساطرة أم من الكاثوليك الذين أوفدهم البابا فى روما أو بعض ملوك غربى أوروبا إلى عاصمة المغول فإنهم أمام نجاح البوذيين عمدوا إلى استقطاب نساء المغول وبخاصة زوجات الحكام إلى حظيرة المسيحية، ولعل هذا يفسر سر تعاطف حكام المغول مع المسيحية رغم عدم اعتناقهم لها.

وفى الحقيقة كانت فرصة رجال الدين المسيحى كبيرة فقد كانوا مؤيدين من قبل زوجات الحكام المغول وأمهاتهم وكان بعضهم مكلفا بتربية أبناء هؤلاء الحكام وشغل البعض الآخر منهم وظائف مهمة فى الوزارة أو الديوان، إلا أن غالبية هؤلاء وخصوصا النساطرة كانوا على درجة عالية من الجمود والجهل حتى بكتب صلواتهم المدونة بالسريانية، كما اتهم عدد منهم بالاتجار بالمناصب الدينية والحرص على جمع الثروات من وراء تعليم الطقوس المسيحية، واتهم عدد آخر منهم بالإغراق فى المباذل.

أما رجال الدين المسلمون فكان موقفهم غاية فى الصعوبة - قبل سقوط الدولة الخوارزمية وبعده - إذ كان عليهم أن يأخذوا موقف الدفاع عن معتقداتهم مستندين إلى جوهر دينهم وثقافتهم وقدرتهم على مقارعة الحجة بالحجة، ولقد سبق الحديث من قبل عن موقف الإمام علاء الدين محمد الختنى، وموقف الإمام نور الدين الخوارزمى فى مواجهة تحدى رجالات الديانات الأخرى.



وعلى وجه العـموم فإن المغول قـد التزموا بمعـاملة رجال الدين على اختلاف عقائدهم معاملة كـريمة، حقًا كانت هناك بعض المواقف التى خرج فيـها المغـول عن هذه القاعدة إلا أنهـا كانت مـواقف استثنائيـة ارتبطت فى الغالب بظروف سياسية أو اقتصادية مؤقتة ومنها على سبيل المثال:

* أن جنكيـزخان عـقب سقـوط مدينة بخـارى فى يده سنة ٦١٦هـ /١٢١٩م أمر العلماء والفقهاء والسادات والمشايخ أن يدخلوا اصطبلات الخيل وأن يقفوا موقف السواس للمحافظة على الخيـول، وأما رجاله فنهضوا إلى رفس أوراق المصاحف بأقدامـهم وتحويلها إلى مواضع القـاذورات وكان من بين الحاضرين الإمـام جلال الدين على بن الحسن الرندى قـدوة السادات فى بلاد ما وراء النهر والإمـام العالم ركن الدين إمام زادة.

* حرمان حاخامات اليهود فى جميع آسيا الوسطى والغربية من ميزة الإعفاء الضريبى الذى كفلته الياسا.

* تدمير العديد من الكنائس الروسية بمن فيـها من رجال الدين المسيحى أو من استجار بهم بها من الأهالى هناك فى أثناء عمليات الغزو.

أيا كانت الحال فمن المؤكد أن عـصر جنكيزخان وخلفائه كان يتضمن التأكـيد على كثير من مظاهر التسامح الدينى مع الشعوب التى خضعت لنفوذهم وهو أمر يحسب للمغول ويقلل- بعض الشىء - من الفظائع التى ارتكبوها فى حق البشرية والحضارة الإنسانية.

الحياة السياسية:

لم يكن المغول الأول يعرفون الكثير عن نظم السياسية لدى الأمم المتحضرة ذلك أن حياتهم كانت فى الأصل بدائيـة ساذجة كمـا كانت علاقاتهم مـع جيرانهم تقوم فى الغـالب على الإغارة بغرض السلب والنهب.

وقد أدرك جنكيزخان حقـيقة الأمر عندما نصحه وزيره الصينى - يى. ليـو جوتساى، فقد أوضح له أنه وإن كـان قد استطاع إخـضاع كـثير من الدول والشـعوب بقـوة السلاح غـير أنه لن يستطيع الاستمرار فى حكم هذه الشعوب مستندا إلى القوة العسكرية وحدها.

وجنكيزخان الذى كان يحسن الإصغـاء إلى الآخرين والاستفادة من تجاربهم بادر إلى إعطاء مسـتشاريه من الصـينيين والأويغور والخـوارزميين كافـة الصلاحيـات التى تمكنهم من وضع نظام سياسى وإدارى يكفل للمغول السيطرة على مختلف شئون الإمبراطورية الواسعة.

٥٤

وبالطبع فإن التقسيم الإدارى الذى ظهر منذ أواخر عصر جنكيزخان كان مرتبطا إلى حد كبير بتوزيع حصص التركة الضخمة على أبناء جنكيزخان من جهة وبأصول جغرافية وسكانية من جهة أخرى، وكان هذا التقسيم على النحو التالى:

أ- الخاقانية:

وهى مركز السلطة الرئيسية، وفيها عاصمة المغول الكبرى قراقورم أى الرمال السوداء حيث يعتلى الخان الأعظم عرش المغول بعد تنصيبه فى المؤتمر العام (القوريلتاى) الذى يحضره غالبية الأمراء والقواد من المغول وغيرهم.

رسم لإمبراطور المغول

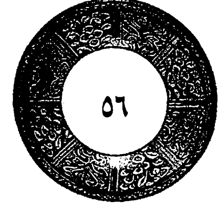
خريطة (٢)

وكانت منطقة الخـاقانية تمتد لتشمـل كل منغوليا وما يليها شـرقا حتى كـوريا ثم تمتد من الصـين الشمـالية إلـى بلاد التبت فى الجنوب، ومنطقـة الخاقـانية بهذا الامـتداد كـانت تشكل شرقى الإمبـراطورية المغوليـة ومعظم سكانها من السلالة المغولية الصفراء كما سبق القول.

وطول فترة ولاية خلفاء جنكيزخان: أوكـتاى وكيوك ومنكو ظلّ مركز الحكم الرئيسى الذى يسير الإمـبراطورية مستقرا فى قراقورم العاصـمة حيث توفى هذا الأخير سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م فنشب على أثر وفاته صراع مرير على السلطة بين أخيـه الأصغر أريق بوقا وأخيه الآخر قوبيلاى الذى كـان يقود جيوش المغول - آنذاك - فى الصين واسـتمر هذا الصراع الدموى حتى اسـتسلم أريق بوقا لأخـيه قوبيـلاى فى نهاية المطاف سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، فنقل قـوبيلاى العاصمة المغولية من قراقورم إلى بكين.



نقش بارز لتنين على القصر الإمبراطورى - بكين



وقد استمر الخان الأعظم قوبيلاى وخلفاؤه مقيمين فى بكين العاصمة السابقة لأباطرة الصين الشمالية حيث جذبتهم الحضارة الصينية إليها بقوة وسلالة فازدهرت بكين وأصبحت مركزا للتجارة العالمية وتوافد عليها سفراء البابا فى روما وملوك غربى أوروبا وغيرهم على حين أخذت قراقورم العاصمة القديمة للمغول تندثر تدريجيا وتفقد أهميتها بل وشهرتها التاريخية التى كانت من قبل ذائعة الصيت.

ب- الولايات التابعة:

أدرك جنكيزخان بفطرته أن المغول مجبلون على الحرب والفروسية وأنه إن لم يقذف بهم إلى مقارعة الآخرين فيشغلهم بهم؛ فإن المغول سيعودون حتما إلى منزلق الصراع القبلى الدموى فيما بينهم، لذلك انتشرت كتائبه هنا وهناك خارج منغوليا سعيا وراء أسلاب جديدة وضحايا جدد.

ويمكن تقسيم الولايات الكبيرة التى خضعت لجنكيزخان وخلفائه على النحو التالى:

١- خانية تركستان وبلاد ما وراء النهر:

وتلك تلقت - عقب فتوحات جنكيزخان فى الصين الشمالية - أعنف ضربات الغزو المغولى، حقا إنها بدأت بملاحقة المغول لكوجلك ملك الأتراك النايمان الهارب بعد هزيمة أبيه تايانك أمام جنكيزخان سنة٦٠٣ هـ/١٢٠٦م غير أنها انتهت بالاستيلاء على كل ممتلكات الأويغور والقراخطاى والخوارزميين وسقوط كبرى المدن الإسلامية فى أيدى المغول ومنها ختن، بخارى، وسمرقند... إلخ.

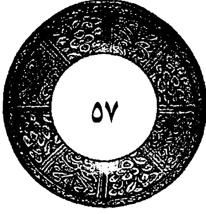
وقد منح جنكيزخان تلك الخانية لثانى أبنائه جغتاى - على كراهيته للمسلمين - ليحكمها هو وأبناؤه من بعده فاتخذ من مدينة الماليق عاصمة له.

وبعد وفاة جغتاى سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م فإن خلفاءه بدأوا فى التصارع على الولاية من بعده حتى إن هذه المنطقة لم تعرف الاستقرار إلا نادرا فقد تعرض كثير من المدن الإسلامية بها للدمار الشامل على حين لم يقم المغول ببناء أى مدن جديدة خلال حكمهم الطويل لها.

٢- خانية القبجاق:

وتلك كانت تمتد من حدود منغوليا فى اتجاه الغرب فتشتمل على مساحة واسعة من الأراضى، وفى عهد جنكيزخان كانت ممتلكات ابنه جوجى تضم استبس القبجاق فى غربى نهر ايرتيش حتى حدود بلغار الفولجا، أى أنها كانت تضم معظم الأراضى فى جنوبى روسيا.

وكان جنكيزخان قد عهد بهذه المملكة إلى جوجى أكبر أولاده غير أنه توفى قبل وفاة أبيه بستة أشهر أى فى ربيع الأول سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م، ولما توفى جوجى خان جلس ابنه الثانى باتو على عرش أبيه وقام مقامه فى حكم رعيته وقد أطاعه إخوته وانقادوا له.



وفى عهد الخان الأعظم أوكتاى بن جنكيزخان كلف باتو بمهاجمة شرقى أوروبا، ونجحت قواته فى دحر مختلف القوات التى تصدت له سواء فى جنوبى روسيا أو المجر أو بولندا فأدرك الأوروبيون حينها مدى الخطر الداهم الذى ينتظرهم على أيدى المغول.

ولم ينقذ أوروبا من ذلك كله إلا وفاة أوكتاى سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م فقد انسحب المغول طواعية عائدين أدراجهم إلى الوراء حتى يتمكن أمراؤهم وقوادهم من حضور القوريلتاى العام للنظر فى تسيير شئون الدولة، فقد آلت الأمور إلى توراكينا خاتون أرملة أوكتاى، وتوفى جغتاى أيضا وكان آخر أبناء جنكيزخان الكبار الذين بقوا على قيد الحياة.

وكان فى نية باتو أن يعاود التوجه مرة أخرى ناحية شرقى أوروبا غير أن سابوتاى (Sabutai) وهو من أبرز قواد جنكيزخان المحنكين رأى ترك المجر وجنوبى بولندا وشأنهما حتى تبقى منطقة شاسعة من البلاد المدمرة بين المغول والخصوم الذين لم يخضعوا بعد لسيطرتهم.

وبدأ باتو فى الاستقرار فى مملكته التى اشتهرت باسم خانية القبجاق واختار موقعا على شرقى نهر الفولجا شمالى غرب بحر الخزر (قزوين) فأقام عاصمته (سراى) فيه، تلك التى غدت تمثل مركز التهديد العسكرى المغولى المباشر لشرقى أوروبا.

وفى عصر باتو شهدت مدينة سراى أحداثا على درجة كبيرة من الأهمية إذ إن باتو كان أكبر أمراء بيت جنكيزخان - آنذاك - سنا ومكانة، وكان المغول يرجعون إليه فى أخطر شئون حياتهم وأهمها وهو عقد المؤتمر العام (القوريلتاى) واختيار خان جديد. ولعل أكبر دليل على أهمية باتو ومملكته أن غالبية السفارات السياسية والدينية الموفدة من قبل البابا فى روما أو ملوك غربى أوروبا كانت تمر بباتو ذهابا وإيابا إلى العاصمة المغولية المركزية فى قراقورم.

ولم تتأثر مكانة باتو بالموقف العدائى الذى اتخذه ضده الخان الأعظم كيوك فى سنة٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م وكان قد سيَّر نحوه جيشا ضخما لكن الوفاة عاجلت كيوك وهو فى الطريق صوب القبجاق، فلقى نحبه مريضًا.

ومرة أخرى هيمن باتو على قضية اختيار خان أعظم جديد فرشح منكو بن تولوى ابن جنكيزخان لتولى مهام هذا المنصب الخطير فأثبت كفاءة فى إدارة شئون الحكم أكدت حصافة باتو وخبرته بأحوال أسرة جنكيزخان وقدرات أفرادها.

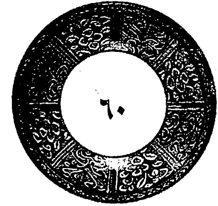
ولم يتخلف باتو عن المساهمة فى الإعداد لحملة هولاكو الشهيرة على الغرب الإسلامى فقد شارك وأتباعه بفرقة تزيد على عشرة آلاف جندى.

وظل باتو مؤثرا فى السياسة العامة للمغول حتى وفاته سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م فخلفه ابنه (سرتاق) الذى توفى فى نفس السنة، ثم تولى ابنه الآخر (أولاغجى) فلحق بأخيه حتى آل الأمر

فاتخذ من تبريز حاضرة



فى النهاية إلى بركة خان بن جوجى الذى يعد بحق أول حاكم مغولى يعتنق



من هناك فى جمع الضرائب التى فرضها المغول على إيران وما حولها، وأثبت أرغون آقا مهارة عالية فى إدارة الأمور هناك.

وهكذا بدأت تبريز فى الظهور عاصمة المغول فى خانية إيران وتوابعها حيث اجتمعت فيها الإدارة العسكرية والمدنية معا، وليس أدل على المكانة التى بلغتها تبريز - آنذاك - من أن بايجو قد استقبل فيها سفارة البابا أنوسنت الرابع سنة ٦٤٥هـ /١٢٤٧م برئاسة الراهب الدومينيكانى اسكلين، ورفض بايجو صراحة ما طلبه المندوب البابوى بأن يخضع المغول للسلطة الروحية للبابا، وحينما ارتحل اسكلين عائدًا فى ٦٤٥هـ/١٢٤٧ م أنفذ بايجو معه رسولين وهما أيبك (الأويغورى) وسركيس النسطورى فاستقبلهما البابا فى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م على أن هذه السفارة لم تسفر عن نتيجة إيجابية أو عملية.

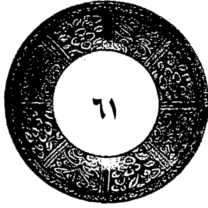
وكان كيوك خان عندما تولى عرش الخاقانية سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م قد رأى أن يعمل على تقليص نفوذ باتوخان زعيم مغول القبجاق وأن يحكم قبضته على الغرب فعيَّن القائد المغولى إيلجيغداى حاكما عسكريا على خانية إيران وتوابعها (بلاد الكرج - الأرمن - سلاجقة الروم) وجعل بايجو تابعا له.

ولما كان إيلجيغداى مسيحيا نسطوريًّا قد جرى تعميده منذ أعوام طويلة فإنه قد أوفد سفارة مغولية إلى القديس لويس التاسع ملك فرنسا وهو بجزيرة قبرص فى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، أى قبل مهاجمة مصر، وكانت السفارة تضم اثنين من النساطرة هما: داوود ومرقص، وتنطوى على عرض المساهمة فى الاستيلاء على بيت المقدس من أيدى المسلمين وكذلك بحماية المسيحيين على اختلاف مذاهبهم.

ومن المرجح أن فترة ولاية كيوك خان القصيرة لم تتح لهذه السفارات أن تسفر عن شىء عملى بل إن قائده المغولى (إيلجيغداى) قد تعرض للإعدام على أيدى رجال باتو خان زعيم مغول القبجاق، فعادت القيادة العسكرية لبايجو مرة ثانية فظل محافظا على سيطرة المغول سياسيا وعسكريا على المنطقة كلها مع نهوض أرغون آقا بمهامه الإدارية المختلفة، فما إن قدم هولاكو إلى إيران حتى آلت الأمور كلها إليه فاتخذ من مراغة فى شمال غربى إيران عاصمة له.

أعمال البروتوكول:

اتسمت حياة المغول السياسية بتغيرات واضحة نجمت عن انتشار حركة الغزو وزيادة الاتصال بالأمم المتحضرة واستعانة المغول برجال الإدارة فيها من ذوى الخبرة والمعرفة، وقد تمخض ذلك كله عن ظهور العديد من ألوان البرتوكول مثل:



أ- تقديم التقارير الدورية المكتوبة للخان حتى يكون على صلة مستمرة بالأحداث التى تجرى فى داخل الإمبراطورية أو ما يتصل بها.

ب- عرض الرسائل الديوانية على الخان حتى يقطع فيها بالرأى الفصل، فيبادر كل ذى اختصاص إلى تنفيذ ما يتعلق به من مهام، وغالبا ما كان يجرى الرد على هذه الرسائل الديوانية بالخط الأويغورى أو بلغة مَنْ يخاطبهم المغول.

ج- توثيق الرسائل الديوانية التى تصدر عن الخان الأعظم أو الأوامر الخانية (اليراليغ) أو أية أوراق رسمية أخرى باستعمال الأختام المختلفة الأشكال والأحجام والألوان.

د- إصدار البايزات المتعددة لتنظيم ما يمنحه الخان لرعاياه من امتيازات أو هبات أو تسهيلات خاصة حسب أهمية حاملها أو الشىء المنوط به.

هـ- إعداد سجلات خاصة لتدوين أقوال الخان بواسطة كتبة متخصصين من الأويغور والصينيين، وقد استفاد رشيد الدين فى كتابه تاريخ المغول ببعض هذه السجلات التى كانت محفوظة لدى غازان خان حاكم إيران المغولى (٦٩٤ : ٧٠٣)هـ.

و- تنظيم مراسم استقبال السفراء منذ قدومهم إلى مقر الخان وتسجيل أسمائهم فى الديوان وتخصيص السكن الملائم وتقديم الطعام المناسب لهم إلى أن يستقبلهم الخان.

كل ذلك أو معظمه تعلمه المغول من المتحضرين حولهم، وهو شىء يحمد للطرفين فقد خفف من جفاء المغول وخشونتهم وقرَّب بينهم وبين مَنْ كانوا البارحة ألد الأعداء وأبغض الخصوم.

وبالإضافة إلى ما سبق ونتيجة لاتساع الإمبراطورية وتنوع علاقاتها وتعدد مشاكلها ظهرت المناصب العامة فى حياة المغول وكانت تتدرج على النحو التالى:

أ- الخان الأعظم وهو الرئيس الأعلى للإمبراطورية ومصدر كل السلطات فيها ومقره العاصمة المركزية فى قراقورم ثم بكين فيما بعد.

ب- الإيلخانيون وهم نواب الخان الأعظم فى الولايات الرئيسية الثلاث وكانوا يحكمون باسمه ويختارون من أسرة جنكيزخان على النظام الآتى:ـ

١- أولاد جوجى فى خانية القبجاق وجنوبى روسيا.

٢- أولاد جغتاى فى خانية تركستان وما وراء النهر.

٣- أولاد تولوى فى خانية إيران والعراق وتوابعهما.

ج- الحكام الإداريون: وكان الخان الأعظم - فى بادئ الأمر - يختارهم بنفسه مثل محمود يلواج الخوارزمى وابنه مسعود وكركوز، وأرغون أقا الأويراتى، وكان أولئك يمثلون عصب الاستقرار فى حياة الإمبراطورية كلها لخبرتهم الطويلة فى أعمال الدواوين وجباية الضرائب ومعالجة آثار الحروب، وكان هؤلاء يعتمدون على الأكفاء من أهالى البلاد المفتوحة كالقضاة والجباة والكتبة وموظفى البريد وغيرهم.

على أن أهم ظاهرة سياسية لدى المغول كانت تتمثل فى المؤتمر العام «القوريلتاى» الذى كان يشترك فيه كافة الأمراء والقواد المغول، كما كان يسمح بالمشاركة فيه لملوك أو أمراء من الدول المجاورة أو سفراء ينوبون عنهم.

وكان القوريلتاى يعقد عادة عند اختيار خان جديد أو لمناقشة قضايا هامة مثل غزو جديد وتعيين نواب جدد فى المناطق المفتوحة، وتزخر المصادر العربية والفارسية والمراجع الأوروبية بتفصيلات وافية عن المؤتمرات التى تم فيها انتخاب جنكيزخان وخلفائه أوكتاى - كيوك - منكو وقد أولت الياسا القوريلتاى تنظيما واضحا من ثلاثة جوانب مهمة هى:-

أ- الإعدام لكل من يعلن نفسه إمبراطورا خلافا لإرادة القوريلتاى.

ب- الإعدام لكل من يتخلف عن الحضور.

ج- أحقية أكبر الأمراء الأحياء سنا فى تولى العرش.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد ظل اختيار الخان الجديد مثارا للاعتراض والمخالفة والفتن فقد كانت وصية الخان الراحل محل اعتبار واحترام كبيرين، كما كانت الياسا تنص أيضا على أن أصغر الأبناء له الحق فى أن يرث الجزء الأكبر من ممتلكات أبيه بما فى ذلك زوجاته.

وعلى وجه العموم فإنه يمكن القول أن السياسة العامة للمغول ظلت قائمة على تحقيق مصلحتهم الذاتية أولا، وأن كل ألوان التحالف التى أجروها مع الآخرين أو



رسم الإمبراطور

- من كتاب تاريخ المغول - رشيد الدين



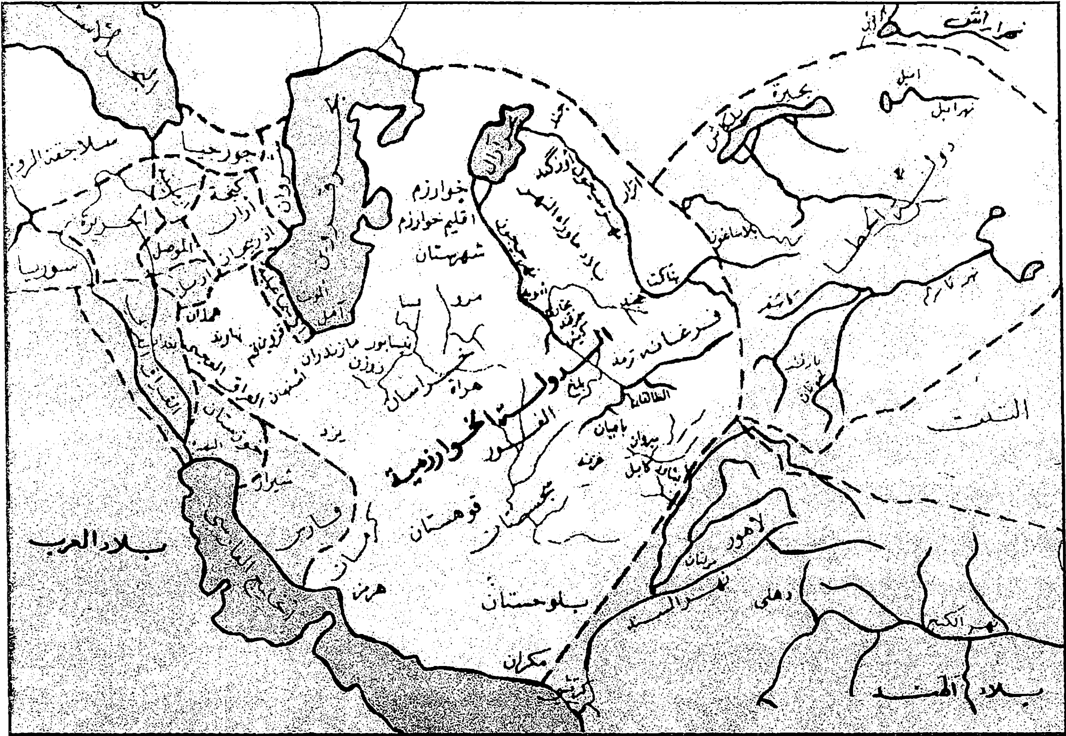
حاولوا إجراءها كانت تنطلق من هذا الهدف المحدود إذ لم يفكروا مطلقا فيما يمكن أن يعـود بالنفع على غـيـرهم، لكن هذا لم يحل دون أن يسـتـفيـد الآخرون من ذلك كفتح طرق التجارة وحماية القوافل وإنشاء المراصد العلمية فى مراغة وبكين.... إلخ.

تلك إذن هى حقـيقـة المجتمع المغـولى بما له من مزايا ومـا عليه من عيوب، فهـو مجتمع له طرائقه الخاصـة المتعددة التى قد لا تجعله مـجتمعا مقبـولا لدى غيره من المجتمعات الأخـرى المتحضرة، لكنه يبقى فى النهاية مجتـمعًا قائمًا بذاته مستقـلاً بخصائصه شأن غيره من المجتمعات الأخرى المعاصرة له.

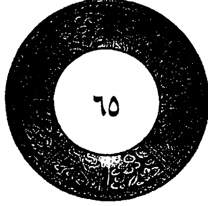
الفصل الثانى
القوى الإسلامية فى مواجهة المغول

لم يكن موقف القوى الإسلامية التى قُدِرَ لها أن تكون قائمة فى مواجهة المغول متوائما مع ما كـان ينبغى أن يكون عليه المسلمـون فى وقت الخطر، فقد غلبت عليـهم روح الأنانية والأثرة، فبدلا من أن تتوحد الإرادة وتخلص الضمائر، وتجـتمع الكلمة، وتتلاقى الجهود، سعى كل طرف من هذه القوى للخلاص بنفسه منفردا فى التعامل مع المغول.

وعلى هذا فـقد اختـار بعضـها مضطـرا منهج مقاومـة المغول دون أن تكون لديـه الكفاءة العسكرية أو المعلومـات الكافية عن جـيش المغول، فجاءت الهـزيمة المدوية أمامـهم نتيجة عـملية لذلك، واخـتار بعـضهم منهج ممالأة المغـول وإعلان الخـضوع والاسـتسلام، وأداء الأمـوال التى يفرضهـا المغول على الخاضعين، فنجا إلى حـين، واختار بعضهم منهج الفـرار من وجه المغول، تاركا وطنه وأهله إلى أبعد أرض ممكنة، فنجا بنفسه إلى حين.



خريطة (٣) الدولة الخوارزمية



وعلى العموم لم يفلح شيء من هذا كله فى مواجهة المغول الذين كانوا يملكون آنذاك من القدرات العسكرية والإدارية ما يفوق إمكانيات أى من هؤلاء المتفرقين العاجزين، وسنحاول فى إيجاز استعراض أهم هذه القوى.

١- الدولة الخوارزمية:

كان السلطان الخوارزمى علاء الدين تكش (٥٦٨-٥٩٦) هـ حاكما عادلا حسن السيرة متدينًا حنفى المذهب عارفا بالأصول فلما اغتالت الإسماعيلية وزيره نظام الملك فى جمادى الآخرة سنة ٥٩٦ هـ لأنهم كانوا يعتبرونه المحرض الأول للسلطان الخوارزمى على غزو قلاعهم اشتد غضبه وأمر ابنه قطب الدين محمد بمهاجمة قلاع الإسماعيلية فى قهستان فبادر إليها وحاصرها.

وكان هذا الوزير المقتول ويدعى مسعود بن على رجلا صالحا كثير الخير حسن السيرة شافعى المذهب بنى للشافعية بمرو جامعا، وبنى مدرسة عظيمة بخوارزم وجعل فيها خزانة كتب، وله آثار حسنة بخراسان باقية.

وقد أدت وفاة السلطان تكش فى التاسع عشر من رمضان سنة ٥٩٦ هـ إلى رفع الحصارعن قهستان وعودة ابنه إلى خوارزم ليعتلى عرش الدولة الخوارزمية بعد أن أجبر الإسماعيلية على دفع الجزية إليه.

وفى عصر السلطان الخوارزمى قطب الدين محمد (٥٩٦-٦١٧)هـ - الذى غيَّر اسمه فيما بعد إلى علاء الدين كاسم أبيه - بلغت الدولة الخوارزمية أقصى اتساعها إذ اشتملت على أملاك السلاجقة فى إيران كلها وضمت بعض مدن بلاد ما وراء النهر (بخارى - سمرقند) التى انتزعها من القراخطاى بعد تغلبه عليهم سنة ٦٠٧ هـ، كما احتوت على كل أملاك الغوريين فى جنوبى شرق خراسان (هراة - غزنة - فيروزكوه) فى سنة ٦١٢هـ / ١٢١٤م.

وعلى هذا أصبح السلطان الخوارزمى علاء الدين أقوى ملوك المسلمين فى الشرق كله غير أن التغيرات السياسية التى جرت فى تركستان سنة ٦١٥هـ سنة ١٢١٨م لم تكن فى صالحه إذ تمكن (شبه) نوين أحد قواد جنكيزخان المبرزين من القضاء على الأمير كوجلك النايمانى المستولى على أملاك دولة القراخطاى هناك، ومن ثم أصبح المغول مجاورين للحدود الشرقية للدولة الخوارزمية، فأضحت هذه التحركات الدائرة على الأطراف الشرقية لحدود الدولة الخوارزمية تشكل ضغطا عنيفا عليها من جانبين:

أ - تعويق حركة السلطان الخوارزمى بعد أن تبدد شمل معظم قواته فى همذان من جراء العاصفة الثلجية التى اجتاحت جيوشه المتجهة إلى بغداد وإجباره على أن يعود أدراجه ناحية الشرق ليؤمن أطراف دولته، وكان السلطان علاء الدين يود أن يعيد ترتيب جيوشه من جديد ليواصل



التقدم صوب بغداد مرة أخرى للانتقام من الخليفة العباسى الناصر لدين الله الذى رفض أن يكون للخوارزميين فى بغداد نفوذ كامل مثلما كان للسلاجقة من الدعاء فى الخطبة والدار السلطانية والنقش على السكة.

ب- ترحيب مسلمى تركستان فى ختن وكاشغر وبالاساغون بالمغول واستقبالهم كمحررين بعد أن أطلق المغول هناك الحرية الدينية للجميع، فارتاح المسلمون من الاضطهاد الدينى البغيض الذى عانوه تحت وطأة حكم كوجلك النايمانى.

حدث هذا فى الوقت الذى عجز فيه السلطان الخوارزمى - وكان يزعم نفسه حامى الإسلام والمسلمين فى الشرق الإسلامى كله - عن إنقاذهم من براثن كوجلك هذا، بل إنه كان قد أمرهم بتدمير بعض قراهم ومزارعهم خشية أن تقع فى أيدى كوجلك.

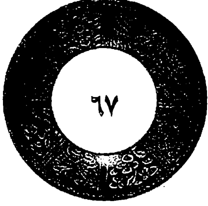
ولم يكن الضغط المغولى مقصورا فقط على الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية وحدها، ذلك أن جوجى الابن الأكبر لجنكيزخان كان قد كُلِّفَ من قبل أبيه سنة ٦١٢ هـ بمطاردة فلول قبائل المركيت الذين فروا فى اتجاه الغرب بعد هزيمتهم أمام جنكيزخان، وكانت هذه المطاردة تعنى أمرين فى غاية الخطورة:

أ- توسيع رقعة الإمبراطورية المغولية غربا بالقضاء على المركيت من ناحية وتأديب قبائل القرغيز والقبجاق من ناحية أخرى.

ب- تهديد الأطراف الشمالية للدولة الخوارزمية فقد أصبحت جرجانية العاصمة الأولى للخوارزميين مهددة من جراء تحركات المغول فى الشمال.

ووقع الصدام الأول بين السلطان علاء الدين محمد وبين جوجى عند حدود نهر إيرتيش ولولا شجاعة جلال الدين أكبر أبناء السلطان لوقعت كارثة مروعة للجيش الخوارزمى الذى كان قوامه ستين ألفا، إذ نجح جلال الدين فى صد الهجوم المغولى الشرس وتقليصه، وفى الجانب الآخر أفلح جوجى بجيشه الذى لم يتجاوز عشرين ألفا فى تأكيد بأس المغول وبيان خبرتهم العالية فى فنون الحرب ومن ثم انسحب بقواته ليلا تاركا الميدان بعد أن أوقد نيرانًا متفرقة فى معسكره ليوهم الخوارزميين أنه مقيم مع جيشه، فلا يفكروا فى مطاردته عند انسحابه مع جيشه، وهى حيلة مغولية قديمة.

عمليا لم يسفر القتال عن نتيجة حاسمة غير أنه ترك أسوأ الأثر فى نفس السلطان الخوارزمى فقد تمكن فى قلبه الرعب من المغول والاعتقاد ببسالتهم فما إن يذكروا فى مجلسه حتى يقول إنه لم ير كرجالهم إقدامًا وثباتا على مضض الحرب وخبرة بقوانين الطعن والضرب، أما جنكيزخان فقد فرح بما فعله ولده جوجى وأنعم عليه بإنعامات كثيرة.



ولم تغن السفارات العديدة التى تبودلت بين جنكيزخان وخوارزمشاه شيئا، وأصبحت الحرب أمرا واقعا لا يمكن التخلص منه أو تجاهله، وبخاصة بعد أن أقدم خوارزم شاه على قتل آخر سفراء المغول إليه.

وفى الحقيقة فإنه لا يمكن توجيه اللوم الكامل مطلقا إلى جنكيزخان فى هذا الصدد فقد كانت تصرفاته قبيل اشتعال هذه الحرب تنم عن ذكاء وخبرة وضبط تام للنفس، وتجلى ذلك كله فى المواقف التالية:

أ- رسالة جوجى إلى السلطان الخوارزمى علاء الدين قبل أن يضطر إلى دخول حرب لا يرغب فيها، وقد تضمنت هذه الرسالة أن أباه (جنكيزخان) قد أوصاه بسلوك مسلك الأدب إن صادف عسكرا من العساكر السلطانية فى وجهته تلك (بلاد القبجاق) وحذره أن يبدر منه ما يرفع ستر الاحتشام أو ينافى مذهب الإعظام.

ب- رسالة جنكيزخان الأولى التى طلب فيها تبادل العلاقات التجارية مع السلطان الخوارزمى والتى ورد فيها « ليس يخفى على عظيم شأنك، وما بلغ سلطانك، ولقد علمت بسطة ملكك، ونفاذ حكمك فى أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندى مثل أعز أولادى، وغير خاف عليك أيضا أننى ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لى قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادى مثارات العساكر، ومعادن الفضة، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار سبيل التردد عمت المنافع وشملت الفوائد».

ج- رسالة جنكيزخان الأخيرة بعد أن أقدم الخوارزميون فى مدينة أترار على قتل أفراد البعثة التجارية المغولية وسلب ما كانوا يمتلكون وموافقة السلطان الخوارزمى على هذا الإجراء، وقد ورد فى هذه الرسالة ما يلى « إنك قد أعطيت خطك ويدك بالأمان للتجار، وأن لا يتعرض لأى أحد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإن كنت تزعم أن الذى ارتكبه (ينال خان) كان عن غير أمر صدر منك فسلم ينال خان إلىَّ لأجازيه على ما فعل، حقنا للدماء، وتسكينا للدهماء وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح».

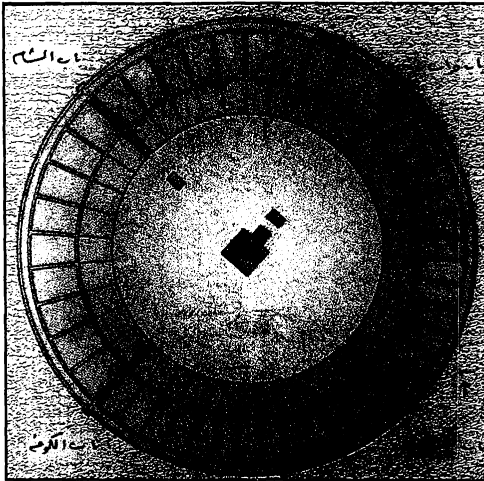
وفى الجانب الآخر كان السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد يفتقر إلى كثير من صفات القائد المحنك، ولهذا لم يستفد مطلقا من التجارب العملية الماثلة أمامه والتى كانت تؤكد كلها على أن الجيش المغولى مدرب تماما على مختلف صنوف القتال إذ اخترق سور الصين العظيم وهزم الإمبراطور الصينى واحتل عاصمته الشهيرة بكين سنة ٦١٢هـ كما نجح فى تركستان سنة ٦١٥ هـ ونجح فى صحراء القبجاق (جنوبى روسيا) حين هاجم جوجى بن جنكيزخان المركيت هناك فقضى عليهم، بل لقد خبر السلطان بنفسه شدة بأس المغول وبراعتهم الحربية حين التحم جيشه معهم عند حدود نهر إيريتيش كما سبق القول.

كانت الحكمة إذن تقضى أن يفعل السلطان أى شىء من أجل اتقاء الهجوم المغولى المرتقب، كأن يعرض دفع ديات عن القتلى أو الاعتذار بأن نائبه أساء التصرف دون عمد أو أن بعض التجار فى القافلة المغولية قد استثاروا الجند. . . أى شىء من هذا القبيل يؤجل إلى حين ذلك الخطر الداهم حتى يتم تجميع الجيوش - بعد كارثة همذان - وإعادة تنظيمها ومحاولة توحيد كلمة المسلمين بعد الفرقة لتشكيل جبهة موحدة تصمد فى مواجهة العدو المتحفز.

كذلك أعرض السلطان عن سماع نصيحة الشيخ شهاب الدين أبى سعد بن عمران الخيوقى الشافعى حين أشار عليه قائلا: « فى عساكرك كثرة، وتكاتب الأطراف وتجمع العساكر، ويكون النفير عاما، فإنه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس، ثم تذهب بجميع العساكر إلى جانب نهر سيحون فتكون هناك فإذا جاء العدو، وقد أسفر مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو وعساكره قد مسهم النصب والتعب»، وفى المقابل استجاب لرأى الجهلاء فقسَّم جيشه على شكل حاميات متفرقة وراء أسوار المدن الرئيسية فى مدن ما وراء النهر (أترار، بخارى، سمرقند) فتمكن المغول بسهولة من اقتحام الأسوار وهزيمة من كانوا وراءها وبدأ السلطان المنكود فى رحلة الفرار إلى الغرب التى انتهت بموته وضياع ملكه وتعريض المسلمين فى الشرق الإسلامى كله لكارثة ليس لها نظير فى تاريخهم كله.

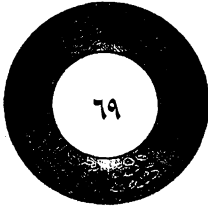
٢- الخلافة العباسية:

لم تكن الخلافة العباسية أحسن حالا من الدولة الخوارزمية عند ظهور المغول وتهديدهم للشرق الإسلامى فى مطلع القرن السابع الهجرى، فالخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ) لم يكن ليفكر - مع طول فترة حكمه - فى تكوين جيش منظم قوى يعيد للخلافة العباسية هيبتها ويرد عنها كيد الطامعين فيها، ويؤازر المسلمين فى جهادهم ضد أعدائهم المتربصين بهم من الصليبيين والمغول.



تصميم مدينة بغداد

وكيف له أن يفكر وقد غلبه الشح - على كثرة ما كان لدى العباسيين من أموال - وتسلط عليه الوهم فصور له أن براعته ودهاءه وتأييد غالبية المسلمين له باعتباره خليفة رسول الله (ﷺ) سيكون عوضا عن القوة العسكرية التى كانت -فى ذاك الوقت - تمثل العنصر الوحيد للسيطرة على الآخرين أو دفعهم بعيدا عن الوطن والمال والعرض.



من خلال ذلك كله أخذ الخليفة يحرض القوى الإسلامية بعضها على البعض الآخر ليضعف من قدراتها العسكرية ويظل هو بمأمن من تسلطها عليه. ومن ذلك أنه حرض الخوارزميين على التخلص من السلاجقة فلما فرغوا منهم طالبوه بنفس مزايا السلاجقة لديه في بغداد عاصمة الخلافة فبدأ في تأليب القوى الأخرى وبخاصة الغوريون على الخوارزميين ليحقق نفس الغرض.

وسيقتصر الحديث هنا على علاقته بالمغول، وأول رواية لدينا أوردها ابن الأثير (ت/ ٦٣٠هـ) - وكان معاصرا للأحداث - يقول عن أحداث سنة ٦١٦ هـ أى فى أثناء حياة الخليفة الناصر« وقيل فى سبب خروج المغول إلى بلاد الإسلام غير ذلك - يقصد واقعة قتل تجار المغول فى أترار- مما لا يذكر فى بطون الدفاتر.

فَظُنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر فكان ما كان مما لستُ أذكره

ثم يعود ابن الأثير فيذكر فى أحداث سنة ٦٢٢ هـ أى نفس السنة التى توفى فيها الخليفة الناصر « وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك، فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب».

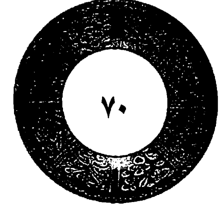
ويضيف ابن واصل (ت/ ٦٩٧هـ) إلى ما أورده ابن الأثير أن السلطان الخوارزمى علاء الدين كتب إلى الخليفة كتابا فيه غلظة وتهديد فكتب إليه الخليفة كتابا ضمنه هذا البيت:

ستعلم إن حَانتْ من الدهر لفتةٌ عمود دوائى أم سنانك أقوم

ونجد عند الصفدى (ت/ ٧٦٤هـ) إضافة جديدة فهو يقول « وأنفذ مؤيد الدين بن العلقمى - وزير الخليفة الناصر لدين الله - على ما قيل مَنْ حَسَّنَ لجنكيزخان التعرض للسلطان علاء الدين فتم ما كان».

ويؤيد كثير من المؤرخين هذا الرأى القائل باتهام الخليفة الناصر بتحريض المغول على الاتجاه إلى بلاد المسلمين، ويعارض هذا الرأى بعض المؤرخين المحدثين وينكرون أن يكون الخليفة قد فعل ذلك ويرون أن من الطبيعى أن يكون غزو جنكيزخان للبلاد الإسلامية نتيجة مباشرة لحادثة أترار الشهيرة.

ولعل أطرف ما روى فى هذا الشأن هو ما ورد لدى المؤرخ الأمريكى هارولد لامب فهو يذكر أن نص رسالة الخليفة كان قد كتب على رأس رسوله بقلم من نار بعد أن حلقوا له رأسه، ثم



أمـهلوا الرسـول إلى أن ينبت الشـعر فى رأسـه، وأعطِى إلى الرسـول نص الاستـغاثة فكررها إلى أن حـفظها على ظهـر قلبه، وحـين وصل إلى خان المغول حلقوا له رأسه فأثبت لهم هويته وألقى عليهم رسالته.

والرأى الذى أميل إليـه هو أن الخليفة الـعباسى الناصـر لدين الله قد أقدم فعلا على الاتصال بجنكيزخان ويؤكد ذلك - فى رأيى - ما يلى:

١- ما ورد فى المصادر الموثـوقة المعاصرة للأحداث التى تؤكـد على ذلك والتى أشرت إلى أهمها منذ قليل.

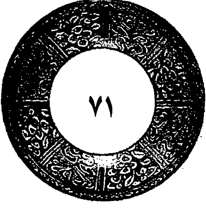
٢- التكوين النفسى الخـاص للخليفة والذى كان يجمع فى طيـاته متناقضات كثـيرة إذ كان يفعل الشيء وضده فى وقت قريب، ومن ذلك أنه عمل دورا للضيافة ببغداد ليفطر الناس فيها فى رمضان فبـقيت مدة ثم قطع ذلك، ثم عمل دورا لضيـافة الحجاج فبقـيت مدة ثم أبطلها، وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصـة ثم أعادها، وجعل جل همه فى رمى البندق وسراويلات الفتوة ثم أبطل الفتوة فى البلاد جميعـا إلا من يلبس منه سراويل ويُدَعى إليه شخصيًا وفوق ذلك كله ميله الواضح إلى مذهب الشيعة الإمامية حتى إنه بنى لنفسـه مدفنا فى مشهد موسى بن جعفر الكاظم سابع الأئمة الإثنى عشرية على الرغم من أنه- أى الخليفة - كان أمام أهل السنة آنذاك من الناحية الرسمية.

٣- أن الاستعانـة بقوى أخرى للحفاظ على الخلافـة وعاصمتها بغـداد لم يكن أمرا جديدا على الخلفاء العبـاسيين الذين درجوا على ذلك كثـيرا فقد استـعانوا بالسلاجقة على البـويهيين ثم استعانوا بالخوارزميـين على السلاجقة ثم حاولوا الاستعانة بالغوريين على الخـوارزميين فلما خاب أملهم فى الغوريين عولوا على الاعتماد على المغول.

وأغلب الظن أن الرسالة التـى بعث بها الخليفـة العباسى الناصـر لدين الله قد وصلت إلى جنكيزخان عقب عودة السلطان الخوارزمى من همـذان حيث أنقذت العناية الإلهية بغداد من أيدى الخوارزمـيين، وقد أدرك الخليـفة الناصر لدين الله حـينها أن الكرةّ القادمـة للخوارزميـين سيكون هدفها احتلال بغـداد وإسقاطه حتما، فبادر إلى مراسلة القوة الجـديدة التى كانت قد بدأت تتحرك حول تخوم الدولة الخوارزمية من ناحية الشرق.

ويبدو أن هذه الرسالة قد وصلت عقب الاتفاق على تبادل التجارة بين المغول والخوارزميين وعلى هذا فقد رد جنكيـزخان على الخليفة العباسى ردا لطيـفا معتذرا لوجود معـاهدة صداقة بينه وبين علاء الدين خوارزم شاه سلطان المسلمين فى الشرق.

أيا كان الأمر فقـد انهارت المقاومة الإسلامية تحت ضربـات المغول وتملك الفزع من النفوس وهرعت تبحث عن مـجير. فمـاذا كان موقف خليفـة المسلمين ؟ دخل عليه الوزير فـقال: «آه يا



مولانا أن التتار (المغول) قد ملكت وقتلت المسلمين، فقال له الناصر لدين الله «دعنى إنى فى شىء أهم من ذلك. طيرتى البلقاء لى ثلاثة أيام ما رأيتها».

أما عن استعدادات الخليفة من الناحية العسكرية فهى أمر مخجل حقا فقد حكى مظفر الدين كوكبرى صاحب إربل قال: «لما أرسل إلى الخليفة فى معنى قصد التتر (المغول) قلت له: إن العدو قوى وليس عندى من العسكر ما ألقاه به فإن اجتمع عندى عشرة آلاف فارس استنقذت به ما أخذوا من البلاد فأمرنى بالمسير ووعدنى بوصول العسكر، فلما سرتُ لم يحضر عندى سوى عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشى فأقمت وما رأيت أن أغرر بنفسى وبالمسلمين.

فمن أين لرجل هذا موقفه أن يقود أمة فى وقت الخطر؟! أعتقد أن حاله لم يكن ليختلف كثيرا عن حال حفيده المستعصم بالله لو أن المغول كانوا قد حاصرُوا بغداد فى زمنه هو.

ومن هنا فإنه لا ينبغى أن نلقى التبعة كلها على كاهل السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد وحده، فهذا الخليفة يتحمل معه الجزء الأكبر فيما أصاب المسلمين من بلاء وشرور على أيدى المغول.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد كانت لبعض علماء الإسلام مواقف بطولية فى مواجهة الغزو المغولى منها استشهاد الإمام ركن الدين إمام زاده وولده، والقاضى صدر الدين خان فقد رفضوا أن يروا بأعينهم فى مدينتهم بخارى ما كان يرتكبه البغاة المغول من الفحشاء فى النساء المسلمات وكذلك كان من بين الشهداء الشيخ الصدر مجد الدين الحنفى أخو الوزير نظام الملك الخوارزمى.

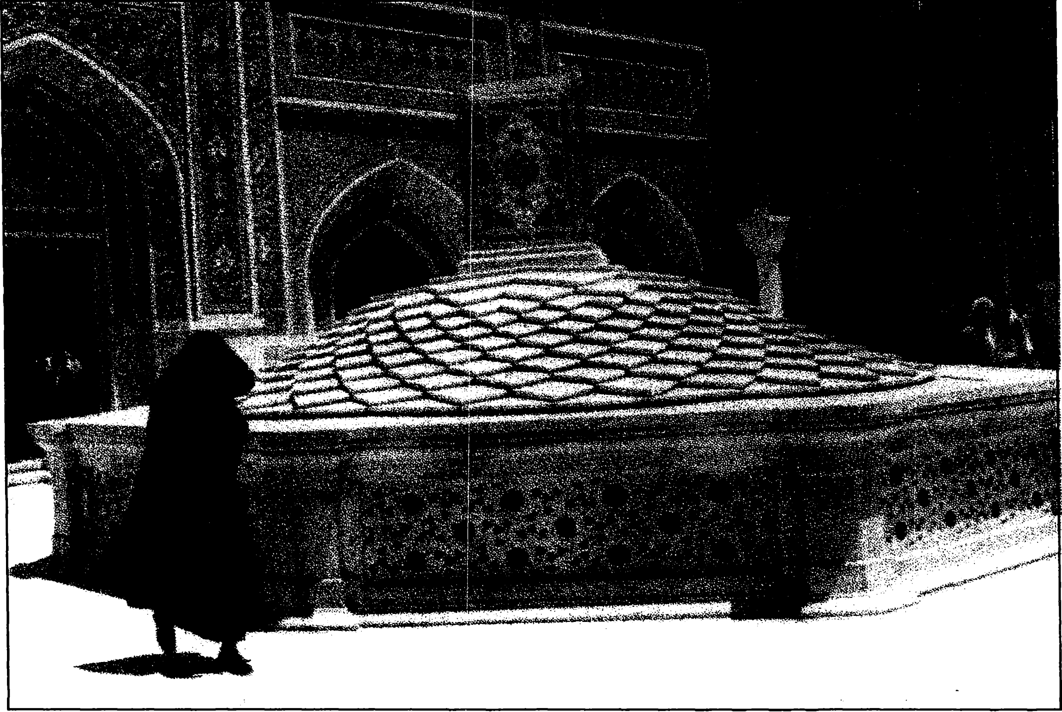
وفى مدينة (نسا) استشهد الشيخ شهاب الدين أبو سعد بن عمران الخيوقى الشافعى - الذى كان قد أشار على السلطان الخوارزمى بخطة تجميع الجيوش كلها فى مواجهة المغول - واستشهد معه ابنه السيد الفاضل تاج الدين حيث أحضرا مكتوفين بين يدى القائد المغولى (طغاجار) صهر جنكيزخان فقتلا شهيدين، أما استشهاد الشيخ الصوفى الشافعى نجم الدين الكبرا فقد جاء صورة مشرفة لما ينبغى أن يكون عليه علماء الإسلام، فعندما حاصر جيش المغول مدينة خيوة الواقعة فى إقليم خوارزم أرسل جنكيزخان الذى كان يدرك تماما مكانة رجال الدين وأثرهم فى نفوس عامة المسلمين إلى الشيخ - كما تقول بعض الروايات - يطلب منه الخروج من المدينة صونًا لحياته، فرفض الشيخ وأجاب أنه ليس من المروءة بعد أن عاش بين أهله فى هذه المدينة مدة تزيد عن سبعين عامًا أن يتخلى عنهم فى وقت الشدة، ووقف الشيخ الكفيف المسن يشجع الأهالى المحاصرين على المقاومة ويحذرهم من الاستسلام للعدو، وعقب اقتحام المغول للمدينة وجدوا الشيخ ميتا بين القتلى وقد قبض بيده على ناصية أحد الجنود المغول.



٣- مراكز الشيعة فى إيران:

كان للشيعة فى إيران عند ظهور المغول مراكز متناثرة فى عدة أجزاء منها، فقد كانت هناك مدن مشهورة فى غربى إيران يسكنها أغلبية من الشيعة الإثنى عشرية منها قم وقاشان وآوه، ومنها أيضا طوس وسيزاور فى شرقيها، وكذلك كان للشيعة الإثنى عشرية وجود ملحوظ فى مدن إيرانية يسكنها جماعات من السنة، منها همذان والرى ونيسابور.

وتركز وجود الشيعة الإسماعيلية فى قلاع قهستان القريبة من كرمان وفى غربى قزوين فى قلاع آلموت وميمون دز ولمبر، على حين تركزت الشيعة الزيدية فى إقليم طبرستان جنوبى بحر الخزر(قزوين) .



أحد المشاهد الشيعية بإيران

وسنحاول فى إيجاز إبراز أهم مواقف الشيعة فى تلك المراكز تجاه المغول منذ ظهورهم فى شرقى بلاد المسلمين ونجاحهم فى إسقاط الدولة الخوارزمية التى كانت تعتبر القوة الإسلامية الوحيدة آنذاك فى آسيا الوسطى.



أ- مدينة الرى:

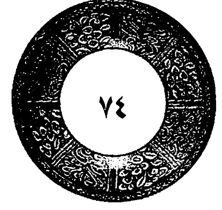
ويصف ياقوت الحموى - الذى اجتاز مدينة الرى - الأحوال فيها سنة ٦١٧هـ وهو منهزم من المغول قبل وصولهم إليها - وكان قد وجدها خرابا - بقوله: «.. كان أهل المدينة ثلاث طوائف: شافعية وهم الأقل، وحنفية وهم الأكثر، وشيعة وهم السواد الأعظم لأن أهل البلد كان نصفهم شيعة، أما أهل الرستاق فليس فيهم إلا شيعة وقليل من الحنفية، ولم يكن فيهم من الشافعية أحد، فوقعت العصبية بين السنة والشيعة فتضافر عليهم الحنفية والشافعية ووقعت بينهم الحروب حتى لم يتركوا من الشيعة مَنْ يَعْرُف، فلما أفنوهم، وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية وتطاولت بينهم حروب كان الظفر فى جميعها للشافعية مع قلة عددهم، فهذه المحال الخراب هى محال الشيعة والحنفية وبقيت المحلة المعروفة بالشافعية وهى أصغر محال الرى حيث لم يبق من الشيعة والحنفية إلا من يخفى مذهبه».

هذه هى حالة المدينة قبل قدوم المغول: نصفها من الشيعة والنصف الثانى من السنة، ونصف السنة قسمان: أكثرية من الحنفية وأقلية من الشافعية، ولعل هذا يصحح الخطأ الذى وقع فيه مؤرخ محدث ينقل عن المستشرق البريطانى Howorth فى كتابه .History of the Mongols P.93. فهو يقول: «وصل المغول إلى مدينة الرى، وقد اختلف أصحاب المذاهب الإسلامية الأربعة فى تفسير بعض نصوص القرآن، وانضم أصحاب المذهبين الحنفى والشافعى بعضهما إلى بعض ووقفوا فى وجه أصحاب المذهبين الآخرين، وأراد قاضى القضاة الشافعى أن ينتقم من خصومه ففتح بابين من أبواب المدينة للمغول فدخلوا، وقتلوا أعداء قاضى القضاة الذين كانوا يكونون نصف عدد سكان المدينة، فلما فرغوا من مهمتهم تحولوا إلى أصحاب المذهبين المناصرين لهم، فقتلوهم جميعًا بعد أن أعلنوا أنهم لا يستطيعون التعاون مع من خانوا إخوانهم فى الدين».

أيا كان الأمر فقد دخل المغول المدينة وملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا الأطفال وفعلوا الأفعال القبيحة التى لم يسمع بمثلها، وهكذا بدد الصراع المذهبى قوى المسلمين فى المدينة الواحدة فكان من الطبيعى أن تخور قواهم فى موجهة أعدائهم والطامعين فيهم وعلى رأسهم المغول.

ب- طبرستان (مازندران):

وتقع جنوبى بحر الخزر وشمالى الرى وقزوين وتمتد من مدينة قومس شرقا إلى مدينة كيلان غربا، وهى بلد عظيم كثير الحصون والأعمال وكان أهل طبرستان شيعة زيدية منذ زمن الناصر الأطروشى (ت/ ٣٠٤ هـ) الذى هاجر من خراسان إلى بلاد الديلم والجبل فأخذ ينشر الإسلام والفقه الزيدى هناك معا، فأبلى فى ذلك بلاء حسنا.



وبهذه المنطقة نشأ بنو بويه - الذين أسسوا فيما بعد دولتهم فى الفترة ما بين سنة ٣٢٠هـ إلى سنة ٤٤٧هـ - نشأة شيعية زيدية متشددة معتقدين أن العباسيين قد اغتصبوا الحق فى الخلافة من أصحابه الشرعيين وهم أولاد الإمام على بن أبى طالب.

وفى القرن السادس الهجرى ظل الزيدية يشكلون فى طبرستان جماعات كبيرة ذات كيان واضح غير أنهم تأثروا بجو العداء المستمر مع جيرانهم من الشيعة الإسماعيلية فى آلموت وغيرها من القلاع من ناحية، كما تأثروا أيضا بحركة السلاجقة السنيين المتشددين من حولهم من ناحية أخرى، من ثمة لم يظهر لهم أثر سياسى كبير فى هذه المنطقة قبل قدوم المغول.

وحين هزم المغول السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد سنة ٦١٦هـ وتعقبوه فى فراره نحو الغرب سنة ٦١٧هـ وصل قسم من الجيش المغولى إلى طبرستان فملكها فى أسرع وقت رغم حصانتها، وأمعن المغول فى نهب المدن هناك وبخاصة مدينة آمل، ثم أجهزوا على الإقليم كله فقتلوا الأهالى وسبوا النساء وأحرقوا البلاد، ولما فرغوا سلكوا الطريق إلى الرى بحثًا عن السلطان الخوارزمى الهارب.

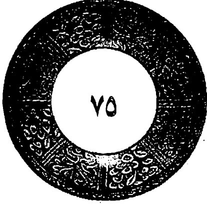
جـ- غربى قزوين:

وهى المنطقة الواقعة جنوبى بحر الخزر فى غربى طبرستان (مازندران) وتضم فى شماليها القلاع الرئيسية للإسماعيلية (آلموت - - ميمون دز- لمبر) وتعتبر هذه القلاع أهم مراكز الشيعة الإسماعيلية فى شمالى إيران وتمثل آلموت المركز الرئيسى الإسماعيلى للدعوة والحكم، وهى قلعة حصينة شاهقة فى ناحية رودبار بين قزوين وبحر الخزر، ومن هذه القلعة بدأ الحسن بن الصباح حركته فى أواخر القرن الخامس الهجرى، وسوف نخص حركة الإسماعيلية فى هذه المنطقة - بعد قليل- بحديث مستقل فيما يتعلق بموقفها من المغول.

د- قوهستان:

ويلى ذلك فى الأهمية منطقة الجبال التى تمتد بين هراة ونيسابور، وكانت هذه الجبال جميعها زمن ياقوت الحموى - أى فى مطلع القرن السابع - فى أيدى الإسماعيلية وتحتوى على مدن كثيرة منها قاين وتون وجنابذ وطبس العقاب وطبس التمر وطربثيث وغيرها من المدن.

و منطقة قوهستان تعتبر منفصلة جغرافيا عن قلاع الإسماعيلية الأخرى فى شمال غربى قزوين إلا أنها تشبهها فى الاتجاه المذهبى والحصانة والتكوين الجغرافى بحيث يسهل الدفاع عنها عسكريا ضد القوى المغيرة، وعلى رأسها السلاجقة والخوارزميون.



وكان السلطان الخوارزمى الأخير جلال الدين منكبرتى ٦١٧ : ٦٢٨ هـ عقب مغادرته مدينة نيسابور فى ذى الحجة سنة ٦١٧هـ قد انحدر جنوبا حتى استقر به المقام عند قلعة إسماعيلية حصينة شاهقة فى الشمال الشرقى لمدينة قاين عاصمة قهستان تسمى (زوزن).

وقد ظنَّ جلال الدين أن بوسعه أن يتحصن بها عند حدوث هجوم مفاجئ من قبل المغول لكن حاكمها حذره من مغبة ذلك، وتأكد لدى جلال الدين أيضا أن الأهالى بهذه القلعة لا يرغبون فى دخوله وعسكره إليها خوفًا من المغول، فأمر بإحضار بعض ما فى خزائنها من الذهب، فثم تفريقه على من صحبه من خواصه، وانفصل عنها برجاله متوجهًا إلى ولاية هراة.

هـ- طوس:

وتقع شرقى إيران بين مدينتى سرخس شرقًا ونيسابور غربا وهى مدينة كبيرة حسنة المبانى كثيرة الأسواق وفى قرية سناباد التى تقع على مسافة ميل واحد من طوس قبة عظيمة تحتوى على قبرين: قبر الخليفة العباسى هارون الرشيد (ت/١٩٣هـ) وقبر الإمام على بن موسى الرضا ثامن الأئمة الإثنى عشرية (ت/٢٠٣هـ)، وقد قال فى اجتماعهما دعبل بن على الخزاعى وهو شاعر شيعى مشهور:

قبران فى طوس: خير الناس كلهم — وقبر شرهم، هذا من العبر
مايـنفع الرجس من قرب الزكى ولا — على الزكى بقرب الرجس من ضرر

ومع قدوم الغزو المغولى تعرضت مدينة طوس لمحنة قاسية على أيديهم سنة ٦١٧هـ، وتعرض المشهد الرضوى بدوره لخطر التخريب غير أن الأثرياء من الشيعة الإثنى عشرية اعتنوا به حتى استعاد بهاءه وعظمته من جديد.

هكذا كان واقع الحال فى الشرق الإسلامى عند ظهور المغول، فالشيعة الإسماعيلية الذين كانوا قد تظاهروا منذ قليل بعودتهم لمذهب أهل السنة استفادوا من ذلك الأمر كثيرا، إذ تمكنوا من الخروج من إطار العزلة الذى كان مفروضا عليهم واستغل دعاتهم هذه الفرصة فانطلقوا هنا وهناك بحرية تامة ينشرون سرًّا أصول المذهب الإسماعيلى دون أية ضغوط مباشرة.

كذلك تمكن زعيمهم جلال الدين الحسن الثالث (٦٠٨ : ٦١٨هـ) من التحرك بحرية خارج قلاع الإسماعيلية إذ أمضى فى ضيافة حليفه الأتابك أزبك البهلوان صاحب أرّان وأذربيجان مدة عام ونصف العام.

أما الموقف الحقيقى الذى كشف عن حقيقة منهج الحسن الثالث الإسماعيلى وحقيقة المبادئ الإسماعيلية فهو مبادرته إلى الاتصال سرا بجنكيزخان لإظهار العبودية وقبول الخضوع عندما توجه من تركستان قاصدا محاربة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه فى سنة ٦١٦ هـ فى الوقت الذى كان يتظاهر هو فيه بمحالفة الخوارزميين من جهة والخليفة العباسى الناصرلدين الله من جهة أخرى.

فلا غرو إذن أن ظلت قلاع الإسماعيلية إلى حين بمأمن من مهاجمة المغول لها. وإلا كيف يمكن للعقل أن يقبل فكرة أن المغول الذين اخترقوا سور الصين العظيم واستولوا على بكين سنة ٦١٢ هـ يعجزون عن إخضاع هذه القلاع الإسماعيلية.

أما الشيعة الإثنى عشرية فى إيران فعلى الرغم من عدم معاداتهم للمغول إلا أن مراكزهم فى قم وقاشان وأوه وطوس وغير ذلك قد تعرضت للهجوم المغولى على أيدى جنود جنكيزخان مما يؤكد على أن نظرة المغول إلى المسلمين أيام جنكيزخان كانت لا تفرق بينهم شيعة كانوا أم سنة، بل أكاد أجزم أنها لم تكن نظرة دينية بالمرة، إذ كانت حربا توسعية تهدف إلى انتزاع الثروات وتأكيد السلطان ولا يحول ذلك دون وجود بعض مواقف للشيعة كانوا يرون فيها مصانعة المغول كما حدث - على سبيل المثال - فى همذان التى كان رئيسها شريفا علويا، فلما نزل المغول على مقربة منها بعثوا إلى أهلها يطلبون مالا وثيابا، فقال الشريف: إذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة ؟ فليس لنا إلا مصانعتهم بالأموال، فقال له الأهالى: أنت أشد علينا من الكفار، وأغلظوا له فى القول، وأخرجوا شحنة للمغول كانت فى المدينة وصمموا على مقاتلة المغول، وفى نهاية الأمر بحثوا عن الرئيس العلوى فلم يجدوه إذ كان قد هرب فى سرداب صنعه إلى ظاهر البلد ثم إلى قلعة هناك على جبل عال وامتنع بها.

ويروى ياقوت الحموى - وهو شاهد عيان معاصر - أن علويا كان متقدما على أحد أبواب مدينة نيسابور راسل المغول واشترط عليهم فى مقابل تسليم البلد، إذا فتحوه جعلوه متقدما فيه فأجابوه إلى ذلك، ففتح لهم الباب فأول من قتلوا فى نيسابور العلوى ومن كانوا معه.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اشتهرت لدى المغول شخصيات شيعية كانت ذات تأثير كبير على حياتهم ومنها على سبيل المثال:

أ- السيد الأجل:

وهو سيد شريف ينتسب إلى آل البيت من مدينة بخارى واسمه شمس الدين عمر وكان قد دخل فى خدمة جنكيزخان، ونصح له مخلصا فى ولائه للمغول فأكرمه جنكيزخان وجعله ضمن بطانته فارتقى شأنه وتولى المناصب العالية، ثم عينه أوكتاى بن جنكيزخان حاكما لثلاث ولايات



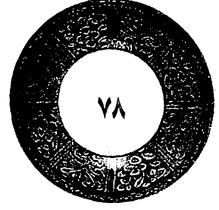
فى الصين ثم عهد إليه بمنصب كبير فى بكين العاصمة , وفى عهد قوبيلاى (٦٥٨-٦٩٣هـ) عهد إليه بإدارة أموال الإمبراطورية ثم عينه وزيرا له ثم ولاه إدارة ولاية يونان الخربة فى جنوبى غرب الصين فعمرها وبنى فيها المدارس والطرق والسدود والمساجد للمسلمين حتى إنه ليعد صاحب الفضل فى التمكين للإسلام والمسلمين فى هذا الإقليم، وقد سار أولاده من بعده على هذا المنهج.

ب- فاطمة الطوسية:

وكانت قد وقعت أسيرة فى أيدى المغول حين استولوا على مدينة طوس فأتوا بها إلى عاصمتهم قراقورم حيث توصلت إلى معسكر توراكينا خاتون زوجة أوكتاى بن جنكيزخان حتى أصبحت حاجبة لها وكاتمة أسرارها، واتصلت كذلك بوزير البلاد جنيقاى فتقرب إليها العظام من الأطراف يطلبون ودها حتى إن عددا من سادات المشهد المقدس فى طوس كانوا يتقربون إليها لزعمها أنها من نسل السادات الأشراف العظام، ولما تولت توراكينا خاتون الوصاية على عرش الخاقانية سنة ٦٣٩ هـ أخذت - وفقا لمشورة فاطمة - تعزل الأمراء وأركان الدولة ممن كانت تكرههم وتولى مكانهم طائفة من الجهال.

واتباعا لهذه السياسة فقد عزمت على اعتقال جينقاى لكنه تمكن من الهرب والاحتماء عند كوتان بن أوكتاى، وتعرض محمود يلواج وكان يشغل وظيفة صاحب الديوان لنفس المحنة لأن فاطمة كانت تضمر له عداءً قديمًا غير أنه أفلت بدوره واحتمى أيضا بالأمير كوتان ولم يجد مسعود بن محمود - وكان حاكما على ممالك تركستان وما وراء النهر - مناصا من الفرار والاحتماء عند باتوخان مغول القبجاق.

وحين اعتلى كيوك عرش الخاقانية سنة ٦٤٤هـ أعيد جينقاى إلى منصبه وزيرا أعظم للبلاط المغولى، ورفع شأن الأمير قداق الذى كان ملازمًا لكيوك خان، وتعرضت بذلك مكانة فاطمة الطوسية للخطر، فقد اتهمها علوى من سمرقند يدعى (شيرة)،وكان نديمًا لقداق بأنها عملت سحرًا للأمير كوتان الذى كان قد أرسل إلى أخيه كيوك يعلمه أن سبب مرضه هو سحر فاطمة، وطلب فى حالة وفاته الاقتصاص منها، وبالفعل توفى كوتان، فأرسلوا إلى أمه توراكينا خاتون بالخبر ولكنها توفيت قبل حسم القضية، فأسلموا فاطمة إلى العلوى (شيرة) السمرقندى، فاستجوبها، فعارضت ونفت، فتركها عارية،بلا طعام أو شراب مع ألوان من التعذيب حتى وصل بها الأمر إلى أن اعترفت بجرم لم ترتكبه، فأمر بها فخاطوا منافذها العليا والسفلى، ورموا بها إلى اليم، وأمر كذلك بإعدام كل من كان له علاقة بها، وكذلك أرسل المغول الرسل إلى خراسان يستدعون من قرابتها بها، فعذبوهم كثيراً



وهكذا انتهت حياة هذه المرأة القوية التى أثرت فى مصائر بعض كبار رجالات العرش الخاقانى المغولى فى عدة من المواقف والأحداث.

جـ- شيرة العلوى السمرقندى:

سبق الإشارة إلى دأبه على إهلاك فاطمة الطوسية غير أنه تعرض بدوره لنفس المأساة فعلى إثر وفاة كيوك خان سنة ٦٤٦ هـ وتولى زوجته أوغول قاميش الوصاية على العرش اتهم أمير ولاية إيميل هذا العلوى شيرة التهمة ذاتها وقال: «إنه يقوم بالسحر للأمير أوغول بن كيوك» وقع شيرة بدوره فى ذل الأسر والقيد وسجن مدة سنتين مع كثير من ألوان التعذيب حتى يئس من حياته، وحين أيقن أنه يعاقب كما عاقب هو فاطمة أدرك أن هذه العقوبات إنما هى على قول «هذه بضاعتنا ردت إلينا» وأن الموت ملاحقه حتما، فأعلن عن جرمه المزعوم الذى لم يقترفه، فرموه فى اليم أيضا، وأجهزوا بالسيف على نسائه وأبنائه.

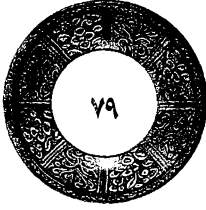
والآن بعد أن تبين مدى وجود الشيعة على مقربة من العرش الخاقانى فإن المرء لن يدهش إذا ما وجد ضمن نصوص الياسا المغولية النص التالى « أنه لا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤنة ولا كلفة « على افتراض صحة وجود هذا النص فى الياسا وعدم دسه بين نصوصها.

٤- الإسماعيلية:

فرقة من الشيعة انفصلت عن الإثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق سادس الأئمة الإثنى عشرية وهو ابنه الأكبر الذى نص عليه فى بدء الأمر، ومن ثمة فالإسماعيلية يرفضون إمامة موسى الكاظم الابن الرابع لجعفر الصادق ويميلون بالإمامة إلى ابنه إسماعيل الأول؛ ومن هنا جاءت تسميتهم بالإسماعيلية.

وبينما يتوقف الشيعة الإثنى عشرية عند عدد معين من الأئمة (اثنى عشر إماما) ترى الإسماعيلية أن الإمامة لا تقف عند حد بل تتسلسل فى نسل إسماعيل إلى ما لا نهاية وكذلك تعتقد الإسماعيلية أنه قد أتت بعد إسماعيل أئمة مستورون؛ لأن الإمام يجوز له أن يستتر إذا لم تكن له شوكة أو قوة يظهر بها على أعدائه وإنما تظهر فى هذه الحالة دعاته، ومن أجل ذلك سموا بالباطنية إضافة إلى قولهم بأن لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطنا، وأن لكل تنزيل تأويلا.

وكان علاء الدين الإسماعيلى صاحب آلموت (ت/ ٦٥٣هـ) حين كان السلطان جلال الدين منكبرتى بالرى سنة ٦٢٤هـ فى أثر المغول قد أنفذ إليه تسعة من الفداوية تقربا إلى السلطان ليجهزهم إلى مَنْ شاء من أعدائه فيقتلوهم فردهم قائلا: «ليس يخفى عليك وعلى غيرك معاندنا ومعاهدنا ومخالفنا ومحالفنا فإن شئت أن تفعل شيئا فافعل، ولا حاجة إلى التعيين، ونحن إن



شـاء الله تعالى مـا نحوجك إلى هـذه الكلفة، وإن فى الصـوارم الماضيـة، والقشاعم الضاربة لغنية عن السكاكين والفداوية.

فلما خـرج غياث الدين - بعـد ذلك - من قلعة آلموت بما يكفـيه من الدواب والأسلحة وكان محـتميا بها بعد عصيـانه لأخيه جلال الدين وتمرده عليه فاستـوحش السلطان من علاء الدين لتجهيزه إياه ورجوعـه عما كان قد ضمن له من رده إليه، واستمرت الوحشة إلى سنة ٦٢٦ هـ.

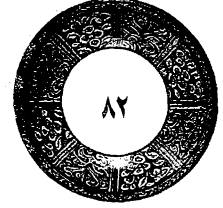
وهناك أمر آخر يدل على قـوة الشك الذى اعتمل فى قلب السلطان من ناحية الإسـماعيلية وعلاقتهم المريبة مع المغول فقد كاتب السلطان وهو فى أصفهان سنة ٦٢٥هـ وزيره شرف الملك فى أذربيجان يعلمه أن رسولا من المغول توجه إلى الشام صحبة تجار للإسماعيلية وأن هؤلاء التجار قد عبروا إلى بغداد، وألزم النسلطان الوزير أن يرصد كل قـافلة آتية من صوب الشام أو من جهة بلاد الروم على قلاع الإسماعـيلية، وأنه ظفر برسول المغول فحبسـه عنده حتى ينظر السلطان فى أمره، وكان الغرض من ذلك تركيب الحجة على الملوك ومعاتبة الخليفة فى مراسلة المغول.

وأخذ شرف الملك الوزير يفـتش عن القوافل ووكل بالطرق من يحفظهـا فاتفق بعد ذلك أن وصلت للإسماعيـلية قافلة كبيرة من صوب الشـام فسيَّر شرف الملك من قبله من قـتلهم واستولى على أموالهم، فظهر الأمر على أنه قطع للطريق وسلب للمـال وفات الغرض الذى رسمه السلطان من إمساك الرسول المغولى وإظهار الحجة على من يتصلون سرا بالمغول.

فلما عـاد السلطان إلى أذربيجان ورد عليـه من عند علاء الدين مقـدم الإسماعيليـة رسول يعاتب على ما صدر من الوزير ويطالب بالأموال، فأمر السلطان برد ما أخذ من القتلى وأنكر على وزيره فعله وألزمـه برد الأموال فأدى منها ثلاثين ألف دينار وأعـاد عشرة أفراس عربـية، فلما ورد الخبر بفرار غيـاث الدين من قلعة آلموت بمعاونة حاكمها الإسـماعيلى علاء الدين توقف الوزير عن أداء بقية الأموال، وفضلاً عن ذلك أرسل إلى الإسماعيلية يطالبهم بأن يبعثوا إلى السلطان رسولهم بدر الدين أحمد الذى كانوا قد أوفدوه إلى المغول فى بلاد ما وراء النهر، وذلك لأن السلطان يريد أن يسمع منه بنفسه ثم ينظر فى أمره.

فكان جوابهم أن السلطان يعلـم أن لنا بلادا متاخمـة للمغول ولا بد لنا من مداراتهـم دفعا للأذى عنها، فإن ثبت عند السلطان أن الرسالة كانت فى فـساد يعود على دولته فنحن المذنبون فى ذلك لا الرسول، فليبين السلطان لنا ذلك ويخجلنا، ثم يقابل ذلك بما يرى، وبالطبع فهم السلطان أن هناك أسرارا يرغب الإسـماعيليـة فى إخفائها عنه وتأكـد من صحة وجـهة نظره فيهم غـير أن الظروف لم تكن مواتية حينها ليقود حملة كبيرة عليهم.

ولما وصل رسول آخر من الإسـماعيلية إلى تبريز كـان السلطان قد خرج عنها نتيجـة لحركة المغول فى نواحى زنجان فما إن وصل السلطان إلى موقـان حتى ورد عليه كتاب وزيره شرف الدين يذكر فيـه أن رسول آلموت قد كتب إلى المغول كـتاباً مشتمـلا على فصول منها حثـهم على سرعة



فى أرض الجزيرة وأعالى الفرات، وتوالت انتصارات المغول فى الجبهات الثلاث أيضا وبالتالى أصبحت إيران كلها خاضعة لهم باستثناء قلاع الإسماعيلية فى آلموت وقهستان، فقد بقيت هذه القلاع بموجب الولاء السابق للمغول فى مأمن من غاراتهم العاصفة مؤقتا.

وقد بدأت أول متاعب الإسماعيلية مع المغول منذ سنة ٦٣٦هـ عندما أقدم بعض فدائييهم على اغتيال قائد مغولى كبير يدعى «كلبلاد» فى أثناء نزوله ضيفا على ملك بخارى الذى كان يحكمها من قبل المغول.

ولم تكشف المصادر التاريخية عن الدافع الحقيقى وراء عملية الاغتيال هذه، إذ لم يكن لهذا القائد المغولى صلة تذكر بقلاع الإسماعيلية فى آلموت أو قوهمستان غير أنه كان واحدا من مجموعة كبار الأمراء المغول الذين دخلوا فى صراع حاد مع كركوز الأويغورى حاكم خراسان من قبل الخان الأعظم أوكتاى مما قد يدفع إلى الشك فى أن تدبير اغتياله كان بتحريض من بعض أطراف هذا الصراع.

ويصور الجوينى حادثة الاغتيال على النحو التالى «اتجه كلبلاد وادكوتيمور مع فئة من الوشاة والغمازين إلى بخارى فاستضافهم ملكها، و لما خرج كلبلاد ليقضى حاجته وثب عليه بعض الفدائيين فطعنوه بالسكين مع نفر أو نفرين كانا معه فقتلوه، وكان هؤلاء الفدائيون يتعقبونه ثم ترصدوه فترة فى بخارى واضطرب حال جماعته إثر هذا الحادث وأصابهم الأسى، وأذهلتهم الحيرة حتى غدوا كالأطفال الذين وضعوا اللباد فى الماء ثم لم يقدروا على حمله».

أما الشخصية المغولية الثانية التى جرى اغتيالها على أيدى فدائيى الإسماعيلية فشخص يدعى جغتاى القورجى الكبير وهو مغولى ينسب إلى قوم (أولات) من أقارب القائد المغولى (يوغورجين) نوين.

وقد تركت هاتان الحادثتان أثرا سيئا فى نفوس المغول وبخاصة قادتهم إذ إن هذا الاجتراء على القادة المغول بهذه الصورة السافرة إنما كان يقوض حالة الرعب والهلع التى عول المغول على نشرها بين خصومهم كثيرا والتى كانت سلاحا لا يقل أهمية عند المغول من المعارك الحربية ذاتها، كذلك اعتبر المغول هذا الاجتراء تحريضا للآخرين من الذين عانوا محنة الغزو المدمر كى يقوموا بنفس العمل انتقاما لما أصابهم على أيديهم.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن الانتصارات الهائلة التى حققها المغول فى مختلف الجبهات وبخاصة فى أوروبا الشرقية حيث قهر المغول جيوش الروس والمجر والبلغار ووصلوا إلى بولندا جعلت من القلاع الإسماعيلية التحدى الأكيد الذى يجب على المغول اجتيازه فى شمالى غرب إيران، ولم يخف هذا الأمر على الإسماعيلية الذين أدركوا أن مطامع المغول لن تقف عند حد وأنهم لا بد سيعرجون على قلاعهم ليخضعوها وهم فى طريقهم إلى غربى آسيا وأوروبا.

ولم يجد الإسماعيلية مناصا من ضرورة الاستعانة بقوى كبيرة لمواجهة المغـول فأرسلوا سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م من آلموت رسـولين إلى ملكى إنجلتـرا وفرنسا يسألانهما العون ويستشهدان بما يجرى من دمار على أيدى المغول فى أوروبا الشرقية.



تمثال لهنرى الثالث ملك إنجلترا

وجـاء الرد الأوروبى جافـا قاسيا إذ لم يشعر أى من ملكى إنجلترا وفرنسا بأى بادرة تعاطف مـع الطلب الإسماعـيلى، بل إن أسقف مـدينة ونشسـتر الذى كان حاضـرا بين يدى ملك إنجلترا هنرى الثالث فى أثناء استقباله للسفـارة الإسماعيلية قد قال - وهو رجل دين - لندع هؤلاء الكلاب يفـترس بعـضهم بعـضًا، ثم نقـيم على أنقـاضـهم الكنيسـة الكاثوليكيـة العالمية، فنكون حقا راعيا واحدا وقطيعًا واحدا.

وكان الإسـماعيليـة قبل ذلك قد حـاولوا عمل اتحاد مع جـميع القـوى المجاورة لهم على أمل التـعاون معهم فى صد خطر المغول المشـترك غير أن جهودهم فى هذا المجال لم تسـفر عن شىء عمـلى، فالشيـعة الإثنى عشـرية فى قم وقاشـان وآوه وطوس وسيزاور كـانوا قد ذاقوا الأمرين من جـراء الغزو المغولى سواء فى عصـر جنكيزخان (ت/ ٦٢٤) هـ أو عصر خليـفته أوكتاى (ت/ ٦٣٩) هـ ووقعوا تحت طائلة الضرائب الثقيلة التى فرضها عليهم عمال المغول حتى لم يعد عندهم شىء يصلح لممارسة حياتهم العادية.

ومن جانب آخـر لم يكن الشيعة الإثنى عـشرية ليقبـلوا فكرة (القيامة) التى أعلنهـا الحسن الثانى الإسماعيلى فى آلموت سنة ٥٥٩هـ، أو التظاهـر بالعودة إلى منهج أهل السنة والجماعة الذى أعلنه الحسن الثـالث الإسماعـيلى سنة ٦٠٧هـ، كذلك ظل الطرفان مـختلفين حـول منهج تحديد «الإمام» وكثيـرا ما حاول الإسماعيلية التـهكم بمسألة دخول الإمام الثانى عشـر عند الشيعة الإثنى عشـرية إلى السرداب، وأنه سيـظل بهذا السرداب حـتى يخرج منه فى يوم ما، وفـى المقابل طعن علماء الشيعة الإثنى عشرية فى أئمة الإسماعيلية.

أما أهل السنة والجماعة فقد ثبت لديهم أن الإسماعـيلية أهل فساد وإلحاد منذ حادثة القيامة الشهيرة، ثم التظاهر بـالعودة إلى منهج أهل السنة - أى أنهم يتفقون مع الشيـعة الإثنى عشرية فى هاتين الوقعتـين - ثم إعلان الحسن الثالث الإسماعـيلى فى سنة ٦١٧هـ الولاء للمغول فى الوقت الذى اكتوى فيه المسلمـون جميعًا بنار أعدائهم وقسوتهم، ثم دعـوة علاء الدين الإسماعيلى الذى

تولى سنة ٦١٨هـ إلى منهج تعطيل الشعائر الإسلامية ورفض تعاليم الدين مع استمراره فى سياسة ممالأة المغول ومساهمته فى إسقاط الدولة الخوارزمية فى سنة ٦٢٨هـ، لهذا كله لم يكن بوسع أهل السنة والجماعة أن يثقوا فى حقيقة موقف الإسماعيلية من المغول بعد أن فسدت العلاقة بين الطرفين.

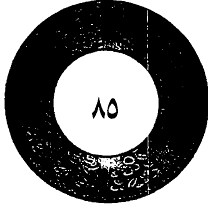
وهكذا وقف الإسماعيلية حائرين فى مفترق الطرق حتى واتتهم الفرصة كى يستردوا ثقة المغول فيهم من جهة، وينتقموا من أعدائهم من جهة أخرى، ففى سنة ٦٤٢هـ أرسل أرغون آقا حاكم خراسان المغولى جباة الضرائب إلى مدينة الدامغان فأثقلوا كاهل الأهالى حتى عجزوا عن السداد فأقدم الجباة على استخدام وسائل مهينة لإجبارهم على الأداء وذلك بأن علقوا النساء من صدورهن والرجال من أقدامهم لكنهم عجزوا رغم كل ذلك عن جمع الضرائب، فاتصلوا بالإسماعيلية ومنحوهم مدينة الدامغان فقدم الإسماعيلية إليها وقتلوا جموعا من أهاليها ونقلوا أكثرهم إلى قلعة (كردكوه) ودمروا الأسوار بالمياه وسووها بالأزقة وحصدوا الغلال ودمروا القرى والمنازل وفعلوا الأمر نفسه فى مدن آمل واستراباد وكبودجامة.

وعلى الرغم من ذلك كله لم ينس المغول للإسماعيلية مسألة اتصالهم بملوك غربى أوروبا، أو محاولتهم تجميع القوى المجاورة لهم للوقوف معا فى وجه المغول، ففى حفل تنصيب الخاقان الأعظم كيوك بن أوكتاى سنة ٦٤٤هـ قدم من طرف علاء الدين الإسماعيلى حاكم آلموت شهاب الدين وشمس الدين حاكما قهستان ومع كل واحد منهما أحمال لائقة بالخان الأعظم من الهدايا والتحف إلا أن الخان الأعظم استقبلها شر استقبال وطردهما من حضرته على غاية من الذلة والمهانة.

ولم يكتف كيوك بهذا الإجراء وإنما كلف القائد المغولى «ايلجيغداى» بأن يقود جيشا كبيرا فى اتجاه الغرب على أن يبدأ بقلاع الإسماعيلية، والدليل على مدى اهتمام كيوك بهذا الجيش أنه قد أمر بأن يسهم فيه كل واحد من أفراد البيت المالك بخمس قواته العسكرية ثم أعلن تصميمه على أن يسير بنفسه وراء هذا الجيش.

وفى الحقيقة لم يكن عمل هذا الجيش موقوفًا على مهاجمة قلاع الإسماعيلية فقط وإنما وكل إليه أيضا السيطرة على بلاد الروم والكرج وحلب والموصل وديار بكر، ومنح لقائده (ايلجيغداى) كافة الصلاحيات لأن يكون تعامل هذه البلاد معه مباشرة أى دون الرجوع إلى الخاقان الأعظم كيوك.

ويمكن أن نلاحظ أن كيوك كان يهدف من وراء إرسال قائده هذا تقليص قبضة بايجو نوين القائد المغولى الذى تولى قيادة جيوش المغول فى إيران وما حولها بعد عزل القائد جورماغون الذى أصابه الشلل سنة ٦٣٩ هـ، وكان بايجو موفدا من قبل أوكتاى الخان الأعظم قبل وفاته فى نفس

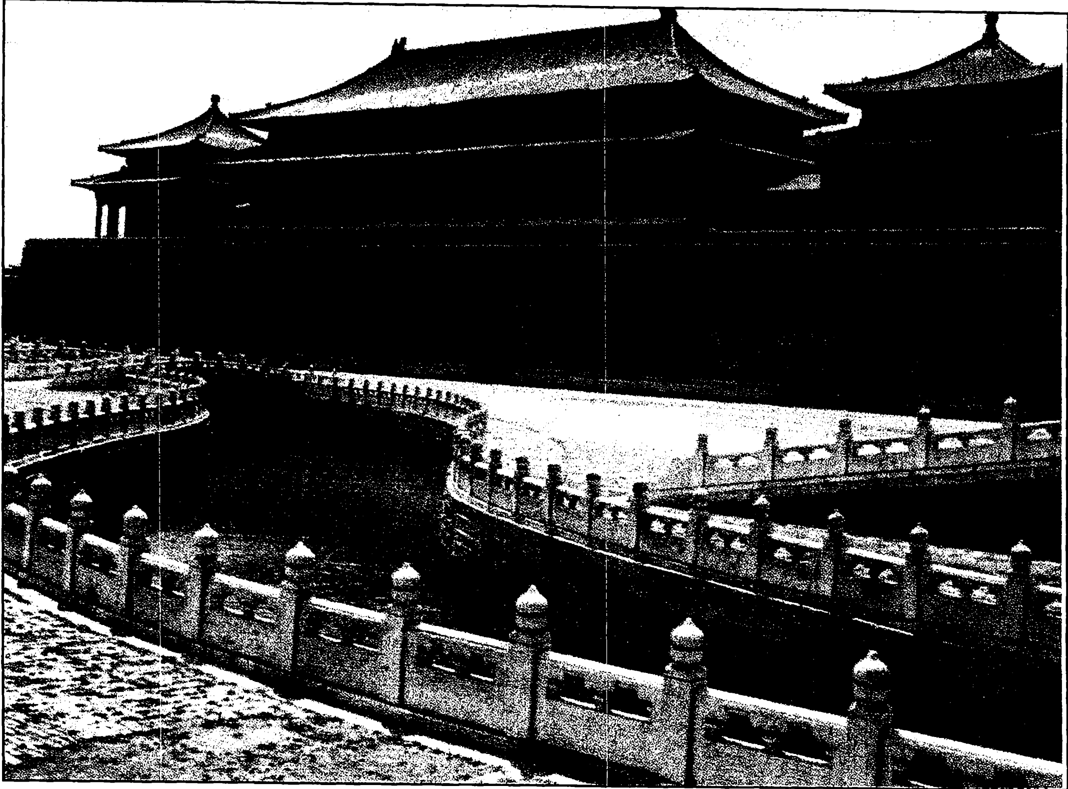


السنة إلا أن صلته القوية بباتو خان زعيم مغول القبجاق - وأبرز أعداء كيوك - كانت دافعا لكيوك كى يتخلص منه.

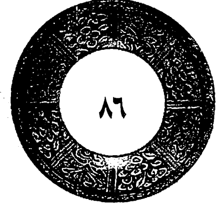
غير أن القدر تدخل لصالح الإسماعيلية هذه المرة فكيوك خان نفسه لم يعمر فى الحكم أكثر من عام واحد وبضعة شهور، أما قائده ايلجيغداى فقد تمكن رجال باتو من القضاء عليه كما سبق القول وبالتالى توقف مشروع تدمير قلاع الإسماعيلية إلى حين.

منكوخان والإسماعيلية:

تولى منكوخان حكم الإمبراطورية المغولية عقب انتخاب المؤتمر العام المغولى (القوريلتاى) له فى سنة ٦٤٨ هـ، واستغرق فترة من الوقت فى دراسة أحوال المغول وضبط أمور الدولة وتنظيم إدارتها وارتضى فى النهاية باستراتيجية تدعيم الاستقرار المغولى خارج حدود منغوليا التى بدأها أوكتاى (ت/ ٦٣٩هـ) وعمل كيوك (ت/ ٦٤٦هـ) على تدعيمها فى فترة حكمه القصيرة فرأى أن يعاود المغول تأكيد السيطرة على الصين شرقا وبخاصة الأجزاء الجنوبية منها وتكوين مملكة مستقرة



القصر الصيفى - بكين



الدعائـم غربا تتخـذ من السيطرة علـى إيران قاعدة لهـا ومنطلقا إلـى الشام ومصر، ولمـا كان هولاكو شقـيق الخان الأعظم قد ناهز الأربعين من الـعمر وتمتع بمواصفات خاصة ومواهـب نادرة تؤهله للملك فقد رأى منكو أن يعهد إليه بهذه المهمة الخطيرة.

وكان تنفـيذ هذه المهـمة يصطدم بوجـود قوتين عـسكريتين همـا قلاع الإسماعيلية والخلافة العباسية فى بغـداد، فاستلزم الأمر إعداد جيش ضخم يكون النصر حليفا له، فتكون هذا الجيش بالإضافة إلى القوات الرئيسية فيه من خمس القوات الموجودة لدى الأسرة الحاكمة كلها ليكون حرسا خاصـا لهولاكو، ونجدة من عند باتو زعيم مغول القبـجاق، وجيش من معسكر أبناء جغتاى، وجـيش آخر من قبيلة (أويرات) المغولية، أما آلات الحـصار الثقيلة فكانت تضم ألف أسرة من بلاد الخطا (الصين الشـمالية) على درجة عاليـة من المهارة فى استعمال المجـانيق وقاذفات النفط ورمى السهام.

وقبل الحديث عن حمـلة هولاكو على قلاع الإسماعيلية فـإنه ينبغى الإشارة أولا إلى أهم تلك الدوافع التى حركتها وهى:

١- شكوى القـائد المغولى بايجـو الذى أرسله منكوخـان مجـددًا على رأس جيش جـرار للمحـافظة على إيران فلما بلغهـا أرسل رسولا إلى منكوخان يشكـو إليه الإسماعـيلية وخليفة بغداد المستعصم بالله العباسى(٦٤٠-٦٥٦)هـ.

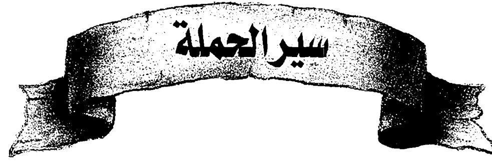
وبالطبع وضعت هذه الشكوى موضع الاعتبار، لأن بايجو كـان يتولى قيادة جيوش المغول فى إيران منذ سنة ٦٣٩هـ وكان عليه أن يوطد دعائم المغول فى الشمال الغربى لإيران فى مواجهة أعداء كـثيرين منهم سـلاجقـة الروم والكرج والأرمن واللور وأرض الجزيرة التى يسكنهـا العرب والأكراد والتركمان.

٢- شكوى أهل السنة فى قـزوين، وكان هؤلاء فى صراع دائم مع الإسـماعيليـة إذ كانوا أقرب أهل السنة مجاورة لهم وأكثرهم معارضة لمـذهبهم حتى إن حياتهم اليومية كانت تتأثر بالعلاقة مـعهم تأثرًا كبيرا. يقول المؤرخ الشيعى ابن طبـاطبا: «حدثنى إمام الدين يحيى بن الاقتـخارى (رضى الله عنه) قال: «أذكـر ونحن بقزوين إذا جاء الليل جعلنا ما لنا من أثاث وقماش ورحل فى سراديب لنا فى دورنا غامـضة خفية، ولا نترك على وجه الأرض شيئـا خوفا من كبسات الملاحـدة يعنى الإسماعيلية، فإذا أصـبحنا أخرجنا أقمشتنا، فإذا جاء الليل فعلنا كذلك؛ ولأجـل ذلك كثر حمل القزوانة للسكاكين وكثر حملهم لـلسلاح، ومازال الملاحـدة على ذلك حتى كـان من أمر شمـس الدين قاضى قزوين وتوجهـه إلى قاآن (يعنى الخان الأعظم منكو)، وإحضار العـسكر وتخريب قلاع الملاحدة ما كان.

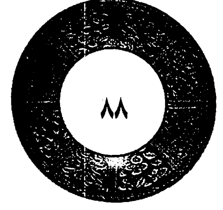


أما ما كـان من القاضى شمس الدين أحمد الـكافى القزوينى - وكان إمامًا وعالما كبيـرًا من علماء السنة - فإنه ذهب مرة إلى منكوخان وطلب منه أن يضع حدا لشـر الملاحدة، ويخلص الناس من فسادهم، وفى أثنـاء حديثه وبينما كان مندفعـا بحماسة المسلم المتدين صدرت منه كلمات جـافة أغضبت منكوخان، وكان لها أثر عميق فى نفـسه إذ نسب إليه الضعف والعجز، لأنه لم يستطع أن يـستأصل شـأفة هذه الطائفة التى تديـن بدين يخالف ديانات المسيـحييـن والمسلمين والمغول، وما ذلك إلا لأنهم استطاعوا أن يغروا منكوخان بـالمال، بينما هم يتحينون فرصة ضعف دولته، فيخرجون من الجبال والقلاع ليقضوا على البقية الباقية من المسلمين ويعفوا آثارهم».

٣- تهديد خطوط مـواصلات الجيـوش المغولية إذ كـان موقع قلاع الإسـماعيليـة سواء فى قهستان أو آلموت وما حولها يشكل تهديدا خطيرا فى ظهر القوات المغولية المتجهة غربا، وبالطبع لم ينس المغول اغتيال الإسماعيلية لبعض قوادهم سلفا، فكان التخلص من هذه القلاع ضرورة يحتمها واجب تأمين حيـاة القواد المغول وبخاصة هولاكو وكذلك حماية خطوط مواصلات الجيش المغولى وتموينه.



بدأ الإعداد لهذه الحـملة الضخمة منذ بداية عـام ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م وكان الخان الأعظم منكو يعطى هذا الأمر عناية واهتـماما كبيـرين إذا كان يشرف على تدبير شئـون الحملة وتجهيـزها بنفسه، وكانت أولى الخطوات أن رسم لأخيه هولاكو السياسة العامة التى ينبغى أن يلتزم بها فقال له: «إنك الآن على رأس جيش كبـير وقوات لا حصر لهـا، فينبغى أن تسير من تـوران (منغوليا) إلى إيران، وعليك أن تحافظ على تقـاليد جنكيزخان وقـوانينه فى الكليات والجزئيـات، وكل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك فى الرقـعة الممتدة من نهر جـيحون إلى أقاصى بلاد مصر خـصه بلطفك وعطفك وإنعامك، وأما مـن يعصيك فأغرقـه فى الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقـاربه وكل من يتعلق به، وابدأ بإقليم قهسـتان فى خراسان فخرب القـلاع والحصون، وإذا فرغت من هذه المهمة فـتوجه إلى العراق وأزل عن طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطريق على سالكيها، وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فـروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقا، أمـا إذا تكبر وعصى فألحقـه بالآخرين من الهالكين، كذلك ينبغى أن تجـعل رائدك فى جميع الأمور العقل الحكيم والرأى السـديد، وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها فى الحال، وثق أنك بقـوة الله العظيم سوف تفتح ممالك الأعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتى عديدة، وشاور (دوقوز) خاتون فى جميع القضايا والشئون».



وما يعنينا من هذه الخطة هو التركيز على الحقائق الآتية:

١- أن وجود قلاع الإسماعيلية فى قهستان أو آلموت وما حولها أو فى الشام إنما هو أحد العقبات التى تهدد تكوين المملكة المستقرة المنتظرة لهولاكو وأبنائه والتى تمتد من غربى نهر جيحون فى إيران إلى جنوبى مصر.

٢- أن الإبقاء على الخليفة العباسى المستعصم باعتباره رمزا روحيا لغالبية المسلمين أمر لا غبار عليه مادام بقاؤه غير مقترن بعصيان أو تعطيل لحركة الغزو.

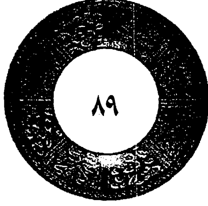
٣- أن يكون للمسيحيين رأى فى مختلف شئون تكوين المملكة من خلال شخصية دوقوز خاتون زوجة هولاكو التى كانت مسيحية نسطورية ذات حنكة ودهاء.

بدأ خروج حملة هولاكو من قراقورم عاصمة المغول فى منغوليا بانطلاق طليعة الجيش المكونة من اثنى عشر ألفًا من الجند تحت قيادة (كيتوبوقا) نوين فى جمادى الآخرة سنة ٦٥٠هـ/ يوليو ١٢٥٢م، وبعد التأكد التام من إنهاء كافة الترتيبات الخاصة بتسهيل حركة الجيش الرئيسى كتمهيد الطرق وإبعاد القبائل المقيمة على مقربة من خطوط الاتصال، والتعرف على أخبار الأعداء اجتاز كيتوبوقا بجيشه المدرب نهر جيحون متوجها إلى خراسان فى أوائل المحرم سنة ٦٥١هـ حيث شرع فى الهجوم على ولاية قهستان الإسماعيلية مستوليا على بعض أجزائها.

وفى شهر ربيع من نفس السنة هاجم قلعة « كردكوه» ومعناها الجبل المدور وحاصرها وترك القائد بورى هناك بينما توجه هو لحصار قلعة إسماعيلية أخرى، وفى اليوم الثامن من جمادى الثانية من نفس السنة دخل قلعة (شاه دز) وقتل عددا كبيرا من السكان ثم قفل راجعا إلى قهستان، وأما القائد (هركتاى) فقد ذهب على رأس جيش مغولى آخر إلى ولايتى طارم ورودبار وأحدث فيهما كثيراً من التخريب والتدمير، ثم قصد أسوار المنصورية وآلة نشين حيث أجرى المغول مذبحة مروعة فى الإسماعيلية هناك دامت ثمانية عشر يوما.

و يتضح من سرعة الحركة والمناورة وأعمال التخريب والقتل أن الهدف الأساسى لحركة كيتوبوقا ورجاله كان يدور حول إشاعة جو من الرعب والفزع لدى الإسماعيلية خاصة والإيرانيين عامة، إضافة إلى الاستكشاف العملى لمدى قوة قلاع الإسماعيلية ومهارة المدافعين عنها وثباتهم.

أما الجيش الرئيسى الذى كان تحت قيادة هولاكو نفسه فقد كان عدده يزيد على مائة وعشرين ألفا من خيرة الجند، وقد بدأ هذا الجيش فى التحرك من منغوليا فى اليوم الرابع والعشرين من شعبان سنة ٦٥١هـ أى بعد عام أو أكثر من تحرك الطليعة بقيادة كيتوبوقا، وكان هولاكو مصطحبا معه زوجته الشهيرة دوقوز خاتون وكذلك ولديه الكبيرين آباقا ويشموت وهو الأمر الذى يؤكد على أن هذه الحملة إنما كانت تهدف إلى تكوين مملكة مغولية مستقرة فى إيران يحكمها هولاكو وأبناؤه وأن القضاء على قلاع الإسماعيلية كان جزءًا من التخطيط لاستقرار هذه المملكة وتأمينا لها.

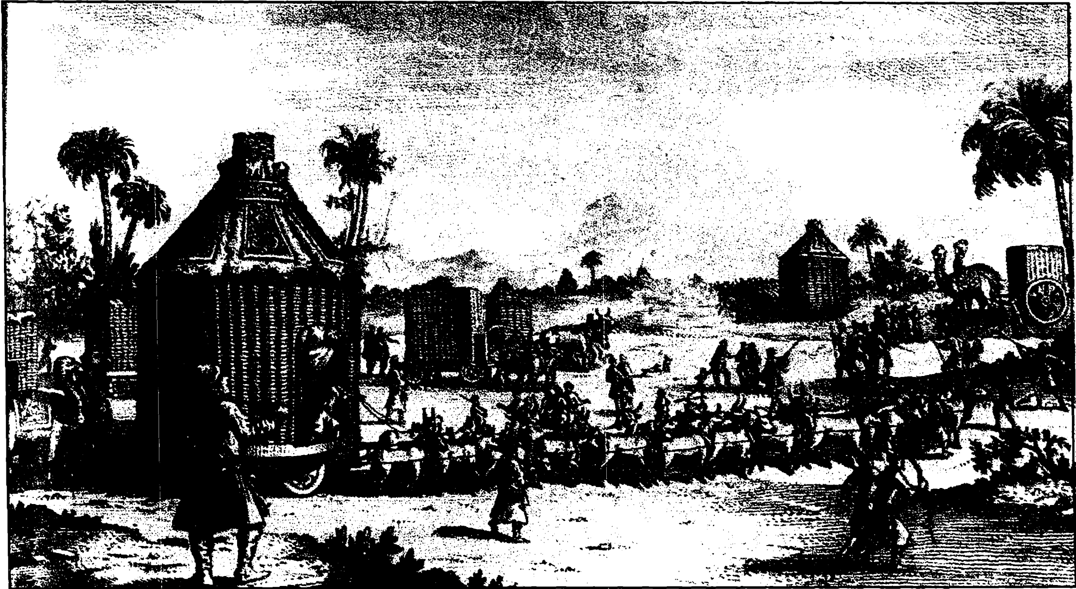


وفى المآليق عاصمة مملكة أبناء جغتاى التى كانت تشمل تركستان وبلاد ما وراء النهر استقبلت أورغنه خاتون - التى كانت تحكم هناك بعد وفاة زوجها قراهولاكو - الحملة أحسن استقبال حتى إن هولاكو قد مكث فى هذا المكان فترة تزيد على العام.

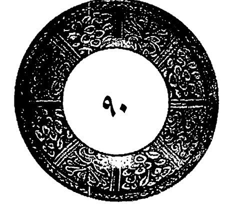
وفى شعبان سنة ٦٥٣هـ / سبتمبر ١٢٥٥م وصل هولاكو إلى مروج «كل كل» على أبواب مدينة سمرقند فنشر الصاحب مسعود -الحاكم الإدارى لبلاد ما وراء النهر وتركستان- خيمة من اللباد الأبيض مطرزة بالذهب فأقام هولاكو فى تلك الربوع قرابة أربعين يوما بين الطرب والسرور وكانت هذه الفترة كغيرها من فترات الانتظار فرصة لتجميع أخبار العدو وإعادة ترتيب أوضاع الجيش واستكشاف مواقف المؤيدين، ففى غرة شوال سنة ٦٥٣هـ استقبل هولاكو شمس الدين محمد بن كرت حاكم مدينة (هراة) الذى كان أول الحكام الإيرانيين سبقا إلى حضرة هولاكو وإعلانا بالخضوع له والتأييد.

ثم رحل هولاكو إلى أطراف «كش» فى الجنوب الغربى من مدينة سمرقند حيث وافاه هناك الأمير أرغون آقا - الحاكم الإدارى لإيران من قبل المغول - ومعه أكثر أكابر خراسان وهم محملون بالهدايا الثمينة فأقام هولاكو فى المنطقة شهرا كاملا.

وفى هذه الأثناء اغتيل علاء الدين الإسماعيلى حاكم آلموت، اغتاله أحد المقربين إليه ويدعى حسن المازندرانى بالاتفاق مع ابنه خور شاه فى نهاية شهر شوال سنة ٦٥٣هـ.



رسم لخيام الجيش المغولى



وكان خور شاه قبل اغتيال أبيه يقول على سبيل التهويم « بسبب سلوك أبى السمج فإن الجيش المغولى يعتزم مهاجمة المملكة وأبى غير عابئ، ولهذا فإننى سازيحه عن العرش وأبعث برسلى إلى ملك البسيطة يعلنون باسمى عن خضوعى التام لحكمه وتبعيتى له.

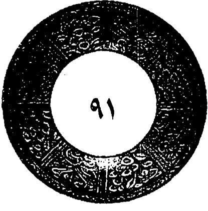
وعندما تولى خور شاه الحكم حاول أن يغير من الحالة التى كان الإسماعيلية عليها فى عهد أبيه فبادر إلى إرضاء أهل السنة بأن أرسل إلى أهل كيلان والمناطق المجاورة يعلمهم بوفاة أبيه ويعرض عليهم العلاقات الوطيدة على عكس ما كان عليه أبوه يفعل، كما أرسل - من ناحية أخرى - رسلا إلى جميع ولاياته يأمرهم أن يلتزموا بالسير على الدين الإسلامى القويم.

ولا يختلف ما فعله خور شاه هنا كثيرا عما فعله جده الحسن الثالث الإسماعيلى (ت/٦١٨هـ) حينما واجه قوى تفوقه عددا وعتادا فلجأ إلى التظاهر بالعودة إلى منهج أهل السنة والجماعة ودعوة المسلمين إلى الإغضاء عما ارتكبه أبوه من نقض للشريعة ومخالفة للشعائر. وكما أرسل أبوه إلى جنكيزخان عند ظهوره فى شرقى إيران سنة ٦١٧هـ بادر خور شاه أيضا بأن أرسل مبعوثا إلى ياور نويان قائد جيش المغول فى همذان يبلغه بأنه وقد جاء إلى الحكم فإنه يريد أن يتبع طريق الخضوع ويزيل غبار النفور عن ملامح الولاء فنصح القائد المغولى بأن يقدم خور شاه خضوعه وولاءه إلى هولاكو شخصيا ولكن خورشاه اقترح كحل وسط أن يبعث بأخيه شاهنشاه إلى هولاكو.

أما هولاكو فقد عبر على رأس جيشه الضخم نهر جيحون فى غرة ذى الحجة سنة ٦٥٣هـ ونزل بمرج شبورقان (غربى مدينة بلخ) حيث هيأ الأمير أرغون آقا فى هذا المقام خيمة عظيمة من القطن المنقوش نزل فيها هولاكو على حين انطلق أرغون آقا من هذا المكان للمثول بين يدى الخاقان الأعظم منكو تلبية لاستدعائه إليه.

وكان هولاكو قد أرسل قبيل ذلك مباشرة إلى الملوك والأمراء فى إيران رسالة مضمونها «بناء على أمر الخان الأعظم قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة والقضاء على تلك الطائفة فإذا أسرعتم وساهمتم فى تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وسنحمد لكم موافقكم، أما إذا تهاونتم فى امتثال الأوامر وأهملتم، فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة فإننا لن نقبل عذركم وسنتوجه إليكم، فيجرى على ولاياتكم ما يكون قد جرى عليهم».

ويتضح من أسلوب الرسالة أن كاتبها من أهل السنة أو لعل هذا من عمل المؤرخ رشيد الدين الذى أورد نص الرسالة فيما بعد - وكان شافعى المذهب - فكلمة الملاحدة التى وردت



مرتين فى الرسالة كانت الاسم الذى أطلقه أهـل السنة على الإسماعيلية منذ إعلانهم حادثة «القيامة» فى سنة ٥٥٩هـ كما سبق القول.

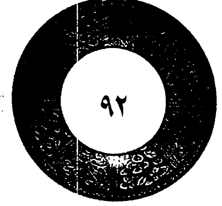
أيا كان الأمر فـقد هرع الملوك والأمراء فى إيران وما حولهـا إلى تلبية نداء هولاكو فبالإضافة إلى شمس الدين بن كرت صاحب هراة كان هناك أبو بكر سعد بن زنكى السلغورى أتابك فارس وقطب الدين محمد حاكم كرمان الذى قام بإرسال قوات خـاصة لتعمل تحت راية المغول، وقد كانت هذه القـوات المسلمة بالإضافة إلى قوات (يزد) من القوة والكثرة بحيث تكون كتيبة عسكرية مستقلة بذاتها، كذلك لم يتأخر ملكا آسيا الصغـرى من سلاجقة الروم وهما كيكاوس الثانى، وقلج أرسـلان الرابع عن إعلان الترحيب والتأييد بمقدم هولاكو وجيشه.

هكذا نجح هولاكو فى عـزل الإسماعيليـة عن غيرهم من القوى المجـاورة، فلم يجد أهل السنة والجماعة أو الشيـعة الإثنى عشرية معنى فى محاربة المغول لأجل الإسـماعيلية الذين آذوهم أشد الإيذاء، وهم لو أرادوا ما قدروا إذ إن الجراح القديمـة التى تركها جنكيزخان فى الغزو الأول سنة ٦١٦هـ لم تندمل بعد آثارها. ومن هنا انقسم المـسلمون حيال غزو المغول لقلاع الإسـماعيلية بين مؤيد وصامت لا يملك من أمره شيئا، وتحقق بذلك أهم الأهداف المرجوة للمغول.

وفى الناحية العسكرية آثر هولاكـو أن يحتفظ بجيشه سليمـا قدر الإمكان فمارس ألوانا من السيـاسة دلت على دهائه وسعة أفـقه ومن ذلك أنه أرسل الملك شمس الدين بن كـرت إلى ناصر الدين حاكم الإسماعيلية فى قهستان وكان مقيما فى قلعة «سرتخت» يدعوه إلى الدخول فى الطاعة فامتثل للأمر وقصد معسكر هولاكو فى السابع من جمادى الأولى سنة ٦٥٤هـ حيث قدم له أنواعا كثيرة من التـحف والهدايا فقال له: «إنك نزلت من القلعة، وقبلت الخضوع لإنـقاذ حياة زوجتك وأبنائك، فلماذا لم تنزل مـعك سكان القلعة وتحثـهم على التسليم» فأجـاب ناصر الدين «إن لهم ملكا يدعى خور شاه يأتمرون بأمره» فأنعم عليه هولاكو ونصَّبه حاكما على مدينة (تون).

ونلاحظ أن شمس الدين بن كرت كـان يحكم من قبل منكوخان منطقة واسـعة فى الجانب الشرقى من إيران وما يجاوره شمل هراة وسجستان وبلخ وسائر تلك البقاع حتى حدود الهند وهى منطقة تضم سكانـا من الإيرانيين والأتراك أغلبهم على مـذهب أهل السنة والجماعـة فكان وجود قلاع الإسمـاعيلية فى قهستـان المجاورة يشكل ضغطا مستـمرا على حياتهم اليومـية،ومن ثم كان طبيعيـا أن يبادر شمس الدين بن كرت إلى المساهمـة فى أى عمل يكون من شأنه إزالة هذا الخطر الذى يهدد حياة العامة والحكام ويسهل فى نفس الوقت مهمة هولاكو قبل اتجاهه غربا صوب المركز الرئيسى للإسماعيلية فى آلموت.

أما قلعة (تون) وهى من أهم قلاع الإسـماعيلية فى قهستان فإنهـا كانت قد سقطت فى يد جيش هولاكو فى أوائل ربيع الأول سنة ٦٥٤ هـ فرأى أن يمنحها لناصر الدين الإسماعيلى مكافأة



له على الخضوع والولاء من ناحية ولأنه أقدر على تدبير شئونها من غيره من ناحية أخرى.

وبعد سقوط تون تلاها كل من«زاوة» و«خوان» وهما فى الجنوب من طوس إذ عجزت طائفة الإسماعيلية فيهما عن مقاومة آلات الحصار المغولية فانهارت الأسوار وفتك المغول بالأهالى وسبوا النساء كعادتهم.

وأيقن هولاكو أن قلاع الإسماعيلية فى قهستان قد نالت قدرا كبيرا من الدمار فرأى أن يتجه شمالا إلى طوس التى كانت مركز الإدارة المغولية فى شرقى إيران، وهناك نزل فى الخيمة العظيمة التى نصبها أرغون آقا فى وسط الحقول وكانت من النسيج المزركش والتقى هناك قائده الشهير كيتوبوقا قائد قوات الطليعة فعرض على سيده هولاكو أحوال قلاع الإسماعيلية وحاكمها ركن الدين خور شاه.

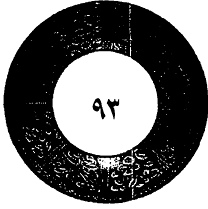
وبعد تدارس الأحوال قرر هولاكو أن تستمر سياسة التهديد والترغيب مع خور شاه وفى الوقت نفسه تتحرك الجيوش فى اتجاه القلاع، وعلى هذا أرسل يقول لخور شاه فى جمادى الآخرة سنة ٦٥٤هـ «بما أنك أرسلت أخاك وعرضت الطاعة فقد عفوت عن الجرائم التى ارتكبها أبوك نحو شعبه، ولم ألحظ جرما فى عهدك، فلتخرب القلاع وتنزل إلينا شخصيا وتظهر الطاعة وتبادر بالامتثال وبتخريب بعض القلاع».

والرسالة لم تحدد الجرائم التى ارتكبها علاء الدين الإسماعيلى والد خور شاه نحو شعبه وأغلب الظن أن المقصود بهذه الجرائم - من وجهة نظر هولاكو - هو مقاومة الإسماعيلية للمغول عند محاصرتهم حصن «كردكوه» القريب من الدامغان وقتلهم القائد المغولى «يورى» وعدداً من جنوده وهو الأمر الذى حدا بالمغول إلى التصميم على تدمير قلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم.

وتحرك جيش هولاكو صوب القلاع فانتقل من طوس فى اتجاه الشمال الشرقى نحو «رادكان» واستمر فى نفس الاتجاه صوب خبوشان وكانت خربة منذ أول خروج جيش المغول (فى زمن جنكيزخان) فأمر هولاكو بعمارتها.

وفى مدينة (استو) التى تقع شمالى خبوشان توقف هولاكو مدة شهر بغرض الاستطلاع ثم تحرك إلى بسطام وخرقان على مقربة من استراباد فوصلها فى العاشر من شعبان سنة ٦٥٤هـ فأرسل من هناك رسالة أخرى إلى ركن الدين خور شاه لتخويفه وتهديده.

وفى منتصف شعبان من نفس السنة تحركت الجيوش المغولية صوب القلاع الإسماعيلية على ثلاثة محاور: مازندران (أى فى اتجاه بحر قزوين)، سمنان أى فى اتجاه الرى، آلموت، حيث تمَّ الاستيلاء على قلعة فيروزكوه، فأحسَّ خورشاه باقتراب الخطر الداهم، فبادر بطلب مهلة سنة ليسلم الثلاث الرئيسية (آلموت - ميمون دز- لمبسر) وأرسل حاجبا إلى محتشم «كردكوه» ومحتشم «قهستان» يطلب إليهما الانصياع والخضوع لهولاكو.



وأمر هولاكـو الأمراء والنبـلاء المغول فى منتـصف شوال ٦٥٤هـ بان يحيطوا بالقلاع، ولما كـان هو نفسه قد وصل إلى ناحية الطالقـان فقد جرى فرض الحـصار على قلاع تـلك الناحية وخـاصة « آلة تشيـن» «والمنصورية» وعدداً آخر من القلاع، وقد اشتركت فى الحـصار جيوش معاونة من مسلمى كرمان ويزد وفارس.

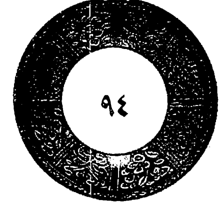
وفى الثامن عشر من شهر شوال من نفس السنة شرع المغول فى الاستيلاء على (ميمون دز) حيث تمت محـاصرتها من مختلف الجـهات، ولم يجد خور شاه مناصـا عن طلب الأمان بمرسوم ملكى فلما كـتبه عطا ملـك الجوينى بتكليف من هولاكو وأرسل إليـه، منعه بعض الفـدائيين من مغادرة القلعة فأرسل إلى هولاكو يبلغه بما حدث ويعتـذر فغضب هولاكو وأظهر أنه مهتم بالحفاظ على حياة خور شاه.

نصير الدين الطوسى :

يعتبر نصير الدين واحدا من أبرز رجالات الشيعة الإثنى عشرية فى عصر المغول، وكان يقيم منذ فترة طويلة وجماعة آخرون من الأطبـاء لدى علاء الدين الإسماعيلى (ت/٦٥٣هـ) وكانوا قد رأوا أفعاله المضطربة وملوا مـلازمة الإسماعيلية، ونفروا من الإقـامة عندهم، ومالوا إلى هولاكو، فصاروا يتشاورون سرًّا كى يجعلوا الحاكم الجديد خور شاه خـاضعا لهولاكو على الوجه الأحسن والطريق الأسهل، فانضم إليهم كثير من الإسماعيلية فى هذا الرأى واتفقوا جميعًا على تحقيق هذا الهدف.

وقبل خروج ركن الدين خـور شاه من (ميمون دز) أرسل نصـير الدين الطوسى برسالة إلى هولاكو فـوصل إلى معسكره فى ٢٧شـوال سنة٦٥٤هـ، ولما التقى بهولاكـو قال له: «إن الملك - يعنى هولاكو - لا يهاب حـصانة قلاع الإسماعيلية أو مـتانتها، كما أن عـلامات النجوم وأوضاع الفلك تخبر أن دولة الإسماعيلية قد وصلت إلى نهايتها،وان شمس سلطتهم قد أفلت»، وقد أثلج هذا القول صدر هولاكو وبدأ من حينها إعجابه بشخصية نصير الدين وهو الأمر الذى كان له أكبر الأثر - فيما بعد - فى تقرير مصير كبار رجالات المسلمين فى إيران والعراق.

وهكذا رأينا كـيف أن دور نصير الدين الطوسى لـم يتوقف عند توهين عزيـمة ركن الدين خور شـاه حاكم الإسماعـيلية أو الفتِّ فى عضده إذ حـين تنازعته المخاوف زين له نـصير الدين ضرورة الاسـتسلام بدعـوى المحافظة على أرواح الضـعفاء والمسـاكين، وإنما امـتد هذا الدور إلى تحريض هولاكو على تدمير قـلاع الإسماعيلية والقضاء عليهم مؤيدا وجـهة نظره بعلامات النجوم وأوضاع الفلك وهو الأمر الذى يعـتقد المغول فى صدقـه أشد الاعتقاد ولهـذا صمم هولاكو على استئصال شأفة الإسماعيلية كلية.



وفى يوم الأحد غرة ذى القعدة سنة ٦٥٤هـ الموافق ١٩نوفمبر سنة١٢٥٦م نزل خور شاه من (ميمون دز) فى رفقة نصير الدين الطوسى. وأصيل الدين الزوزانى ومؤيد الدين الوزير وسلموا له القلاع والذخائر، وقد أنشد الخواجة نصير الدين فى تاريخ هذه الحادثة هذين البيتين باللغة الفارسية:

عندما صارتْ السنةُ الهجريُة أربعاًوخمسين وستمائة

وفى صباح يوم الأحد الموافق غرة ذى القعدة

قام خور شاه ملك الإسماعيلية من على العرش

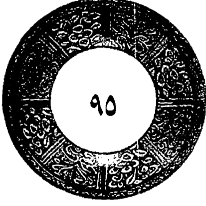
ووقف بين يدى هولاكو

وبقى أن نؤكد فى نهاية الحديث عن دور نصير الدين الطوسى هنا، وهو من الشيعة الإثنى عشرية على أن خط سير الحملة التى قادها هولاكو أو حتى قائد طليعته كيتويوقا لم يمس- باستثناء طوس التى كانت مركز الإدارة المغولى فى شرقى إيران - أيا من مراكز الشيعة الإثنى عشرية فى إيران فى سيزاور «بيهق« أو قم، أو قاشان بما قد يشير إلى وجود تعاطف بين المغول والشيعة الإثنى عشرية إذ كان من المعروف عند المغول ميلهم إلى تشجيع الأقليات المضطهدة رغبة فى تفتيت قوى أعدائهم وإضعافها.

أيا كان الأمر فإن استسلام خور شاه، وسقوط ميمون دز « كان بداية النهاية للوجود الإسماعيلى فى غربى إيران ففى اليوم الثانى لاستسلام خور شاه خرج الإسماعيلية بأمتعتهم من القلعة فدخلها الجيش المغولى وهدمها تماما بعد أن قضى على مقاومة بعض الفدائيين الذين حاولوا الدفاع عنها طيلة ثلاثة أيام دون جدوى.

وذهب رسول من عند هولاكو إلى حاكم قلعة (آلموت) ليستدعيه كى يمثل بين يدى هولاكو فيعلن الولاء والشروع فى هدم القلعة لكنه تردد فى النزول، فأمر هولاكو الأمير (بلغاى) أن يحاصر القلعة بجيش كثيف فأرسل سكانها يطلبون الأمان فتوسط لهم ركن الدين خور شاه ليعفو هولاكو عن خطئهم، وفى أواخر شهر ذى القعدة خرج السكان وبعد ثلاث ليال صعد المغول إلى القلعة فاحرقوا المنازل وهدموا القلعة.

وسرعان ما وصل إلى حضرة هولاكو محتشم قهستان شمس الدين والتمس العفو الملكى، وكانت للإسماعيلية على حدود قهستان قلاع كثيرة تزيد على خمسين قلعة فشرعوا يهدمونها وتوالى وصول أصحاب القلاع من جوانب الديلم واشكور وطارم وخرقان معلنين ولاءهم بعد أن خربوا قلاعهم فكسبوا العفو الملكى.



أما قلعة «لمبسر» فقد تأخر سقوطها قليلا حتى تمكن القائد المغولى طايربوقا بجيش من المغول والتاجيك (الفرس) من محاصرتها فاستسلمت فى ذى الحجة سنة ٦٥٤هـ الموافق يناير سنة ١٢٥٧م فكان سقوطها نهاية للقوة الضاربة فى قلاع الإسماعيلية ولم يتبق بعدها سوى قلعة كردكوه وتلك سقطت بدورها سنة ٦٥٨هـ/ سنة ١٢٦٠م.

وقد رأى هولاكو بعد سقوط القلاع الإسماعيلية الرئيسية فى أيدى رجاله أن يحتفظ بأهل خور شاه وعشيرته فى قزوين وكان أهلها راسخين فى مذهب أهل السنة والجماعة مستمسكين به على حين كان جيرانهم الأقربون من الإسماعيلية - لا يكاد يفصل بينهما بضعة كيلو مترات - يمارسون عليهم الكثير من الضغوط حتى أصبح الجدل، والنزاع سمة للعلاقات اليومية بينهما لدرجة أنهم أصبحوا معاً فى حالة حرب لا تكاد تنقطع، ومن ثم فإن إبقاء جماعة خور شاه فى قزوين كان بمثابة استشفاء لنفوس أهلها ورد لما كان يفعله الإسماعيلية بهم، ولعل هذا هو ما حدا بأحد مؤرخى الإسماعيلية إلى القول: «وفى عهد الإمام ركن الدين خور شاه الذى أصبح إماما بعد وفاة أبيه فى سنة ٦٥٣هـ وقعت معاهدة سرية بين هولاكو التترى وأهالى قزوين ألغيت بموجبها معاهدة الإسماعيلية والتتر».

أما خور شاه نفسه فقد ظلَّ مقيما فى المعسكر المغولى فى همذان تحت رعاية هولاكو الذى سمح له أن يتزوج من فتاة مغولية كان قد أولع بها، وعقب الزفاف طلب خور شاه السماح له بالذهاب لمقابلة الخان الأعظم منكو فى قراقورم فوافق هولاكو وكان شرط الموافقة أنه حين يصل إلى قلعة «كردكوه» ينزل الإسماعيلية منها غير أن خور شاه عندما صعد إلى القلعة أوصى إلى أتباعه سرا أن يرفضوا النزول ولم يغب هذا عن ذهن المغول الذين كانوا يرقبونه بدقة ولكنهم سمحوا له بمواصلة الرحلة إلى قراقورم على خيل البريد حيث أنف الخان الأعظم من استقباله قائلا: «لما تحضرونه وتشقون عبثا على الدابة التى يركبها»!!

ولما كانت قلعة «كردكوه» لم تستسلم بعد فقد أمر منكوخان بإعادة خور شاه حتى يجعل تلك القلعة تحت سيطرة هولاكو تماما، وفى أثناء عودته وعلى مقربة من مدينة بخارى وعندما كان خور شاه على وشك اجتياز نهر جيحون اختصم مع وفد المغول المرافق له وتضارب الطرفان فقتله المغول ومن معه بالسيوف، ولم يبقوا على أحد منهم.

وأغلب الظن أن قتل خور شاه قد تمَّ بأمر من منكوخان نفسه عندما أيقن أن بقاء خور شاه لم يعد يشكل أى نفع عملى آخر لحملة هولاكو على قلاع الإسماعيلية، وكان هذا الأخير قد استبقاه ولم يقتله مباشرة بعد استسلامه لأنه كان يدرك أنه ماتزال هناك قلاع كثيرة فى قهستان لم تستسلم بعد، إضافة إلى القلاع الثمانية الموجودة فى الشام والتى يمكن استخلاصها بتوجيه خور شاه ونفوذه وإلا فإن على هولاكو أن يقضى سنوات عديدة حتى يتيسر له فتحها

وبمقتل خور شاه بدأ الـقتل العام لكل من كان إسماعيليـا ففى المنطقة التى تقع ما بين قزوين وأبهر قُتِلَ - بأمـر هولاكو - ولدان لخور شاه وإخوته وأخواته وأقاربه وكل من كان لائذا به أو متصـلا بأهله، وفى قهستان أحضر الحاكم المغولى الإسماعيلية هناك بحجة إحصائهم ثم أمر بقتل اثنى عشر ألف شخص منهم دفعة واحدة

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد إذ إن أسواق العبيـد - كما يقول البروفسور بولى Bolye فى كتابه History of iran vol 5.p483 - كانت مكتظة بالنساء والأطفال من الإسـماعيلية الذين عرضوا للبيع هناك.

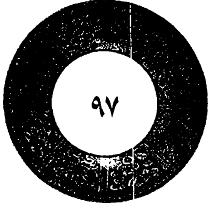
وهكذا تمَّ القضاء على الإسماعـيلية كقوة سياسية ذات أبعـاد مذهبية مناوئة للمنهج السنى السائد آنذاك فى إيران، ومن ثم فـاز هولاكو خان بعد القضـاء على الإسماعيليـة بإعجاب بعض أهل السنة فى العـالم الإسلامى إلى حـين لأنهم اعتـبروا ذلك خـلاصا لهم من خطر داهـم كان يهددهم.

وأما الشـيعة الإثنى عشـرية وهم الذين اتسمت نظرتهم إلى الإسـماعيلية بكثـير من المرارة لأنهم شقوا صفـوفهم وخرجوا عليهم - منذ أيام الإمام جعفـر الصادق - وأتوا بالكثير من الآراء والأفكار التى تبطل حق الأئمة الإثنى عشرية من أول الإمام السـابع موسى الكاظم بن جعفر إلى الإمام الثانى عشر المعروف لديهم بالمهدى المنتظر.

بل إن الإسماعيلية قـد حاولوا التهكم - كما سبق القول - بهـذا الإمام الأخير وبالسرداب الذى ينتظر فيه، ولهذا فإن الشيعة الإثنى عشـرية لـم يحركوا ساكنا حيال ما كان يجرى على قلاع الإسماعيلية حولهم بل إن سرورهم بإزالة هذه الطائفة لم يكن ليقل عن سرور خصومهم من أهل السنة والجماعـة، ولعل أصدق دليل عملى يؤكد ذلك هو موقف نصيـر الطوسى الذى أشرْتُ إليه منذ قليل.

ولم ينكر المؤرخـون من الشيعـة الإثنى عشـرية هذا الأمر فعلى سـبيل المثـال يقول المؤرخ ميرخواند (ت/ ٩٠٣هـ) صاحب كتاب روضة الصفا: «وبالقضاء على الإسماعيلية أمنت الطرق، وبدأ الذاهبـون والآيبون يسـيرون بـلا خوف، وانطلقت ألسنة أهـل الإسلام بشكر نعـمة البـارى سبحانه وتعالى والدعاء لهولاكو».

ويقول عباس إقبال صاحب تاريخ مفصل إيران: «وكانت الإسماعيلية عدوا لسائر المسلمين وكانوا يقتلون عن طريق فدائييهم كل من يصل إلى سلطة تعـارضهم وعليه فقد نشروا فى الممالك الإسلامية الشرقية كلها حالة من الرعب».



ومن خلال ذلك كله يمكننا القول بأن الشيعة الإثنى عشرية كانوا يرون كأهل السنة أن قضاء هولاكو على الإسماعيلية كان عملا مرضيا لكافة المسلمين.

بقايا الإسماعيلية:

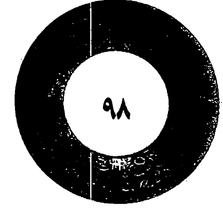
مما لا شك فيه أن قلاع الإسماعيلية قد تلقت صدمة عنيفة مدمرة على أيدى رجال هولاكو تصدع على أثرهم بنيانها القوى المتين الذى صمد طويلا فى مواجهة السلاجقة والخوارزميين، ولم يكن تحطيم الأسوار أو إحراق المنازل هو المعضلة الوحيدة التى واجهت الإسماعيلية فقد أمر هولاكو بإبادة مكتبة آلموت الشهيرة التى تعب الإسماعيلية فى إعدادها وصرفوا فى ذلك سنوات عديدة حتى طبقت شهرتها الآفاق، وصارت عاملا مهما فى إذاعة صيت تلك الجماعة وقد بلغت محتوياتها - على حد تعبير مؤرخ إسماعيلى - المليون مجلد.

وقد استأذن المؤرخ السنى الحنفى عطا ملك الجوينى هولاكو فى أن يطالع الكتب الموجودة فى هذه المكتبة لكى يتمكن من فصل المصاحف ونفائس الكتب والمؤلفات المفيدة عن غيرها من تلك الكتب التى تتعلق بأصول المذهب الإسماعيلى وفروعه، وكان من جملة النفائس التى استفاد منها الجوينى كتاب (سر كذ شت سيدنا) وهو مؤلف تاريخى نادر عن سيرة الإسماعيلية وتاريخ أحوال الحسن بن الصباح وتابعيه، وقد ضَمَّنَ الجوينى خلاصته فى كتابهَ الشهير « تاريخ جهانكشاى أى تاريخ جنكيزخان» فحفظ تاريخ هذه الجماعة من الضياع، وعقب الانتهاء من الفصل بين الكتب واستبقاء بعض آلات رصد النجوم والأفلاك أضرمت النار فى محتويات المكتبة الشهيرة فاحترقت بعد أن كانت أحد الرموز الإسماعيلية الكبيرة فى مجال الصراع المذهبى مع أهل السنة وغيرهم من الفرق المذهبية الأخرى.

ومن المصادفات الغريبة - كما يقول رنسيمان فى الجزء الثالث من كتابه تاريخ الحروب الصليبية: «أنه قد شب حريق فى حوالى ذلك التاريخ فى آلموت سببه البرق فأتى على كل ما كانت تحتوى مكتبتها من المؤلفات عن فلسفة أهل السنة».

أما مَنْ تبقى من رجال الإسماعيلية على قيد الحياة - وهم قلة بلا شك - فقد شردوا فى نقاط مختلفة من إيران والشام مصطنعين التقية والستر حفظا لحياتهم وخيفة من الوقوع فى أيدى المغول، على حين فرَّ بعضهم الآخر إلى الهند حيث تعرفوا على إخوانهم الذين هربوا من وجه الغزو الغورى منذ قرابة القرن، وهناك دخلوا فى زى الدراويش والهندوس وامتزجت عقائدهم ببعض عقائد هؤلاء أو أولئك...

ويرى بعض المؤرخين أن ركن الدين خور شاه آخر الأئمة الإسماعيلية فى آلموت استطاع قبل مقتله أن يخفى ابنه شمس الدين محمد، فهرب هذا الأخير متنكرا إلى جهة ما بجنوب القوقاز



حيث عاش هو وخلفاؤه مستترين متنكرين على هيئة تجار وأصحاب أراضٍ زراعية، ثم انتقلوا من مكانهم إلى قرية اسمها (انجورا) وهي تقع الآن على الطريق القديم الذى يصل ما بين أصفهان وهمذان أى على بُعْد عشرين ميلا من مدينة (آراك) الحالية، وهناك قضى شمس الدين بقية حياته إلى أن مات فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى بعد أن ترك سلسلة من الأئمة كان من عقبهم فى القرن التاسع عشر أسرة أغا خان.

وما يعنينا فى نهاية حديثنا عن إسماعيلية إيران فى عصر هولاكو هو أنه لم يعد لديهم صوت لا من الناحية السياسية ولا من الناحية المذهبية، وبمعنى آخر أسدل الستار على الصراع بينهم وبين أهل السنة الذين تحتم عليهم مواجهة نفس الخطر فى بغداد وما بعدها من المدن الإسلامية على يدى هولاكو وخلفائه الذين حكموا إيلخانية إيران والعراق من بعده فترة طويلة من الزمان امتدت حتى سنة ٧٥٦هـ.



الفصل الثالث
سقوط بغداد

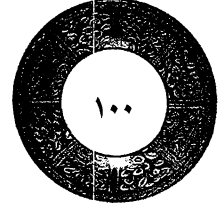
التهديد المبكر:

لم تكن بغداد بمنأى عن التـهديد المغولى منذ خروج جنكيـزخان من منغوليا غـازيا واتجاهه غربا صوب تخوم الدولة الخوارزمـية سنة ٦١٦ هـ / سنة١٢١٩ م، ولم يكن أحد من الثلاثة الكبار آنذاك (جنكيزخان - خـوارزم شاه - الخليفة الناصر) يـتخيل أن يتم اكتسـاح المغول لقوات الدولة الخوارزمية بهذه السرعة الفائقة، ومن ثم فوجئ الخليفة العباسى بسقوط خصمه السلطان الخوارزمى علاء الدين ووفـاته كمدا سنة ٦١٧هـ، وبالتالـى أصبحت حدود الخـلافة نفسهـا فى مرمى الخطر المغولى المتدفق.

وتدخلت الأقدار وحـدها لتنقذ هذا الخليفـة إذ سرعان مـا نهض جلال الدين خوارزمـشاه محـاولا إنقاذ مـا يمكن إنقاذه من بقايا الـدولة الخوارزميـة ونجح فعلا فى سـنة ٦١٨هـ من إلحاق هزيمة كبيرة بجيش المغول عند سهل بيروان على مقـربة من غزنة الواقعة بشرقى أفغانستان الحالية، فانشغل المغـول به عن متابعة السـير نحو بغداد، واضطر جنكيزخـان إلى التوجه إليه بنفـسه حيث أسفـرت معركـة نهر السند عن هزيمـة جلال الدين وتمزيق جـيشه وفـراره هو إلى الهند فى نفس السنة.

ورأى جنكيـزخان - وكـان يناهز السـبعـين من العمـر آنذاك -أن يعـيد النظر فى أوضـاع الإمبراطورية المغولية التـى غدت مترامية الأطراف ممتدة من أعماق الصـين شرقا إلى حدود العراق العربى غربا ومن سـيبيريا والقوقاز شـمالا إلى حدود التبت والهند جنوبا فقـرر العودة إلى موطنه الأصلى فى منغوليا ليـحدد من سيخلفه خـاقانا أعظم وليوزع الممالك المختـلفة على أبنائه الأربعة الكبار: جوجى وجغتاى وأوكتاى وتولوى.

وفى طريق العودة وبعـد أن اجتاز جنكيـزخان مدينة بخـارى فى سنة ٦٢١هـ متوجـها إلى منازله القديمة التقى هناك بحفيديه قوبيـلاى بن تولوى وكان عمره آنذاك إحدى عشرة سنة، وأخيه هولاكو وكان فى التاسعة من العمر وكانا يتدربان حينها على الصيد، وقد كان لهذين الأخوين أبلغ الأثر فى تقرير مصير حـياة المسلمين وغيرهم على امتداد آسيا كلها فـقوبيلاى تولى منصب الخاقان الأعظم لفترة طويلة ما بين سنتى ٦٥٨ إلى ٦٩٣ هـ أما هولاكو صاحب الحملة الشهيرة على قلاع



الإسماعيلية وبغداد والشام فقد عاش حتى ٦٦٣هـ، وارتكب من أعمال القتل والتدمير ما جعله أشهر سفاحى العالم بلا منازع.

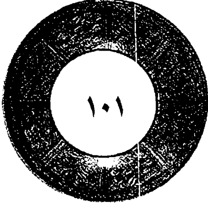
وفى بغداد توفى الخليفة العباسى الناصر لدين الله فى أواخر رمضان سنة ٦٢٢هـ وخلفه ابنه الظاهر الذى يقول عنه بعض المؤرخين وكان مخالفا لأبيه فى أشياء كثيرة منها أن مدة أبيه طالت وأن مدته قصرت، وكان أبوه شيعيا وكان هو سنيا، وكان أبوه ظالما وكان هو عادلا، وكان أبوه فى غاية الشح وكان هو فى غاية الكرم.

وتبدو المقارنة الدقيقة صعبة بين الرجلين لأن أولهما استمر فى الخلافة سبعا وأربعين سنة، أما الثانى فلم تتجاوز خلافته ثمانية أشهر ولكن يمكننا القول بأن الخليفة الظاهر كان رجلا معتدلا فهو وإن كان قد أمر بإعادة جثمان أبيه من مدفن مشهد الإمام موسى بن جعفر الكاظم - سابع الأئمة الإثنى عشرية عند الشيعة - حيث فضَّل الخليفة الراحل أن يدفن هناك على أن يدفن فى مقابر الخلفاء العباسيين فى الرصافة إلا أنه عمل فى نفس الوقت على إزالة آثار الحريق الذى شب فى هذا المشهد سنة ٦٢٣ هـ فبرهن بذلك على عدالة وإنصاف إذ لم يمنعه مذهبه السنى الحنبلى من أن يهتم برعاية مشاهد الشيعة أو مصالحهم.

كذلك عمل هذا الخليفة على محاولة رأب الصدع بين قوى المسلمين فى مواجهة المغول فأرسل إلى السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى الذى كان موتورا من جهة الخليفة الناصر وطيب خاطره بالهدايا والخلع غير أن القدر لم يمهل هذا الخليفة طويلا فسرعان ما توفى فى رجب سنة ٦٢٣هـ ليتولى الخلافة مكانه ابنه المستنصر.

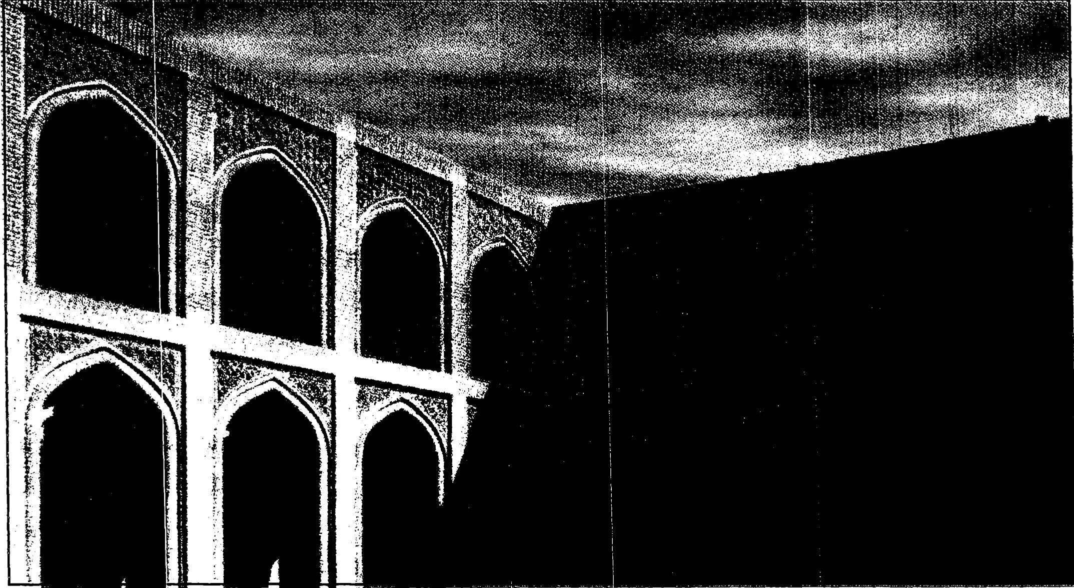
وبادر الخليفة المستنصر بإيفاد سفارة إلى السلطان جلال الدين فى سنة ٦٢٧هـ تضمنت طلب إعادة الخطبة له بأرّان وأذربيجان وسائر ممالك السلطان وكانت مقطوعة فى معظمها منذ عصر أبيه السلطان محمد علاء الدين خوارزمشاه (٥٩٦-٦١٧)هـ وكذلك طلب الخليفة من السلطان ألا يعادى كبار أنصاره ومنهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ومظفر الدين كوكبرى صاحب أربل، وشهاب الدين سليمان شاه زعيم التركمان الإيوانية وعماد الدين بهلوان بن هزارسف ملك الجبال، فأحسن السلطان الخوارزمى استقبال السفارة واستجاب لما طلبه الخليفة ثم أوفد سفارة إلى بغداد ردا عليها، فانتعشت الآمال فى إمكانية توحيد صفوف المسلمين من جديد.

وفى الحقيقة كانت الفترة منذ عودة جنكيزخان إلى منغوليا فى سنة ٦٢١هـ إلى سنة ٦٢٨هـ وهى السنة التى وصل فيها القائد المغولى جورماغون إلى غربى إيران بهدف القضاء على جلال الدين سلطان الخوارزميين فرصة كبيرة للمسلمين عامة كى يوحدوا جهودهم ويرتبوا صفوفهم فى مواجهة الخطر المغولى، غير أنهم كالعادة انشغلوا بالصراع فيما بينهم حتى إذا ما عاد



المغول من جـديد لم يجدوا من يتصـدى لهم، وعلى هذا فقد سـقط جلال الدين خوارزمـشاه المنهـوك القوى سريعـا تحت ضرباتهم وانفـتح الباب على مصراعيه إلى بغداد وغيـرها من المدن الإسلامية المجاورة أو فى أرض الجزيرة وبلاد سلاجقة الروم.

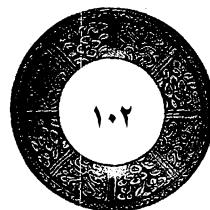
حقا كان على الخليفة العباسى المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠)هـ أن يتابع الهجمات المتتالية التى يقوم بها المغول على فتـرات متقطعة على بغداد وما حولها مثل أربل ودقوقا وشهرزور لـكن المغول فى الحقيـقة كانوا منشغلين فى تلـك الأثناء بتدعيم سيطرتهم على الـشمال الغربى لإيران من جهة ومد نفوذهم إلى بلاد الكرج والأرمن وسلاجقة الروم من جهة أخرى، كما أن جيوشهم الرئيـسية كانت مشغولة أيضا على جـبهات متعددة كالصين وروسيـا وأوروبا الشرقية ومن ثم فإن إغارتهم على بـغداد وما حولها كانـت بهدف السلب والنهب واختبار قـوة الدفاعات حول هذه المدن.



قصر الخلافة (الحكم) العباسى ببغداد

وفى سنة ٦٤٠ هـ توفى الخليفة العـباسى المستنصر بالله،فرأى كـبار رجالات الدولة وعلى رأسهم إقبال الشرابى قائد الجيش وصاحب الكلمة النافذة آنذاك والدوادار الكبير الأمير علاء الدين الطبرسى، والدوادار الصغير الأمير مجاهد الدين أيبك والوزير نصير الدين أحمد بن الناقد - وكان مريضا - تولية المستعصم بالله بن المستنصرفتقلد الخلافة فى الثانى من شهر رجب من نفس السنة.

وجدير بالذكـر أن إقبال الشرابى جامـعا، كان سنى المذهب ويقول عنه المـؤرخ المعاصر ابن الفوطى: «بنى بواسط مـدرسة على شاطئ دجلة بالجانب الشرقى وعـمَّر إلى جانبهـا وبنى ببغداد



مدرسة وجدد بمكة الرباط الذى أشهر ذكره فى الدنيا، وعين عرفة التى فى الموقف وأجرى ماءها لانتفاع الحاج به، وأوقف على ذلك كله الوقوف السنية».

وأما الدوادار الصغير فكان أيضا من أهل السنة، يقول عنه المؤرخ الشيعى ابن طباطبا: «وكان يتمذهب لأحمد بن حنبل، حدثنى عبد المؤمن ابن فاخر الأموى قال: كنُت أنا والدوادار الصغير بين يدى المستعصم بالله فى بعض السفرات فقال لى: كل ما فيك حسن وما أكره منك سوى ضربك بالعود فإنه حرام لا رخصة فيه، قال: فقلت وأنت حنبلى وعلى رأسك هذا الذهب وهو حرام بإجماع المسلمين، فقال: أنا أمنحك ذلك لأجل الخدمة، قلت: وأنا أمنحك ذلك لأجل الخدمة» وكان الدوادار الصغير قد أقام مدرسة فى بغداد، وأسماها المجاهدية نسبة إليه وجعلها برسم الحنابلة ولكنه لم يوقف عليها شيئا.

وانتسب إلى الشيعة الإثنى عشرية الدوادار الكبير الأمير علاء الدين الطبرسى وكانت مكانته عالية بين كبار الأمراء لا يعلو عليه إلا الشرابى غير أن تشيع الدوادار الكبير لم يكن بالصورة التى تجعله خصما لأهل السنة ويوازيه فى هذا الاتجاه الوزيرالشيعى نصير الدين أحمد بن الناقد الذى تولى الوزارة فى الفترة ما بين سنة ٦٢٩ هـ وهى السنة التى عزل فيها سلفه الوزير الشيعى ابن القمى إلى سنة ٦٤٢هـ وهى السنة التى توفى فيها وكان يتمتع بكفاءة عالية مكنته من القيام بأعباء الوزارة على خير وجه.

وعلى الرغم من ذلك كله فإنه ينبغى ألا يعول كثيرا على الخلاف المذهبى فى مسألة اختيار المستعصم بالله ليكون خليفة مكان أبيه فمن المؤكد أن هؤلاء الكبار الأربعة مجتمعين قد وجدوا فيه الأداة التى يمكن من خلالها ضمان استمرار بقائهم على رأس السلطة الفعلية فى بغداد محتفظين بما هم عليه من ثراء وجاه.

وشهدت سنة ٦٤٣هـ أول هجوم مغولى كبير على بغداد فى عهد الخليفة المستعصم بالله فخرجت عساكر الخلافة بقيادة الأمير إقبال الشرابى لمواجهة هذا الخطر غير أن المغول كعادتهم أشعلوا نيران معسكرهم ليلا ورحلوا عائدين.

ويتناول مؤرخو الشيعة دور ابن العلقمى فى هذه المواجهة إذ يقولون: «وكان أول المشاكل التى واجهها كوزير هى تلك الحملة الواسعة التى شنها المغول على بغداد سنة ٦٤٣ هـ فهو وإن لم يحضر الحرب إذ كان ملازما لديوان الخلافة بالحضرة إلا أنه كان يمد العسكر الإسلامى من آرائه وتدبيراته بما ينتهون إليه ويقفون عنده.

وهذا الرأى يجعل لابن العلقمى دورا بارزا فى الشئون العسكرية فهو بشهادة مؤرخى الشيعة أنفسهم لم يكن رجل إدارة فحسب وإنما كان رجل حرب يعرف لوازمها ويدير شئونها،



غير أن المهمــة التى برع فيها ابن العلقمى والتى كانت تلائم مــواهبه وخبرته تمثلت فى استقبــاله للرسل ومن ذلك «أنه فى سنة ٦٤٤ هـ قدم رسولان من عند المغول إلى بـغداد أحدهمـا من بركة خان والآخـر من بايجو فـاجتمـعا بالوزير مؤيد الدين بن العلقمى فغمضت على الناس بواطن الأمور».

وفى نفس السنة كان رسـول من قبل الخلافـة العباسيـة قد وصل إلى قراقورم عاصمة المغول فى منغوليا ليشارك فى حضور القوريلتاى الذى سيتوج فيه كيوك بن أوكتاى خاقانا أعظم للمغول، وفى البداية أحـسن كيوك استقبال سفير الخليفـة - الذى كان محملا بهدايا تليق بمقام الخـاقان الجديد - وأكرمه ومنـحه مرسوما ملكيـا إلا أنه عاد واسترده منه وحـمله لوما وشتمـا للخليفة بسبب شكوى جـاءته من شيرامون بن جـورماغون أحد قواد المغـول العاملين فى غربى إيران.

وأغلب الظن أن السفـارة التى أوفدها الخليفة المسـتعصم بالله من بغداد إلى البـلاط المغولى البعيـد إنما كانت نتيجة الهـجوم المغولى سنة ٦٤٣ هـ أو استـجابة لنصيحة رسـول بركة خان سنة ٦٤٤ هـ وهى على أية حال قد تضمنت إشارات كثيرة منها:

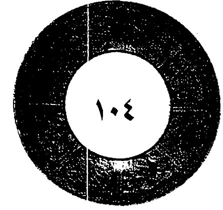
- بيان عجز الخلافة عن حماية أراضيها أو من يلوذ بها من بطش المغول.

- قبول التبعية بشكل أو آخر لسلطان المغول.

- تسوية الخليفة بغيره من ملوك المسلمين وأمرائهم من الذين فعلوا نفس الشىء ومنهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب، والملك بدر الدين لؤلؤ صاحب المـوصل، وعلاء الدين الإسماعيلى وغيرهم من سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وأتابكة كرمان وفارس.

ومن ذلك يتضح مدى تغير المفهوم السياسى فى نهج الخلافة فيما يرتبط بعلاقتها مع المغول، فالخليفة الراحل المستنصر بالله (ت/ ٦٤٠هـ) كان يعتقد أن المواجهة العسكرية مع المغول هى السبيل الوحيـد لحفظ ماء وجه الخـلافة أمام أتباعـها من المسلمين ولذا كـان اهتمامـه بالنواحى العسكرية واضحا.. حقا أنه كان قد استقبل سفارة مغولية فى ربيع الآخر سنة ٦٣٦ هـ من جورماغون قائد الجيش المغـولى فى إيران آنذاك، وأوفد سفيـرًا من قبله فى صحبة الرسول المغولى، فاجـتمع مع جورماغـون بالقرب من قزوين إلا أن الخلافـة ظلت حتى وفاة المستـنصر ناهضة - قدر طاقـتها - بعبء المواجهة العسكرية ضد المغول.

وإذا قدرنا أن القيادة العسكرية فى بغداد ظلت فى أثناء خلافة المستعصم بالله فى أيدى نفس القواد السابقين وهم إقبال الشرابى والدوادار الكبير علاء الدين الطبرسى، والدوادار الصغير مجاهد الدين أيبك أدركنا أن تغيير المفهوم السياسى فـى سنة ٦٤٤ هـ مرتبط تماما بالتغيير الذى حدث فى رأس الدولة والمتمثل فى الخليفة الجديد المستعصم بالله ووزيره الجديد ابن العلقمى.



أيا كان الأمر فإن الشعور العدائى الذى عبر عنه بوضوح الخان الأعظم كيوك ضـد الإسماعيليـة وخليفة بغداد قـد أسفر عمليا عن حـملة عسكرية ضخمـة بقيادة ايلجيغداى غـير أن الأقدار لم تمهل كيوك خـان طويلا فوافاه أجله سريعـا وقتل قائد هذه الحملة على يد مـغول القبجـاق وتوقف - كما سبق القول- المشروع إلى حين.

أما منكو الخـان الأعظم (٦٤٨-٦٥٧) هـ فقد كـان أكثر حنكة ودراية فى شـئون السيـاسة والحرب من سلفه كيوك خان كما كانت علاقتـه ممتازة مع باتوخان زعيم مغول القبجاق الذى كان يعتبـر أكبر الأمراء فى بيت جنكيـزخان سنا ومنزلة فى نفوس المغول، وعلى هذا فـقد عمل منكو بدقة وروية على إحياء مشروع الحملة المنظمة على الغرب فبدأ الإعداد المنظم لها منذ سنة ٦٥٠ هـ واختار لقيادتهـا أخاه هولاكو الذى يعد بحق - باستثناء سفكه لدمـاء الأبرياء - أشهر دهاة عصره وأكثرهم خبرة وقدرة على سياسة الأمور.

حقـا إن هناك عوامل عـديدة - بالإضافة إلى الرغـبة فى تحطيم قـلاع الإسماعـيلية - ساعدت على قيام هذه الحملة الضخمة منها:

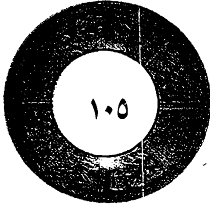
أ- شكاية القائد المغـولى بايجو من الخليفة العـباسى المستعصم بالله والتـى أوفد من أجلها رسولا خاصا إلى الخاقان الأعظم فى قراقورم.

ب- الضغـط المسيحـى من قبل هيـتون Hayton ملك أرمـينيا الصـغرى الذى سـافر إلى قراقورم بعد عودة أخـيه وعقد معاهدة مع منكو خان ساهم الأرمن بموجـبها فى حصار بغداد وفى مهاجمة بعض بلاد الشام فيما بعد تحت قيادة المغول.

ج- الطموح الشخصى لهولاكو الذى كانت تبدو عليـه مخايل الملك وتتضح فيه الرغبة فى تكوين مملكة مستـقرة كتلك التى كانت لأبناء عـمه جوجى فى القبجـاق، أو أبناء عمه جغتاى فى تركستان وبلاد ما وراء النهر.

على أن حالة التمزق السياسى والعسكرى وغياب الترابط المذهبى التى كان يعيشها المسلمون فى غربى إيران وما يجاورها كانت الدافع الأكبر وراء تحفز المغول لإنقاذ هذه الحملة الضخمة.

حدث هذا كله والخليفة المستعصم بالله فى شـغل تام عما يدبر للخلافة طيلة عشر سنوات فى الفترة ما بين سنة ٦٤٤ هـ إلى سنة ٦٥٤ هـ وهى فترة تطورت فيها الأمور فى بغداد على نحو لم يكن فى صالح هذا الخليفة نفسه فقد توفى الدوادار الكبير علاء الدين الطبرسى سنة ٦٥٠ هـ، وتلاه الأمير إقبال الشرابى فى سنة ٦٥٣ هـ وبوفـاته آلت الشئون العسكرية فى بغداد إلى الدوادار الصغير الأمير مـجاهد الدين أيبك الذى كان حنبليا متشددا - كما سـبق القول - فوجد تأييدا من أستاذ الدار مـحيى الدين يوسف بن الجوزى الذى كان حنـبليا أيضا وعدوًّا للوزير الشيـعى مؤيد الدين بن العلقمى.



وهكذا أصبح الصراع بين الطرفين أمرا محتما فسرعان ما اتخذ الوزير له سندا قويا تمثل فى الأمير فلك الدين محمد بن الدوادار الكبيرعلاء الدين الطبرسى وكان فلك الدين قد أصبح أحد قادة الجيش آنذاك، فنسبا معا إلى الدوادار الصغير أنه يدبر لخلع الخليفة المستعصم بالله والمبايعة لابنه الكبير أحمد فسارع الدوادار الصغير إلى إنكار هذه التهمة وتحفز للمواجهة، وكذلك فعل الوزير فظهرت الفتنة وتحرش كل طرف بالآخر وقتل جمع من الفريقين وجرح أيضا وانتهى الأمر بتدخل صاحب الديوان فخر الدين بن الدامغانى فرضى الخليفة عن الدوادار الصغير وأعزه وأمر أن يذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة فسكنت الفتنة إلى حين.

وبالطبع تركت هذه الفتنة أسوأ الأثر فى نفوس الطرفين فقد تملك الزهو الدوادار الصغير من جراء تأييد الخليفة له وذكر اسمه بعده فى الخطبة واختلط هذا الشعور بكراهية شديدة وضغينة لابن العلقمى خاصة وللشيعة عامة فى بغداد، وفى المقابل لم يكن ابن العلقمى الذى تجرع مرارة الفشل فى مسعاه للنيل من الدوادار الصغير بأقل شعورا بالكراهية والبغضاء للدوادار الصغير ولأنصاره من السنة بل وللخليفة نفسه الذى تخاذل عن معالجة الأمور بشكل حاسم ومال إلى جبهة الدوادار وأتباعه خوفا من شغبهم وعجزا عن دفعهم.

وهكذا أصبح سقوط بغداد عاصمة الخلافة العباسية الشهيرة فى أيدى المغول - فى ظل خليفة ضعيف وإدارة منقسمة متصارعة - أمرًا لا محالة واقع.

ابن العلقمى وهولاكو:

لا يختلف بعض المؤرخين كثيراً فى تحديد زمن الاتصال بينهما وكيفيته فالمقريزى (ت/ ٨٤٥هـ) يذكر «أن جواسيس هولاكو وصلوا خلال سنة ٦٥٤ هـ إلى الوزير مؤيد الدين بن العلقمى ببغداد وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد بمواعيد والخليفة فى لهوه لا يعبأ من ذلك».

وهذه الرواية التى لا تختلف عما أورده ابن أيبك الدوادارى (ت/ ٧٣٦هـ) تكشف عن أمور عديدة منها:

أ- أن هولاكو هو الذى بدأ بالاتصال وهذا أمر طبيعى فهولاكو سياسى محنك يعمل بكل الوسائل الممكنة على فتح الثغرات فى صفوف عدوه حتى يتحقق له النصر بأقل خسائر ممكنة فى العتاد والجند.

ب- أن هذا الاتصال قد تمَّ فى الوقت الذى أوشك فيه هولاكو على الإجهاز على القلاع الرئيسية لدى الإسماعيلية (ميمون دز - آلموت - لمبسر) وكان يتنقل آنذاك فى المنطقة ما بين مدينتى الرى وقزوين حيث كان يقع المعسكر الرئيسى للمغول.

ج- أن جواسيس هولاكو دخلوا بغداد فى سهولة ويسر لأنه - كعادة المغول فى اختيار جواسيسهم - كانوا من التجار الذين يعملون فى المنطقة ويترددون على بغداد أو يقيمون فيها، يؤكد ذلك قول ابن الفوطى (ت/٧٢٣هـ) «وكان ببغداد جماعة من التجار الذين يسافرون إلى خراسان وغيرها وقد تعلقوا من قبل على أمراء المغول، وكتب لهم فرامين، فلما فتحت بغداد خرجوا إلى الأمراء، وعادوا ومعهم من يحرس بيوتهم والتجأ إليهم جماعة من جيرانهم فسلموا».

د- أن اختيار هولاكو لابن العلقمى ومن يتبعه كان اختيارا دقيقا يوافق ما درج عليه المغول من تشجيع الأقليات المضطهدة أو أصحاب المصالح الخاصة ليكونوا عونا لهم وعيونا عند الهجوم على خصومهم الرئيسيين.

أما الرواية الثالثة فهى لابن خلدون(ت/٨٠٨هـ) الذى يذكر « أن الوزير ابن العلقمى أوصى ابن الصلايا صاحب أربل، وهذا بدوره أرسل كتابا إلى هولاكو وهو فى طريقه إلى قلعة آلموت يستحثه على المسير إلى بغداد ويسهل عليه أمرها».

وهذه الرواية تكشف بدورها عن أمور عديدة منها:

١- عمق الصلة بين الوزير ابن العلقمى وتاج الدين بن صلايا العلوى فكلاهما شيعى المذهب ويشغل وظيفة ذات أهمية بالنسبة للخلافة إذ كان ابن الصلايا ينوب عن الخليفة فى حكم مدينة أربل العراقية.

٢- أن مدينة أربل التى تقع فى الشمال من بغداد هى بالطبع أقرب وأيسر من بغداد فى الاتصال بمعسكر هولاكو الذى كان يقيم على مقربة من مدينة قزوين فى هذا الوقت.

٣- أن هولاكو الذى تلقى رسالة ابن الصلايا كان يحرك قواته صوب قلعة آلموت فى ذى القعدة سنة ٦٥٤ هـ بمعنى أنه تلقى هذه الرسالة ردا على اتصاله هو بابن العلقمى أولا. وتم هذا كله قبل وقوع حادثة الكرخ الشهيرة التى بدأت فى شهر ذى الحجة سنة ٦٥٤ هـ.

والسؤال الآن ما الذى حدا بابن العلقمى إلى التجاوب مع هولاكو قبل حادثة الكرخ الذى يعتقد الكثيرون أنها المحرك الأول فى مسألة تعاون ابن العلقمى مع المغول فى إسقاط بغداد ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال ينبغى أولا العودة إلى نهاية أحداث الفتنة فى سنة ٦٥٣ هـ التى شاع فيها الحديث عن تمرد الدوادار الصغير ورغبته فى عزل الخليفة المستعصم بالله وتولية ابنه الأكبر محله، فقد كان كل من الخصمين اللدودين: الدوادار الصغير والوزير ابن العلقمى موقنا بأن المستعصم بالله لا يصلح للاستمرار خليفة للمسلمين، غير أن ابن العلقمى الذى كان أكبر سنا



وأكثر خبرة ودهاء فـضل أن يترقب منتظرا لما تكشف عنه الأيام، أما الدوادار الصغيـر فقد غره ارتفاع مـكانته بعد أن خلت له الساحة مـن الدوادار الكبير (ت/ ٦٥٠هـ)، وإقبال الشرابى (ت/ ٦٥٣)هـ فتسرع وأظهر تأييدا لابن الخليفة الأكبر أبى العباس أحمد الذى كان لا يزال بعد شابا فى مقتبل العمر.

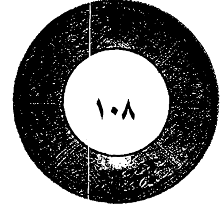
وكان ابن العلقمى يرى فى تاج الدين محمـد بن نصر الصلايا شريفا علويا يتمتع بخصـال ومواهب عديدة تستحق التكريم والإعظام يدل على ذلك مـقدمة خطابه إليه بعد حادثة الكرخ والتى يقول فيها «الخادم محمد بن العلقمى يخدم بدعاء ليلى وثناء عطر متدلى، هذه خدم بها من النيل (مـسقط رأس ابن العلقمى) إلى سامى مجده الأثيل، ومـجمل فضله يغنى عن التفصيل وإبان شـدة القرم إلى شريف تلك الشيم، ويعرض على خدمتـه بعد الدعاء لأيامه لا أخلى الله من أنعـامه. . . إلى آخره» وكـان ابن العلقمى يرى أن ابـن الصلايا يصلح تمامـا لتولى منصب الخلافـة فى هذا الوقت الذى شاخت فيه الدولة العـباسية وعقـمت عن إنجاب رجل كفء يكون قمينًا بحفظ التوازن بين الاتجاهات المختلفة داخل عاصمته وخارجها، رجل ترضاه السنة ولا ترفضه الشيعة.

وفى الحقيقة كـان ابن صلايا يتمتع بهذه المواصفات فعلا فـقد قال عنه بعض مؤرخى السنة «. . لقد كان من رجال الدهر عقلا ورأيا وهيبـة وحزما وجودا وسؤددا» وكذلك قال عنه المؤرخون من الشيعة «كان سيدا جليلا كبيرا كـريمًا جوادا فاضلا دينا كثير التواضع والمودة لأهل العراق فلما توجه إلى أربل أسفـر عن كرم عام وفضل تام وحـشمة ورياسة ووجاهة وصـيت طائر فى الدنيا، قصده الناس من الأطراف وكانت أربل فى أيامه محط الرجال وكعبة يحج إليها بنو الآصال».

بهذه الـكيفيـة إذن كان يفكـر ابن العلقمى. . . . خليـفة علوى بدلا من المسـتعـصم بالله العباسى، وابن الصلايا أصلح علوى بتولى الخلافة لما يحمله من صفات وسجايا.

وينفى مؤرخ شيعى مـحدث مسألة سعى ابن العلقمى لإقامـة خليفة علوى تلك التى أشار إليها البعض من المؤرخين السنيين. . فيـقول: «أما عن تآمر الوزير ابن العلقمى مع المغول لينصب علويا خليفة للمـسلمين بدلا من المستعصم بالله فهـو أمر مردود؛ لأن علاقة العلويين بالعـباسيين كانت طيبة فى هذه الفترة، يضاف إلى ذلك كيف يرضى العلويون بتنصيب أحدهم خليفة المسلمين من قبل المغول الوثنيين، وهـل كان هذا الوزير يستطيع تدبير هذا الأمر الخطير دون استـشارة كبار العلويين فمن هم هؤلاء؟!

وبداية يتضح أن الارتكاز على نوعـية العلاقات بين العلويين والعـباسيين فى تحـديد مسألة الخلافة أو الإمامة أمر بعيد عن واقع المنهج الشيعى إذ إن قضية الإمامة عند الشيعة تمثل أحد أصول العقيدة لديهم، فالإمامة حق لعلى بن أبى طالب ولأولاده من بعده بالنص الإلهى حسب اعتقادهم ومن ثم لا ينبغى أن ينازع فى هذا الحق أحد، وهم إن سكتـوا على غير ذلك فإنما يكون ذلك من



قبيل الاضطرار المؤقت (التقية) حتى تحين الفرصة فيعود الحق لأصحابه من وجهة نظرهم.

وقد حالت الظروف غير المواتية كثيرا دون أن تكون للشيعة فى أوقات كثيرة القوة التى تساندهم كى يطالبوا بأحقية العلويين فى الخلافة، فلما لاح هولاكو بجيوشه الكثيفة محاصراً قلاع الإسماعيلية وأرسل جواسيسه إلى ابن العلقمى توهم الأخير أن بوسعه أن يفيد بدوره من خطة هولاكو فى الاستيلاء على بغداد وتوقع أن هولاكو بعد أن يسقط الخلافة العباسية السنية سيترك له حرية اختيار خليفة جديد، وبالطبع سيختار هو علويا ليتحقق بذلك الحلم القديم.

أما القول بأن العلويين لن يقبلوا بتنصيب أحدهم خليفة للمسلمين من قبل المغول الوثنيين فهو أمر أثبتت الوقائع التاريخية عدم اهتمامهم به إذ يذكر المؤرخون من الشيعة، وعلى رأسهم ابن طباطبا «أنه لما فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ أمر أن يستفتى العلماء أيهما أفضل السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر ؟

ثم جمع العلماء فى المدرسةالمستنصرية لذلك فلما وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب، وكان رضى الدين على بن طاووس حاضرا هذا المجلس، وكان مقدما محترما، فلما رأى إحجامهم تناول الفتيا، ووضع خطه فيها بتفضيل السلطان الكافرالعادل على السلطان المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطهم بعده « فأمر هولاكو بنشر الفتيا وتواقيع العلماء على الجواب.

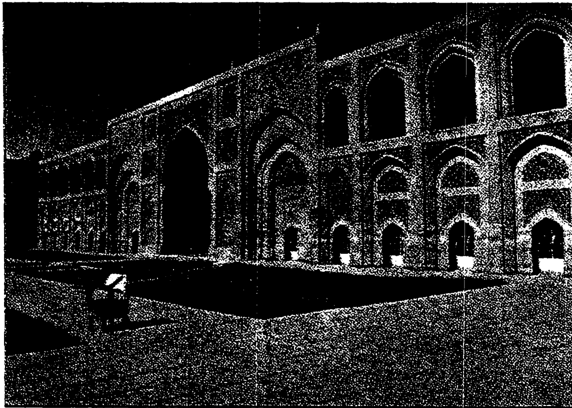
وهذه الرواية تضعنا أمام تساؤلات كثيرة منها:

١- لماذا استفتى هولاكو العلماء فى بغداد ولديه مستشاره الشيعى المسلم نصير الدين الطوسى الذى أفتاه لتوه بقتل الخليفة العباسى السنى المستعصم بالله؟

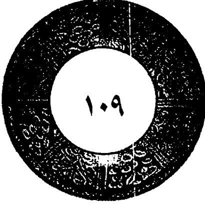
٢- لماذا عقد الاجتماع فى المدرسة المستنصرية التى كانت مخصصة لتدريس أصول العقيدة وفروعها على المذاهب السنية الأربعة؟

٣- لماذا أقدم ابن طاووس وهو نقيب الشيعة فى العراق آنذاك على إصدار هذه الفتوى في وقت أحجم فيه غيره من علماء السنة عن ذلك؟

٤- لماذا أمر هولاكو بنشر هذه الفتوى بما عليها من تواقيع العلماء؟



المدرسة المستنصرية



كل هذه التساؤلات تضع أمامنا الحقيقة واضحة. . وهى أن مستشارى هولاكو ومعاونيه من المسلمين كانوا يشعرون بالحرج أمام جماهير المسلمين بسبب جبنهم وخيانتهم ومساهمتهم فى إتيان فعل لا مبرر له بعد أن استسلم الخليفة المهزوم وأذعن للأمر فأرادوا أن ينتزعوا من العلماء ما يثبت عذرهم فيما ارتكبوه من جرم سعيا وراء مصالحهم الخاصة المحدودة أو تنفيسا عما فى صدورهم من غلٍ وكراهية.

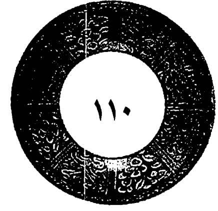
كذلك فإن اختيار المدرسة المستنصرية بالذات وهى المعقل الأكبر للعلماء من أهل السنة إنما كان بهدف إذلالهم وإثبات الحجة عليهم فى فرصة وجود عدو قاهر متسلط.

وقبل الحديث عن موقف رضى الدين بن طاووس الذى ينتمى إلى أسرة شيعية عريقة، فلنذكر أولا أنه قد ولد سنة ٥٨٩ هـ أى أن عمره آنذاك كان سبعة وستين عاما وهو واحد من أشهر علماء الشيعة المعروفين فى عصره وله مؤلفات عديدة منها كتاب الإقبال، ومنهج الدعوات، وغيرهما، وكانت بينه وبين ابن العلقمى وأخيه وابنه صداقة وطيدة وولاه هولاكو نقابة النقباء فيما بعد من قبله.

وإقدام ابن طاووس هنا يدل على منهج صريح واضح عنده وعند الشيعة الذين كانوا يعتبرونه من أكبر علمائهم آنذاك واختار ابن طاووس الإجابة التى كان ينتظرها هولاكو ومن معه، السلطان الكافر العادل أفضل من السلطان المسلم الجائر «اختار الرجل بعقله ولم يختر بإيمانه، وليس هذا ببعيد عن منهج الشيعة الذين تأثروا فيه بالمعتزلة الذين يضعون العقل البشرى فى مواجهة النصوص القرآنية مع ما هو معروف عن محدودية هذا العقل وقصوره أحيانا عن الإدراك الكلى أو الكمال فى التأويل وإصدار الأحكام.

ولدينا رأيان لاثنين من مؤرخى الشيعة المحدثين حول موقف ابن طاووس من هذه الفتوى يقول **أولهما**: «لقد بلغ من تهافت هؤلاء الزعماء واستحذائهم فى إظهار التملق والطاعة إلى حد الإفتاء بشرعية تفضيل الكافر العادل على المسلم الجائر كما فعل ابن طاووس بالرغم مما فى التعليل من مجافاة لتعاليم الإسلام التى لا تبيح هذه الموالاة مهما كان السبب».

ويقول **ثانيهما**: «اقتضى جور السلطان فى الدولة العباسية وفساد الحكم والأخلاق فى بعض عصورها أن تنحل وأن تفجع بفقدان سيادتها، واستقلالها على يد أحفاد جنكيزخان ولكن ذلك لا يسوغ إطلاق حكم عام فى هذه الحادثة ولا يبيح التفريط بحقوق عامة، وهناك مذهب معروف يدعو إلى طاعة أولى الأمر من المسلمين والدعاء لهم وإن كانوا غير عادلين لأنهم حماة الثغور الذادة عن بيضة الإسلام، هذا. . ولا ندرى ماذا يقصدون بعدالة هولاكو ؟!».



نعم.. أين عدالة هولاكو الذى فضَّل المسيحيين على المسلمين فى كل صنوف المعاملة حتى إن الجاثليق فى بغداد استولى على دار الدوادار الكبير على شاطئ دجلة ودق الناقوس أعلاها واستولى أيضا على (دار الفلك) التى كانت رباطا للنساء تجاه الدار المذكورة، وعلى الرباط البشيرى المجاور لها وهدم الكتابة التى كانت على البابين وكتب عوضها بالسريانى ثم إن هذا الجاثليق كان قد قام خلال حصار بغداد بجمع نصارى المدينة فى كنيسة السوق الثالث، فلم يتعرض لهم المغول بأذى لأنهم كانوا تحت حماية دوقوز خاتون زوجة هولاكو المسيحية، ولما حاول بعض المسلمين أن يأووا إلى هذه الكنيسة مع جيرانهم من المسيحيين عارضين تقديم كل ثرواتهم لم يقبل الجاثليق ذلك منهم وتركهم فريسة لسيوف المغول.

واستكمالا لمسلسل العدالة المعوجة التى التزم بها هولاكو فقد نال اليهود أيضا فى أثناء الهجوم على بغداد سنة ٦٥٦هـ كثيرا من الأذى والقتل إذ لم يكن لديهم زوجة أخرى لهولاكو تدين بدينهم لتحميهم كالمسيحيين، فحل عليهم ما حل بالمسلمين وقاسوا ويلات المذابح التى أعقبت سقوط بغداد.

السؤال الآن... ماذا لو افترضنا أن الخليفة العباسى المستعصم بالله - على ما هو عليه من ضعف وتخاذل - كان قد طلب نفس الفتوى من هؤلاء العلماء قبل ظهور هولاكو فهل كان ابن طاووس أو غيره مستعدا للقول بتفضيل السلطان الكافر العادل على السلطان المسلم الجائر؟!

من هنا يتضح موقف الشيعة تجاه هولاكو فقد كانوا يرونه وهو السلطان الكافر العادل أفضل من المستعصم بالله السلطان المسلم الجائر تلك هى حقيقة المفاضلة فى تقديرهم ببساطة، وفى تقديرى أن الشيعة الذين قبلوا مختلف الوظائف التى منحها لهم هلاكو فى بغداد أو غيرها ما كانوا ليرفضوا لو أنه عيَّن خليفة للمسلمين من العلويين، ألم ينظروا.. كما يقول غوستاف فون - إلى المغول الوثنيين نظرتهم إلى المحررين لهم من نير السنيين.

بعد هذا كله كان طبيعيا أن يأمر هولاكو بنشر هذه الفتوى التى تعتبر وثيقة مؤكدة بشرعية حكمه بإقرار من علماء المسلمين أنفسهم ولا يعنى هذا أن هولاكو كان بحاجة إلى تلك الفتوى أو غيرها وإنما كان الهدف استكشاف مدى الولاء له والخضوع لإرادته بين علماء الدين الإسلامى فى بغداد.

حادثة الكرخ:

عاش الشيعة والسنة فى بغداد فترات طويلة فى ظل الخلافة العباسية السنية وكان الشيعة يتركزون بصورة أساسية فى حى الكرخ حول مشهد معروف الكرخى ومشهد الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد وكانوا يظهرون بين حين وآخر ما فى نفوسهم نحو أهل السنة فيمتد الأمر



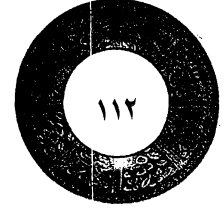
إلى سب الصحابة وعائشة (رضى الله عنها) وما إلى ذلك من أفعال تثير حنق أهل السنة فتنشب المنازعات بين الطرفين ويسقط بعض القتلى والجرحى ثم تتدخل الدولة لإنهاء الفتنة وإخمادها، وأدى تكرار هذه الأحداث إلى تعود الناس عليها حتى كادت أن تصبح من الأمور المألوفة.

وقد أسفر زوال نفوذ السلاجقة السنيين عن بغداد بعد هزيمة طغرل آخر سلاطينهم وقتله سنة ٥٩٠هـ على أيدى الخوارزميين وتمكن سلطان الخليفة الناصر لدين الله العباسى (٥٧٥-٦٢٢هـ) الذى كان يميل إلى الشيعة الإثنى عشرية حتى إنه اتخذ منهم الوزراء عن تزايد نفوذ الشيعة فى بغداد تدريجيا.

فى أواخر عهد الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ) تكررت المنازعات بين السنة والشيعة فى بغداد فلا تكاد تمضى سنة حتى يقع قتال بين الطائفتين تتوسط الدولة فيه، وبما أنها كانت سنية المذهب فقد كان الضغط يقع غالبا على الشيعة ومن ناحية أخرى كان السنة نتيجة لكثرة عددهم أكثر استظهاراً على الشيعة.

ويرسم مؤرخ شيعى محدث صورة للنزاع قبيل نهاية عصر المستعصم فيقول: «وكان نصير الشيعة الوزير ابن العلقمى ونصير السنة ابن الخليفة (يعنى أبا باكر ابنه الأكبر) والدوادار (يعنى الصغير) حتى إنهما كانا فى أكثر الأحيان يحرضان على الفتك بالشيعة نكاية فى الوزير، على أن الوزير ما كان ليتجاهر بنصرة أبناء مذهبه بل كثيرا ما كان يسعى فى الإصلاح بين الطرفين ويبذل جهده فى سبيل ذلك.

أما المؤرخ ابن تغردى بردى (ت/ ٨٧٤هـ) وهو من المتحمسين لأهل السنة فيقول: «واستمر ابن العلقمى يثير الفتن بين أهل السنة والرافضة حتى تجالدوا بالسيوف»، وهو يشير بذلك إلى حادثة الكرخ التى عرضها المؤرخ البغدادى المعاصر ابن الفوطى فيقول: «فى شهر ذى الحجة سنة ٦٥٤هـ قتل أهل الكرخ رجلا من أهل (قطفتا) وهى محلة كبيرة تقع على مقربة من قبر معروف الكرخى، فحمله أهله حتى أبواب قصر الخليفة (باب النوبى) فدخل جماعة من الخدم إلى الخليفة وعرفوه وعظموا ذلك ونسبوا إلى أهل الكرخ كل فساد فأمر بردعهم فركب الجند إليهم وتبعهم العوام ونهبوا محلة الكرخ وأحرقوا عدة مواضع وسبوا كثيرا من النساء والعلويات والخفرات وسفكوا الدماء وعملوا كل منكر وعظمت الحال فى ذلك فخوطب الخليفة فى أمرهم فأمر بالكف عنهم ونودى بالأمان فدخل جماعة من أهل الكرخ إلى منازلهم وقد تخلف بها قوم من العوام وغيرهم فقتلوهم ثم تقدم الخليفة إلى الجند وغيرهم بإحضار ما نهبوه إلى باب النوبى فاحضروا شيئا لا يحصى كثرة ونودى بحمل النساء والأسرى إلى دار الرقيق فحملوا وأعيدوا إلى أربابهم ثم حُصِّل الذى كانت الفتنة بسببه وقتل وصلب قاتل القطفتى بباب الكرخ».

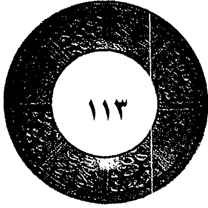


ولا تشير رواية ابن الفوطى إلى الأطراف الرئيسية فى تلك الحادثة وهم ابن الخليفة والدوادار الصغير من جانب السنة وابن العلقمى من جانب الشيعة، ولعل ذلك يرجع إلى منهج ابن الفوطى نفسه فى التأريخ فهو يميل إلى ذكر محاسن من يتحدث عنهم ويتجافى عن ذكر مثالبهم، غير أن مؤرخى السنة رغم غضبهم على الوزير الشيعى ابن العلقمى اعترفوا بما قام به ابن الخليفة والدوادار الصغير من أفعال نكراء ما كان ينبغى القيام بها غير أنهم اعتبروا ذلك - وإن كان فادحا - إلا أنه لا يستوجب أن يقدم ابن العلقمى على خيانة الخلافة فى هذا الوقت العصيب الذى هاجم فيه هولاكو بغداد.

وفى الحقيقة تركت هذه الحادثة أسوأ الأثر فى نفوس الشيعة فنقموا على الخليفة المستعصم بالله وعلى ابنه والدوادارالصغير وثارت فى نفوسهم كوامن الأحقاد القديمة على الدولة العباسية وتمنوا زوالها من الوجود أيا كانت الأسباب أو النتائج.

كذلك تألم ابن العلقمى كثيرا من جراء هذا الهجوم القاهر الذى تجاوز بكثير كل الحدود الطبيعية التى تكافئ جريمة قتل رجل أيا كان مذهبه، فأضمر الضغينة فى قلبه وكتب رسالة فى

الكاظمية - مشهد موسى الكاظم والأماكن الشيعية



هذا الموضوع إلى السيد تاج الدين محمد بن نصربن الصلايا وهو علوى شيعى كان ينوب عن الخليفة فى حكم مدينة أربل - كما سبق القول - وكان من كبار أشراف العصر أيضا، وقد جاءت الرسالة على النحو التالى «نهب الكرم المكرم والعترة العلوية وحسن التمثيل بقول الشاعر:

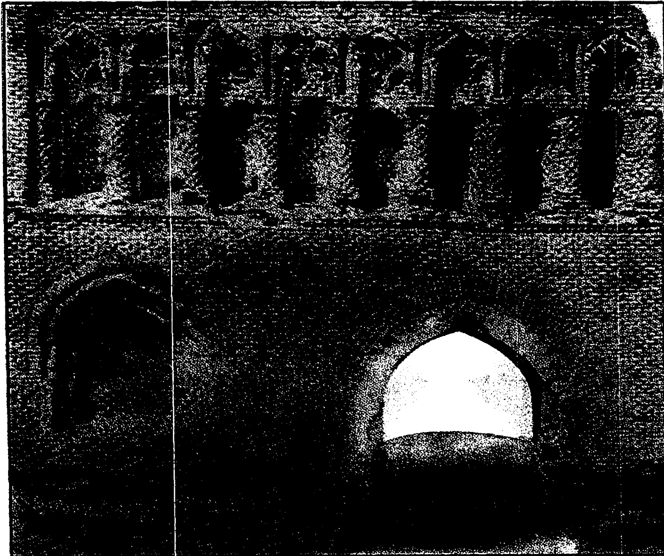
أمور تضحك السفهاء منها　　　ويبكى من عواقبها اللبيب

فلهم أسوة بالحسين حيث نهب حريمه وأريق دمه ولم تعتبر نفسه

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى　　　فلم يستبينوا الرشد إلى ضحى الغد

وقد عزموا لا أتم الله عزمهم ولا أنفذ أمرهم على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمرًا فصبر جميل، والخادم قد أسلف الإنذار وعجل لهم الأعذار فكان جوابى بعد خطابى لا بد من الشنيعة بعد قتل الشيعة ومن إحراق كتاب الوسيلة والذريعة، فكن لما نقول سميعا وإلا جرعناك الحمام تجريعا، ولآتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولأخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون.

ووديعة منى لآل محمد　　　أودعتها إذ كنت من أمنائها
فإذا رأيت الكوكبين تقاربا　　　فى الجدى عند صباحها ومسائها
فهناك يؤخذ ثأر آل محمد　　　لطلابها بالترك من أعدائها


بوابة بغداد

فكن لهذا الأمر بالمرصاد وترقب أول النحل وآخر الصاد».

ويرى مؤرخ شيعى محدث أن الرسالة متكلفة فى أسلوبها وأفكارها مثل (فكان جوابى بعد خطابى لا بد من الشنيعة بعد قتل الشيعة)... ومثل (فكن لهذا الأمر بالمرصاد وترقب أول النحل وآخر صاد) وغير ذلك.

ويحاول هذا الرأى بطريقة مباشرة أن ينفى وجود هذه الرسالة أصلا عن طريق الطعن فى الأسلوب وطريقة العرض والأفكار، وكلها أمور - كما هو معروف - قد تكون من عمل المنشئ أو الناسخ أو النقال غير أنها لا تنفى المضمون أو الهدف الذى من أجله كانت، ومـا يهمنا هو أن هذه الرسالة قد تضمنت الحقائق الآتية:

١- غضبة ابن العلقمى - وهو محق فى ذلك - لما جرى على الشيعة فى الكرخ على أيدى الجند العباسى بإشارة ابن الخليفة والدوادار الصغير وهما من السنة.

٢- امتداد خطر التهديد السنى إلى مناطق شيعية أخرى خارج بغداد كالحلة والنيل (مسقط رأس ابن العلقمى نفسه).

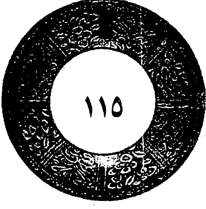
٣- رفض كل النصائح التى عرضها ابن العلقمى والتعنت فى ضرورة القضاء على الشيعة وآثارهم قضاءً تاما.

٤- إصرار ابن العلقمى فى نهاية الرسالة على الانتقام بجنود من الترك التى كانت تعنى فى هذا العصر المغول ومَنْ فى ركابهم من الأتراك.

وأما إشارة ابن العلقمى فى نهاية المطاف إلى أول سورة النحل فهو يقصد قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾ [ص] وأما أخر سورة (ص) فهو يقصد قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ⑧⑧﴾ [٨٨] وهى فى نفس المعنى، وإيراد هاتين الآيتين بعد أبيات التلويح بالثأر فى نهاية الرسالة يؤكد التصميم على الانتقام والثأر ويؤكد الدافع القوى على الاتصال بالمغول، وهذا هو الأمر الذى يسعى هذا المؤرخ الشيعى إلى تبرئة ساحة ابن العلقمى منه.

هذا.. وتؤكد المصادر التاريخية التى لا ينتمى أصحابها إلى المذهب الشيعى على أن ابن العلقمى كان قد أرسل بعد حادثة الكرخ الشهيرة التى بدأت فى ذى الحجة سنة ٦٥٤ هـ إلى هولاكو أخاه وغلامه وتشير مصادر أخرى بعضها شيعى والآخر سنى إلى مضمون رسالة ابن العلقمى التى يشكو فيها سوء الأحوال ببغداد ويبدى إخلاصه له وطاعته ويرحب بمقدمه ويقول له إنه قد دبر الأمور بحيث إذا وصل هولاكو فإنه سيجد بغداد مفتوحة الأبواب وسيتولى أمرها ويحكمها بلا حرب أو نزاع.

وبالطبع انبرى المؤرخون من الشيعة قدامى ومحدثين فى نفى تهمة الاتصال عن ابن العلقمى والرد على المؤرخين من أهل السنة وعلى سبيل المثال يقول ابن طباطبا وآخرون: «ونسبه

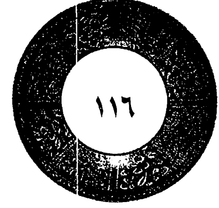


الناس إلى أنه خامر وليس ذلك بصحيح، ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة، فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكَّمه، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه.

وابن طباطبا ومن معه بهذا القول يتجاهلون طبيعة المغول أنفسهم التى جبلوا عليها فى بيئتهم القاسية فى منغوليا منذ القدم، فقد تعودوا على الاستفادة من كل شىء حولهم، فإذا ما تحقق الغرض منه واستوفى تخلصوا منه بأسرع ما يكون، ولهذا استثنوا الحرفيين والصناع من القتل العام فى المدن التى استولوا عليها ودفعوا بهم إلى عاصمتهم قراقورم لتجميلها، كما احتفظوا بالأسرى الأشداء ليستخدموهم فى تعبيد الطرق، ووضعوا الكثير منهم فى طليعة جيوشهم ليتلقوا الضربة الأولى من قبل المدافعين عن المدن التى سيهاجمونها، كذلك استخدموا الأسرى من البوذيين فى تعليم أولادهم القراءة والكتابة.. إلخ، فالمغول إذن يرون غيرهم على أنهم مجرد أدوات تحقق أهدافهم لا أكثر، وهذا ابن العلقمى الذى ساعدهم فى فتح بغداد هو رجل شغل منصب الوزارة مدة أربع عشرة سنة (٦٤٢-٦٥٦هـ)، وهو ينتمى إلى أقلية شيعية مضطهدة رحب زعماؤها فى بغداد وخارجها بقدوم المغول وهو شيخ كبير السن قارب الثالثة والستين من العمر، ومن ثم فلا ضرر من إبقائه مؤقتا حتى يدير شئون بغداد ويكشف عن حقيقة أوضاعها الاقتصادية للمغول، وهو فى كل الأحوال مهيض الجناح لا حول له ولا قوة، فالقضية بالنسبة للمغول هى قضية استفادة مؤقتة وليست قضية وثوق أو عدم وثوق، ولم يعرف التاريخ أن المغول أعطوا ثقتهم طويلا لأحد من غير المغول كائنا من كان، وعلى سبيل المثال خورشاه زعيم الإسماعيلية أعطاه المغول الأمان وزوجوه بفتاة مغولية ثم قتلوه وجميع أهله شر قتلة، وغير خورشاه كثيرون قبله.

على أنه ينبغى الإشارة إلى إحدى الشائعات الكثيرة التى كان يتردد صداها فى كل مكان قبل سقوط بغداد وبعدها، وهى شائعات كانت ترتبط بالواقع من قريب أو بعيد ومن أشهرها ما ذكره ابن الساعى (ت/ ٦٧٤هـ).. «يقال أن هولاكو لما وصلت إليه مكاتبة الوزير تنكر ودخل بغداد فى زى تاجر واجتمع بالوزير وبأكابر الدولة وقرر القواعد معهم ورجع».

وتبدو هذه إن صحت مجازفة خطيرة إذ لماذا يترك هولاكو معسكره فى همذان ويسافر إلى بغداد ليضع حياته تحت رحمة أعداء لا يوثق بهم وبخاصة أن جواسيسه كانوا منتشرين داخل بغداد نفسها، وأغلب الظن أن ما أحاط بشخصية هولاكو لدى العامة فى بغداد من غموض ورهبة وقتل هو الدافع الحقيقى لسريان تلك الإشاعة الغريبة وغيرها.



الإعداد العسكرى للغزو:

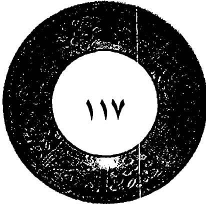
فإذا ما تركنا بغداد وتابعنا حركـة هولاكو وجدنا أنه لما فرغ من معظم قلاع الإسماعيلية فى نهاية سنة ٦٥٤هـ انتقل من جوار مدينة قزوين ليعسكر فى همذان فى شـهر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ حيث أخذ يتـهيأ لإنجاز المـهمة الثانية وهى إسقاط الخلافة العبـاسية فى بغداد، وكعادته فى الترقب والانتظار والاستطلاع وإعداد الجيوش اسـتغرق هولاكو حوالى عشرة شهور حتى تيـقن تماما من ضبط كافة الأمور المتعلقة بهذه المهمة.

وفى هذه الأثناء قدم عليه القائد المغولى «بايجو» الذى كان يتولى الإدارة العسكرية فى إيران منذ وفاة القـائد السابق «جورماغـون» سنة ٦٣٩ هـ ثم أصبحت مهـمته - بعد قـدوم هولاكو - مقصـورة على الشمال الغربى فى إيران (أذربيجـان) علاوة على مضايقة سـلاجقة الروم والأرمن والكرج، وكان هولاكو غاضـبا على بايجو لما بلغه عنه من أنه كان يضمـر الخلاف والانفراد ببلاد الروم وأنه يتلكأ فى الحضور لما استـدعاه فى الوقت الذى كان هولاكو مهتما بتـأكيد سيطرته على كافة الأمور العسكرية والإدارية فى إيران قبل أن يبدأ فى الهجوم على بغداد.

وتضمن الحـديث الصاخب قـول هولاكو لبايـجو «أنك لم تفعل شـيئـا سوى أنك رحت تخوف القوات المغولية بالمبالغة فيما عليه الخليفـة من قوة وعظمة» فجثا بايجو على ركبيته وأجاب «إننى لم أقصر، وإنما بذلت كل ما فى مقدورى، فلقـد أخضعت الأقاليم الممتدة ما بين باب الرى حتى حدود الروم والشام ما عدا بغداد، فإنها بسبب كثرة سكانها ووفرة جيوشها وكثرة ما فيها من الأسلحة، وبسبب الطرق الضيقة الصعبة التى يجب سلوكها قبل الوصول إليها صار تقدم الجيوش إلى تلك النواحى وقيامـها بعمليات الهجوم أمـرا متعذرا، وما يتبـقى بعد ذلك أتركه لحكم الملك العادل فأنا لكل ما يأمر به عبد مطيع، ومنفـذ لأوامره، فسكنت تلك العبارة الأخيرة ثائرة غضب هولاكو وأمر بايجـو بأن يعود إلى ولاية الروم لكى يستولى عليـها وأن يبلغ بجيشه شـاطئ البحر هناك فرجع بايجو على الفور.

وبدهى فإن الأسباب التى أبداها بايجو فى تبرير إحجامه عن مهاجمة بغداد لم تكن مقنعة، إذ إن المغول كانوا قد هـاجموها منذ سقوط السلطان جلال الدين منكبـرتى سنة ٦٢٨ هـ أكثر من عشر مرات كـان النصر فيها سجـالا بين الطرفين غير أن هولاكو برهن بموقفـه هذا عن سعة أفق ودهاء وعلم دقيق بأحوال جيش الخلافة حين سـمح لبايجو بالعودة إلى منطقة عمله لمواصلة غزو بلاد الروم فى الوقت الذى كان يتوقع فيه أن يأمره بإحضار جيشه فورا للمشاركة فى الهجوم على بغداد.

وبدأ هولاكو أولى خطواته العملية فى غزو بغداد بدراسة القوى التى يمكن أن تعوق حركة التـقدم إلى بغـداد أو تهدد مـؤخرة الجـيش المغولى عند الحـصار فـرأى أن يخضـع أولا الأكراد



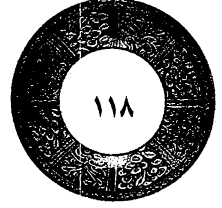
والتركمان فى منطقة كـردستان وهم سنية شافعية متـمسكون بمذهبهم فأرسل إلى حسـام الدين عكة حاكم (درتنك) وما حولهـا من قبل الخليفة المعـتصم بالله وكانت العلاقـة بينهما سيئـة، فأسرع حسام الدين إلى حـضرة هولاكو لتقديم فروض الولاء والطاعة فشمله بكثير من العطف والرعاية وعينه حاكما من قبل المغول، ومنحه حصنى (وروده) و(مرج) وعدة قلاع أخرى، وأذن له بالعودة فقفل راجعا وأرسل إلى كل قلعة جيشا فخضع له أهلها جميعا وسلموا له القلاع.

ولم يكن حسام الدين عكة رجلا حذرا إذ سرعـان ما ركبه الغرور وتملكه الزهو فأرسل إلى تاج الدين محمد بن صلايا العلوى حاكم إربل يقول: «لقد قدرت هولاكو خان وما عليه من كفاءة وكياسـة، ومهما يكن له من العـنف والتهديد، فليس له عندى قدر ولا وزن، فلو طيب الخـليفة خاطرى وطمأن قلبى، وبعث إلى بجيش من الفرسان لجـمعت أنا أيضا ما يقرب من مائة ألف من فرق المشـاة من كرد وتركـمان ولسددت الطريق فى وجـه هولاكو خـان، ولا أدع أى مخلوق من جنده يدخل بغداد» فأرسل ابن صلايا إلى الوزير ابن العلقمى يعلمه بالأمر فعرض هذا بدوره الأمر على الخليفة، فلم يبد اهتمـامًا كثيرا، وبلغ هولاكو هذا الكلام فثارت سورة غـضبه، وأوفد قائده كيتوبوقا مع ثلاثين ألفا من الفرسان لتدارك هذا الخلل.

وترتب على تحرك كيتوبوقا وجنوده تعرض أهالى ولاية كردستان للقتل العام ومصرع حسام الدين عكة والقـضاء نهائيـا على أى بادرة مقـاومة من قبل الأكـراد أو التركمـان ضد المغـول قبل توجههم إلى بغداد.

بالإضافة إلى مشكلة ولاية كردستان كانت للخلـيفة المستعصم بالله مشكلة أخرى فى ولاية لورستان تدخل فـيها منكو الخان الأعظم المغـولى، ذلك أن الأمير بدر الدين مسعـود لما قتل أخوه الذى كان يحكم ولاية لورستان على يد رجال سليمان شاه الإيوانى زعيم طائفة التركمان بتأييد من الخليـفة توجـه مسعـود إلى منكو لاجـئا وطالبـا إمداده بجـيش من عنده قائلا: «إننا من القـديم مخلصون لسدتكم السـنية ومتعلقون بها غيـر أن دار الخلافة قد أنجدت خصمنا فنجح فى مـبتغاه» فألحـقه منكوقـاآن بخدمة هولاكـو وأرسله معه إلـى إيران فكان طبيعـيا أن يكون هو وأتبـاعه من مناصرى هولاكو عند مهاجمة بغداد، مع أنه قد أثر عن مسعود هذا أنه كان أميرا عادلا عالما يحفظ أربع آلاف مسألة فقهية فى مذهب الإمام الشافعى عن ظهر قلب،لكن للسياسة أحكامها.

أما أبو بكر السلغورى أتابـك فارس فقد أمد - وهو الأميـر المسلم السنى المذهب المتفق مع الخليفة العـباسى فى دينه ومذهبه -جيش المغول بجـيش جعله تحت إمرة ابن أخيه مـحمد شاه بن سلغرشاه فأبدى ذلك الأخيـر فى أثناء الموقعة شجاعة وقوة مراس أعجـبت هولاكو نفسه إلى حد بعيد.



فما كان أحرى بالخليفة المستعصم لو كان يحسن إدارة شئون الدولة أن تكون كل هذه القوى من حوله تشاركه فى الدفاع عن الخلافة وعن المسلمين، ولكن أنى له ذلك وهو مشغول عن أمور دولته وعن مصالح المسلمين وعن الاستفادة من التجارب المحيطة به بأمور ساذجة، فهولاكو كان قد اجتاز بجيشه نهر جيحون منذ عامين تقريباً، وأخذ الملوك والأمراء فى إيران وغيرها يهرعون إليه حتى قوات من يزد وكرمان كانت تشترك فى حصار قلاع الإسماعيلية كما سبق القول وهى بلا شك اشتركت فى محاصرة بغداد والخليفة تارك الأمور تجرى كيفما اتفق حتى إنه كان إذا نبه إلى ما ينبغى أن يفعله فى أمر المغول إما المداراة والدخول فى طاعتهم وتوخى الحذر فى مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق فكان يقول: «بغداد تكفينى ولا يستكثرونها على إذا تنازلت لهم عن باقى البلاد ولا يهجمون على وأنا بها وهى بيتى ودار مقامى».

هكذا كان الخليفة يرى الأمور، لا يهمه إلا ما يكفيه هو، ولهذا فهو مستعد للتنازل عن بلاد المسلمين وعن أموالهم وعن أعراضهم لعدو وثنى متسلط لا يرحم ولا يعفو فى مقابل أن يستمر هو فى بغداد متربعا على كرسى الخلافة فحسب.

ولما أيقن هولاكو أن الأوضاع قد أصبحت مهيأة للبدء فى تنفيذ المهمة أرسل إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله من همذان فى العاشر من رمضان سنة ٦٥٥ هـ رسالة يقول فيها: «لقد أرسلنا إليك رسلنا وقت فتح قلاع الملاحدة، وطلبنا مددا من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند وكان أية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة: فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر ومهما تكن أسرتك عريقة، وبيتك ذا مجد تليد.

فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة يخفى معها نور الشمس الساطعة

ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدى الجيوش المغولية منذ جنكيزخان حتى اليوم، وعلمت بالذل الذى حاق بأسر الخوارزمية والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة وذلك بحول الله القديم الدائم، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد فى وجه أية طائفة من تلك الطوائف التى تولت السيادة هنا فكيف يغلق هذا الباب فى وجوهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان ؟!.

وقد نصحناك من قبل، والآن نقول لك: تجنب الحقد والخصام والضغينة، ولا تحاول أن تقف فى سبيلنا لأنك ستتعب نفسك عبثًا ومع هذا فقد مضى ما مضى. فعليك أن تهدم الحصون وتطم الخنادق، وتسلم ابنك المملكة ثم تتوجه لمقابلتنا، وإذا كنت لا تريد ذلك فأرسل إلينا الوزير وسليمان شاه والدوادار ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان، فإذا أطعت أمرنا، فلا حقد



ولا ضغينة وسنبقى لك على دولتك وجيشك ورعيتك، وأما إذا لم تنتصح، وسلكت طريق الخلاف والجدال، فأعد جيشك وعين ساحة القتال، فإننا مستعدون لمحاربتك، واعلم أننى إذا غضبتُ عليك، وقدتُ الجيش إلى بغداد، فسوف لا تنجو منى ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت فى باطن الأرض، فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك، فاستمع لنصحى بمسمع العقل والذكاء وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله».

وبدهى أن تكون هذه الرسالة من إنشاء المسلمين الذين صاحبوا هولاكو فى حملته فى بغداد وعلى رأسهم نصير الدين الطوسى، وعطاء ملك الجوينى، وأحمد البيتكجى وزير هولاكو.

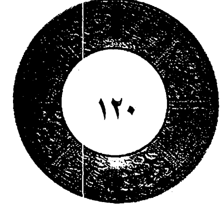
ومضمون هذه الرسالة يكشف عن علم تام بتاريخ الخلافة العباسية وعلاقتها بالقوى السياسية المحيطة بها منذ قرون عدة مضت، أما أسلوبها فهو استفزازى مهين وضع الخليفة فى مكان أدنى بالنسبة لهولاكو وحصره بين اختيارين أيسرهما صعب فإما الخضوع الذليل لهولاكو الذى لا يؤمن جانبه ولا يوثق بوعوده وإما الدخول فى معركة غير متكافئة مع خصم قوى متمكن يملك جيشا جيد الإعداد وافر العتاد والعدد.

ولم تكن تلك هى المشكلة الوحيدة ففى الوقت الذى كان هولاكو يعرف عن طريق جواسيسه ومعاونيه داخل بغداد كل التفاصيل الدقيقة عن جيش خصمه وكذلك ما يجرى فى ديوان الخلافة من أحداث وتطورات كعجز الخليفة وتردده وتسلط الدوادار وأتباعه وتحفز الوزير ابن العلقمى للتخلص من الخليفة والدوادار معا، وفى نفس الوقت لم يكن الخليفة ومن معه يعرفون أشياء ذات أهمية عن هولاكو ومعاونيه وقدرات جيشه والتخطيط الذى رسمه الخان الأعظم منكو لشقيقه هولاكو فيما يخص كيفية التعامل مع الخليفة وعاصمته الشهيرة، ومن ثم كانت نتيجة المعركة معروفة مسبقا ولا تحتاج إلى مكابرة أو إغضاء.

وعبثا حاول الخليفة تفادى الوقوع فى شرك الاستفزاز متوهما أن بوسعه إرهاب هولاكو أو إثنائه عن قصد بغداد ومن ثم قد قال الخليفة فى رسالته إليه « أيها الشاب الحدث ! المتمنى قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطا ومتغلبا على جميع أقطار العالم مغترا بيومين من الإقبال متوهما أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم، لماذا تطلب منى شيئا لن تجده عندى:

كيف يمكن أن تتحكم فى النجم وتقيده بالرأى والجيش والسلاح

ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لى؟! إننى عندما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور فى إيران ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص فى موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءاً بالقلق والاضطراب غير أنى لا أريد الحقد والخصام ولا أن أشترى ضرر الناس وإيذاءهم، كما أننى لا أبغى من وراء تردد الجيوش أن تلهج



ألسنة الرعية بالمدح أو القدح، وخصوصا أننى مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد، ولسان واحـد، وإذا كنت مثلى تزرع بذور المحبة فـما شأنك بخنادق رعيـتى وحصونهم، فـاسلك طريق الود وعد إلى خـراسان، وإن كنت تريد الحرب والقتال:

إذا اسـتـقـر رأيك على الحـرب   فـلا تـتـوان لحظـة ولا تعـتـذر

فـإن لى ألوفـا مـؤلـفـة من الـفـرسـان   والرجـالة وهـم مـتـأهبـون للقـتـال

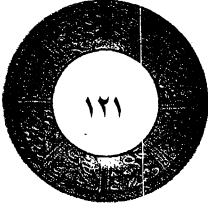
وأنهـم يثـيـرون الـغـبـار من مـاء   البـحـر وقـت الحـرب والـطعـان

ولا تحتاج رسالة الخليفة إلى تعليق فقـد رمى هولاكو بالغرور وقلة الخبرة وأستند إلى أوهام هو أول من يعلم زيفـها ومنهـا التأييد العـام وكثـرة الأنصار والقـدرة على اقتـحام إيران وتوران (تركسـتان ومنغوليـا)، والتوحد الروحى مع الخـاقان الأعظم وأخيـه هولاكو، فكشف بذلك عن مدى ضعفه، وحيرته وتسلط الأوهام على تفكيره وعمله.

ولم يكن ذلك إلا تكراراً لما حدث فى الأمس القريب حين سيَّر هولاكو فى أيام محاصرته لقلاع الإسمـاعيلية رسولا إلى الخليفـة يطلب منه نجدة أراد أن يسير المطلوب غـير أن المحيطين به غلبوه على أمره وقالوا: «إن هولاكـو رجل احتيال وخديعة وليس محتاجـا إلى نجدتنا وإنما غرضه إخلاء بغداد من الرجال فيملكها بسهولة» فتوقف الخليفة فى الأمر وتجاهل رسالة هولاكو.

وعلى الرغم من أن الخليفة أوفد إلى هولاكو فى هذه المرة سفيره البليغ ابن الجوزى غير أنه لم يستطع أن يفعل شـيئا لتهدئة غـضب هولاكو الذى استاء كثـيرا من العبارات التى استخـدمها الخليفة فى رسالته واشتد استياؤه مما أصاب رسله فى مدينة بغداد من إساءة بالغة على أيدى العامة تجاوزت السب إلى البـصق فى وجوههم وتمزيق ثيابهم. غيـر أنه قدَّر - بلا شك - تدخل الوزير ابن العلقـمى الذى أوفد على الفور بعض غـلمانه ليكفوا الأذى عن رسل المـغول، وكان بوسـعه تأمين خروجـهم منذ البداية غير أنه تركهم للـعامة أولا ثم تدخل بعد الإهانة ليثـبت لهولاكو أنه الوحيد الذى يفهم فى أصول البروتوكول وبالتالى هو الأقدر على الاستمرار فى التعامل معهم.

وجاءت رسالة هولاكو الثانيـة إلى الخليفة أكثر شدة وتهديدا فقـد قال فيها: إن الله الأزلى رفع جنكيـزخان، ومنحنا وجـه الأرض كله من الشرق إلى الغـرب، فكل من سار مـعنا وأطاعنا واستقـام قلبه ولسانه نحفظ له أمواله ونسـاءه وأبناءه، ومن يفكر فى الخلاف والشقاق لا يسـتمتع بشىء من ذلك. . لقد فتنك حب الجاه والمال والعـجب والغرور بالدولة، وقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فـعليك أن تكون مستعـدا للحرب والقتال فـإنى متوجه إلى بغـداد بجيش كالنمل والجراد ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى فتلك مشيئة الله العظيم.

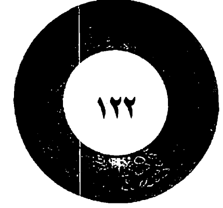


وبعد أن وصلت رسل المغـول بغداد أبلغوا رسـالة هولاكو إلى الوزير ابن العلقمى الذى عـرضها على الخليـفة فقال: مـاذا ترى لدفع هذا الخصم القاهر القادر فأجاب الوزير ينبغى أن ندفعه ببذل المال، لأن الخزائن والدفائن جُمِـعَتْ لوقاية عزة العـرض وسلامة النـفس، فيجب إعـداد ألف حمل من أنفس الأموال وألف من نجائب الإبل وألف من الجياد العربية المجهزة بالآلات والمعدات كما ينبغى إرسال التحف والهـدايا فى صحبة الرسل الكفاة الدهاة مع جعل اسم هولاكو فى الخطبة والسكـة، فتظاهرالخليفـة بالموافقة على هـذا الرأى وأمر بإعداد ذلك غـير أن الدوادار- مدفوعـا بأسباب الوحشة التى كـانت بينه وبين الوزير - أرسل إلى الخليفة مسـتنداً إلى تأييد قواد الجيش وأنصـاره الآخرين - يقول: «إن الوزير دبر الحيلة لمصلحـته الخاصة لكى يتـقرب زلفى إلى هولاكو ويلقى بنا نحن الجند فى البلاء والمحنة, وهدد الدوادار بالقبض على رسل المغول وأخذ ما معهم وإفساد الأمر كله.

وفى الحقيقة كـان رأى ابن العلقمى هو الصواب بعينه فجيش الخلافـة الضئيل ما كان له أن يصمد فى مواجهة جيوش المغول الكثيفة التى اكتسبت خبرة طويلة من خلال الحروب الطاحنة التى خاضتها من قبل، كما أنها كانت تضم فرقـا متنوعة تجيد مختلف صنوف القتال علاوة على الفرق الإضافية المعاونة من كرمان ويزد وشيـراز والموصل والقوقاز والأرمن والكرج وكذلك كانت القيادة العسكرية المغـولية على أعلى مـستوى من الحنكة والكـفاءة، فالقـواد كيتـوبوقا وسونجـاق وبايجو يصعب مـضاهاتهم بالدوادار الصـغير وسليـمان شاه وابن كـر وغيرهـم، ومن ثمة فإن المواجـهة العسكرية كانت حتما فى صالح المغول ووبالا على بغداد وأهليها.

ولم تكن تلك الحسابات على خطورتها هى المشكلة الحقيـقية فى مشورة ابن العلقمى إذ إن المعضلة فى هذه المشـورة أنها استهـدفت موطن الرفض عند الخليفة المسـتعصم بالله فـقد كان ابن العلقمى وغـيره يدركون مدى تمكن داء البخل العـضال من نفس المستعـصم بالله ولم تكن حادثة استيـلائه على وديعة الملك الناصر داود صاحب الكرك لديه ببـعيد، وهو أمر أكـد عليه المؤرخون عندما قالوا: «كان المستعصم بالله محبا للمال وفيه شح ولو لم يكن من خصاله إلا فعله مع الملك الناصر داود فى أمر الوديعة لكفاه ذلك عارا وشنارا».

وعلى هذا رفض الخليفة مشورة الوزير وقـبل رأى الدوادار الصغير الذى مارس تسلطه على الخليفـة كالعـادة فأيقن الوزير أن دولة العـباسيـين سوف تزول عـما قريب إذ هو قـد نجح بدهاء وسلاسة فى أن يجذب خصميه معـا إلى الدائرة المأمولة وهى الدخول فى معركة خاسرة مع المغول فصدق المثل فيهـما وكان كلاهما كالساعى إلى حتفه بظـلفه، غير أن ذلك كله لم يكن فى صالح بغداد وأهلها وبخاصة أهل السنة والجماعة، إذ لم تسفـر الرسائل المتبادلة بين هولاكو والخليفة بعد ذلك عن شىء يوقف أو يؤجل اشتعال الحرب.



ولما كان المغول قد درجوا منذ القدم على استكشاف الغيب قبل الاشتباك فى الحرب فقد استدعى هولاكو حسام الدين المنجم الذى كان مصاحبا له بأمر الخان الأعظم منكو ليختار له وقت النزول والركوب فطلب هولاكو منه أن يبين له ما فى النجوم من استطلاع دون مداهنة، ولما كان هذا المنجم سنيًا ويرأف بالخليفة مما ينتظره فقد قال لهولاكو: إنه ليس ميمونا قصد أسرة الخلافة والزحف بالجيش إلى بغداد، إذ إن كل ملك حتى زماننا هذا قصد بغداد والعباسيين لم يستمتع بالملك، وإذ لم يُصغ الملك إلى كلامى وذهب إلى هناك فستظهر ستة أنواع من الفساد:

أولها: أن تنفق الخيول كلها ويمرض الجنود.

ثانيها: أن الشمس لا تطلع.

ثالثها: أن المطر لا ينزل.

رابعها: تهب ريح صرصر، وينهار العالم بالزلزال.

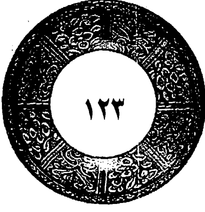
خامسها: لا ينبت النبات فى الأرض.

سادسها: أن الخان الأعظم يموت فى تلك السنة.

فطلب منه هولاكو خان شهادة بصحة هذا الكلام فكتبها المسكين، أما الكهنة البوذيون وأمراء الجيش فقد قالوا إن الذهاب إلى بغداد هو عين المصلحة ومن ثمة استدعى هولاكو العالم الفلكى نصير الدين الطوسى واستشاره فقال: «لن تقع آية واقعة من هذه الأحداث وهولاكو خان سيحل محل الخليفة، ولقد استشهد جمع كثير من الصحابة باتفاق الجمهور وأهل الإسلام، ولم يحدث فساد قط ولو قيل أن للعباسيين مكرمة خاصة بهم فإن طاهر بن الحسين جاء من خراسان بأمر المأمون وقتل أخاه محمدًا الأمين، وقتل المتوكلَ ابنه بالاتفاق مع الأمراء، كذلك قتل الأمراء والغلمان المنتصر والمعتز، وقتل عدد من الخلفاء على يد جملة أشخاص فلم تختل الأمور».

وبالطبع أخذ هولاكو برأى المنجم الشيعى نصير الدين الطوسى أما المنجم السنى حسام الدين فكان مصيره القتل، وهذه الرواية التى وردت عند المؤرخ رشيد الدين الهمدانى تجاهلت أمرين:

١- أن تعاطف المنجم حسام الدين مع الخلافة ورغبته فى صرف هولاكو عن بغداد نبعا من كونه سنيا متعاطفا مع الخليفة، وهذا ما يؤكده كثير من المؤرخين.



٢- أن تشيع نصير الدين الطوسى كان وراء تفنيده رأى المنجم السنى حسام الدين يؤكد ذلك ما أورده المؤرخ الشيعى ابن طباطبا فهو يقول أن نصير الدين الطوسى قد قال لهولاكو: «إن على بن أبى طالب كان خيرا من هذا الخليفة بإجماع العالم ثم قتل ولم تجر هذه المحذورات وكذلك قُتِلَ الحسين، وكذلك أجداد هذا الخليفة قتلوا وجرى عليهم كل مكروه. ولقد مال ابن طباطبا إلى نفس رأى رشيد الدين وهو أن نصير الطوسى كان مدفوعا إلى ذلك من خلال خوفه من بطش هولاكو وسطوته.

ويبدو أن الحقيقة تؤيد الرأى القائل: «فلو أن نصير الدين لم يكن يكره الخليفة ويعمل على سقوطه أو أنه كما يقول رشيدالدين كان مضطرا إلى تحبيذ المشروع لما وقف موقف المدافع عن الفكرة المجند لها الذى لا يتهاون فيها ولاكتفى بالقول بنجاح المشروع دون أن يفند أقوال حسام الدين، فانحياز نصير الدين لمذهبه الشيعى كان دافعه الأول فيما قام به ضد الخليفة وكل من يرتبط بالعقيدة السنية التى كانت عليها الخلافة، فهو والشيعة عامة ما كانوا ليحزنوا كثيرا على سقوط خليفة من العباسيين، عموما فقد شجع هذا الرأى هولاكو على اقتحام بغداد أولا وإرجاء النظر فى أمر الخليفة إلى حين.

حصار بغداد:

أيا كان الأمر فقد تحركت جحافل المغول صوب بغداد حيث تكامل وصول جيش هولاكو إلى شرقى بغداد فى الثانى عشر من المحرم سنة ٦٥٦هـ، وكان بايجونوين قد قدم بجيشه مسرعا من جهة بلاد الروم فعبر بقواته نهر دجلة من ناحية الموصل فى التاسع من المحرم وانطلق جنوبا كى يشرع فى حصار بغداد من ناحية الغرب، فاضطر جيش الخلافة الضئيل الذى كان يعسكر خارج بغداد بين بعقوبا وباجسرى فى مواجهة الحشود الشرقية للمغول التى كانت تحت قيادة هولاكو أن يتحرك غربا لمواجهة جيش بايجو تاركا الطريق مفتوحا أمام قوات هولاكو الذى لم يضع الفرصة فتحرك إلى بغداد وحاصرها بإحكام من ناحية الشرق، وأسفرت المواجهة النهائية بين جيشى بايجو والدوادار الصغير عن هزيمة الأخير وتمزيق جيشه الذى غرقت مؤخرته بأثر فتح السد المقام على نهر بشير.

ويتهم بعض مؤرخى السنة الوزير الشيعى ابن العلقمى بإرسال جماعة من أصحابه قاموا بقطع السد المذكور، ففاض ماء النهر على عساكر بغداد وهم يستجمون بعد انتصارهم فى أول المعركة على جيش بايجو، فغرقت خيامهم ودوابهم مما تسبب فى هزيمتهم كما سبق القول.

ويشير بعض آخر من مؤرخى السنة أيضا إلى أن هذا الأمر إنما قد جرى دون تدخل من أحد أى أنه كان بفعل فيضان النهر الذى حطم جزءا من السد فأغرق الجند.



وكان ابن العلقمى عندما خرج إلى خدمة هولاكو فى جماعة من مماليكه وأتباعه قد أمر بأن ينهوا الناس عن الرمى بالنشاب، وأخذ أتباعه يرددون سوف يقع الصلح إن شاء الله فلا تحاربوا، هذا وعساكر المغول يبالغون فى الرمى على بغداد وكان لهذا الفعل أثره فى إضعاف روح المقاومة لدى الأهالى فى بغداد وتشتيت فكرهم.

قتل الخليفة:

تؤكد المصادر السنية على تصميم ابن العلقمى بعد وصوله إلى معسكر هولاكو على إسقاط الخليفة المستعصم بالله إذ إنه عندما عاد إلى بغداد قال للخليفة: «إن الملك يعنى هولاكو قد رغب فى أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبى بكر وأن تكون الطاعة له كما كانت الحال مع أجدادك، مع الملوك السلجوقية ثم يترحل»، فخرج إليه المستعصم بالله فى أعيان الدولة ثم استدعى الوزير العلماء والرؤساء ليحضروا العقد بزعمه فخرجوا فضربت رقاب الجميع وصار كذلك تخرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم حتى بقيت الرعية بلا راعٍ.

هذا.. وتتفق مع المصادرالسنية فى هذا الاتجاه مصادر أخرى شيعية ومسيحية مما لا يدع مجالا للشك فى أن ابن العلقمى لم يكن لديه أدنى تردد فى ضرورة إزالة الخليفة والخلافة السنية معا.

وكان الخليفة المستعصم بالله قد خرج إلى هولاكو بعد أن تعمم وتزين وأخذ بردة النبى ﷺ على كتفيه والقضيب بيده فلما وصل إلى هولاكو أمر فأخذت البردة والقضيب منه ووضعا فى طبق نحاس وأحرقا وذر رمادهما فى دجلة.

وأغلب الظن أن هولاكو - شأن المغول جميعا - اعتقد أن فى البردة الشريفة والقضيب نوعا من السحر قد يستوجب إلحاق الضرر به أو بجيشه فقرر التخلص منهما بطريقة حذرة تدل على الخوف من أثرهما، حدث هذا أمام الرجلين الكبيرين نصير الدين الطوسى وابن العلقمى فما حركا ساكنا ولا نطقا بكلمة، وكان بوسع نصير الدين الطوسى وهو الخبير فى مثل هذه الأمور أن يتدخل بصورة أو بأخرى لحماية تلك الرموز المقدسة، لكنه لم يفعل..! نعم فقد كان مشغولا فقط بالعودة مع الخليفة إلى بغداد ثانية عقب استسلامه كى يتسلم منه وبحضور كبار قواد المغول الأموال والجواهر والحلى والأعلاق النفيسة.

وقد جاء استسلام الخليفة المستعصم بالله وخروجه إلى معسكر هولاكو إعلانا نهائيا بسقوط بغداد ووضع الخلافة العباسية تحت رحمة هولاكو وأعوانه ومستشاريه، وبدهى أن الذين عملوا منذ فترة على إسقاط الخلافة ما كانوا ليترددوا آنذاك فى إنجاز هذه المهمة التى اشتاقوا إليها كثيرا.



وهذا هو هولاكو رغم قسوته وتعطشه الوحشى لسفك الدماء يتردد فى قتل خليفة رسول الله لأن بعض المسلمين الذين كانوا يرافقونه فى حملته على بغداد أنذروه بأنه إذا سفك دم الخليفة على الأرض فإن الظلام سيعم العالم وسيبتلع الزلزال أراضى المغول وجيوشهم.

واستدعى هولاكو مستشاره الشيعى عالم الفلك الفيلسوف نصير الدين الطوسى الذى أفتاه قبلا بالهجوم على بغداد فلم يتردد فى إصدار الفتوى التى نصت على العبارة الآتية «يُقتَل ولا يراق دمه» ولكى يؤكد فتواه ويبطل آراء معارضيه بقتل يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) وعلى بن أبى طالب وابنه الحسين فذكر أنه لم يترتب حدوث شيء على قتلهم مطلقا.

أما دور ابن العلقمى فى التحريض على قتل الخليفة فيتمثل فى قوله لهولاكو «أنه متى وقع الصلح على المناصفة فإنه لا يستمر إلا عاما أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، اقتلوه وإلا ما يستقيم لكم حال ويكاتب عليكم سائر ملوك الإسلام ويأتيكم بما لا قبل لكم به».

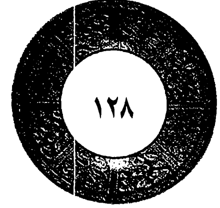
وفى يوم الأربعاء ١٤ صفر أمر هولاكو بإحضار الخليفة وكان ذلك فى قرية (وقف) فكان الخليفة يرى إمارات سيئة مما سيصيبه واشتد خوفه فقال للوزير: ما التدبير لنجاتنا ؟ فأجابه: «لحيتنا طويلة»! (وكان قصده من ذلك أنه لما دبر أول الأمر وأبدى رأيه بإرسال تحف كثيرة لدفع هذه المصيبة قال الدوادارالصغير - آنذاك - لحية الوزير طويلة !) وحال هذا القول دون الأخذ برأى الوزير، إذ أهمل الخليفة تدبيره وعمل بمشورة الدوادارالصغير.

وإجابة الوزير هنا تتضمن معنى التشفى فى الخليفة فلم يشأ الوزير أن يفوت الفرصة دون استهزاء بالخليفة الحائر، فطول اللحية إنما يعنى الضلوع فى الأمر، والوزير وقد تأكد أن الخليفة صائر إلى حتفه لا محالة اعترف بالحقيقة فى تهكم مرير بالخليفة المسكين العاجز.

على أنه ينبغى ألا يغرب عن الأذهان أن هولاكو نفسه كان يهدف أيضا إلى قتل الخليفة المستعصم بالله إذ إن بقاءه وهو رئيس سياسى ذو صفة دينية خاصة يشكل خطرا يهدد نفوذ هولاكو وسلطانه فى بلاد العراق وغيرها، ولذلك أمر هولاكو فى اليوم التالى لقتله بتعقب أفراد الأسرة العباسية وقتلهم جميعا.

وموقف هولاكو هنا لا يختلف كثيرا عن موقفه من خورشاه زعيم الإسماعيلية الذى انتهى أمره - بعد نيله الأمان - إلى قتله وجميع أفراد أسرته مما يؤكد على أن ذلك الإجراء كان أمرا جبل عليه المغول فى التخلص التام من خطر أعدائهم.

وتختلف المصادر التاريخية حول الطريقة التى جرى بها قتل المستعصم بالله ومن ذلك أنه وضع فى عدل (جوال) ورفس حتى مات، أو خنق أو لف فى بساط وألقى به فى نهر دجلة أو ترك



فى غرفة مغلقة مع بعض الذهب حتى مات جوعًا أو عطشا، ويبدو أن القتل بهذه الطريقة التى لا تسمح بإراقة دمه مرتبط بعقيدة قديمة عند المغول مؤداها أن من تجرى فى عروقهم الدماء الملكية ينبـغى عند قتلهم الحفاظ على دمائهم من أن تراق على الأرض تكريما لهم من ناحـية وإسقاطاً لأحقـية طلب الثأر لهم مستقبلا من ناحية أخرى.

إعدام الشريف العلوى:

سبـقت الإشارة إلى رأى ابن العلقـمى الوزير الشيعى فى الشـريف العلوى تاج الدين أبى المكارم محـمد بن نصر بن الصلايا الذى كـان ينوب عن الخليفة فى حكم مـدينة إربل التى كانت تحتل موقـعا استراتيجيـا مهمًا كما كـانت ذات قوة وحصانة حتى إن هولاكو حـين عزم على فتح بغداد عهـد إلى القائد المغولى أرقـيونوين بفتح هذه القلعة الحـصينة فحاصـرها ولكن سكانها من الأكراد -وهم شافعية - قاوموه بشـدة وضراوة مخالفين بذلك رأى ابن الصلايا الذى انفرد بإظهار فروض الطاعة للمغول وقدم لهم خدمات جليلة.

ولما كان المغـول كعـادتهم لا يقتنعـون بالأقوال فـقد قال أرقـيونوين للشـريف العلوى ابن الصلايا أن الدليل على صحة الطاعة هو تسليم القلعة فرجع تاج الدين إلى باب القلعة فلم تسمح له حشود الأكراد بالدخـول فاضطر إلى العودة إلى معسكر المغول بعد كثـير من الضغط والإلحاح فأرسله أرقيـونوين بدوره إلى حضرة هولاكو خان الذى كـان قد غادر بغداد إلى منطقة سـياه كوه (الجبل الأسود).

وشاء سوء طالع الشريف العلوى أن يكون وصوله إلى الحـضرة فى أثناء وجود منافسه بدر الدين لؤلؤ صـاحب الموصل الذى بادر بتـحريض هولاكـو بأن قال له: «هذا شـريف علوى ربما تطاول أن يكون خليفة فيبايعه على ذلك خلق عظيم» فأمرهولاكو بقتله.

أما المؤرخ العينى (ت/ ٨٥٥هـ) فيـورد سببا آخر لقتل الشريف فيـقول: «وقتله هولاكو ظنا منه أنه هو الذى امتنع عن تسليم أربل ولم يكن كـذلك بل كان قد أشار على أهلهـا بأن يستأمنوا ويسلموا فأبوا ولم يفعلوا».

ويبدو أن السبب الأول هو الأقرب إلى الواقع إذ يشيـرالمؤرخ رشيد الدين الهمذانى إلى أن قتل الشريف تم بعد محاكمته، كذلك فإن القائد أرقـيونوين كان مطلعا على حقيقة الأمر أى رغبة ابن الصلايا فى تـسليم القلعة للمـغول، غيـر أن وشاية بدر الدين لؤلؤ صـاحب الموصل أصابت مكمن الإحساس بالخطر فى نفس هولاكو فسارع إلى التخلص من ابن الصلايا وتم ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٥٦هـ.



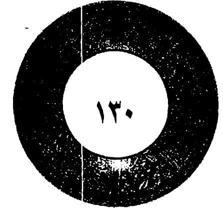
ويلفت الانتباه فى ذلك كله أمران مهمان: **أولهما**: أن الشريف العلوى ابن الصلايا كان أهم رجالات الشيعة فى هذا العصر مما يؤكد على أن ابن العلقمى والشيعة كانوا يعتبرونه الخليفة المتوقع، **وثانيهما**: أن منهج الشيعة فى التعامل مع المغول كان واحدا متفقا عليه ويتمثل فى إعلان الخضوع والولاء لهم ولهذا لم تبد مراكز الشيعة فى إيران أو العراق أدنى اعتراض حيال حملة هولاكو على الشيعة الإسماعيلية فى إيران أو الخلافة السنية فى بغداد وكان ابن العلقمى وابن طاووس وابن الصلايا ملتزمين بهذا المنهج تماما.

القتل العام:

يكاد المؤرخون المحدثون يجمعون على القول بأن القتل العام الذى مارسه المغول عند حصارهم مدينة بغداد أو بعد اقتحامها كان عاما لا تمييز فيه بين السنة والشيعة، وهذا القول على افتراض صحته ينفى عن الشيعة تهمة التواطؤ مع المغول إذ لو كانوا غير متواطئين لوقع القتل فيهم كما وقع فى أهل السنة واليهود فى بغداد.

ولقد سبق القول أن الهجوم على بغداد كان من اتجاهين أولهما من الغرب بقيادة بايجو نوين وكان جيشه يحتوى على فرق من النصارى الأرمن الذين كانوا ينفذون ما تم الاتفاق عليه فى المعاهدة التى جرت بين هيتون الأول والخان الأعظم منكو خان، كذلك كان جيشه محتويًا على فرق من نصارى الكرج وأولئك كانوا موتورين مما فعله بهم المسلمون فى أيام السلطان الخوارزمى جلال الدين منكبرتى حين دخلوا عاصمتهم تفليس دمَّروها سنة ٦٢٢هـ انتقاما لما سبق من هؤلاء الكرج فى حق مَنْ يجاورهم من بلاد المسلمين.

وبالإضافة إلى ذلك فإن بايجو كان يطمع فى الاستقلال ببلاد الروم لكنه اضطر بأثر الخوف إلى تلبية استدعاء هولاكو له كما أن عدم اشتراكه فى تحطيم قلاع الإسماعيلية وحضوره على رأس قواته على وجه السرعة لم يجعله على علم بما كان يجريه هولاكو من اتصالات داخل ديوان الخلافة فى بغداد أو خارجها، وعلى هذا كان الهجوم المغولى على بغداد الغربية كاسحا غاشما ساهم فيه نصارى الأرمن والكرج بأوفر نصيب من القتل والتدمير، ولعل هذا يفسر القول: «إنه لما خرج الصبيان والناس وعلى رؤوسهم المصاحف والألواح داسهم العسكر المهاجم فماتوا جميعا»، ولعل ذلك يفسر أيضا سبب الاعتداء على الأماكن المقدسة شيعية كانت أم سنية فقد تعرض مشهد الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد لخطر الحريق وكذلك مساجد السنة إذ اعتقد الغزاة أن هذه الأماكن كانت تحوى فى داخلها ذخائر ونفائس ثمينة، مما يدفع إلى قبول القول بأن الهجوم على بغداد الغربية فى ١٥ من المحرم سنة ٦٥٦ هـ كان عاما لا تمييز فيه لأنه كان هجوما يستهدف المسلمين جميعا دون تفرقة.



أما فى بغداد الشرقية حيث تقع دار الخلافة ودواوين الحكم فإن الوضع كان مختلفا بعض الشىء فعندما حاول الدوادار الصغير بعد هزيمته أمام جيش بايجو وعودته إلى بغداد أن يهرب عبر دجلة جنوبا فى اتجاه البصرة فأعد عدة سفن كانت تضم بين ركابها بعض الشيعة فلما أحبط المغول المحاولة كان من جملة القتلى نقيب العلويين.

كذلك كان من الشيعة - حسب رواية ابن الفوطى - أبطال فضلوا مقاومة المغول إذ لما نزل هولاكو على بغداد بعساكره كان الأمير فلك الدين بن الدوادار الكبير مريضا فتحامل على نفسه وخرج وقتل أميرًا من عظمائهم وأراد أن يرجع، فتكاثرت عليه العساكر المغولية فقتل شهيدا فى المحرم سنة ٦٥٦هـ.

ومن هنا فإنه لا ينبغى أن نفسر سقوط بعض القتلى أو الشهداء من الشيعة على أيدى المغول على غير محمله وبخاصة فى الفترة التى سبقت سقوط بغداد حين كان المغول يقذفون الأسوار بالحجارة والنفط فيتساقط القتلى من الشيعة أو السنة معا دون تمييز بين الأشخاص.

لكن هذا كله لا ينفى على وجه العموم عن غالبية الشيعة صادق تعاونهم مع المغول، ففى أثناء حصار المغول مدينة بغداد أى قبل سقوطها قدم إلى هولاكو خان وفد من أهل الحلة والكوفة يتقدمهم مجد الدين بن طاووس نائبا عن عمه وعلى الدين بن طاووس، وسديد الدين يوسف بن المطهر، وشمس الدين محمد بن عبد المعز، فقدم إليه مجد الدين كتاب البشارة وفيه أنهم قد وجدوا فى أخبار أجدادهم الأئمة الإثنى عشرية وبخاصة أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه الذى يقول: «إذا جاءت العصابة التى لا خلاف عليها فسوف تصبح بغداد التى هى أم الظلمة وأم البلايا ومساكن الجبابرة خاوية على عروشها، فويل لك يا بغداد ولدارك العامرة التى لها أجنحة كأجنحة الطواويس، عندما يأتى ذوو الوجود التى تشبه المجان المطرقة ومقدمهم جهورى الصوت لم يصل ببلدة إلا فتحها، ولا راية إلا نكسها».

وأحسن هولاكو استقبال هذا الوفد الشيعى الذى وصل فى توقيت غاية فى الخطورة إذ كيف يمكن تصور وقع الأثر النفسى على الأهالى المحاصرين داخل بغداد عندما يعرفون بأن إخوانهم فى الجنوب قد هرعوا مرحبين بالعدو القاهر الجاثم خارج الأسوار؟!.

وأعرب هولاكو عن سعادته بتلك البشارة العجيبة ! ووافق على التماس الوفد، فعيَّن لهم شحنة من المغول وأرسل الأمير بوقاتيمور لجس نبض الأهالى فى الحلة والكوفة وواسط والوقوف على مدى إخلاصهم.

أما أعضاء الوفد فقد بادروا إلى إبلاغ الشيعة فى الحلة والكوفة بما تمَّ، فأسرع هؤلاء فجمعوا مالا عظيما أرسلوه إلى هولاكو فتصدق عليهم بالإبقاء على نفوسهم، كما خفوا لاستقبال الجند المغول فأقاموا جسرا على الفرات وأقاموا الأفراح إبتهاجا بقدومهم، فلما شاهد القائد المغولى بوقاتيمور إخلاصهم وثباتهم رحل عنهم فى العاشر من صفر من نفس السنة.



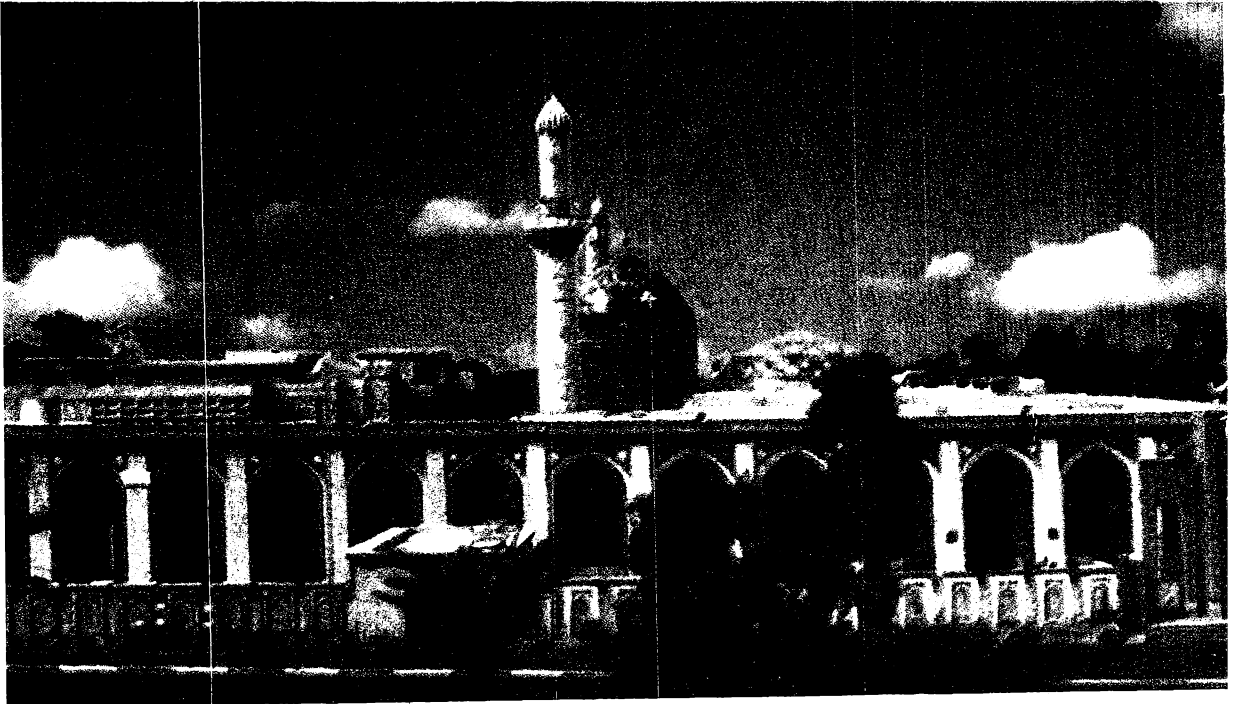
هكذا تعامل الشيعة مع المغول بذكاء محسوب فقد سلمت الحلة والكوفة والنيل والمشهدين الشريفين من الهلاك والنهب، كذلك رَدَّ هولاكو إلى مجد الدين بن طاووس حكم النقابة بالبلاد الفراتية فحكم فى ذلك قليلا إلى أن وافاه أجله فتوفى فى نفس العام ٦٥٦هـ.

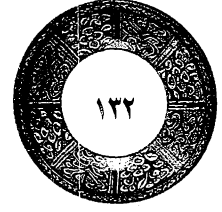
ولم يكن ما سبق هو مصدر الإفادة الوحيد إذ بادر أهل الحلة والكوفة عقب سقوط بغداد وخرابها على أيدى المغول إلى جلب الأطعمة إلى الناس الذين بقوا على قيد الحياة فيها، فانتفع هؤلاء الشيعة بذلك انتفاعًا كبيرًا إذ كانوا يبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة والأثاث بأوهى قيمة فاستغنى بهذا الوجه خلق كثير منهم، أى أنهم أصبحوا على صورة تشبه ما نسميه الآن بأثرياء الحرب.

ولم ينس هولاكو نفسه أن يكافئ الشيعة على موقفهم هذا فوضع بناء على طلبهم مشهد الإمام على بن أبى طالب فى النجف تحت حراسة مائة جندى مغولى فى نفس الوقت الذى قام فيه المغول بأعمال التدمير والنهب فى بغداد.

ويبدو هذا الطلب غريبا وبخاصة أن وزير هولاكو سيف الدين البيتكجى كان - حسب رواية رشيد الدين - يؤيده ويزكيه عند هولاكو، وأغلب الظن أن الشيعة كانوا يستشعرون الخطر من أن يهاجم أهل السنة والجماعة مشاهدهم المقدسة إذا ما تحرك المغول بعيدا عن المنطقة انتقاما منهم لموالاتهم المغول فى أثناء فترة الحصار، ولعل هولاكو نفسه كان يقصد إرهاب مَنْ تسول له نفسه من الشيعة أن يخلع ثوب الطاعة.

مشهد الإمام على - بغداد





من هنا تتضح الصورة، فالشيعة قد اتخذوا موقفا عاما من الغزو المغولى لا يختلفون فيه ولا يحيدون عنه فالقيادات الرئيسية فيهم كابن العلقمى وابن طاووس وابن الصلايا وأتباعهم من الشيعة فى بغداد والحلة والكوفة وغيرهم من مراكز التشيع لم يخرجوا عن هذا الموقف العام وهو الانضمام إلى صف المغول وموالاتهم فى مواجهة إخوانهم من المسلمين السنة، فإن شذَّ واحد هنا أو قتل واحد هناك فإن هذا استثناء لا يهدم القاعدة ولا يؤثر فى المجموع تأثيرا واضحا.

ويحاول أحد المؤرخين المحدثين الدفاع عن موقف الشيعة، فيطرح استفهاما غرضه التعجب والنفى، يقول: « وهل كان هولاكو محتاجا إلى مساعدة المسلمين الشيعة ضد المسلمين السنة حتى نقبل أنهم كانوا أحد العوامل التى أدت إلى سقوط بغداد ؟!».

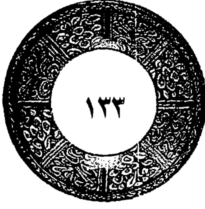
وأقول.. نعم كان هولاكو محتاجا إلى ذلك؛ لأنه ببساطة كان يحتاج إلى كل جندى مغولى وكل آلة حرب مغولية صنعها المهندسون الصينيون إذ إن بغداد لم تكن سوى المحطة الثانية التى سيتوقف عندها فى طريقه لإخضاع الشام ومصر كما نصت على ذلك الخطة التى رسمها أخوه الخان الأعظم منكو من ناحية ومن ناحية أخرى كانت هذه هى السياسة العامة للمغول- كما سبق القول- وأعنى تشجيعهم للأقليات المضطهدة فى مواجهة غيرها، والاستفادة من الخلل الناجم عن ذلك فى سرعة تحقيق الهدف من جانب وتقليل حجم الخسائر فى الجيش المغولى إلى أقل درجة ممكنة من جانب آخر، ثم لماذا يرفض هولاكو الخدمات التطوعية التى يقدمها له الآخرون أيا كانت هويتهم أو انتماؤهم أو مصلحتهم طالما أن ذلك سيحقق النفع له ولجيشه قبل أى شىء.

الإدارة الجديدة فى بغداد:

رأى هولاكو بعد أن فرغ من قتل الخليفة المستعصم بالله فى قرية (وقف) خارج بغداد فى الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦هـ ألا يضيع الوقت فأمر بتشكيل الإدارة الجديدة فى بغداد على النحو التالى:

أ- الإدارة العسكرية:

وتلك جعلها تحت رئاسة الأمير سيف الدين على بهادر الخراسانى الذى كان أول جندى من جيش المغول يدخل بغداد ويفتح أبوابها لهم فأصبح بموجب ذلك الحاكم العسكرى للمدينة وأصبحت من أهم واجباته المحافظة على الأمن العام بالقضاء على الثورات وأعمال الشغب والعصيان وكذلك مراقبة أعمال الديوان لضمان ولائه للدولة الإيلخانية حتى إنه أصبح فعلا السلطان على رؤساء إدارة العراق من الموظفين المدنيين.



واختار هولاكو أيضا قائدين هما إيلكانوين، وقرابوقا ومعهما ثلاثة آلاف من فرسان المغول وبعث بهم إلى بغداد ليقوموا على استتباب الأمن والإشراف على تعمير ماتم تخريبه فى أثناء الهجوم.

ب - الإدارة المدنية:

وتلك شملت الوظائف العامة التى كانت قائمة فى أيام الخلافة العباسية وكانت على النحو التالى:

١- **الوزارة:** وتولاها ابن العلقمى بتكليف من هولاكو فى نفس اليوم الذى قتل فيه الخليفة المستعصم وقد اختار ابن العلقمى مجموعة من الموظفين لمساعدته، فأبقى عز الدين ابن أبى الحديد فى كتامة السلة وعين لنيابة الشرطة ابن الموسوى العلوى، وأعطى خزانة الديوان للشيخ عبد الصمد بن أبى الجيش وهم من الشيعة.

٢- **صاحب الديوان:** وتولاه فخر الدين بن الدامغانى بتكليف مباشر من هولاكو وكان يشغل هذا المنصب منذ عام ٦٤٣ هـ أى منذ أوائل خلافة المستعصم بالله وهو أحد الذين خرجوا لمقابلة هولاكو فى أثناء حصار بغداد فأكرمه بأن جعل بيته داراً آمنة لمن يلوذ بها عند اقتحام المغول لبغداد، وفى سنة ٦٥٧هـ سافر إلى معسكر هولاكو فى أذربيجان وعرض عليه شئون الإدارة فى العراق فأوشك هولاكو أن يفوض إليه حكومة العراق لولا وشاية ابن عمران الباجسرانى الذى اتهم ابن الدامغانى بإطلاق بعض ذرية العباسيين من سجن المدائن وإرسالهم إلى الشام ومصر فأمر هولاكو باعتقاله حيث توفى فى نواحى (اشنويه) بأروميه فى رجب سنة ٦٥٨ هـ ودفن هناك، وأسند هولاكو أعمال الديوان إلى الصدر نجم الدين بن المعين الذى كان يتولى صدارة الأعمال الحلية والكوفية فلم يطل به الأجل إذ توفى عند وصوله إلى بغداد فلم يباشر شيئا من العمل.

٣- **قاضى القضاة:** وتولاه القاضى نظام الدين عبد المنعم البدنجينى الشافعى بتكليف من هولاكو أيضا وكان يشغل وظيفة أقضى القضاة فى بغداد سنة ٦٥٥هـ وعندما فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ حضر نظام الدين بين يديه فأقره على القضاء، ويبدو أن هولاكو كان يدرك أن غالبية رعاياه الذين أصبحوا خاضعين له فى العراق وما حولها من أهل السنة ولذلك فضل أن يعين فى هذا المنصب قاضيا من أهل السنة وهو عمل يدل على ذكاء هولاكو وحنكته.

٤- **أعمال شرقى بغداد:** وتولى الإشراف عليها نجم الدين أبو جعفر أحمد بن عمران الملقب براست دل (المخلص) الذى كان - حسب رواية الصفدى - نصيرى المذهب ظاهر الفسق، وكان ابن عمران على علم بمخازن الغلال فى بعقوبا وما حولها ففتح المخازن وأعد الطعام للجيش المغولى مدة خمسة عشر يوما فى الوقت الذى كان جيش المغول يعانى بشدة من قلة الطعام، ولما وصل هذا المدد انتعش حال المغول وسقطت بغداد فى أيديهم.

وتظهر خطورة ما قـام به ابن عمران من مدى تكريم هولاكـو له فقد منحه لقب الملك وأعطاه مسئولية الأعمال الشـرقية لبغداد وخوَّله المشاركة فى الحكم مع الوزير وصاحـب الديوان غير أن نهـايته جاءت على أيدى أسـياده المغول فى سنة ٦٦٢ هـ حـين أُخرِج مكتوفا راجلا إلى ظـاهر بغداد وجرت محاكمته، فقتل وأخذ ابن الدوادار الصـغير مرارته وطيف برأسه على خشبة ونهبت داره، وكان قد نال فى حق علاء الملك الجوينى صاحب الديوان آنذاك كثيرا وعاداه فأفضت حاله إلى مـا جرى عليه من القتل والتـشهير، وكـان قد وقع فى كثيـرين غير الجوينى فـأصابه ما أصابهم على أيدى المغول.

ويؤكد ذلك طريقة المغول مع كلَّ مَنْ يؤدون إليهم خـدمات جليلة فهم يكرمونه إلى حين، ثم يتخلصون منهم دون حرج إن لم يسبقهم القدر إليهم كما حدث مع ابن العلقمى وغيره.

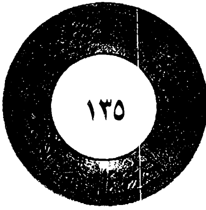
٥- **الأعمال الفراتية:** وتولى الإشراف عليها تاج الدين على بن الدارمى الذى كان حاجبا لباب الخليفة المستعصم بالله، وكان قد خرج مع الوزير إلى حضرة هولاكو فأمر أن يكون له صدر الأعمـال الفراتيـة، فلم تطل مدتـه وتوفى فى ربيع الأول سنة ٦٥٦ هـ فنصب ولده مجـد الدين حسـين مكانه، وبالإضافة إلى مـا سبق أبقى هولاكو ضمـن إدارة بغداد نجم الدين بن الدرنوسى وشرف الدين العلوى المعروف بالطويل.

وهكذا رأينا أن التـغييـر الأساسى الذى أحـدثه هولاكو فى إدارة بغـداد هو إزاحة الخليـفة العباسى المستعصم بالله من على قمة السلطة واستبداله بحاكم عسكرى يعاونه مجموعة من القواد العسكريين تؤازرهم حاميـة مغولية قوية وكذلك تثبيت معظـم رجال الإدارة الذين خرجوا إليه فى أثناء الحصار وبخاصة ابن العلقمى وابن عمران.

وهولاكو بتصرفه هذا لم يخرج على مـا درج عليه المغول منذ الغزو الأول لبلدان المسلمين فى أيام جده جنكيزخان غير أن اتصال هولاكو بالمسلمين كان أطول واحتكاكه بهم كان أقوى وكان معاونوه منهم أكثر ولهذا كانت خبـرته بهم أوثق وأعمق، ومن هنا أدرك أن تغليبه للشيعة - رغم معاونتهم له -- على السنة لن يكون فى صالحه هو عندمـا تنتهى الحرب وتهدأ الأمور وبخاصة فى مجتمعات يمثل أهل السنة والجماعة فـيها غالبية السكان، ولعل هذا هو السبب الحقيقى الذى من أجله لم يوافق المغول على تعيين خليفة علوى مكان الخليفة العباسى السنى المستعصم بالله.

ابن العلقمى فى الميزان:

يعتبر ابن العلقمى بحق ألمع شخصية برزت قبل أحداث سقوط بغداد وبعدها مباشرة، وكان الرجل بريئًا فى الحقـيقة من تهمة إغـراق مؤخرة جيش الخلافـة الضئيل الذى كان يقوده خـصمه اللدود الدوادار الصغير.



أما اتهامه بإنقاص جيش الخلافة تدريجيا فهو أمر لا يمكن إلقاء تبعته كلها على عاتقه وحده، لأن هذا العمل بدأ حسب رواية ابن تغرى بردى منذ سنة ٦٤٨ هـ وحسب رواية ابن الفوطى سنة ٦٥٠ هـ وهو وقت سابق على بداية الصراع بين ابن العلقمى وخصومه: الدوادار الصغير، وابن الخليفة، وابن الجوزى أستاذ الدار كما أنه سابق أيضا على حادثة الكرخ الشهيرة، وفى رأيى أن هذه التهمة التى أكد عليها كثير من المؤرخين ينبغى أن ترد أصلا إلى المسئول الأول عنها وهو الخليفة المستعصم بالله الذى كان يعانى من تسلط مرض البخل على نفسه وعقله، ويشارك الخليفة فى تلك المسئولية كبار قواد الجيش (الشرابى، الدوادار الكبير، الدوادار الصغير) حيث كان يتم إسقاط الجند من سجلات الديوان تحت بصرهم، فكل أولئك وابن العلقمى مثلهم كانوا مشغولين بمصالحهم الذاتية عن مصالح الخلافة والمسلمين فصدق فيهم قول المجد النشابى وقد راعه ماآلت إليه أحوال الجند فى بغداد من سؤال الناس وبذل وجوههم فى الطلب فى الأسواق والجوامع. . يقول فى بعض أبياته عن ولاة أمر بغداد:

إذا ترامت أمور الناس ليس لهم ... فيها رواة ولا حزم وإنجاد

أما الوزير فمشغول بعنبره ... والعارضان فنسَّاج ومدَّاد

وحاجب الباب طورا شارب ثمل ... وتارة هو جنكى وعوَّاد

واضيعة الملك والدين الحنيف وما ... تلقاه من حادثات الدهر بغداد

وعلى هذا فالتهمة التى يجب أن توجه إلى ابن العلقمى فى هذا الصدد -- كما يقول مؤرخان من الشيعة أنفسهم - هى التقصير والإهمال وهى تهمة كبيرة فى حق رجل محنك شغل وظائف فى ديوان الخلافة لمدة طويلة تزيد على ربع قرن من الزمان، فهو بذلك شريك فى هذه المسئولية يتحمل فيها بعضًا من الوزر.

هذا. . ويتهمه بعض مؤرخى السنة بأنه لما تعطلت المساجد والجماعات والجمعات وتوقفت المدارس السنية عن العمل كالنظامية والمستنصرية وغيرها بعد أن قتل المغول الخطباء والأئمة وحملة القرآن الكريم، أراد هو أن يستغل ذلك فى تعمير مشاهد الشيعة ومحالهم، وعزم على بناء مدرسة هائلة للشيعة ينشرون فيها علمهم غير أن القدر لم يمهله.

ويؤكد هذا الاتهام قول المستشرق الألمانى شبولر «ولم يتورع الشيعة عن الاستفادة من نهب بغداد، لتصفية الحسابات القديمة بينهم وبين أهل السنة، فقد بدأوا ينشطون فى نشر عقيدتهم بين أهل السنة الذين كانوا يتفوقون عليهم عددا».



وموقف ابن العلقمى - فى تقديرى - هو موقف رجل مخلص لمذهبه وعشيرته ولكن ما يعاب عليه هنا هو أن تفكيره أو إقدامه على ذلك جاء مرهونا بانتهاز فرصة ما أصاب أهل السنة على أيدى المغول الوثنيين.

ويبقى فوق كل ذلك مسئوليته الجسيمة فى الاتصال بهولاكو وتشجيعه على إنفاذ خطته متوهما أن الهدف واحد، وأن القضاء على الخليفة والدوادار سيحل مشاكله وينصف عشيرته الشيعة من تعنت خصومهم، وعلى هذا فلم يشعر بأى نقيصة عند خروجه من بغداد إلى مخيم هولاكو وهو يكف الناس عن المقاومة موهنا عزمهم عن القتال فى الوقت الذى اشتد فيه قذف المغول للأسوار، وكذلك إخراجه الفقهاء والأعيان والمدرسين مخادعًا إلى خارج أسوار بغداد بحجة حضورهم عقد زواج الابن الأكبر للخليفة المستعصم بالله بابنة هولاكو.

وينفى بعض مؤرخى الشيعة المحدثين مسألة إخراج ابن العلقمى هؤلاء الأبرياء للقتل مستندين إلى رواية وردت عند ابن الفوطى (منفردا) يقول فيها عن أحد قضاة أهل السنة: «إن القاضى فخر الدين أبا بكر عبد الله بن عبد الجليل بن عبد الرحمن الطهرانى الرازى كان ممن يخرج الفقهاء إلى باب السور ثم إلى مخيم السلطان ليقتلوا».

ورواية ابن الفوطى واضحة فهو يقول: إن هذا الرجل كان واحدا من الجماعة التى كانت تخرج الفقهاء ليقتلوا ولم يكن الوحيد الذى يفعل ذلك وأغلب الظن أنه فعل ذلك مكرها إذ يقول ابن الفوطى عنه فى نفس الرواية: «وكان شديد الوطأة على أهل العناد والفساد وكان عالما بالفقه وأيام الناس» ويبقى السؤال من الذى كان يدبر عمليه الإخراج كلها ومن الذى أمر بتنفيذها أصلا؟! من المؤكد أنه شخصية كبيرة لها وزنها وقدرها عند المغول، شخصية استدعت فلبى الناس الاستدعاء على أمل الإفلات من الهلاك فإذا الاستدعاء والهلاك شيء واحد... شخصية لها أغراضها الخاصة فى قتل الفقهاء الذين لم يكن أمرهم ليعنى المغول فى قليل أو كثير حتى يصروا على تمييزهم عن غيرهم ثم قتلهم دون شفقة أو رحمة.

وعلى هذا فإن خروج ابن العلقمى إلى هولاكو لم يعد بالنفع إلا عليه وعلى عشيرته فداره أصبحت آمنه وكذلك منصبه، وأصبح القتل مصيرا محتوما لمنافسيه وعلى رأسهم الخليفة وابنه والدوادار الصغير وغالبية الأهالى فى بغداد وكانوا من أهل السنة والجماعة.

على أنه يمكن التعرف على أبعاد شخصية ابن العلقمى الذى ولد فى سنة ٥٩٣هـ من خلال ثلاثة مواقف مختلفة فى حياته تتحدث هى نفسها عن شخصية صاحبها وهى:

١- اشتراكه فى سنة ٦٢٩ هـ فى تنفيذ مؤامرة الإطاحة بالوزير الشيعى مؤيد الدين محمد ابن عبد الكريم القمى الذى استوزره الخلفاء الناصر والظاهر والمستنصر لفترة من



الوقت، حدث هذا على الرغم من أن ابن العلقمى كانت تربطه به أكثر من علاقة وأهمها التشيع.

٢- أنفذ الخليفة المستعصم بالله إلى ابن العلقمى بغلة سنة ٦٥٠ هـ فقام وقبَّل حافرها وخلع على عمر بن جلدك الذى أحضرها فأنشد موفق الدين أبو المعالى القاسم بن أبى الحديد ارتجالا:

هنئت يا خير الملوك ببغلة ... من مالك متفضل متطول

جاء البشير بها إليك كأنما ... جبريل جاء محمدا بالدلدل

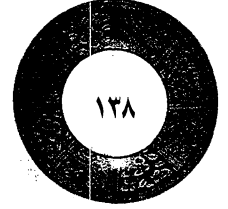
أخت الحصان وهكذا رتب العلى ... تأتى مكملة بغير مكمل

٣- فى سنة ٦٥٤ هـ زادت دجلة زيادة عظيمة فانفتح فى السد فتحة كبيرة عجز مَنْ يتولاها عن استدراكها، فركب الوزير وكافة الولاة معه، وأخذ الوزير فى يده باقة شوك، ففعل سائر الأهالى مثل ذلك، ولم يقع التمكن من سدها وانهزم الناس كلهم والماء فى أثرهم فأحاط ببغداد وغرق الجانبين.

ففى الحادثة الأولى شارك ابن العلقمى فى إقصاء الوزير الذى كانت تربطه به صلات عديدة منها المذهب والمصاهرة ونال فى مقابل ذلك رتبة أستاذ دار الخلافة، وفى الحادثة الثانية قبَّل حافر البغلة وهى حيوان أعجم نفاقا منه للخليفة وحاول شاعره أن يبرر موقفه فجاء التبرير متكلفا لا غناء فيه، وفى الحادثة الثالثة يواجه وهو الوزير المسئول فيضان نهر دجلة بباقة من الشوك !! دون أن يفكر فى حل عملى لمواجهة هذا الخطر الذى سبق تكراره من قبل.

وقد تعرض ابن العلقمى إبان وزارته الأخيرة تحت السيطرة المغولية التى امتدت من اليوم الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦ هـ إلى الثانى من جمادى الآخرة من نفس السنة لمتاعب جمة فقد كان يعمل تحت إشراف رئيس الشحنة المغولى على بهادر وتسلط من قبل ابن عمران وأمثاله من عملاء المغول، بل إنه تعرض للإساءة البالغة حتى من جند المغول العاديين فقد روى أنه بينما كان ابن العلقمى جالسا بالديوان يوما دخل عليه بعض هؤلاء الجند ممن ليس له وجاهة راكبا فرسه فساق إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد، وبال الفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان مظهرا قوة النفس، وأنه قد بلغ مراده.

وقد دفع سوء حالة بعض الأهالى من عامة بغداد لأن يقول له: «يا مولانا أنت فعلت هذا جميعهُ وحميت الشيعة حمية لهم، وقد قتل من الأشراف العلويين خلق لا يحصيه إلا الله، وارتكبت الفواحش مع نسائهم، فقال بعد أن قتل الدوادار ومن كان على رأيه فلا مبالاة بذلك».

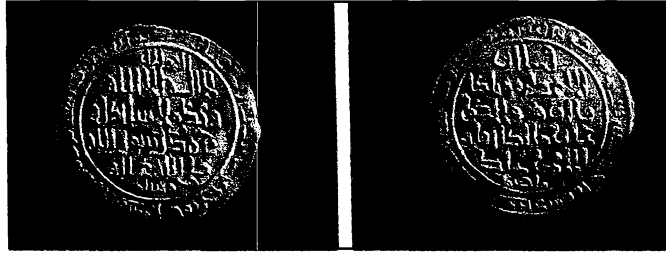


وبقى بعد أن كانت له تلك الرتبة الرفيعة يركب أكديشا من أكاديش المغول فصاحت به امرأة: أهكذا ياابن العلقمى كنت تركب فى أيام أمير المؤمنين ؟ فوقعت كلمتها فى قلبه وانقطع إلى داره فمات كمداً ودفن فى مشهد الإمام موسى بن جعفرالكاظم بالكاظمية فى بغداد.

وفى يوم وفاته أمر هولاكو أن تكون وزارة بغداد لابنه عز الدين أبى الفضل الذى لم يكن أحسن حالا من أبيه فى سوء معاملة المغول له، إذ لما تولى الوزارة وكان على القاعدة التى كانت فى زمن الخليفة فى الملبوس والمركوب دخل الديوان يوما فقيل لعلى بن بهادر رئيس شحنة بغداد إن فرس الوزير على الباب وفى حلقها مشدة وعليها كنبوش إبريسم، فقام ومضى وشاهدها فعجب من ذلك، فقيل له هكذا كانت قواعد الوزراء والعظماء فى زمن الخلفاء، فبال قائما على المشدة وأمر بإخراج الفرس من الدركاه (الممر)، وعاد، هو مغتاظ منكر لهذه الحال، فقد كان يرى أن هذا الوزير الجديد لا يستحق - من وجهة نظره- أى تقدير أو احترام.

هولاكو والمسلمون:

اعتنق هولاكو مثل أخيه الكبير الخاقان الأعظم قوبيلاى قاآن البوذية وعندما استقر فى إقليم أذربيجان (شمالى غربى إيران) واتخذ من مدينة مراغة عاصمة لدولته هناك، فبنى فى مدينة (خوى) عدة معابد ضخمة للبوذية، ويبدو أن ذلك كان استجابة لمطالب البوذيين فى جيشه من المغول والصينيين والأويغور وغيرهم.



عُملة هولاكو - ضرب بغداد سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م

وعلى هذا فمن الخطأ القول بأن هولاكو كان شامانيا مثل جده جنكيزخان لأن الشامانية التى درج عليها المغول الأقدمون لم تعد قادرة بما تحتويه من أفكار ساذجة وعشوائية على الصمود فى وجه الديانات الأخرى المنظمة التى اتصل دعاتها بالمغول وعلى رأسها المسيحية والإسلام.

وأما علاقته بالمسيحية فلم تتجاوز حد إظهار التعاطف والمودة إرضاءً لزوجته الأثيرة لديه دوقوز خاتون، وحرصا على عدم الإخلال بالمعاهدة التى عقدها هيتون الأول ملك أرمينية الصغرى مع الخان الأعظم منكو كما سبق القول، ويبدو أن تعاليم المسيحية بما فيها من تسامح مفرط لم تتوافق مع كثير من الطباع الخشنة لدى المغول.



وقد تناقلت بعض المصادر الإسلامية عن بعضها خبرا مؤداه «أن هولاكو قد أسلم قبل وفاته بشهرين بتأثير من رجال الطريقة الأحمدية الرفاعية التى كانت من أشهر الطرق الصوفية آنذاك، وكان رجال منها قد دخلوا النار بين يدى هولاكو وآخذوا معهم أحد أبنائه وخرجوا به ثانية دون أذى، ثم شربوا أمام هولاكو السموم القاتلة وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة فخاف منهم هولاكو وأعلن إسلامه.

وإسلام هولاكو قبل شهرين من وفاته - إن صح ذلك - لا يبدو أمرا ذا أهمية وبخاصة أنه كان يعانى من علة الصرع التى كانت تنتابه فى الفترة الأخير من حياته مرة أو مرتين فى اليوم الواحد حتى وفاه أجله فى التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٥٦هـ / ١٢٦٥م بالقرب من مدينة مراغة.

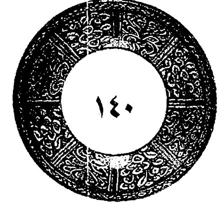
ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن إسلام هولاكو لم يكن أكثر من إشاعة أريد بها إظهار مدى تأثير المستشار الشيعى نصير الدين الطوسى عليه، أو أنها مجرد محاولة للتخفيف من آثار الجرائم والفظائع التى ارتكبها المغول فى بلاد المسلمين.

وعلى وجه العموم فإن علاقة هولاكو بالمسلمين سواء أكانوا من الشيعة أو السنة كانت ترتبط بما يسعى هو إليه من مصالح سياسية أو عسكرية، وهو بذلك لم يخرج عن السياسة العامة التى اتبعها المغول منذ جنكيزخان فى إدارة الصراع مع خصومهم وذلك بالعمل على تفتيت قوى هؤلاء الخصوم بإثارة الأقليات أو بعض الشخصيات المهمة من أصحاب المصالح أو المطامع الخاصة، وفى ذلك صيانة للجيش المغولى من أن تستهلك طاقاته أو أدواته فى معارك يمكن تحقيق نتائجها بالوسائل السياسية دون تضحيات أو خسائر جسيمة.

ولقد كانت هناك فرق مسلمة سنية من بعض المدن الإيرانية ومنها هرات وكرمان ويزد وشيراز تقاتل إلى جانب المغول ضد الشيعة الإسماعيلية، ولم يكن الدافع السياسى وحده هو الذى يحرك هذه الفرق المتعاونة مع المغول إذ كان هناك ثمة اعتقاد بأن هذا العمل إنما هو من قبيل الجهاد ضد الملاحدة الذين يبطلون الشرائع ويعطلون الشعائر.

ولما سقطت قلاع الإسماعيلية فى إيران واستقر هولاكو فى همذان وبدأ فى الإعداد لمهاجمة بغداد كان معاونوه هذه المرة من الشيعة الإثنى عشرية وعلى رأسهم نصير الدين الطوسى، وابن العلقمى الوزير، وابن عمران، والعالم الفقيه ابن طاووس وغيرهم، ورحب الشيعة فى الحلة والكوفة والنجف بالمغول نكاية فى أهل السنة وخوفا من أذى المغول أيضا.

وعقب سقوط بغداد وانتهاء عمليات السلب والنهب وخضوع العراق كله لسيطرة هولاكو الذى أصبح راعيا ولم يعد خصما معاديا يبغى السيطرة فحسب ظهرت جوانب أخرى فى شخصيته فأمر بإعادة تعمير ما خربه الهجوم دون تميز فتم إصلاح مسجد الخليفة وهو من مساجد أهل السنة



الكبيرة فى بغداد، كما تم إصلاح مشهد الإمام موسى الكاظم وهو من أهم مشاهد الشيعة الإثنى عشرية فى بغداد الغربية.

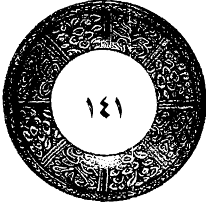
وهولاكو وإن كان قد عمد إلى قتل الخليفة السنى المستعصم بالله متجاهلا رأى منجمه حسام الدين المتعاطف مع الخليفة وآخذاً بمشورة مستشاره الشيعى نصير الدين الطوسى إلا أنه أدرك خطورة تعيين خليفة شيعى ليكون إماما لغالبية من المسلمين متمسكين بمذهب أهل السنة معتقدين أن إمامهم قُتِل مظلوما بمعاضدة من خصومهم الشيعة فرأى أن يريح نفسه من فتن قد تفتح عليه كثيرا من أبواب الشر، ولعله نظر إلى أن الشيعة قد أدوا دورهم الذى انتهى بعد مساعدتهم له إبان الغزو وأن عددهم بالقياس إلى أهل السنة يجعل اختيار خليفة منهم عملا لا ينسجم مع طبيعة الأمور وبخاصة أن المغول كانوا قد أخذوا فى الإعداد للخطوة الأخيرة فى خطتهم وهى مهاجمة الشام ومصر.

وبوفاة الوزير الشيعى عز الدين بن مؤيد الدين العلقمى الذى خلف أباه فى منصب الوزارة سنة ٦٥٦هـ تحولت الإدارة فى العراق إلى عطا ملك الجوينى المؤرخ المشهور فى أواخر سنة ٦٥٧هـ وهو حنفى المذهب متبحر فى الفقه ومن ثم استؤنفت الدراسة فى المدارس السنية النظامية والمستنصرية وغيرهما، بل واظب عطا ملك الجوينى على حضور بعض الدروس بنفسه ومن ذلك درس الشيخ جلال الدين عبد الجبار بن عكبر الحنبلى المدرس بالمستنصرية وكان يصحبه فى ذلك العلماء والأعيان.

ولعل ذلك كان أحد الأسباب التى دعت بعض العلويين إلى مشاركة شحنة بغداد على بهادر فى السعاية ضد الجوينى عند هولاكو فى سنة ٦٦١هـ لكن مساندة شمس الدين الجوينى وزير هولاكو لأخيه عطا ملك الجوينى أفسدت السعاية وانتهى الأمر إلى قتل الوشاة خارج بغداد بأمر من هولاكو.

ومن المثير للدهشة حقا أن مراكز الشيعة الإثنى عشرية فى طوس وآوه وقم وقاشان لم تحرك ساكنا طوال فترة وجود هولاكو فى إيران وهى الفترة التى تم فيها تحطيم قلاع الإسماعيلية فى قوهستان وآلموت وإسقاط بغداد أى على مقربة جغرافية من هذه المراكز مما يدفع إلى القول بأن هذا الصمت إنما كان تنفيذا للإطار العام الذى التزمت به الشيعة فى التعامل مع المغول أى المهادنة وتقديم العون، ولعل هذا يفسر السبب فى أن المغول بقيادة هولاكو لم يقربوا واحدا من هذه المراكز، وما تم من نقل الإدارة المغولية من طوس فى خراسان إلى مراغة فى أذربيجان لم يخرج عن كونه إجراء إداريا فحسب.

ولعله من المفيد أن نورد رأى مؤرخ شيعى عراقى محدث عن أثر الغزو المغولى بقيادة هولاكو على مكانة الشيعة فى العراق.. يقول: «استعاد العلويون كثيراً من نفوذهم واحترامهم فى



العراق بعد الاحتلال المغولى بفترة قصيرة، وظلوا ينتظمون فى نقابات منتشرة فى مدن العراق المهمة يرأسهم نقيب العلويين فى بغداد الذى لم يعد مع ذلك يعتبر أحد كبار موظفى الدولة كما كان عليه الحال فى الدولة العباسية».

أيا كان الأمر فقد لقى هولاكو حتفه مخلفا وراءه من التخريب والدماء والبؤس مالا يوصف، ومن ثم كان طبيعيا أن تحاط مملكته بكل ألوان العداء، ففى داخلها كان غالبية المسلمين يكرهون المغول عـامة، وهولاكو بصفه خاصة أشد الكراهية، وفى الشمـال لقى جيش هولاكو هزيمـة منكرة عند نهر ترك Teerk فى ربيع الآول سنة ٦٦١ هـ أمام جيش بركة خان زعيم مغول القبجاق المسلم والذى أبدى غضبه وسخطه لما فعله هولاكو بالمسلمين والخليفـة العباسى فى بغداد، وفى الشـرق كانت العلاقات بين هولاكـو وأبناء عمه جغـتاى الذين يحكمون تركستان وبلاد ما وراء النهر شديدة التوتر نتـيجة لتأييدهم لأريق بوقا ضد قوبيلاى الذى يؤيده هولاكـو فى الصراع على عـرش الخان الأعظم الذى خـلا بعد وفاة أخـيهم منكوخـان سنة ٦٥٧هـ.

وفى الغرب كانت هناك قوة المصريين الفتية التى تمكنت بقيادة سلطانها سيف الدين قطز من إلحاق هزيمة مـدوية بجيش هولاكو وأتباعه بقيـادة كيتوبوقا النسطورى أكبـر قواده آنذاك عند عين جالوت، فى يوم الجـمعـة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ / سـبتمـبر سنة ١٢٦٠م، ثم أخـذ سلطانها الطموح بيبـرس يضيق الخناق على الصليبيـين فى الشام، ويهدد المغول على حـدود نهر الفرات، وكان قد نجح أيضا فى إقـامة تحالف قوى مع بركة خان فأحيط بملك هولاكـو من الشمال والغرب والشرق فى آن واحد، بعد أن استعاد المسلمون ثقـتهم فى أنفسهم من جديد، وتهيأوا لدور جديد من النضال ضد أعدائهم من المغول والصليبيين.

الخاتمة

استغرقنا من خلال الصفحات القليلة السابقة عدة قضايا مهمة يتصل بعضها بالمغول وحدهم ويتصل بعضها الآخر بعلاقاتهم مع المسلمين.

ومن هذه القضايا:

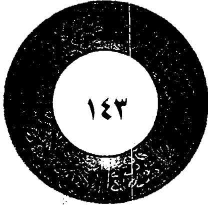
- أن هناك فرقا واضحا بين المغول والتتار رغم انتمائهما إلى عنصر واحد هو العنصر المغولى أو السلالة الصفراء التى تنتشر فى جنوبى شرقى أسيا

- أن المغول ليسوا من الأتراك رغم وجود بعض التشابه بين الطرفين تمثل فى بعض مفردات اللغة (اللهجة) وبعض العادات والتقاليد البدوية، وبعض المعتقدات الوثنية فى بادئ الأمر، وقد نجم الخلط بين المغول والأتراك عن التجاور المكانى للموطن الأصلى لكلا الطرفين، فتركستان أصل الأتراك تتصل مباشرة بالحدود الغربية لهضبة منغوليا الموطن الأصلى للمغول، وكذلك اشتغل كلٌّ من المغول والأتراك بحرفة واحدة هى الرعى، واقتضى ذلك دخول بعض القبائل التركية إلى هضبة منغوليا ثم الخروج منها سعيا وراء الماء والكلأ.

- أن المجتمع المغولى - شأن غيره من المجتمعات - له نظمه المتعددة: الاجتماعية، الدينية، الاقتصادية، السياسية التى كانت تحكمها تعاليم الياسا «قانون المغول الشهير» من جهة، وتؤثر فيها العادات والتقاليد والأعراف التى توارثها المغول جيلاً بعد جيل من جهة أخرى.

- أن الإسلام قد نجح - من خلال براعة دعاته وبساطة تعاليمه- فى اجتذاب هؤلاء المغول القساة العتاة إلى حوزته وخصوصا بعد أن استقروا بين الأهالى فى البلاد المفتوحة، فأكد بذلك على أنه دين قادر على إقناع الخصوم بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة لا بحد السيف والعنف كما يدّعى بعض المستشرقين.

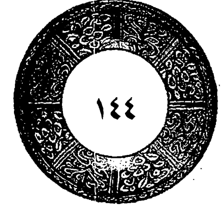
- أن الغزو المغولى المدمر الذى اجتاح الصين وشرقى أوروبا وبلاد المسلمين فى أواسط آسيا وغربيها، لم يكن دافعه الأول هو الدين، إذ لم يكن للمغول دين واضح الملامح فتناوبت عليهم عقائد الشامانية ثم البوذية ثم المسيحية ثم الإسلام كذلك كانت الشعوب



التى خضعت لهم تعتنق أديانا متعددة سواء فى الشرق أو الغرب، ومن ثمة يمكن القول أن الدافع القوى وراء هذا الغزو المغولى إنما يكمن فى الرغبة الجامحة فى انتزاع الثروات الضخمة لدى الشعوب المتحضرة المجاورة، ومد النفوذ السياسى والعسكرى إلى أكبر درجة ممكنة.

- أن الهزائم العسكرية المتلاحقة التى مُنِى بها المسلمون على أيدى المغول لا ترجع إلى التفوق العسكرى والإدارى عند المغول بقدر ما ترجع إلى ضعف بعض حكام المسلمين وتخاذلهم وأنانيتهم المفرطة، وعلى رأس هؤلاء يأتى سلطان الدولة الخوارزمية، والخليفة العباسى وبعض الحكام المحليين فى آلموت وأذربيجان وفارس وآسيا الصغرى.
- أن الصراع المذهبى المرير بين الشيعة والسنة كان أحد العوامل الخطيرة التى أسهمت بصورة مباشرة فى إضعاف وحدة المسلمين وإجهاض وحدتهم وتشتيت أذهانهم، فتمكن عدوهم المتربص من الإجهاز عليهم تباعا من أيسر طريق.
- أن بعض الشخصيات العامة وحرصا على مصالح خاصة أو منافع ضيقة لعبت دوراً خطيراً سهّل على هولاكو وأعوانه ابتلاع بلاد المسلمين، وعلى رأسها بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ومن هؤلاء نصير الدين الطوسى مستشار هولاكو، وابن العلقمى الوزير، وابن طاووس النقيب، وابن صلايا حاكم أربل، وكلهم من الشيعة الإثنى عشرية.

وعلى وجه العموم، فلا يزال المجال مفتوحًا لعرض تاريخ المغول بعد سقوط بغداد وبيان علاقتهم بدولة المماليك فى مصر والشام، والصليبيين فى الشام وأرمينية وغربى أوروبا، ومدى تأثر المسلمين بذلك كله فى المجالات المختلفة.





أولا: المخطوطات

ابن حماد الموصلي: محمد بن بكر بن على (ت/ ٧٥٠هـ)

١- روضة الأعيان فى أخبار مشاهير الزمان، مخطوط رقم (٢٦٦) بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة.

الهمذانى: رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة (ت/ ٧١٨ هـ)

٢- تاريخ جنكيزخان: مخطوط رقم (١٠٧) بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

ابن الطقطقى: محمد بن على بن طباطبا (ت/ ٧٠٩هـ)

٣- الأصيلى فى الأنساب، مخطوط رقم (٤٢) بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة.

ثانيا: المصادر العربية:

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم (ت/ ٦٣٠هـ)

٤- الكامل فى التاريخ، نشر دار صادر بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩.

ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت/ ٨٧٤هـ)

٥- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

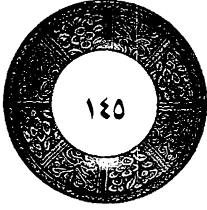
ابن خلدون: ولى الدين عبد الرحمن بن محمد (ت/ ٨٠٨هـ)

٦- العبر وديوان المبتدأ والخبر، نشر مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.

الداواداري: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت / ٧٣٦هـ)

٧- كنز الدرر وجامع الغرر، نشر قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألمانى للآثار، القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

الديار بكرى: حسين بن محمد(ت/ ٩٩٠هـ)



٨- تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهابية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٢٨٣هـ/ ١٩٧٠م.

الصفدى: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت/ ٧٦٤هـ)

٩- الوافى بالوفيات، نشر فرانز شتاينر، بفيسبادن، ألمانيا، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

ابن العبرى: غريغريوس أبو الفرج بن أهرون (ت/ ٦٥٨هـ)

١٠- تاريخ الزمان، منشورات دار الشروق، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م

ابن الفوطى: كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق بن تاج الدين (ت/ ٧٢٣هـ)

١١- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، نشر مطبعة الفرات، بغداد، الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن نور الدين (ت/ ٧٣٢هـ)

١٢- تقويم البلدان، نشر دار صادر، بيروت، نسخة مصورة عن نسخة قديمة (بدن تاريخ).

القرمانى: أبو العباس أحمد بن يوسف

١٣- أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ، نشر دار عالم الكتب بيروت، (بدون تاريخ)

ابن قزاوغلى: شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت/ ٦٥٤هـ)

١٤- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، نشر مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الهند، حيدر أباد الدكن، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م

ثالثا: المراجع العربية:

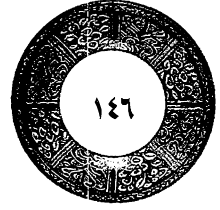
جمال الدين: محمد السعيد (دكتور)

١٥- دولة الإسماعيلية فى إيران، نشر مؤسسة سجل العرب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.

حمدى: حافظ أحمد

١٦- الدولة الخوارزمية و المغول، نشر دار الفكر العربى، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م.

خصباك: جعفر حسين (دكتور)



١٧- العراق فى عهد المغول الإيلخانيين، نشر مطبعة العانى، بغداد، الطبعة الأولى١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م

الساعدى: محمد الشيخ حسن

١٨- مؤيد الدين بن العلقمى وأسرار سقوط الدولة العباسية،نشر مطبعة النعمان، النجف،العراق، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.

سليم: صبرى عبد اللطيف (دكتور)

١٩- الأتراك الخوارزميون فى الشرق الأدنى الإسلامى[٦٢٨ : ٦٤٤] هـ، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الاولى،١٤١٩هـ/ ٢٠٠٠م.

الصياد: فؤاد عبد المعطى (دكتور)

٢٠- الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان)، منشورات مركز الوثائق الدراسات الإنسانية (قطر)، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٥م.

٢١- المغول فى التاريخ، نشر مكتبة الشريف و سعيد رأفت للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة.

رابعا: المصادر الفارسية

اشتيانى: عباس إقبال

٢٢- تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، نقله عن العربية الدكتور محمد علاء الدين منصور، نشر دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٢٣- تاريخ مفصل إيران از استيلاى مغول تا اعلان مشروطيت جلد أول، از حملة جنكيزخان تا تشكيل دولة تيمورى، طهران١٣١٢هـ.ش.

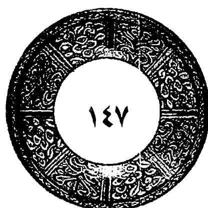
آيتى:- عبد المحمد

٢٤- تحرير تاريخ وصاف، انتشارات بيناد فرهنك إيران، طهران١٣٤٦هـ ش

البناكتى: فخر الدين أبو سليمان داوود (ت/ ٧٣٠هـ)

٢٥- روضة أولى الألباب فى معرفة التواريخ والأنساب،باهتمام دكتر جعفر شعار،سلسلة انتشارات آثار ملى (٦٦) تهران ١٣٤٨هـ.ش.

الجوينى: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد (ت/ ٦٨١هـ)



٢٦- تاريخ جهانكشاى، نقله إلى العربية الدكتور محمد التونجى، نشر دار الملاح للطباعة والنشر، حلب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

خواندمير: غياث الدين محمد بن همام (ت/ ٩٤٢هـ)

٢٧- حبيب السير فى أخبار أفراد البشر، جلد سوم، از انتشارات كتابخانده خيام ١٣٣٣هـ. ش.

دائرة المعارف بزرك إسلامى

٢٨- مركز دائرة المعارف بزرك إسلامى سا زمانى علمى، تحقيقاتى است كه به منظورتدوين: دائرة المعارف اسلامى عمومى وتخصصى در اسفند در تهران، ١٣٦٢هـ

القزوينى: حمد الله بن أبى بكر أحمد المستوفى

٢٩- تاريخ كزيده، باهتمام المستشرق إدوارد براون، لندن، ١٢٣٨هـ/ ١٩١٠م.

ميرخواند: محمد بن سيد بن هارون الدين (ت/ ٩٠٣هـ)

٣٠- روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفا، جلد بنجم، از انتشارات، كتابفرو شيهاى، مركز خيام بيروز، تهران ١٣٣٩هـ. ش.

الهمذانى: رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة (ت/ ٧١٨هـ).

٣١- جامع التواريخ، عدة مجلدات، اشترك فى ترجمته الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، الدكتور محمد موسى هنداوى، الاستاذ محمد صادق نشأت، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

خامسا: المراجع الأجنبية

أرنولد: توماس

٣٢- الدعوة إلى الإسلام، نقله إلى العربية الدكتور/ حسن إبراهيم حسن، والأستاذ عبد المجيد عابدين، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٧هـ=١٩٤٧م.

بارتولد: فاسيلى فلاديمير وفتش (دكتور)

٣٣- تاريخ الترك فى آسيا الوسطى: نقله عن التركية الدكتور/ أحمد السعيد سليمان، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ=١٩٥٨م.

٣٤- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى: نقله عن الروسية الأستاذ/ صلاح الدين عثمان هاشم، نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون الآداب، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ=١٩٨١م.

براون: إدوارد جرانفيل



٣٥- تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى: نقله إلى العربية الدكتور/ أمين الشواربى، نشر مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ=١٩٥٤م.

بروكلمان: كارل

٣٦- تاريخ الشعوب الإسلامية: نقله عن الألمانية الأستاذان/ نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكى، نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م.

شبولر: برتولد

٣٧- العالم الإسلامى فى العصر المغولى: نقله إلى العربية الأستاذ/ خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم له: الدكتور/ سهيل زكار، نشر: دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م.

فامبرى: أرمينوس

٣٨- تاريخ بخارى: نقله إلى العربية الدكتور/ أحمد محمود الساداتى، نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م.

لامب: هارولد

٣٩- جنكيزخان إمبراطور الناس كلهم: نقله عن الإنجليزية الأستاذ/ بهاء الدين فوزى، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ=١٩٥٦م.

لسترنج: كى

٤٠- بلدان الخلافة الشرقية: نقله عن الإنجليزية الأستاذ/ بشير يوسف فرنسيس، نشر المطبعة العربية، بغداد، ١٣٥٥هـ=١٩٣٦م.

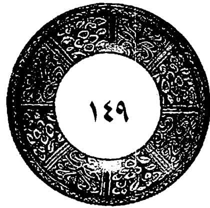
لويس: برنارد: (دكتور).

٤١- الحشاشون: نقله إلى العربية الأستاذ/ محمد العزب موسى، نشر دار الطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ=١٩٨٦م.

Bolye:j.A

42- History of iran ,vol 5. the Salij and mongol periods , At the university.

D'ohsson: M Le Baron.



43- Histoire des mongols of depuis tchin guiz Khan jusque aTimour Bey ou temerian Paris 1824

Howarth: Sir Henry

44- History of the mongol, 1876

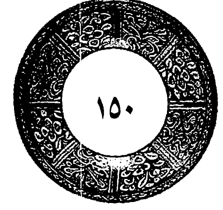
Prawdin:- Michael.

45- the momgel of Empire, its rise and legacy, the free, New york

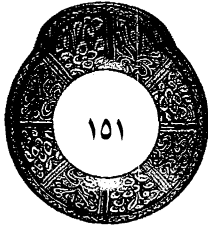
schnieder: Bret,E

46- Mediaeval researches, Form Eastern Asiatic sources st. peters burg- London 1887.

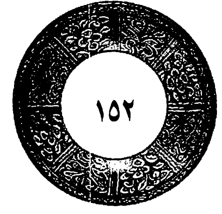
Skrine: Francis Henry & Rose: Edward Denison 316. the Heart of Asia, London,1899


١٥٠


المحتويات



الفصل الثانى
المقاومة الإسلامية



Abstract

This work is a study of the major features of the Mongol community at the time of Jenghiz Khan and his immediate successors, with particular reference to the Mongol code of laws known as the "yassa".

The relation between the Mongols on one side and the Tartars, and Turks on the other side are adequately investigated. Special stress is laid on the aggression of the Mongols on the Islamic world, culminating in the disastrous fall of Baghdad in the hands of Hulagu, and his barbaric hordes (606 H-1258A.D.).

More light is also cast upon the relations between the Mongols and the Christian communities in the Middle East; involving the Nestorians, the Armenians, and other sects.

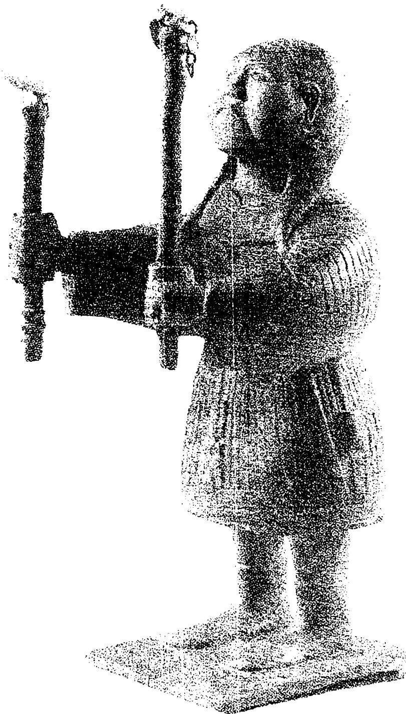
The attitudes of the leaders of the Shiite Twelfth, such as Nasr El-Din El-Tusy, Ibn El-Alqami, Ibn Salayia, and Ibn Tawus, towards the Mongols is also underlined.

Dr. Sabri Abdel Latif

(10)

The Mongols and the Islamic World

Dr. Sabri Abdel Latif



Encyclopaedia Introductory to the Islamic History

Islamic Ages extend from the birth of the Prophet " Peace be upon him" in the year 571 A.D., until the Ottoman conquest to Egypt in 1517 A.D.

This period covers the various epochs starting from the age of the Prophet himself, and passing through the age of the Rightly Guided Caliphs, Ummayid and Abbasid Caliphates, and the small independent dynasties here and there.

During that period, the Muslims contributed a lot to the Europeans in the diverse branches of knowledge, and thus Medieval Europe managed to step forward from barbarism, and feudalism into a new dawn of history.

Dr. Essam El -dine Abdel Raouf

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

P. Said Abd El-Fattah Ashour	Professor of Medieval History - Faculty of Arts - Cairo University. Chairman of the Arab Historians Union.	**Chairman**
P. Adel Hassan Ghoneim	Professor of Modern History - Faculty of Arts - Ain - Shams University.	**General Coordinator**
P. Abd El-Halim Nur Eldin	Professor of Ancient Egyptian Language - Facuty of Archaeology - Dean of the Faculty of Archaeology, Fayyoum Branch, Cairo University. Director of the Centre of Calligraphy, Bibliotheca Alexandria.	**Rapporteur of Ancient History Series**
P. Ishak Ebeid	Professor of Medieval Hisrory - Faculty of Arts - Ain - Shams University	**Rapporteur of Medieval History Series**
P. Essam El-din Abd El-Raouf	Professor of Islamic History - Faculty of Arts - Cairo University.	**Rapporteur of Islamic History Series**
P. Gamal Zakariya Kassem	Professor of Modern Hstory - Faculty of Arts - Ain - Shams University.	**Member**
P. Attiya Al-Qoussy	Professor of Islamic History - Faculty of Arts - Cairo University.	**Member**
P. Saber Diab	Professor of Islamic History - Dar El-Ulum Faculty, Fayyoum Branch, Cairo University.	**Member**
P. Raafat Abd El-Hamid	Dean of the Faculty of Arts (Formerly) - Ain - Shams University & Professor of Medieval Hisrory.	**Member**

Editing Directosrs: Chemist/ Amin Mohamed Al-Khodary
Engineer/ Atef Mohamed Al-Khodary

Committee Secretary: Abd El Halim Ibrahim Abd El-Halim

Designed by : Mohy El-Din Fathy El-Shaloudy

Correspondence & Communications:

Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 22752984 Fax: 22752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

CONTENTS

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

Islamic History

Volume (2)

Historical Development of the Islamic State

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Nasr City - Cairo
tel . 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com